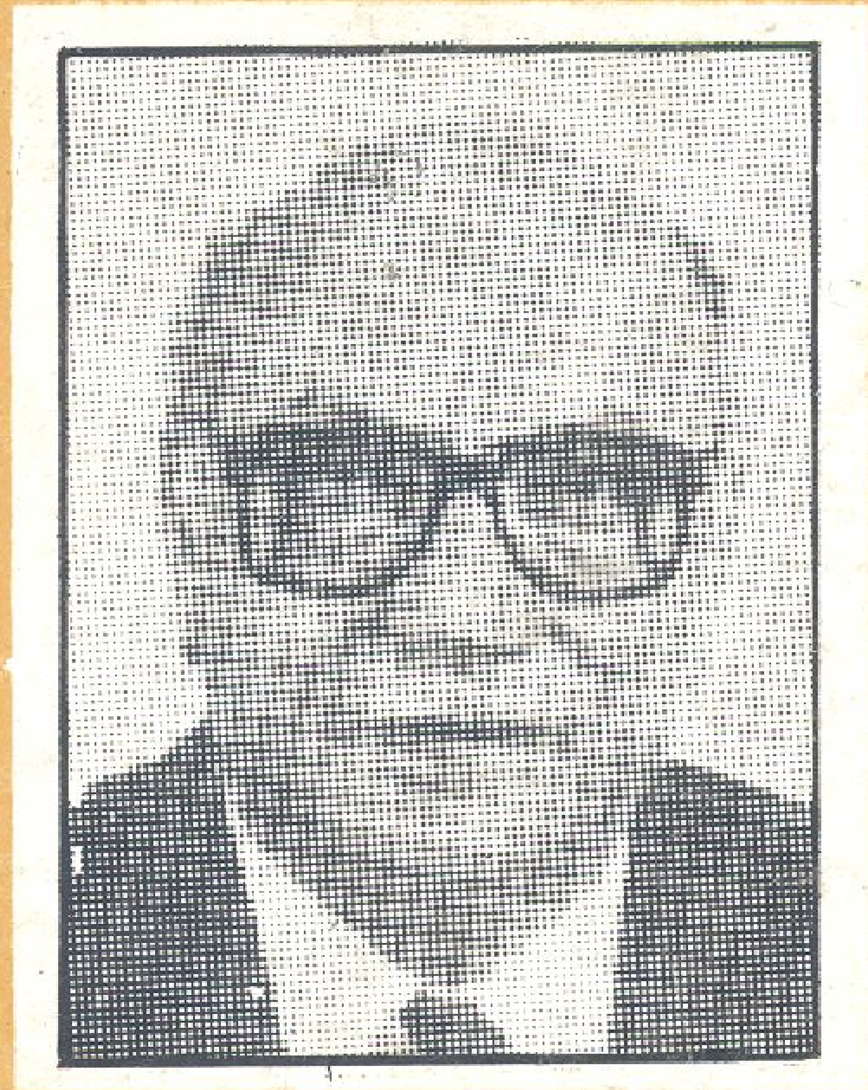
أبو المعاطى أبو النجا

الأعمال الكاملة
المجلد الثالث
فى الرواية



١ العودة إلى المنفى

٢ ضد مجهول





الهيئة المصرية
العامة للكتاب

الأعمال الكاملة

أبو المعاطى أبو النجا

المجلد الثالث

- رواية العودة إلى المنفى
- رواية ضد مجهول



الهيئة المصرية العامة للكتاب
فرع الصحافة
١٩٩٧

العــودة الى المنفــى

الاهـــــداء

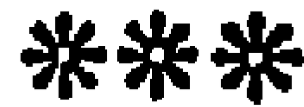
« الى شعب مصر العظيم ، اقدم واحدا من

ابنائه ، من اعظم أبنائه ، عبد الله نديم »

الجــزء الأول

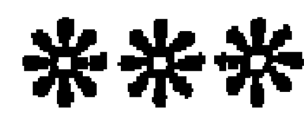
شـاهين باشـا كنـج

فى مدينة طنطا ، وفى سنة ١٨٧٧م ، كان يعيش رجل ذائع الصيت والسطوة اسمه شاهين باشا كنج ، وكان مفتشا عاما للوجه البحرى يمتد سلطانه على جميع المديرين فى الدلتا ، الذين تمتد سلطتهم على مأمورى المراكز فى أقاليمهم ، أولئك الذين يتغلغل نفوذهم الى جميع العمد والمشايخ القابضين على أزمة الامور فى كل القرى حيث يعيش ملايين الفلاحين من شعب مصر !!



ولكن هذا الرجل المتربع على قمة ذلك الهرم البشرى ـ الذى يبدو اقدم بكثير من أهرامات الجيزة الحجرية ـ والذى كان مجرد ذكر اسمه أمام أى شخص ممن يمثلون احدى درجات ذلك الهرم البشرى كافيا لأن يبعث فى أعصابه رعدة يحس بها من هم دونه فى درجات ذلك الهرم ، هذا الرجل كانت له مثل جميع الناس حياته الخاصة ، وهواياته التى تملأ هذه الحياة بالبهجة ، وأصدقاؤه

الخصوصيون والبارعون فى اشباع هذه الهوايات ، وقد كان يهوى الأدب ـ الذى انتهى فى هذا العصر الى أن يصـــبح مجرد ترديد لاشعار القدماء وطرائفهم وحكاياتهم وتقليد ذلك كله ـ ولا يكاد يتسلل الى حياته الخاصة ، خالعا مع ثيابه الرسمية الفاخرة كل مظاهر السلطة ويجلس مع أصدقائه حتى يرتد أنيسا رقيقا ظريفـا يضحك من قلبه مثل سائر خلق الله حتى لتدمع عيناه الواسعتان وتنتفخ أوداجه المحمرة فيمسح عينيه بمنديله الحريرى ، وينسى أحيانا فيمسح بنفس المنديل أنفه اذا ما احتاج الى ذلك !!



وفى واحدة من تلك اللحظات التى يرتد فيها الباشا الى نفسه، بين أصدقائه وفى قصره كان يتمايل وهو مضطجع على احدى الأرائك الوثيرة وهو يتابع صبيا مليحا كان يتغنى بهذه الأبيات :

سـلوه عن الارواح فهـى مـلاعبه
وكفـوا اذا سـل المهـند حاجبـه
وعـودوا اذا نامـت أراقـم شـعره
وولـوا اذا دبـت اليكـم عقـاربه
ولا تذكـروا الاشـباح بالله عنـده
فلـو أتلـف الارواح مـن ذا يطالبـه

وكأنما تذكر الباشا فجأة أن هذه ليست أول مرة يسمع فيها هذه الأبيات ، ويعجب بها فى نفس الوقت ، فمال على الشيخ أحمد الجندى الجالس بجواره والذى أحضر الغلام المليح ليغنى للباشا ، والمسئول بطبيعة الحال عن الغلام وشعره وصاحب الشعر ...

وسأله الباشا :

ـ لمن هذا الشعر الجميل ؟

وحكيت له قصة طويلة وغريبة عن رجل اسمه عبد الله نديم ، اشتركت الحاشية كلها فى روايتها ، واختلفت فصول القصة باختلاف الرواة ولكنهم اتفقوا على شىء واحد ـ هو ما اهتم له الباشا فى القصة كلها وهو أن الرجل ظريف جدا وأنه يمكن ـ لو أراد الباشا ـ أن يكون هنا خلال يومين على الأكثر فهو يقيم الآن بالمنصورة عند احد أصدقائه وتساءل الباشا في مرح :

ـ لم لا تأتون به ؟ ثم أضاف وقد استبد به السرور ٠

ـ فقط أريده حيا !

وكان له ما أراد ، ولم يستطع الباشا أن يخفى دهشته وهو يبصر عبد الله نديم لأول مرة ، فقد أبصر رجلا نحيلا له وجه يميل للسمرة ، جبهته أعرض مما ينبغى بالنسبة لوجهه الصغير المثلث ، وأنفه الدقيق وحاجباه طويلان كثيفان يظللان عينيه اللتين تتحرك أهدابها حركة نشيطة تنم عن آثار رمد قديم لم يشف تماما ولكن حركة الاهداب تبدو جزءا من هذه الحركة النشيطة العامة التى تشمل الجسد كله وكأن ثمــة شيئا يتحــرك تحت جلده أو تحت ثيابه وكانت « بدلته » البنية تحمل ليس فقط آثار سفر طويل بل آثار نوم طويل كذلك !

وقال الباشا وقد انتقلت دهشته الى صوته :

ـ أنت ٠٠٠ أنت عبد الله نديم صاحب الشعر الجميل الرقيق ؟

ـ نعم ، هكذا أجاب عبد الله نديم ثم تابع بعد لحظة صمت : ولست رقيقا أو جميلا !

قالها بمرح وفى بساطة من تعود مثل هذا الموقف ·

ـ ولكنك ظريف يا ملعون ظريف !

ـ نعم ظريف جدا !

وضج الجميع بالضحك ، وهكذا شاء نديم أن يرفع الكلفة بينه وبين الباشا فى نفس اللحظة التى فعل فيها ذلك حتى لا يكون هذا من حقه وحده ، ولم يخف مغزى هذا السلوك على الباشا كما لم تخف عليه فيما بعد نبرة الاعتداد بالنفس التى تفصح عنها كل تصرفات « نديم » ذلك الاعتداد الذى لا يبذل أقل جهد لاخفائه ، والذى لم يعتده الباشا فى تصرفات من حوله والذى أصبحت تضيق به حاشية الباشا نفسها قبل أن يعلن هو عن ضيقه به ، وفى براعة كان الباشا يحول ذلك الاعتداد ليبقى فى دائرة الحاشية بعيدا عنه ، وبنفس البراعة كان ينميه ليكون مصدرا دائما للمنازعات الأدبيـة بطبيعة الحال والتى تضفى على مجلس الباشا حرارة أكثر وسرورا أعمق ، وبلغت تلك المنازعات أقصى حدتها حين زعم نديم أن شعره لايقل عن شعر المتنبى نفسه فتحدته الحاشية أن يأتى بمثل بيت المتنبى :

***

ومـن نـكد الدنيا على الحـــــر أن يـرى

عـــــــــدوا لـه ما من صـــــداقته بـــد

فأخرج نديم ورقة وقلما وكتب أبياتا جاء فيهـا هذا البيت معارضا به بيت المتنبى :

ومن عجـب الايام شـــهم أخـــو حجـــا

يعـــــارضه غـــر ويفحمـــه وغـــــد

وكانت مواهب « نديم » التى لم يكن شعره سوى أقلها ، والتى لا تقاس اليها مواهب الحاشية مجتمعة جديرة بأن تغفر له - ادى الباشا على الأقل - اعتداده وغروره أيضا ولكنها لم تمنع الباشا الذى كان فى أعماقه كارها لهذا الاعتداد من أن ينتهز أية فرصة يمكن أن يداعب فيها كبرياء « نديم » !

***

وقد حانت الفرصة فى يوم من أيام المولد الأحمدى بطنطا ، وكان السيد على أبو النصر شاعر الخديوى اسماعيل ، وصديق الباشا يزور المدينة بمناسبة المولد وكان يجلس مع عبد الله نديم على مقهى « الصباغ » الشهير فى ذلك الوقت ، حين أخذ أحد « الادباتية » يطوف بزبائن المقهى ، لابسا طرطورا طويلا فوق رأسه ، صابغا وجهه بالالوان الفاقعة ، موقعا على طبلة صغيرة تحت ابطه ومرددا أزجاله فى مدح من يمر به من الزبائن ، وهى أزجال تختلف من زبون لآخر فتصف كل واحد بما يناسب شكله وثيابه ومكانته ، وكلها تصر على طلب الاحسان الذى يؤكد الادباتى للجميع أنه فى حاجة اليه بقدر ما هم فى غنى عنه .. ! وحين جاء دور « نديم » وقف أمامه الادباتى قائلا وهو يهز طرطوره مع ايقاع الطبلة وايقاع الزجل :

انعم بقرشك يا جندى
والا اكسنا امال يا افندى
الا انا وحياتك عندى
بقى لى شهرين طوال جوعان

وبدلا من أن يعطيه « نديم » قرشا أو قرشين كما فعل الجميع رد عليه قائلا :

أمـــــا الفـــلوس أنـــا مديشـــى

وانـت تقـــول لـــى ما أمشـيشى

يطـــــــلع على حشـــــــيشى

أقـــوم أملـــص لـــك لـــــودان

وعاد الادباتى يكرر الطلب ونديم يكرر الرفض ، واستمرت تلك المباراة الغريبة ساعة تحلق فيها الزبائن حول الرجلين وهما يرددان الأزجال من نفس الوزن والقافية ، حتى ضج المقهى بالتصفيق بعد ان غص بالزبائن ولم يكد السيد على أبو النصر الذى شاهد الواقعة ينقلها الى الباشا حتى ضرب على ركبتيه بيديه الممتلئتين ، وارتد الى الوراء مستغرقا فى الضحك وفى تلك اللحظة نفسها خطر له أن هذه هى الفرصة التى كان ينتظرها دون شك .. فماذا عليه لو أنه دعا أشهر الادباتية فى مدينة طنطا لمباراة نديم فى ارتجال الزجـل بفنونه المختلفة ، مباراة عامة فى ساحة قصره ، جمهورهـــا هـــو جمهور المولد الاحمدى .. وحين ادار الفكرة فى رأسه وهو يعتدل فى جلسته قرر أن يعطى الادباتية خمسة جنيهات اذا غلبوا « نديم » وان يضرب كلا منهم عشرين كرباجا اذا هزموا ، والمهزوم هو الذى تخذله بديهته فى انشاد الزجل فور انتهاء خصمه من دوره فى الانشاد ، وبهذه الطريقة لا يضمن فقط حماس المتبارين بل حماس الجمهور نفسه الذى سيجعل وجوده من هذه المباراة حكاية العام كله ، حكاية يعود بها الزائرون مع ما يحملونه من حلوى طنطا الشهيرة وبركاتها وذكرياتها ، وفكر للحظة أن « نديم » يمكن أن يعتذر ولكنه تيقن من أنه لن يفعل حيث ستمنعه كبرياؤه اللعينة ، وبهذه الطريقة تكون هذه الكبرياء هى التى عاقبت نفسها ، فهو ان غلب الادباتية فلا فخر له

فى ذلك ، وان غلبوه يكون الباشا قد القى عليه درسا لا ينساه فى الوقت الذى يكون فيه قد هيأ لنفسه ولأصدقائه متعة لاتنسى !!

***

وانتشر الخبر فى المدينة التى لم تكن وقتذاك كبيرة جدا ، والتى كانت قد بدأت تسمع بنديم ، وتستعيد حكايته مع الادباتى بمقهى الصباغ ، كان بعضهم يريد أن يشاهد « نديم » الذى سمع عنه ، بينما توقع الآخرون أن يظهر الشيخ داود زعيم الادباتية جميع ما عنده من مواهب ، طالما استمتعوا بها فى الافراح وليالى رمضان وعودة الحجاج ، وأيام المولد النبوى والاحمدى كذلك ...

***

ـ ولكنه فى مناسبة كهذه سيكتشف الناس إنه كان يخدعهم طول عمره ولم يظهر لهم الا بعض ماعنده !

هكذا كان يردد انصار الشيخ داود أما أعداؤه فكانوا يقولون :

ـ أنتم لاتعرفون « نديم » الشيطان نفسه لا يغلبه !

ـ ومن « نديم » هذا ؟

ـ أحد كلاب شاهين باشا كنج التى يتسلى بها وهى تتهارش فى حديقة قصره !

هكذا كان يهمس بعض الرجال الساخطين على الباشا وعلى كل ما يأتى به .

ـ وحتى لو كانت كلابا تتهارش أو تتصارع فالامر يستحق المشاهدة !!

على ان احتمال تنفيذ عقوبة الجلد وحدها قاد الى هناك أكبر عدد من الناس ٠٠ !

***

ونصب سرادق ضخم فخم ، ووقف خارج السرادق أضعاف من جلسوا فيه وعبثا حاول الجنود حفظ النظام فى البداية ، ولم يكن نديم مطمئنا ولا خائفا ، كان مكتئبا كآبة من يساق لشىء لايكرهه ولكن مجرد احساسه بأنه مساق وبأن ثمة جمهورا يتفرج وينتظر ٠٠ مجرد احساسه هذا كان يتركه فريسة لهذه الكآبة التى حرص على ألا تتسرب الى وجهه ، لقد جعل من أحد الادباتية منذ أيام أضحوكة الناس فى المقهى ، وكان الأمر هزلا كله ، ولم يكن يبالى به أو بغيره ، ولكنه الآن يحس أن الأمر مختلف وبأن شبح الباشا يقف وراء هذه اللعبة التى بدأت تفقد شكلها البرىء والمرح كلما أطال فيها التفكير ، واذا كان الأمر كذلك فان هذا وحده يكفى لكى يمزق هؤلاء الادباتية تمزيقا ، ولم ينقذه من خواطره الا صوت الباشا وهو يعلن من مجلسه بدء المباراة ٠٠ !

ودنت اللحظة الحاسمة وبدأ الشيخ داود الذى كان يرتدى فى هذا الحفل المهيب جبة وقفطانا ويتعمم بعمامة ضخمة تناسب جلال الموقف ، بدأ وسط ضجيج الحشد فلم يسمعه سوى من حوله ومنهم نديم نفسه :

***

اول كلامــــى حمــــد الله   ثم الصـــلاة على الهـادى
مــاذا تـريد يا عبـــد الله   قـدام أميرنـا واســـيادى

قال نديم وهو يبتلع ريقه الذى أحس به جافا فى بادىء الأمر :

انا أريد أحمـــد ربـــى   بعـد الصـلاة على المختـار
وان كنت تطمـــع فى أدبـى   أسمعك أحســـن الاشـعار

وحين رد الشيخ داود سمع نديم صوته هذه المرة بوضوح أشد .

دعنـــــا من الأدب المشـهور وأدخـــل بنـا باب الدعكـــه
تدخـل على أسـيادنا بسـرور وتغنم الخيـــر والبركــــــة

وفي هذه المرة سمع آخر رجل فى الخيمة صوت نديم وهو يلعلع :

هيا احتكـــم فى البحر وشوف فـــن النـــديم ولا فنـــــك
دلوقت تســـمع يا متحـــوف أحسن أدب وحيـــاة ذقنــــك

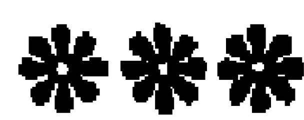
***

وسأل رجل كان يقف خارج الخيمة صديقه :

ـ أين نديم ؟

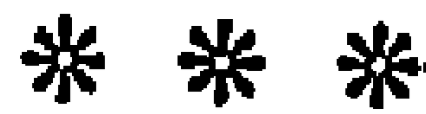
وخشى الصديق أن يرد فقد ساد الصمت حتى خارج الخيمة واكتفى بالاشارة الى نديم وهو واقف بين شاهين باشا وجعفر مظهر باشا ، لقد اظهرت فخامة ملابس الرجلين وضخامتهما رداءة سترة نديم وهزاله .. وبعد لحظات كان نديم وحده هو الذى هناك ، كما كان صوته الجهورى داخل الخيمة وخارجها ، وكف العساكر عن حفظ النظــام ، فى البداية كان ما يميز « نديم » هو صــوته فقد بدا صوت الشيخ داود الذى كان يعتقد أهل طنطا أنه أقـــوى الأصوات عاجزا عن ان يتجاوز حدود الخيمة .. وهـــكذا كسب نديم من أول جولة تصفيق الاعداد الكبيرة خارج الخيمة التى لـــم تكن تسمع سواه ، وبالنسبة لنديم كان الحشد كله قد بدأ يختفى . لم يكن يحس به الا حين ينتهى من الانشاد فيهدر بالتصـــفيق ..

كان ثمة رجل عجوز يناظره ويساعده آخرون وكانوا جميعا يلعبون بالكلمات ويحولونها الى نغم ، مجرد نغم ، لم يفكروا هم أنفسهم طويلا فيما يمكن أن يكون للكلمات من معنى ، ولم يكن ذلك الحشد الجاهل معظمه يهمه سوى ان يطرد النغم فيصفق .. كانت تلك اللعبة هي لعبة نديم القديمة المفضلة ، التى طالما بهر بها كل من عرفهم .. انه يستطيع أن يلعب بها كما يلعب الحاوى بأطواقه الثلاثة دون أن تسقط من يديه الاثنتين ، وحين بدا الشيخ داود ينسحب ليتابع المبارة زميل له أحس الجمهور كما أحس هو أنه أصبح سيد الموقف .. وبدأ يبصر الحشد الذى كان قد اختفى عن عينيه ، لم يعد يخافه ، كانت تلك أول مرة يلعب فيها لعبته أمام مثل هذا العدد ، ويكتشف فيها ان هذا الحشد يمكن ترويضه مثل غيره من الأشياء ، وأنه حين يروض يصبح أسلس قيادا وتصبح اللعبة أمامه اكثر روعة .. ! كانت الاصوات تتغير عدا صوت واحد عرفه الناس خارج الخيمة ، وداخل الخيمة ، عرفوه كما عرفوا صاحبه وتدفقت فى نديم حيوية غريبة لا تلائم مظهره النحيل ، ولأول مرة أحس انه لا يلعب بالكلمات وحدها ولا بالادباتية وحدهم بل بالحشد كله وبالباشا نفسه وبمن حوله من الاصدقاء وبدأت اللعبة تستهويه وتستثير غرائزه حتى بعد أن كف جميع الأدباتية عن الانشاد وتوقفوا استمر ينشد حتى قام الباشا وسط تصفيق الآلاف وأجلسه بجواره وقبله .. لحظتها فقط طلب كوبا من الماء ، وتذكر فجأة أباه وأمه وأولاده وأنه لم يرهم منذ وقت طويل !!



وفى نفس اليوم خرجت القصة من مدينة طنطا على لسان أحد المسافرين بعد أن انتهت زيارته للسيد أحمد البدوى .. لم ينتظر

حتى يعود لأهله ويحكى القصة . لقد بدأ الحكاية فى القطار ، وفى لحظات أصبح الفلاح الذى كان يروى القصة مركزا لدائرة صغيرة التهمت فى سرعة بالغــة كومة الحمص التى قدمها للدائرة التى اعتبرها بطريقة ما فى حكم الضيوف الواجب تحيتهم ، وضـــمن الدائرة كان ثمة رجل فى الخمسين من عمره يرتدى بذلة كفلت لــه احتراما ملحوظا وسط المسافرين وتطل عيناه الرماديتان خلف منظار انيق لامع وبيده منشة شعرها كان فى يوم يطرد الذباب عن خلفية حصان اشهب ٠٠ كان ذلك الافندى صامتا طول الوقت قد عزلتـه ملابسه الانيقة عن بقية المسافرين ، ولم يكد يسمع اسم عبد الله نديم على لسان الفلاح حتى خرج من عزلته وبلا شعور راح يشارك الدائرة الاستماع وأيضا أكل الحمص وراح يسأل الفلاح عن نديم هذا ٠٠ شكله ٠٠ هيئته ٠٠ ثيابه ٠٠ ولم يعد لديه شك فى أنه هو ، وحتى لو لم يذكر الفلاح اسمه لما كان يناسب هذه القصة بطل غيره ٠٠ !



وكان الفلاح لا يتذكر بطبيعة الحال بيتا واحدا من الزجل الذى سمعه واكتفى بوصف السرادق العظيم ، والكراسى المذهبة التى كان يجلس فوقها الباشا وضيوفه ، والعساكر الذين لم يمتنعوا عن ضرب الناس حتى فى يوم كهذا ، وأبدى أسفه لشىء واحد لا غير هو أن الباشا لم يجلد الأدباتية كما كان يقتضى الرهان بل أعطاهم خمسة جنيهات مع انه هو لم يذهب الا لهذا السبب ٠٠ ! وقال فلاح آخر كان يجلس بجواره ، وقد أذهله المبلغ :

ــ خمسة جنيهات لهؤلاء المتسولين !

ــ نعم بدلا من عشرين جلدة ! كان يستحقها كل منهم !!

وقال فــــلاح عجوز كان لا يزال يمص الحمص حتى يمكنه مضغه فى فمه الخالى من الاسنان :

ـ لو اعطوا الفلاحين نقودا بدل الجلد بهذه الطريقة لاصبحنا اصحاب الثروة فى البر كله ! وضحكت الدائرة !

* * *

وأحس الفلاح الذى كان يروى القصة بأهمية الحكاية التى يملكها ولم يسترح لأن الأفندى قد لاذ بالصمت بعد أن فرغ من أسئلته وقد توهم للحظة أن هذه القصة قد تكون سببا فى معرفته بواحد من الناس الكبار ولم يرد أن تضييع الفرصة نهائيا فسأله فى تردد :

ـ هل سعادتك تعرف عبد الله نديم هذا ؟

واكتفى الافندى بهز رأسه موافقا ! ولم ييأس الفلاح فعاد يسأله :

ـ يشرفنا أن نعرف اسم البك الكريم

ـ عبد العزيز حافظ

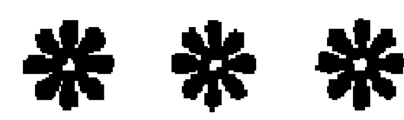
وبعدها لاذ الفلاح بالصمت !

فلم يحاول عبد العزيز حافظ بعدها أن يتكلم أو يسأله حتى عن اسمه وبقى هذا الفلاح بلا اسم ٠٠ !

* * *

عبد العزيز بك حافظ

وفى الواقع أن الفلاح لم يخسر شيئا لأنه لم يحظ بالتعرف على الأفندى الأنيق ، فلم يكن عبد العزيز حافظ أكثر من مفتش سـابق بقطارات السكة الحديدية ولم تكن تلك وظيفة هينة فى ذاك الوقت ، وكانت كافية لأن ينال صاحبها رتبة بك من أصدقائه ومعارفه حين يخاطبونه أو يحررون له الرسائل !



ولكنه ـ عبد العزيز حافظ ـ كان قد تركها ، ولم يبق له منها سوى تصريح سفر مجانى ينتقل به الى حيث يشاء ، وحين لم يكن هناك ما يفعله فانه يسافر ، وقد كفل له عمله السابق أصدقاء فى كل البلاد ، وكانت زيارة الاصدقاء فى بلادهم لاسبوع أو أكثر شيئـا مألوفا فى تلك الأيام ، حيث لم يكن الوقت وحده الشىء الوحيـد الرخيص الثمن ، ولم يكن عبد الله نديم بالنسبة له مجرد صديق عادى ـ مع كثرة أصدقائه ـ ولم تكن علاقته به تمتد لشهور أو سنين بل كان يعتبرها صداقة عمر ، مع أنه كان فى عنفوان شبابه وكان نديم

حين رآه أول مرة فى مطلع صباه ، وكانت تلك المناسبة كافية لأن تحمل « عبد العزيز حافظ » الى الوراء باحثا عن هذا اليوم الذى رأى فيه « نديم لأول مرة ، ولم يكن يعينه على ذلك سوى الصمت المطبق الذى لم ير فيه الفلاح المهزول سوى نوع من الكبرياء المرذولة التى أصبحت جزءا من شخصية الافندى فى ذلك الوقت ، حتى ولو لم يكن تركيا لعينا يتقد أنفه حمرة كعرف الديك .



كانت أمسية شتاء عام ١٨٥٩م ، وكان ليل الاسكندرية البارد هو الذى حمله على أن يستأذن صديقه ــ الشواربى بك ــ من أعيان الثغر فى العودة الى بيته فى وقت مبكر ، وقال الشواربى بك :

ــ ليس الليلة ، سيزورنا الشيخ محمد العشرى ومعه الصبى الذى سمعنا عنه !

وقال صديق آخر وهو لايزال مضطجعا بجسده البدين على احدى الحشايا المطرزة :

ــ جئت الليلة لأراه ، ثم أضاف موجها حديثه لعبد العزيز حافظ : ما الذى ستفعله فى البيت ؟ لماذا لاتدعهم يستريحون منك قليلا ؟

ــ كنت أفضل أن أريحكم ! قالها وهو يعاود الجلوس

قال صديق ثالث وهو يتجه الى « الشيشة » ليجدد نارها ودخانها :

ــ لقد رأيته فى منزل نظيم بك .. انه صبى أعجوبة ثم تابع

وقد عبرت ملامحه عن ضيقه ، ولكن المصيبة فى ثيابه انه قذر حقا ، ويجب أن يغسل هو وثيابه فى البحر قبل أن يجلس بيننا ·

تبسم الشواربى بك فى سماحة الرجل الكريم وقال : سمعت هذه الملحوظة وقد كلفت الشيخ العشرى أن يشترى له سترة جديدة !

ـ هل هو قريب الشيخ العشرى ؟

ـ لا ·· تلميذه ·· يتعلم فى مسجد ابراهيم باشا !

ـ من أبوه ؟

ـ يقال انه صاحب مخبز بحى المنشية اسمه مصباح أما الصبى فاسمه عبد الله !



« لا ينسى أبدا تلك الليلة ، لم يصدق حين رآه ، انه هو الصبى الذى يتحدث عنه الناس كأعجوبة ، ويتسابق أعيان الاسـكندرية فى دعوته الى بيوتهم ، كان فى الرابعة عشرة من عمره تقريبا ، أسمر البشرة ، مزيلا تحيط بجلد عنقه طبقة من الوسخ لم تخفها تلك السترة الجديدة التى يلبسها فوق جلبابه ، وكان يبذل جهدا ليتلاءم مع السترة التى لم تكن مناسبة له ، ومع دنيا الكبار التى فتحت له أبوابها ، ولكنه كان يفشل دائما فى أن يبقى دقائق دون أن ينظر أو يتحسس جزءا من ثيابه التى بدت غريبة عليه غرابة الاثاث الفاخر والناس الكبار الذين يتوددون اليه ويحادثونه ، وبين وقت وآخر تصدر عنه احدى الحركات الصبيانية كأن يمد يده فجأة ليهرش ظهره ، أو يغرق فى ضحكة يبدو جرسها الرفيع وسط ضحكات الكبار الرصينة ، أو ينسى رأسه فى وضع مائل حين تجتذبه احدى المصابيح المدلاة من سقف الحجرة وهى غارقة فى دوائر نحاسية دقيقة ترسم ظلالها المعقدة على الحشايا الممتدة ، وحين ينتبه أو ينبهه أستاذه

الشيخ العشرى فان وجهه الشاحب يغرق بالحمرة ، وينكسر جفناه ذواتا الاهداب الثقيلة المدببة فى نظرة خجولة لا تطول هى الأخرى كثيرا ، ولا تكاد الجماعة تجتذبه الى الحديث حتى يتخلص من خجله الطارىء وينسى كل ما حوله وينطلق فى جرأة غريبة يردد محفوظاته التى لا يدرى أحد متى ولا كيف حفظها ؟ ولم تكن ذاكرته الخارقة هى كل شىء ، فلا تكاد الجماعة تنساه بعض الوقت منصرفة الى أحاديثها حتى يفاجئهم الصبى الذى ظنوه غير قادر على متابعة اى حديث يفاجئهم بأبيات من محفوظاته كأنما قيلت لمثل هذه المناسبة أو بسؤال يعود بهم اليهم ، أو بنادرة تشى بذكائه وتحذرهم من العودة الى تجاهله ، وكانت جرأة الصبى هى التى لفتت عبد العزيز حافظ اليه اكثر من ذكائه وذاكرته ، ولقد ظل طويلا يعتقد أنها جرأة صبى لم يجرب ضراوة الحياة بعد ، صبى لم يفطن الى حقيقة الهوة التى يجتازها فى لمح البصر وهو معلق بذراع اســتاذه الشــيخ محمد العشرى ، صبى ربما كانت حداثته وحدها وقبل اى شىء هى التى تفتح له أبواب البيوت والقلوب ، وتدفع به بعيدا خارج دائرة الصراع الجهنمية التى تشمل بركتها جميع الدوائر حتى مجلس الأدب والأنس والفكاهة !

***

ـ ما رأيك ؟ كان الشواربى هو الذى يسأل عبد العزيز حافظ فى نهاية السهرة وبعد أن اصطحب الشيخ العشرى تلميذه وخرجا ليعيده الى بيته ٠

ـ غلام نادر الذكاء ٠ ولكن

ـ لكن ماذا

وقال عبد العزيز حافظ مفضلا أن يكتم ما عن له :

ـ ماذا يقول أبوه حين يعود له صبيه بثياب لم يشترهـــا له ؟

وضحك الشواربى بك ضحكة عظيمة

ـ ماذا تظنه يقول ؟ سيحمد الله طبعا !

وفي تلك الليلة ظل عبد العزيز حافظ يفكر لا فى موقف الأب بل فى موقف الصبى نفسه كيف يحس حين ينتزع من قصر الشواربى بك المفاخر ليتحسس طريقه بعد قليل فى حارات المنشـــية المظلمة الرطبة وحين يسلم جسده الى فراش ما كان يمكن أن يدرك مدى حقارته قبل أن يدخل هذا القصر ويرى ما فيه من حشايا وأرائك ومناضد ، وحين تمتد يده مع أيدى أسرة كاملة الى طبق واحد ، وقد كانت منذ قليل ترتعش بقدح الخشاف الرائع المذاق خشية أن يسقط منه قطرة واحدة على المفرش الحريرى المطرز ... ! ماذا يحس حين يتكرر ذلك ويتكرر ؟؟

***

ولم يبق لديه شك في أن مواهب الصبى لن تحمل له سوى الدمار ، ولم يتعجل نتائج شـكه ، ظل يتابع الصـــبى الذى أدرك بدوره أن اهتمام عبد العزيز حافظ بك يختلف به عن اهتمام الآخرين، وانه يحبه ذلك الحب الذى انتظره من أبيه دون جدوى لم يجد لدى أبيه سوى السخط وكان هو الذى قال ذلك لعبد العزيز حافظ :

ـ انه لا يحبنى مثلك ! كان الصبى يتكلم بنفس الجرأة .

ـ من ؟

ـ أبى .

ـ أنت مجنون ! ولم يبد على الصبى أيما ضـــيق قال فى بساطة !

ـ انها الحقيقة لقد طردني من البيت فجئت لك !

ـ ولماذا طردك ؟

ـ لأنني لم أعد أذهب الى مسجد الشيخ ابراهيم !

ـ ولماذا لا تذهب اليه ؟ ألا تريد أن تكمل دراستك

ـ لا أحب هذه الدراسة ! قالها في بساطة شديدة !

ـ الا تريد ان تصبح مثل أستاذك الشيخ العشرى ؟

ـ أستاذى هو الذى جعلنى أحب الأدب والشعر وليس فى مسجد الشيخ ابراهيم سوى النحو والصرف والفقـــه والتوحيد والمنطق ...

ـ هذه العلوم هي التى توفر لك فرصة العيش .

ـ لا أريد هذا العيش !

ـ ماذا تريد اذن ؟ من اين تأكل طعامك ؟

ـ أنا مستعد لأن أعمل أى شىء !

ـ أى شىء ؟ اذن اذهب الى المسجد وواصل دراستك !

ـ كنت أظنك تحبنى !

ـ يا عزيزى لا أحد يحبك مثل أبيك ومثلى ولكنك لا تريد ان تفهم !

ـ أفهم كل شىء ، الحياة التى تريدونها ، لا أحد يحبهـــا ، الشيخ العشرى نفسه ساخط عليها ، وكان سعيدا جدا وهو يجد كبار الناس فى الاسكندرية يسألون عنـه وعنى ، أســاتذتى الآخرون يحسدونه لأنه وحده يذهب معى الى كل مكان ، الشيخ جاد استاذ

المنطق طلب منى أن اكلم الشواربى بك ليوظف ابنه فى الميناء وتقول لى انت لا تريد أن تفهم !

وهكذا وبأسرع مما توقع تحققت كل مخاوفه ، ها هو الصبى يتعلق بالسماء قبل أن تنبت له ريشة واحدة فى جناحيه ، وليتركه يسقط مرة واحدة ليفيق الى الأبد من سخافاته ، وقال عبد العزيز حافظ لابيه حين زاره وظل خمس دقائق يحاول ان يوضح لـه ما لا يحتاج الى توضيح « وكان الأب خجولا خجلا ذكره بجرأة الصبى» قال عبد العزيز حافظ :

ــ لا تخف ! أين يمكن أن يذهب ؟ لابد أنه عند أحد أقاربه !

ــ سألتهم جميعا عنه ، سألت أعمامه بالشرقية ، قالوا لـم يحضر .

ــ انه مندفع ولكنه ليس غرا ، ومهما يكن المكان الذى ذهب اليه فسوف يعود لك وللمسجد ليتم دراسته

ــ ليته يعود فقط

ــ كل الاولاد يهربون مرة ومرتين ثم يعودون بعد أن يدركوا أن قسوة الابوين أرحم قسوة فى الدنيا كلها ، ألم تهرب مرة ياعم مصباح ؟

ــ لا

ــ أنا هربت مرة واحدة

... ولمثل الاسباب التى هرب من أجلها ولدك وبعدها عدت لابوى وهم الرجل الذى كان غبار الفرن ودقيقه يخلفان أثرهما على

لخيته بتقبيل يدى عبد العزيز حافظ ، كانه أعاد له ابنه فعلا ولكنه سحب يده وقال له وهو يودعه الى الباب ٠

ـ لا تقلق سيعود ابنك ٠٠

***

وفى تلك الليلة عاش عبد العزيز حافظ مع مغامرته الأولى والاخيرة حين هرب الى بلدة خالته ، كانت خالته التى لم ترزق بأطفال تحبه وتفرط فى تدليله ، وخيل اليه أنه فى بيتها يمكن أن يكون حرا تلك الحرية الجميلة التى يفعل فيها أى شىء ، أو على الأقل لايذهب فيها الى المدرسة التى لم يكن يحبها بقدر ما يحب كتب الشعر والزجل وقصص « أبو زيد » والزير سالم التى كان زوج خالته يملك منها الكثير ، وكان يحاول البحث عن أحد هذه الكتب فوق صوان الملابس حين كسر احدى الاوانى الزجاجية الثمينة ، يومها لم يضربه زوج خالته ولم يقل أية كلمة ، ولكنه ضرب خالته نفسها ضربا مبرحا ، وليلتها لم ينم عبد العزيز حافظ ، وعاد الى أبيه فى أول قطار ليأخذ العلقة الاولى والاخيرة ، ويودع الى الابد فكرة الحرية الجميلة التى تسمح له بأى شىء ، وانتهى حبه للأدب والشعر الى أن يصبح هواية يشبعها فى سهراته ورسائله لأصدقائه ، وبضع مؤلفات لم يجرؤ على أن يعرضها حتى على أصدقائه واستحال حلمه القديم بأن يصبح واحدا من البارزين فى صناعة الادب الى شفقة وتندر على المنقطعين لهذه الصناعة التى لا تطعم أحدا خبزا ٠٠ وكان هو الوحيد الجدير بأن يسأل عن عودة الصبى وأن يتابعه لكنه نقل الى المحروسة « القاهرة » بأسرته ونسى موضوع الصبى تماما ٠٠ !

***

وذات ليلة دق باب بيته ، وفتح الباب ، ولأول وهلة لم يعرف ذلك الفتى الواقف أمامه دون أن تتضح ملامحه فى شريط الضوء المنبعث من مصباح زجاجى فى منتصف الصالة ٠

ـ من ؟

ـ عبد الله مصباح ٠٠

وصافحه وهو يدير الاسم فى رأسه

ـ تفضل ٠ قالها بلهفة ، ليدخل ، ليراه فى الضوء ، كان هذا فتى آخر أكثر طولا ، أشد نحولا ، تشى ملامحه ـ التى فقدت مظاهر الطفولة فجأة ـ بالتردد ، وكان صوته أكثر من أى شىء آخر قد فقد رقته وطفولته ، كل ذلك فى عامين اثنين ، وتقدمه الى حجرة الضيوف ، وهناك فقط أبصر الصبى القديم خلف ذلك الهيكل الذى غشيه أمام الباب

ـ نسيتنى ؟

ـ لا ولكنك كبرت فجأة لم أكد أعرفك لأول وهلة !

وجلسا متجاورين على « كنبة » خشبية ضخمة تحتل وحدها نصف الحجرة وفى الضوء أبصر كل منهما الآخر بوضوح أشد ، وخيل لعبد العزيز حافظ أن جرأة الصبى قد اختفت مع ملامحه القديمة أيضا ٠

ـ لا زلت تهرب من أبيك ٠ قالها مازحا ومحاولا أن يزيل تهيبه وأن يؤكد له أنه ما زال يذكره جيدا ٠

ـ نعم ٠

وضحكا معا ، وشربا كوبين من القرفة احضرتهما خادمة صغيرة بينما راح عبد العزيز حافظ يسأله عن كل شيء في الاسكندرية عدا شيء واحد ادخره للنهاية على الأقل حتى يأنس به الصبي وينسى حرجه ، وفرغت الاسئلة مع الشراب ، وبدأ عبد العزيز حافظ يحوم حول السؤال الذى تحاشاه ٠

ـ لعلك تريد الالتحاق بالازهر ؟

ـ لا ، وسكت الصبي وعاد الحرج مع الصمت الذى اشتركا فيه قال الصبي بهدوء :

ـ تحب أن تعرف لماذا جئت ؟

واحس أنه كان قاسيا على الصبي وأن الصبي هو الآخر يقسو على نفسه وأن جراته القديمة لم تختف ولعلها صقلت وتحولت الى صلابة الحديد المطروق ٠

ـ لماذا تقول هذا الكلام ؟ زيارتك أسعدتنى ، فكرت أنك ربما اردت أن تكمل دراستك بالازهر ٠

ـ لم أكملها بمسجد ابراهيم باشا !

ـ لماذا لاتترك هذا الموضوع الآن ؟ لم لا تحدثنى عن أبويك ؟

ـ لم أرهما منذ مدة طويلة كنت ٠٠٠

فقاطعه محاولا ان يخفف من التوتر الذى يعود مع كل سؤال وقال ضاحكا :

ـ لا زلت هاربا اذن ، لا تزال شقيا ، لا حديث فى هذا الموضوع قبل أن تتعشى ثم نتحدث حتى الصباح ٠٠ لا تعرف كم أحبك !

ـ هذا ما عرفته متأخرا ولهذا جئت اليك !!

وليلتها تحدثا طويلا قبل العشاء واثناءه وبعده ، وكان الصبى هو الذى نام أولا ، غلبه النوم وقطع حديثه الذى ما كان لينتهى فى ليلة أو ليلتين ، كان متعبا وغرق فى الجلباب الذى احضره له عبد العزيز حافظ لينام فيه ، وحين خلع « بدلته » بدت ساقاه نحيلتين كما برزت ضلوعه خلف القميص الرقيق الملاصق بصدره وتحركت فى عبد العزيز حافظ عواطف الأب ، وعلق سترة الصبى التى يبدو أنها قاست أكثر مما قاسى صاحبها على مشجب فى جانب الحجرة وترك الصبى لينام ، أما هو فلم ينم فى تلك الليلة لقد راح يسترجع حديث الصبى كأنما ليتأكد من أنه ليس فيه جزء ولو صغير من خيال فتى مراهق ، ولكن الحديث نفسه ، والطريقة التى كان يتحدث بها الصبى لم تدع له مجالا للشك فى صدقه ، كانت الحياة هى الحياة ولقد عاملت الصبى بأقسى مما توقع بكثير ،لقداطلعته فىوقتواحد على أجمل وأسوأ ما تنطوى عليه ، الثراء والاعجاب فى بيوت الكبار والاعيان ، والجوع والمهانة حين تلفظه تلك البيوت بنفس السهولة واليسر اللذين استقبلته بهما وفى أقل من عامين كان قد جاب القطر من أقصى الدلتا الى الصعيد وعاد ليقول له : «لابد أن يجد الانسان عملا دائما ... عملا يحتاج اليه كما يحتاج هو الى العمل » .

كان هو الصبى الذى أدرك هذه الحقيقة ثم تابع وهو يعض اصبعه .

« وكل ما يحبه المرء يأتى بعد ذلك دور البحث عنه » ولكنه لم يبحث عن هذا العمل فى الاسكندرية وانما جاء ليبحث عنه فى القاهرة « ليس فى الاسكندرية أدب ولا أدباء انهم هناك يتسلون فقط بكل شىء حتى بالأدب وبالأدباء أنفسهم ، أما هنا فاظن الأمر يختلف »

ولم يقل له عبد العزيز حافظ انهم يتسلون به فى كل مكان ، كان قد قرر منذ البدء أن يترك له مهمة إكتشاف الحقائق بنفسه ٠٠ ! وها هو قد بدأ أعظم اكتشافاته ، وحين عرض عليه أن يتعلم فن التلغراف لم يتردد وحين قال له :

ـ انه عمل جديد وملائم لك ، لكن هناك عيبا واحدا ، هو أننى لا أضمن لك أن تعمل بالمحروسة بعد انقضاء فترة تعلمك !

فوجىء بالصبى يقول له :

ـ لا بأس ، المهم أن أعمل ، وسيكون العمل باحدى محطات السكة الحديد ، وسيكون هناك دائما قطار يمكن أن أستقله الى المحروسة ٠

***

وفكر عبد العزيز حافظ « ولكن قد لاتجد الوقت والفراغ لتأتى الى هنا ، تلك يا صغيرى هى البداية ولسوف تتعلم كيف ترضى » ولم يقل له شيئا مما فكر به فقط قال له :

ـ قد تكون الحياة صعبة بعض الشىء فى مثل هذه المدن الصغيرة !

ـ لن تكون أصعب مما رأيت ، مادمت آكل من جيبى فليس هناك صعب !

وفكر عبد العزيز حافظ أن الصبى ذا الستة عشر عاما قد أصبح حكيما بطريقة ما ، ولكن حكمته لم تنضج بعد الى الحد الذى يجعله يكف عن احلامه السخيفة فى الأدب والأدباء ، فهو لا يزال يتابع حلمه القديم ، فى أناة أكثر ، ومتاعبه تتحول فى يده الى وسائل للبحث وراء نفس الحلم الذى تخلى عنه عبد العزيز حافظ

بسهولة أكان مخطئا ؟ لكن من يدرى ؟ فالصبى حتى الآن قد جرب الحلو والمر ، وكلاهما مثير وحاد ، ولكنه لم يجرب ذلك الطور الآخر الفظيع أعنى العادى والمألوف حيث يتبلد كل شىء ، وحيث تمر الأيام كأعمدة البرق خلف زجاج قطار مسافر ، بينما يحس الانسان أنه لا يزال فى نفس المكان ... كانت تلك مأساته الدائمة والأليمة ، وتحول شعوره الدفين بالمرارة الى ترقب وانتظار لهذه المغامرة التى تتنفس بانتظام فى حجرة مجاورة وتحتل نصف ثوبه لا غير !

***

وحين سألته زوجته بعد ثلاثة أيام من بقاء الصبى فى ضيافته :

ــ هل سيبقى ضيفك هذا كثيرا ؟

أجاب ــ لا ... ثم تابع بلهجة مرحة ــ انه ليس ضيفا ... وقد يصبح زوجا لاحدى بناتك !

ــ ألم تجد غير هذا ؟ كانت قد رأت سترته لا غير ، وكان هذا فى رأيها كافيا لأن ترفض حتى مزاح زوجها فى هذا الموضوع !

ــ ولكنه ذكى ونابغة يا امرأة !

ــ ليستفد من ذكائه فى تدبير ثوب يلبسه ومكان ينام فيه !

وأنقذ ذكاء الصبى عبد العزيز حافظ فى الوقت المناسب ، فقد تعلم بأسرع مما توقع له صناعة التلغراف ، وجاء اليوم الذى وقف فيه ليودع ضيفه قبل أن يسافر الى بنها ليعمل فى محطتها ، لم يتصور أن الصبى سيخطف قلبه وهو مسافر ، قال له : ستكتب لى دائما ، وسأعرف كل شىء عنك !

ــ سأكتب لك ، ولن أنسى ما حييت ما فعلت من أجلى !

وضم الصبى الى صدره واكتشف لحظتها أن ضلوع الصبى لم تكن فى مكانها ، وأنه امتلأ قليلا ، وعاوده شعور الأب وأحس والقطار يتحرك به أنه يودع حلمه القديم الى حيث تذهب كل الاحلام فهو أدرى الناس بما ينتظر صبيه فى دنيا لا تزال بالنسبة له فضولا ودهشة وفكر والقطار يختفى عن عينيه « وقد تنسى أن تكتب الى أيضا قبل أن تنسى كل أحلامك » ولكن رسائل الصبى لا تلبث أن تصل اليه تباعا وفى نظام أدهشه بقدر ما أسعده : شاكرة فى البداية ، ثم شارحة — بأسلوب جدد مواجعه — كل ما تقع عليه عيناه ... المسافرين والحمالين والباعة والفلاحين والتجار والسكارى والحشاشين ومن خلال الرسائل أبصر المدى الذى تتحرك فيه عينا الصبى وقدماه كان الصبى الجوابة ينتشر لا فى المدينة الصغيرة وحدها بل فى القرى المجاورة ، وكان الأعيان الفارغون المتبطلون قد اكتشفوا مواهب عامل التلغراف المضحك بشكله ولسانه وكانت رسائله تصف كل ذلك فى سجعات محكمة وتشبيهات رصينة مؤكدة أن حلمه القديم لا يزال هناك يتململ ، موضحة كل شىء عدا شىء واحد ظل يقلق عبد العزيز حافظ كيف يوفق بين ذلك كله وبين عمله ؟ وتصبح هذه الرسائل جزءا من حياة عبد العزيز حافظ ، يقلقه أن تتأخر عن موعدها ولكن الرسائل لا تلبث أن تصل معتذرة وشارحة هذه المرة ما لم يكن مفاجأة لعبد العزيز حافظ ، فالحياة هى الحياة ، والعمل الدائم يتحول الى ملل دائم والفضول والدهشة يتكشفان عن قسوة غريبة ، والناس هم الناس والرسالة الأخيرة تشرح كل شىء :

***

« ولو علم السيد ما أنا فيه من معاناة الأمور ، ومعاداة الدهور لألتمس عذرا لتأخيرى ، فأرجو الصفح عما يوجد فى هذا من القبح ، فقد حررته ليلة نوبتى بعد عشائى وقبل نومتى ، مع صفير الوابورات وجعجعة القطارات ، ونداء العدة مدة بعد مدة ، وعندى من الاوباش

كل سكير وحشاش ، حزب يلعب الدمنة ، وفريق يقرأ كليلة ودمنة ، وقوم يلعبون النرد ، وشخص يقزح كالقرد وكنت فى بلوى كبيرة اذ صار المحل كبيرة(١) » كنت أعرف ذلك كله ، ولسوف تعرف ماهو أكثر ، ولم يكتب له ذلك أبدا · لم يكتب سوى ماكان ينتظره منه ، وتتحول الخطابات الى أنات ولكنها أنات موقعة فهو يصف من حوله من الناس قائلا فى رسالة أخرى وأخيرة : ·

***

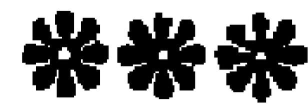
« لا يرون عيبا فى فحش ، فهم أغلظ طبعا من وحش ، ان ائتمنتهم خانوا وسرقوا وان هديتهم ضلوا ومرقوا ، وقد أعيانى رد هذا المخطب ، حتى ذبل غصن يقينى الرطب فكاد طبعى تسرقه تلك الطباع ، وتجرى به فى كهوف الضياع ، فقد خضت معهم فى حديث اللغو ، ولبست ثياب اللعب واللهو » ·

ـ ان قبح الناس لم يجعلك تنسى ما للكلمات الموقعة من جمال هو وحده كل ما بقى لى ، وما قد يبقى لك ، وأخشى ياصديقى الصغير أن يأتى يوم تنسى فيه كل ايقاع ، ويصبح ايقاع الحياة هو نفس ايقاع الآلة التى تدق عليها ، فجميع الأصوات فى أذنى تختلط بصوت عجلات قطار لا يريد أن يقف ، ولم يكتب لــه ذلك أبدا ، كان فقط يشجعه ، وظل يفعل حتى انقطعت رسائل الصبى ثم انقطعت ردوده تلك التى كان يوقعها بامضائه الغريب عبد الله نديم ، وكان قد أخبره مرة بقصة ذلك اللقب الذى أطلقوه عليه فى الاسكندرية ، ولم يأخذ هو موضوع اللقب مأخذ الجد الا بعد أن رأى اصرار الصبى على التوقيع به ، فأصبح يخاطبه به فى رسائله ، وحين انقطعت أخباره وانتهت علاقته به الى أن تصبح قصة جديدة بأن تروى فى ندوة

---

(١) مثل محل شرب البيرة

الشيخ أحمد وهى التى يتردد عليها فى الغورية ليؤكد بها لاصدقائه ـ ماسبق أن أكده ـ من ضيعة النبوغ الأدبى فى هذا البلد وفى هذا الزمن ، أضفى لقب نديم على هذه القصة مسحة من الطرافة لكن القصة ما لبثت أن نسيت تماما كما نسى صاحبها نفسه !



ـ أهو أنت ؟ ظننتك مت وانتهى أمرك !

ولكنه هو عبد الله نديم يجىء هذه المرة أيضا بعد أن كاد يلفه النسيان ولكنه يبدو أكثر طولا وامتلاء وأقل ترددا وخجلا .

ـ وهل يموت الشقى ياسيدى ؟

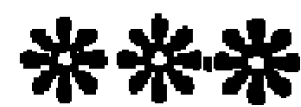
قالها وهو يدخل ، واحتوتهما نفس الحجرة وألقى الضوء على وجهيهما نفس المصباح

ـ لم أجد سببا واحدا معقولا لانقطاع رسائلك سوى موتك !

وضحك الصبى وهو يقول :

ـ ستجد هذه المرة سببا واحدا معقولا لحياتى !

ـ لماذا لا تخبرنى أولا عن أحوالك فليس يهمنـــى أن يكون لحياتك أسباب معقولة !



وأخرج الصبى من جيب سترته مظروفا حكوميا وأخرج منه ورقة مطوية بعناية وسلمها له برفق كأنه كان يخشى عليها من الهواء نفسه ، وقرأ عبد العزيز حافظ الخطاب الحكومى الذى كان مختصرا جدا وندت عنه صيحة فرح ·

ــ غير معقول يا بنى .. ! وكأنما أراد أن يوضح لنديم لماذا كان ما فى الخطاب غير معقول فتابع

ــ أنت .. أنت تنقل هكذا فى لمح البصر الى قصر الأميرة خوشيار هانم بالمحروسة !!

ثم ردد ... مستحيل لكن أخبرنى كيف حدث ذلك ؟

ــ كان المستحيل أن أظل هناك أنقر على تلك الآلة اللعينة فى بنها !

ــ لكن لم تقل لى كيف ؟ لابد أنك عرفت بعض الرؤساء أو أن احدهم عرفك .

ــ كلهم يعرفوننى !

قالها عبد الله نديم ببساطة ، وكأنه يطلب من عبد العزيز حافظ أن يكف عن دهشته التى لم يجد لها أقل تبرير ، ولم يكن عبد العزيز حافظ فى حاجة الى أن يتعقل كيف يمكن أن يبرز صبيه وسط عاملى التلغرافات اذ ذاك ولا كيف يمكن ان يلفت انظار رؤسائه ، حتى اذا احتاج قصر الاميرة الى موظف جديد فى التلغـــراف قدموه على غيره !

***

لم يكن فى حاجة الى ان يتعقل ذلك الا لأن الأمور المعقولة وحدها هى التى كانت تحتاج فى منطق الحياة التى عرفها الى تبرير ، أما ما هو غير منطقى وخاطىء فهو وحده الذى يمكن أن يتقبل دون مناقشة ، ودون حاجة الى شرح ، وهاهى ذى الحياة التى لم تمنح ثمارها الحلوة الا للحمقى والبلهاء تقذف بواحدة من اشهى ثمارها الى فم ذلك الصبى الموهوب ! وأحس كأنه خدع بطريقة ما ! ولكن ما الذى فعله هذا الصبى أكثر منه ؟ واختصرت كلمة الحظ التى

ادارها فى رأسه كثيرا من شكوكه ومواجعه ، ولقد أحس أن هذا الصبى صبيه ، وأنه اذا كان قد بدأ طريقه مستندا الى ذراعة فانه لا يزال محتاجا الى هذه الذراع ولن يتركه وحده فى هذه المدينة الكبيرة ، وربما يكون القدر الذى لم يفهم أحد بعد كل حكمته يدخر له وللصبى ما لم يخطر بباله يوما والا فلماذا وضعه فى طريقه ؟ لماذا ؟ ولم يقل للصبى أية كلمة مما دار بخاطره ومع ذلك فلم ينم كلاهما فى تلك الليلة الا قبيل الفجر ·



وكان هو الذى اختار له مسكنا قريبا من بيته ، وكان هو الذى انتقى له « بدلة » جديدة تناسب موظفا فى قصر الأميرة ، وكان هو الذى أقرضه أول مبلغ ليدبر أموره ، وليكون مسكنه صالحا لاستقبال من يفكر فى زيارته ، وكان هو الذى أخذ بيده الى ندوة الشيخ أحمد وهبى التى سمعت مرة واحدة باسمه ثم نسيته ليرى بعينيه ويسمع باذنيه نجوم الأدب فى مصر فى ذلك الحين ·

ـ أهذا هو الفتى الذى انقطعت أخباره عنك ؟!

كان السيد على أبو النصر شيخ الشعراء فى ذلك الحين هو الذى ألقى بالسؤال بينما راح يتفحص الصبى بعين الخبير وهو يجلسه بجواره !

ـ كيف توصل أخبار الناس وتقطع خبرك ؟

كان الشيخ على الليثى هو الذى بدأ المداعبة وقد تذكر أنه كان يعمل بالتلغراف ·

كان الصبى لا يزال ماخوذا وهو ينقل نظراته بين العمائم الناصعة والوجوه المكتنزة الراضية التى طالما سمع بأسماء أصحابها وفى منتصف الحجرة كانت تنتصب « شيشة » ضخمة متوجة بلفائف « التنباك » التى تحترق على مهل وتتفرع عنها أذرع كثيرة تمتد الى الجالسين حولها !

ـ هل أنت أداة وصل أم قطع ؟

واكتشف الصبى الطربوش الوحيد بين حلقة العمائم حين ألقى صفوت أفندى الساعاتى بمداعبته

ـ انه يصل المقطوع ويقطع الموصول !!

كان الشيخ احمد الزرقانى بلحيته المهيبة وسنه الذهبية هو الذى يمسك بطرف الخيط

ولم ينقذه منهم سوى الشيخ أحمد وهبى صاحب الندوة واشهر تجار الطرابيش بالغورية وكانت تلك طريقته فى الانقاذ

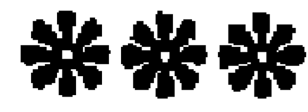
ـ دعوه لى قليلا لنرى متى تنقطع أنفاسه ؟!

وكان معنى هذا فى عرفهم أنه هو الذى سيختبر الصبى شأن الجوهرى الذى لايريد أن يتسلل الى « دكانه » معدن زائف !!

***

وحين تركز الهجوم فى جبهة واحدة وجد الصبى نفسه التى فقدها ، ويطول الاختبار ، ويحتدم السؤال والجواب ، والصبى ـ الذى زال عنه الروع ـ يحاور ويداور ، فهو يكمل الأبيات الناقصة ، ويعارضها بابيات من محفوظاته ، واحيانا تسعفه البديهة فيعارضها بابيات من مؤلفاته ويتنقل بين البحور ، ويستشهد بالشعراء من مختلف العصور ويتلاعب بالألفاظ التى يختلف معناها من زمن لآخر ، ومن بيئة لأخرى ؛ ويتخلص تماما من وجله فيداعب ويشاغب ،

ويشعر بســرور الجالســين ، وباحتــدام جمــرات « الشيشة » ، وبالضحكات تدمع عيونهم وتجعلهم يشرقون بالدخان فيمعن فى المداعبة والمشاغبة ، ويعترفون بالصبى واحدا منهم !!



ـ لكن ليس هكذا يا نديم « وكان هذا قد أصبح اسمه » ان هؤلاء ليسوا مثل أعيان الريف انهم اناس ذوو مكانة وأنت تتجاوز الحدود فى تبسطك معهم ! وخاصة مع محمود سامى البارودى !

هكذا كان عبد العزيز حافظ يحاول دائما أن يضع لجاما لهذا المهر الجامح ٠

ـ ولكن « محمود سامى » صديقى

ـ صحيح هو فى مثل سنك لكن أباه حسن حسنى بك مدير ٠٠ وقاطعه نديم ضجرا ٠٠

ـ ولكنى لا أتبسط مع أبيه ٠٠ ثم انه صديقى وأنت تعرف ٠

ـ كلنا اصدقاء لكن ٠٠

ـ لست أحب تهييك ٠

ـ ولست أحب اندفاعك :



ولكن كلا منهما ظل يحب الآخر رغم كل شىء ، كان صبيه الذى لم ينضج بعد ، ولم يكن مستعدا لأن يخسره ، ولا أن يتركه يخسر الناس ولكن هل كان حقا يخسرهم ؟ لقد فوجىء عبد العزيز حافظ هذه المرة وكأن الناس يخفون فى داخلهم قدرا هائلا من السماحة والتبسط يواجهون به هذا الفتى الذى يجد دائما عذرا مناسبا لأن يقول لهم ما

يود ·· يجده احيانا في ضرورة القافية ، أو الآية او الحكاية تجعلهم يضحكون حتى من انفسهم ، ولم تعد حداثة الصبى هى التى تغفر له بل طرافته ·· وكانت الأيام القاسية التى جاب فيها الصبى أرجاء القطر هاربا من أبيه والتى سهر معها عبد العزيز حافظ ليلة كاملة غير مصدق أن فى قدرة رجل لا صبى أن يواجه كل هذه الضراوة ثم يدخر خوفه من الحياة أو تحفظه من الناس ، كانت هذه الايام قد أصبحت مادة لا تنضب لسخرية الصبى من نفسه ومن الناس الذين آذوه أو أكرموه ، كانت قدرته الهائلة على التذكر لا يعادلها الا قدرته على النسيان··لقد نسى كل الآثار التى عجز عبد العزيز حافظ نفسه عن نسيانها ، بروح الطفل الذى ينسيه الحاضر كل ماض أو مستقبل والذى يعيش بكل طاقته لحظته لا غير ، وكان يدور به على الندوات كما يدور التاجر بسلعة نادرة فتفتح الأبواب ، ولا تفصح العيون الا عن الدهشة ، وتبذل الدعوات فى سخاء ، وتمتد السـهرات مع الليل ·· ! ولم تكن حياته الجديدة تتسع لغير المرح والفكاهة كانت تلك أياما حلوة ، فالخديوى الجديد اسماعيل باشا ابن الاميرة خوشيار هانم التي يعمل نديم فى قصرها يرتقى عرش مصر ، والناس يحلمون مع وعوده بعهد جديد سعيد ، وأسعار القطن ترتفع ، لأن حربا تنشب فى تلك البلاد البعيدة التى تدعى أمريكا · وخـزائن الأعيان والذوات مالكى الأرض تمتلىء بالأموال ، ويصبح الفراغ هو المشكلة الحقة التى تواجه هذه الطبقة التى تعيش فى «المحروسة» وكان الحل الوطنى لهذه المشكلة ، هو أن يلتقى الناس فى البيوت حتى لا يقتلهم الفراغ فرادى ، وكان السمر سلاحهم الوحيد ، ولم يكن الأدب سوى نوع من السمر انهم يتكلمون ويتكلمون فاذا ارتفعت درجة حراراتهم ارتفعت درجة الكلام فصار شعرا أو زجلا أو نوادر ، فاذا ضاق بهم الحاضر فالماضى وراءهم ، عصور بأكملها مليئة

بالشعر والنثر والطرائف ، وترتفع قيمة صبيه الذى كان رأسه منجما من كنوز الماضى ، والذى كان قادرا على أن يصوغ كنوزا جديدة تلائم الحاضر ليبيعها فى تلك السوق الرائجة ، سوق الفراغ ، وكف عبد العزيز حافظ عن التأسف على نفسه ، كما كف عن توجيه النصائح لصبيه ، كانا قد أصبحا صديقين ، كما لم يعد لفارق السن بينهما من قيمة أو وجود فى غير ملامح وجهيهما ، كان قد رد اليه شبابه ، فهما يتهاجيان ويتناجيان شعرا ونثرا فى البيت أو فى الطريق ، وتعرفهما ندوات القاهرة كثنائى ينوب أحدهما عن الآخر ويتحدث بلسانه ويعتذر عنه !! ولكنه يتميز عن ثنائى الاسكندرية ليس فقط باختفاء الشيخ العشرى بل بأنه أكثر وجاهة ، أكثر مالا ، أكثر مرحا ، أكثر صراحة ، أو هكذا خيل لعبد العزيز حافظ ، فحين كان ينفرد به نديم كان يحدثه حديثا آخر تماما عن ذلك العالم المسحور الذى ما كان بمقدور عبد العزيز حافظ أن يعرف عنه شيئا ، عالم القصر ·· !



ـ كنت أظن أن سور القصر يفصل فقط بين نوعين من البيوت، ولكنه يفصل بين عالمين لا يمت أحدهما للآخر بصلة ·

هكذا قال له بعد أن انتقلت الأميرة من قصرها بالعباسية الى القصر الجديد بجوار النيل ·· ! بعد أن أصبح ابنها حاكم مصر ·

ـ وما رأيك فى عالم القصر الجديد يا نديم ؟

ـ قد تختلف محتويات القصور لكن ثمة شيئا واحدا لا يختلف فيها كلها ·

ـ ما هو ؟

ـ انها دائما لمن يمتلكونها ! فى كل القصور توجد أسوار داخلية اشد صلابة من السور الخارجى تفصل بين من يمتلكون القصر ومن يمتلكهم القصر ، نحن ياصديقى ضمن الممتلكات هنا أو هناك !

ـ لست أفهم كيف تردد هذا الكلام ، تستطيع يابنى أن تعبر هذه الأسوار ! مكانك ياندبم ليس أبدا فى حجرة التلغراف ، ورمقه نديم بنظرة فاحصة

ـ وأين ترى مكانى ياسيدى ؟

ـ بجوار الخديوى .. تصبح نديما له !

وانفجر نديم ضاحكا :

ـ ابن الخباز يصبح نديما للسلطان يبدو انك كنت تقرأ كثيرا الف ليلة !

ـ لست اهزل يابنى أنت تعرف الكثيرين ممن يعرفهم الخديوى ولتنس حكاية ابيك هذه !

ـ الا يحب الخديوى أن يعرف من اين يأتى جلساؤه ؟

ـ لو راك مرة واحدة لما سالهم من اين جاءوا بك ؟

ـ وكيف يرانى ؟ اقف فى طريق موكبه ؟

ـ كف عن سخفك ، لو كنت جادا ففى أعياد الميلاد والجلوس واحتفالات القصر مناسبة لأن .. .

وقاطعه نديم كمن يريد اسكاته : أعرف ، لكن هل تظن حقا ؟

ـ مادمت تعرف فأى شىء لعين يربطك بحجرة التلغراف ؟

ـ فى الحقيقة لاشىء ولست أدرى .. ربما أفعل ذلك يوما .

ولم يكن عبد العزيز حافظ فى تلك الايام يدع فرصة تمر دون أن يكرر لنديم فكرته ، ودون أن يتركه نديم بلا اجابة واضحة ، ومع ذلك فلم يؤثر شىء كهذا فى صداقتهما ، فلم يكن نديم مجرد صديق ، كان قد أصبح نصفه الآخر الأكثر شبابا ، الأرقى موهبة ، المفتاح السحرى لبيوت الذوات وقلوبهم ، حيث تساوى توصية أمير أو كبير مالا يقدر بمال ولماذا يتعجل الأمور ؟ وهل يحلم يوما بما انتهى اليه لرفقة ذلك الصبى الذى جاء به القدر فى طريقه لحكمة لن تبقى طويلا طى الكتمان ، لكن الزمن اللعين يمر ، والحرب التى نشبت فى البلاد البعيدة تنتهى وأسعار القطن تتدهور ، والناس يتحدثون عن قروض يعقدها الخديوى الجديد ليتم المشروعات التى بدأها أيام الرخاء ، وهنا وهناك كان الناس ينظرون الى السكك الحديدية تمتد والى الترع تشق ، والجسور تبنى ، والقصور الملكية يتم بناؤهـــا وتؤثث ، ومع القروض والمشروعات يفد الأجانب من أوربا ، مرابون يمدون يدهم بالأموال ، وخبراء وفنيون ومستوردون يمدون يدا أخرى تأخذ نفس الأموال ، ومع الأجانب تقبل عادات جديدة ، وهوايات جديدة ، وسلع جديدة تتلقفها على الفور تلك الطبقة التى كان نديم وأمثاله يحتكرون فراغها ، فتجد مشكلة الفراغ حلولا جديدة بدل الحل الوحيد القديم ، فآلات الطرب الحديثة ، وتأثيث البيوت على الطرز الحديثة والمقاهى التى تفتح على نظام أوربى ، ودار للاوبرا وتجديد لحديقة الأزبكية وبناء لمسرح جديد يتوسطها ، وبيوت للهو ، وخمور معتقة ومستوردة ، و ... وصبيه القديم ... نصفه الأرقى يغافله ويتخطى العشرين بسنوات لم يعد ذلك المراهق الغر الذى قرر ذات مساء أن يوليه حمايته ورعايته ، لقد غدا شابا رقيقا يعرف متى

يتكلم ومتى يصمت ومتى يغضب ومتى لا يغضب دون حاجة الى لجام ؟ ويغافله مغافلة أخرى أشد فيصبح نديما لمن لايعرف من الناس والأشياء ، لم تعد مجالس الأدب هى كل مجالسه ، وان أخبار علاقاته الجديدة وندواته الجديدة أصبح يتلقفها من الأصدقاء الذين يحرجونه فى كل مرة بالسؤال عنه فلا يجيب ، ويحرجونه ثانية بمعرفتهم ما كان يظن انه أولى بمعرفته منهم ، وبالتندر بالثنائى الذى أصبح مفردا من ناحية وجمعا من ناحية أخرى ، ويحس احساسا قاتما بأن صديقه لا يلبث أن يتخطاه هو نفسه ، وتأبى كبرياؤه هذه المرة أن تدعه يذهب الى بيت نديم القريب من بيته عاتبا أو مغاضبا ولكن « نديم » نفسه لا يلبث أن يعود اليه لينقذه من هواجسه ، يأتى دائما فى اللحظة المناسبة كأنما يبعث به نداء خفى علوى !



ـ لم يعد أحد يراك ياصاحب السعادة ! أين تذهب بك الشياطين !

ـ وهل تذهب الشياطين الى الأزهر ياسيدى ؟ اننى أحضر دروس المساء هناك كل ليلة !

ـ منذ متى أصبحت تعشق الدروس ؟

ـ منذ بدأت أسمعها من أساتذتها

ـ ومن أساتذتك العظام هؤلاء ؟

ـ لا تسخر فلم يكن من المعقول أن يكتشف المرء روعة المنطق والأصول والتوحيد قبل أن يلتقى بالشيخ حسن الطويل والشيخ الامبابى ! لا تتصور كم أصبحت تلذ لى هذه الموضوعات !

ـ والأدب ؟

ـ لن تصيبه هذه العلوم بأى أذى !

ولم يكن قلق عبد العزيز حافظ على اهتمام نديم بالأدب الا بقدر قلقه على اهتمام نديم ، وفى معركة الحب الدائرة بينهما كان يدرك انه الطرف الأضعف فلم يلجأ لوضع العراقيل كان مستعدا للتنازلات التى لا تمس كبرياءه ، والتى كان نديم من الذكاء بحيث يقدم له فرصتها كاملة !

***

ان احساسه الخاص بظلم الحياة له قد بددته موهبة نديم الخارقة ولم يعد يعتقد ان للقدر دائما حكمة فيما يأتى أو يترك من الأمور !

والنهاية ، حتى نهاية الصداقة أو الحب ، يمكن أن تحتمل اذا لم نفاجأ بها « اذا عرفنا بدقة الوقت الذى تبدأ فيه ·· ! ولم يقل لصديقه شيئا من هذا كله فقط قال له :

ـ المهم يا صديقى الا أسمع أخبارك من الناس ، ان تجعلنى أراك · كان هذا هو الرجاء الأخير لعبد العزيز حافظ وبعد أيام قليلة مر به نديم وقال له :

ـ تعال معى ·

ـ الى أين ؟

ـ الى منتدى محمد باشا سيد أحمد بشبرا

ـ ولكنى لا أعرفه

ـ ولا أنا ·

ـ كيف اذن نذهب اليه ؟

ـ هو الذى دعانى لندوته

ـ دعاك أنت لا أنا

ـ كنت أذهب معك الى كل من تعرف !

ورافق عبد العزيز حافظ نديما مرة ومرة وفى النهاية قال له :

ـ ياصديقى يكفى أن أراك كلما وجدت فرصة لزيارتى ثم حاول أن يقدم لنديم اعتذارا فتابع حديثه قائلا :

ـ ليست لى قدماك ولا لسانك ، وليست لك أسرتى !

***

ولم يقل له نديم « وما الجديد فى كلامك » لقد قبل اعتذاره بأسهل جدا مما توقع ، وفى الحقيقة أنه لم يكن ضائقا بمكان التابع لنديم فلم يكن غير ذلك حتى وهو يقود « نديم » الى ندوات المحروسة أول عهده بها ، ولكن كانت هذه محروسة جـــديدة وندوات جديدة لايدرى كيف اكتشفها ذلك الجوابة الغريب ، ندوات لاتهتم بالأدب وحده ، ولاتحتفى بالمرح والفكاهة انهم يتجادلون ساعات طويلة فى العقائد والمذاهب والتاريخ ، ويلغطون احيانا بالحديث عن أوربا وحضارتها وسياستها وما يتصل بمصر من هذا كله ولا يتورعون عن خدش الخديوى فى أحاديثهم ، ولم يخطر بباله يوما أن التصوف يمكن ان يكون موضوعا يستهوى صبيه ، وان الشيخ عبد الواحد الحريرى شيخ الطريقة العنانية يمكن أن يكون شيخ الندوة التى رافقه فيها لآخر مرة وكان عبد العزيز حافظ يتساءل هذه المرة بلا جزع ودونما سخط وكأنما لمجرد التساؤل ، أية شياطين تركب «نديم» هذا وتسوقه فى كل اتجاه ؟

***

لقد حاول أن يعرف الشيطان الحقيقى الذى يركب « نديم » ويوجه خطاه ، أحيانا كان يظنه الأدب ، وأحيانا كان يظنه الفكاهة

والسخرية ولكنه لم يتصور أن يصبح للتصوف والتاريخ والمنطق شياطين أيضا وكأن هناك عائلة كاملة تتناسل وتنجب ما لا يحصى من الشياطين ولقد فكر يوما أن الزواج يمكن أن يطرد كل هذه الشياطين ، وهذه مسألة مجربة ، وكان قد أفهم « نديم » بكل ما قدر عليه من لباقة أنه رفض عريسا تقدم لابنته مع أنه موظف مثله في السكة الحديدية لأنه تهمه الاخلاق أولا وقبل كل شيء ، وكان يعتقد أنه يقدم فرصة العمر لنديم الذى يدرك مدى حساسيته من هذه الناحية فقد حكى له مرة قصة الحب الوحيدة التى أدمت قلبه وهو صبى بالاسكندرية وكانت حبيبته مجرد خادمة فى مثل سنه تأتى الى الفرن حاملة على رأسها لوحا من الخشب رصت فوقه أقراص العجين ... وكان قد أبصر أول الأمر شعرها الناعم المرسل ولم يبصر وجهها الذى كان مختفيا تحت لوح الخشب الا بعد أن ساعدها « مبروك » الفران على انزال اللوح ، كان وجهها مستديرا وأبيض وكان معفرا بالردة الصفراء ، وعلى رموشها غبارٌ الدقيق وكانت عيناها تتوهجان وجسدها كله يهتز ومبروك يساعدها على انزال اللوح ، وضايقه أن « مبروك » قرصها فى يدها ، وضايقه أكثر انها لم تنهره ، وانها اكتفت باتهامه بقلة الأدب ، وانها كانت تضحك وهى تقول له ذلك ، ويومها لم يذهب للجامع ليتلقى دروسه وجاب الشوارع كالمجنون دون أن يبصر غيرها فى كل مكان ذهب اليه ، وعاد الى الفرن وعرف الايام التى تأتى فيها بالعجين وبالسمك وبطاجن البطاطس ، وعرف أن « مبروك » اللعين يحبها ، ولم ييأس كان هو الآخر يحبها فى جنون ، ولم يفكر أن يقرصها مثل مبروك ، بل فكر فقط فى لمس شعرها الطويل الناعم ، وفكر مرة أن يزيل الدقيق بيده عن خديها ، ولكنه فضل أن يزيله عن شعرها ، وحين فعل ذلك فى يوم لم يكن فيه أبوه موجودا بالفرن اتهمته أيضا بقلة الأدب ولكنها

لم تكن تضحك ، وحين قال لها : انك تتركين « مبروك » يلمس يـدك قالت له غاضبة : لم يعد غيرك يا وجه القرد !

ويومها أيضا لم يذهب للمسجد ، وطاف بنفس الشوارع وكان يبكى ! وحين حكى نديم له هذه القصة كان يضحك ، وكان يقول له : اعرف أن « نديم » خلق ليحبه الرجال وحدهم أما النساء فسأحبهن وحدى !

***

فى تلك الأيام كان نديم يفتح له قلبه ، وكان يظن وهو يحكى أمامه قصة الموظف الذى رفض خطبته أنه يقدم له فرصة العمر ولكن « نديم » الذى أصبح من بعض الوجوه لغزا لم يفعل أكثر من أن وافقه على ضرورة أن يكون زوج ابنته رجلا ذا خلق ، وكأنه كان يطلب رأيه فى هذه المشكلة لاغير !

واكتشف أنه ليس وحده الذى تستبد به الحيرة ، ويحاول حل هذا اللغز فالشيخ أحمد وهبى نفسه ، الذى كان ينظر اليه دائمـا كأحكم الحكماء ، وأفراد ندوته الذين أسبغوا على نديم شرف قبوله فى ندوتهم ، كل هؤلاء كانوا يبحثون كيف أفلت منهم هذا الصبى ؟ واذ بدت لبعضهم فكرة العقوق كحل أمثل لهذا اللغز ، فلم يكن هو بقادر على قبول هذا الحل ! ذلك أن « نديم » ظل دائما وفيا له ذلك الوفاء المحير انه يعود اليه دائما قبل أن يبلغ اليأس غايته قد يختفى أسابيع أو شهورا ولكنه يعود دائما وبجزء من قلبه كان يدرك أن « نديم » يحبه ذلك النوع من الحب الذى أصبح لايطمع فى أكثر منه ، حبا خالصا حتى من العرفان بالجميل ، ولكن الى متى يبقى هذا الحب ؟ انه يتحول الى أخلص مستمع لهذا الجوابة الذى حاول ذات يوم أن يكون دليله الى مدينة المحروسة ، ويكتشف وهو يستمع اليه كأنه يحدثه عن مدينة أخرى غير تلك التى يعيش فيها ، ان الأبواب

التى لم تفتح قط تفتح له ، والأخبار التى لم تسمع من قبل يرويها لأول مرة ، وأسرار القصور والبشوات الكبار ورجال السياسة يتحدث عنها فى خفة وجرأة يرتعد لها كلما مسست الخديوى من قريب أو بعيد ·· !

ـ كن عاقلا يا نديم فأصدقاؤك الذين يهمسون بهذا الكلام لا يترددون فى التقرب من الخديوى ومدحه ، وبدلا من أن تفعل مثلهم ·· بدلا من أن تأخذ مكانك اللائق فى القصر تردد هذا الكلام !

ـ لازلت تفكر فى مكانى بالقصر ! ان القصر مكان ملعون حتى لعامل التلغراف ·

ـ نديم ، كلما فكرت فى أنك تفتح لى قلبك تعود لمثل هذا الكلام واذا كان القصر ملعونا كما تزعم فلم لاتتركه !

ويبتسم نديم كما يفعل فى كل مرة يحاول فيها عبد العزيز حافظ أن ينفذ الى هذا الجانب الغامض من حياته ويقول له :

ـ انه ملعون لهذا لاننى لا أستطيع أن أتركه رغم هذه اللعنة ، ثم يحيل الموضوع الى فكاهة سخيفة محركا فى نفس الوقت كبرياء عبد العزيز حافظ التى تمنعه من التمادى فى السؤال

ـ سأتركه حين تجد لى عملا مناسبا ، ألم تكن أنت الذى أوجدت لى هذا العمل فى البداية ؟

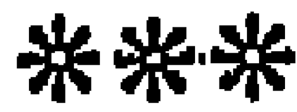
***

فى عام ١٨٧٢م ١٢٨٩هـ ، كانت البلاد كلها تحتفل بأفراح أنجال الخديوى ، وتزينت الشوارع بالأعلام ، وتعصبت البيوت

بسعف النخيل الموشح بباقات الورد ،.وامتلأت جريدة الوقائـــع المصرية بأشعار التهنئة والمديح وكانت فرصة العمر للشعراء ولمدعى الشعر أيضا ، وفوجىء عبد العزيز حافظ باسم عبد الله نديم ضمن الشعراء وفوجىء مرة أخرى بقصيدة نديم التى بدأت بهذا المطلع :

بيـــت الســـــعادة مطـلع الأفـــراح

دامــــت ســـــــلالته غــــذا الأرواح



تنتهى بعد البيت السابع الذى لم يكن يحمل طابع النهاية ، وفوجىء مرة أخيرة بأن القصيدة منشورة وسط قصـــائد القـــراء الأكثر طولا ورداءة ولم يحتمل كل هذه المفاجآت بل هى التى حملته الى بيت نديم لقد ظل طول عمره ينتظر هذه المبادرة من نديم ، ويدفعه اليها ، فكيف يفقد المسئولون عن النشر صوابهم بعد أن يسترده نديم ، وحين وصل الى البيت قال له دون أن يدخل فى مقدمات • وهو يشير الى الأبيات المنشورة :

ـ أهذا كل ماكتبت ؟

ـ هذا كل مانشر

كان نديم جالسا وأمامه نفس عدد الوقائع الذى حمله عبد العزيز حافظ وكان مهموما ولكنه يبدو غير مبال بهمومه ، يرتدى جلبابا مقلما بأقلام عريضة زرقاء وعلى رأسه طاقية من نفس قماش الجلباب وقد فقدت نظراته فضول الجوابة وتحفزه ثم تابع حديثه •

ـ كانت قصيدة طويلة مائة بيت وخمسة ! ثم أضاف وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة : لست أفهم لم نشروا سبعة أبيات فقط ؟ كنت أفضل أن ينشروا خمسة أبيات ويحتفظوا بالمائة صحيحة !

قال عبد العزيز حافظ وقد شعر فى قرارته بأن هذه الازمة تقرب بينهما بطريقة ما ، وأن «نديم» رغم سخريته يبدو كقاعة على وشك التسليم وكان يريد أن يفهم أسرار القلعة فقدم لنديم الـذى أصبح مدخنا أيضا سيجارة وهو يقول له بلهجة لاتشى بالفضول :

***

ـ فى هذه المناسبات قد يلجأون الى اختصار بعض الأبيات لكن كيف يصل الأمر الى هذا الحد ؟

ـ ياصديقى لاتهتم ، فقد وصل الأمر الى عدم نشر القصيدة كلها فى البداية ·

ـ غير معقول !

ـ تلك هى الحقيقة وبعد ان كتبت رسالة الى الشيخ أحمد عبد الرحيم محرر الوقائع أعاتبه على اهمال القصيدة ، كان رده نشر هذه الابيات ·

ـ الشيخ أحمد عبد الرحيم صديقك !!

ـ وأكثر من ذلك هو الذى طلب منى كتابتها ·

ـ أنت لك أعداء يانديم ·· أنت تدرك هذا ·· ولابد أن أحدهم تدخل فى الموضوع !

ـ جائز · قالها بلا مبالاة وكأنما ســئم فجاة الحديث فى الموضوع ·

ـ تتحدث كأن الأمر لا يهمك ، كأنك تظن أنهم سينحنون أمامك ويفسحون لك الطريق ·· !

لماذا لم يفعلوا هذا بأية قصيدة أخرى ؟ لو لم يحسوا خطرك أنت ، لماذا لا تقاتل من أجل هدفك ؟

ـ عن أى هدف تتحدث ؟ قالها نديم وكأنه لم يسمع سوى آخر كلمة ٠

ـ لست أفهمك يانديم كلما أحاول الاقتراب منك تفر ، أعرف اننى لم أعد صديقك ، وآسف اذا كنت ٠٠

وجذبه نديم من يده بقوة وهو يهم بالقيام :

ـ اجلس وأرحنى من الكلام الذى تنوى أن تقوله ٠

وأحس عبد العزيز حافظ وهو يعاود الجلوس فى نفس البيت الذى استأجره له وعلى نفس « الكنبة » الخشبية التى اشتراها معه وأمامه نفس المنضدة المغطاة بمفرش قذر وعشـــرات الكتب التى أصبح نديم من مدمنى قراءتها ٠٠ ! يتخللها غبار سجائر وبقايا طعام وبقايا قهوة فى قدح من الفخار ٠٠ أحس بغريزته وحدها أنه بصدد لحظة حاسمة ، فاما أن يسترد بعدها صديقه القديم أو يفقده الى الأبد ٠٠ !

***

ومرت لحظات صمت قاتمة قال بعدها نديم وقد عاد الى عينيه بريقهما النافذ وهو يسحق تحت خفه الجلدى بقايا سيجارته :

ـ عن أى هدف تتحدث ؟ تعنى أن أكون شاعر الخديوى أو نديمه ؟ ولم يرد عبد العزيز حافظ ٠ واندفع نديم :

ـ لست أنكر أننى حلمت هذا الحلم السخيف وقبل حديثك عنه بسنين !

ـ ومع ذلك لم تحدثنى عنه فى حينه ، وحين بدأت أنا الحديث كنت تراوغ !

واستمر نديم وكأنه لم يسمع رد صديقه ، كان بريق عينيه

يزداد نفاذا وحدة ، وكانت رعدة خفيفة تتمشى فى أطرافه وصفحة خـده ·

ـ ربما لأنه كان اقصر حلم ، فلم أكن فى حاجة الى وقـت طويل لأدرك أن الخديوى رجل غارق فى السعادة الى الحد الذى لايجعله يظن أن بمقدور شخص أن يزيده منها شـيئا ، ولقد كان امامى الكثير لأدركه فى هذا القصر الملعون ·

تعود لكلامك السخيف عن القصر · وصرخ فيه نديم :

ـ أنت الذى تعود لخوفك كلما ذكر القصر ولو بين اربعـة جدران ·

ـ أخاف عليك من لسانك يا نديم

ـ أعرف ياصديقى وأعرف أنك أطيب الأصدقاء ، وحين كنت تعاود الحديث عن موضوع مدح الخديوى لم أكن أراوغك ·· اقسم لك أن المشكلة لم تكن أبدا أن أقول لك مافى قلبى أو ألا أقوله ، وانما أن أعرف حقيقته ·· ! وبينما كان من السهل أن أدرك أن الخديوى هذا ـ الذى يلعنه بعضهم ، ويقدسه بعضهم ، ويجهل الآخرون أنه سبب مصائبهم ـ بينما كان من السهل أن ادرك انه رجل سمين مثل قربة ماء ، يبصر باحدى عينيه وينصف الأخرى فقط ، وانه ذكى ذكاء الأبالسة ، وليس يعنيه فى شىء أن يلقى شعبه الهوان ، طالما هو يلقى فى قصوره العديدة كل مايحب ، وأنه لايبالى بأن يلعنـه الناس ولا يبالى اكثر بأن يمدحوه ، وأن مدحه مسألة لاتعنى سوى مادحيه أنفسهم ، بينما كان من السهل أن أدرك ذلك ، لم يكن من السهل حتى أمس القريب أن ادرك موقفى منه ، وصمت نديم وكأنما يتهيأ لاندفاعة بعيدة أو ليمنع نفسه منها ، ولم يمنعه عبد العزيز حافظ أو يشجعه كان فقط يستمع اليه وتساءل نديم :

أنت تعرف يا صديقى من أين أتيت ؟ أنت وحدك الذى يعرف !؟

ـ لماذا تعود لهذا الكلام ؟

ـ لأنه البداية الحقيقية لكل شىء ، اذا كنت أريد أن أقول الحقيقة لك أو لنفسى ، كنت هاربا ، كانت أشياء كثيرة تطاردنى وكنت أجرى أمامها .. أفر منها وانتهت المطاردة خلف أسوار القصر ، وبدأت التقط أنفاسى وأجد الأمن ، وفى الوقت الذى كان يجب فيه أن أصاب بالجنون لأننى لم أنس بعد كل ماتركته ورائى ، ولأننى أبصر وأسمع كل يوم داخل أسوار القصر ماكنت أعتقد أنه يوجد فى مكان واحد لاغير يحلم به كل البائسين الذين عرفتهم .. كانت الجنة هناك للرجل السمين كقربة ماء ، ولمن لا يحصيهم العد من الأبالسة ، ولم يصبنى الجنون .. ! فقط أصابنى الخوف .. ! الخوف الذى لم أعرف له مثيلا فى حياتى كلها حتى وأنا مطارد .. الخوف من أن أجد نفسى مرة أخرى خلف ذلك السور ، وأن تعود المطاردة (وفكر عبد العزيز حافظ « كنت أظن النسيان أحدى مواهبه ») وقتها لم أفكر فى الصواب أو الخطأ ، فى الظلم أو العدل ، كنت مروعا ، وكان رأسى يدور ، ولم يكن شىء فى مكانه ، وإذا كان أحد مسئولا عن الصواب والخطأ والظلم والعدل فليس أنا !

***

ولست أذكر متى بدأ الخوف يغادر جلدى ؟ ومتى بدأت أحلم حلمى القصير بأن أكون نديم الخديوى ومتى بدأت أدرك سخفه والتخلى عنه !

من المؤكد أن ذلك لم يحدث فى شهر أو عام ومن المؤكد أيضا أنه لم يحدث الا بعد أن تأكد لى أن الطريق اليه ليس سهلا ، والا بعد أن أرسلت القصائد تلو القصائد لمنظمى الاحتفالات بأعياد الخديوى لتهمل مرة بعد مرة .. !

وبدأت أهرب منجديد أهـــرب هذه المرة الى تلك الكبرياء اللعينة والى التفكير فى الصواب والخطأ وفى الظلم والعدل ، والى أحاديثى السخيفة عن القصر التى كنت تخافها !

ـ لم تفتح لي قلبك بهذا !

ـ وأية شجاعة يحتاجها الانســـان ليفتح قلبه وهو مملوء بالأوحال ومع الوقت يبدو أننى نسيت السبب الحقيقى لهذه الكبرياء نسيت أنه الفشل ، وصدقت نفسى ، وبدأت أجد سعادة وعـــزاء حقيقيين فيما كنت أظنه فشلا وخيبة ، وحتى بعد ان أصبح المسئولون عن أعياد الخديوى واحتفالاته يطلبون منى أن أشارك فيها كنت أجد سعادة لعينة في الاعتذار في آخر لحظة بأى عذر سخيف ، وكان القصر مكانا ملعونا ، يفقد فيه كل شىء معناه ، وكنت هناك دائما لأرى كل يوم أن الفشل مرة ومرات ليس معناه الفشل دائما ، وأن السيد (على أبوالنصر) والشيخ على الليثى اللذين كانا يسألانى عن القصر وما وراء أسواره قد عبرا هذه الأسوار وأصبحا شاعرى المعية ، شاعرى الخديوى الذى قد يمر عام بأكمله دون أن يرياه سوى مرة أو مرات ولكنهما شاعرا الخديوى لاعمل لهما الا تمجيد فضائله ومكرماته ، وكانا صادقين بشكل ما فقد كانا غارقين فى هذه المكرمات ، وكان الخديوى غارقا فى لهوه ، والناس غارقين فى بؤسهم ولا أحد يدرى بغيره ، وليست تبدو نهاية لشىء ، ولا معنى لأى شىء ، حتى كبريائى اللعينة التى صدقتها طويلا ، ووصل الأمر الى أن كنت أجد فيها سعادة وعزاء .. أصبحت تبدو لـــى كنوع من البلاهة ، وانتهى بصيص الشجاعة الذى خلقته الكبرياء والذى فتنت به الى خوف لعين ، تشعله تلك الاسئلة الخبيثة من الذين أهملوا قصائدى فى الماضى وأصبحوا يسألون عنها حين لم أعـــد أدور بها وراءهم !

ـ أى شىء لا يرضيك يانديم ؟

ـ لماذا تهجرك شياطين الشعر داخل القصر بينما نسمع اشعارك خارجه ؟

ـ الا يعجبك القصر يا نديم ؟

لقد قلت لك يا صديقى انه ليس من السهل أن يعرف المرء حقيقة ما فى قلبه ولست أستطيع أن أزعم لك أى دافع جعلنى أكتب هذه القصيدة الأخيرة ؟ ربما كان الخوف من أن أفقد وظيفتى فى القصر ! . ! وربما كان الحلم القديم تدفعه نفس الكبرياء اللعينة ، وربما لأن كل شىء طيب كان يفقد معناه ويذوى ويبدو مضحكا وجنونيا ، انتهيت الى هذا الموقف التعس الذى أصبحت بعده غير قادر على أن أجد حتى وهم الشجاعة ولأحرم حتى من نعمة الكذب على النفس ، ان القصر مكان ملعون ، انهم لا يتركون لك حتى فرصة أن تكون منافقا حقيرا اذا كان هذا هو المهرب الوحيد لك !

***

وصمت نديم ، وانكفأ وجهه الى الأمام ، ولم ينطق عبد العزيز حافظ بكلمة . . . أحقا هذا هو صبيه القديم ؟ طفله الذى أخذ على عاتقه يوما مهمة حمايته ؟ وهل هناك ماهو أخطر من ذلك الجحيم الذى ينطوى عليه ؟ أمن قلب هذه الحمم تنبعث أصفى الضحكات والنكات ؟

كان نديم لا يزال مطرقا ، وموجات عصبية تسرح فى صفحة وجهه وفى عينيه نظرة تائهة وغارقة فى دمعة متحجرة ، وكأنما تنبه عبد العزيز حافظ الى أنه يجب أن يقول شيئا ، ولم يجد فى رأسه كلمة واحدة ، وأنقذه انهيار نديم المفاجىء ، فاحتضنه بين ذراعيه وهو يردد :

ـ ياصديقى يا صديقى ٠٠ !

واحس وجسد نديم ينتفض بين ذراعيه أنه يسترد صبيه الغريب أنه يذهب بعيدا ولكنه يعود دائما الى ذراعيه ! وكان سعيدا بعودته ، وسعيدا أكثر لأنه لم يصبح زوجا لابنته !

***

ولم يهنأ عبد العزيز حافظ طويلا باسترداد صبيه وان كان هو الذى تركه هذه المرة منقولا الى « المنيا » فى عمل جديد ٠٠٠ وقال لنديم وهو يعد حقائب سفره :

سوف تكتب لى يا صديقى !

وهز نديم رأسه وهو يعاونه فى اعداد الحقائب مؤكدا أنـــه لن ينسى أعز صديق وتابع عبد العزيز حافظ وكأنه يملى شروطه :

ـ رسالتين كل أسبوع : واحدة تصلنى يوم الاثنين ، والثانية يوم الخميس وضحك نديم وهو يوافق على هذا الشرط ٠

ـ ولا تقل الرسالة عن عشرين سطرا

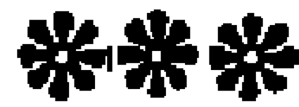
ـ الا تزال هناك شروط ؟

ـ نعـــم

ـ « أن تلتزم الجناس فى الفقر لتكون أوقع فى الفكر ، وأن يكون آخر كل رسالة دخولا على أول ما بعدها وأن ترشف من كل دن وتشطح فى كل فن وأن ٠٠ وأن »

وضحك المودعون وتحولوا الى شهود ، وضامنين لتنفيذ هذه المعاهدة وفرضوا بدورهم شروطا جديدة ،أن ينسخ نديم من هذه الرسائل

ثلاث صور لنتاح لهم فرصة قراءتها ، وهكذا فرضوا بتدخلهم أن تصبح هذه الرسائل التجارب الأولى لعبد الله نديم كمؤلف ، ولهم كقراء لنفس المؤلف ··· وقبل أن يتحرك القطار الى الصعيد همس عبد العزيز حافظ فى أذن صديقه : لا تستسلم للحزن يا صديقى ، ولا تركن لغير الله ولاتنس أن تكتب لى !



والى « المنيا » تتابعت رسائل نديم أو مؤلفاته الأولى الصغيرة ···· مؤكدة وفاءه وموضحة المكان الجديد الذى أطلق اليه الهارب القديم قدميه « الستر المسدول فى دلالة الانجيل على الرسول »

« الحصون المنيعة فى الرد على أهل الطبيعة »

« الفكرة المطيعة فى تطبيق الطبيعة على الشريعة »

ثم مؤكدة أن الهارب القديم لا يصبر على مكان أو موضوع أنه يعاود التسكع فى أمكنة اخرى والبحث عن موضوعات جديدة فيكتب عن « الشجرة الغشاشة فى أولاد مصر الحشاشة »

« وشد الدبلاق فى أكتاف أهل بولاق »

« وحاورينى يا طيطة فى الطربوش والبرنيطة »



ثم يبدأ نديم فى خرق المعاهدة ، انه يبدأ بشرط الوقت فيخل به وبشرط الحجم فينقص فيه ، وبالجناس فلا يلتزمه ، وبالموضوعات المنوعة ، فتصبح رسائله كلها موضوعا واحدا لا يتغير ·· ! وكان الموضوع هذه المرة رجلا غريبا وفد على مصر منذ أكثر من عام اسمه الشيخ جمال الدين الافغانى ، ولم تكن تلك أول مرة يرى فيها عبد العزيز حافظ افتتان نديم بشخص ، كان هو يوما هذا الشخص ، وكأنه الشيخ احمد وهبى ، وفى كل مرة كان نديم الذى يبدو من ناحية عميقا كبئر يبدو من ناحية أخرى فياضا كنهر لا يكتم عواطفه

نحو شخص أو شيء بل يدعو الناس جميعا لأن يشاركوه عواطفه وهكذا بدأ بارسال الدعوة الى « المنيا » !

« ان حديثه الساحر سيفقد كل سحره اذا حاولت أن اكتبه لك ، يجب أن تسمعه منه لتحس أى نوع من الناس ذلك الرجل !! »

« ان خبرته العظيمة هى خبرة رجل طاف ببلاد كثيرة ، وجادل حكاما وعلماء ومفكرين وحكمته هى حكمة رجل عاش مع كل حكماء العالم فى كتبهم وشارك فى معارك الحرب والسياسة »

« انه يريد تجديدا للاسلام يكون أساسا لنهضة الشرق كما كان تجديد المسيحية على يد البروتستانت أساسا لنهضة الغرب »

« لم نكن نفهم المعنى الحقيقى للأدب او السياسة وأكاد أقول لك لم نكن نفهم الدين . ان كل شيء يبدو فى صورته الحقة حين يتحدث عنه ، وحين أتخيل انه كان من الجائز الا يجيء هذا الرجل ، وأن أظل أجهل ما يتحدث عنه ، حين يقف شعر رأسى »

« وهناك شيء يقوم به هذا الرجل لا يقل أهمية عن تعريفنا بأفكاره انه يجعلنا نحن الذين نلتقى حوله كل ليلة يعرف بعضنا البعض الآخر ، لم أكن أتصور أنه كان يوجد فى المحروسة وحدها هذا النوع من الشبان لقد كتبت لك مرة رسالة طويلة أعرفك فيها بمن كنت تعرفهم أفضل منى أتذكر تلك الرسالة « لواء النصر فى أدباء العصر » ؟

ان أدباء العصر الحقيقيين هم هذه الشرذمة التى تلتف حوله وكلما تذكرت انه كان من الممكن الا التقى بهم لولا هذا الرجل يقف شعر رأسى ايضا وأتساءل أى شيء كنت أعرفه عن المحروسة قبل

ان يجيء هذا الرجل ليعرفني بأهلها الحقيقيين كما عرفني بكل شيء يستحق المعرفة ؟ وفي أي الجحور كان يختفي هؤلاء ؟ »

***

وفي الحقيقة ان شعر عبد العزيز حافظ هو الذي كان يقف في كل مرة يتلقى فيها رسائل نديم التي تدور كلها حول المعاني السابقة وتزيد فيها وتعيد ، ذلك أن رسائل نديم لم تكن وحدها التي تصله من المحروسة تتحدث عن هذا الرجل الغريب الذي غادر بيته اخيرا واتخذمجلسا عاما في مقهى بجوار الازبكية واصبحت أحاديثه كما غدت شخصيته ملكا عاما لجمهور المحروسة يتحدث عنها كيف يشاء ٠٠ كانت الرسائل الأخرى تتحدث أيضا عن هذا الأفغاني الذي كان يشبه من بعض الوجوه وباء روع الجميع وأثارهم « أنه زنديق ومخرب ومخرف »

هكذا كتب له صديق من مشايخ الأزهر وحكى له نفس الصديق كيف ضربه الشيخ عليش شيخ المالكية بالمركوب في صحن الأزهر وكيف انقطع بعدها عن تدنيس الأزهر بذهابه اليه ٠٠ !

واكتفى صديق آخر بوصف ملابسه وملامح وجهه « انه مهيب وجذاب في نفس الوقت ولو حاولت أن تتخيل صورة لواحد من كبار المسلمين في عصر الرسول لما وجدت غير صورته بعمامته التي لا يحسن لفها وعباءته الفضفاضة التي تتسع دائما لشخص آخر معه »

***

وأكد له صهره في رسالة « انه سمع من مصدر ثقة أنه يشرب الكونياك في بيته ويردد لمخاطبيه في البيت أفكار الأوربيين والدهريين أما الذي رآه هو بعينه والذي لا يحتمل شكا فهو ان مجلسه بمقهى الازبكية يضم المسلمين والنصارى واليهود والمصريين والشوام كذلك » ٠

- وفى رسالة ثانية من صديقه مدرس الأزهر أخبره

« ان السلطان نفسه قد طرده من الاستانة بعد أن تبين له أنه فاسد مفسد ، ضال مضل ، ولم يفسح له الخديوى جنابه الا لما بينه وبين السلطان من عداء خفى » .

وأشار صديق آخر موظف بالحقانية الى « انه يرى أن نهضة الاسلام لن تتم الا باقامة دولة قوية تقود بقية الدول الاسلامية » ثم علق بلهجة الرجل الفاهم « ولست أظنه يرى أن تكون تركيا هذه الدولة بل مصر ومن الجائز أن الخديوى يريد أن يستغل دعوته تلك فى اقامة دولة عربية مستقلة من مصر وسورية والجزيرة العربية وهذا حلم من أحلام الخديوى القديمة » ثم ختم رسالته قائلا : « أرجو أن أكون قد أجبت عن سؤالك الخاص بحقيقة علاقته بالخديوى » .

***

« تسألنى عن الحقيقة بشأن هذا الرجل باعتبارى أكثر أصدقائك عقلا وحكمة وأقول لك حتى لا أضحى بهذه الثقة

الحقيقة يعلمها الله ، ولكن الذى لا يختلف أحد بشأنه ، هو أنه الرجل الوحيد فى مصر كلها الذى يقدر على أن يفتح فمه فى مكان عام وينقد الخديوى وحكومته نقدا مريرا بشأن الديون التى تتفاقم مشكلتها يوما بعد يوم ، ويؤكد أن سبب هذا البلاء هو عدم وجود دستور حقيقى ، يفعل ذلك دون خوف ودون أن يصدر الخديوى قرارا بنفيه بل وأكثر من ذلك دون أن يقطع راتبه ، واذا بدا لك أن هذا كله غير معقول فيمكنك أن تزور المحروسة ليلة واحدة ، وستتأكد من صدق ما قلته لك لو ذهبت الى مقهى الازبكية حيث يسهر الرجل وسط تلاميذه وفيهم صديقك القديم عبد الله نديم » .

وعبثا حاول عبد العزيز حافظ أن يجد وسط هذه الفوضى والاختلاط شيئا متسقا ، أو مفهوما ، وعبثا حاول أن يتحصن فى حدود المنيا ناجيا من هذا الوباء الذى بدأ يتسلل من القاهرة فى الرسائل وعلى ألسنة المسافرين ، وطلبة الأزهر العائدين الى بلادهم ، وبعض الوعاظ المتنقلين ، وحين كتب رسالة أخيرة الى نديم رسالة ناصحة ومشفقة ومحذرة كان رد نديم الذى تحولت رسائله الى برقيات « لماذا لا تحضر مرة واحدة الى المحروسة فى زيارة قصيرة لترى الرجل وتستمع الى حديثه ، فتريح نفسك وتريحنى ! »



ولكنه لم يجد فى نفسه دافعا قويا لهذه الزيارة ، كان موظف بالمنيا قد تقدم لخطبة ابنته فلم يتردد هذه المرة ، ووجد فى انشغاله بهذا الموضوع وبتوابعه عذرا مناسبا ، وفى الحقيقة أنه أحس بغريزته وحدها التى كانت دائما دليله حين تختلط الامور ان البلاد كلها مقبلة على أيام صعبة ، وأولاده أولى باهتمامه ورعايته فى هذه الأيام وفى غيرها ، ونديم الذى غدا رجلا ناضجا أولى بنفســـه ، وربما لم يكن أبدا فى حاجة اليه لا اليوم ولا حتى فى الماضـــى ، وبعيدا عن المحروسة وعن نديم كان يمكنه أن يناقش الحقائق بوضوح وفى هدوء ماله وهذا كله ٠٠ ! ان «نديم» شخص مختلف عنه ، ولن يزعم لنفسه أنه يمكنه دائما أن يخترق جلدة رأسه ليعرف مايداخلها ما لم يفعل نديم ذلك بنفسه ، واذا كان قد أحبه كما لم يحب شخصا فى حياته ، واذا كان واثقا من أن «نديم» يبادله الحب ، فان ذلك لا يقتضى أبدا أن يربط نفسه بعربة نديم بعد أن أصبح عاجزا عن معرفة الشياطين التى تشد هذه العربة وتندفع بها فى طريق ليس يعلم غير الله نهايته ٠٠ !

ولم يفكر فى زيارة المحروسة..الا بعد عام من زواج ابنته ، ولم يفعل ذلك لأنه أراد أن يرى الرجل الذى أصبح غريمه بمعنى من المعانى بل ليرى «نديم» نفسه وليبارك له ، وكانت رسائل نديم التى تحولت الى لغة البرقيات قد حملت له هذا الخبر :

***

« هل تصدق ؟ لقد تزوجت ! ذهبت لزيارة أهلى بالاسكندرية وبعد أيام فوجئت بنفسى متزوجا من احدى قريباتى ، كانت تلك مشيئة الله ومشيئة أمى وأبى ولست أدرى ماذا أقول لك عن هذا الزواج فخبرتى به لا تتعدى أياما قليلة » ٠

وشعر عبد العزيز حافظ براحة عميقة وسعادة حقيقية ، ولم يأسف من أجل ابنته بل ربما أسف قليلا من أجل الفتاة المجهولة التى تزوجت «نديم» وربطت مصيرها الى الأبد بعربة تقودها الشياطين وفكر أنه لم يكن محقا فى أسفه عليها ، ربما هى التى تصرف الشياطين وتجر العربة ٠

***

وحين وصل الى المحروسة ، وحين زار « نديم » فى بيت الزوجية غرر به البيت فى الدقائق الأولى ٠٠ كان نديم يبدو مثل كل الأزواج الصالحين مائلا للسمنة مزدهر الخدين ، يرتدى جلبابا نظيفا ، ويقدم لضيوفه ـ فى أكواب خشبية منقوشة عليها آيات قرآنية ـ شرابا طهورا من الخروب ، فاذا كانوا ضيوفا أعزاء مثل عبد العزيز حافظ قدم ثانية وثالثة القهوة والقرفة والدخان ٠٠ ! ثم عشاء مطهوا فى أبرمة الفخار كان هو بالاضافة الى مسحة النظام والنظافة التى امتدت الى حجرة الضيوف فاختفت تلال الكتب فى صوان خشبى داخل الحائط وتجمع رماد السجائر فى صدفتين وضعتا بعناية فوق مفرش منقوش يغطى المنضدة ، كان كل ذلك الدليل على وجود زوجة ما كانت التقاليد تسمح الا بظهور آثارها !

وتنفس عبد العزيز حافظ عبير الأيام الخوالى ، وفكر والحديث لا يزال فى بدايته عاطفيا سريعا متقطعا ان الزوج الصالح هو من بعض الوجوه صديق صالح ! ولكن ما أن انتهت الأسئلة السريعة والأشربة الباردة والساخنة،وهدأت العواطف حتى وجد كلا الرجلين نفسيهما يتحدثان عن الشيخ جمال الدين ، كانت صورته تطل عليهما من اطار معلق على الحائط ، وكان عبد العزيز حافظ قد ابصر نفس الصورة تطل فى منزل الشيخ أحمد الزرقانى الذى أصبح بدوره من مريدى الشيخ وكان قد رأى أن الشيخ قد أحدث خلخلة فى الندوات القديمة كلها فانتزع رجلا من هنا ورجلا من هناك ، وكان نديم يتحدث وهو ينقل نظراته بينه وبين الصورة المعلقة ، وادرك حين أصبح الحديث عن الشيخ أن ثمة كلمات جديدة يستعملها نديم ، وأن حدته قد خفت قليلا ليحل مكانها وثوق هادىء مطمئن ، ولم يقاطعه مرة واحدة ، كان نديم يحس أكثر منه الاشياء المقلقة والثغرات فيوضح كل شيء ويكمل ويستدرك وكأنه قد صمم على أن يجعل منه تلميذا جديدا للشيخ الذى لم يكن ينقصه التلاميذ ، وحين فرغ من حديثه واشعل سيجارته الخامسة استشعر عبد العزيز حافظ شفقة وعطفا لا على نديم بل على تلك العروس المجهولة التى شاء لها القدر ان تربط حياتها بحياة هذا المخلوق ، كان دائما يخاف من اندفاعه وحدته أما الآن فقد أصبح أكثر خوفا من هدوئه وثقته !! وحين فتح له قلبه قبيل سفره حين سمح له بأن يرى عذابه وقلقه ، وحتى ماكان يظنه ضعة وحقارة ، لم يقلق عليه كما يقلق الآن ، ولم يشأ هذه المرة أن يخفى عنه شيئا قال له مستعيرا نغمة الهدوء والثقة : لن أناقش ما قالته من ناحية كونه صوابا أو خطأ ولكنى أعرف شيئا واحدا بسيطا هو أن الشيخ جمال الدين هذا يعيش هنا ، ويقول مايقول لأن الخديوى يدفع له راتبه ولست أدرى الى متى يظل الخديوى يدفع

أجرا لرجل لا يفعل شيئا سوى نقد حكومته واثارة خواطر الشباب ضده ، وحتى اذا كان هذا الرجل مستعدا لأن يقوم بعمل آخر يعيش منه فانى واثق ثقتى بالله أن اليوم الذى سيطرد فيه من البلاد أقرب مما تتصور !

وابتسم نديم دون أن يفارقه هدوؤه ٠

– ولكن هذا ما يردده الشيخ جمال الدين فى كل وقت ، ان الخديوى يمكنه أن يطرده فى أى وقت ولكنه لا يستطيع أن يطرد المصريين من بلادهم !

– طبعا لا يستطيع ولا أظنه يريد ذلك فهو فى حاجة ماسة اليهم لتسخيرهم فى تسديد ديونه ويكفيه أن يقتل أو ينفى رجلا أو رجلين ليعرف الباقون طريق السلامة !

وغاظه مرة أخرى أن «نديم» لم يخرج عن هدوئه وانما أغمض عينيه على صورة الشيخ جمال الدين المعلقة وقال له وهو يبتسم عن أسنان ترك الدخان عليها طبقة سوداء ٠

– ولكنه يفعل ذلك الآن ، يكفى أن تكون لك شكوى أو مظلمة تتقدم بها له أو لغيره لتصبح حياتك فى خطر ، يكفى أن يتأخر أى فلاح بائس فى تسديد جزء من الضرائب التى لا يعرف لها مقدارا ولا موعدا ليشد الى عمود خشبى ويجلد قبل أن يمزق احشاءه « الخازوق » ٠

– وبدلا من أن يدعوك هذا الى التفكير ، الى التعقل ٠٠

– لقد دعانى فعلا الى التفكير وقبل أن يأتى هذا الرجل لم أصل الا الى شىء واحد تعرفه أنت جيدا كدت اكره نفسى وأكره الحياة كلها ، ولم يفعل هذا الرجل أهم من أنه علمنا كيف نفكر ؟

ـ يبدو ذلك واضحا ، قالها عبد العزيز حافظ بمرارة ثم تابع وهو يطلب من نديم أن يفتح النافذة قليلا لتصرف دخان الحجرة .: أما-أنا الذى لم أتعلم منه شيئا فلا أفهمه ولا أفهمك رغم ما قلته ، لست أحب أن أخدعك فأنا أفهم هذا الرجل الذى يعيش بلا أسرة وبلا وطن وبلا عمل مطمئنا الى أنه لن يصيبه أذى حقيقى ثم يجد سعادته فى دفع الآخرين الى الهلاك !

***

ـ أنت تقترب من الحقيقة ، ولا تكاد تلمسها فى كل مرة حتى تولى هاربا ٠٠ لو أراد هذا الرجل لبقى أميرا فى وطنه وله هناك أسرة عريقة ، ولو أراد لقنع بوظيفته لدى السلطان ولكنه ضحى بهذا كله من أجل فكرته !!

الشخص الذى يؤمن بهدف كبير ، هذا ما يمثله الشيخ جمال الدين يمثله ولا يقوله فقط ، هذا ماكنا نفتقده فى بلادنا ، انه لايريد سوى أن ينقل فكرته الى الآخرين ، وأن ينقلوها الى غيرهم ، وفى الوقت الذى يمكن أن يموت هو أو ينفى أو يعذب تبقى الفكرة ، تبقى دائما حية وجديدة لدى من يؤمن بها ، وبهذا لايكون الموت أو النفى أو حتى الفشل نهاية لشىء ، وبهذا لا يفقد شىء معناه ولا يكره انسان حياته أو يحتقرها ، بهذا يرتبط الماضى بالحاضر والاحياء بالموتى ولا يصبح النصر والهزيمة نهاية لشىء !! وحين يصبح المعنى الصحيح للدين فى رأس كل مسلم والمعنى الصحيح للأدب فى ضمير كل كاتب ماذا يستطيع الخديوى أو غيره أن يفعلوا ؟

***

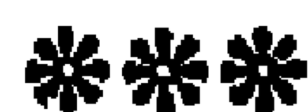
ولم يجب عبد العزيز حافظ ، صمت محدقا فى الهوة العميقة التى أحس بها تحت قدميه ، متذكرا ماقاله نديم منذ لحظات عن المعنى الصحيح للدين والأدب متخيلا الوقت والناس والآلام التى يمكن

أن تبتلعها تلك الهوة السحيقة قبل أن يحس بصــلابة الأرض تحت قدميه ، وقبل ان يصبح الخديوى غير قادر على أن يصنع شيئا له أو لغيره ! ولم يشعر فى لحظة من حياته كلها بمثل هذا الحب لنديم حب كهذا الذى نقدمه فى سخاء لشخص نعلم أنه قد يأتى وقت قريب لايطالبنا فيه بحب أو غيره !!

وحين سأله نديم : الا تحب أن تراه ؟

اكتفى بالقاء نظرة على صورته المطلة من الحائط وخيل اليه أن عينيه النافذتين تحدقان فيه خلف زجاج منظاره اللامع ·

ـ لقد رأيته وسمعت حديثه · هكذا أجاب عبد العزيز حافظ وربما لم يفكر اذا كانت اجابته تلك قد ضايقت « نديم » أو لعله فكر ولم يبال ، فقد أشعره حديث نديم بالسخط على نفسه !!



وفى كل مرة حاول فيها أن يضع حدا لعلاقته بنديم فلا يستطيع أى شىء يجتذبه اليه ؟ وأية حكمة بقيت للقدر ؟ وودع «نديم» دون أن يسأله حتى ان يكتب له هذه المرة ، وحين وصلته بعد شهور من هذا اللقاء رسالة من صديق يخبره فيها أن «نديم» قد طرد من القصر بعد ان جلد بالسياط ، وغادر المحروسة الى حيث لا يعرف أحد ، لم يكن الخبر مفاجئا له ، ولم يحزن كثيرا لأنه كان قد أفرغ حزنه فى لحظة الوداع تلك ، حزن فقط من أجل تلك الفتاة المجهولة زوج نديم والتى كانت ابنته توشك ان تأخذ مكانها ، وحزن أكثر من أجل رجل زاره منذ سنين ودقيق الفرن يلوث لحيته ليسأله عن صبيه الهارب !

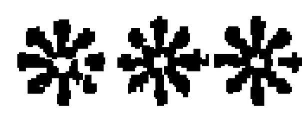
وحين سمع فى القطار بقصة نديم فى طنطا عاد الى هذا الجزء من حياته مستطلعا وحزينا ودهشا وفرحا في نفس الوقت ومتسائلا في النهاية عن معنى هذا كله ٠

وبدا له كل شيء بلا معنى وكان هذا ما اكتشفه من سنين طويلة واستراح اليه حتى اقلقه هذا الصبى وما زال يقلقه !!

***

بـــدواى

« بدواى » واحدة من القرى التى تؤلف قاعدة الهرم الذى يتربع على قمته « شاهين باشا كنج » وهى مثل أية قرية مصرية فى ذلك الحين يحكمها عمدة ، وكان اسمه الشيخ أحمد سعدة ، وأهـــل القرية الذين يبلغ عددهم ثلاثة آلاف شخص تقريبا يزرع أكثرهم فى أرض العمدة التى تبلغ ألف فدان ويمتلك بعضهم عددا قليلا من الأفدنة يزرعونها بأنفسهم ، بينما يعمل بقية أهل القرية كأجراء يوما بيوم سواء فى أرض العمدة أو فى التراحيل التى تجمعهم مع أمثالهم من أبناء القرى المجاورة للعمل فى الجفالك والتفاتيش الكبيرة حيث يعملون مقابل حصولهم على الطعام لا غير ، أو مقابل أجر لا يكاد يفى بنفس الطعام !!



ولم يكن الشيخ أحمد أبو سعدة سوى صـــورة متواضـــعة لشاهين باشا كنج له نفس سلطانه لكن على عدد أقل من الناس ولكن هذا يعوضه من ناحية أخرى انه يعلم ويملك من شئون رعاياه مالا

يستطيع الباشا أن يملكه من أمور الناس في مكان فسيح كالدلتا ، ان العمدة قصير وبدين ، وجلده مثل جلود الفلاحين فى بدواى لوحته الشمس ، ويديه مثل أيديهم قوية وصلبة ، وعينيه مثل عيونهم تختبئان في محجريهما وتحتميان دائما بالرموش والحواجب بسبب من شمس الريف الساطعة ، فترتسم على الوجه تلك التقطيبة المميزة لوجوه الفلاحين ، ولكنه يختلف عنهم بعد ذلك فى كل شيء ، فهو الذى يحدد لكل واحد من الذين يزرعون فى أرضه نصيبه من الأرض ومن العمل ومن المحصول ، ولأنه يعيش معهم في بدواى فانه يعرف عنهم كل شيء ماذا يمتلك الرجل من البهائم والاطفال والدواجن ؟ والعمل الذى يصلح له كل طفل ، ومن المرأة المشهورة بتربية الدجاج الجيد ؟ واستخلاص القشدة الناضجة ؟ وما النقود التى يمكن أن تعود بها كل امرأة من سوق البندر بعد أن تبيع بيض الدجاج وزبد اللبن ؟ حتى لا يستطيع شخص أن يخفى عنه جزءا ولو صغيرا يمكن أن يستخلص في تسديد ديونه للعمدة ، وحتى يعرف هو كيف يحصل للمأمور على الضرائب التى كانت تفرض على زمام القرية كلها ، لتدفعها القرية متضامنة بصرف النظر عن محصول كل فدان وعن عمل كل فلاح ، واذا لم يكن هو عارفا بالخفايا كلها فمن أين يحصل للمأمور على هذه الضرائب ؟ واذا لم يفعل فان السوط فى يد عساكر المأمور وزبانيته لا يفرق بين جسد العمدة وجسد أحقر فلاح ٠



واذا كان العمدة يعرف الكثير عن رعاياه فانهم كانوا لا يعرفون عن حياته الا القليل ، مع أن بيته الضخم قائم على حدود قريتهم ، فقد كانت ثمة حواجز تفصل بينهم وبينه ، حواجز تبدأ بسور حجرى يحيط ببيته ، سور يعجز أكثر الأولاد شقاوة عن تسلقه ليس فقط بسبب ارتفاعه ، ولا بسبب طرفه المحدد والمحشو

بقطع الزجاج والصفيح الحادة ، بل بسبب قطيع من الكلاب الشرسة الذى يعاون عددا من الخفراء فى حراسة حديقة القصر الكبيرة ، التى لا تكف أشجارها عن طرح الثمار طوال العام !!

***

وليس ذلك السور الحجرى سوى بداية الحواجز وبعده يأتى سور آخر أكثر صلابة ، سور بشرى تكونه حاشية العمــدة التى يختارها بعناية من أهل بدواى نفسها ، ليعاونوه فى ادارة شئون الزراعة ، واذا كان السور الحجرى يحمى الحديقة والقصر فان السور البشرى يحمى اسرار العمدة ، وطريقة حياته ، وينقل للناس أوامره وزواجره ، ويكون أداته لتنفيذ مايراه من خطط أو مشاريع وأخطر مهمة له أن يكون بمثابة عيون وآذان تنقل للعمدة كل شىء حتى لاتند عنه صغيرة ولا كبيرة فى شئون تلك المملكة الصــغيرة المسماة بدواى !!

***

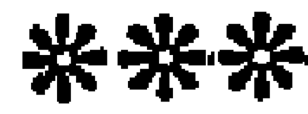
ولكن بدواى كأية مملكة فى الدنيا صغرت أو كبرت ، كانت لها أسرارها الخاصة التى لا يعرفها العمدة ولا حاشيته ، فمع أن أفراد هذه الحاشية من بدواى نفسها فلا يكاد الواحد منهم يرتفع الى مصاف الحاشية حتى ترفعه بدواى نفسها من عالم اسرارها وتحرم عليه ما كان حلالا فى الماضى . فبدواى رغم فقرها تملك أموالا لا تمد اليها يدها أبدا ، أموالا لها حرمة الموتى ، ومدفونة فى باطن الارض، أو باطن جدار ، وتمتلك حليا لها حرمة الأموال ، وبدواى رغــم تعاستها لها متعها الخفية التى تبدأ بعد أن تنام كل العيون ، وبالأخص عيون الزوجة والأطفال ، فتلتهب تلك المتع مع جمرات الموقد وتدور مع «غابة» الجوزة ، وترتفع مع حلقات الدخان الى دنيا الوهــم والحلم والخدر ، وبدواى رغم خوفها من الله والعمدة والحاشية ، تسرق ، وتخون ، وتخدع كلما وجدت الفرصة وهى تؤمن أن حقول

الأذرة نعمة من نعم الله مثل حقول القمح والقطن ولكنها ترى أيضا أنها أصلح من الأخيرة لاخفاء مايسرق من الحقول حتى يأتى الليل ، وأصلح أيضا للخلوة بامرأة ، وبدواى رغم أنها لاتعرف الا رحلتين رحلة الأغنياء للحج ورحلة الفقراء للعمل مسـخرة فى القنـال أو التفاتيش أو النيل أو الترع ، يحلم فقراؤها دائما ويحققون حلمهم أحيانا برحلـة ـ لا تقـل عن رحلـة الأغنيـاء الى الحجـاز ـ رحلة الى طنطـا لزيارة سـيدى أحمد البدوى فى أيام المولد !!



ومنذ ليلة واحدة عاد الشيخ قاسم من زيارة طنطا بكمية كبيرة من الحمص والحلوى ليبيعها فى « دكانته » ، وأهم من ذلك أنه عاد بقصة سهرت معها بدواى ليلة كاملة ، تلك هى قصة « عبد الله نديم » مع الأدباتية ، والشيخ قاسم هو الرجل الوحيد فى بدواى الذى يمكنه أن يتكلم عن عبد الله فينصت الجميع ، ويصدق الجميع ، ويشعر الجميع بالندم وأيضا بالفرح فالشيخ قاسم الذى لا يملك غير عين واحدة سليمة ، النحيل الأسمر هو الوحيد فى بدواى الذى تلقى العلم فى المسجد الأحمدى وهو صبى ، وحين عاد من طنطا أهلته تلك الدراسة لأن يرفعه العمدة الى مصاف الحاشية كمعلم لأولاده ، ومع أنه ظل خطيب المسجد فى القرية ، وامام الناس فى الصلاة ، الا انه كان يدرك أنه أصبح منفيا ضمن الحاشية ، ولم يأسف لذلك فمع أن بدواى تمقت حاشية العمدة ، فكل واحد فيها حلم مرة واحدة على الأقل بأن يختاره العمدة ضمن هذه الحاشية ، ومنذ أكثر من عـام هبط على القرية رجل غريب اسمه « عبد الله النديم » ، ظهر أولا مع العمدة ، ثم مع الحاشية ، ولقد واجهته القرية بريبتها التقليدية فهى تشك فى جميع الأفندية الذين يهبطون على العمدة ، فهم جميعا ضرب من الحكام ، ومجيئهم لم يحمل مرة واحدة أى خير للقرية ، وحتى اذا لم يكونوا حكاما ، فهم أصدقاء العمدة فى البندر ، وهم

رقعاء وفضوليون لا يحسنون سوى صيد الطيور ، ويعودون محملين بالهدايا التى تنهب من طيورهم وزبدهم ، وقد تقع عيونهم على فتاة مليحة هنا أو هناك ، فيطلبونها للخدمة فى بيوتهم ، ولا يجرؤ أحد على رفض ذلك الطلب اذا نطق به العمدة !!



وحتى بعد أن تحقق أهل القرية من أن الضيف الجديد ليس من هذا النوع ، فلم تذهب ريبتهم فيه ، بل لقد زادت هذه الريبة ، حين وجدوه يحاول اختراق الأسوار الحجرية والبشرية ، محاولا أن يقترب منهم ، فى المسجد ، وفى الحقول ، وعلى المصاطب ، لابسا جلبابا مثلهم ، سائلا عن شئونهم ، متوددا ملاطفا للصغار والكبار ، راويا لهم بعض الحكايات والطرائف • لم يزدهم هذا كله الا شكا وارتيابا فطول حياتهم لم يجدوا شخصا يتقرب منهم الا اذا كان فى ذلك مصلحة له أو شر لهم ، وربما يتضح الأمر بعد قليل ، كانوا يتساءلون ما الذى يريده هذا الرجل ؟ هل هو حقا يعلم أولاد العمدة؟ وماذا يفعل الشيخ قاسم اذن ؟ وماذا يقصد اللعين بأسئلته التى لاتنتهى كيف تحاسبون العمدة؟وكيف تدفعون كل هذه الضرائب؟وكيف تعرفون مالكم وما عليكم ؟ وكيف تعيشون بعد هذا كله ؟ ماذا يريد رجل العمدة اللعين هذا ؟ هل يظنهم يجهلون انه بصاص (جاسوس) ملعون أرسلته الحكومة ليعرف أين يخبئون أموالهم ! ولم يجرؤ أحدهم على أن يواجهه بشىء من ذلك ، كانوا يخافونه ، وكانوا يستمعون له ويغمغمون وقد ينصرفون قبل أن يفرغ من سؤاله ، أما دهاتهم فكانوا يسايرونه ويؤكدون له أن الله يرزقهم كما يرزق النمل فى جحوره وأنهم يحمدون الله •• ! وأما الاشقياء فلم يتورعوا عن سرقة « طشت » غسيل من بيته مرة ، وحقيبة ثيابه مرة ثانية ، وأن يغشوه فى كل مرة حاول أن يشترى فيها شيئا منهم !

ولكن أحدا لم يقدر على أن ينفجر فيه ذلك الانفجار اليائس الذى فعله « حسنين الاعرج » كان نديم يكرر محاولاته اليائسة فى اختراقه قلعة بدواى الحصينة اللعينة حين انفجر فيه :

ـ وما الذى تريده منا ؟ ماهو غرضك الحقيقى ؟

وبهت نديم الذى كان يتوسط حشدا من الفلاحين على احدى المصاطب ·

ـ ماذا يخيفك يا رجل ؟ أنا فلاح مثلك !

ـ لست مثلى ولست فلاحا ولا تعرف شيئا عن الفلاحين ·

ثم تساءل فى غيظ : أليست لك بلد ؟ لماذا لا تذهب الى بلدك ؟

تطلع نديم حوله دهشا محاولا أن يستطع رد الفعل لدى من حوله فلم يجد سوى صمت مطبق لعين وقال أحدهم فى غلظة :

ـ أسكت يا أعرج !!

ولم يسكت حسنين الأعرج بل اندفع :

ـ انه يمرضنى بأسئلته وحكاياته ! لماذا لا يذهب ويحكيها لصديقه العمدة ؟

قال نديم الذى كان يكبح نفسه طول الوقت بهدوء وفى محاولة يائسة للفهم :

ـ ما الذى يتعبك يا عم حسنين هل انت ضائق بى أم بالعمدة

ـ هاهو اللئيم يريد أن يوقعنى فى الكلام ولكنى لا أهتم بك ولا به اذهب وقل له ذلك !

ـ لن اقول له شيئا ، ولكنى أستطيع اذا كانت لك عند العمدة مشكلة او بينك وبينه ...

فقاطعه الأعرج :

ـ الم اقل لكم هاهو اللئيم يحاول مرة ثانية ألم أقل لكم ؟

***

ثم صرخ .. العمدة هو سبب مصائبى ، وانفجر يقذف فى كلمات متشنجة بقصته مع العمدة .. القصة التى لم تكنْ مجهولة الا لنديم ، وعبثا حاول نديم أن يفهم شيئا من عواء الرجل وتشنجه ! وكان الشيخ قاسم هو الذى حكى له القصة كاملة فيما بعد ، وايقن نديم أنه لا يمكنه أن يصنع شيئا لهذا الرجل ولا غيره .. فلم تكن أرضه وحدها هى التى استولى عليها العمدة بعد أن غرق الرجل فى سلسلة الديون التى لم يكن يعرف لها بداية ولا نهاية .. ! كان هناك كثيرون غيره غارقين فى الديون وكان جهدهـم كله مباعـا لسنين طويلة لحساب العمدة لأنه وحده الذى يدفع ضرائب الزمام ، وكان أى شقاء يلقونه من العمدة جديرا بأن يكون ضربا من النعيم ، لو تأخر العمدة عن دفع الضرائب وحال بينهم وبين سياط القواسة وخوازيقهم ! .

***

وكان من الممكن أن يعرف حسنين الأعرج فضيلة الصـمت كغيره ولكنه كان عجوزا وكان قد فقد ثلاثة رجال هم كل أبنائه فى حرب الحبشة وفى حفر قناة السويس ، وان كان السبب الحقيقى لاندفاعه الأهوج كما يردد عقلاء بدواى : ان الرجل يعرج بعقله ! وكان نديم قد ضجر من بدواى ومن العمدة ومن نفسه ولم يكن ينتظر سوى نهاية العام ليأخذ أجره ويمضى !

وفى نهاية العام سمعت بدواى فى ذهول تلك المشاجرة العاصفة بين نديم والعمدة .

ـ يجب أن اخذ أجرى لقد علمت أولادك عاما كاملا ٠

ـ كنت مطرودا من القصر ، ولمتك من الطريق ، والآن ترفع صوتك فى وجهى ٠

ـ تنسى انك دعوتنى الى بيتك ، تنسى انك رجوتنى فى البقاء وتنسى كل ما يجب أن يذكره الرجل الكريم !

ـ عد الى الطريق الذى جئت منه !

ـ أى طريق يقودنى الى غير بيتك هو طريق السلامة !

ويجن العمدة لأن رجلا لا حول له ولا قوة قدر على اهانته أمام الجميع ، رجلا ليس مديرا ولا مأمورا ولا يملك غير ثيابه ، ويقسم لينتقمن منه شر انتقام فهو اذا لم يفعل فربما يتجرأ عليه الأوغاد الآخرون !!



ويفكر العمدة ويدبر ، ولكن الشيخ قاسم الذى كان لايزال ضمن الحاشية والوحيد الذى كانت تربطه بنديم علاقة انسانية والوحيد الذى قدر له أن يفهم « نديم » ويحبه ، ويفشل فى نفس الوقت أن يخترق به الحصار الذى كان يعيش معه بداخله ٠٠ !

الشيخ قاسم هذا يذهب الى بيت نديم فى الوقت المناسب ليقول له :

ـ أى شىء يبقيك فى هذا البلد اللعين ؟

ـ لاشىء ولكنى لا أريد أن أفر !

ـ يجب أن تنجو بجلدك فالليلة وليست أية ليلة أخرى سيقتلك رجال العمدة !!

وحين لايجد رجال العمدة «نديم» فى بيته ، يحرقون البيت فى لحظة غضبهم وحين تشتعل النيران فى البيت الذى كان يسكنه نديم محرقة كل ما لم يقدر على حمله يكون هو فى طريقه الى المنصورة ، وفى ضوء هذا الحريق أبصرت بدواى حقيقة الرجل الذى ظنته بصاصا للحكومة وصديقا للعمدة ولم تصدق ماكان يقول عنه الشيخ قاسم الا بعد أن طرده العمدة حين تأكد له أنه هو الذى أخبر «نديم» بما بيته له ، وساعده على الفرار .. ! وكان الشيخ قاسم جديرا بأن يلقى الهلاك لا مجرد الطرد من حاشية العمدة لولا أنه ترك القرية عدة شهور ولم يعد الا بعد أن كسرت شوكة العمدة حين اتصل نديم بشاهين باشا كنج وأخبره بما حدث من عمدة بدواى فأرسل للعمدة وأرغمه على أن يدفع لنديم أضعاف حقه ، وكأن الشيخ قاسم الذى فتح دكانا للتجارة فى بدواى هو الذى نقل لهم هذا الخبر ، وكان هو الذى يقرأ لهم أشعار نديم فى هجاء العمدة التى أصبحت حديث الناس فى الاقليم كله ، وأكثر من ذلك كان يقرأ لهم هجاء نديم لأهل بدواى نفسها ، الذى كتبه لصديق بالمنصورة ثم ذاع خبره فى القرى المجاورة ، كانوا هم الذين طلبوا منه ذلك ، وحين قرأ عليهم « قوم يحتاجون لترجمة السلام فضلا عن الكلام ، قلوبهم غلف والسنتهم قلف .. ! » ضحكوا وقالوا له كفى فلن يفهم أحد منا أو من غيرنا هذا النوع من السباب ! أما حين حكى لهم قصة نديم مع الأدباتية فى طنطا فقد وجدوا فى القصة فرصة جديدة لمغايظة العمدة ، وكان الأطفال سلاحهم ، فلم يكد الشيخ قاسم يفرغ من تحفيظهم الأزجال التى تمكن من نقلها ، ومن تدريبهم على أصول اللعبة ، حتى امتلأت بهم الأجران كل ليلة ، وترددت أزجال نديم كما تردد اسمه فى أنحاء بدواى وعبثا حاول الخفراء فى كل مرة تشتيت الأطفال وتخويفهم ،

كانوا يماودون اللعب بعد انصراف الخفراء ·· وعلق أحد حكماء بدواى وكان يجلس أمام دكان الشيخ قاسم على تلك اللعبة قائلا :

ـ حقا اذا أردت أن تغيظ رجلا فسلط عليه امرأة ، واذا أردت أن تغيظ امرأة فسلط عليها مجموعة من الأطفال ·· !

واستدرك أحد الجالسين قائلا :

ـ ولكننا نغيظ العمدة يا عم رجب ·

ـ يا غبى ، أنا أقصد أن عمدة بدواى امرأة !

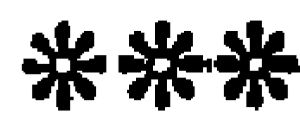
***

المنصـــورة

قريبا من بدواى كانت تقع مدينة المنصورة ، عند القمة من أهرام « شاهين باشا كنج » كانت تمتاز بموقعها الفريد على النيل الذى جعلها من أهم مراكز التجارة فى القطر وخاصة فى تلك الأيام التى كانت تجارة أوربا تصل فيها الى آسيا وافريقيا عبر الطريق البرى والنهرى داخل القطر ثم اكتشف طريق رأس الرجاء الصالح فغاص هذا الشريان الحيوى ، ثم افتتحت قناة السويس سنة ١٨٦٩ وبدلا من أن تصبح هى الشريان الحيوى الجديد الذى يحمل لمصر الرخاء والنماء ، كانت قد أصبحت كلها ملكا لاوربا حين باعت حكومة الخديوى أسهم مصر فى قنـــاة السويس الى انجلترا فى نوفمبر سنة ١٨٧٥ ليمكنها أن تسدد أقساط الدين التى يحل موعدها فى ديسمبر من نفس العام ٠٠ ! وحتى لا تعلن الافلاس ٠

وفى عام ١٨٧٦ كانت ديون الخديوى لبنوك أوربا قد بلغت ٩١٠٠٠٠٠٠ر٩١ جنيه انجليزى وبسبب هذه الديون انتهت مصـــر

كلها الى أن تخضع لنفوذ أوربا ممثلا فيما سمى انذاك بالمراقبة الثنائية لدولتى انجلترا وفرنسا مراقبة للايرادات والمصروفات ، مراقبة تضغط المصروفات وتحجز من الايرادات ما يوفر للدائنين حقوقهم كاملة ، كانت سلسلة القروض التى بداها الخديوى مع بداية حكمه تلتف فى أحكام حول كل مصادر الثروة فى مصر لتسقط واحدة بعد الأخرى ، فسقطت القناة ، وسقطت ايرادات السكة الحديدية ، وايرادات ميناء الاسكندرية ، وايرادات الدائرة السنية ، وانتهت التجارة الخارجية كلها الى الشركات الأجنبية ، وكانت التجارة الداخلية هى الأخرى تسقط فى قبضة التجار الاجانب الذين تسللوا الى مدن القطر الرئيسية ليفتحوا المتاجر والملاهى والخمارات ويبيعوا أحدث المنتجات الاوربية ، وهكذا انتهت طبقة التجار الوطنيين الى ان تبيع للناس بعض المنتجات الوطنية كالعطارة والخردوات والمنسوجات المحلية والجلود والأوانى الفخارية والخشبية •• !



ولم يكد عام ١٨٧٦ يقبل حتى كانت أصابع التجار الأجانب تتسلل الى اخر قلعة •• الى العطارة والخردوات والمنسوجات والجلود والأوانى فتقلد الأشكال الوطنية لهذه المنتجات وتعرضها فى الأسواق •• !

ولم يكن « محمود الغرقاوى » الا واحدا من التجار الوطنيين الذين وقفوا على عتبات محالهم بالمنصورة ينظرون فى ذهول الى الأجانب وهم يتسللون الى المدينة ثم يتكدسون فيما لا يزال يعرف حتى اليوم بسوق الخواجات •• ! والى عملائهم القدامى وهم ينصرفون الى متاجر الخواجات ليشتروا نفس البضائع المركومة فى متجره وقد أصبحت تباع داخل علب أنيقة محلاة بالأشرطة ، علب

تضم كل شىء حتى أصناف العطارة البلدية ، وحاول نفر قليل من المصريين أن يقاوموا الطوفان بينما غرق الآخرون ، بعضهم غرق فى بحر الخمر ، وبعضهم غرق فى بحور الشعر وكان « محمود الغرقاوى » من هذا النوع الاخير ، وكان قد قابل عبد الله نديم أول مانزل المنصورة منذ أكثر من عام ، ولم يعجب فقط بشعره ، كان معجبا أكثر بأحاديثه وبروح الدعابة الكامنة فيها مهما يكن جادا ، أيامها كان قادما من المحروسة ، مطرودا من القصر ومعبأ بأحاديث الشيخ جمال الدين ، أيامها كان يتحدث عن الصواب والخطأ والخير والشر ، كان الشر يتمثل فى التجارة الأجنبية وفى النفوذ الأجنبى ، وكان الخير دائما هنا فى مصر ، فى فهم صحيح للدين ، فى توعية للشعب بحقيقة دينه ، وحقيقة مايحدق به من أخطار وأعداء ، وكأنما نسى الرجل الذى كان لايزال يحمل بقية من مال أنه مجرد طريد ، كان يبدو كما لو كان داعية أرسله الشيخ جمال الدين الى الريف ليقوم بالمهمة التى يقوم هو بها فى المحروسة ، ثم غاب عبد الله نديم عاما كاملا فى بدواى ، وحين قابل بعدها « محمود الغرقاوى » لم يصدق الرجل عينيه ، كان نديم مروعا حقا وهو يصف له النيران التى أبصرها تلتهم بيته وهو يغذ السير فى الحقول ، كان رجلا قد عاين الموت ولقد كان يظن أنه رأى الكثير فى هذه الدنيا ولكنه لم يكن قد رأى الموت بعد ، موته هو ٠٠ ! واحتراقه وسط أكوام القش وأعواد الخشب ٠ كانت تلك أول مرة يكتشف فيها أن الشر يمكن أن يكون مصرى الجنسية ، غنيا وفقيرا وأن الشعب يمكن أن يكون كتلة من البلاهة والغباء والسوء ، تهدد بالويل كل من تسول له نفسه أن يجعلها شيئا أفضل ، وقال محمود الغرقاوى الذى كان قد سبقه الى معاناة الموت غرقا مفتشا عن روح الدعابة فى الرجل :

ــ وما دمت لم تمت بعد يا نديم فسأدبر لك عملا ٠

ـ أى عمل تعنى ؟

ـ سأفتح لك محلا صغيرا للخردوات

ـ لكن !

ـ لن تكون الامور أسوأ مما هى ، وقد تربح يا نديم فيكون لك نصف الربح أو ما يكفيك منه وتبقى بيننا ٠

كان نديم قد تحدث معه من قبل فى مشاكل التجارة وقد ذهل بخبرة نديم فى هذا الموضوع لم تكن خبرته بالتفاصيل لكن بالكليات ويبدو أنه خدع فى نديم على نحو ما ، وضحك حين قال له نديم :

ـ اذا أردت أن تضمن نجاح المشروع فأحضر لى قبعة من الغد ويصبح اسمى الخواجة « دميان »

وضحك نديم أيضا حين قال له الغرقاوى :

ـ يمكن أن نحضر لك قبعة ، وأن تلوى لسانك الطويل بلكنة الخواجات ولكن ماذا نفعل بجلدك يانديم ؟ انه يبدو غير صالح للتغيير ولو جئنا بمن فى البلد من صباغين ودباغين ! وفتح لنديم متجرا صغيرا للخردوات غير عابىء بصراخ ابنه :

ـ ألا يكفى ما نلقاه من السوق ؟

ـ قد يربح يابنى ، والبضاعة لنا ، وله نصف الربح ، أنه رجل جذاب والناس يقبلون عليه ٠

ـ انه جذاب حقا لمن لا فائدة فيهم من الناس !

ولكن محمود الغرقاوى الذى كان قد فقد روح التاجر العظيم وتحول الى مجرد رجل مضياف لم يعبأ بصراخ ولده ، وحتى حين أفلس نديم تماما ، لم يجد فى قلبه أى حقد عليه ، فلم يكن نديم هو

ذلك الحالم بمكان فى حاشية الخديوى ولا الداعية المتقمص لتعاليم أستاذه جمال الدين ولم يكن حتى عامل تلغراف ولا معلم صبية ولا مجرد بائع لحساب غيره كان كل ماتبقى من هذا كله ··· انسانا عاين الموت والطرد والضرب والفشل والاذلال ، وكان بعد هذا قادرا على أن يؤكد لمحمود الغرقاوى أنه سيسدد ديونه فى أول فرصة ولم يكن يدرى نديم بعد هذا كله على من يصب نقمته ؟ فقد اكتشف على نحو مفاجىء أن ذاته تستحق أكثر من أى شىء أو شخص تلك النقمة فكيف يمكن أن يحقد عليه محمود الغرقاوى ؟؟

***

وحين ارسل شاهين باشا كنج الى عبد الله نديم قال حسن بن محمود الغرقاوى :

ـ انجابت غمة !

وقال بعض أصدقاء نديم :

ـ قد يمر وقت طويل قبل أن ترى المنصورة رجلا مثله ·

وقال بعضهم الآخر :

ـ امثاله يعودون دائما فالتسكع فى البلاد هو عملهم !

وقال محمود الغرقاوى لهؤلاء الأصدقاء جميعا :

ـ لست آسفا على مافعلت من اجله ، ولا أرى ما هو العمل الذى يصلح له نديم هذا ، ولكنى واثق ثقتى من وجودكم أنه ليس واحدا من هؤلاء المخبولين الظرفاء الذين كنا نتسلى بهم دائما ·

***

وكان محمد كمال الموظف بمجلس المنصورة وصديق نديم هو الذى نقل الى محمود الغرقاوى حكايته مع الأدباتية بطنطا ·· !

وكان يزوره بمتجره الذى هدأت فيه حركة التجارة هدوءا جعله يصلح لأن يكون مكانا يلقى فيه أصدقاءه ويسامرهم وعلق أحد الجالسين على القصة :

ــ الزجل والشعر ، تلك بضاعة نديم التى لا تبور أبدا ·
واشترك الحاضرون فى الحديث :

ــ انها تبور مثل اى بضاعة : وغدا يطرده شاهين باشا ·

ــ لقد أضاع نديم فرصة العمر بعد أن فتح له الغرقاوى بك متجرا ·

وعلق الغرقاوى :

ــ لم تعد التجارة فرصة والرجل كريم متلاف لا يصلح للتجارة ·

ــ ولا لغيرها · هكذا قال حسن بن الغرقاوى ثم أضاف :

ــ الكريم هو الذى ينفق من ماله الذى شقى فى جمعه · وعاد « محمد كمال » الذى نقل القصة والذى كانت تربطه بنديم صداقة خاصة ، سمحت له بأن يكتشف دخيلة نفسه وأن يشارك الغرقاوى « ونديم » أحاديثهما الخاصة اللافحة التى تلعن الخديوى والبشوات الكبار وقال بلهجة لم يخف مغزاها على محمود الغرقاوى وهو الذى كان يدرك طوايا نديم :

ــ ولكنه انسجم مع شاهين باشا كنج جدا !

ــ ليس أمامه سوى أن ينسجم معه !

هكذا قال الغرقاوى ولم يفهم الحاضرون أكثر مما تعنى الكلمات ، فقال أحدهم :

ـ ميزة نديم أنه ينسجم مع الجميع ، تصوروا : أولادى جميعا يسالون عنه ، ويحفظون حكاياته لهم !

فعاد حسن الغرقاوى يزمجر :

ولكنه حتى الآن لم ينسجم مع أى عمل صالح الا اذا كنتـــم ترون التسول عملا صالحا !

فصرخ محمود الغرقاوى في ولده :

ـ أنت أحمق وغر ، لماذا لاتكف عن كلامك الفارغ ؟

فانسحب فى الحال داخل المتجر تجنبا للمشاحنة مع ابيــه امام اصحابه ...

وفكر أحد الجالسين فى دهاء أن هجوما لبقا على نديم يخفف من حدة الموقف ، ويرضى كرامة الأب والابن معا . فقال :

ـ فى الحقيقة ان «نديم» أغرب رجل رأيته فى حياتى ، فبينما يبدو فاهما لأشياء كثيرة وقادرا عليها ، يترك بلده وأولاده ليدور فى البلاد بلا عمل !!

***

وبدا لمحمود الغرقاوى وكأنه يسمع بهذه الحقيقة لأول مرة وسأل نفسه : صحيح لماذا لم يذهب نديم الى الاسكندرية بعد طرده من القصر ؟ لماذا يرسل نديم أولاده الى هناك ليعولهم ابوه ويدور فى البلاد كالمخبول ؟ كان بمقدوره أن يجد عملا فى الاسكندرية لو أن العمل يعنيه .. ! من المؤكد أن فى هذا الرجل شيئا فاسدا ولكن ماهو ؟ ولم يجد فى نفسه أية رغبة فى التحرى عن هذا الشىء ولكنه قرر بينه وبين نفسه أن يكف عن معاداة ابنه من أجل رجل ليس يدرى حقيقته تماما واكثر من ذلك لم يعد له وجود بينهم .

ومع ذلك فقد وجد نفسه يردد :

ـ أحيانا كان يحدثنى عن ابنه الياس ، وعن مخبز أبيه ، وحين حاولت أن أعزيه حين قدم من بدواى قال لى : هون عليك فحين تسوء الأمور سأعود الى الاسكندرية لأبيع مع أبى شيئا لا يستغنى عنه أحد ، الخبز . وتساءل الغرقاوى فى نفسه هل كان ينتظر أن تكون الأمور أسوأ من ذلك ؟

ـ ولكن أباه هو الذى طرده وهو صبى ، ثم طرد من القصر ، وطرد من بدواى ، وكان يجب أن نطرده من هنا !

كان حسن الغرقاوى هو الذى قال ذلك متشجعا بتغير نبرة الحديث ، ولكن أحدا لم يرد عليه هذه المرة ، وانتهى الكلام بشأن نديـــم ! ..

***

المحروســـة

كان ذلك هو عام ١٨٧٧ ، وكانت المحروسة تبدو مدينة مختلفة تماما عن تلك التى عرفها نديم وعبد العزيز حافظ وعاشا فيها كثنائى يلتقى احيانا ويفترق أحيانا أخرى ، كان نديم لايزال فى طنطا ، وكان عبد العزيز حافظ قد عاد الى المحروسة بعد أسبوع من ذلك اليوم الذى سمع فيه بقصة نديم مع الأدباتية وفى اعتقاده أنه عاد لمن تبقى من أصدقائه بصيد ثمين ، ولكنه لم يكد يضع قدمه فى المحروسة حتى اكتشف أن ثمة قصة أخرى تملأ آذان المدينــة ٠٠ ويدور حولها همس الجميع ٠٠ ! فلم يكن يلتقى اثنان أو أكثر فى بيت أو مقهى أو شارع ، فى فرح أو مأتم أو صلاة الا وكانت قصة النهاية الغامضة الفاجعة « لاسماعيل صديق المفتش » بداية الحديث وأيضا نهايته ٠٠ ! ولم يكن فى مصر كلها رجل يجهل اسماعيل صديق المفتش فهو لم يكن مفتشا على الدلتا وحدها مثل شاهين باشا أو على الصعيد مثل محمد سلطان باشا بل كان كبير المفتشين

وصديق الخديوى وأخاه فى الرضاع ووزير ماليته منذ عام ١٨٦٨ وهو الرجل الذى ظل يتقدم لمجلس شورى النواب فى دورات انعقاده بأرقام ميزانية تبدو البلاد خلالها فى أحسن حال فالصادرات تزيد دائما على الواردات ، وثمة وفر فى الميزانية وحديث لبق عن الديون المتبقية منذ حكم المغفور له محمد سعيد باشا وحديث آخر أكثر لباقة عن قرض جديد من أجل التخلص من هذه الديون تارة ومن أجل اتمام بعض المشروعات العمرانية تارة أخرى ومن أجل تفشـــى الطاعون البقرى تارة ثالثة ، ولم يجرؤ شخص فى مجلس شورى النواب على أن يناقشه الحساب فى حقيقة الأرقام التى يقف فى كل دورة ويلقيها فى هدوء ، ولا عن حقيقة القروض بأرباحها الفاحشة ، وهل تذهب حقا لتسديد الديون واتمام المشروعات أم تتحول الى قصور على جنبات النيل وفى صحراء العباسية وعلى ضفاف البسفور لينزل فيها الخديو فى زيارته للاستانة ليدفع رشاواه هناك لوزراء السلطان من أجل الحصول على لقب خديوى تارة ، ومن أجل أن تصبح الخديوية من حق أكبر ابنائه لا من حق اكبر فرد فى الأسرة العلوية تارة أخرى وهل تنشأ بها اصلاحات للشعب الذى يتحمل عبء هذه القروض أم تتحول الى اصلاحات فى أرض الخديوى التى امتدت فجأة فأصبحت خمس الأراضى المزروعة فى القطر كله ، وتتدفق انهارا من الخمر فى كئوس مفضضة ومذهبة لتدور فى احتفالات الخديوى الباهرة بافتتاح القناة حيث أصبح كل ملوك أوربا ضيوفا يأكلون ويشربون ويستمتعون بذلك الجو الأســـطورى الذى طالما حلموا به فى ألف ليلة ٠٠ ! وتتحول داخل قصور الخديوى الى أثاث نادر وتحف رائعة وسهرات ، وحفلات تمثل أرقى ما حلمت به باريس فى عهد الامبراطور نابليون الثالث !!

كان هذا هو اسماعيل صديق المفتش الذى لم يجرؤ شخص

من أعضاء مجلس شورى النواب على أن يناقشه الحساب ، لأنه كان يعرف أكثر من غيره حقيقة هذا المجلس ، وحقيقة الغرض الذى انشىء منأجله ، فلم يكن الشعب هو الذى طالب به ، ولم يكن معقولا أن يتطوع الخديوى بانشاء مجلس يناقشه الحساب ، أو حتى يكون مجرد لمسة تضاف الى صورة مصر لتبدو كما حلم بها الخديوى قطعة من أوربا ، وانما كان مجرد وسيلة جهنمية من عديد الوسائل التى لجأ اليها الخديوى لابتزاز الأموال من هنا وهناك كان الخديوى يقترض من بنوك أوربا قروضا تطوقه بالأغلال فلماذا لا يقترض من الداخل أيضا قروضا جديدة ، قروضا ان لم تفد فى تسديد القروض الخارجية أو تسديد أرباحها فسوف تمتاز عنها بأنها لن تطوقه بالأغلال ، لأنها ستكون فى شكل ضرائب لاتـــرد ، من غير هذه الطبقة من أعيان الفلاحين المالكة للأرض والطامحة لأن يكون لهـا كيان اجتماعى يمكن أن تسعفه بالمال ؟ ولماذا لا يأتى بهم الى المجلس ليشعروا انهم أصبحوا ذوى مكانة تقتضيهم بعض التضحيات التى لن يبخلوا بها بأية حال ؟ ومن غير وزيره الداهية يمكن أن يتفنن ويبتكر ؟

***

وهكذا كان اسماعيل صديق المفتش هو الذى حمل هذا المجلس على أن يقرر ضريبة السدس ، ضريبة المواشى و ‥ و ‥ ثـم وصل فنه العظيم الى أرقى درجات الابتكار حين حمل المجلس على أن يقرر ضريبة « المقابلة » وهى ضريبة لا يتمكن من دفعها الا كبار الملاك (أعضاء المجلس) وهى تطالب هؤلاء الملاك بأن يدفعوا فى عام واحد ستة أمثال الضريبة المقررة على أراضيهم ، وطبعا لابد أن يكون ثمة مقابل لهذه التضحية أن يكون ثمة ربح لهذا القرض العظيم ، ولم يكن الربح سوى مجرد وعد ‥ وعد بأن تخفض ضريبة الأرض التى تدفع هذا المبلغ الى النصف وبصفة دائمة ، والصفقة

تبدو مغرية للملاك او صدق الوعد ، ولكن أحدا لم يجرؤ وقتها على أن يقول لاسماعيل صديق المفتش ان الحكومة لم تصدق فى أى وعد قطعته على نفسها !

ولم يكن من الممكن أن تستمر لعبة القروض تلك الى مالانهاية ، واذا كان أعضاء مجلس شورى النواب يخافون ، فما الذى يخيف أصحاب الديون فى أوربا والخديوى يوشك أن يعلن افلاسه ·· ! بعد أن سقطت كل مصادر الثروة فى مصر وأصبح دخلها مرتهنا بسداد الديون ·· !

***

وجاءت أوربا على مهل كصياد يتبختر نحو فريسته لأنه واثق من أنها لن تفلت ·· ولم يكن صيادا واحدا كانت أوربا كلها قد خرجت تبحث عن الفرائس فى أصيل القرن التاسع عشر ، وسمع الناس لأول مرة بتقرير لجنة « كيف » عن الحالة المالية ، ثم بمشروع « جوشن وجوبير » لاصلاح تلك الحالة ، وهكذا أصبح ما كان سرا ، ماكان يتهدد قائله بالموت ماكان لا يتكلم فيه غير الشيخ جمال الدين أصبح حديث الصحف فى أوربا ، وحديث الناس فى المحروسة ، وأبصروا الى خديويهم الذى كان ضربا من الآلهة ، يتضاءل وينكمش ويتنازل عن سلطاته واحدة وراء الأخرى تارة لما يسمونه صندوق الدين وتارة لما يسمونه مراقبة ثنائية !!

***

وكان من الطبيعى أن يتساءل الناس وسط هذا كله عن اسماعيل صديق المفتش ·· عن مصيره ! وكان من المألوف أن تسمع هذا الحوار فى شوارع المحروسة ونواديها

– يقولون أن مستر « جوشن » يصر على فصله كشــرط ضرورى لاصلاح الحالة المالية !

ويفصل اسماعيل صديق ، ثم يتردد الهمس

ـ يقولون أن « جوشن » يصر على محاكمته أيضا !

ـ وهل يسمح الخديوى بذلك ؟

ـ وهل يملك الخديوى الآن أن يسمح أو لا يسمح ؟

ـ ولكن اسماعيل صديق لم يكن سوى أداة الخديوى ويمكن أن تصبح محاكمته محاكمة للخديوى أيضا !

ـ ان قناصل الدول يتحدثون عن عزل الخديوى أيضا !!

وهكذا وجد الناس انفسهم يتحدثون أيضا عن عزل الخديوى دون أن تنشق الأرض وتخر الجبال !!



وكما يحدث دائما فى مثل هذه الأحوال حيث تغطى الأمور السيئة بامور اكثر سوءا ، وحيث تعالج الأكذوبة بأكذوبة أكبر وأعظم سمع الناس أن اسماعيل صديق المفتش سوف يقدم للمحاكمة بتهمة التآمر على الخديو واثارة الخواطر ضد مشروع « جوشن وجوبير » وحوكم اسماعيل صديق وحكم عليه المجلس الخصوصى بالنفى فى دنقلة والسجن بها .. وعبثا حاول الناس أن يلقوا نظرة واحدة على الرجل الذى أغرق مصر كلها فى الآلام والديون وأدى للخديوى وظيفة كلب الصياد ، دون أن يلقى مايستحقه أى كلب أمين ... عبثا حاول الناس أن يروا الوجه الذى طالما أرعبهم .. يروه مرة واحدة غارقا فى الرعب .. لقد أبحرت به سرا سفينة صغيرة واختفت به نحو الجنوب .. !

وبدا أن الموضوع كله سوف ينتهى بهذه الهمسات

ـ كان من الضرورى أن يحاكمه الخديوى بمثل هذه التهمة

حتى يتجنب فضيحة مؤكدة لو حاكمه الأجانب بخصوص المسألة المالية ٠٠ !

ــ انه لم يتجنب الفضيحة وحدها بل كسب عطف الأجانب أيضا فقد كان اسماعيل صديق يعارض اخيرا مشروع « جوشن وجوبير » الذى يستهدف مصلحة الدائنين الأجانب وحدهم !!

ــ معارضته لهذا المشروع الآن مثل توبة ابليس يوم القيامة ٠

ــ ولكن الخديو عرف كيف يستفيد من ابليس !

ــ ابليس الحقيقى لايزال هناك ، ممثلا « جوشن وجوبير » ولن يستفيد منه الخديوى !

***

وهكذا وعلى نحو مفاجىء وجد رجل الشارع فى المحروسة نفسه يتمتع بحرية عجيبة فى التعليق على الحوادث ، فالحرية تهب فجأة فى تلك اللحظة النادرة التى تتحرك فيها السلطة من يد الى يد وقبل أن تستقر فى يد قوية حازمة ، وكانت السلطة الآن وكما كانت دائما تتبع أصحاب الأموال ، وكانوا هم أصحاب الديون ولم يكن أصحاب الديون فردا واحدا أو دولة واحــدة ولهذا فقد كان اقتسام السلطة أو تنظيمها بينهم وخاصة بين انجلترا وفرنسا فرصة جديدة لمزيد من الحرية ، حتى لقد تذكر أعيان الفلاحين (أعضاء المجلس) أن لهم حقوقا أيضا فقد اقرضوا الحكومة ضزيبة المقابلة وهاهى المراقبة الثنائية التى تحاول القبض على زمام السيلطة لتضمن ديون الأجانب تحاول بجرة قلم أن تلغى قانون المقابلة ففكروا فى أن يعقد المجلس اجتماعا طارئا بمدينة طنطا للابقاء على المقابلة ٠٠ !

***

وكان هذا كله فى عام ١٨٧٦ ٠٠ ! وفى عام ١٨٧٧ الــذى انتهى فيه نديم الحالم بمنازلة الطغيان الى أن ينــازل حشدا من

الادباتية ، ووصل فيه عبذ العزيز حافظ الى المحروسة ، وفى ظنه أنه حمل لمن تبقى من الأصدقاء قصة يمكن أن تجد لها مكانا وسط حكايات المحروسة فى هذا العام ، وشاء القدر أن يكون الوقت الذى عاذ فيه عبد العزيز حافظ هو الوقت الذى تعود فيه من دنقلة نفس السفينة التى حملت اسماعيل صديق المفتش الى منفاه الأخير ومع العائدين على ظهر السفينة ، ومع نسمات الحرية التى هبت فجأة على المحروسة كان ثمة خبر صغير ينتشر انتشار البرق ٠٠ !

* * *

ـ لم يكن اسماعيل صديق المفتش على ظهر السفينة ٠

ـ وأين كان اذن ؟

ـ هنا ، لم يغادر المحروسة !

فى السجن ؟

ـ لا

ـ فى المقــــابر ؟

ـ لا

ـ أين يمكن أن يكون ؟

ـ فى قاع النيل !

ـ والمحاكمــــة ؟

ـ لعله الرجل الوحيد الذى كان يحاكم فى وقت واحد فى الدنيا والآخرة وراح عبد العزيز حافظ يفتش عن اصدقائه لا ليحكى لهم « قصة نديم » بل ليعرف الحقيقة التى وراء ذلك الخبر الذى تردده المحروسة فى همس محموم ، وفى منزل الشيخ أحمد الزرقانى

التقى مع عدد من أصدقاء ندوة الغورية الذين فرقتهم الأيام وعادت فجمعتهم ، كان الزرقانى قد أصبح من اتباع الشيخ جمال الدين ، وكان السيد على أبو النصر والشيخ على الليثى قد أصبحا شاعرى المعية . وكانوا كلهم فى تلك الليلة بمنزل الشيخ الزرقانى وقال السيد على أبو النصر بلهجة العالم ببواطن الامور :

ـ لقد سمعت بهذا النبأ فى طنطا من شاهين باشا نفسه وقبل أن تسمع به المحروسة

وسأل عبد العزيز حافظ فى لهفة : كنت فى طنطا اذن ؟ ومتى عدت من هناك ؟

ـ منذ ليلة واحدة • وفكر عبد العزيز حافظ « ان فرصـــة رواية قصة نديم قد أفلتت منه بعد أن وجد لها شاهد عيان » وكان الشيخ الزرقانى هو الذى عاد يسأل :

ـ لكن كيف شاع الخبر فى المحروسة ؟

ـ يقولون ان أحد الحراس الذين شاركوا فى قتل اسماعيل صديق أصيب بانهيار فراح يهذى بالحادث !!

ـ كان الخديوى أحق بالانهيار ، هكذا قال عبد العزيز حافظ

ـ ربما كانت تلك أول تجربة للحارس المسكين ، أما الخديوى فهو رجل مدرب على هذه الأمور !

وقال السيد على أبو النصر :

ـ كان شاهين باشا مضـطربا جدا وهو يفضى الى بالخبر •

وقال الشيخ على الليثى :

ـ أصبح القصر مكانا ملعونا ! وابتسم عبد العزيز حافظ في صمت وعاد الشيخ الزرقاني يؤكد

ـ غدا يلقى الخديوى نفس المصير ، انه بهذا يؤكد ضعفه لا قوته وهذه فرصة الشعب ليثبت وجوده !

وقال السيد أبو النصر فى دهشة :

ـ الغريب أنك تردد نفس ما قاله نديم حين سمع القصـــة وسأل الزرقاني

ـ وأين قابلت « نديم » ؟

وهكذا وجد عبد العزيز حافظ نفسه مرة أخرى يستمع الى قصة نديم بتفصيلاتها الدقيقة ، واختلطت قصة نديم بقصة المفتش كما تختلط المأساة بالملهاة دائما وفى كل مكان ·

وقال عبد العزيز حافظ :

ـ لعل « نديم » يحمد الله على أن خرج سليما من القصر !

ـ فى الحقيقة لست أفهم « نديم » هذا ، ولست أدرى ماذا يكون الجنون اذا لم يكن هو ما يفعله !

ـ تعنى أنه يردد ماقاله الشيخ الزرقاني

ـ أعنى هذا وأكثر ·· انه لا يردده بين أصدقائه كما نفعل الآن ولكنه لايبالى بترديده فى أى مكان غير عابىء بما يسببه لشاهين باشا من حرج ، وأكثر من هذا ففى الوقت الذى أصبح الانسان يفضل مغادرة المحروسة كلها وليس القصر وحده يفكر هو فى العودة الى المحروسة وربما الى القصر !

ـ كيف ؟

ـ هناك فى قصر الباشا كان يلتقى بابراهيم أغا بك توتنجى الخديوى

وانتهى اللقاء والاعجاب باختياره وكيلا لدائرة توتنجى بك

ـ وما الذى يحمله على ترك شاهين باشا ؟

ـ لقد قابل الباشا طلب نديم بدهشة فهذه أول مرة يتخلى شخص عن مثل هذه الرعاية التى يحلم بها الناس من الباشا ، ولقد قال لى الباشا فى استغراب « لو كان نديم يريد مجرد العمل لكان بمقدورى أن أدبر له عملا فى طنطا » ثم أضاف الباشا « أو لعل « نديم » يريد العودة الى القصر من الباب الخلفى » !



وابتسم الشيخ الزرقانى قائلا : لا أظن أن « نديم » يفكر فى أكثر من أن يجد فرصة للتردد على المحروسة ، وهذا ما يحققه له هذا العمل وفى حماية أحد رجال القصر · !

وابتسم السيد على أبو النصر قائلا : أنت أدرى به فأنتما ترضعان من ثدى واحد !

وفكر عبد العزيز حافظ وقد هزه الشعور بأنه سيرى « نديم » مرة أخرى ، لكنه لم يتعلم شيئا من كل ماحدث له أنه الهارب القديم من الدعة والأمان والاستقرار ، الهارب الى المتاعب !

الجــزء الثــانى

عبد الله نـــديم

لحظة فلحظة كانت مدينة « المحروسة » تختفى عن عينيه فى ضباب صباح بارد من شتاء عام ١٨٧٩ م ، وكانت البيوت ذات النوافذ والأبواب والشرفات تتحول الى كتل صماء داكنة ، المآذن وحدها التى كانت ترتفع الى أعلى من جميع البيوت ، هى التى ظلت تلوح لعينيه كأصابع تشير الى أماكن وشوارع وذكريات ووجوه كانت فى وداعه منذ قليل على رصيف المحطة !



وكان هو عبد الله نديم جالسا فى احدى العربات فى القطار المسافر الى الاسكندرية ، عاجزا عن أن ينتزع عينيه عن تلك الكتلة الصماء التى كانت منذ لحظات مدينة المحروسة والتى كانت لسنين طويلة حياة وأملا وعملا وصداقات ومسرات وأحزانا كذلك وانتهت فى هذا الصباح البارد الى هذه النقطة المتلاشية فى جانب الأفق الفسيح وربما فى تلك اللحظة فقط ادرك أن المقعد الذى يحتل جزءا منه قد جلس فيه رجلان نحيلان على حين لم يتسع المقعد المقابل الا لرجل

واحد سمين وطفلة وحقيبة صغيرة استند اليها الرجل الســـمين بذراعه ، ولأول مرة لايجد فى نفسه ميلا الى ممارسة أعمق هواياته ، وهى التحدث الى الناس خاصة أولئك الذين لا نعرفهم حيث يبدو الحديث مثل مغامرة واكتشاف وحيث يتوافر فيه تلك النوع من الحرية النابعة من شعور الجميع بأن الكلام لن يقيدهم بشىء ، لأنه قادم من المجهــول وذاهب اليه ! لم يعد يجتذبه الأفق ولا الناس ولا الحقول المترامية عبر زجاج النافذة ··· لاذ بالصمت ، مكتفيا بأن يحدق فى داخله ، وفى داخله لم يبصر سوى تلك النقطة الداكنة التى ابتلعها الأفق منذ قليل كانت تمتد وتستحيل فى لحظة الى مدينة كبيرة وفى مكان منها يستطيع أن يصـــل اليه مغمض العينين كان يجلس بجوار الشيخ جمال الدين وأشرع الشيخ اليه عينين صافيتين وقال بلهجته المشوبة بلهجات الأقطار العربية التى جابها :



ـ لماذا لا تعود الى الاسكندرية ؟ كان ذلك منذ أيــام وكان السؤال على نحو مفاجىء وكان الشيخ جمال الدين لم يعرف الا منذ لحظات فقط ان الاسكندرية موطن نديم ، وفوجىء نديم بالسؤال واكنوع من رد الفعل لا اكثر أعاد السؤال ·

ـ وماذا افعل هناك ؟ وكأنما اكتشف سخف اجابته فحاول أن يوضح الموقف فزاده سخفا حين راح يذكر للشيخ مالم يكن يجهله ·

ـ أعمل الآن وكيلا لدائرة « توتنجى بك » ·· وهذا العمل يتيح لى ان اكون هنا ، وهذا ما اريده ·· أن أكون معك ·· أعمل معك ·· أنت تعرف ·· وقاطعه الشيخ جمال الدين :

ـ أى شىء تعمله هنا ولا نستطيع نحن أن نعمله ؟ وأى شىء تقوم به فى دائرة توتنجى بك ولا يستطيع أى موظف أن يقوم به خيرا

منك ؟ ولم يجب نديم ، واندفع الشيخ جمال الدين وقد ازداد صوته حدة وزوى ما بين حاجبيه واحتقن وجهه

***

ـ تسألنى ماذا تفعل هناك ؟ اذهب الى الاسكندرية وستجد هناك آلافا من اليونانيين والقبارصة والمالطيين والايطاليين والفرنسيين والانجليز والشوام والمغاربة ووجه سؤالك لهم ، قل لهم لماذا تركوا بلادهم وجاءوا الى بلدك ؟ لماذا قطعوا مئات الأميال فوق المياه لايملكون غير ثيابهم الى بلاد لا يعرفون حتى لغتها ليصبحوا بعد شهور أصحاب دكاكين ومقاه وملاه ومدارس وصحف وكنائس بينما تسألنى أنت ماذا افعل فى الاسكندرية ؟

***

وانصرف الشيخ جمال الدين الى حديثه مع بقية الجالسين وكأن هذا الموضوع لم يعد يحتمل كلمة واحدة ، وفى تلك اللحظة العاصفة بدا الأمر لنديم كما كان يبدو دائما فى كل الأمور التى تحسمها كلمات الشيخ القاطعة في غاية من الوضوح والبساطة الى الحد الذى يتعجب فيه فى كل مرة كيف لم يره من قبل بمثل هذا الوضوح ؟ لم يكن فيما قاله الشيخ أمر واحد يجهله ، وربما هنا يكمن سر هذا الشيخ الذى أصبحت هواية نديم اكتشاف أسراره ، اكتشافها كلها خاصة وهو يبدأ طريقه هذه المرة بعيدا عنه ووحيدا انه دائما يؤكد لمن حوله أنهم ليسوا فى حاجة الى ما يشبه المعجزة ليكونوا اكثر معرفة وقدرة بل من خلال ما يعرفون يمكن أن يصلوا الى معرفة أرقى ومن خلال قدرتهم المحددة يمكن أن يحققوا المعجزات .. ! انه يقول للفلاح « أنت تشق الأرض بفأسك باحثا عن رزقك فلم لاتشق بهذه الفأس صدور ظالميك ؟ » وكأن الثورة ليست سوى تغيير طفيف في اتجاه الحركة واتجاه الفكر ، لكن ليس فى اللغة وحدها يكمن السر هكذا خاطب نديم نفسه ، فلقد افهمته بدوائ

كيف تصبح اللغة سجنا لصاحبها وحاول أن يبيع للناس بضاعة غير الكلام ، وفى المنصورة عرف انه يمكن أن يفشل حتى فى هذا العمل الذى يمكن أن ينجح فيه أى غلام لم يغادر بلده ! فقط نجح كمهرج يقدم للباشا ورفاقه تسلية رخيصة ومبتذلة ، نجح فى العمل الوحيد الذى لا يمكن أن يعود اليه ، وحين عمل وكيلا لدائرة توتنجى بـك شاهد ما هو اكثر فظاعة من الفشل أو السجن أو الموت حتى ولو كان موته هو ٠٠ !



وفى الحقيقة ربما كان المرء لا يلقى موته أبدا الا حين ينجو منه لقد أدرك هو هذه الحقيقة حين وقف على حدود بدواى لا يفصل بينه وبين موته سوى حقل حنطة صغير ! أما فى دائرة توتنجى بك فلم يكن ما رآه هو موته فقط أو موت غيره من البشر ٠٠ ! كان شيئا آخر أكثر فظاعة وقسوة ففى أواخر ذلك العام التعس ١٨٧٧ ، لم يكن المال وحده هو الذى يتلاشى من خزينة الحكومة ومن جيوب الأهالى ٠٠٠ بل كان الماء أيضا ، فلقد انخفضت مياه النيل فى ذلك العام انخفاضا شديدا ، وفى الصعيد جفت أشجار القطن وأعـواد الذرة ، وصوحت الحقول ، وامتد الجفاف الى كل شـــىء ، الى ضروع الماشية ، ووجوه الصغار والكبار ، وتحولت الكلاب الضالة الى ذئاب مفترسة واختفت الطيور ، واختفت قبلها ديدان الأرض ولم تعد الهجرة وسيلة للحياة ، فقد كان الموت البطىء المريع فى كل مكان ، ولأول مرة رأى نديم كيف أن الموت الذى رآه وعرفه بكل أنواعه حتى الموت حرقا يمكن أن يعد من نعم الحياة العظمى ، اذا قيس بهذا الفناء البطىء المروع الذى احدثته المجاعة فى هذا العام التعس ، وعلى مشارف الحقول المسودة ، والجسور المشققة ، وخلف جدران البيوت ، وفى كل مكان كان عمله يدفعه اليه ، كان يلتقى بهؤلاء الذين يموتون لا فى يوم أو اسبوع أو شهر بل فى

شهور طويلة شهور كافية لأن يروا فيها للعالم صورة غريبة ، صورة استطاع نديم نفسه أن يراها معهم دون أن يحسها مثلهم تاركا لهم وحدهم مرارة الاحساس ، فلقد كان العالم الذى عرفه دائما وعرفوه مجموعة من البلاد والأسر والعلاقات عالم متشابك فى علاقة ، قد تكون حبا أو كراهية ، صداقة أو عدواة ، ولكنه أبدا متشابك ٠

***

ولكن ما تكاد الارض تتشقق حتى تمتد الشقوق الى العـــالم كله ، الى البلاد والأسر والعلاقات ، ويصبح الجميع مجرد أعداد ، مجرد أفراد ، تنحصر علاقتهم بالأرض المشـــققة السوداء كأنما يبحثون فى شقوقها عن بداية الحياة أو نهايتها ، كل وحده ، يبحث وحده ، ويعيش وحده ، ويموت وحده ، عالم تسقط فيه كل اللغات ، حين تسقط كل العلاقات ، وتستحيل الرغبات البشرية اللانهائية الى رغبة واحدة لا مثيل لضراوتها ٠٠ رغبة فى البقاء ، وكأن الحياة تزداد جمالا كلما ازدادت بشاعة وقسوة واستحالة ، وفى هذا العالم الذى وقف نديم على حدوده متفرجا ذاهلا مروعا ، كان كل شىء يفقد معناه من جديد ٠

***

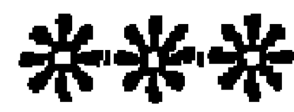
حتى أحاديث الشيخ جمال الدين وهو جالس فى مقهى الازبكية يشرب الشاى ويدخن ويثير مشاعر من حوله ضد الظلم ويتقاضى راتبه من الخديوى ، بدت له ضربا من البلاهة والسخف ، وما جدوى أن تعيش الأفكار وتنتقل من جيل الى جيل بل ما جدوى الأفكـار ذاتها ؟ مادامت الحياة الانسانية ذاتها قريبة هذا القرب المروع من الحياة الحيوانية ؟ ما دام البلاء يأتى من هنا ومن هناك ، مادام هو نفسه كاد يفقد شعور الانسان العادى ازاء هذه الفاجعة ! ولـم يكن نديم يتردد فى أن يصرخ فى وجه الشيخ جمال الدين بكل مواجعه في أول فرصة يراه فيها جالسا في هذا المقهى اللعين يثرثر أو يكتب

المقالات فى الصحف الجديدة التى ساعد على انشائها وحين رجع الى المحروسة ، لم يجد أستاذه فى نفس المكان ، كانت الشقوق التى أبصر بدايتها فى أرض الصعيد المجدبة قد تسربت الى كل مكان والى كل بناء ، وكانت السلطة نفسها قد أصـــبحت أكثر الابنية تصدعا ، وكان الشيخ جمال الدين ورفاقه يشقون طريقهم خلال هذه الشقوق فالخديوى الذى جرب الاستسلام للاجانب كوسيلة للمحافظة على العرش ، وضحى فى سبيل ذلك برجله اسماعيل صديق المفتش ، عاد يجرب المقاومة كوسيلة جديدة مستغلا الأخطاء التى تردت فيها الوزارة الاوربية ، وهى وزارة نوبار باشا التى ضـــمت وزيرين أوربيين وحلت محل المراقبة الثنائية ، لتزداد قبضة الأجانب احكاما وقدرة على أن تعتصر وتعتصر وحين حلت المجاعة تلوثت اليـد المعتصرة بدم الشعب ، وأبصر الدم كل من لم يكن هناك ، أبصره الخديوى نفسه وأبصره الشيخ جمال الدين ورفاقه ، وأبصره أولئك الذين لا يزالون يحتفظون بدمهم فى عروقهم ، والذين كانوا يقاومون الخديوى فى الماضى وانبروا الآن لمقاومة الأجانب ٠٠ وهكذا أصبح أعداء الأمس أصدقاء اليوم ، اختلف الدافع واتفق الهدف ، كان الجميع يريدون ازاحة القبضة الجهنمية ، وحاول الخديوى أن يستغل هذه الجماعة التى كانت تلتف حول الشيخ جمال الدين فى تحقيق هذا الهدف أملا أن تحل قبضته محل قبضة الأجانب ملوحا باستعداده لقبول دستور حقيقى هذه المرة ، وحاول الشيخ جمال الدين ورفاقه استغلال هذا التلويح من جهة الخديوى والتأييد من الرجل الذى لا يزال حاكما من الناحية الشرعية ، فى ازاحة قبضة الأجانب آملين بدورهم أن ينتهزوا فرصة العمر لاقرار دستور حقيقى لايسمح لأى حاكم أن يعيد هذه المأساة ٠

كان التصدع الذى سرى فى جدار السلطة فرصة للحرية ،

والآن أصبح فرصة للعمل ، ولكن ما جدوى هذا كله بالنسبة لمن يموتون هناك ؟ كان نديم هو الذى يسأل وهو الذى يشرح لاستاذه بنبرة يائسة الفظائع والاهوال وكان الشيخ جمال الدين ينصت فى هدوء ويؤكد له أنه الآن يبصر شيئا أفظع من كل ما أبصره نديم !! وحين تطل من عينى نديم نظرة غريبة ومتسائلة يقول له :

– يابنى ليس هناك شىء أفظع من أن تترك اليأس يدمر روحك ! لقد قلت الآن انهم هناك رغم كل شىء يتشبثون بالحياة وأنت « رغم ما تراه هنا وما نفعله الآن » تتشبث باليأس أليس منظرك أكثر فظاعة ؟

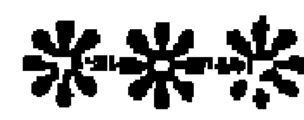


وتساءل نديم فى تلك اللحظة لم حقا لا يبصر الأمور كما يراها أستاذه ؟ لم يفترسه اليأس وحده بينما يحتفظ هذا الرجل بشموخه وصلابته حيال كل شىء ؟ وعلى نحو هادىء ، وفى محاولة جادة لفهم الرجل وفهم نفسه أيضا ، واستخلاص كل ما يمكن استخلاصه منه وتحويله الى شىء يبقى فى الرأس ، ويصلح للزمن ، خيل اليه أن الفارق بينه وبين أستاذه ، هو نفس الفارق بين من يعيشون فى القمة ومن يعيشون فى السفح ، واذا كان الشيخ جمال الدين لألف سبب سيبقى فى هذا المكان المرتفع بحيث لا يرى ولا يتعامل الا مع الصورة العامة للناس والمشكلات ، فانه هو نديم لألف سبب آخر ، سيغوص بقدميه فى الأوحال فى التفاصيل والأحداث والوقائع ، حيث يمكن أن يفترسه اليأس اذا لم يجد لرأسه مكانا يستطيع منه بين وقت وآخر أن يبصر الصورة العامة للناس والمشكلات ، وفى الجمعية الماسونية وجد هذا المكان وكان الشيخ جمال الدين الذى التف حوله الساخطون هنا وهناك فى الجيش وبين الأعيان والمثقفين قد وجد فى الحركة الماسونية ملامح صيغة جد موفقة لانتظام هذه الفئات

المختلفة تحت شعارها الفضفاض الذى يتيح لغة موحدة لهـؤلاء جميعا ويتيح اكثر ـ وهذا هو الأهم ـ نوعا من الحماية ليس فقط من طغيان الخديوى بل من طغيان الأجانب الذين كان بعضهم منضويا تحت لواء هذه الحركة التى اجتمع تحتها ولأول مرة الأعلى والأدنى والشرق والغرب ! وهكذا وجد نديم نفسه عضوا فى نفس الجماعة مع الأمير محمد توفيق ولى عهد الخديوى ، والذى كان الشـــيخ جمال الدين يدخره كأمل كبير حين يأتى يوم تشير فيه كل الدلائل الى قربه ، وظل نديم يواصل طريقه الغريب بين اليأس والأمل ، بين السفح والقمة ، بين الذين يناضلون من أجل الغد والذين يناضلون من أجل اللحظة ، وعلى نحو بدا له على الأقل مفاجئا سأله الشيخ جمال الدين :

ـ لم لا تذهب الى الاسكندرية ؟

وها هو الآن فى طريقه الى الاسكندرية قبل أن يتملكن حتى من اخبار أبيه بعودته ..



ان الشيخ جمال الدين الذى يعيش فى القمة والذى يتعامل دائما من الصورة العامة للناس والمشكلات والذى لايزال يتقاضى مرتبه من الخديوى ، لا يمكن ان يرى أبدا الاشياء الصغيرة ، أو حتى لا يسمح لغيره بأن يلفت نظره اليها ويقينا انه لم يفكر لحظة واحدة فى أن « نديم » قد بلغ الخامسة والثلاثين من عمره ، ويقينا لا يذكر عدد أطفاله مع انه أخبره بذلك مرة ولا يحس بما يعانيه رجل فى مثل سنه حين يحاول أن يبدأ البحث عن عمل ، وأن يلتمس التوفيق بين العمل الذى يعيش له والذى يعيش به ، وأين ؟ فى مدينته القديمة حيث لا يزال أبوه لا يرى فيه غير شاب لم يعرف بعد طريقه الصحيح وحيث رفاق السن قد استقرت بهم الأحول والأعمال وحيث ماضيه

الطيب والردىء لايزال ماثلا فى بعض الاذهان ، لم يفكر الشيخ جمال الدين فى هذا كله ، وأيضا لم يفكر هو فيه حين سمع سؤاله الحاد بل قد تحجب طويلا لأنه لم يفكر من قبل فى العودة الى الاسكندرية ولكنه الآن مع نفسه ، يقيس المسافة اللعينة التى كانت وستظل تفرق بينه وبين أستاذه المسافة بين القمة والسفح ، بين هؤلاء الذين من أبسط حقوقهم الا يفكروا لحظة فى مشاكل العيش وبين من هم على شاكلته ، مستشعرا وحشة غريبة ، ورغبة غامضة فى أن يطرح ماضيه كله وأن يختزله الى شىء لا يبهظه حمله ، وحين حاول – والقطار يواصل رحلته – أن يبصر هذا الشىء أن يتأمله وحده ، اذا به يجده رغبة مجرد رغبة ، فى أن يكون عبد الله نديم ولاشىء أكثر ، ولقد هدته الأعوام الماضية الى أن يعرف أشـياء صالحة عن عبد الله نديم هذا ، أشياء صالحة لأنها حقيقة بقدر ما يستطيع الانسان أن يعرف من الحقيقة ، ان كل شىء له حدود ، طاقة المرء وخبرته وعواطفه وفكره ، ومعرفة المرء لحدود نفسـه لايعدلها فى الاهمية الا معرفته لحدود من حوله من الناس والاشياء ، وفى الحقيقة أن «نديم» قد بدأ يدرك أن اصلاح بلد أو دين أو أمة لا يمكن أن يكون مهمة فرد أو جيل وانه لا يبدا مجرد بداءة الا حين يتحول الى عمل منظم ومحدد ، وربما لم ينقذ الشيخ جمال الدين نفسه من مرارة اليأس سوى شىء واحد لم يقله ، وهو ما يحاول نديم الآن أن يتعرف عليه . ذلك الشىء هو أنه بدأ يحول أحاديثه الملتهبة الى عمل ، وها هو الآن يعود الى الاسكندرية وليس يرجو أكثر من أن يلتمس خيوط هذا العمل ، عمل يمكن بعد شهور أو أعوام أن يتطلع اليه ، ويقول هو أو يقول الناس ، هاهو عبد الله نديم ، ان أعظم ما قدمته له الأعوام الماضية انها نفت والى غير رجعة الاوهام الغامضة والمنى اللامحدودة ، وهذا أمر قد تمضى مئات

السنين على موت بعض الناس دون أن يدركوه ، لقد عرف بعد كل هذا التجوال مكانه ، وليس يريد أكثر من أن يحتفظ لقدميه بمكان في السفح ولرأسه بمكان في القمة حتى لايقتله اليأس أو تضلله الاحلام، ولينسى لحظة أنه يعود لأهله كما تعود الخيبة أو الندامة ولينسى أنه سيصبح بعيدا عن الرجل الذى ظل لسنين طويلة لا يتصور لحياته معنى بعيدا عنه ، بل ولعله يشعر الآن والقطار يبتعد ويبتعد بنوع من الراحة ·· بنوع من الانعتاق والتحرر من أسر ذلك الرجل بعد أن كاد يحل طلاسمه وألغازه ، وأن يعبئه فى فكرة يودعها مكانا من رأسه ، فاليوم وليس فى أى يوم آخر كان بمقدوره أن يدرك أن مجرد كونه لا يزال حيا ، لا يزال راغبا فى العمل والأمل لايزال يشم الهواء وينفث دخان سيجارته لا يزال يبصر ابتســـامة الطفل الجالس أمامه والذى كان ربما يضحك من شكله ، كل ذلك شيء رائع وجميل ، وراح يداعب الطفل ويحادث أباه ويتاكد من حوله من الركاب على نحو اثار دهشتهم ، كانت شهوة الحديث مع الركاب قد تفجرت فيه على نحو مفاجيء كأنها جزء من شهوة الحياة ، وكان الركاب يتبدلون ولكن « نديم » كان دائما يوصل أحاديثه ·· حتى وصل الى الاسكندرية !!

***

الاسكندرية

لا ، ليست تلك هي الاسكندرية ، هكذا كان نديم يخاطب نفسه بعد أيام قضاها في التجول هنا وهناك وفي زيارة لبعض الاصدقاء الذين فوجئوا بعودته ·· ولكنها رغم كل شيء كانت الاسكندرية ، ان التغير يصيب المدن كما يصيب الناس ، ولقد أخفت امه دمعة في ذيل طرحتها السوداء وهي تتفحصه بعينيها ويديها قائلة :

ـ لقد شاب شعرك يا ولدي ! ولم يفكر في أنه قد كبر حقا الا حين رأى « محمد » أكبر أبنائه ·· أما زوجه فلم تعد بأية حال تلك الصبية الصغيرة التي تزوجها ، أبوه وحده لم يكن قد تغير كثيرا ، ربما لأن آثار الفرن كانت تخفي التغير الحقيقي دون أن تتغير هي ، ولقد فوجيء بأخيه عبد الفتاح وقد أصبح رجلا حقيقيا هذه المرة ، وفوجيء مرة أخرى بأبيه يفشل بعد يومين أو ثلاثة ـ قضاها في الترحيب والسؤال ـ عن اخفاء قلقه بعد أن عرف حقيقة ما عاد به ، وعاد له ، وكان طفلاه الصغيران الياس وعائشة في حاجة الى شيء

أكثر من اللعب التى أحضرها لهما لكى يألفاه كانا فى حاجة الى بعض الوقت !! وكذلك كان هو فى حاجة الى بعض الوقت ليتعرف على اسكندريته القديمة التى جاب شوارعها وحاراتها حافيا تارة ومنتعلا حذاء مرقعا تارة أخرى ، وزائرا يخف الأصدقاء للقائه تارة ثالثة وها هو الآن يعود ليبقى ، فلا أقل من أن يبحث عن كل أصدقائه القدامى وسط مدينته القديمة فهم وحدهم سيكونون أدلاءه فى المدينة التى أصبحت من بعض الوجوه غريبة عليه !!

***

وبعد أسبوعين قضاهما فى قبول الدعوات ، وفى التجول الطليق مع الأصدقاء والجلوس فى المقاهى والدكاكين والتحدث مع من يعرفهم ومن يعرفونه ، وفى نبش الذكريات الحلوة والمسرة ، واستنشاق روائح الماضى ، والاختناق بروائح الحاضر ، كان بمقدوره أن يقيس هذه المرة مدى التغير العميق الذى ألم بمدينته وبالناس وبه أيضا ! .

***

واذا كان الأجانب قد تركوا فى المدن الأخرى وفى المحروسة على وجه خاص بصماتهم فى بعض الأمكنة وفى بعض مظاهر الحياة فهنا فى الاسكندرية كانت تلك البصمات هى الملامح البارزة للمدينة فالتجار الأجانب الذين كانت لهم فى المنصورة سوق يتمركزون فيها ، كانوا هنا فى كل مكان ، والحانات والمقاهى التى كانت تبدو كمجرد خدش فى ملامح المدن الأخرى كانت هنا من أبرز المعالم ، والخمور التى كانت فى القرية أو المدينة بضاعة ثانوية يبيعها الخواجة سرا أو جهرا مع البقالة ، كانت هنا تشرب على ارصفة المقاهى وكانت هنا دور للبغاء ، دور للصحف المصرية والاجنبية ، واذا كان من الممكن أن تقطع شارعا بأكمله فى المحروسة دون أن تلتقى بوجه واحد من الأجانب فقد كان من المستحيل هنا أن تعبر طريقا او ميدانا دون

أن تنظر الى وجه أجنبى ودون أن تسمع لغة أجنبية ، صحيح أن ذلك بوجه عام كان من قديم طابع هذه المدينة.التى تبدو وكأنها تنتمى الى ما وراء البحر أكثر مما تنتمى الى ماوراء النهر ، وصحيح أن « نديم » الصبى قد رأى فى طفولته آثار الرومان واليونان وتسلق التماثيل والمسلات ، وتفرج على أسواق الشوام والمغاربة ورأى الخواجات من مختلف الأجناس والتقطت اذناه بعض كلماتهم ، وهم يهبطون من الميناء أو يعودون اليه ، ولكنه الآن يبصر الميناء نفسه وأرصفته مثقلة بالبضائع الأجنبية التى لا تلبث بعد قليل أن تطل من رفوف المحال التجارية ، وتتحول فى الشوارع الى أزياء تجتذب المعيون ، وفى البيوت الى أثاث وفراش تنحصر حوله أحاديث الزوار يتباهى به أصحابه ، وفى المقاهى تصبح هى الشراب المفضل ، وفى المطاعم تصبح الصنف المطلوب ومع البضائع كانت تزحف التقاليد الأجنبية فى الملبس والمأكل والمشرب ، وأمامها كانت تتراجع تقاليد الاسكندرية الأصيلة تقاليد التجار والصيادين وتتحصن بالأحياء الشعبية القديمة بالمنشية والمكس وكوم الدكة ، وربما كان الفقر وحده هو أمضى الاسلحة فى رد هذا الهجوم الذى كان يتسلل حتى الى هذه الأحياء مستخدما سلاح الخداع ليبيع لهم الخمر الرخيصة والبغاء الرخيص ، وكانت الحدائق العامة هى فرصة ابناء هذه الاحياء لممارسة التقاليد الأجنبية لحظة من زمان ، قبل أن يعودوا الى عالمهم القديم فى أحيائهم القديمة واذا كان شكل المدينة يحمل هذه البصمات فان أعماقها كانت تنبض بكل ما خلفه عبد الله نديم فى المحروسة ، وكان فى حاجة الى وقت أطول ليتسمع هذا النبض ، وكان صديقه القديم « محمود واصف » هو دليله فى تلك الرحلة التى تستهدف قلب المدينة وضميرها ، كان شابا ربع القوام ذكيا صموتا ، حاد اللسان ، حاد الملامح أبيض الوجه ، وكان

شاعرا فى تلك الايام التى كان الشعر فيها كالمراهقة مرحلة لابـد أن يمر بها كل شاب قدر له أن يتلقى قدرا من التعليم ولكنـــه كان موهوبا حقا ، وجديرا بأن يصبح شاعرا عظيما لو لم تجرفه لعبة السياسة فى تلك الأيام ، وكان الصدع الذى سرى فى جدار السلطة تظهر آثاره المباركة فى كل مكان ويختلف حجمه باختلاف متانـــة البناء ، وربما كانت الاسكندرية أضعف أجزاء البناء صلابة لا لانها بعيدة عن مركز السلطة ، بل لانها حافلة بالمتناقضات كذلك ، فهنا حيث يمكن أن يرى الموظفون والتجار والصناع من شعب الاسكندرية أمثالهم من الاجانب ينعمون بالحرية وبما لا يحصى من الامتيازات فى القضاء والتعليم والعبادة والتجارة والضرائب والجمارك والمرح، هنا اكثر من اى مكان آخر كان يمكن أن يتحول الصدع الى فجوة كبيرة يشق خلالها الثائرون طريقا رحبا ، واذا كانت الثورة فى المحروسة لا تجد أبناءها الا فى تلك الشرذمة التى تلتف حول الشيخ جمال الدين ، وفى شرذمة أخرى من الاعيان والذوات المصـــريين الذين أضر بهم الغاء دين « المقابلة » كما أثقلتهم الضرائب فراحوا يجتمعون سرا فى حلوان مؤلفين ما أسموه « الحـــزب الوطنى » متصلين سرا بالشيخ جمال الدين ورفاقه ، وفى شرذمة الضباط الذين تتأخر رواتبهم وتنقص ويعانون من استبداد الأتراك والشراكسة الذين تنحصر فيهم قيادة الجيش ومناصـــبه الكبيرة ، فهنـــا فى الاسكندرية كانت الثورة تجد أبناءها بين الموظفين والتجار ، بين المصريين والشوام ، بين المسلمين والمسيحيين واليهود ، هنا كانت حرية الأجانب وامتيازاتهم تمنح بعض بركاتها للثوار وهنا تألفت جمعية سرية سمع بها نديم قبل أن يحضر الى هنا اسمها جمعية « مصر الفتاة » وعن هذه الجمعية كان نديم يسأل صديقه « محمود واصف » : ما الذى تعرفه عنها ؟

ولكن الصديق الصموت الماكر كان يجيبه بأسئلة أكثر وأغزر عن المحروسة ومن فيها من الثوار محاولا أن يعرف كل شيء عنهم وعنه ، ولم يدخر نديم عنه اجابة واحدة ، أفضى اليه بكل همومه وشكوكه ومخاوفه وآماله قبل أن يصرخ فى وجهه

ـ والآن لم لا تعرفنى بأمين سر الجمعية ٠٠ ؟ ألم تزعم أنك تعرفه ؟ ما الذى تنتظره ؟

ـ نعم وسأعرفك أيضا بنائب رئيسها ٠

ـ كفى وعودا ، هل تظن أننى جئت الى هنا لاسمع أشعارك فقط ؟

ـ ولكنك أسمعتنى أشعارك كذلك وكانت تلك صفقة رابحة بالنسبة لك !

ـ أيها الملعون ومتى سنلتقى بهذين الوغدين ؟

ـ الليلة فى منزل صديقك محمد أمين ٠

ـ وهل يعرفانه ؟ وهز محمود واصف رأسه مؤكدا



ورحب بهما محمد أمين الذى كان موظفا بمحكمة أسيوط وانتقل الى الاسكندرية موظفا بديوان الأشغال كان شابا أريبا لبقا يستطيع أن يتحدث الى أكثر من شخص واحد فى جلسة واحدة دون أن يشعر أحدهم بأنه أهمله ، وكان صديقا قديما لنديم ، ومحبا لا أكثر للشعر وللأدب ، ثم أصبح محبا للسياسة أيضا وشربوا القهوة ودخنوا ونفثوا مع الدخان مواجعهم ، وتساءل نديم فى ضجر :

ـ ومتى سيحضر الصديقان المزعومان ؟

ـ انهما حاضران منذ ساعة أنا أمين سر الجمعية ، ثم أشار الى محمد أمين قائلا : وهذا نائب رئيسها !!

ولم يضحك نديم ، فلم تكن تلك نكتة ، وتساءل بعد لحظة صمت كئيبة موجها سؤاله لمحمود واصف

ـ لم اتبعت معى هذه الطريقة ؟

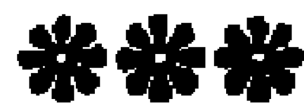
ـ لو التحقت بجمعية سرية لعرفت أن هذه هى الأصول ٠

ـ مع من تجهله ، ولكنك تعرفنى أيها الوغد !

ـ لا تغضب ربما كان يقصد مداعبتك ! هكذا تدخل محمد أمين الطويل القامة الذى يبتسم دائما حتى فى أحرج اللحظات وقال محمود واصف بلهجة ساخرة :

ـ فعلت هذا فعلا لأننى كنت أعرفك ، ثم واصل حديثه

ـ كنت دائما أحمق يانديم وثرثارا مفتونا بأحاديثه ولو كنت مثلك ما ادخرت كلمة فى صدرى ، ثم أضاف : لكنك تغيرت قليلا وهذا من سوء حظ مستمعيك ، وفى النهاية ضحك نديم ولم يكن أمامه سوى ان يضحك !



واصبح نديم عضوا فى جمعية « مصر الفتاة » السرية ، وفوجىء بأن أعضاءها أقل عددا مما يتناسب مع سمعتها المدوية ، حفنة من التجار أغلبهم من اليهود الذين تاثرت تجارتهم بتجارة الأجانب وحفنة من الموظفين ، واستمع نديم الى المناقشات وشارك فيها وفى صياغة المنشورات ، ورأى لأول مرة ضمن أعضاء الجماعة أديب اسحق وسليم النقاش ونقولا توما ، وكان أبرز من آثار اهتمامه

من هذا الثالوث الشامى هو أديب اسحق الذى يحرر جريدتى «مصر» و «التجارة» ، كان قد قرأ له ، وسمع عنه الكثير من الشيخ جمال الدين وأوصاه أن يتعرف به ويكتب فى جريدتيه ، ولم يكتم دهشته حين وجده يصغره على الأقل بعشرة أعوام بينما تنم كتاباته عن اطلاع وخبرة أكبر بكثير من عمره ، وباسرع مما توقع تبخر افتتانه أو فضوله بتلك الجمعية ، كانت المشكلات هى المشكلات ، والسخط هو السخط ، والأحاديث هى الأحاديث ولم يكن لدى هذه الجمعية خطة عمل ، الا اذا اعتبرنا كتابة منشورات تندد بتدخل الأجانب ، وتنادى بحكومة مسئولة أمام البرلمان وفق أحدث الدساتير فى أوربا ، وتهدد باغتيال من يقف فى طريق هذه الأهداف ، الا اذا اعتبرنا هذا كله خطة عمل .. ! ولم يكن ثمة جديد سوى ظهور مثل هذا العدد من أبناء الشعب الذين لا تحركهم مظالم خاصة كتلك التى تحرك الأعيان والضباط فى المحروسة ، كانوا يعانون من ذلك الظلم العام الفادح الذى ينوء به الصغير والكبير ، وكانت تحركهم تلك الروح الوطنية التى كانت تهب بشائرها فى تلك الأيام ، وتهب هنا اكثر من أى مكان ، آتية من وراء البحر ، مع المهاجرين ، ومع الصحف ، متصدية للاجنبى ، ومثيرة عواطف المواطن مهما يكن دينه ضد الظلم مهما يكن مصدره ، ولكن هذا رغم موافقة نديم عليه ، لم يكن ما يبحث عنه ، كان قد سئم ترديد السخط بكل أنواعه ، وكان يبحث عن شيء يمكن أن يمسكه بيديه ، كان لايزال يبصر بوضوح المسافة المروعة بين السفح والقمة ، بين من يعانون من أجل الغد ومن يعانون من أجل اللحظة ، ولم تستطع حماسة هذه الحفنة من الشباب أن تجرفه معها أو أن تنسيه خوفه وحذره وحرصه فى نفس الوقت على الا يضيع وقتا آخر كهذا الذى ضيعه ، وكان صديقه الذكى الصموت

محمود واصف هو الذى أدرك ذلك قبل أن يفتح نديم به فمه وكان هو الذى قال له :

ـ اذا لم يخب ظنى فجماعتنا الصغيرة تلك لا تعجبك ! ؟

ـ نعم

قالها نديم بسرعة كأنما أراد أن يقطع الطريق على تردده . كانا يسيران وحدهما فى تلك اللحظة على شارع البحر ، وكان رذاذ الموج الذى يصطدم بصخور الشاطىء التى لم تكن معبدة آنذاك يتطاير على وجهيهما ، وكان وجه نديم أكثر امتلاء منه فى أى وقت مضى ، وكانا قد خرجا لتوهما من اجتماع سرى لزم فيه نديم الصمت ووقتها أيضا كان قرص الشمس الملتهب يغرق فى مياه البحر كما يغرق كل يوم دون أن تنطفىء جذوته الأبدية !!

كان محمود واصف يتساءل فى هدوء : لماذا ؟

ـ لأنها جماعة صغيرة

ـ أوحشتنا نكاتك

ـ لم أقصد أن أقول نكتة

ـ ماذا تقصد اذن ؟

ـ ماذا تقصدون أنتم بهذه الجمعية ؟

ـ تقول أنتم ؟ نسيت أنك عضو بها

وجذبه نديم من ذراعه من أمام عربة مسرعة تجرها الجياد ويركبها خواجة بدين وبجواره زوجه يعبث الهواء بشعرها الناعم القصير ثم قال نديم :

ـ كانت مجرد محاولة للبحث عن شيء للفهم !

ـ ولم تجده !

ـ نعم

ـ لماذا لم تقل ذلك أمام الأعضاء ؟

ـ سأفعل ، ولكنه أفضى لمحمود وأصف بما فى قلبه لم ينتظر أياما ليقول له ما انتوى أن يقوله لبقية الاعضاء !



وأمام الأعضاء أعاد نديم سؤاله ، وانبرى البعض يرددون أمامه ما سبق أن سمعه وظل صامتا حتى انتهى آخر متحدث ثم قال نديم وهو متكىء على منضدة خشبية تتحلق حولها الجماعة التى كانت تتسع لها صالة بيت أحد الأعضاء كان صوته عميقا نافذا وربما كان فى حاجة الى أن يخفضه قليلا مع أن الصالة لم تكن قريبة من الباب المؤدى للسلم وكان الضوء منبعثا من مصباح حجرة مجاورة وبدت ملامح نديم تكتنفها الظلال فازداد وجهه قتامة وعبوسا وهو يقول :

ـ أيها الاصدقاء أحب أن تتأكدوا جميعا أننى مقدر لسمو أهدافكم ولشجاعتكم وربما تكون هى التى عدتنى فوجدت القدرة على مواجهتكم برأيى ، ولست أريد أن أطيل عليكم ، ولكنى أشعر بأن هذا الطريق أعنى العمل السرى ليس من الضرورى أن يكون طريقنا هنا ، لقد تركت ورائى بالمحروسة كثيرا من الجمعيات السرية بعضها يضم ضباط الجيش وبعضها يضم الذوات والاعيان ، ويحاول الشيخ جمال الدين أن يضم الجميع ، ليوحدوا نشاطهم ، وهم هناك

ربما كانوا أكثر قدرة على القيام بعمل ايجابى فلديهم أموال الاغنياء وأسلحة الجيش ، ورأس الشيخ جمال الدين ، أما نحن ولست أهدف أبدا الى التقليل من شأننا فأظن أنه يمكننا أن نقوم بما لا يمكنهم القيام به ، وبعمل لا يمكن أن يتهدده الفشل أبدا ، بعمل أعتقد أن الشعب فى حاجة اليه نفس حاجته الى الدستور ! وصمت لحظة انتهزها محمود واصف قاصدا أن يمهد جوا لطيفا لاقتراح نديم فقال :

ـ وتزعم أنك لا تريد أن تطيل !

وضحكوا ، وضحك نديم ، وخفت حدة التوتر التى سادت المكان لحظة وسأل عضو اسمه الشيخ حامد الاعسر كان طالبا أزهريا لم يتم دراسته ، واشتغل بتجارة المصوغات التى قربت بينه وبين عضو يهودى آخر كان يمتهن نفس التجارة واسمه يعقوب زخارى ٠

ـ ما الذى تريد أن نفعله يانديم ؟

ـ نجعل من « مصر الفتاة » جمعية علنية ، وقبل أن يوضح قال أحد الاعضاء من الطرف الآخر للمنضدة :

ـ ساعتها لن تكون « مصر الفتاة » ، وتساءل يعقوب زخارى ٠

ـ ما الذى يمكن أن تقوم به جمعية علنية ؟

وتطوع حامد الاعسر بالاجابة :

ـ تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر !!

وأيدته ضحكة جماعية التفت حول المنضدة ، وتمالك نديم نفسه قائلا :

ـ نعم ليكن هذا شعارنا اذا أردتم ، فينضــم الينا كثيرون يملكون مالا نملك من المال وبأموالهم وبجهودنا يمكن أن نصنع الكثير للناس ، يمكن أن ننشىء مدارس لتعليم الأولاد فاذا نجحت هذه الخطوة يمكن أن ...

ـ ولكنك نسيت أن هذا ضمن ما ننــادى به ، كان يعقوب زخارى هو الذى يقاطع أيضا هذه المرة واندفع نديم محتدا هذه المرة وقد التمعت عيناه وزاد ارتعاش أهدابها

ـ تنادون من وأنتم تدورون فى حلقة المنشورات السرية ؟!

واختلطت الاصوات .

ـ هذه المنشورات تحرم الخديوى من النوم !

ـ وتثير حماسة الناس !

ـ الناس يعتقدون اننا نعد بالمئات !

***

وصرخ نديم : وليس هناك أخطر من هذا كله أن تثير حماسا ثم تتركه يتبدد ، أن توهم الناس أن هناك قوة وهمية يعتمدون عليها بدلا من أن تجعل كل فرد يحس أن الأمر متوقف عليه !

ـ وهل تظن أن جمعية علنية تقوم بفتح المدارس هــى التى ستجعل كل فرد يحس أن الأمر متوقف عليه ؟

كان محمود واصف هو الذى ألقى بهذا السؤال محاولا اعطاء الفرصة لنديم لتوضيح فكرته التى كان قد مال للاقتناع بها من قبــل .

ـ نعم فالمدرسة التى تعلم الاطفال فى الصباح يمكن فى الليل ان يلتقى فيها الكبار فى هيئة اجتماع أو ندوة تتسع للمناقشـــات والخطب والدروس التى ...

ـ وأى كلام يمكن أن تقوله يا نديم فى هذه المحافل ومن يسمح لك ؟

كان محمد أمين هو الذى يسأل هذه المرة وكان قد فوجىء مع الآخرين باقتراح نديم .

ـ المشكلة انهم يظنون ان الشىء الوحيد الذى يمكن أن يقال أو يعمل هو مهاجمة الحكومة ، ومع أننى أعرف كيف أفعل هذا فى اجتماع عام دون أن أعطى الحكومة اية فرصة لابطال الاجتماع فانى واثق أن هناك الكثير الذى ينبغى أن يعرفه الناس حتى قبل مهاجمة الحكومة ، وان مجرد اجتماعهم فى مكان واحد ، مجرد احساسهم بأن فكرة ما تلقى بينهم ليعبثوا بها فى غدوهم ورواحهم ، مجرد لقائنا بهم شىء ذو خطر لو تأملتم الموضوع قليلا ، ولكن احدا لم يشأ أن يتأمل الموضوع كما يتأمله نديم ، لأن احدا منهم لم يكن قد عرف ما عرفه ، واجتذب حامد الأعسر الى ناحيته وجوه الحلقة حين قال :

ـ تأمل الموضوع يمكن أن يكشف عن أشـياء كثيرة ، كان راسه يرتفع قليلا عن حافة المنضدة وكانت عيناه الصغيرتان تشعان سخطا على نديم وهو يكمل عبارته .

ـ لماذا لا تقول لنا الصراحة يا نديم انك تبحث عن عمل ، وبدلا من أن تدبر ذلك بنفسك تحاول أنتسخرنا جميعا لافتتـاح مدرسة لك والعجيب أن « نديم » لم يثر حين أدرك أن الهدف أصبح اثارته فقال فى هدوء :

ـ قبل أن أحضر الى هنا لم أكن متعطلا ، ولست انكر أن البحث عن عمل ضمن همومى ولا أفهم ماذا يتعبك اذا كان العمل الذى يفيد الناس يمكن أن يفيدنى أيضا ! ·

ـ يتعبنى انك تخفى أهدافك الحقيقيـة ، وربما كنت خائفا أيضا وبدلا من أن تترك الجمعية لتوفر لنفسك الأمان تريد هدمها قبل أن تمضى ! ·

وفقد نديم أعصابه هذه المرة كلية واندفع يصرخ :

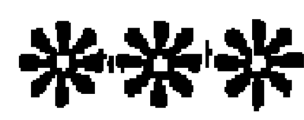
ـ تقول خائف وماذا يعرف صبى مثلك عن الخوف ؟ اما انـا فقد عرفت الخوف ربما قبل أن تولد انت ولم يعد يخيفنى أن أقول ذلك ، ولكن ما يجب أن تعرفه وما يجب أن يعرفه الجميع هنا هو بالتحديد ما الذى اخافه ·· ان ما اخافه أيها الأصدقاء ولسـت مستعدا للتورط فيه هو أن اضيع يوما واحدا فى شىء أشـك فى جدواه ·· وبينما يمكنك أنت ـ وتوجه بنظراته الى حامد الأعسر ـ أن تضيع عشر سنوات أخرى فى البحث عن طريق ، لا أستطيع أنا لأننى أضعت بالفعل هذه السنوات ، أضعتها فى الريف والمدن وفى كل مكان لا تعرف عنه أنت أى شىء ، والشىء الوحيد الذى تعلمته هناك أن عشرات السنين وربما مئاتها تفصل بين أمثالكـم وبين الشعب وأى عمل يستهدف تقريب هذه الهوة هو العمل الوحيد الذى لا أشك فى جدواه ! ·

وبينما تستطيع أية مصادفة سخيفة أن تنتهى بكم جميعا الى السجن ، وتغرق الناس فى خوف ألعن مما هم غارقون فيه يمكنكم أن تفيدوا من كل من حولكم ، ممن يملكون بعض المال ، من عجز الحكومة عن معارضة أى مشروع خيرى ، أن يكون لكم بعض ثقة الأجانب فى المستقبل التى تدفعهم الى توطيد أقدامهـم عن طريق

المدارس والصحف والجمعيات ، أعترف بأننى أكثركم خوفا ، لكننى لا أخاف سوى الفشل ولست فى سن تسمح لى بأن أخدع نفسى أو غيرى بادعاءات من أي نوع ! •

وخيم على الجماعة صمت ثقيـل ، قطعـه محمود واصف بقوله :

ـ لست أرى بيننا خلافا كبيرا أيها الأصدقاء ويمكن أن تستمر الجمعية فى نشاطها ويمكن فى نفس الوقت أن نؤيد « نديم » فى المحاولة التى كانت ضمن أهداف الجمعية ! •



وأنهت كلمات « محمود واصف » الحكيمة تلك الجلسة التى لم يقدر لنديم فيها أن يوضح فكرته بنفس القدر الذى أوضحه بها لمحمود واصف والذى نجح فى أن يضمه اليه ليضم هو بدوره فيما بعد صديقهما المشترك محمد أمين ! •

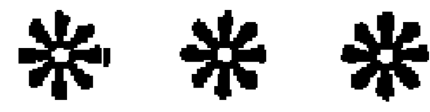
وكانت كلمات نديم التى لم تعبر عن فكرته الا فى صورة سيئة قد أحدثت شرخا فى الجمعية ، واجتذبت اليه أديب اسحق الذى سحرته الطريقة الواقعية التى يواجه بها نديم الأمور فأصبحا صديقين ، وفى الحق أن « نديم » كان أكثر افتتانا بهذا الشـــاب السورى الطويل القامة ، العريض الجبهة ، النحيف جدا الى الحد الذى تنحنى فيه قامته الى الأمام كفرع طرى ، والذى يطلق لحيته فتجعله أكثر شبها بأى قسيس •• لو قدر لأى قسيس أن يكون متحرر الروح والفكر والسلوك كهذا الفتى السورى الصغير ! •



وبعيدا عن كل شىء ، أو بالأحرى مع كل شىء كانت صداقتهما تشق لها مجرى خاصا يستمد ينابيعه من حبهمـا المشترك لأشياء كثيرة ، ومن تطلع كل منهما فى شغف الى ما يمتلكه الآخر ، وكان

نديم فى رأى اسحق يمتلك روح مصر ويعرف نبض قلبها على نحو بدا له على الأقل حقيقيا وعميقا ، وكان اسحق فى رأى نديم نافذة من تلك النوافذ التى يطل منها على الثقافة الأوربية والأدب الفرنسى ويطل منه أيضا على ذلك الجزء من البلاد الشرقية متعرفا على مشكلاته ، متلمسا العلل الواحدة ، والأدوية الواحدة كذلك ، على أن أحاديث الأدب وحدها كانت تلغى بينهما كافة الحواجز وتطلق لسانيهما بأنقى الأحاديث ، وحين أطلعه أديب اسحق على ترجمته العربية لروايتى « اندروماك » و « شرلمان » وحكى له تجربته فى تمثيلهما على المسرح أول ما قدم الى الاسكندرية مع سليم نقاش وقبل أن ينخرطا فى الصحافة ، كانت قراءة الروايتين كما كان الحديث عن التمثيل مثيرا فى أعماق نديم لحلم قديم ، حلم يرجع الى تلك الأيام التى كان نديم يعمل فيها بالقصر ويشاهد روايات صديقه القديم « يعقوب صنوع » الذى كان الخديوى يسميه (موليير مصر) قبل أن ينفيه من مصر حين بدأ يهاجمه فى رواياته ، ومن جديد كان الحلم القديم يستيقظ وئيدا هذه المرة ويتشكل على مهل مستمدا ملامحه من أحاديثه مع أديب ومن تجربته التى لم تكتمل ، ومن ماضى نديم وحاضره ، من كل ما مر به واعتبره لغوا وباطلا وها هو الآن وفى مثل ومضة الحلم يكتشف أن هذا اللغو الباطل يمكن أن يصبح شيئا جادا ونافعا ، وراح يتذكر رسائله القديمة ومحاولاته الأولى فى الكتابة ، كانت كلها تنطوى على تلك البذرة الغريبة ، التى هى جوهر هذه الروايات ، بذرة الحوار ، كانت أفكاره دائما تتردد فى صورة حوار بين أشخاص ، وحين تأتيه فكرة كانت تأتى فى صورة شخص يتكلم ، شخص له ظروف وموقف ، ولا يكاد يفتح فمه بكلمة حتى تتداعى بقية الأشخاص ، وحين كانت تعوزه الشخصيات كان يقيم الحوار بين الأشياء ، وتذكر رسائله القديمة التى أقام فيها حوارا بين الاسكندرية والمحروسة ، وكانت

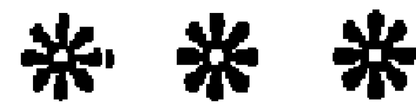
الرسالة للشيخ أحمد وهبى ، وبين الطربوش والبرنيطة ، وكانت الرسالة لعبد العزيز حافظ ، وبين القطار والسفينة ولم تكن لأحد ، وبينه وبين الأدباتية ، ولكاد يصدق أنه لم يجىء الى هنا الا لتحقيق هذا الحلم ، الا ليقيم مسرحا ، وانه فوق هذا المسرح سيلتقى بهذا الشىء الذى يريد أن يمسكه بين يديه ، واذا كان أديب اسحق لم ينجح ، فلأنه لم يقل للناس ما يحبون سماعه ، لأنه لا يعرف مثله مايختلج فى صدورهم ، ولكن هذا كله لم يخرج من رأس نديم فلم يكن أبوه ولا أصدقاؤه ولا هو يمكن أن يسمح بالجرى وراء نزوة جديدة ، كانت حياته كلهـا سلسلة من النزوات ، ولم يعد أمامه سوى أن يجد نفسه أو يفقدها الى الأبد ، وأكثر من هذا كله كانت محاولاته الأولى لتأليف جمعية خيرية قد مضت فى طريقها خطوات لا يمكنه بعدها أن يتراجع ، وفى ركن من قلبه أودع هذا الحلـم الجذاب مواصلا جهوده لتأليف جمعيته ٠٠ !



ـ لكن لابد أن تأخذنى معك ! ٠ هكذا قال أديب اسحق لنديم ٠ وقتها كان أديب يبدو كطفل عذب ، وقبلها كان يستمع ، وهو غير مصدق الى نديم وهو يحكى له نتائج اتصالاته بالناس لتأليف جمعيته الخيرية وكيف أقنع بعض القادرين بدفع تبرعات تكون نواة مادية للجمعية ، وبعض المدرسين بأن يقوموا بالتدريس فى المدرسة التى ستكون باكورة أعمال الجمعية مقابل أجر رمزى الى أن تتحسن الأحوال ، وتاجر سمك بأن يقبل ايجارا معقولا فى بيته الكبير الذى يصلح مقرا للجمعية ، وللمدرسة فى نفس الوقت ، وتجار الكانتو بأن يبيعوا له مواد خشبية بأسعار مناسبة ، وبعض النجارين بأن يحولوا الأخشاب القديمة الى مقاعد وقماطر وسبورات مقابل أجر معقول

لمن ليس لهم أولاد ، ومقابل تعليم الأولاد لمن لهم أولاد فى سن التعليم ومقابل وعد من نديم بتعليم صبى أو أكثر اقنع نقاشا بدهن جدران المدرسة وفراشين ليتناوبا القيام بأعمال النظافة فى أوقات فراغهما من العمل ، وسقاء لنقل الميـاه حتى يتم توصيل أنابيب المياه ! ٠٠ وذهل أديب اسحق وهو يرى ذلك الداعية والمعلم والتاجر والسمسار يخرج ورقة تتضمن برنامجا دراسيا حافلا لمدرسته التى لم تفتح بعد ، يهتم باللغة القومية والتاريخ القومى والدين ، ويهتم فى نفس الوقت باللغات الحديثة والعلوم الحديثة ! ٠

ويطلب من أديب اسحق أن يقول له رأيه ، ولم يطلب منه أديب مقابل رأيه سوى شىء بسيط ٠٠ أن يأخذه معه ! ٠



ومع نديم أبصر أديب اسحق الاسكندرية التى لم يعرفها أبدا والتى ماكان سيعرفها ولو عاش بقية عمره فيها ، كانت جولة لنصف يوم ومع ذلك فقد كانت كافية لأن تهد أوصال أديب وأن تجعله يكتشف متانة بنيان نديم الذى لايشى منظره أبدا بالقوة وأن يكتشف أكثر غزارة قاموسه الشعبى الذى لم يستخدمه أبدا فى أحاديثه معه ، وكثيرا ما كانت تند عنه الأمثال والنكات الشعبية التى ماكان ليعرفها لولا ما يعقبها من ضحكات والتى لم يكن نديم يتردد فى اللجوء اليها لاقناع شخص أو أكمال صفقة ، ولو لم يكن يعرف « نديم » قبل هذه الجولة لظنه نصابا وهو ينثر بلا تحفظ الوعود والأمانى ٠

ـ سوف نعلمهم ونطعمهم كذلك !

ـ نصف التلاميذ على الأقل من الأيتام !

ــ الأعيان يتبرعون بأموالهم لتعليم أولادكم فلم لا تتبرعون بجهودكم •

هكذا كان يقول للفقراء أما الاغنياء فكان يقول لهم :

ــ الفقراء الذين لايملكون غير سواعدهم تبرعوا بالعمل لترميم المدرسة واعدادها وخدمتها فلم لا تتبرعون بفضل أموالكم ؟

وكان أكثر شيء أثار دهشة أديب هو القدرة الفذة التى لابد أن تكون لدى معدة نديم !

ــ أجل معدتك لابد أنها معدة خنزير !! هكذا قال له أديب اسحق وهو يضع يده على بطنه بعد أن عادا من جولتهما الغريبة وكان اديب قد بدأ يعتذر عن المشروبات التى يصر النـــاس على تقديمها لهما ، أما نديم فلم يعتذر أبدا كان يشرب ويتكلم ، ويأكل ويتكلم ، وحين بدأ وجه أديب يتقلص ألما ، وحين كاد يفرغ ما فى جوفه فى الطريق اقترح عليه نديم أن يأكلا معا قليلا من الترمس أو الفول المحروق ، واعتذر أديب ، ووقف نديم فى الشارع يحادث البائع والزبائن الملتفين حول عربته ويلتهم الترمس والفول دون أن يمنعه ذلك من الحديث !

ــ لولا اصرار المصريين على تقديم التحية لما تخلفت عنك فى جولاتك •

ــ لولا اصرارهم لما فكرت لحظة فى مشروع الجمعية !

وضحك أديب الذى كان الضحك يزيد من آلام معدته وقال وهو يتمدد على سريره :

ــ مالا افهمه كيف تجد ماتقوله لكل هؤلاء الناس وتقنعهم به وضحك نديم قائلا :

ـ ولكنى حتى الآن لا أجد ما أقوله لأبى ، فالمشـروع كما ترى لن يسمح لى بأن أعيش بجواره قبل شهور

ـ تريد سلفة أخرى ؟ !

ـ يعجبنى ذكاؤك

* * *

وقبل أن تتطور علاقتهما الى حد اقتراض النقود ، كان نديم قد بدأها باقتراض الكتب وبعدها طلب منه أديب أسحق أن يشارك فى تحرير جريدتى مصر والتجارة فلبى نديم الطلب الذى كان ضمن احلامه قبل أن يصبح ضمن وصايا الشيخ جمال الدين !! ، وسهر ليلة كاملة ليكتب أول مقال فى حياته ، ولم يكن الأمر سهلا كما تخيل فكتابة مقال لصحيفة أمر يختلف كثيرا عن تحرير الرسائل للأصدقاء ، أيمكن أن يكتب شيئا لا يعجب هذا الفتى الذى يبهره بأحاديثه عن أوربا وثقافتها وحضارتها ؟

ولما كان ذلك أمرا جائزا فقد أتعبته كتابة أول مقال كما لم يتعبه شىء فى حياته ، وفرح كصبى صغير حين لمح فى عينى ذلك الفتى لمعة اعجاب بعد أن قرأ مقاله

ـ لم أتصور أن تكتب هكذا ! ثم أضاف أديب

ـ أرجو أن تعذر فكرتى عنك من هذه الناحية فلم أقرأ لك

وقال نديم بعد أن استرد نفسه وعلى شفتيه ابتسامة

ـ أنا أيضا لم أكن أتصور ذلك !

ـ سانتظر مقالا آخر.

ولكنه لم يعطه مليما على المقال الاول ، وفى الحق أنه لم يكن ينتظر ، وربما كانت حاجته الشديدة الى النقود هى التى جعلته يحلم بمسألة النقود ، ولم تكن أجور الكتاب وقتذاك شيئا معترفا به ولكن أن يظل المرء يحلم بهذا الاجر أو ينتظره فلا أحد يمنعه من ذلك ، ولكن « نديم » من ناحية أخرى كانت تشتد حاجتـه الى النقود ، وأصبح صمت أبيه عن هذا الموضوع أقسى من كلامه ، وكان يبصر أديب اسحق يعذبه كل ليلة بدعوته اياه الى أن يشاركه السهر فى أحد المقاهى أو فى البيت مبددا أموالـه فى جنـون على مائـدة الشراب ، وعرف منه أن الحزب الوطنى السرى هو مصـدر هذه الأموال ، وبالتحديد رجل واحد من أعضاء هذا الحزب هو الذى يمد يده الى اديب اسحق بما يحتاجه من مـال هو شريف باشا الوزير السابق الذى استقال احتجاجا على تدخل الاجانب وأبرز المطالبين انذاك بالدستور بين الذوات والاعيان ، كانت الخمر تفك عقدة لسانه فيبوح لنديم بما يجب أو لا يجب أن يعرف من أسرار ، وكان يعذبه أكثر بدعوته اياه ليشاركه الشـراب حين يكونان فى بيته وفكر نديم أن من حقه أن يطلب من صديقه سلفة كان يمكن أن يبددها بمشـاركته الشراب ، وشرب معه مرة أو مرتين لا بدافع المجاملة أو الفضول ، بل ليفهم « أديب » ذلك الفتى الذى يلوك كثيرا كلمة « الحرية » انه اذا كان يشرب أو لا يشرب فلان تلك حريته ، وفى احدى هذه المرات انفكت عقدة لسانه أيضا فشكا سوء أحواله وطلب أول سلفة ، كان كلاهما يمد الآخر بما يمتلك وبعدها لم يعد فى حاجة الى الشراب ليفك عقدة لسانه ، وفى الحق أن جلساته مع أديب اسحق كانت توفر لهما ضربا من الحرية كانا معا فى أشد الحاجة اليه ، فحين يعود نديم من جولته النهارية التى يحاول فيها أن يجسد حلمه بجمعية ومدرسة معانيا من خوف الناس وشكهم

وخرصهم وبلاهتهم وذكائهم كذلك ، حين يعود يجد الفرصة الوحيدة ليقول أو يسمع كلاما لا يستهدف سوى التفريج عن القلب !

ـ متى يبدأ مشروعك العظيم ياصديقى ؟

ـ تسأل عن نقودك ؟

ـ لا ، ولو كنت أنتظرها حقا ما أعطيتها لك !

ـ لماذا ؟

ـ لانك مثلى ستظل فقيرا ولو أعطيت مال قارون ٠

ـ قد أخيب ظنونك وأسدد ديونى !

ـ فى هذه الحالة اذهب وسدد ديونك لاصدقائك القدامى أما أنا فلست انتظر منك غير شىء واحد لاغير

ـ ما هو

ـ أن تدعنى أراك دائما !

ـ أنت سكران يابنى ! قالها نديم فى سعادة

ـ نعـم ، وكنت أحب أن تشـاركنى الشـراب دائما ، لكن ما يعزينى أنك لست فى حاجة الى الشراب لاراك على حقيقتك :

ـ وما الذى تعرفه عن حقيقتى ؟

ـ أنت تشبه مصر فى كل شىء !

ـ اذا كنت تعنى الديون فهذا صحيح !

ـ أعنى الديون وغيرها ، لماذا جئنا الى هذا البلد ؟ لماذا بقى هنا الشيخ جمال الدين اكثر من اى بلد حل به ؟ لأنه رغم البلاء العظيم يحمل الامل العظيم كذلك لنفسه ولمن حوله من البلاد وكذلك تبدو لى أنت ويبدو لى مشروعك الصغير !

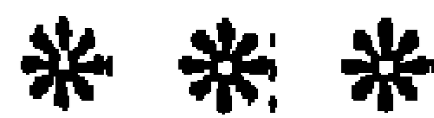
ـ لا تسرف فى الشراب يا أديب !

ـ ايها الغبى ان الشراب يجعلك ترى الحقيقة التى لا تراها ابدا فى صحوك ٠

ـ ومع هذا فأنت لا ترى أن هذا البلد يحمل للاوربيين آمالا أعظم مما يحملها لى ولك ولشعبه البائس ٠

ـ أعرف ذلك وأعرف أنك تعرفه ، ولذا قلت ما قلت ، ان مشروعك الصغير الذى تصدع رأسى كل يوم بالحديث عنه يحمل امكانات عظيمة ، وأخطر ما فيه انك لا تصنع للناس ما هم فى حاجة اليه بل تريهم كيف أنهم مقادرون على ذلك بأنفسهم ، تفعل هذا بنفس البساطة التى تشرب بها قهوتك !!

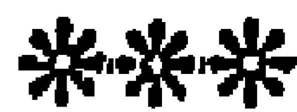
وسكر نديم ، والتمعت عيناه اللامعتان ، وارتعشت اهدابه المرتعشة ولم يرد !!



لم يكن شهر ابريل من ذلك العام ١٨٧٩ موعدا للربيع وحده ففى الوقت الذى كانت فيه قوى الطبيعة التى ظلت طوال الشتاء حبيسة فى أعواد الشجر ، وفى باطن الارض ، قد بدأت تتفجر فى الزهور والثمار ، وتنتشر مع الرياح المحملة بحبوب اللقاح وروائح البحر والنماء والطين اللزج ، وفى الوقت الذى لم تعد فيه قوارب الصيد تخشى عواصف البحر ، ونزع الأولاد ملابسهم على الشاطىء

فى دفء أول يوم قائظ ، وألقوا بأجسادهم العارية فى المياه ! فى هذا الوقت كانت قوى الشعب المصرى التى ظلت طويلا حبيسة فى صدور الناس لا تصعد الا مع الزفرات ، والتى كانت تتلمس طريقها خلال الشقوق والتصدعات كانت هذه القوة تتهيأ لتحدد ميلادها مع مولد الربيع فى شهر واحد ٠٠ !

لكن لحظة الميلاد ، ولو كان ميلاد حركة وطنية ، تسبقها دائما لحظة اندفاع الحياة ، وهى لحظة تحسها الام فى أول انتفاضة للجنين وبعدها تصبح حياتها مجرد انتظار للطفل ، ويحسها الشعب أيضا فى حركات شبه عصبية تقع هنا أو هناك فى شكل مفاجىء ولكنها تصبح كافية لأن تجعله بدوره ينتظر ٠٠ !



وقبيل الربيع بشهر تقريبا ، والشعب يعيش حالة الانتظار تلك كانت الوزارة الاوربية التى ظلت تعتصر الفلاحين حتى تلطخت يدها بدمائهم قد تحولت الى الموظفين المصريين تنقصهم من دواوين الحكومة ، ثم تحولت الى الجيش ، تنقص رواتب الجند ، ثم تؤخرها ثم تكتشف أنها لا تستطيع أن تفعل ذلك دائما فتفضل أن تحل الاشكال بفصل ٢٥٠٠ من الضباط وتسريحهم لكن ليس قبل أن يسلموا مهماتهم ، ويلتقى هؤلاء الضباط فى المحروسة لتسليم المهمات ، ويقينا تساءلوا الى أين ؟ كان الريف الذى شرق بالمجاعة قد غرق فى العام التالى بالفيضان ، ولم يكن سوى الجوع فى انتظارهم ٠٠ ! وبدفعة اليأس وبعقول المتلمسين طريقهم وسط التصدعات والشقوق ، استدارت صفوفهم الى مبنى وزارة المالية ، حيث كان نوبار باشا رئيس الوزارة يتخذ مجلسه فى عربته أمام المبنى ، وفوجىء السائق بصفوف الضباط تسد الطريق أمام الخيل وفوجىء نوبار باشا بمظاهرة الضباط ، هل يقف ليتفاهم مع

مظاهرة ولو سلمية ؟ وامر السائق بأن يلهب ظهور الجياد ، وأمره الضباط بأن يقف ! وارتبك السائق واضطربت الخيل وتحطم زجاج العربة ، وتحطم النظام ، وفوجىء الضباط بأن بداخل العربة رجلا سمينا خائفا ، اكثر منهم خوفا ، فضربوه ، وحين حاول انجليزى اسمه « ريفرس ولسن » كان وزيرا للمالية فى وزارة الرجل السمين أن يتدخل لانقاذه ضربوه كذلك ولم ينقذ الرجلين من يد الضباط سوى وصول الخديوى بنفسه ·· واستقالت الوزارة الاوربية ، وشجعت هذه الحادثة الفلاحين فى سوهاج على أن يضـــربوا ماموري التحصيل وأن يتحصنوا فى الجبال وفشلت العساكر فى الوصول اليهم ودعوا جميع المطالبين بالضرائب المتأخرة ليتحصنوا معهم ، ونشــــرت جريدة « غازيت دى تريبونو » نبأ الثورة فى الصعيد ونقلته عنها جريدة « التجارة » ·

وقال أديب اسحق لنديم :

ـ ما الذى يبقيك هنا ؟

لم لا تذهب الى الصعيد وتقود الثورة من هناك ؟

كان يضحك ··· وهو يتكلم

ـ كنت هناك ، رأيتهم وهم يموتون !

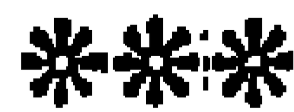
وكان نديم يتكلم فى أسى وهو يقلب الجريدة فى يده غير مصدق ·

ـ الشعب لاتقتله المجاعة ، وليست تلك سوى بداية !

وهز رأسه ، كان يبدو كما لو كان خائفا ، لقد حدث كل شيء فى بساطة مخيفة وعلى نحو تلقائى ، مسببا لجميع الناس فرحا عميقا ، وقلقا عميقا كذلك ، وكان ذلك كله قبل أن يحل الربيع .

وفى شهر ابريل ، وفى اليوم الثالث منه على التحديد جاءت الى الاسكندرية أنباء عظيمة ٠

« لقد اجتمع نفر من النواب والاعيان والتجار ورؤســاء الأديان والموظفين والضباط فى منزل نقيب الاشراف السيد على البكرى بالمحروسة وأطلقوا على أنفســهم « الجمعية الوطنية » ووقعوا على ما أسموه أيضا « باللائحة الوطنية » وهى تتضـمن مشروع تسوية مالية يعارضون به مشروع « ريفرس ولسن » الذى ضربه الضباط مع نوبار باشا ، والذى كان مشروعه يعتبر البلاد فى حالة افلاس ، ويلغى دين المقابلة ، وكان مشروعهم يقرر أن البلاد قادرة بضماناتهم على الوفاء بديونها ، ويطالب بتاليف وزارة وطنية لا يدخلها أجنبى وتكون مسئولة امام مجلس النواب وفـق أحدث الدساتير » !؟



ولم يذهب قلق الناس بل لعله بدأ حقا بعد وصول تلك الانباء العظيمة ٠٠ كان ذلك عملا رزينا محكما يؤكد أن زحف الطليعة بين الشقوق والتصدعات قد بلغ غايته ، واذا كانت مظاهرة الضباط قد انتهت باسقاط وزارة نوبار باشا لتحل محلها وزارة برئاسة ولى العهد الامير محمد توفيق ، فلم يكن ذلك يعنى حدوث تغيير ذى بال كانت الوزارة الثانية تضم كســابقاتها وزيرين أوربيين ، ولكن ها هى الجمعية الوطنية تعلن ولاول مرة باسم الشعب عن المطالبة بتغيير حاسم باتر فى نظام الحكم وفى مسألة الديون ، انها تظهر آخر ماالديها وكان معنى ذلك أن يظهر الأجانب آخر ما لديهم كذلك ، وتعلقت أنظار الناس بالمحروسة فى انتظار قلق لاستجابة الخديوى ، ولرد الفعل لدى الاجانب ، وسافر أديب اسحق الى المحروســة ليتابع من هناك تطورات الموقف ، وبقى نديم فى الاسكندرية كان

يستعد بدوره ليعلن ميلاد جمعيته بعد أن وفر لهـا كـل مقومات الحياة !!

واكتسب سليم نقاش الذى كان يشرف على طبع جريدتى مصر والتجـارة والذى بقى فى الاسكندرية ليتلقى البرقيات من المحروسة ، والذى كان يعتبر الوجه الآخر لأديب اسحق الوجه العملى البارد والذى يصلح بجلده ودأبه وحرصه ما يفسده ذلك ذلك الروح القلق الحائر المتلاف ٠

***

اكتسب سليم نقاش فى تلك الايام اهمية زائدة وأصبحت تلك الحجرة التى تتكدس فيها أدوات الطباعة والأوراق والحبر مكانا يجتمع فيه ذلك النفر الذى نجح نديم فى تبديد شمله من أعضاء جمعية « مصر الفتاة » ليتابعوا أخبار المحروسة التى تنشـرها الصحف والتى قد لا تنشرها ٠

وفى مساء الثامن من ابريل تحرك سليم نقاش ليبرز لضيوفه وثيقة هامة كانت فى طريقها الى المطبعة ، وقبل أن يقرأ الوثيقة قال بلهجة هادئة لا تلائم حرارة النبأ :

ــ لقد وافق الخديو على اللائحة الوطنية وهذا نص خطابه لشريف باشا ليؤلف وزارة وطنية ٠

وقبل أن يفتح فمه قال محمود واصف الذى كان يتكىء بجذعه على حافة النافذة فى نبرة ساخرة :

ــ كما يوافق الغريق على محاولة انقاذه !

وتساءل محمد أمين وكان يجلس على صندوق خشـبى فى جانب الحجرة وقامته الطويلة ترسم نصف دائرة فوق الصندوق :

ــ المهم ما موقف الاجانب من هذا كله ؟

واندفع سليم نقاش بصوته الرتيب يقرأ من الورقة التى كانت فى يده دون أن يبالى باسئلتهم ٠

« انى بصفة كونى رئيس الحكومة ومصريا أرى من الواجب أن اتبع رأى الامة وأقوم بأداء ما يليق بها من جميع الأوجه الشرعية ، لكنى لما نظرت السير الذى كانت عليه النظارة السابقة حصل لى غاية الاسف من أن ذلك السير كان على غير رضا الملة والأهالى حتى نشأ عنه اضطراب ونفور سرى فى جميع القلوب وحركها ، وكانت قبل ذلك فى غاية السكون والهدوء ٠٠ »



وانفجر محمود واصف ضاحكا وتوقف سليم نقاش عن القراءة فى غيظ ورمقه بنظرة محنقة وطوى الورقة فى جيبه محاولا أن يعلمهم أصول الاستماع الى الاحاديث الخطيرة ، ولكن أحدا لم يبد عليه القلق لذلك وتساءل نقولا توما :

ــ لم لا تكمل القراءة ؟

ــ غدا تقرءونها فى الصحف !

ــ ولماذا نقرؤها غدا ؟ لقد وافق على ما جاء في اللائحة الوطنية وكلنا نعرف ما جاء فيها !

هكذا كان محمود واصف يحاول اغاظة سليم نقاش ٠

وقال نديم الذى كان صامتا طول الوقت :

ــ هل تدع هذا الولد يعبث بك ؟ استمر في القراءة ولا تعبأ به ! ٠٠

وعاود سليم نقاش تلاوة الخطاب بنفس اللهجة الرتيبة وأعاد محمد أمين سؤاله بعد أن انتهى سليم من القراءة ·

ـ وماذا عن موقف الاجانب يا سليم أليست ثمة أخبار ؟

ـ احتج القناصل على قبول الخديوى للائحة ! ثم تابع محاولا أن يكون صاحب رأى وليس مجرد ناقل أخبار

ـ ولست أظنهم سيكتفون بذلك !

ماذا تظن اذن ؟

ـ الرب وحده هو الذى يعرف ولكنى لا أعتقد أن الاجانب يمكن أن يرضوا بأن تنتهى محاولاتهم للتدخل بحكم وطنى لم يكن الشعب نفسه يحلم بأن يأتى على هذه الصورة وفى هذا الوقت !

قال محمود واصف :

ـ وما الذى تعرفه عن أحلام الشعب يانقاش ؟ ثم أضاف مازحا ولعلك تقصد ان الخديوى هو الذى لم يكن يحلم بأن يصبح الحكم الوطنى هو طريقه للنجاة ·

وقال نديم :

لم لا تقدم لنا قهوة بمناسبة هذه الأخبار يا سليم ؟ انها أخبار طيبة رغم كل شىء !

ـ الخادمة ليست هنا ·

ـ ومتى تأتى ؟

فعاد محمود واصف يتأكد قائلا :

ـ عندما يرجع أديب اسحق !

« المعلم نديم يخطب ويمثل وينشىء الجمعيات »

وكان حلم عبد الله نديم قد تجسد فى احد عشـــر شخصا اجتمعوا فى ١٨ ابريل سنة ١٨٧٩ لتاسيس ما اسموه « الجمعية الخيرية الاسلامية » وفى مقدمتهم محمد امين ومحمود واصــف والدكتور حسن سرى والحاج محمد الكيال والشيخ محيى الدين النبهان و ٠٠ و ٠٠٠ خليط من ثوار مصر الفتاة وتجار وعلماء حالمين بمستقبل افضل لبلادهم ، خليط نجح نديم فى مزجه وفى أن يدرس حلمه الصغير ضمن احلامهم ، حلمه الذى افصحت عنه مجموعة المقالات التى بدا بها حياته ككاتب ، وكان حلمه رغـــم سذاجة مظهره طموحـــا مثيرا لكبرياء هذه الحفنة من التجار والمثقفين والعلماء ، وكان يبدا من حافة الكبرياء تلك ٠٠٠ « اذا كنتم تريدون شيئا فلا تنتظروه من احد غير انفسكم واذا كان كل فرد يبدو وحده عاجزا حقيقيا ، فان تجمع هؤلاء العاجزين والحالمين فى نفس الوقت بقوة لايملكونها ، هذا التجمع وحده هو مصدر

قوتهم ، وهى قوة يمكن أن تترجم الى أى شىء الى جمعيات خيرية ، والى مدارس والى صحف ، ونجاح مشروع واحد ، معناه أنه من الممكن أن يتكرر ، واذ ذاك لن تستطيع أية قوة أن تحول بين الناس وبين تكرار هذه المشروعات فى كل المدن والبلاد ، أية قوة تمنع هذه الجرثومة أن تنتشر وتمتد وأن تترجم الى كافة الصور والأشكال التى تقوم على التجمع »



هكذا كان نديم يتحدث الى هذه الحفنة .. وكان يوضح هذه المرء كل ما عجز عن توضيحه لأعضاء جمعية مصر الفتاة أو قل انه بدأ يدرك فى وضوح ما لم يكن يدرك آنذاك فخلال مناقشاته مع هذه الحفنة وغيرها كانت رؤياه تتضح وكان حلمه يتشكل ويتجسد، وكان ماضيه كله يقذف أمامه بكل ما يزخر به من حطام ليعيد بناءه وتركيبه ، وحين برزت الجمعيـة الوطنية ولائحتها . وحين كان الحديث عن الحرية والدستور والبرلمان يطغى على كافة الاحاديث كان صوت نديم يتحول الى صراخ ، كانت المســـافة الرهيبة بين السفح والقمة لا تزال تتخايل أمام عينيه وكأنه وحده الذى قدر له أن يراها بوضوح فى هذا الوقت !!

ـ لا .. لا قيمة لهذا كله وحده ، انه شىء هام وضرورى ولكنه وحده لن يصنع التقدم للشعب .

ويقول الدكتور حسين سرى ، وكان الاجتماع فى بيته ، وكان الغداء وكانت القهوة :

ـ وهل تنكر يا نديم أن سر تقدم أوربا هو الدستور والبرلمان ؟

ـ .. الدستور والبرلمان من ثمرات التقدم أكثر مما هما من أسبابه ..

ـ وما أسباب التقدم اذن ؟ كان الشيخ نبهان يسأل ٠

وأجاب نديم :

ـ العلم أولا ٠٠ وهو يؤدى الى ازدهار الصناعة والتجارة ، والصناعة والتجارة الآن لا تقومان على جهود الصانع الصغير والتاجر الصغير ، بل على جهود الشركات ، وما الشركة فى جوهرها سوى تجمع أفراد نظموا أموالهم وجهودهم وفكرهم فكانت تلك الحضارة التى تحتل الدكاكين والبيوت والاجساد والعقول من غير حاجة الى اطلاق رصاصة واحدة !

***

وليس أمامنا سوى أن نمضى فى هذا الطريق ، اننا نجتمع الآن لنفتح جمعية أو مدرسة ومن يدرى فقد نجتمع نحن أو غيرنا بعد نجاح تلك التجربة لنفتح شركة أو مصنعا ٠

ويأتى الغداء ، ولكن يبدو أنه لاشىء يجعل « نديم » يكف عن الحديث ، وتأتى القهوة فتزداد شهوته للكلام ، ويصرخ فيه محمود واصف الذى كان حاضرا هذا الاجتماع :

ـ كفى يانديم ، كفى انت تؤمن بالتعاون فى كل شىء عدا الحديث ! وضحكوا وربما لم يكونوا جميعا فى درجة واحدة من الاقتناع او الحماسة ، ولكن الذى لا شك فيه أنهم أولا وقبل كل شىء كانوا مفتونين بهذه الطاقة التى لا تكل ، وبهذا الرجل الذى لا تفقد أحاديثه سحرها مهما يكن الموضوع أو الهدف !!

* * *

وعاد اديب اسحق من المحروسة سكران هذه المرة بخمرة النصر فقد أصبح شريف باشا رئيسا لأول وزارة وطنية وافق عليها

الخديوى نزولا على ارادة الشعب التى عبرت عنها لأول مـسـرة الجمعية الوطنية ، وكان أول شىء سأل عنه أخبار جمعيته ٠

ـ لا كلام عن الجمعية قبل أن أسمع أخبار المحروسة ٠

وبدا اسحق كمن أفاق فجأة من نشوة سكره وصب لنفســه كأسا أخرى من البراندى ، كان عامر الجيب بالمال ، وتبرع بمبلغ للجمعية ٠

ـ هذا ليس لك ، انه للجمعية ، وسأشرب الآن نخب الاجتماع الأول الذى لم أحضره ، ثم أضاف متوسلا :

ـ هذه مناسبة سعيدة يانديم لم لاتشرب معى كأسا ؟

ـ ستسعدنى أكثر أخبار المحروسة لم لا تسرع بالحديـث عنهـا ؟

ورمقه أديب فى غيظ وهو يرتشف فى أناة جرعة من الكأس ٠

ـ أعرف أى نوع من البشر أنت ، تجد سعادتك العظمى فى الجلوس وسط مجموعة من البلهاء والتحدث اليهم ٠

ـ هكذا ترى الناس وأنت سكران !

وانعكس على زجاج الكأس شعاع الشمس المتسلل من النافذة الغربية وبدا وجه اسحق أكثر اشراقا وتوهجا والكأس تقترب من فمه ٠٠

ـ انا أحب الناس اكثر منك ، ولكنى لا أطيق بلاهتهم ٠٠ بينما تجد أنت متعتك فى الغوص فى تلك البلاهة وتلك ميزتك ! والح نديم مزمجرا :

ـ ماذا عن الشيخ جمال الدين والحزب الوطنى والجمعية الوطنية ؟

كان اديب اسحق قد افرغ فى جوفه الكأس كلها والتمعت عيناه الواسعتان ، وتوردت ملامحه ، وغدت لهجته السورية البطيئة أبطأ وأثقل ، ولكنه الآن قد غدا فى رحاب الحرية العظمى التى يحلم بها دائما ، حرية الحديث عن كل شىء بلا مبالاة .

ـ لم يعد فى المحروسة سوى الحزب الوطنى فالجميع الآن يعملون معا لتأييد شريف باشا !

ـ والاجانب ؟ ما حقيقة موقفهم ؟ وتهديدهم بعزل الخديوى ؟

***

ـ من الصعب ان تتنبأ ليس هناك سوى الاحتمالات يا نديم !! ان انجلترا أصبحت فجأة تدافع عن الحركة الوطنية وسوف لا تصدق حين أخبرك ان التيمس كانت تعارض فكرة التدخل بأية صورة من الصور انها تقول « ان الحكومة لترتكب اشنع غلطة اذا هى حاولت ان تخلق لانجلترا مسئولية جديدة بعد أن تخلصت من ذلك ، فلا يصح لمجرد الرغبة فى عدم الافتراق عن فرنسا ان نندفع الى ارتكاب تلك الغلطة بارسال مذكرات مشتركة أو غير ذلك ، وان تغيير الخديوى لنظاره لم يعرض للخطر مصلحة من المصالح السياسية التى تهم انجلترا »

***

أما فرنسا الجمهورية وصحافتها فهى التى تطالب بعزل الخديوى وتهدد وتتوعد !! واطرق نديم قليلا قبل أن يقول :

ـ من الواضح ان انجلترا لا تريد بقاء الخديوى الا لأنه أتاح لها دون فرنسا نفوذا خاصا فى الاعوام السابقة وهى ترى فى بقائه فرصة لبقاء هذا النفوذ انها لا تقيم كبير وزن للحركة الوطنية ولا ترى فيها خطرا عليها أو علي الخديوى !

ـ نبيه أنت يا نديم وكنت أظنك لا تكون كذلك الا حين تتحدث الى مجموعة البلهاء التى تغرر بها ! وأفرغ أديب فى جوفه كأسا أخرى ·· وبدأ يتأهب ليطير فى الجو ولكنه تهالك على مقعده ، واسلم جسده له نهائيا

ـ المقلق يا نديم ان فرنسا تجد فى عزل الخديوى فرصتها الوحيدة لاعادة نفوذها فى مصر ، وهى تؤلب دول أوربا كلها حتى لا تدع انجلترا منفردة بالنفوذ هنا · هكذا تفعل فرنسا الجمهورية ، فرنسا الحلم والأمل ، فرنسا التى كانت أرض الثوار والاحرار ، وتريد أن تحرمنى من الشراب أيها القس المسلم ، الشراب الذى يمنح الحرية لجميع البشر دون تفرقة !

ـ لم تعد تخدعنى تلك الكلمات ، الجمهورية ، البرلمان ، الدستور ، هناك شىء واحد يحرك الجميع هو المال !

ـ ومع ذلك فماذا تملك منه أنت أيها البائس الذى لا يغير سترته الزرقاء الداكنة ولا يحلق ذقنه الا مرة كل أسبوع ·

***

ـ سوف تملك جمعيتى الكثير منه !

ـ لم تحدثنى عن جمعيتك !

ـ ليس قبل أن تتم حديثك عن المحروسة !

ـ وهل ينتهى الحديث عن المحروسة ؟

ـ لم تحدثنى عن الخديوى ! ما حقيقة موقفه ؟

ـ ابأس منك قليلا ، هذه هى الحقيقة ، انه يقف فى وجوه الأجانب وهو واثق من انهم أكثر منه قوة ، ويحتمى بالحركة الوطنية

وهو واثق من أنها لاتثق فيه ، وافراد عائلته يتوزع ولاؤهم بينه وبين حليم باشا فى الاستانة ، وابنه ينتظر اليوم الذى يتم فيه عزل أبيه ليرث عرشه !

هل هناك بؤس أكثر من هذا يا نديم ؟

وابتسم نديم قائلا :

ـ تجعل الخمر منك شاعرا فذا ، لو رأيت بؤس الشعب لهان عليك بؤس الخديوى !

ـ بؤس الشعب أراه كل يوم ممثلا فيك ، وهو بؤس تاريخى ، ولكن هذا نوع فريد من البؤس يانديم ، والسقوط لايكون مروعا الا حين يصيب من يكونون فى القمة ومع ذلك فمن يدرى قد لا يسقط وقد ينقذه خلاف أعدائه ، وقد ينجح شريف باشا فى مواجهة العواصف ، وليس هناك سوى الاحتمالات يانديم ولذا أسأل عن مشروعك الصغير !

وفى الحق ان « نديم » كان يفكر وهو يحكى لاديب اسحق عما يتم فى مشروعه بأنه أمسك فى نهاية الامر بشىء حقيقى فى يديه ، شىء صغير ولكنه صلب قد يتأثر بما يحدث فى المحروسة لكن لا الى العدم ، وقد يفقد الخديوى عرشه ، ولكنه هو لن يفقد هذا الشىء الذى أمسك به بعد كل هذه السنين !

* * *

الزمن يمضى فى طريقه ، متصلا دائما ، منذ دبت الحركة فى هذه الافلاك ولن يتوقف الا اذا توقفت هذه الحركة ، والاحداث وحدها هى التى تبدأ وتنتهى واذ ذاك يصبح للزمن معنى غير ذلك

الاستمرار الأبله اللامبالى ، انه يصبح بطريقة ما زمننا ، انه يصبح بداية أو نهاية لشىء طيب أو ردىء فنحيه أو نكرهه ، ننساه أو نذكره نفتح أو نغمض أعيننا عليه فنراه فى لون عواطفنا السعيدة أو الحزينة . وهكذا أصبح لشهر يونيو من عام ١٨٧٩ أكثر من معنى وأكثر من لون ·· كان بداية ونهاية ، وكان قبل كل شىء شديد الحرارة كعادته حتى فى الاسكندرية · وأصبحت الشوارع بيضاء بلون الجلابيب البيضاء والسترات البيضاء الحريرية والقطنية وبدت البيوت وكأنما ركب لها فجأة كل هذا العدد من النوافذ والابواب التى فتحت جميعها لتستقبل الهواء الرطب القادم من ناحية البحر بعد أن ظلت معظم الشتاء مغلقة كأنها جزء من الحائط الاملس جزء خشبى لاغير وسهرت الدكاكين والمقاهى والبارات ، وأصبح لليل صوت بشرى بعد أن لم يكن يسمع فيه غير صوت الرياح والعواصف والامطار والموج وفى مساء ٨ يونيو سنة ١٨٧٩ وفى اكثر من مقهى كان الناس يتحدثون عن شىء حدث فى صباح ذلك المنزل الذى كان يمتلكه تاجر سمك وأصبح نديم يدعوه الجمعية الخيرية الاسلامية ، وفسر بعضهم الحادث بأنه نتيجة لعودة عبد الله نديم الى الاسكندرية فقد كان حديث المدينة وهو صبى فكيف لايصبح حديثهما مرة أخرى بعد أن أصبح رجلا ناضجا وكان بالنسبة لمن سمعوا به دون أن يروه حادثا لا يخلو من الغرابة فلم تعرف الاسكندرية ولا غيرها من المدن آنذاك رجلا يخطب فى مكان عام أمام عدد من رجال الجيش ورجال الادارة وحشد كبير من المواطنين ويتكلم فى الأمور العامة مفرقا بين عهدين وبين طريقين ملوحا بأن هذا الحفل بداية لعهد جديد !

وفى « أوتيل أوربا » حيث يجلس الذوات والاعيـان كان « حسين فهمى » وهو موظف كبير بالمحافظة حضر الحفل بحكـم وظيفته ، واختير عضوا فى مجلس ادارة الجمعية بحكم الوظيفة أيضا كان يجلس وسط مجموعة من الذوات ، وجسده السمين يضغط على سترته الحريرية البيضاء فتتكسر ، وبيده منشة يداعب الكلب شعرها الاسود الفاحم بينما تخنق أصـابعه الغليظة عنق الكلب الأبنوسى الأبيض الذى يصنع يد المنشة !

وقال لمن حوله معلقا على الحفل الذى حضر جزءا منه فى هذا الصباح :

ـ كان من الضرورى أن أذهب بعد اعتذار المحافظ ·

ـ يقولون انه القى خطبة بارعة ! كان موظف أقل درجة يتبع حسين فهمى كظله هو الذى ألقى بالسؤال ·

وابتسم حسين فهمى مخفيا ضيقه :

ـ كان أكثر براعة وهو صبى ، كان يمتعنا بنكاته ، لقد رأيته مرات فى منزل شواربى بك ، ولكنه الآن يصبح ثقيل الظل حين يلبس ثياب الوقار ، لقد خلق نديم ليضحك الناس لا ليثقل عليهم بمواعظه ·

وتغير تيار الحديث فجأة :

ـ يسمون مدرسته ملجأ الايتام ·· وكان تابع آخر هو الذى تكلم وانفجر حسين فهمى ضاحكا وهدر بصوت تمزقه الضحكة العريضة الصاخبة :

ـ يدعى أنه يريد أن يعين الايتام ، والحق أنه يريد أن يعيش على حسابهم !

ـ انه لايريد مجرد العيش سوف يتاجر على حسابهم

ـ ومن يتركه يفعل ذلك وماذا نفعل فى مجلس الادارة ؟ لقد نبهنى المحافظ الى مراقبة الشئون المالية !

فى مقهى كليوباترة كان يجلس « حامد الاعسر » ضمن مجموعة من أعضاء جمعية مصر الفتاة الذين بقوا فيها ، كان بعضهم قد حضر حفل الافتتاح وبعضهم لم يحضره ، وكانوا يتحدثون فى نفس المساء وقال أحدهم لحامد الاعسر :

ـ كنت تتهمه بالخوف ، لو سمعت خطبته لما خامرك شك فى شجاعته !

وتدخل شاب آخر حضر الحفل :

ـ هذه ليست شجاعة ، الشجاعة أن تقول للاعور يا أعور ، لا أن تلعب بالكلمات وتحتمى بالكنايات

وقال حامد الاعسر الذى لم يكن قد حضر الحفل :

ـ أعرف « نديم » اكثر منك ، انه رجل ماهر فى لعبة الكلام وهو مستعد لأن يواجه الاخطار من أجل فرصة تتيح له أن يستعرض مواهبه فى تلك اللعبة ، وهذا ماتوفره له الجمعية انه مثل « البلياتشو » الذى لايبالى بأن يدق عنقه فى لعبة خطرة من أجل الحصول على تصفيق الناس ٠

ـ ونقودهم ! كان يعقوب زخارى هو الذى اكمل هذه العبارة

ـ لو سمعت خطبته ماقلت هذا الكلام ، الناس لا حديث لهم الا عنها ٠٠٠

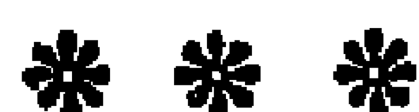
لقد سمعه خمسمائة شخص على الاقل !

ـ اذا كنت تعنى الجالسين وحدهم فهذا صحيح

وعاد حامد الاعسر يصرخ : وهذا كل ما يحلم به نديم ·· ان يتحدث الناس عنه طيلة يوم كامل أو أسبوع ولايهمه أن ينتهى كل شيء بعد ذلك ·

ـ سمعت أن أديب اسحق سوف ينشر الخطبة كاملة فى جريدة مصر !

ـ لأنه مثله مجنون بالكلمات المرصعة ·· وهذا كل مافى الأمـر ·



وحين نشرت خطبة عبد الله نديم كاملة فى جريدة مصر قرأها الشيخ محمد العشرى الذى كان استاذا لنديم وأعـاد قراءتها لمجموعة من زملائه الشيوخ ، وكان كل مافتنه فيها قدرة عبد الله نديم على تطريز الكلمات بالآيات القرآنية !

وأدنى الصحيفة من عينيه وراح يقرأ لهم :

« فافتتحنا هذه المدرسة للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لايستطيعون ضربا فى الارض ، ولعلاقة النوع جعلناها حـرة مطلقة لمن يتعلمون فاذا اجتمع تلميذ بآخر مع اختلاف مايعبدون ، قال انى أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يفعلون ، فقد أطلقت المعارف من قيد قوم على مظهرهم حذرين ، رأوا أن الفقراء لا يستحقون دخول روضة علمهم المكين ، فانطلقوا وهم يتخافتون ، ألا يدخلنها اليوم عليكم مسكين » ·

وكانت أقداح القرفة قد دخلت لتوها تتعثر بهـا خـادمة صغيرة عجفاء فأبعد الشيخ العشرى الصحيفة جانبا وقال الشيخ

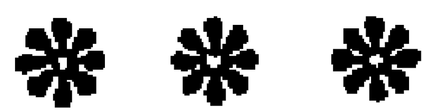
محمد جاد وهو يرشف من قدح القرفة بصوت مسموع ويزيح الى الوراء عمامته وقد استشعر حرارة مفاجئة من القدح الساخن :

ـ مايعجبنى أكثر من الخطبة نظام المدرسة ذاته ، انها تشبه مجتمعا صغيرا يفكر نديم فى أن يصبح خديويا له ، وضحك الشيخ ابراهيم السرسى ووضع القدح على منضدة كانت أمامـــه حتى لايسقط من يده التى تضعفها ارتعاشة مرض عصبى ملازم ، ولـم يكن قد حضر الحفل أو سمع الخطاب كله وتساءل عن هذا النظام ·

ـ لقد اقنع أحد الاطباء بأن يتطوع لعلاج التلاميذ مجانا ·· واقنع بعض الاغنياء بأن يتبرعوا بنواة صندوق مفتوح لتدبير اكسوة للتلاميذ وطعام لهم ·

ـ ولكنه كان يندد بالأغنياء فى خطابه منذ لحظة !

ـ يندد بمن لم يستجيبوا له وهم كثيرون !



وعلى نحو ماكان نديم هو الآخر لا يصدق ذلك الصدى الذى احدثه خطابه فى الاسكندرية ، وضبطه اديب اسحق وهو يقلـب الصحف التى صدرت خلال الاسبوع وكلها تنوه بخطابه وتنشر فقرات منه وتتحدث « عن الفاضل الأريب الشاعر الأديب الكاتب الخطيب عبد الله افندى نديم »

وكان أديب اسحق قد فاجاه بزيارة بيته لأول مرة ولمح أعدادا متناثرة من صحف مصر والتجارة والاسكندرية على مقربة من نديم ·

ـ وأخيرا كسبنا قارئا مضمونا ·· قالها اديب اسحق وهو يجلس بجوار نديم ·

ـ اذا داومت على نشر خطبى فأبشر بآلاف القراء !

ـ تريد الحق ياندبم ؟ خطبك تفقد نصف قيمتها حين لاتسمع منك ، قال نديم مقلدا لهجته السورية :

ـ وجريدتك تفقد كل قيمتها بدون خطبي ومقالاتى !

ـ سوف يركبك الغرور ياندبم ! قالها بمرح ٠

ـ لم تكن قد جئت بعد حين كان يركبنى الغرور ويهز قدميه اما الآن فثق أنه قد بدأ يبحث عن حمار آخر ٠

ـ اعجاب مجموعة البلهاء التى اتسعت فجأة قد يعيدك سيرتك الأولى ٠٠

ـ أو تظن ذلك حقا ؟

ـ لا ٠٠٠ اننى أثق بك ياندبم واعتقد انك أخيرا ستجد ذاتك الحقيقية ٠

وكان نديم قد فكر فى تلك الليلة المثيرة انه وجد ذاته أخيرا ٠٠ واثارته كلمة اديب اسحق فتساءل فى لهفة :

ـ كيف يعرف انسان حقا أنه وجد ذاته ؟ لقد بحثت عنها ضمن اشياء كثيرة ، وفى كل مرة كنت اكتشف اننى أطارد السراب !!

ـ ومع ذلك فقد لاتصدق اذا قلت لك أين تجد ذاتك ٠٠ ذاتك الحقة ؟ ؟

ـ لا تحاول ان تعبث بى يارجل !

ـ موهبتك الحقة يانديم فى التمثيل ، أنت ممثل بالفطرة ، ولو عثرنا عليك قبل أن نغلق مسرحنا أنا وسليم نقاش لما اضـطررنا الى اغلاقه ..

ـ لقد فكرت يوما فى ذلك لكن لا كممثل .

وتابع أديب حديثه دون أن ينتبه لما قاله نديم :

ـ لو قدمنا للجمهور مسرحية من تاليفى ومن تمثيلك ، ومن اخراج سليم نقاش فأى ربح كنا نجنيه !

وصمت نديم ، لم يقل له اننى أقدر منك على تاليف مسرحية واننى حلمت طويلا بذلك ، ضايقه أن يفكر فيه كممثل لا غير .

قال نديم محولا غيظه الى ناحية أخرى :

ـ الربح فقط هو كل مايهمك !

ـ ويهمك أيضا أيها المفلس الأبدى ! اذا كنت تريد حقا أن تسدد ديونك !

***

ولم يضق نديم هذه المرة ، فلم تعد تقلقه مسألة الديون هذه ، وخاصة ديونه لاديب اسحق ، انه يكتب فى صحيفته وقرر بينه وبين نفسه أن هذه مقابل تلك ، أما ديونه الاخرى فلم تعد تزعجه كثيرا ليس لأنه أصبح قادرا على سدادها ، بل لأنه من ناحية كان يجهل قيمتها كما يجهل أصحابها لكثرتهم ، ومن ناحية أخرى كان يشعر أنه يتعامل مع المجتمع جملة لا تفصيلا ، انه يأخذ من بعض الناس ويعطى بعضهم هكذا كان طوال عمره وتبقى المسالة رهنا باحساسه الخاص بأنه يعطى أكثر مما يأخذ أو على الاقل بقدر مايأخذ ، ولكن لكلمة اديب اسحق أو ربما زيارته ، أشعرته ربما لأول مرة بمدى بؤسه

كان يزور أديب اسحق ويرى جمال الاثاث وأناقته وبعينى أديب اسحق أبصر حجرته فهالته صورتها فلكثرة زواره أفردوا له حجرة خاصة هى حجرة للنوم ولاستقبال الضيوف وللطعام وللقراءة ، ولكل ما يحتاجه شخص مثله ولكن لم يكن فيها متسع للنظام أو الذوق أو الفخامة فبجوار السرير النحاسى ذى القوائم الأربعة كنبتان يضمهما الى بعضهما فيصبحان سريرا آخر يتسع لمن ينام عنده من الاصدقاء وبداخلهما تجويف يضم كل كتبه ، ومنضدة تتحول الى مكتب حين يدنيها من الكنبة وتحت السرير أدوات القهوة التى يصنعها بنفسه لضيوفه الكثيرين ، ولم يكن ثمة مرآة !



وكانت محاولات زوجه لأن تجعل من بيتها شيئا مثل بقية البيوت قد انتهت بالفشل ، وغرقت فى هموم الاولاد وتسلت بها ايضا ، كانت الاشياء مكدسة ومختلطة تنقصها النظافة كما ينقصها الترتيب ، وكان نديم وسط هذه الاشياء لايفترق عن أى شاب أعزب الا فى شىء واحد لاغير ، هو أن يحمل هموم المتزوجين ، ولكنها كانت أقل همومه فلقد كانت مجموعة البلهاء « على حد تعبير أديب اسحق » زوجه الثانية ، وربما كانت عشيقته لو أنه يعرف العشق ، وهاهى زوجه الثانية تنجب فجأة مالا يحصى من الاولاد ، وهاهو أبوه الذى عانى طويلا من مسئولية أحفاده الشرعيين قد فوجىء ذات يوم بأرملة مكدودة تسأله عن ابنه « لقد قالوا لها ان رجــلا اسمه عبد الله نديم سيفتح مدرسة لليتامى وسوف يعلمهم مجــانا وسوف يطعمهم ويكسوهم ، وانتهى بها السؤال والتجوال الى مخبز أبيه وكان أيامها ضائقا به وساخطا عليه ، ولم يكد ذلك الاحتفال الرائع الذائع قد تم وأصبح حديث المدينة ·· ولم تكد الارملـــة العجوز تلوك اسم ابنه حتى صرخ فى وجهها لتغرب عن وجــه ، وعادت الارملة تتكفىء في طريقها وقالوا لها مرة أخرى ، ليس هذا

هو الرجل الذى تقصدين ، ووصفوا لها البيت مرة ثانية وصفا دقيقا فى حى المنشية ، وكانت ، بائسة بؤسا خليقا بان يجعلها تعاود الكرة غير عابئة بأية نتائج ، وفى البيت طالعها نفس الوجه ذى اللحية المغبرة بدقيق الفرن فأجفلت قليلا وكادت تهم بالرجوع ولكنها فوجئت بالوجه يبتسم ، ويخاطبها فى لطف ويستفسر عن طلبها فى مودة ويرسل معها صبيا فى الحارة ليوصلها الى ابنه فى المدرسة التى احتفل بافتتاحها منذ ايام قليلة وهناك التقت لا بنديم وحده بل بعشرات مثلها من الارامل وقد جلسن فى ساحة المدرسة ونديم يقيد الاسماء وينثر فى هذا الجو الكئيب املا حلوا بابتساماته ومداعباته »



وكان نديم قد حكى القصة لاديب اسحق وهو يضحك بعد أن دخل ابوه وحيا الضيف السورى الذى كان يسمع باسمه وشرب معه القهوة ، ولأول مرة كان راضيا عن ابنه مستشعرا هو الآخر املا غامضا فى أن ابنه قد وجد اخيرا طريقا صالحا ، وأنه قد ودع الى غير رجعة ضياعه القديم وكان تذكر نديم لهذه القصة وحكايتها لاديب اسحق هو وحده الذى خفف من شعوره ببؤس حياته وبؤس حجرته .

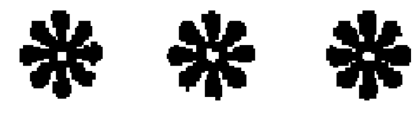
وانتبه نديم من سرحته القصيرة حين اخبره اديب اسحق أنه سيسافر غدا الى المحروسة وتساءل نديم :

ـ هل ثمة اخبار جديدة ؟

ـ هناك توقعات لاخبار خطيرة يانديم واذا صح ماتنقله التلغرافات فالخديوى معزول لا محالة !

وسافر اديب اسحق الى المحروسة وبعدها بأيام تدخلت المانيا فى الموقف واحتج قنصلها على تأييد الخديوى للحركة الوطنية

وتتابعت احتجاجات الدول التى لم تحتج من قبل : النمسا .. ايطاليا وفى ٢٦ يونيو ١٨٧٩ صدر فرمان سلطانى بعزل الخديوى اسماعيل وتولية ابنه الأمير محمد توفيق خديويا على مصر ، وهكذا كان شهر يونيو بالنسبة لنديم كما كان بالنسبة لغيره بداية ونهاية .



مع رياح الخريف فى نفس العام ١٨٧٩ ذوت آمال الناس فى الاسكندرية والمحروسة ، وفى كل مكان قدر لها فيه أن تتفتح ، وحين كانت السحب تتجمع فى السماء التى كانت صافية ومشرقة طوال الصيف ، كانت سحب أخرى تتجمع فى نفوس الناس ، وتلقى بظلها الثقيل فوق الوجوه وفى أعماق العيون ، وبدأت الشوارع تفقد لونها الابيض وتعود رمادية داكنة ، واختفت نوافذ البيوت وعاد الهمس ، وذوت ذكريات الصيف كأنها ذكريات حقبة بعيدة من الدهر ، وحين كان الناس يلقون نظرة على صحف الصيف لم يكونوا يصدقون عيونهم ، ففى شهرى يوليو وأغسطس أخذت البلاد جرعة من الحرية لم تظفر بها فى أى عهد من العهود ، كان الامير محمد توفيق الذى أصبح خديويا لمصر قد كلف محمد شريف باشا بتأليف الوزارة وظل الخديوى الجديد ينتظر وصول فرمان الخديوى من الأستانة طبقا للتقاليد حتى يمارس سلطاته بطريقة رسمية وكان شريف باشا ينتظر بدوره وصول نفس الفرمان حتى يتقدم للخديوى الجديد بلائحة الدستور التى أعدها فى أواخر عهد الخديوى اسماعيل طبقا لمطالب الجمعية الوطنية وطبقا لأحدث الدساتير فى العالم المتمدين وحال عزل الخديوى السابق دون اعتمادها ، وظلت اللائحة تنتظر اعتماد الخديوى الجديد الذى

انعقدت حوله آمال الشعب كله ، وفى فترة الانتظار تلك لم تنتظر الصحافة شيئا لتقول للناس كلمتها !!

***

كانت جمعية « مصر الفتاة » السرية قد خرجت الى النور متأثرة بالظروف الجديدة ، وأصبحت جريدة « مصر الفتاة » لسان حالها فيما كانت تهمس به فى المنشورات السرية ، وأصبحت هى الأخرى تدعو الى انشاء المدارس ، وكان نديم الذى انتظرت مدرسته طوال عطلة الصيف قد أصبح محررا يكتب للناس ماظل حبيسا فى صدره طوال السنين .

وكان الدستور حلم الناس ، وكانت الحرية التى يكفلها أملهم وكانت المقالات كلها تشرح الحلم وتجسد الأمل ، وكان نديم هذه المرة ضمن الشراح ، فماذا كانت تعنى كلمة الحرية لنديم ؟ نديم الذى لم ينحرف بصره لحظة عن المسافة المروعة بين السفح والقمة ، والذى قطعها مرات عديدة ذهابا وجيئة ، والذى كانت رواية الحكايات ضمن مواهبه ، أجل ماذا كانت تعنى الحرية عنده ؟ وقرأ الناس هذه القصة تحت عنوان « العصر الجديد » فى جريدة مصر فى ١٨ يوليو سنة ١٨٧٩ :

***

« رأى الحكيم جمعا من الناس ينادون : واعجباه . أنا أمة عظيمة ولا قوة لنا ، أرضنا مخصبة ولا نجد القوت ، ونحن فى سلم خارجى وحرب داخلية ، فمن هو ذلك العدو الخفى الذى يسلب أموالنا ؟ ثم رقى أحدهم مرتفعا فى ذلك المحفل وقام فيهم خطيبا ، فقال ارفعوا فى هذا المقام لواء وادعوا اليه الذين يخدمون الهيئة الاجتماعية بالاشغال النافعة يظهر لكم العدو المخفى ، فانقسم الجمع قسمين ، وكان السواد الاعظم فى جانب اللواء الا أن عليهم علائم التعب والعناء والفقر والشقاء ، وعلى أولئك امارات العز والسعادة

والهناء ، ولما تقابل الفريقان ، قالت الفئة الكثيرة للفئـة القليلة ، مابالكم انفصلتم عنا وأنتم منا ، فقالوا نحن لم نوجد لنشتغل ولكن لنعتنى بأموركم فنادت العامة رويدكم أنتعب وتنعمون ، ونغرس وتجنون ، فما لكم لا تتآلفون أمة لنرى كيف يكون قوامكم ؟ »

ويحتدم النقاش بين الفئة القليلة والفئة الكثيرة ولا يحسمه الا خطيب الجماعة حيث يقول :

« يا قوم لايحسن بنا الاكتفاء بالنجاة من الظالمين ، بل يجب علينا وضع الحدود لمنع وجود غيرهم ، ان العناية الالهية قد منحت لجميع الناس أعضاء متساوية وجعلت لهم حاجات متماثلة فصرحت بذلك انها تمنح لهم حقوقا متوازية ، ولما كان الانسان مساويا لغيره من بنى نوعه ، وجب أن يكون ما يأخذه مساويا لما يعطيه ، وبذلك يتبين لنا أن الحرية ليست ألا العدل »



كان هذا الكلام بعض مايقرأ الناس فى هذا الصيف ، ثم قرأ الناس فى الوقائع المصرية فى ١٨ أغسطس سنة ١٨٦٩ نبأ قبول استقالة وزارة شريف دون ذكر لاى سبب ، وتولى الخديوى الجديد بنفسه سلطة رئيس النظار ، وفى آخر يوم من نفس الشهر خرجت نفس الجريدة ببيان طويل يتضمن قراراً بنفى الشيخ جمال الدين من البلاد ، وفى هذه المرة ذكرت أسبابا جاء فيها « أنه رئيس جمعية سرية من الشبان ذوى الطيش مجتمعة على فساد الدين والدنيا.. » وفى آخر سبتمبر من نفس العام عهد الخديـوى الى رياض باشـا بتاليف وزارة جديدة بعد ان أرسل الخديوى لاستدعائه من أوربا التى ذهب اليها حين عصفت بـه الحركـة الوطنية ، وكان وقتها وزيرا فى نفس الوزارة التى طالبت الجمعية الوطنية باقالتها ! ..
وروع الناس ، وذهلوا ، وصمتوا حينا ، وتكلموا أحيانا ، ويـدا

كلامهم كما بدا صمتهم نوعا من رد الفعل الأبله الذى لا يعنى شيئا وقال نديم لأديب اسحق وهو غارق هذه المـرة غـرقا حقيقيا فـى الشراب وهو يرى فى وجهه الذبول واليأس معا :

ـ انك بهذه الطريقة لن تكون ذا غناء لنفسك أو لغيرك يابنى !

ـ أغرب عن وجهى ياانديم ، لماذا لا تذهب وتجمع صبيانك وتقول لهم ما فيه غناء لهم وللناس !

***

ولكنه نديم ما كان ليتركه ، كان يحبه وكان يأسى له ، ويدرك مدى ما يعانيه شخص مثله حين يجد كل القلاع التى كان يحتمى بها تنهار فجأة !! وبدأت بقية القلاع تنهار وتتصدع فجريدة « مصر الفتاة » تغلق نهائيا وتلحق بها « مرأة المشرق » وتتوالى الانذارات على جريدتى مصر والتجارة ويحكم اغلاق الطرق فى وجه جريدتى « النحلة » و « أبو نضارة » وكانتا تسربان من الخارج بنقد حاد لاذع وتتوزعان سرا بين أفراد الجيش والشعب ! ٠٠

وكانت كل هذه الصحف قلاع الحرية أنذاك وصوتها ونبضها الحار وتلفت نديم حواليه فلم يبصر سوى الحطام ، وفوجىء أنه هو وحده لم يصبح حطاما بعد ، ربما لأنه كان أقل شأنا من أن يحاول أحد تحطيمه ، وربما لأن أحدا مهما بلغت نذالته لا يفكر بأن يغلق مدرسة لتعليم الايتام ، صحيح أن « نديم » جعل منها فى ذلك الخريف شيئا أخطر من لكونها مجرد مدرسة ، لقد أعلن عن محفل أسبوعى للخطابة ، وكان ذلك فى ٢٢ أغسطس سنة ١٨٧٩ ٠

***

وبعد أيام قليلة من استقالة شريف باشا ونفى الشيخ جمال ٠٠ وفى فناء المدرسة التى كانت مجرد بيت نجح نديم طوال أشـــهر الصيف فى أن يجعل منه شيئا يشبه المدرسة ، ومن حديقته شيئا يشبه الفناء ! ٠٠

اجتمع الناس ليروا هذا المجنون الذى لا يريد أن يجد العبرة فيما يحدث لغيره · كان بعضهم قد سمع خطابه الأول وبعضهم قد سمع عنه ، او قرأ له ، وكان بعضهم يريد أن يعرف ماذا يمكن أن يقوله بعد هذا كله ؟

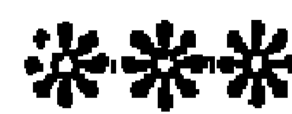


ومن المؤكد أن عددا من الناس ذهبوا لأنهم من أقرباء التلاميذ لا غير وعددا آخر ذهب لأنه لم يكن لديه مايشغله فى هذا المساء ، كانت هذه حالهم قبل أن يستمعوا الى خطابه الذى جاء عنوانه : بأى سبب ظهر الفرق بين الغرب والشرق ؟ أما بعد أن استمعوا الى اجابة نديم على السؤال فكنت تسمع هذه التعليقات :

ـ لقد ترك نديم السياسة جانبا فياله من داهية !

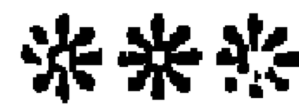
ـ لو كنت تفهم معنى السياسة ما قلت هذا الكلام ، فما نحن فيه سببه تفوق الغرب ، وما قاله نديم يشرح أسباب ما نحن فيه ·

وفى ١٥ سبتمبر سنة ١٨٧٩ أصبح ما قاله نديم فى فناء المدرسة حديث القراء فى كل مكان تذهب اليه جريدة « التجارة » التى نشرت الخطبة كاملة ، وكان هذا السؤال يمثل جانبا من هموم المتعلمين فى ذلك الوقت ان لم يكن كل همومهم ، وكان المتعلمون فى الازهر يرددون بعض الاجوبة ، والمتعلمون فى باريس يرددون أجوبة أخرى ·



وكان الشيخ جمال الدين قد قال كلمته فى هذا الموضوع وكان « نديم » يقدم جوابه هو الآخر بعد أن استمع الى أجوبتهم ويبحث لاجابته عن مكان فى عقول الناس ، وكانت هذه الخطبة تحمل معالم رؤيا لم تتضح بعد ، ولكنها كافية لأن تغضب المتعلمين فى الازهر وفى غيره لأنها لم تطرح أوربا جانبا ، ولم تطرح الأزهر جانبا كذلك ، رؤيا كانت تبحث عن الصلات الخفية والحقيقية بين حضارة أوربا

وحضارة العرب وكان جزء من الخطبة يتحدث عن أبى عبد الله الخوارزمى وكتابه فى الجبر والمقابلة ، وثابت بن قرة الذى ترجم كتاب الاصول الهندسية بأمر الخليفة المنصور ، وأبن سينا الذى اعتنى بحل كتاب بطليموس الشهير بالمجسطى وشرحه فى تعاليم الشفاء ، وابن السمح وابن الفرغانى وابن رشد وابن الخطيب ، ونصر الدين الطوسى وفى نهاية الخطبة تساءل أليس أولئك الائمة من العرب المسلمين ؟ أليست هذه العلوم هى الموصلة لأسباب المعالى وبسواها تكون بين الانسان والحيوان نسبة كلية هى الجهل الذى أعمى القلوب وقوى شوكة العداوة ؟؟



وكان جزء من الخطبة يتحدث عن أسباب أخرى يمكن أن نجد صدى لدى أجزاء من هذا الحشد الذى ملأ فناء المدرسة وكان هو « نديم » القادر على انتزاع الضحك من هذا الحشد ، وهو يصور لهم أخطاء التربية فى البيت وفى الكتاب وفى المدرسة فى مقارنة بديعة بين تربية النشء عندنا وعندهم !!

وحين حل موعد الخطبة الثانية ، واجهت « نديم » مشكلة المكان الذى ضاق بالاعداد التى توجهت الى المدرسة قبل الموعد بساعات وكان الجمهور هو الذى حل المشكلة حين ارتضى الجلوس بلا مقاعد عدا الصفوف الامامية التى يجلس فيها كبار القوم ، وحين ارتضى الوقوف حين لم يجد مكانا للجلوس ، وغطى ذوو الجلاليب سور الفناء ، وتكفل صوت نديم وحده بحفظ النظـــام ، وكانت الخطبة الثانية أشبه بلغز شغل الناس بحله طيلة أسبوع كامل ، كانت حكاية ممتعة عما سماه نديم « مملكة الحيــوان والانســان » وكانت تعليقات الجمهور كلها أسئلة هذه المرة عما يقصد نديــم بالثعلب والذئب والاسد ؟ وما المقصود بالطمع والذل والحسد ؟ ولم

تكن فى خطبته مجرد صفات بل ذواتا تتكلم وتتناقش ، وما الحلول التى اقترحها نديم على لسان « ملك الملوك » ليسود الوفاق والعدل هذه الممالك التى يصف نديم أحوالها بقوله على لسان زعيمها « ولم أزل أسمع من كل أمة شكواها ، وأعدها بكشف ظلمها وبلواها حتى كثرت لدى الرقاع وضاقت بالمظاليم البقاع »

***

ونشرت الخطبة الثانية فى جريدة مصر ، وهكذا أصبح هذا اللغز حديث الناس خارج الاسكندرية كما كان حديثهم داخلها ، وكان هذا كله جديرا بأن يلفت اليه عيون المسئولين وآذانهم ولكن أحدا ما كان يجرؤ على أن يمد يده الى مدرسة تعلم الايتام مجانا ، ولا تتقاضى من الحكومة مليما ، وهكذا وجد نديم أن هؤلاء الصبية الذين حرموا الرعاية والحماية ، وفكر أن يصبح هو لهم راعيا ومعينا قد أصبحوا هم رعاته وحماته ، وحين كان يسير فى شوارع الاسكندرية فيرى الناس يشيرون اليه ويهمسون ، ويرى أصحاب المقاهى والدكاكين يتوددون اليه ليجلس قليلا ، ويرى ما تبقى من الصحف تشير الى خطبه وتنقل فقرات منهـا بمزيد من الاحترام والتقدير ، كان يشعر بأن جزءا من نديم القديم ينتعش فيه ويزدهر ، وبأنه أمسك أخيرا فى يديه بشىء حقيقى ولن يدعه يفلت منه !!!

***

واذا كان نديم قد وجد نفسه أخيرا بين جدران تلك المدرسة فقد وجد شعب الاسكندرية هو الآخر فى محافل الخطابة الاسبوعية وفى نديمه شعلة متبقية من تلك النار التى أضاءت فى الصـيف وأطفأتها رياح الخريف وكان حريصا على شعلته أكثر من حرص نديم عليها ، وهكذا أصبحت محافل الخطابة مكانا يتواعد الاصدقاء على اللقاء فيه كل أسبوع ، كما كان حل ألغاز قصصه مباراتهم المفضلة والآمنة فى نفس الوقت ، كما أصبح الاستماع الى خطبة

نديم فرصة مناسبة للاعتذار عما لا تحب من الاعمال والمواعيد وفرصة للقاء من تود من الشخصيات الهامة والكبيرة التى كانت تذهب بدوافع مختلفة ووجد فيه باعة الترمس والفول السودانى واللب والمشروبات الساخنة والباردة سوقا صغيرة ورائجة !!

***

وأما الاطفال فقد كانت سعادتهم لا تنقضى بحركات وجهه ويديه وسارت الامور سيرها الطبيعى فى مدرسة نديم وفى محافله وألف الناس رؤية هذا المنظر الذى كان غريبا وكئيبا فى بدايته ، منظر التلاميذ الايتام وهم فى طريقهم الى المدرسة أو منها ، تكان التعليم وقتذاك وقفا على أبناء القادرين من المصريين وأبناء الاجانب وكان منظر التلاميذ على قلته هو أحد مناظر الثراء والوجاهة ولكن منظر هؤلاء الصبية الذين لم يستطع نديم أن يقدم لهم آنذاك أكثر من التعليم وبعض الطعام منظرهم وهم يحملون حقائبهم التى صنعت فى الغالب من نفس قماش ثيابهم كان جديرا بأن يفتح عيون الناس ويثير تساؤلهم عن حقيقة ما يفعله هذا الرجل منذ حل بمدينتهم ، ولكن تساؤلاتهم قد انتهت بعد أن ألفوا هذا المنظر يتكرر ، وان بقيت بالنسبة لخطبه المتجددة دائما ، والتقى نديم بأديب اسحق بعد أن عاد من المحروسة فى آخر مرة ذهب اليها بعد استقالة شريف باشا ، ولم يكن يعانى هذه المرة من السكر ، بل كان يعانى من يقظة حادة ارتسمت على ملامح وجهه الابيض الذى تظلل نصفه لحية سوداء !!

***

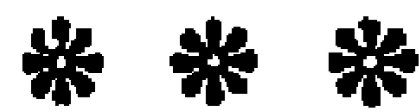
ـ لن تصدق اذا قلت لك انهم فى المحروسة يتسلون أيضا بحل الغازك ولم يبتهج نديم لهذا ، بل قال فى سخرية :

ـ معنى هذا أنه لم يعد هناك ما يفعلونه يا أديب !

ـ لقد عادوا الى الجحوز القديمة وبدأت لعبة المنشورات !

ـ كيف وجدت المحروسة بدون جمال الدين ؟ لم تقل لى كيف وجدتها !

ـ لم تعد المحروسة التى نعرفها ، وأصبح مقهى الازبكية مكانا للعمد والخواجات وتجار القطن !!



وبعد أسابيع من هذا اللقاء لم يجد أديب اسحق هو الآخر ما يفعله لقد أغلق رياض باشا جريدتى « مصر والتجارة » بعد أن فشلت انذراته فى أن تجعل الجريدتين تخففان من لهجتهما الحادة فى مهاجمة الاجانب ، وكانت حكومة رياض باشا قد أعادت سلطة المراقبة الثنائية وخولت لها سلطات دونها سلطات النظار فى مراقبة الشئون المالية والادارية ، وأسفر النفوذ الاجنبى هذه المرة عن وجهه فى غيبــة ممثلى الحركة الوطنيــة ، واكتظت الادارات الحكومية بالموظفين الاجانب على نحو أعاد للناس ذكرى الوزارة الاوربية ، وقال أديب اسحق لعبد الله نديم ذات ليلة :

ـ أنا مسافر بعد أيام الى باريس ومن هناك سأصدر جريدة « مصر » من جديد !

ـ كيف وأنت فيما أعلم لا تملك نقودا ؟ .. ثم تابع بعد أن لمح على شفتى أديب ابتسامة غامضة : ويمكن لو بقيت أياما أن أدبر لك ...

وانفجر أديب ضاحكا :

ـ أيها المفلس الابدى انها فرصة العمر لك ، فديونك لى سوف تسقط بغيابى فى باريس ، وقد أموت هناك فتسقط الى الابد .

ـ لكن ...

ـ لقد دبر الحزب الوطني كل شيء ابتداء من سفرى الى توزيع الجريدة فى مصر كما توزع المنشورات !! ومن هناك سأعرف كيف أجعل رياض باشا يندم مر الندم على اغلاق صحيفتى ، وستبقى انت هنا تحكى ألغازك ليتسلى بها الناس

***

ووجد نديم نفسه فى بداية هذا الشتاء الذى كان قاسيا مثل أى شتاء عرفته الاسكندرية وحيدا وحدة حقيقية ، لقد انتهى الاصدقاء الكبار فجأة ، الاصدقاء الذين يتحدون ذكاءه وغروره يتيحون له أن يعرف على نحو حقيقى من هو ؟ كان أديب يفتنه على نحو شخصى بذكائه الحاد وقلمه وثقافته ، وها هو الآن وحده فى الاسكندرية بل فى مصر كلها ، لقد ذهب الشيخ جمال الدين ، وغدا يرحل أديب اسحق ، وكأن كل ما حدث خلال السنين الأخيرة كان مجرد حلم عابر ، لم يعد هناك غير الصحف التى تسبح بحمد الخديوى ، ولقد علم من أديب اسحق أن الشيخ محمد عبده ذلك الفتى الصموت الذكى المغلق كصندوق الاسرار ، والذى كان يلتقى به فى ندوة الشيخ جمال الدين فتثيره كلماته القليلة كما يثيره صمته الطويل ، هذا الفتى الذى كان يفكر يوما فى اغتيال الخديوى اسماعيل بنفسه ، قد رشح اخيرا ليكون محرر للوقائع المصرية لسان حال الحكومة ، كيف يمكن للمرء أن يضع ثقته فى شخص أو شىء ؟

ـ ضعها فى مجموعة البلهاء ، فى هؤلاء الصبية اليتامى الذين يحتمون بك وتحتمى بهم !

***

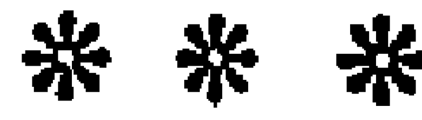
هكذا قال نديم لنفسه بعد أيام وأسابيع ظل خلالها يواجه السؤال اللعين ، وبدأ يتلمس صداقة الحشد الذى يجتمع كل أسبوع فى فناء مدرسته ، تاركا تفاصيل العمل ومشاغله الادارية

لهذين الصديقين اللذين كانا يحملان عبء جمعية « مصر الفتاة » واصبحا يحملان عبء « الجمعية الخيرية الاسلامية » محمد أمين ، ومحمود واصف ، كانا ينظمان الشئون المالية والادارية والاتصالات والاجتماعات والندوات والمحافل ، وكان نديم قد تفرغ تماما للحشد وللتلاميذ ، كان يدرك بحسه العملى الذى نما خلال حياة لم تكن رافهة وادعة والذى صاحبه فى ارتفاعه وهبوطه المتكررين ، ان عليه أن ينتظر هذه المرة كما انتظر فى مرات سابقة قبل أن يخطو خطوة جديدة ليعرف موضع قدمه ، وبدأت ملامح الحشد الاسبوعى تتضح بدأ يصبح مصدرا للصداقات الجديدة ، وحقلا للمناقشات المثيرة ، ومعينا لا ينضب للتبرعات ، وأهم من هذا كله يفجر فى داخله تلك القدرة التى كان يدركها بشكل غامض وبدأت الآن تصقل وتهذب ويكتشف أنها أروع قدراته كلها على الاطلاق « انه فعلا « خطيب الشرق » و « خادم الانسانية » و « محيى الوطنية » وفناء مدرسته « سوق عكاظ » و « معرض باريس للادب » أخيرا بدأ يصدق ما تقوله الصحف التى ظلت تنشر خطبه التى لم تكن آنذاك شديدة الخطر ، انه يتكلم عن « التعاون » و « التعليم » وانه يدعو الى انشاء « جمعية خيرية قبطية » على غرار « الجمعية الخيرية الاسلامية » انه يدعو الاقباط لذلك كما دعا المسلمين ، وانهم يستجيبون لدعوته فيلقى فى ليلة الافتتاح بخطاب رائع مثير يذكر الناس بخطابه الأول خطاب يطرزه هذه المرة بآيات من الانجيل كما طرز خطابه الاول بآيات من القران فيصيب القساوسة بنفس الدهشة التى أصاب بها شيوخه فى جامع الشيخ ابراهيم ، وان صورة الحشد مهما يكن دينه أو جنسه أو ثقافته تصبح مصدرا لتلك القدرة التى تذهله هو نفسه قبل أن تصيب الحشد بالذهول ، أين تكون هذه القدرة حين يعنفه أبوه (وكان لا يزال يعنفه أحيانا) فلا يجد كلمة يرد بها عليه ؟

حين تعاتبه زوجه لانها لا تجد ما تقول لاولاده حين يمضى يوم أو يومان دون أن يروا أباهم ؟ حين يحاول أن يكتب مقـالا لجريدة « المحروسة » التى صرح بها لسليم نقاش بعد سفر أديب اسحق والتى أصبح يكتب كل حرف فيها ؟؟ ان هذه القدرة مرهونة بهذا الحشد لا بشىء غيره لا يكاد يقف أمامه ، لا يكاد يبصر مئـات الوجوه والرءوس والثياب تغطى وجه الارض ، ما يكاد يسمعها تلغط فى انتظاره وتظل حتى بعد أن يطل عليها تلغط وتتكلم ، وقد يقول كلمة أو كلمتين دون أن تكف عن اللغط ولكن ـ ودون أن يدرى كيف يحدث ذلك ـ يسود الصمت وترتفع الوجوه وكأن مئات من الايدى اللامنظورة قد امتدت فجأة فجذبتهـا الى الوراء بيد ، وأسكتتها بالأخرى ، ويحس بمئـات العيون وهى تودع فى نفس اللحظة آلاف المرئيات التى كانت تجتذبها منذ قليل ويختفى العالم بالنسبة لها وله ٠٠ واذ ذاك فقط تأتى تلك القـدرة ، تتفجـر ، الكلمات كلها ملك له ، انه لا يختار لا ينسق لا يفكر كأن كل شىء أعد من قبل ، الحشد يصبح جزءا منه ، أو ربما العكس ثمة دائرة مثل دائرة الكهرباء ٠٠ لقد اتصلت الدائرة وسـرى التيار الى الحد الذى يستحيل فيه أن تعرف أين البداية والنهاية أين مصـدر القدرة ؟ انه لا يحاول أن يقنع الناس بشىء يكفى فقط أن يتكلم أن يرفع صوته عاليا ، ليسمعوا الصوت ٠٠ صوتهم وكأنهم يتذكرون أشياء كانت فى رءوسهم انه يصبح مجرد رأس لهذا الحشد رأس ينظم تجاربه وخبراته وينطق بما فى ضميره ، ولكن كل هذه الروعة وهذا السمو ينتهيان حين يتفرق الحشد وحين يصبح من جديـد وحيدا ، ان الحشد هو الحشد ، انه يملأ فناء المدرسة ولكنه لن يملأ أبدا لحظات الوحدة ، لن يستطيع أن يضع يده فى يده كما كان يفعل مع أديب اسحق ويتسكعان فى الشوارع فى نهاية كل سهرة ويهمسان

بكل شيء وبأى شيء ، وقد ينتهيان الى مسجد أو كنيسة فيدخلان ويصليان كل صلاته ، ويتحدثان عن الله أو الناس بلا خوف ويشعران أن فى أعماق كل منهما من التسامح والمحبة ما يغرقان فيه كل خلاف بينهما فى الدين أو الوطن ، ويحسان أنه فى كل فرد وفى كل مجتمع وفى كل دين وفى كل موطن شيء صاف وعميق شيء يمكن أن يلتقى حوله الجميع شيء عبر عنه أديب اسحق بتلك الكلمة التى لاينساها نديم أبدا :

« ان فى قلب أعدى أعدائك مكانا للحقيقة » !!!



« واذا كانت صداقة الحشد لا تملأ لحظات الوحدة ، فان العلم لا يملأ المعدة ، والطعام لا يغنى عن الثياب »

هكذا كان يفكر عبد الله نديم كل صباح وهو واقف فى فناء المدرسة يرقب تلاميذه وهم يتكدسون فى جوانب الفناء بحثا عن مكان تصل اليه الشمس !

كان شتاء الاسكندرية قد حل منذ أسابيع واذا كان بعض الناس يعرفون مقدم الشتاء حين يهطل المطر واذا كان بعضهم لا يحسون به الا حين يلح عليهم ذووهم بارتداء ملابس ثقيلة ، فان الفقراء دائما يكونون أول من يدرك مقدم الشتاء ، فأجسادهم هى التى ترتعش أول ارتعاشة فى فصل الخريف ، وعن صدورهم تنبعث أولى نوبات السعال ، وهم أول من يتلمس أشعة الشمس ويدرك قيمتها ، فهى الشيء الوحيد الذى يمنحهم الدفء بلا ثمن ، وهم يخافون الليل ، ويستيقظون مبكرين فى انتظار الشمس التى تتأخر دائما فى ليالى الشتاء ، وحين تأتى تخفيها الغيوم ، واذا كانوا

تلاميذ صغارا فهم يكونون أول من يذهب الى المدرسة لانهم حتما سيلتقون بأول شعاع فى فنائها الفسيح حيث تكون بيوتهم فى العادة مدفونة داخل حارة ضيقة أو فى أسفل بيت قديم !:

***

وكان نديم يبصر كل صباح أغلب تلاميذه وهـم يتداخلون بعضهم فى البعض الآخر بجوار سور الفناء وأسنانهم وأطرافهم كلها ترتعش وتصطك فى لحن جماعى مثير ، وكان قد فعل الكثير من أجل أن يفتح لهم مدرسة وأن يقدم لهم وجبة طعـــام بين حين وآخر ، وكان يسأل نفسه :

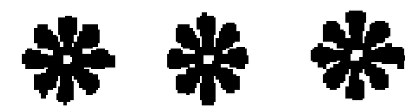
ـ هل بمقدوره أن يفعل شيئا آخر ؟ وما هو ؟

لقد كان منذ شهور قليلة عاجزا عن أن يقدم شيئا لأولاده كان أبوه هو الذى يطعمهم ويطعمه هو كذلك ، وكان يستدين لنفسه وهو الآن يتسول من أجل هؤلاء ! فأى طموح بل أى جنون قاده لأن يفتح على نفسه كل هذا البلاء !! ولكن متى كان عاقلا ؟ انه لم يكن كذلك فى يوم من حياته فلماذا يحاول الآن أن يكون كذلك ؟

***

انه يحرر جريدة المحروسة كلها دون أن يتقاضى مليما من سليم نقاش ، ويتسول من الحشد الذى يفد اليه كل أسبوع ليستمع الى خطبه ، وكان عامل تلغراف وأدباتيا ، ووكيلا لدائرة توتنجى بك ومعلما لابناء عمدة ، وها هو الآن مدير مدرسة وخطيب الشرق وخادم الانسانية فأى عمل آخر لم يقم به بعد ؟ وفى صباح بارد هبطت عليه الفكرة كأنما لأول مرة ، انه لم يشتغل بعد بالتمثيل ، وقفز درجتين من السلم ، وضحك الاولاد الذين كانوا فى الفناء واستمر يضحكهم بكلماته وحركاته كأنما ليقنع نفسه بأنه يمكن أن يصبح ممثلا ناجحا !!

ولم يدهش الاولاد فلم تكن تلك اول مرة يضحكهم فيها ، وفوجىء بأن الفكرة لم تكن جديدة عليه ، لقد حلم مرات عديدة بأن يؤلف ويمثل ، وتذكر أديب اسحق وأسفه لأنه لم يلتق به قبل أن يغلق مسرحه ، واعاد التحديق الى مجموعة التلاميذ التى كانت تحيط به وبدا له أن كل شىء مهيأ ولأول مرة لتحقيق فكرته ، أنه يدربهم على الخطابة فلم لا يدربهم على التمثيل ويصبح فناء المدرسة مسرحا ، وسليم نقاش بخبرته لا يزال هناك وليس أمامه سوى أن يصبح هو المؤلف الذى توهم أنه كامن فى جلده ، وحلم بالمتفرجين والتذاكر والنقود وبملابس للتلاميذ المرتجفين من البرد ، وأخيرا يتحقق حلمه بأن يصبح كاتبا للروايات المسرحية وممثلا مثل يعقوب صنوع ! أكان يفكر لحساب الاولاد أم لحسابه ؟ هؤلاء الاوغـــاد الصغار انه لا يحاول أن يصنع لهم شيئا الا وصنعوا له أعظم منه !



واختفى أسبوعا وأسبوعين وثلاثة ، وحين أبصره سليم نقاش كاد يصرخ فى وجهه فلم يكن قد كتب كلمة واحدة طوال هذه المدة مع أن صحيفتى « المحروسة » و « العصر الجديدة » تعتمدان على قلمه . ولكنه احتجز صراخه حين رأى « نديم » يضع أمامه كومة من الاوراق .

ــ ما هذا ؟

ــ ألا تعرف القراءة ؟

ــ أحب أولا أن أعرف أين كنت طوال هذه المدة لقد فتشت عنك المدينة كلها !

ــ اقرأ وانت تعرف !!

واخرج سليم نقاش من جيب سترته منظارا مسحه بطرف منديله كما مسح شفتيه بطرف لسانه وعكف ســاعة كاملة يقرأ الاوراق التى كانت امامه رافعا رأسه احيانا ليطلب من نديم قراءة كلمة ، أو ليسأل عن معناها ، مرسلا ضحكة قصيرة أو طويلة ماسحا أنفه الطويل الضخم بمنديل آخر كان مكورا فى جيبه ، ثم رفع رأسه الى نديم الذى كان صامتا طول الوقت ، محاولا أن يفهم شيئا من ملامح وجهه الجامدة وقال لنديم مرة ثانية :

ـ ما هذا ؟

وحاول نديم أن يوضح له بلهجة من يعتذر عن ذنب ارتكبه أن كل ما يهمه فى الموضوع أن يودع الافكار التى يكتبها فى مقالاته فى شكل تمثيلى ، ليجمع بعض النقود للمدرسة ممن يتفرجون على هذه الرواية ، وأنه لم يطمح الى أن يكتب شيئا مثــل الروايات العظيمة التى كانوا يؤلفونها ، وأنه اذا اســتطاع أن يقدم بعض العون فى ...

وقاطعه سليم نقاش وهو يبتسم ابتسامة متراخية :

ـ كفى ، لماذا تجيب على شىء لم أسأل عنه ؟

ـ وما الذى تسأل عنه ؟

ـ هل تظن الناس بلهاء حتى يدفعوا نقودهم لرؤية رواية تشتمهم فيها ؟

ـ لم أشتم أحدا يا نقاش !

ـ انك لم تترك فيما تسميه رواية « الوطن » تلك ، طبقة أو طائفة الا ورحت تقذفها بالاحجار ، لم يسلم أحد من لسانك ، الاغنياء والاتراك والموظفون والفلاحون والحكومة وحتى الفقراء لم يسلموا

من لسانك حتى الخديوى الذى تمدحه فى نهاية الرواية لم يسلم من تعريضك به !

ـ انه مجرد نقد لبعض الاوضاع فى قالب فكاهى !

ـ تظن انك تستطيع خداع الحكومة بهذا القالب الفكاهى ، وتتذرع بمساعدة التلاميذ ، ونحاول اخيرا أن تجرنى معك فى هذه اللعبة ٠

ـ لن أجبرك على شىء يا نقاش !

***

وواصل سليم نقاش : وبدلا من أن تستمر فى كتابة مقالاتك للجريدة كما وعدتنى ، تندفع فى جنون الى محاولة قد تنتهى بغلق فمك وغلق مدرستك الى الأبد ! اذا كنت تريد حقا أن تساعد التلاميذ فمزق هذه الاوراق ٠

ـ لا تخف يا نقاش فالمسألة أهون من أن ٠٠٠

ـ ومن يجرؤ الآن على نقد الاوضاع التى تنتقدها هل تظن نفسك أقوى من شريف باشا ورجاله الذين أصبحوا لا يقولون كلمتهم الا سرا وفى منشورات تهدد حاملها بالهلاك !

ـ واذا علمت أن الخديوى نفسه سيحضر تمثيل هذه الرواية ؟

فبهت سليم نقاش ، وظل لحظات يحدق فى نديم دون أن يفتح فمه بكلمة :

ـ لا أصدقك ٠٠٠ واذا كان أحدهم قد خدعك فلا شأن لى بهذا !

ـ لاتقلق وانس هذا الموضوع ، ودعنى أسألك ما رأيك فيما قرأت كرواية للتمثيل ؟ ثم أضاف : أنت تفهم فى هذا يانقاش ٠

ورغم هذا الاطراء ابتسم سليم نقاش فى دهاء وقد تذكر أن « نديم » كان يعتذر عنها منذ لحظات وقال :

ـ رديئة ، ولكنها قد تضحك الناس ثم استدرك (أعنى اذا مثلت) الروايات لابد أن تشتمل على حب وخيانة وصراع ولكن لا احد هنا يفهم ذلك ، ولا أنت نفسك ، ولهذا فقد تعجب الناس ٠٠ أجل قد تعجبهم !



ورجع نديم الى مدرسته وتلاميذه ومجموعة الاوراق التى يسميها رواية الوطن ، لم تكن هذه أول مرة يستنجد فيها بنفسه فتنجده ، وانتقى من مجموعة التلاميذ التى كان يدربها على الخطابة أوفرهم استعدادا وراح يشرح لهم الموضوع ، وكانت أول صعوبة واجهته حين أفهمهم أنهم سيتأخرون كل يوم عدة ساعات بعد الظهر انه اكتشف أن بعض صبيانه يؤدون أعمالا تساعدهم على المعيشة بعد انصرافهم من المدرسة ، ولكنه كان يندفـــع كالمجنون لتنفيذ فكرته !!

ـ سأدفع لكم ما تأخذونه مقابل هذه الاعمال ! سأدفع لكم الكثر ٠

ـ لكن ٠٠٠

ـ وسأتصل بمن تعملون عندهم حتى لا تتأثر علاقتكم بهـم وسأشرح الامر لاقاربكم !

ومضت أيام غرق نديم خلالها فى تدريب التلاميذ ، وفوجىء نديم لا بمواهب التلاميذ وحدها ، بل بموهبته هو كذلك ، كانت السنون الطويلة التى فكر فى أنه أضاعها هباء ، سنوات التشرد والضياع والتصعلك فى بـــلاد الله الواسعة ، تؤتى كل ثمارها المباركة ، وكان الاطفال فى الشوارع المجاورة للمدرسة ، الاطفال الذين كانوا يجيئون للتفرج مرة واحدة فى الاسبوع قد أصبحوا يجيئون كل ليلة تجتذبهم أضواء « الكلوبات » القوية ، ويتسلقون نوافذ المدرسة ليروا التلاميذ وهم يتدربون ، ويســـمعون كل ليلة « نديم » وهو يلقى بتوجيهاته ويصيح ويحرك يديه وملامح وجهه فى أوضاع بدت لهم غريبة ومضحكة .

ـ سالم .

ويلتفت تلميذ صغير غارق فى جلباب ريفى واسع ويختفى رأسه تحت لبدة من الصوف ندت من طرفها خصلة من شعره النافر .

ـ يجب أن تنسى أنك سالم ، من الآن اسمك « أبو دعموم » من الآن أنت فـلاح ... وأنت الآن تشكو الى « أبو الزلفى » من الضرائب وهو يبادلك الشكوى ولابد أن يكون ذلك بلهجة تعبر عن الضيق والسخط .

أبو دعموم : أدجنا متحرحرين ياخى فى المال والمقابلة والسدس ومصاريف الرى والسهوم والمصلح والشخصية وعوايد البهايـم والوطنية والاغنام والنخيل الدخولية !

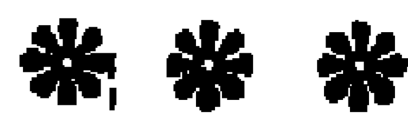
أبو الزلفى : لا وفاتك ياخى عادة الحكيم والمهندس والمزين والطوافة وقواسة المدير وخدمينه ، وسنوية ناظر القسم وخدمينه والعونة وطلوع البهايم للشغل والبنات للقطن والأولاد لتنقية الرز والحطب للوابورات وعليقة خيل القواسة وتبنهم !

أبو دعموم ! لا .. ولا تلساش شيخ البلد وأخد البهايم فى غيطه والنسوان فى دواره والاولاد تجرى وراه ويروح يداين من الخواجات ويجى يقول هاتوا يا فلاحين ، وأولاده دايرة ترقع فى اصداغنا وخدامينه بتلطش فينا ، ونسوانه بتسفخ لنسواننا !

ـ أستاذ ... أستاذ ...

كان ابو دعموم هو الذى يرفع أصبعه وهو يتلوى داخل ثوبه الفضفاض مشيرا الى ضرورة انصرافه لدورة المياة فيشير اليه نديم بالانصراف ويمضى وسط ضحكات زملائه متعثرا فى ثوبه ، ويتجه نديم مرة أخرى الى « أبو الزلفى » ناصحا ومتوعدا وعاركا أذنه .

ـ يجب أن تفهم ما أقوله لزميلك ... أنت تتكلم كما لو كنت تقرأ فى كتاب المطالعة بينما أنت تذكر أشياء توجع قلب الفلاح فلابد أن تذكرها كما تذكر شيئا مؤلما !!



وكان نديم يرتدى ثياب كل شخصية ويمثلها أمامهم مرة أو مرتين .. وبرع التلاميذ فى تأدية أدوارهم بأسرع مما توقع نديم ، وذاع الخبر فى الاسكندرية ، ودهش سليم نقاش لاستمرار نديم فى تلك اللعبة ، وأعاد تحذيراته !!

ـ كن عاقلا يا نديم ! ...

ولم يكن نديم مجنونا حين فكر فى روايته ، وربما لم يكن عاقلا كما كان فى هذه الايام !! كان قد بدأ يلمح بوادر تصدع فى العلاقة بين الخديوى من ناحية ورياض باشا من ناحية أخرى ، وأصبح واضحا لاصحاب العيون النافذة أن رياض باشا يعتمد على شىء واحد لا غير هو ثقة قنصلى انجلترا وفرنسا به ، تلك الثقة التى

أستحقها عن جدارة فى الماضى وراح يدعمها الآن غير عابىء حتى بالخديوى نفسه وأعلن الخديوى الذى لم يكن الكتمان أحد صفاته لمن حوله ضيقه باستبداد رياض باشا الذى لا يعرف حدودا يقف عندها ، وحاول الخديوى فى رحلته الى الصعيد والوجه البحرى فى ذلك الشتاء أن يكسب الناس حوله ·

***

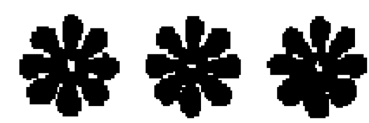
ولم تنجح هذه الرحلة الا فى كشف هذا التصدع وتعميقه وانتهز نديم الذى كان يعرف من قديم بركة كل تصدع فى السلطة هذه الفرصة ، وتقرب من الخديوى ، وطلب أن تكون الجمعية تحت رئاسة ولى العهد ، وشجعه قبول الطلب على أن يتمادى فى مطالبه ، وأفهم أن القصر يبارك جهوده فى خدمة الوطن ، وفهم هو من تلقاء نفسه أن القصر لن يغضب من رواية تصور الظلم الواقع على الشعب ما دامت تضع فى الخديوى أملها فى رفع الظلم ! ثم طلب أن يحضر الخديوى تمثيل الرواية ولم يفاجأ هذه المرة بقبول طلبه !!

***

فوجىء فقط بأن « سالم » الذى يمثل شخصية « أبو دعموم » قد تأخر يومين عن المدرسة وعن التدريب على المسرحية ، وسأل عنه زميلا يسكن قريبا من بيته فعلم أنه مريض ولم يفكر فى البحث عن تلميذ آخر وحتى اذا احتاج الامر لذلك فلابد من زيارته ، أولا للاطمئنان على أذكى تلاميذه ، ولم تكن تلك أول مرة يزور فيها تلميذا فى بيته ولكنها أول مرة يزور فيها تلميذا بلا أب ، فقد كان يدرك مدى الحرج الذى يسببه له بتلك الزيارة اذا لم يكن هناك رجل غير الصبى فى البيت اكله ، ولكن حين يتعلق الأمر بسالم وبدوره فى هذه المسرحية الهامة التى قد يحضرها الخديوى بنفسه ، فالامر يستحق المجازفة ، وهناك أدرك نديم أنه جازف فعلا ، كانت أمه

وحدها هى التى فتحت الباب لنديم وكانت الحمى الشديدة التى جعلت الصبى يهذى تحت حرارتها هى التى جعلت الأم و « نديم » معا لا يقيمان وزنا كبيرا للتقاليد التى كانت لا ترحب بمثـــل هذه الزيارة ، وسأل الام عن اقارب الصبى وفهم من كلماتها القلقة ومن اول نظرة ألقاها على ما فى البيت من أثاث أنهم لابد أكثر بؤسا منها ... وان الاسرة الصغيرة كانت تعيش من عمل الصبى بعد الظهر ومن بعض مساعدات من خال الصبى المقيم بالمنصورة ، وقد فهم هذا فيما بعد ، ولكنه فى هذا اليوم خرج مسرعا ليعود مرة بطبيب المدرسة ، ومرة أخرى بدواء للمريض ومرة ثالثـة ليعود بطعام يناسب المريض ، وكان هذا كله اكثر مما تحلم به أرملـــة مسكينة كهذه ، وحارت كيف تشكره لم تكن قدمت له حتى فنجانا من القهوة !

وحين بدأ رجلها الصغير يفيق من أثر نوبة الحمى ويتعرف على أستاذه ويفهم ما حدث ويبتسم فى وهن حين سأله نديم عن صحة « أبو دعموم » الآن ، حينذاك فقط تذكرت موضوع التحية التى كانت قد نسيتها ، وعادت تعتذر وترجوه أن يبقى قليلا ، ولكنه أصر على الخروج ووعد بأن يزوره مرة أخرى !!



ـ هل يزوره مرة أخرى ؟

ـ لا ..

كان نديم هو الذى يحدث نفسه ، كان وقتها فى الســـادسة والثلاثين من عمره أبا لأربعة أطفال ، ومدير مدرسة ، وكاتبا فى الصحف ، وكما يزعمون خطيب الشرق ! هل نسى شيئا ؟ وصاحب

جوقة للتمثيل كذلك ! ؟ فهل يستطيع رجل هذا شأنه أن يخدع نفسه ؟ قد يحاول خداع الخديوى ، أما أن يخدع « نديم » فلا !!

***

انه يعرف نفسه جيدا ، يعرف أنه بقى فى هذا البيت أكثر مما ينبغى ، ولاطف الصبى أكثر مما يجب ، وسمح لمشاعره نحو الصبى والتى كانت حقيقية أن تتدفق وأن تتجاوز الحدود ، وأن أم الصبى التى كانت فى مثل سنه تقريبا جميلة الى حد لم يستطع معه أن يمنع نفسه من رؤية وجهها فى كل مرة سقطت من فوقه طرحتها الرقيقة وما أكثر ما سقطت فى لحظات الجزع والقلق من أجل صبيها المريض حتى ما عادت تبالى بأن تعيدها الى مكانها ، كانت جميلة ذلك الجمال الذى لايستطيع الفقر مهما بلغ أن يمسه ، وقصارى ما يفعله أن يضيف اليه لمسة شحوب وهزال ليغدو أرق ليصبح قادرا على أن يثير لا الاعجاب فقط ولا مجرد الرغبة بل الحنان والعطف أيضا ، ولم ينس الطريقة التى كانت تنظر بها اليه نصف نظرة ، أو تنظر بها الى شىء هو فى طريقه ، ولقد رأى فى عينيها وفى أقل وقت ممكن رعشة الامل والجزع والتساؤل والحيرة والامتنان وكان من الصعب أن ينسى هذه المرأة التى لا يعرف لها اسما ! ولا أن ينسىٰ ذلك الشعور الذى جعله يسرع الخطى فور خروجه من البيت وكأنه يخشى أن يراه أحد ، وقتها لم يحس ببرودة الجو ولم يحجب عنه الظلام الذى فاجأه وغمر الكون ما فى الكون من جمال !!

***

انه يعرف نفسه ، ولهذا قرر غير متردد الا يزور الصبى مرة أخرى دائما كان يحلم بالحب ويفتش عنه بقدر ما يخافه ، وفى كل مرة التقى به لم يكن يعنى له غير العذاب ، سخرت منه خادمة فى فرن أبيه ، وفى القصر ، فى المرات القليلة التى كان يلتقى فيها

صدفة باحدى الجوارى وهو يسلم أو يتسلم برقية عاجلة ، كن يتندرن بشكله ، ولا يرين فيه غير شيء مضحك !

***

وفى المحروسة فتحت له الباب مرة ابنة صديقه عبد العزيز حافظ ولمح فى وجهها نفس الانطباعة التى أصبحت لا تخفى عليه وحين حاول أبوها أن يعرض عليه بلباقة فرصة الزواج بها تجاهل العرض ، وحين طال شوقه للمرأة تزوج ، كانت تلك هى الطريقة لكى تحبه امرأة ، أن تتزوجه أولا وبعدها قد تكتشف أنه يستحق حبها ، وحين بدأت تحبه ، كان هو قد بدأ ينسى الحب ، وها هو يكتشف أن الرجل لاينسى الحب حتى ولو كان فى السادسة والثلاثين من عمره وأبا لأربعة أطفال ومدير مدرسة •• الخ ، ولكن أى شيء أحب فى هذه المرأة ، أى شيء حدث خلال هذه الزيارة القصيرة التى لا تريد أن تنتهى ، مئات الاشياء ، مئاتها ، ولقد راح يذكر لأحد غير نفسه لما شك أحد فى جنونه ! يكفى أنه لم يجد تلك الانطباعة التى كان يظنها جزءا من قدره ، لم تكد تسمع اسمه حتى دعته للدخول ، هى تعرف عنه الكثير دون شك ! ولقد تخطت خلال هذه الزيارة القصيرة حدود الخوف والريبة والحيطة والتحفظ وقالت له فى بساطة شديدة :

ـ أين وضعت زجاجة الدواء ؟ ثم أضافت فى شبه تأنيب :

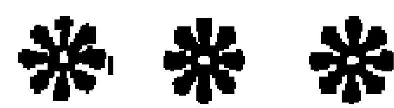
ـ كانت فى يدك ! وضحكا معا بلا أدنى تحفظ حين اكتشفا أنها كانت لا تزال فى يده !!

وكانت الانطباعة التى لمحها بعد ان أحكمت الطرحة وهى تودعه جديرة بأن تجعله أسعد رجل ورغم ذلك لم يغير من قراره ، ولكن قراره نفسه لم يمنعه من أن يرسل زملاء سالم للسؤال عنه ، ومن ارسال بعض الاعانات المدرسية هذه المرة ، وحين رجع سالم

الى المدرسة ، لم يمنعه هذا القرار من أن يستمع بدقة مذهلة الى كل كلمة قالها يمكن أن تشى بأثر زيارته تلك ، وحين أفهمه الصبى أن أمه تشكره جدا وتتحدث للجميع عن هذه الزيارة أسعده ذلك بقدر ما اقلقه !



ولكن « سالم » أصبح بشكل ما أعز تلاميذه ، وأصبح نديم يجد فى اهتمامه بالصبى سعادة لا توصف ، وازداد تعلق الصبى به ، ومن المؤكد أنه يحكى لأمه ما يفعله من اجله ، وكانت أحاديث الصبى معه تحكى رجع الصدى هناك ، ان أمه هى الاخرى بدأت تهتم بأخبار المدرسة ، وأخبار الراوية ، وأخيرا بأخبار نديم نفسه ، انها تسأل ولدها عنه ، وتكرر شكرها بلا مناسبة ، ان الصبى يتحول الى مرآة شفافة يتبادل خلالها رجل وامرأة كل ما يقدران عليه من الاشارات خلال مجتمع لم يكن يسمح لهما بشىء أكثر !!



كان نديم قد ذاق طعم النجاح فى محافل الخطابة ! وقد ذاق طعم الشهرة فى كل مجتمع حل فيه أو طرد منه ! ولكن بعد أن مثلت رواية « الوطن » كان فى حاجة الى أن يلمس فى كل لحظة شيئا صلبا : يد صديق أو حافة منضدة ، أو ذراع مقعد ليتأكد من أن ما يحدث ، مايراه ، ما يسمعه ، شىء حقيقى وليس مجرد حلم غريب سيصحو منه بعد قليل !!

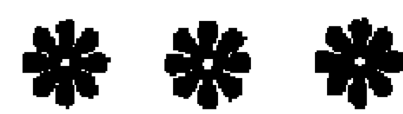
فى الماضى حلم بأشياء كثيرة وكبيرة لم تتحقق ، وفى الحاضر حلم حلما واحدا صغيرا ، وكانت الجمعية الخيرية ومدرستها أول تجسيد له وها هو حلمه الصغير ينتشر على نحو مثير ، انه يخرج من هنا كل ليلة من نفس فناء المدرسة الذى أصبح مسرحا يتسع

لمئات المتفرجين يخرج من المئات ، يصبح ضمن احلامهم واحاديثهم وضحكاتهم وفى كل ليلة يأتى آخرون من الاسكندرية ومن البلاد المجاورة لها ليتفرجوا على صبيان نديم وقد أصبحوا « أبو دعموم » الفلاح الذى يئن من الضرائب و « مظهر أفندى » الموظف الذى لا يفيق من السكر ، والسيد على الذى يعشقه الرجال و « أبو رجب » الصياد الذى تتحكم الريح فى رزقه ، و « عزت بك » الذى تعلم فى أوربا ولم يفد أحداً بعلمه وكل الشخصيات التى تمثـــل طوائف الشعب وطبقاته !!

ولأول مرة يرى الناس أن شكاواهم ومواجعهم التى كانوا يهمسون بها فى حذر قد أصبحت حديثا يردده كل ليلة صبيان نديم على مرأى ومسمع من المئات ٠



والحل ؟ ٠٠ لقد همس به يوما لأحد عشر رجلا فى الاسكندرية وهاهو الآن يصيح به كل ليلة على المسرح أمام طوائف الشـــعب وطبقاته كان هو الذى يمثل دور « الوطن » صورة رجل بائس زرى الهيئة يمــر به النـــاس فى عرض الطريق فلا يرون فيه الا مــادة للسخرية !! وشيئا فشيئا تشق نداءاته طريقها الى قلوبهم فيقف البعض ويواصل البعض سيره أو سخريته ولكن الوطن أيضا يواصل نداءه ، يواصل حلمه ، وكلمة من هنا وكلمة من هناك ، يتبلور الحلم حلم الخلاص له وللناس ويتسلل الى قلوب من يمرون به ، وفى نفس الوقت الى قلوب من يتفرجون ، يتسلل وسط الضحكات ٠٠ !

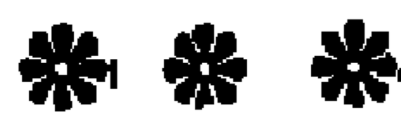


الوطن ــ وابلوتاه ، ضاعت الإنسانية وصارت الناس بهائم ، العلم عبارة عن المعارف والصنايع لا ورق القبانى !

أبو رجب ـ احنا ناس شغالة ياعم ونجيب المعارف منين ؟ ماتجول للى عندهم فلوس وبايتين يركوا عليهم زى الفراخ !

الوطن ـ ياولدى المعارف فى المدارس والورش واذا كنتم تبتدئوا يتبعكم الاغنياء فانهم عمى عن طريق التقدم الا بمرشد والفقراء هم أصل كل شيء !

أبو رجب ـ تعال يا حاج رزيجه نلم عشر فليكيه نشاورهم .



وفى الوقت الذى كان فيه نديم مشغولا بجمع النقود التى تدرها روايته مناقشا أعضاء مجلس ادارة الجمعية فى الطريقة التى ينبغى أن تستغل فيها هذه النقود ، مؤكدا ضرورة البدء بشراء ملابس شتوية للتلاميذ الفقراء ، متنازلا عن النسبة التى رأى بعض الاعضاء انه يستحقها من دخل روايته كمؤلف لهذا الغرض ، فى هذا الوقت كان مسرح روايته يمتد ويتجاوز فناء المدرسة ففى كل شارع وفى كل حارة وأحيانا فى بعض البيوت كان من الممكن أن تتعثر بمجموعة من الصبيان أو التلاميذ يمثلون رواية « الوطن » لا بنصها لكن بروحها ، كانت هذه الروح تسرى فى المدينة ، وكان ثمة صبى صغير ـ أطول الصبيان قامة ـ يلعب دائمـــا دور الوطن الذى يستنجد بالمارة لينقذوه ، ليعيدوا له مجده القديم العظيم ، وقد تتغير الكلمات قد تزيد أو تنقص ولكن الرواية كانت شديدة البســـاطة وكانت مهلهلة الى الحد الذى يسمح للاطفال بدورهم أن ينافسوا « نديم » فى تأليفها !!



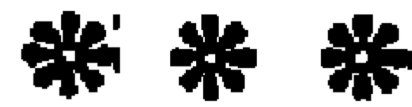
وفى المدرسة كان التلاميذ قد نسوا أسماءهم القديمة وأصبحوا لايعرفون الا بأسماء الرواية وكان شيئا مألوفا أن يشير التلاميذ

الى نديم حتى بعد أن يخلع ثيابه القديمة الرثـــة التى يمثل بهـا قائلين : هاهو الوطن قد جاء أو ذهب !!

وكانت الصحف هى الاخرى قد نســيت « خطيب الشرق » وراحت تتحدث عن نديم « ممثل الشرق » كذلك ·

ووقتها علق حامد الاعسر فى مقهى « كليوباترة » دون ضغينة هذه المرة :

ـ أيكون الشرق ضيعة ورثها نديم عن أبيه ؟ !



أما الشيخ « محمد العشرى » الذى كان قد رأى الرواية فى المدرسة والذى كان يتمتع رغم بلوغه الستين بصحة جيدة تساعده على أن يستمر فى التدريس بالجامع الانور ، وأن يستمر فى انجاب الاطفال ، وكان أصغر ابنائه قد التحق بمدرسة نديم ، وكان الشيخ العشرى قد أعجب برواية نديم وتحدث عنها الى كل رفاقــه من المشايخ ، وتصور كل شىء الا أن تتحول الرواية الى دروس فى كراسةابنه وحين زاره أصدقاؤه من المشايخ راح يقرأ لهم وهو يخبط كفا بكف :

ـ انظروا ، هذا درس الانشاء ، اكتب رسالة الى « أبو دعموم » تشرح له فيها العيوب التى لاحظتها على شخصيته ووضح له ماذا يفعل لكى يتخلص منها ؟

وضحك الشيخ ابراهيم الســرسى وراح ينظر فى الكراس ليتحقق مما سمع ، ولكن الشيخ العشرى راح يسحب من حقيبة ابنه

كراسا آخر وهو يقول : هل تصدق ؟ هذا كراس الحساب ! وراح يقرأ بصوت مرتفع ليسمع الجميع :

***

يقول « أبو الزلفى » : والملا الداهية التقيلة اللى هو الصريف لما يفضل الواحد يديله يوم ٢ جنيه ويوم ١٠ ريال ويوم ٣٠ بريزة ويوم ١٠٠ قرش وييجى آخر السنة يقول وصلنى منك ٧٠ (قرش) وفاضل عليك ١٠ (جنيه) !

ــ ما حقيقة المبلغ الذى وصل الصريف ؟ وما المبلغ الذى حاول أن يستغفل فيه « أبو الزلفى » ؟ ولماذا يستغفله ؟

وقال الشيخ محمد جاد دهشا : انه يجمع بين درسى الحساب والانشاء ! وعقب الشيخ السرسى ضائقا : ولكن هذه اللغة العامية كيف يجعل منها رءوس موضوعات للانشاء ؟

وصمت المشايخ فجأة وقال الشيخ العشرى :

ــ في هذا معك حق ولابد أن أكلمه ، لابد !

***

يقع « بار تريستة » قريبا من حى الجمرك ، وهو واحد من المشارب التى ظهرت أولا فى الاحياء الخاصة بالاجانب ثم انتشرت الى الاحياء التى يختلط فيها الاجانب بالمصريين فى العمل والسكنى ثم تغلغلت أخيرا في الاحياء الشعبية ٠

وفى «بار تريستة» حيث يلتقى المصريون والاجانب ، كان يسهر فى العادة بعض موظفى الجمرك من المصريين !

وفى تلك الليلة صاح « رفعت » وهو موظف نحيل عصبى ميسور الحال يغطى اهماله في العمل ، بنوبات كرم مفاجئة يدعو

فيها رؤساءه وزملاءه الى الشراب فى هذا البار ! صاح رفعت وسط رفاقه :

ـ الليلة ستشربون جميعا على حسابى كأسا فى صحة عبدالله نديم قال الخواجة الذى كان يمسح المنضدة بفوطة فى عنقه والذى كان يسمع بالاسم لأول مرة وقد ظنه زبونا جديدا وفد على البار :

ـ من يكون عبد الله بك نديم ؟ أحب أن أتشرف ٠

صاح شاب قصير أكرت الشعر كان يجاور رفعت :

ـ أولا عبد الله نديم ليس بك ولا حتى افندى انه خوجة أتعرف معنى خوجة ياخواجة ؟

وضجت الجماعة بالضحك ، وضحك الخواجة مجاملا وهز رأسه مؤكدا أنه لم يفهم شيئا ٠

قال « رأفت » أطول الموجودين قامة موضحا الامر للخواجة :

ـ انه معلم بمدرسة الجمعية الخيرية وألف رواية يهزأ فيها بخمارتك كل ليلة ويقول انك تسرق أموال الزبائن فما السبب ؟ لابد انك خدعته مرة ياخواجة وبعت له خمرا رديئة ٠

ـ من يذق خمر تريستته مرة لايسلوها طول العمر !

ويسأل رأفت :

ـ كم تدفع ياخواجة لو جئتك بعبد الله نديم هنا ؟

ـ الخواجة يقدم المشروب والزبون هو الذى يدفع !

ـ انت خواجة مغفل لو دخل نديم خمارتك لتحدثت عنها الاسكندرية كلها اكثر مما تتحدث الان عن روايته !

وقال رفعت الذى أعجبته الفكرة جدا :

ـ أدفع جنيها • ! وحدجه رفعت بنظرة تاجر خبير :

ـ مجىء نديم هنا يساوى عشرة جنيهات على الأقل •

ـ نديم كله لايساوى عشرة مليمات • هكذا تكلم ذو الشعر الاكرت •

ـ لو كنا نبيعه ، لكن مجيئه يساوى الكثير ان « حسين بك فهمى » مستعد أن يدفع عشرة جنيهات كاملة لمن يدخل « نديم » بار تريستة لقد سمعته بنفسى يقول ذلك فى أوتيل أوربا وسط مجموعة من الذوات •

ـ ولكنه عضو فى الجمعية الخيرية مع نديم ؟

ـ وهذا مايحنقه ، انه يقول كان بالامس يتسول منا واليوم يشتمنا فى روايته ويسرق الأموال باسم الأيتام ويسكر بها فى بيته •

ـ ولماذا لايقول هذا فى الجمعية ؟

ـ يريد أن ترى الجمعية « نديم » متلبسا حتى يصدقوه :

ـ ليس المهم أن يحضر بل المهم أن يسكر !

ـ المهم أن يدخل برجله ولن يسأل الناس لماذا جاء ؟

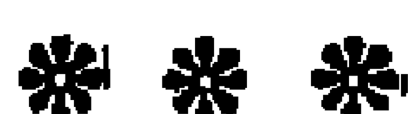
ـ مجيئه ليس سهلا •

ـ كم تدفعون لو جئتكم به ؟ • أنا أعرف كيف أجر قدمه !

راقت الفكرة « ارفعت » ووعد بأن يهيىء للجميع ليلة مرح كاملة وبدأت المسألة تتضح فى رأس الخواجة الذى رأى فيها فرصة للكسب والشهرة معا ووقف يتأمل الشلة فى فرح صبيانى فصرخ فيه رفعت :

ــ لم تقف كالابله ، لم لا تحضر الطلبات ؟

واندفع الجميع يرددون : واحد روم ، براندى ، كونياك ، نبيذ ، نبيذ ، وصاح رفعت واحد نديم وضــحكوا جميعا ، وعلى مقربة منهم كان يجلس أحد الخواجات يحتسى كوبا من البيرة لم يكن يعرفهم وما كانوا يعرفونه ولكنه كان يتابع حديثهم باهتمام يدل على انه يعرف العربية وأهم من هذا كله لم يكن يضحك ·



قال سليم نقاش لنديم : صحيح انهم لم يغلقوا مدرستك ولا فمك ولكن ماذا أفدت منهما ما دمت تفكر فى كتابة رواية ثانية ، وأنت لم تكتب مقالا واحدا منذ شهرا للمحروسة ، أهذا وعدك لى ؟ لو كان أديب اسحق هنا أكنت تفعل معه ذلك ؟

كانت الروايات فكرة أديب اسحق هل قلت لك ذلك ؟

ــ الآن ستقول لى كل مالا أحب سماعه ثم تابـــع بلهجـــة الناصح : أنت لا تفكر فى العواقب يانديم !! انت لا تسمع ما يقال عنك !

ــ ماذا يقال عنى ؟

ــ أنصار رياض باشا وعلى رأسهم المحافظ نفسه يؤكدون أنه لن يدعك تفلت ، أنت لست أعظم من حسن موسى العقاد أكبر

تاجر فى مصر وكل ما فعله انه احتج على الغاء « المقابلة » فنفاه رياض باشا الى السودان !

ـ هل قال لك أحد أن أنصار الخديوى سعداء بالرواية وأنها ستعرض أمام الخديوى على مسرح زيزنيا قريبا ؟

ـ أنت تلعب لعبة خطرة يانديم ، قد يتفق الخديوى ورياض غدا لأى سبب ولحظتها لن ينفعك أحد ، أنت تحنق الجميع عليك ، أنت لم تترك لك صديقا ! ·

قال نديم وهو يشعل سيجارة ويعطى لسليم أخرى :

ـ رياض باشا هو الذى لم يترك له صديقا ، فالخديوى يعانى منه قبل الجميع ، والذوات يلعنونه منذ الغى (المقابلة) ومنذ زاد ضرائب الاطيان العشورية التى يملكونها ، وهذه فرصة العمر لكى ··

فقاطعه سليم نقاش :

ـ ويلعنونك أيضا لا تنس ذلك ·

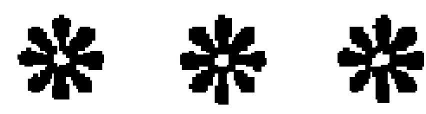
ـ أعرف ، ولولا سخطهم على الحكومة لما اكتفوا بلعنى ! الم أقل لك انها فرصة العمر لاكتب رواية ثانية وثالثة ؟

ـ اكتب ما تشاء ولتحل بك المصائب !

***

ولكن المصائب لم تكن قد حلت به بعد ، كان يعيش أجمل أوقات حياته ، أجملها كلها ، نعم هناك من يلعنونه ! ولكن كم يكون عددهم حيال هذه الكتل التى لا تزال تتدفق كل ليلة على مدرسته ،

وكان يكفى أن يسير فى شارع لترتفع رءوس بعض الناس وترتسم على شفاههم بسمة ويغمغمون بكلمة أو كلمات وكان يسير دائما فى حشد من أصدقائه أو صبيانه الذين أصبحوا أصدقاء وزملاء على المسرح ، وكانت الرسائل تنهال عليه من أصدقاء قدماء ، وطلاب صداقات وحالمين بجمعيات على غرار جمعيته من أنحاء البلاد وراح يذكر الايام التى مرت والايام التى تمر ، أحقا أنه عاش تلك الايام الغريبة التى تذكره بها الرسائل وأنه قطع ذلك الطريق الطويل الى حيث يتوهم البعض أن جهوده فى خدمة الوطن هى كل ما تبقى لهم من آمال كما تزعم رسائلهم ، أيمكن أن يكون قد نجح الى هذا الحد فى التغرير بمجموعة البلهاء كما كان يقول أديب اسحق ؟



ولكن ألهذا وحده أنت سعيد يا نديم تلك السعادة الحارة النادرة .. ؟ هكذا سأل نفسه ولم يجب ، كان يدرك فقط ويحس !!

وكان ما يدركه ، يشعر به ، يتأبى على الكلمات التى كان يظنها ثروته الحقة ولكنه اكتشف أخيرا أعظم ثرواته ، كانت تلك الزيارة الوحيدة التى أبصر فيها أرملة شابة جميلة قد أصبحت مع الايام كنزه الاعظم ، لقد حلم طوال حياته بالجمال والحب ، ولم يلتق بهما معا الا فى هذه الزيارة التى مضت كما تمضى الاحـــلام الحلوة القصيرة ، ولكنها كانت حقيقة هذه المرة ، حقيقة لم يجرؤ نديم على أن يتركها تفلت من يده ، أو تنسى من خياله ، وبعبقرية نادرة ماكان لها أن توجد الا من توقه الاعظم الى أن تحبه امرأة جميلة ، أمسك بطرف الخيط الرقيق حين أحس أن فى الطرف الآخر يدا تمسك به وتحولت لغة الاشارات خلال الصبى الذى أصبح أكثر شفافية من أية مرآة الى لغة .. لغة مهر فى خلق شـفرتها عـامل التلغراف القديم !

ولم يعد لديه شك فى أن الارملة الجميلة تحس به وتفهم لغته ! ولكن أى شىء كانت تحمل هذه البرقيات وفى اية صورة تصل ؟ كانت تحمل أى شىء ، وتصل فى اية صورة مؤكدة اصرارها الحاد على ألا تصبح تلك الزيارة مجرد ذكرى شاحبة وما دام هو يسأل الصبى عن أحواله فقد يمنحها الفرصة لتشرح دائما احوالهم وكانت بذلك تمنحه بدوره الفرصة ليقدم لها العون تارة والعزاء والمشورة تارة أخرى والنصح والعزاء فيما لا يستطيع أن يقدم فيه غيره !

ولكن ماذا كانت تقدم له ؟

« السعادة ‥ سعادته الخاصة الدافئة ! »

ـ هل تتزوجها ؟

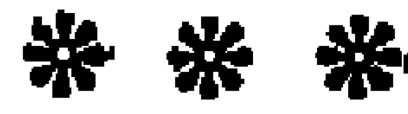
ـ لا ...

***

كان جزء من عقل نديم يسأل وكان جزء آخر يجيب ، وهل كانت تنقصه زوجة ثانية ؟ انه يعرف ما ينقصه ، وقد التقى به فجأة حين لم يعد يبحث عنه ، وكان يحتاج الى شجاعة لم يكن يملكها ليطرحه جانبا ، ويمضى فى طريقه . ففى تلك الزيارة أضاء فى حياته شعاع ، وبرفق شديد وذكاء أشد وضعه فى ذلك الاطار الذى يسمح له بأن يبقى ، الى متى ؟

لم يفكر فى هذا طويلا ، فلم يكن يستطيع أن يجزم بأى شىء بالنسبة لمستقبله هو ، كان يدرك أن الطريق الذى أسلم نفسه له يجعل من حياته ذاتها مجرد مغامرة ‥ مجرد قدر لا يدرى شيئا عنه . واذا كان القدر نفسه هو الذى أضاء فى طريقه هذا الشعاع فلن يطفئه أبدا ، لقد ربط مصيره بهذا الحشد الذى يلتقى به فى كل ليلة وقد أعطى الناس وأخذ منهم ، ولكن الحب كالصداقة لا يملك

أن يلتمسها لدى هذا الحشد ، فلأى سبب اذن يرفض شيئا يمكن أن يكون له وحده ! ما دام قد وضعه فى ذلك الاطار الذى يصبح فيه بدوره وكأنه عمل من أعماله الخيرية !! المهم أن يبقى فهل يبقى ؟



كان أحمد سمير شابا فى بداية العقد الثالث من عمره ، مدرسا بالجمعية الخيرية القبطية التى افتتحها نديم وكان قد رأى « نديم » وفتن به فى مطلع هذا العام ١٨٨٠ وتطوع للتدريس معه فى مدرسة الجمعية الخيرية وأصبح هو ومحمود واصف ومحمد أمين المثلث الذى يحمل أعباء الجمعية كلها ، واذا كان الاخيران يريان فى نديم رفيق كفاح فقد كان هو يرى فيه استاذا ونابغة قل أن يجود الدهر بمثله وكان يتبعه كظله دون أن يجد نديم فى ذلك ما يضايقه !

وفى هذا اليوم الذى توجه فيه الى بيت نديم أبصر أحد الخواجات يغادر البيت ونديم يودعه خارجه وسأل أحمد سمير وهو يستشعر الخجل والفضول معا عن الخواجة :

ـ انه الخواجة « موريس » رجل فرنسى

وصمت نديم وجلس بجوار أحمد سمير الذى ظلت ملامحه الطفولية تعكس فضوله فأضاف نديم :

ـ انه صديق قديم يمتلك تجارة وأرضا ، ويأتى الى هنا كل شتاء ويحب الشرق والمصريين .

ـ تعنى أنه يحب مصالحه هنا .

ـ شىء من هذا وشىء من ذلك ولكن ..

ورفع أحمد سمير وجه الطفل الى نديم الذى عاود صمته الغريب ·

ـ ماذا ··· أنت تخفى شيئا ؟

ـ هل تصدق ؟ ·· وحكى له باختصار ما رآه الخواجة « موريس » وسمعه فى بار تريستته ، ثم أضاف : هل تصدق ؟ اننى شديد الثقة فى الخواجة لكن ··

وفوجىء نديم بأحمد سمير يقول :

ـ لا يدهشنى ما قاله الخواجة لكن يدهشنى أنك لا تصدقه ! وتطلع نديم الى أحمد سمير الذى كان يعامله كأحد تلاميذه ··

ـ لست أجهل أن « حسين فهمى » خنزير سمين لكنه يعرف اننى تنازلت عن حقى فى تأليف الرواية للجمعية وكان يرجونى ان أشترى لنفسى سترة تليق بمدير مدرسة انه يعرف كل شىء ·

ـ لا أدرى كيف أوضح لك ! أحيانا لم أكن أحب أن أقول لك كل ما أسمع حتى لا ··· لكنك يا نديم أصبحت رجلا لامعا وهذا ما يضايقهم ويدفعهم الى محاولة تشويه سمعتك ·

وبدا الاضطراب واضحا على وجه أحمد سمير واضطرب نديم اكثر منه !!

ـ انهم يرددون انك تسعى للشهرة ولا يهمك الا أن تتقرب للخديوى لتحصل على منصب فى الحكومة وأنك تسرق من أموال روايتك بالاتفاق مع محمد أمين ومحمود واصف ·· المشرفين على الشئون المالية ·

ـ أهذا كل ما سمعت ؟

ـ وهل هذا قليل يا سيدى ؟

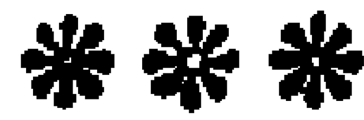
وفوجىء أحمد سمير بنديم يتنفس الصعداء ويخرج سيجارة ويعطيه أخرى وقال نديم :

ـ دعهم يقولون ، لن أبقى هنا بعد الانتهاء من عرض الرواية أمام الخديوى ، ولن أتركهم يغرقوننى فى المهاترات !

ـ أين تريد الذهاب ؟

ـ لم أفكر يوما واحدا أن أفتتح جمعية وأظل فى حراستها ، لقد أطلعتك على رسائل عديدة يطلب أصحابها أن يكون للجمعية فروع فى بلادهم أما هنا فأعتقد أن الامور ستمضى بجهودكم !!

وفكر أحمد سمير الذى كان ايمانه بنديم لا يقف عند حد أن هذا دليل جديد على عظمته فالعظيم يمضى فى طريقه ليؤدى رسالته لا يبالى بما يقوله الناس عنه ! وكان قد قرأ هذا فى بعض الكتب .



وكانت الحجرة بسيطة ولكنها أنيقة تنم عن الثراء والذوق الفرنسى معا ، وكان نديم يتحدث مع الخواجة موريس الذى كان فى العقد الخامس من عمره ، وان كان يبدو أصغر سنا من نديم دقيق الملامح أزرق العينين أشقر الشعر ينضح صحة وحيوية ، ودخلت زوجته تقدم بنفسها القهوة ، لم تكن الخادمة لمثل هذه الأمور ، كانت تعرف « نديم » منذ عرفه زوجها منذ سنوات فى احدى زيارات نديم للاسكندرية ، ومع أن المرات التى التقى فيها نديم بهذه الأسرة كانت قليلة الا أنها كانت كافية لتوطيد علاقته بها ، ففيها صحب نديم الخواجة وزوجته الى زيارة الأحياء الشعبية والأماكن

الأثرية والريف ووجدا فى نديم دليلاً ذكيا الى الحياة المصرية ووجد هو فيهما دليله الى أوربا التى يتوق لمعرفة كل شىء عنها ، وكان الخواجة موريس الذى قدم أصلا للتجارة رجلا واسع الأفق ، انسانى النزعة محبا لأن يفتش فى بلاد الشرق عن ثروات أخرى غير المال !

***

وحين عاد فى بداية هذا الشتاء وجد صديقه « نديم » قد أصبح رجلا ذا شأن ، وتابع نشاطه ، ونقل اليه ما سمعه عرضا فى بار تريستة وفكر نديم أخيرا أن يزوره قبل أن يقوم برحلته الى الاقاليم وقبل أن يسافر هو الى باريس كعادته كل عام ، وكان نديم قد شرح له فكرة الجمعيات حين دخلت زوج الخواجة بالقهوة فشرح لها بدوره فكرة نديم باختصار لتشاركهم الحديث وأوضح الخواجة فى نهاية حديثه لزوجته :

- يريد أن يصنع شيئا يشبه الشركات فى أوربا ولكنها شركات وطنية لصناعة التلاميذ فى المدارس فاذا نجحت هذه الخطوة أمكن أن تمول الجمعيات مشروعات للصناعة والتجارة !!

قالت الزوجة :

- وفى بلاد كمصر يمكن أن تكون هذه الجمعيات نواة لتكوين رأى عام سياسى !

وأوضح نديم أن فى البلاد حزبا سياسيا سريا هو الحزب الوطنى أما فكرة نديم فجوهرها أن يتجمع صغار الموظفين والتجار والحرفيين وبقروشهم يمكن أن يضعوا أساسا اقتصاديا للتعليم وللصناعة وللتجارة فى بلد حكومته ستظل مشغولة لسنين طويلة بمشكلة الديون !!

قال الخواجة وهو يقدم لنديم علبة سجائره :

ـ ما حكاية حزبكم الوطنى لقد وقع فى يدى أحد المنشورات السرية التى يوزعها !!

تساءل نديم وما رأيك فيما تضمنه ؟

ـ انه يفتح على نفسه جبهة واسعة فهو يندد بتدخل الأجانب وبطريقتهم فى تصفية الديون ، ويندد باستبداد الحكومة القائمة ثم يشير الى مبدأ استقلال القوميات فيثير سلطان تركيا .

ـ وأى هذه الجبهات يمكن أن تهادن ؟

ـ ليس هذا هو السؤال ! السؤال الأهم هو : بأية قوة يمكن أن يحارب الحزب فى هذه الجبهات كلها هل ينتظر الحزب حقا عون الرئيس فون بسمارك كما ذكر المنشور ؟

ـ الشعب كله يؤيد الحزب !

ـ ولكن الحزب فيما أسمع يمثل جماعة الأعيان والذوات الذين يعارضون قرار لجنة التصفية فى مسألة « المقابلة » بصفة خاصة .

ـ وغيرها ، هكذا أضاف نديم ثم أوضح ..

أنت نفسك ذكرت ما تضمنه المنشور وهو يتجاوز مسألة « المقابلة » وتدخلت زوج الخواجة التى كانت لا تزال تتابع الموضوع باهتمام :

ـ وهذا يؤكد ما كنت أقصده ، فمثل هذه الجمعيات يمكن أن تنظم الشعب ليقف وراء الحزب الوطنى !

وابتسم الخواجة موريس قائلا لزوجه :

ـ أنت تؤيدين رأيى فى حاجة الحزب الى قوة تسنده ثـم التفت الى نديم متسائلا :

ـ هل تعمل متعاونا مع الحزب الوطنى ؟ ثم أضاف مبتسما : ام هذا من أسرار بلادكم ؟

ـ ليس فى الأمر أية أسرار ، اننى أؤيد أهداف الحزب ولكننى لست منه ثم ضحك قائلا لست من الأغنياء !

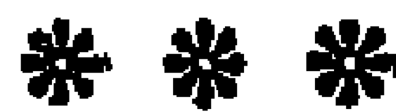
ـــ الأغنيـــاء فى أوربا يقومون بما تحاوله أنت هنـــا ، فلم لا تحاول ؟

ـ أعرف ، ولكن ظروفنا تختلف ، فالأغنياء هنا اما اتراك لا يهمهم كثيرا أمر الوطن ، أو أعيان مرتبطون بالأرض ، أما عندكم فالتجار هم الذين يؤسسون الشركات ويخاطرون بأموالهم .

ـ وأنت لم لا تخاطر ؟ لم لا تتجه بدعوتك للأغنياء ؟

كانت زوج الخواجة هى التى تسأل ، فأجابها نديم :

ـ لأننى أعرفهم ، لأننى قضيت حياتى معهم !!



كانت هذه الأسرة معينا متجددا من الخبرة لنديم ولم تكن صلته بالاجانب تقف عند حدود هذه الاسرة ولكن ثقته وحدها هى التى كانت تقف عند حدودها ، كان يعرف عددا من الاجانب يمارسون السرقة والاستغلال فكرا وعملا ومن خلال هذه العلاقات كانت فكرته عن أوربا وعن حضارتها تأخذ شكلها الواقعى وتتخلص من ضباب الوهم وعقد النقص ، وكان اعجابه بزوج الخواجة موريس أعمق حوافزه للاصرار على ان يكون للتلميذات مكان فى مدرسته ، كان

مفتونا بتطلعها وذكائها وحرصها على أن تكون ندا لزوجها فى كل شىء ، ولكن هذا كله لا يتجاوز حدود عقله ، اما قلبه فقـد كان لا يزال مدينا بأحلامه وسعادته للشرق وتقاليده ، كان هذا شيئا لا حيلة له فيه ، ومع أنه كان يسعده أن زوج الخواجة تنفذ الى عقله وتقدره فان الأرملة الجميلة وحدها هى التى نفذت الى قلبه ، ولم يكتشف مدى تعلقه بها ، بهذا الوهم الا حين قرر أن يسافر للاقاليم ، كان الخديوى قد شاهد الرواية ، وتبرع بمائة جنيـه للجمعية ، وبمبنى المدرسة البحرية للمدرسة ، وطلب من نديم أن يمد للجمعية فرعا بالقاهرة ، فجعله تحت رئاسة صديقه القديم محمود سامى البارودى الذى كان ناظرا للأوقاف آنذاك ، أهناك شىء آخر يمكن أن يقوم به نديم قبل أن يحمل حقيبته ويسافر ؟ نعم ٠٠ أن يفتتح مدرسة جديدة « بكوم الشقافة » تبرع بنفقاتها أهل الحى وان يكلفه الامر سوى خطبة رائعة مطرزة أيضا بآيات القرآن الكريم ، يشكر فيها أهل الحى ، ويخص بالشكر مواطنين هما : متولى محمود وحسن عبد الله وقطعا سيكون الاسمان ضمن سجعة بارعة ، أثمة شىء آخر ؟ نعم ٠٠ أن يخبر أباه وأسرته بأمر رحلته التى لن تطول مثل رحلاته السابقة !

***

ــ الأمر لا يختلف كثيرا بالنسبة لنا ، لم يكن أحد يراك وأنت هنا ٠٠ كان أبوه هو الذى يقول ذلك ثم أضاف فى نبرة خفيضة :

ــ والله يوفقك !

وهل يملك الآن أن يرفع صوته فى وجه رجل يجالس الخديوى ويرأس أحد النظار جمعية بالقاهرة هى أحد فروع جمعيته ؟ رجل كان لايستطيع أصحاب المتاجر القديمة والمقاهى القديمة والذوات القدماء والشعراء الذين كانوا يملئون ليل المقاهى بالسمر والسهر

أن يصدقوا أنه هو نفس الصبى القديم البائس الزرى الهيئة الذى اقترح احد الذوات ذات ليلة أن يغسل هو وملابسه فى البحر قبل أن يجلس بينهم ، كان نديم اذ ذاك فى أوج الشباب وكانت شهرته دونها بكثير شهرة المحافظ نفسه . ولم يكن الغرور وحده هو الذى جعله يسأل نفسه وهو يهم بالسفر مرة أخيرة :

ــ الم ينس شيئا بعد يمكن أن يفعله لمدينته قبل أن يسافر ؟

***

والآن ما الذى يمنعه من أن يسافر ؟ لقد أوضح لمعاونيه ماذا يفعلون فى غيبتــه ؟ محافل الخطابة تستمر ، والممثلون الصغار سيتحولون الى خطباء صغار ، لقد تدربوا ولم يعد واحد منهم يرهب الحشد أو يخافه ، لا ينبغى أن ينسى الناس موعد الخطبة الاسبوعى و « أبو دعموم » انجب التلاميذ وأشجعهم سيكون فى مقدمة الخطباء لقد افهمه منذ أيام أنه مسافر وظل ينتظر ردا على هذه الاشارة كلمة أو حتى دعاء بالسلامة ! ألا تعنى غيبتــه عن المدينــة أى شىء ؟ صحيح انه لم يكن يراها فيما عدا تلك الزيارة التى بدأت تشحب صورها وذكرياتها ولكنه كان دائما معها ، مع أبسط المشاكل وأتفه الشئون . وحين صمت الصبى صمت المقبرة سأله نديم بانفعال لم يملك منعه :

ــ الا تريدون شيئا قبل أن أسافر ؟ الا تحتاجون شيئا فى الايام القادمة ؟

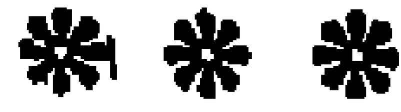
ــ أشكرك ، لا نحتاج شيئا !

كان الصبى هو الذى يشكره هذه المرة ، وكاد يسأله :

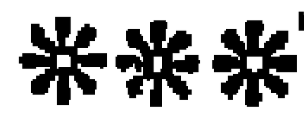
ــ هل أمك مريضة أو غائبة ؟

ولكنه لم يجرؤ وأحس لأول مرة أن الصبى الذى أمامــه

رجل ٠٠ رجل حقيقى وأنه يفهمه وينفذ الى قلبه ، وصمت نديم وكاد يبكي ، لحظتها كان فى الأوج ٠٠ أوج ألمه وأساه !!



حين بدأ نديم رحلته كان صيف عام ١٨٨٠ يوشك أن ينتهى ٠٠ وحين عاد كان الشتاء يوشك أن يبدأ ، كانت رحلة خريفية مباركة انتهت بافتتاح فروع للجمعية الخيرية فى دمنهور ودمياط والمنصورة وميت غمر وشبراخيت ، وكانت أخبار فتوحاتـه قد سـبقته الى الاسكندرية فقد كانت الصحف تنشر أخبار هذه الغزوة الموفقة أولا بأول مع فقرات من خطبه البارعة التى طار صيتها فى كل مكان وكانت عودته كما كان سفره فرصة ليتجدد الحديث عنه لا فى المقاهى هذه المرة بل داخل البيوت وحول مواقد الفحم ، ورغم الشـتاء كان « حسين بك فهمى » لا يزال أصـابعه الغليظـة الكلب الأبنوسى الرابض فى بعض منشدته ويؤكد لسماره وهو يصب أقداح البراندى وبلهجة الرجل الخبير الذى لا تخدعه الظواهر :



ـ ليس نديم سوى شحاذ ومهرج ، لقد أردنا أن نجعل منه رجلا محترما ولكن التصعلك فى دمه ، فى الماضى كان يتصـعلك بأشعاره وأزجاله ونوادره واليوم يفعل الشىء نفسه باسم الاصلاح والتعليم ، انه يعرض السلعة التى تطلبها السوق دائما لقد نجح فى خداع الكثيرين ولكنى لم أخدع فيه قط !!

أما المحافظ فقد كان يتوسط حلقة أخـرى من كبار الموظفين ويتكلم بلهجة أهدأ قليلا ٠٠ لهجة رجل مسئول يزن كلماته :

ـ أنا لا أتهم بدون دليل ولكنى أسأل فقط مجرد سؤال مامعنى أن يجعل نديم أمانة الصندوق فى فروع الجمعية بالاقاليم فى يـد

حفنة من أولياء نعمته القدامى وأصدقائه مثل محمود الغرقاوى بالمنصورة ؟ واذا كنا نراقب أذنابه هنا فمن يراقب الآخرين هناك ؟

***

وكان نديم يستعيد فى رأسه وهو يتماثل للشــفاء ، وفى اللحظات التى تخلو فيها حجرته من الزوار احداث رحلته الاخيرة ، منذ أيام كان يفكر فى الموت ، وها هو الآن يفكر فى الحياة ، كـم تبدو الحياة جميلة وحلوة للناقهين والقادمين من دنيا المرض ؟ وكم يبدو رائعا أن يجد المرء الطعم الحقيقى لشربة ماء ، ولقدح القهوة وللسيجارة ؟ وكم تبدو مختلفة أحداث حياتنا حين نراها مرة كختام لتلك الحياة ثم نراها مرة أخرى كجزء من سلسلة ممتدة لا يعرف نهايتها غير الله ؟ ولم يكن يحب أن يتفلسف حين يتعلق الأمر بشئون الحياة الواقعية ولكنه يبدو أنه حتى الامور الواقعية تهرب احيانا من الطرقات ومن البيوت والحقول والدكاكين والمقاهى لتقتحم عقل المرء واحيانا فراش مرضه فلا يستطيع ان يمنع نفسه من السؤال والجواب !!!

***

ـــليس نديم سوى شحاذ ومهرج ، لقد أردنا أن نجعل منه والسلعة وكان يظن وقد أحرز فى الاسكندرية انتصارا لم يكن يحلم به أنه لن يفعل شيئا أكثر من أن يواصل انتصاراته ، ولكنه فى تلك الرحلة فهم الكثير ليس فقط عن البلاد التى زارها بل عن الاسكندرية ذاتها ، فهم سر انتصاراته فيها ، فهم انه مدين بهذا النصر لهذا المثلث الذى لا يشعر به أحد « محمد أمين ومحمود واصف وأحمد سمير » ، وحين عاد وهو لا يزال تحت وطأة المرض حاول أن يشرح لهم تلك الحقيقة فسخروا منه !

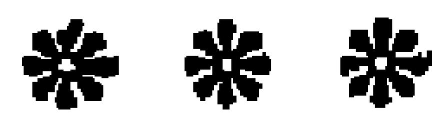
قال محمد أمين :

اعذروه فيما يقول ، فهو مريض !

وقال أحمد سمير بصدق وبحرارة :

ـ أنت تؤكد عظمتك فالعظيم الحقيقي ينكر عظمته ويشيد بغيره « وكان قد قرأ هذا أيضا فى بعض الكتب » وعقب محمود واصف متهكما :

.. هذه طريقة العظماء فى تسخير غيرهم !



وكان نديم حين قال لهم ذلك يفكر فى الموت وبأن كل شىء يجب أن يبقى وأن يستمر ، وان الامور كلها مرهونة برجال مثلهم ، كان ذلك بعض ما اكتشفه فى تلك الرحلة !! انه من السهل ان تثير حماسة الناس وأن تلهبهم حين تنطق بصوت مرتفع الكلمة التى ظلت تتردد طويلا فى حلوقهم دون أن يجرءوا على النطق بها ، وأن تظل تعتقد وقد أوضحت لهم طريق خلاصهم أنهم سيمضون خلفك الى نهاية الطريق ! ولكن ما أن ينفض الجمع ويتفرق الحشد الذى يملأ ساحة المسجد أو المدرسة أو الخيمة ، حتى يعود كل منهم الى اطاره القديم ، مجرد فلاح خلف محراث ، أو بائع تحركه أيدى الزبائن الممتدة بالنقود أو موظف تحركه أوامر الرؤساء ، هنا فى الاسكندرية كان قد نجح فى أن يمسك بالحشد مرة كل أسبوع ، أن يتعرف عليه ، أن يسمع صوته ويحاوره ، أن ينتزعه من اطاره أن يصنع أمامه النموذج والمثال ، أما فى تلك الرحلة فلم تكن هناك سوى فرصة أو فرصتين ليلتقى بأناس لن يراهم مرة ثانية ، ويعرف أنه سوف تطبق عليهم من جديد تلك القبضة القاسية التى لا ينفلتون منها الا وهم فى حماية الحشد ، أما هذا العدد القليل الذى يبقى حوله مفكرا ومتسائلا عما ينبغى أن يفعل ؟ ودافعا بعض النقود ٠٠ هذا العدد نفسك لا يلبث أن يتكشف عن مخاوف جديدة ومطامع جديدة ومشاكل ربما لم يكن يثيرها أبدا وهو داخل القبضة القاسية ٠

ـ سمعت أن الحكومة لا تنظر بعين الرضا الى جمعياتك !

كان تاجربدين هو الذى قال ذلك فى دمياط وكان قبلها قد دفع جنيها كاملا كتبرع للجمعية ، فكان من حقه أن يظفر باجابة شافية قال نديم ملاطفا :

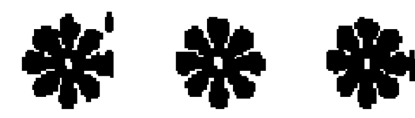
ـ من قال ذلك ؟

ـ ليس من الذوق أن أبوح باسمه ، أنه من رجال الادارة وقاله كنصيحة !

ـ لكن المدير نفسه شرف حفل الدعوة الى انشاء الجمعية ،

ـ ولكنه لم يحضر هو أو غيره من رجال الادارة أى اجتماع اخـــر !

ـ لأن مابعد ذلك هو عملنا نحن لا عملهم ٠



وفى ميت غمر تدخل فجأة رجل حاد الصوت والملامح يرتدى سترة بيضاء مع أنه شديد السمرة ، وكان الحديث حول طريقـة اختيار رئيس للجمعية ومجلس الادارة !

قال الرجل الذى لم يكن يعرف اسمه :

ـ الحاج مسعود ينبغى أن يكون رئيسا للجمعية !

وتذكر نديم أن الحاج مسعود هذا قد تبرع أمس أمام المأمور ببيت قديم ليكون مقرا للجمعية ، واعتقد أن الرجل لابد من رجاله ٠

ـ الانتخاب مبدأ أساسى فى نظام الجمعية .

ـ هذه شكليات ، رئاسة الحاج مسعود ستسهل لكم مشاكل كثيرة ٠

ـ ما دمت واثقا من ذلك فثق انه سينجح فى الانتخاب ٠

ـ الانتخاب يسبب مشاكل وخلافات !

ـ ليس مع اناس عقلاء مثلكم !

* * *

وفى شبراخيت بدت الامور تسير على مايرام لولا أن اعتذر الشيخ شربينى فى آخر لحظة عن البقاء فى الجمعية ٠

ـ لماذا ؟

ـ لن ابقى فى الجمعية ما دام أحمد الزلفى قد انضم لها ٠

ـ الخلاف القديم بين أسرتيكما ستحله الجمعية ٠

ـ الجمعية قد تثيره ، والمأمور نفسه عجز عن حله ٠

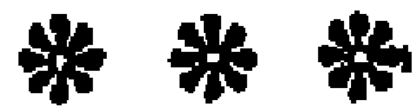
ـ لكنكما متفقان بالنسبة لمبادىء الجمعية ، ويمكن أن تتركا مسائل الخلاف لتحل مع الوقت !

ـ انا أعرف أكثر منك أحمد الزلفى ، لا خير يرجى منه ٠

ـ لكنه ابدى تعاونا والمصلحة العامة في حاجة اليكما معا ٠

قلت كلمتى وانتهى الأمر !

وهكذا اكتشف نديم ضراوة المعركة التى تنتظره ، وحقيقة النصر الذى أحرزه فى الاسكندرية ، انه لن يكون فى كل مكان ، ولابد أن يلتمس فى كل بلد مثلثا بشريا كهذا الذى تركه فى الاسكندرية ، واذا كان هو يستهدف الكثرة ، الشعب المقهور الذى تعتصره القبضة القاسية فلابد أن يكون ثمة نواة تتجمع حولها هذه الكثرة مرة ومرات حتى تكتشف تلك القوة التى يمنحها التجمع ، فتحافظ عليها كما يحافظ المرء على سلاحه ! وبعدها لم يضيع نديم وقته كله فى القاء الخطب المطرزة بالآيات والأحاديث والأمثال ، بل راح يندس فى قلب المدينة يجلس فى المقاهى ، ولا يتردد فى قبول الدعوات الى البيوت حيث يمكن أن يتحدث الى أقل عدد من الرجال، ولم يكن يبحث عنهم داخل طبقة أو مهنة أو وظيفة بل كان يعتقد أن الرجل الذى يبحث عنه قد يكون فى أى مكان وفى اى مهنة او وظيفة !



وقابل « ابراهيم عشماوى » فى المنصورة وفى بيت صديقه القديم محمود الغرقاوى ، كان تاجر قطن وأفلس وانتهى الى أن يعمل سمسارا لدى الخواجات الذين سيطروا على هذه التجارة وكان يعرف « نديم » منذ وقت ولكنه لم يكن يرتاح اليه !

قال لنديم وهو يرمقه بنظرة لا يزال فيها بعض السخط القديم :

ـ ليس المهم ان تفتح الجمعيات بل المهم أن تبقى ٠

ـ وهذا ما أقوله ٠

ـ تقوله حقا ولكنك لا تعمل له !

وانتبه نديم كان شخصا دفعه فى ظهره : كيف ذلك ؟

ـ لكى تستمر الجمعية ينبغى على الأقل أن يستمر الأعضاء فى دفع اشتراكاتهم وتبرعاتهم ٠

وهز نديم رأسه موافقا

ـ من الذين يمكنهم أن يستمروا فى الدفع أكثر من غيرهم ؟

قال نديم محاولا أن يبدو هادئا : القادرون طبعا ٠

ـ يعنى الذين لن تخدمهم الجمعيات مثل غيرهم ٠

ـ نعـم

ـ انت تزور الغرقاوى لأنه صديقك القديم ولكن فى المدينـة كثير من الاعيان فلم لاتزورهم أيضا ٠٠ لم لا ٠٠٠

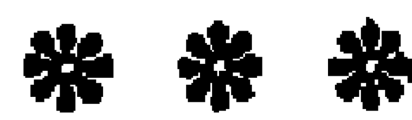
ـ فى الحقيقة ٠٠٠

ـ دعنى أتم حديثى ٠٠٠ انت تتحدث عن الفقراء دائما وتقول انهم أصل كل شىء ولكن اين يوجد الرجل الفقير وكيف يأكل رغيف خبزه ٠٠ انه يزرع فى أرض الغنى أو يبيع فى « دكانه » أو يسوس خيله ، انه متعلق به ، أنت تقول خطبتك وتمضى ولكنه يعود ليجده فى انتظاره لم تثير عداء الأغنياء للجمعيات بتجاهلك لهم وبخطبك التى لا تحسن اختيار كلماتها حين يتصل الامر بالاغنياء ؟

ـ أدرك كلامك لكننى أعتقد أن الفقراء وأوساط الناس ٠٠٠

ـ لا تعد لى خطبتك فقد سمعتها كلها ، أنت تنصح الفقير بأن يقتصد ثمن سيجارة كل يوم ، والموظف مصاريف ليلة فى المقهى والسكارى ثمن كأس من الزجاجة ، ومع انى لا اثق بجدوى هذه

النصيحة ، فلم لا تحاول أن تتصل بالأغنياء ؟ ••• ليسوا جميعا من الوحوش يا نديم ، ولو كانوا كذلك لأكلوك منذ زمن بعيد ! وهنا وهناك كان يلتقى بمثل هذا الرجل الحاد الجرىء الذى يصدم فكره ، وهنا وهناك كانت فكرته عن الناس تتعدل ، وكذلك فكرته عن نفسه ، هل تغير الناس عما كان يعرفهم ؟ نعم ! ان الشخص الواحد يختلف حين يختلف حديثك معه ، ولو ظل طوال حياته يسلى الناس ما عرفهم ولا عرف نفسه ، كان أديب اسحق يتهمه بأنه ينجح فى التغرير بمجموعة البلهاء ويبدو أنه لم ينجح الا فى التغرير بنفسه • ما الذى يريده ؟ اصلاح البلد ؟ انه لا يحتاج فقط الى عشرات الرجال من أمثال محمود واصف ومحمد أمين بل ايضا الى عشرات السنين لاكتشافهم ، كان يبصر بكل يوم الى حلمه الصغير وهو يتمزق وسط الخلافات الصغيرة والتفاهات ، وأدرك اية خدمة رائعة اداها رياض باشا للشيخ جمال الدين وأديب اسحق بنفيهما •



ـ من تخلن نفسك يانديم ؟ لم لا تذهب وتربى أولادك ما دمت قد أنجبتهم ؟

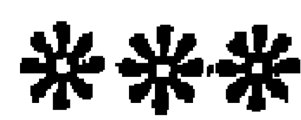
ولكنه تأخر قليلا فى القاء هذا السؤال ، أن حلمه الصغير يتمزق فى بلد ، وفى بلد آخر يصر بعضهم على أن يجمع أشلاءه وفى بلد ثالث يوقظه بعضهم من النوم ليقولوا له :

ـ لقد حلف شيخ البلد بالطلاق أن تنام الليلة فى بلدتنا •

وكان قد ترك بلدتهم نفسها لأن رجلا آخر حلف بالطلاق الا يبيت فيها •• !

انه هنا فى الريف في المدن الصغيرة ، وليس فى الاسكندرية •

ويبدو أن المرء ينسى بسرعة ، وكان من المؤكد أن الاسكندرية أنسته بدواى تماما ، لم يكن رجال الادارة أو الذوات هم فقط خصومه بل ميراث مئات السنين من الغباء والبلادة والغلظة والتفاهة هو ألعن الاعداء ، ورغم هذا كله فقد كان يدرك يوما بعد يوم أنه لا أحد غيره يصلح لهذا البلاء ، وأن الجمعيات تفتح فى النهاية ، والروح تعود حتى للاشلاء الممزقة ، والحشد المروع الذاهل يثير فى دمه تلك القوة التى يلتمسها أحيانا دون جدوى ، وحلمه الصغير يتجسد على نحو ردىء ، ولكنه لا يريد أن يريحه ويموت ، لقد سدت أمامه طرق العودة ، ومادام الأمر كذلك ، مادامت الحياة ترفض كل محاولة لتقسيم الناس وتصنيف الاشياء فلم لا يفعلها ويطرق أبواب الاغنياء ، هل يمكن أن تصبح الامور أسوأ أو أقسى ؟



واذا كان الفقير يعمل حساب الغنى ، فالغنى يعمل حساب الحكومة وفى بيوت الاغنياء وفى عيونهم كان الشك يطالعه كان الحديث يبدأ عن الجمعيات ولكنه حتما ينتهى الى حديث عن الحكومة والاحوال العامة وكانوا أكثر سخطا من الفقراء وأكثر خوفا كذلك ، وقال له « نعمان بك » أحد أثرياء المنصورة بلهجة الرجل الخبير :

ـ ما الهدف الحقيقى لجمعياتك يانديم ؟ وقدم له فى نفس الوقت سيجارة كأنما ليخفف من وقع السؤال ، وفى هدوء أجاب نديم :

ـ نفس هدفكم .. ونفس هدف الحكومة ، ايجاد نهضة فى البلد ..

ـ اتظن حقا ان الجمعيات هى التى ستحقق النهضة ؟

ـ اذا حظيت بمعاونة الكبراء امثالكم فلست أشك ...

وقاطعه « نعمان بك » وقد قرر أن يصل لغرضه مباشرة :

ـ لو كان هـــدف الجمعيــات هــو هــدف الحكومة فلــم لا تعتمدها ؟ .. لم لا تمد لها يد العون ؟

ـ ربما لأن ظروف الحكومة المالية ...

وقاطعه نعمان بك مرة أخرى : وربما لأنك تهاجم الحكومــة وتنقد الاوضاع فى روايتك التى يلعب عليها الخديوى ورياض باشا لعبه شد الحبل ، لست أحب ان أشارك فى هذه اللعبة فقد يأتى يوم تصبح فيه جمعياتك مثل مصايد الأسماك ، ووقتها ماذا سيخسر شخص مثلك ، فقد تنفى أو تسجن ولن تكون فى حال أسوأ من حالك !!

وسمع نديم كلاما له نفس المعنى بلهجة أرق ، وبلهجة أقسى فى بيوت غيره من الأغنياء !

***

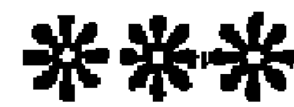
ولكنه كان يمضى فى طريقه ، لم يعد يبالى بشىء ، ففى كل مكان وبين جميع الطبقات كان يكسب أنصارا وأعداء ، ولم يقف مرة واحدة ليعد هؤلاء وهؤلاء ، أو يحسب حساب الربح والخسارة لقد ادرك أن هذا عمله وقدره ، وحيث كان يذهب كانت الموجة التى أصبحت تتحرك بحركته تقلب المدينة أو القرية فتطفو على السطح الاف الوجوه المتعبة والشاحبة ، تنفلت مرة واحدة من القبضة التى تطحنها كل يوم ، لتنظر الى رجل نحيل مرهق عالى الصوت ، ذقنه لم تحلق منذ أيام ، وعيناه متعطشتان الى النوم ، وجفونه مقرحة ووجهه شاحب ولكنه لا يكاد يبدأ فى القاء خطبته حتى تدب فيــه روح عاتية ، لا تلبث أن تدب فيهم ، أنه يوقظ فى أعماق كل منهم حلما واقعيا غريبا يستطيع كل منهم أن يحلمه وأن يحققه ، وأنــه

ليطلب من كل منهم تضحية صغيرة تبدو سهلة وعذبة وهو ينطق بها في فورة الحماسة ، قرش من هنا وقرش من هناك ، وتتجمع القروش لتصبح مدرسة أو مشغلا أو شيئا يجعل الحياة أفضل ، وكلمة السر في هذا الحلم أن نفعله كلنا معا ، ان توفير القرش ليس معجزة أو لغزا ، اننا ننفثه في الهواء مع الدخان ، ونغيب به عن الوعي مع أنفاس « الجوزة » أو الخمر ونسهر به في المقهى ، ونهلك بـه صحتنا ، فلم لا نفعل به شيئا أفضل ؟



ولأول مرة يصبح لأيات القرآن معنى في أذهـان الفلاحين ويكتشفون لدهشتهم أن القرآن والاحاديث تتكلم بهذا الوضوح عن مشـكلاتهم ويصبح للشـعر نفس المعنى ، أما الأمثال والحكايات والنوادر فلا تسأل عنها « نديم » ، ان السامر القديم لم يمت بعد ، ولقد أمتع الأغنياء فلم لا يمتع الفقراء أيضا ؟ ولم لا تقول انه هو الذي يستمتع ؟ ان الحشد فرصة الناس للخلاص من القبضـة الحديدية لحظة من الزمـان ، وهو أيضـا فرصـته ، انه يخطب لا ليؤسس الجمعيات ، بل ليسـتريح من العنـاء الذي يبذلـه في تأسيسها !! وحين عاد الى الاسكندرية ، وحين بدأ المرض يدهمه كان يخشى أن يموت قبل أن يقول كلمة شكر للمثلث البشري الذي ينتظره في الاسكندرية وحين قالها لهم سخر الاوغاد منه ! وحين اشتدت عليه وطأة المرض حلم حلما واحدا قصيرا ... أن رياض باشا أصدر قرارا بنفيه ، وأنه تزوج الارملة الجميلة وسافر بها الى بلاد مجهولة ، وحين أفاق من حلمه أبصر أولاده ، يلعبون حوله وزوجته تعد له الدواء ، وكان مرضه فرصتهم الوحيدة لكي يجدوه بينهم ، واستشعر مع العرق الغزير خجلا غزيرا كذلك ! كان الاولاد وعلى راسهم « محمد » أكبرهم فرحين به ، مكتشـفين لوجوده ، خائفين من أن يسترد عافيته ويمضي بعيدا عنهم ، انه يعنى بالأيتام

وغيرهم وفى سبيل ذلك يوشك أن يجعل من أولاده يتامى ! وضمهم الى صدره وراح يعدهم بأشياء كثيرة ، وكان التغرير قد أصبح جزءا منه ، كيف ينسى أنهم الشيء الوحيد الحقيقى فى حياته ؟ ولو قالوا له غدا ان الجمعيات التى افتتحها قد انفضت بسبب مشكلات الاعضاء التى يعرفها جيدا لما اصابته الدهشة ! ولكن الدهشة كانت تصيبه فى تلك الأيام بسبب بقائها ، وبسبب الرسائل التى عادت تنهمر ، وبسبب زيارات الناس وسؤالهم عنه ، وبسبب اصرار الصحف على تمجيد «خطيب الشرق» و «مؤسس الجمعيات» و « باعث النهضة » وأيضا بسبب من أن جوقة التلاميذ التى كانت تمثل معه فى رواية « الوطن » قد جاءت لزيارته عدا تلميذ واحد هو « أبو دعموم » وحين سألهم عرف أنه متخلف عن المدرسة منذ أسبوع ولم يكن أحد ممن زاره يعرف السبب !!



وكان لا يزال فى دور النقاهة حين أخبره أحمد سمير أن « رياض » باشا وصل الى الاسكندرية ، فدبت فيه حيوية جديدة ، وكان ثمة فكرة جريئة تشارك الآلام العبث به طوال الاسبوع الماضى كله ، حتى لقد فكر بسببها أن يسافر الى المحروسة لمقابلة رياض باشا شخصيا ، انه واثق تماما من أن رياض باشا لا يستريح له ولا لجمعياته ، فهو لا يثق بالشعب ، ولا بشيء لا يصدر عنه ، ويعلم انه يحاربه حربا خفية وهذا وحده دليل على انه لا يجرؤ على أن يعلن الحرب على جيش الايتام الذى يقوده نديم ، ولا على مشروعات خيرية او رواية تشيد بالخديوى ، فلم لا يحاول الافادة من ذلك الموقف ؟ لم لا يقابله ويلتمس تأييد الحكومة للجمعيات ! ويقينا أن رياض باشا أذكى من أن يرفض التماسا كهذا ، فهو لن يضمن فقط أن يكف نديم لسانه وقلمه وألغازه بل سيكسبها جميعا الى صفه ،

ولن يكون مدح رياض باشا عملا أسوأ من مدح الخديوى نفسه ، لقد أصبح نديم بعد تلك الرحلة الخريفية ـ ودون أن يعنى بالتفكير فى ذلك ـ سياسيا بارعا لا تهمه سوى النتائج ، ففى مطلع هذا الشتاء لم تكن ثمة بارقة أمل تلوح فى الافق ! فالحزب الوطنى كان لا يزال مختبئا فى جحوره قانعا بتهريب جريدة « مصر » التى يصدرها أديب اسحق فى باريس والتى اصبحت متخصصة فى لعن رياض باشا وحكومته ، والنواب عادوا الى حقولهم وقراهم ، وراحوا يدبرون شئون زراعتهم ، وأصبحت الجمعية الوطنية والدستور ذكرى عزيزة وشاحبة ، والمراقبة الثنائية تمد أصابعها من خلال مئات الموظفين الاجانب الى كل قرش فى الدولة لتعتصره لصالح أصحاب الديون الاجانب ، والفلاحون البائسون ذاهلون عن كل شىء الا حين يدعوهم نديم الى التجمع فيذكرون فجأة خلافاتهم التى مضت عليها عشرات الاعوام ، والاغنياء تدفعهم مخاوفهم الى ثورة واحدة لا غير تلك التى يشنونها على جمعياته وكأنها مصدر الخطر الوحيد كان هذا هو الوضع فى مطلع هذا الشتاء ، وكانت هناك مجموعة من الدور القديمة قد كتبت عليها لافتات بخطوط تتفاوت جودة ورداءة « الجمعية الخيرية الاسلامية » فى بعض البلاد ، وكان كل مايهم « نديم » أن تبقى هذه الدور ، وأن تمتد رحلة اللافتات فى كل البلاد ، وأن يرى الناس ولو مرة واحدة القدرة الكامنة فى مجموعة القروش حين توضع فى صندوق ، والقدرة الكامنة فى صدور الرجال حين يطلقها الحشد ، والذكاء الكامن حين يثيره النقاش ، ولم يعد يخاف من الخلافات الكامنة والاحقاد القديمة ، لقد بقيت جمعياته رغم كل شىء ، والطريق الذى اختطه طويل يحتاج الى بعض من الثقة والامن ، ولو نجح فى أن يستمر رغم كل شىء فأى شىء أفضل يطمع فيه وسط كل هذا البلاء والذهول ؟

وحين شرح فكرته تلك للمثلث البشرى وافقوا جميعا على أن يقابل رياض باشا وألا يدع الفرصة تفلت من يده ، فقط أبدى محمود واصف تحفظا واحدا حين سأل :

ـ أليس من الجائز ان تفقد تأييد الخديوى ؟

ـ وهل يجرؤ الخديوى أن يحارب جيش الايتام الذى أولى نجله شرف قيادته ؟ لقد تورط الخديوى فى تأييدنا ولست أظنه ...

فزمجر « محمود واصف » مقاطعا :

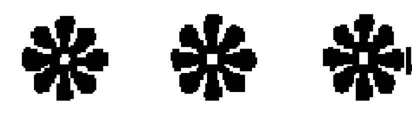
ـ كان الخديوى متورطا فى تاييد الشيخ جمال الدين وتخلص من الورطة بنفيه !

وفكر نديم ساخرا « لست أطمع فى أن يقدم لى الخديوى هذه المكرمة »

ثم حاول تغيير اتجاه الحديث فقال :

« اذا نجحت الخطوة الأولى نفكر فيما يترتب عليها »

ولحظتها فكر أحمد سمير أنه قد قرأ لبعض العظماء « ان الغاية تبرر الوسيلة » وحاول أن يذكر اسم هذا العظيم فلم يستطع !



فى ١٩ اكتوبر سنة ١٨٨٠ خرجت الوقائع المصرية تحمل فى صدرها مقالا عنوانه « حكومتنا والجمعيات الخيرية » وكان المقال الذى كتبه الشيخ محمد عبده صديق نديم القديم ، ورئيس تحرير الوقائع يصوغ بأسلوب رصين نتائج المفاوضات السرية التى تمت فى أوتيل أوربا بين « رياض ونديم » والتى انتهت باقرار الحكومة لقانون الجمعية وباشراف ديوان المعارف على مدارسها ، وبتقرير

اعانة سنوية قدرها ٢٥٠ جنيها ، وبتبرع رياض باشا بمبلغ ٢٥ جنيها سنويا من جيبه الخاص !

***

وهكذا أصبح نديم جزءا من الحكومة ، وأصبح بمقدوره أن يحول أحد البيوت الى مستشفى للمرضى ، وبيتا آخر الى مكتبة عامة للقراءة وبيتا ثالثا الى دار ضيافة للقادمين على الجمعية ، وأصبحت اللافتات التى تحمل اسم الجمعية وملحقاتها من أبــرز ملامح المدينة !!!

وكان لا يزال يدرس ويخطب ، ويغلق فم سليم نقاش بين وقت وآخر ببعض المقالات ! ويتم رواية بدأها اسمها « العرب » ! ويغطى أكاذيبه القديمة التى وعد بها أولاده وهو مريض بأكاذيب جديدة ٠! ولم تعد الدوائر التى تلتف حول أحمد رأفت المحافظ أو حسين فهمى تثير موضوع نديم بخير أو شر !

ورأى بعض الذوات فى الاسكندرية أن التبرع لنديم ببعض من المال قد يكون واقيا لبعض الشرور ان لم تكن فيه فائدة ! وقال حامد الاعسر ليعقوب زخارى ذات ليلة :

ـ قلت لك لا فائدة ! لقد اشترى رياض باشا من تبقى من الرجال ! اشترى الشيخ محمد عبده و « نديم » بثمن بخس ٠٠ الاول ليكتب مقالات « عن العفة ولوازمها » وعن « احترام قوانين الحكومة وأوامرها » وعن « وخامة الرشوة » ٠٠ والثانى ليفتح مدارس تعلم التلاميذ كيف يقرءون مقالات الشيخ « محمد عبده » ! أما من كنا نرى فيهم خيرا من مشايخ الازهر فهم الآن قد تركوا الامر لمقلب القلوب ومصرف الامور ، أما قضية الدستور فقد انتهت بنهــاية « مصر الفتاة » !

وكان نديم قد فكر فى أن يبدأ رحلة جديدة للاقاليم يواصل فيها مد لافتات الجمعية الى بلاد جديدة ، وليدق بعض المسامير فيما يوشك ان يسقط من اللافتات القديمة ، وأن يستغل تعويذة رياض باشا فى استخراج نقود الذوات والاعيان من جحورها التى تختبىء فيها ! وكان أيضا قد سأل مرة ومرات عن « أبو دعموم » بعد أن واصل غيابه عن المدرسة ، ومع أنه خلال مشاغل الرحلة الاولى وخلال مشاغل العودة تكاد ينسى الموضوع قليلا الا أن غياب « أبو دعموم » بدأ يثير اهتمامه به ، أيكون مريضا مرة أخرى ؟ ووصى أحد زملاء « أبو دعموم » بالسؤال عنه فى بيته وفكر الا يتردد هذه المرة فى زيارته ، كانت صورة الارملة الجميلة قد شاقته وعادت تفاصيل الزيارة الوحيدة التى كانت تفر منه احيانا تنبض فى رأسه حارة دافقة ، وعادت مئات الاشياء التى يمكن لو تحدث عنها أن تصمه بالجنون تواصل حديثها لــه ··· كانت فرحــة بوجوده ، كانت أول امرأة جميلة تراه على حقيقته ، وتذكر وكأن ذلك يحدث لأول مرة ، انهما تكلما كثيرا جدا ، وانها كانت تشجعه بالاستماع وبالسؤال وبالجواب ، وانها كانت سعيدة تلك السعادة التى تعبر عنها طريقة الكلام أكثر مما يعبر الكلام ذاته ، كان نديم اذ ذاك فى قمة انتصاراته ، والانتصار العظيم كالفشل العظيم كلاهما فرصة ملائمة للوقوع فى الحب ·



وذهل نديم حين أخبره التلميذ الذى أرسله بأنه لم يجد أحدا فى البيت وأنه فهم من بعض الجيران أن الاسرة كلها قد سافرت مع أحد اقاربها الى احدى قرى الدلتا !

سافرت ؟ تقول سافرت ؟ هل سمعت جيدا ما قالوه لك ؟ وتنبه نديم فجأة الى أن صياحه روع التلميذ قليلا كما أثار دهشته فصرفه في الحال ، وظل يبتلع صراخه ·

كيف سافروا دون أن يخبروه ؟ وكيف يعرف مكانهم وكيف ؟ ومع عشرات الاسئلة التى انهالت فجأة رأى القصة كلها فى ضوء جديد !! رأى لأول مرة أنه كان فى هذا الموضوع كله ابله وسخيفا وغير معقول بالمرة ، لم يكن هنا ، ولم يجرؤ على أن يكرر الزيارة ولم يفكر جديا فى شىء أكثر من أن ينعم بذكرياتها وبطيف الارملة الجميلة التى لم يعد أمامه سوى أن ينساه ، ولم يقدم سوى المعونات ومن الجائز انها لم تفهم حقيقة شعوره ، صحيح كيف تفهم ؟ كيف ظن أنها كانت تقرأ الترجمة الدقيقة لما ظنه قد أصبح لغتهما المشتركة ولكن كيف فهم هو ؟ وكيف ظن أنها حقا ٠٠٠ وتوقفت خواطره عند هذا الحد ٠٠ توقفت على حافة هذه الهوة التى انفتح عنها هذا السؤال أيمكن أن تكون المسألة كلها وهما ؟ كل هذه السعادة وهذا الشعاع الرقيق الذى أضاء فجأة ! هل يمكن أن يراه مرة ثانية ٠٠ الام أو الابن ٠٠ أن يتأكد من أن ٠٠٠ !

***

ولم تكن أمامه أية فرصة ليتأكد من شىء ! لم تكن هناك سوى تفاصيل الزيارة الوحيدة فراح ينقب ويعيد التنقيب واستغرقه شعور غريب بأنه سيلتقى يوما بهذه الارملة الجميلة ، وبتلميذه ، بأذكى تلاميذه ، واذا كان من دأبه أن يبحث عن أشياء كثيرة فلتكن هذه المرأة ضمن ما يبحث عنه ، لقد تحقق له الكثير مما لم يكن يتوهمه يوما فلم لايتحقق له هذا الحلم ، وحتى لو كانت قد تزوجت فيجب أن يتحقق من شىء واحد لاغير ، من أن ذلك الشعاع الذى أضاء فجأة لم يكن وهما ومن أنها كانت تحبه وتفهم لغته !!

* * *

كانت تلك هى رحلة نديم الثانية للاقاليم ،، وكان ذلك هو اليوم الثانى من فبراير سنة ١٨٨١ واذا كان شتاء الاسكندرية قارسا أو

عاصفا أو ممطرا فان شتاء الدلتا فيه كل هذه الصفات ويزيد عليها أنه شتاء موحل ، وفي ذلك التاريخ لم تكن فى مدن الدلتا فضلا عن قراها شوارع مرصوفة ، أو معبدة ، وكان الشتاء بمعنى من المعانى هو الوقت من السنة الذى يصبح فيه اجتماع الناس ... فى مكان عام كفناء مدرسة أو أحد الاجران أمرا متعذرا وحين أفهم « محمود واصف » هذا الاعتبار لنديم قال له :

ـ أنت لا تعرف الفلاحين ، انهم يقضون نهارهم وأحيانا ليلهم وسط أوحال الحقول ثم هناك المساجد ويمكن ..

ـ لست أفكر فى الفلاحين وحدهم ، أفكر فى أن صحتك لم تحتمل رحلة الخريف فكيف ..

ـ لا تخف ، لا يمرضنى شىء مثل البقاء طويلا فى مكان واحد وتحركت الموجة التى يحدثها نديم بحركته ، وطفت على السطح مئات الوجوه الشاحبة والمتعبة ونظرت الى الوجه المرهق دائما ، الجائع ابدا الى النوم والراحة ، ولولا أن الأغنياء فى هذه الرحلة فتحوا بيوتهم قليلا . ومدوا موائدهم احيانا ، وسمحوا لبعض القروش بأن تغادر جحورها الآمنة لقلت الجائع أيضا الى الطعام !

***

واستمعوا الى نفس الصوت يتكلم هذه المرة بلغة مختلفة ، انه لا يوقظ فقط حلمه القديم بل يتحدث عنه وقد أصبح حقيقة واقعة ، ان لديه كنزا من تجربة الخريف ، وجعبته ملأى بالاجوبة ، وخفت حدة الشكوك والمخاوف ، وانتهز لسانه الفرصة فغدا اكثر جرأة فى الاشارة الى المشكلات والآلام التى كانت وقتذاك طافحة ، وتلك نغمة يحبها الناس فى كل مكان ووقت ، ولم يصب أحد بالدهشة حين كان يختم الخطبة بالثناء على الخديوى مؤسس الجمعيات ، ورياض باشا حاميها ومعينها ، كان الناس يفهمون ، وكانت الصحف تفهم فتتجاهل

نشر الاجزاء الحريفة من خطبته ، كانت الجمعيات هى كل ما تبقى وسط الحطام ، وكذلك كان نديم ، فأحاطوهما بالامل والخوف ، وكان الاعيان فى الدلتا لايخفون دهشتهم ، وهم يتابعون الموجة التى تنحسر هنا لتمتد هناك وراء نديمهم القديم ، الذى لم يفقد أبدا جاذبيته القديمة وسحره ، كان قد أصبح نديم الشعب ، وفى الحق ان الكثيرين لم يروا فيه مجرد رجل يفتح لهم أبواب الامل فى شىء أفضل ، بل وجدوا فيه تسلية مجانية لا تقتضيهم الجلوس فى مقهى لسماع الشاعر ، ولم يترددوا فى الافادة من قدرته ـ التى بدت لهم مذهلة فى الاقناع والحديث ـ ليفض نزاعا بين أسرتين أو بلدين ، أو ليعيد زوجة غاضبة لزوجها وأولادها أو ليحسم خلافا طال بين شريكين فى أرض أو تجارة !!



وحين كان يسأل نفسه ما عملك يانديم ؟ هل هذا جزء من عملك ؟ كان يجد الاجابة فى حياته كلها ومتى عرفت عملك ؟ متى عملت فى شىء واحد كسائر مخلوقات الله ؟ ولم يتردد هو الآخر فى الافادة من هذا كله ، ومن اجتماع الناس حوله فى أى مكان ، فى فرح أو مأتم فى شارع أو مقهى ، كان يتغلغل فى حياة الناس ، ويكتسب تأثيرا ونفوذا ويتخطى كل الحدود والقيود ، ويرفع فى كل مكان يذهب اليه تلك اللافتة التى تكتب بخط جيد أو ردىء « الجمعية الخيرية الاسلامية » وتحتها بخط صغير « فرع دسوق » كان هو نديم ابن الشعب ، كان فى مكانه الحقيقى لأول مرة ، واعتقد فى مرات سابقة أنه قد وجد أخيرا ذاته ، وفى الثانى من فبراير سنة ١٨٨١ وفى مدينة ميت غمر انداحت تلك الموجة التى كان يثيرها نديم كأنما ابتلعتها الارض ، كان ثمة خبر غريب ينتشر فى المدينة ، ردده تاجران قدما من المحروسة فى صباح ذلك اليوم ، وكان نديم فى بيت العمدة حين وصل الخبر « يقولون ان تمردا

حدث فى الجيش ، وأن الجيش أخرج ثلاثة من كبار الضباط بعد أن سجنوا فى قصر النيل »

ـ من هم الضباط الثلاثة ؟ ولماذا سجنوا ؟ وكيف اخرجهم الجيش ؟

وهز الرجل الذى نقل الخبر رأسه مؤكدا انه لا يعرف شيئا ·· وبعد لحظة تذكر اسم احد هؤلاء الضباط

ـ عرابى ·· اسم احدهم عرابى ·· سمعتهم يرددون هذا الاسم فقط !

وصرخ العمدة : اذهب واحضر لى التاجرين اللذين كانا فى المحروسة !

ـ لا أعرف · لقد سمعت فقط ·

ـ اذهب واسأل من سمعت منهم !

ـ الناس كلهم يتكلمون ·

ـ اسأل كل الناس ·· لماذا تقف أمامى كالابله ؟

***

ومضت ساعات مخبولة ، دار خلالها حوار كهذا بين العمدة وبين كل من دخل عليه من معاونيه أو خفرائه ، وتبادل مع نديم أسئلة كثيرة لا معنى لها ، وانطلق الجميع يبحثون عن التاجرين ، لم يكن فى الصحيفة التى صدرت فى ذلك اليوم أى خبر ، وجىء بالتاجرين الى بيت العمدة وكانت الحجرة قد غصت بالناس ، كانا مروعين وكأنهما ارتكبا حادثا بصدد أن يعترفا به ، وهدأهما العمدة وقدم لهما قدحين من القهوة ، ولم يفكر أحد أن يسألهما عن اسميهما ، كانت الاسئلة تنوشهما من كل جانب عن أسماء الضباط المسجونين ولماذا سجنوا ؟ وكيف أخرجوا ؟

ـ ما هذا أيها الرجال ؟ دعونى استوضحهما الامر !

فى البداية كان كل منهما يريد أن يترك للآخر فرصة الحديث او بالاحرى فرصة التورط فيه ، وكأنما ساورهما الشك بدورهما فى حقيقة ما روياه بعد أن رأيا العاصفة التى أثاراها ·· ! ولكن بعد القهوة وبعد تدخل العمدة الحاسم انتهى الحديث الى أن يصبح شرفا يتنازعانه ، وكأنما أدركا فجأة الاهمية البالغة لمن ينقل للناس خبرا كهذا !! وبدأ التاجر الطويل الذى يلبس جلبابا بنيا غامقـا ويعتم بلاسة تخفى نصف جبهته ، يروى الحادث على مهل وبصوت ضجت الحجرة بانخفاضه ، فتدخل زميله الذى كان أعلى صوتا وراح يروى الحادث بهدوء ، ولكنه اكتشف فجأة انه لا يعرف شيئا أكثر مما قاله هذا الصباح ، ومما تناقله الناس ! ··

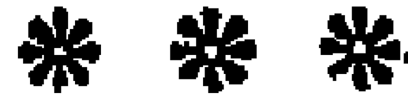
***

لماذا سجن الضباط ؟ كيف له أن يعرف ؟ وكيف أخرجوا ؟ كيف له أن يعرف أيضا ؟ وكأنما اكتشف الناس أنفسهم بلاهـة أسئلتهم وبرز الجانب الفكه فى الموضوع حين نشبت مباراة بين التاجرين فى تذكر اسمى الضابطين الآخرين مع « أحمد عرابى » الذى كان اسمه سهلا كأنما وجد ليتذكره الناس ، ونجح التاجر القصير فى أن يتذكر اسم « على فهمى » فى نهاية الامر ، أما الضابط الثالث فقد اصرا على ان اسمه مؤلف من مقطع واحد لاغير هو « حلمى » ·· ! وهكذا لم يعرفوا الاسـم الحقيقى « لعبد العال حلمى » الا بعد أيام ··· !

وكأنما تنبه الناس فجأة الى أن معهم رجلا ينبغى أن يتجهوا اليه بأسئلتهم ،، ولكن « نديم » كان أكثر منهم حيرة واعتصـاما بالصمت وقال للعمدة حين سأله رأيه فيما سمع :

ـ لست أدرى ، وهل سمعنا شيئا يمكن أن نبدى فيه رأيا

وانتهى اهتمام الناس بالتاجرين الى أن أحدا لم يشعر بانصرافهما وفور هذا النبأ الغريب سافر نديم الى المحروسة .



كان نديم فى طريقه الى الاسكندرية بعد أن أمضى أسبوعا فى المحروسة ، وكان يرقب من نافذة القطار المدينة الكبيرة وهى تغرق فى ضباب ذلك الصباح من شهر فبراير سنة ١٨٨١ وغرق هو فى نفسه محاولا أن يفهم هذا الشىء الذى أثاره وروعه كما أثار الناس وروعهم فى كل مكان ، وكان بمقدوره أن يلحظ أن الركاب يتحدثون عن نفس الشىء ، ولكنه كان عازفا عن مشاركتهم الحديث ، فلم يفعل فى الايام الماضية شيئا أكثر من الاسئلة والاجوبة ، وكانت تلك أول فرصة ينفرد فيها بنفسه محاولا أن يلتمس طريقه بعد هذا الحادث الذى كان بمثابة زلزال قلب كل شىء ، قلب حتى المقاييس والمعايير ، لقد اتضح له فى المحروسة أن هذا الحادث ما كان ليقع لو لم يكن ثمة تنظيم قوى فى الجيش ، وكانت البراعة التى تم بها هى آية هذا التنظيم القوى المحكم ، لقد قدم الضباط الثلاثة عريضة لرياض باشا يطلبون فيها اقالة ناظر الحربية عثمان رفقى وتعيين ناظر حربية من أبناء الوطن ، ويطالبون بتعديل القانون الذى وضعه ، والذى كان يحول دون ترقية الجنود المصريين من تحت السلاح الى درجة ضباط بقانون آخر يحقق العدالة بين المصريين وغيرهم من الاتراك والشراكسة ولم يكن معقولا أن يفكر الضباط فى شىء كهذا دون أن يكونوا قد فكروا مرارا فيما يمكن أن ينتظرهم آنذاك ، فى الموت ولا شىء أكثر ، لقد نظم الضباط مظاهرة قبل ذلك فى أواخر عهد الخديوى السابق ، ولم يموتوا لسبب واحد لا غير هو أن المظاهرة كانت ضد الوزارة الاوربية ولم تكن سلطة الاجانب معززة

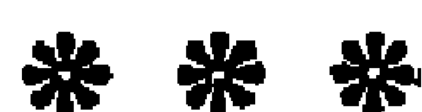
أى سلاح ، ولم ينجح الخديوى فى السيطرة على المظاهرة مع أنه كان مجردا من سلطته الا لأنه احتضن مطالب الضباط فأصبحوا سلطته ، ولم يكن لهذا كله سوى معنى واحد ، هو أن سلطة أى حاكم تعتبر لاشىء ، اذا جرد من سلاح الجيش أو حب الشعب ، وفى تلك الايام كان نديم يعتقد ان الضباط لابد قد فهموا هذا الدرس ، وكاد يظن فيما أعقب هذا من أيام انهم نسوه ، ولكن ما حدث منذ اسبوع يؤكد أن لا شىء ينسى تماما ، قدم الضباط مطالبهم ، ولم تجرؤ الحكومة على رفضها صراحة لانها كانت تفهم انهم لم يقدموا على خطوة كتلك الا وهم مستعدون لما بعدها ، لجأت الى الخديعة لتتخلص من زعماء الضباط فى حركة مفاجئة ولتخيف من وراءهم ولكنهم كانوا متوقعين كل شىء حتى الخداع ، فانقذوا من السجن بالقوة ، وهكذا انكشفت فجأة كل الأستار ، ولم ينجح فى تغطيتها أن يجيب الخديوى مطالب الضباط كلها ، ولا أن يعلن الضـــباط ولاءهم للخديوى ولا أن يعين الخديوى محمود سامى البارودى الذى كان يعطف على مطالبهم منذ البدء ناظرا للحربية ، كان ذلك كله خداعا سخيفا لا يستر الحقيقة التى كانت تتضح على نحو مروع فى وجدان الناس وفى عقولهم وان اختلفت وسائل التعبير ، كانت الحقيقة أن الجيش أدرك طريقة فذة لتحقيق مطالبه ، ليس أمامه سوى أن يتحد ويتجمع — لا شىء أكثر ولا شىء أخطر من ذلك — فيصبح الخديوى مجرد رجل يمثل دور الحاكم ، وفى أى وقت يمكن ان يسدل الستار فينصرف النظارة ولا يبقى أمامه سوى أن يخلع ملابس الدور ، ومن المؤكد ان الخديوى قد بدأ يدرك نفس الحقيقة ويدرك ان بقاء سلطته رهن بأن يسلب الجيش ذلك السلاح الخطير سلاح الوحدة والتجمع، وكذلك أدركها الاتراك والشراكسة ، وأدركها الاجانب ، وأدركها الاعيان وأدركتها طبقات الشعب وطوائفه ،

ولم يكن ادراكها مشكلة ، ولكن المشاكل كانت تكمن فى الطريقة التى سيواجه بها كل هؤلاء هذه الحقيقة ! ماذا سيكون موقف الاجانب ؟ لقد سمع فى المحروسة أن القنصل الفرنسي « البارون دى رنج » كان مؤيدا لمطالب الضباط فأين سيقف قنصل انجلترا ؟ كانا متحدين حين لم يكن هنا غير قوتهما أما الآن فهل يبدأ الصراع التقليدى ؟ والخديوى كانت خلافاته مع رياض حديث المحيطين بهما ، ولقد سمع في المحروسة همسا لا يكاد يصدقه ، أن الخديوى نفسه كان يشجع الضباط على تقديم مطالبهم معتقدا أنها قد تخلق موقفا يضطر رياض باشا الى الاستقالة فيتخلص منه كما تخلص الخديوى السابق من الوزارة الاوربية مستغلا تمرد الضباط • ولكن الامور أفلتت من يده وجرت على غير هواه ، فهل يتفق أخيرا مع رياض باشا لمواجهة الخطر الذى أصبح مشتركا ؟ وبأى سلاح يمكن أن يواجها الجيش ليجرداه من وحدته ؟ وكيف يبقى الضباط متمسكين بوحدتهم التى هى سلاحهم الحقيقى ؟ ومن يضمن ؟ لا أحد غير نديم يدرك فظاعة أن تطلب من الناس أن يتحدوا وأن يتجمعوا •• أ ربما يضمنه خوفهم ، ادراكهم أن هذا التجمع هو السبيل الوحيد لأشياء كثيرة ، ضمنها حياتهم نفسها !!

لكن كيف يمكن أن تستمر تلك اللعبة الغريبة ؟ رجل يمثل دور الحاكم وهو يدرك أن السلطة لم تعد فى يده ، ورجال يمثلون دور المحكومين وهم يعرفون الطريق لفرض مطالبهم •

وأدرك على نحو قاتم أن عهد الاستقرار قد انتهى بعد أن تمزق ذلك الستار الرقيق الذى يخفى الناس خلفه حقيقة نواياهم ، وبعد ذلك لا تجدى أية محاولة لستر تلك النوايا ، كان رغم الظلام واليأس قد اختط لنفسه طريقا ، طريقا تحدده مجموعة اللافتات التى كان

يمضى ليعلقها على واجهات بعض الدور فى المدن والقرى ، وكان يحلم للافتاته برحلة بعيدة المدى داخل القطر كله ، وكان واثقا من أن الشعب بأكمله سيهب حاملا تلك اللافتات التى ستصبح أعلامـه ، وسيكتشف قوته ، كان طريقا طويلا حقا ولكن لا تكتنفه المخاوف وتساءل لماذا يخاف ؟ لماذا أصبح يبحث عن الطريق الآمن الذى لا تدوطه الاخطار ؟ هل يخاف على جمعياته ؟ انه يعرف ان الاغنياء اكثر الناس خوفا ، فهل أصبح واحدا منهم ؟ كانت الجمعيات ثروته اذا كان لابد أن نعتبـره صـاحب ثروة ، لكـن أى شىء يصـيب جمعياته ؟ وكان بمقدوره أن يدرك أنه سيصيبها الكثير لو فشل الضباط ، لو تمكن الخديوى منهم ، وقتها سيخلو قلب الخديوى وحكومته من كل رحمة حتى بالايتام ، ان ما حدث ليس شيئا هينا ، كان يدرك فى مرارة معنى ماحدث وكان ما يعذبه أنه لا يعرف شيئا عن حقيقة هؤلاء الضباط لقد سمع الكثير عنهم ، وكان بمقدوره أن يثق فى شجاعتهم فى ضوء ما حدث وأيضا فى حكمتهم ، ولكـن كيف له أن يطمئن ·· ان هذه الحركة يمكن أن تكون طريقا لاشياء كثيرة ، يمكن أن تختصر عشرات السنين ويمكن ·· ولكن هذا كله رهن بحقيقة هؤلاء الرجال ·· بما فى رءوسهم ، ورهن بموقف الشعب بمختلف طبقاته ، ورهن بالاجانب ومصالحهم المعقدة ·· رهن بكل ما لا قبل له بمعرفته !!



لقد تشاجر مع صديقه القديم الشيخ محمد عبده بعد أن قرأ مقاله عن « القوة والقانون » الذى يندد فيه بحركة الضباط بمنطق بارد ، لم ير فى مطالبهم سوى أنها هتك لحرمة القانون اذ ليس من حقهم أن يطالبوا بعزل ناظر الحربية !

– وهل من حق هذا الناظر أن يقرر قوانين جائرة ؟

– وهل تتاوم الخطأ بخطأ أكبر ؟ من حقهم أن يتظلموا من القوانين لا أن يطالبوا بعزل ناظر الحربية ٠

– يتظلمون لمن ؟ للناظر الذى وضع القانون أم لمجلس النظار الذى أقره أم لمجلس النواب الذى لا وجود له ٠٠ أنت تتكلم كما لو كنت تجهل كل الظروف والملابسات ، كما لو كنت تجهـــل حقيقة الاتراك القذرين هؤلاء !

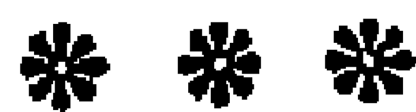
وتخلى الشيخ محمد عبده عن هدوئه وكأنما نسى أن « نديم » ضيفه وقال فى غضب :

– أنت الذى تنسى الظروف والملابسات ، تنسى أن ما حدث سوف يؤدى الى حالة من الفوضى هى أفظع من كل المظالم التى تتحدث عنها ، هى كل ما يتمناه الاجانب !

– لا أظن أن الاجانب يحلمون بحال أحسن مما هم فيهــــا فالبلد كلها تدار لحسابهم ٠٠ لا أفهم لم تقول هذا الكلام ؟

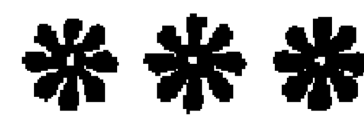
وصرخ الشيخ : لانى أؤمن به ، أنت تعرف اننى أهاجم النظار فى جريدة الحكومة ولست أبالى بأحد ٠

وفكر نديم : حقا فيما لا خطر فيه ، وآثر أن يقفل الحديث فى الموضوع !



كان الشيخ محمد عبده يدرك نفس الحقيقة المروعة التى أدركها نديم ٠٠ حقيقة أن عهد الاستقرار قد انقضى ، وأن الطرق الطويلة والبطيئة ، والتى تحتمى بالزمن لتبلغ غايتها قد أغلقت ، ولكنه كان

يفسر هذه الحقيقة لصالح الحكومة التى أصبح جزءا منها ! ولكن ألم يكن نديم بدوره قد أصبح جزءا من الحكومة ؟ كان جزء صغير منه هو الذى التصق بها ، أما بقية نديم فقد كانت تجرى خلف اللافتات وتعبر الجسور ، وتغوص فى الاوحال ، ولقد لمحت هذه البقية الامل الكامن فى هذه الحركة ٠٠ الامل فى أن تتحدى الصعاب وتمضى فى نفس الطريق الذى قد يختصر عشرات السنين وبقدر هذا الامل كان خوف نديم وكانت حيرته وكان عذابه !! واذا كان صديقه القديم قد رأى هذه الحقيقة من هذه الزاوية فكيف يمكن أن يراها الآخرون ؟ كيف يراها الحزب الوطنى ؟ والنواب والاحرار من شيوخ الازهر والفلاحون ؟ والتجار ؟ لقد سافر الى المحروسة ليبحث عن بعض الأجوبة فعاد بما لا يحصى من الأسئلة !



وفى الاسكندرية التقى بمزيد من الاسئلة ، الاسئلة التى تنم كلها عن الاحساس بهذه الحقيقة المروعة التى ما عاد الى اخفائها من سبيل ! وبدا أنه حتى شئون الحياة اليومية لم يعد من السهل أن تتابع سيرها الرتيب المألوف ، فلا الدروس ولا محافل الخطابة ولا الحديث عن الجمعيات ، لا شيء من هذا كله كان يريد أن يواصل سيره الطبيعى ٠

وقال أحمد سمير لنديم : نسيت أن أقدم لك مجموعة الرسائل التى وصلت فى غيبتك ! وكان نديم قد تعود أن يسأل عن الرسائل التى تصل فى كل مرة يسافر فيها ، ولكنه نسى هذه المرة وراح يفتح الرسائل فى لهفة وكأنه سيجد فيها اجوبـة لأسـئلته ، وبدأ كالعادة بقراءتها من الذيل ودهش حين وقعت عيناه على توقيع تلميذه الغائب « أبو دعموم » ونحى جميع الرسائل جانبا كان يظن

أنه نسى هذا الموضوع تماما ، وهاهو يكتشف لفرحته الغامرة أنه لم يكن ينتظر الآن سوى هذه الرسالة ٠٠ !

***

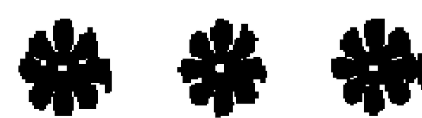
لم يكن يقرأ الرسالة ، كان يلتهمها ، ثم عاد يقرؤها ويقرؤها ، وحتى حين حاول أن يقرأ غيرها اكتشف انه لا يزال يقرؤها ، كان يعتقد أن الزلزال الذى هز كل شىء ، وأزاحه عن مكانه ، قد مس قلبه ، ولم يعد فيه مكان لغير الحيرة والقلق ولكنه الآن سعيد سعادة حقيقية ، سعادة لم ينقص منها ذرة واحدة أنه عرف ان الارملة الجميلة تعانى العذاب بل ربما كان ذلك أحد اسبابها ، كان يدرك ما ينطوى عليه موقفه من قسوة لعينة ، ولكنها لم تكن المرة الاولى التى يواجه فيها الهول الكامن فى قلبه أو فى قلوب الناس ، لقد وثق الآن ف شىء واحد لا غير هو كل ما كان يحلم به وينتظره ، وثق فى ان الارملة الجميلة كانت تحبه ، وكانت تفهم لغته لم يقل له « أبو دعموم » شيئا من هذا فى رسالته ، ولكن ما قاله لم يكن له معنى سواه ، لقد قدم خاله الذى كان موظفا صغيرا بالمنصورة وأفهم أمه أن رئيسه الذى ماتت زوجه مستعد لأن يتزوج بها فترعى أطفاله الصغار ويرعى صبيها ، وأنها رفضت وقاومت ولكنه أجبرها على الزواج وأفهمها أن حياتها وحدها فى الاسكندرية أمر لا يليق ٠

***

ولم تمض سوى أسابيع على هذا الزواج حتى اكتشف الصبى نوع الرعاية التى تنتظره حين رأى زوج أمه وهو يضربها كل ليلة حين يعود مخمورا بعد منتصف الليل ، فانتقل الى بيت خاله ليكتشف بعد أيام قليلة أنه خسر أمه وخاله الى الأبد فقد كانت زوج خاله تفرغ همها فى الصبى ، وهو نفس الهم الذى تعانيه من خاله حين يرجع من السهرة التى يسكر فيها مع رئيسه وحين بدأ الصبى يفكر فى الهرب ، كانت أمه هى التى طلبت اليه أن يكتب

لاستاذه ، فلو أمكنه أن يعيده الى عمله بالاسكندرية أو الى عمل يطمئن اليه فيه فستكون مطمئنة وراضية بعذابها حين تعرف أن ولدها فى رعايته ، فهى لم تنس بعد ما فعله من أجلهما ، وهى ‥ ‥ وهى ‥ كانت رسالة منها كتبها أبو دعموم بخطه وفى النهاية أفهمه أنه يترقب عودته الى المنصورة ليلقاه هناك ، ولينقذه من هذا العذاب !! وهل كان ينتظر شيئا أكثر ؟ هاهو الصبى يعود ، والامل يتجدد ، فى أى شىء ؟ كان نديم يسأل نفسه ، فى السعادة ، سعادته الخاصة التى لا تعنى أحدا غيره فى هذا العالم ، سعادة اليقين العذب الهادىء بأن القلب الذى توهم يوما أنه يخفق بحبه لا يزال يخفق ، وأنه خلال الصبى سيسمع وجيبه وهمسه ، وسيحقق أمانيه ، وأن ما أبصره فى تلك الزيارة القصيرة لم يكن وهما ، وأنها ستبقى الشىء الوحيد فى الدنيا الذى يحس أنه له وحده !!

واتخذ هذا الشعور الخاص بالسعادة مكانه فى حياته المزدحمة ، واتسق معها كلها وائتلف ‥ اتسع مع حبه لاسرته ولجمعياته ولتلاميذه وللناس ، واتسق حتى مع حيرته وقلقه ، وأضفى عليها كلها نوعا من البهجة والسرور ، ولم يفكر لحظة فى الصواب والخطأ ، فقد كانت الارض التى يقف عليها نقية وصافية ولم يكن (حتى هذه اللحظة) يفكر فى أن يخطو الى أبعد منها خطوة واحدة !!



ولم يطق أن يبقى طويلا فى الاسكندرية ، وكأنما كان يريد أن يرى ماذا فعل « زلزال المحروسة » فى أرض الله الساكنة فى الريف والمدن الصغيرة !

وروغ نديم حين وجد « حادثة قصر النيل » في مدن الدلتا تحطم الاطار الذى حاول جاهدا أن يراها في داخله ، بل تحطم جميع الاطر المعقولة التى يمكن أن تكون لها ، كان الشعب بكل طبقاته وأفراده يندفع في جنون ليصبح داخل هذا الاطار ، كان الجميع يحاولون أن يجدوا فيما حدث معنى بالنسبة لهم ، وكأنه لم يحدث الا لأجلهم وكانت الاسئلة التى لا تزال تبحث في رأسه عن أجوبة تصنع هنا وهناك اجاباتها بسهولة غريبة ، وكانت الحقيقة المخيفة التى تنطوى عليها حادثة انضباط تعلن عن نفسها في تلك البلاد في سذاجة مرعبة !

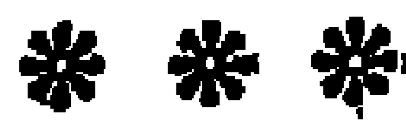
***

وعبثا كان يحاول أن يقنع من يلتفون حوله في كل مكان أنه فوجىء مثلهم بحادثة قصر النيل ، كانت نظراتهم تقول له في تطلعها المريب ، أيها الماكر ؟ أهذا معقول ؟ كنت تعرف كل شيء حدث ، وتعرف كل ما سيحدث ، قل لنا متى سينجاب هذا البلاء : السخرة ، والضرائب اللعينة ، والديون ، وأدوات الجلد والتعذيب ؟ قل لنا كيف يبدو عرابى هذا ؟ يقولون ان النساء لم تلد أطول ولا أعرض ولا أجمل منه ! وانه فلاح ابن فلاح ، ولا يترك فرضا ، ولا تفارق المسبحة يده ، ولم يجرؤ على أن يقول لهم أنه لم يلتق به مــــرة واحدة !! ولم يجرؤ على أن يرفض الاستماع الى « عرائضهم » التى يزمعون ارسالها الى عرابى ، بل لم يجرؤ على رفض كتابتها ، ولم يكن في هذه « العرائض » أفظع مما رأته عيناه ، ولكن الشيء المخيف فعلا أنهم كانوا في الماضى يعانون في صبر واستسلام ، أما الآن فكل واحد يتوقع نهاية البلوى بعودة البريد !

***

ولفه الرعب ، فليس هناك أفظع من أن ترى أحلام شعب مغلول تنطلق فجأة من قيد مئات السنين دون أن تبصر طريقها ، كانت

حادثة « قصر النيل » التى لم يكن هو قد وجد لها معنى واحدا يطمئن اليه ، والتى كانت أشبه بحركة الحياة في جنين قد كبرت فجأة وأصبح لها أبناء وأحفاد ، وورثة شرعيون ، تلك الحركة التى كان هو يخشى أن تجهض فى أية لحظة ، والتى لم يعرف بعد هل ستصبح بشرا سويا أم مسخا ؟



وفى المنصورة وفى بيت صديقه الغرقاوى ، فوجىء بالشيخ « أحمد أبو سعدة » بين مستقبليه ، وفوجىء به مرة أخرى يتقدمهم ، وهو يهم بمعانقته ويقول :

ـ لقد جئت لك لاننى لست مثلك أنسى رجلا أكلت معه خبزا وملحا • وتعانق الرجلان أمام الجمع الذى كان يعرف أكثره ماكان بينهما ، وسلم نديم على الآخرين وعاد ليجلس بجوار « أبو سعدة » الذى راح يكمل عبارته :

ـ لقد زرت الجميع يا نديم ونسيتنى ؟

ولم يقل له نديم « ولم جئت الآن فقط » لكنه قال بلهجة غامضة :

ـ وهل معقول أن أنسى ما بيننا يا رجل ؟

واختلجت فى عيون الجالسين نظرة متربصة ، وقال الغرقاوي محاولا تسوية الأمر :

ـ الاشياء الطيبة هى ما يجب ان نذكره يا رجال !

وقال أبو سعدة ـ وقامته القصيرة البدينة تهتز كلها ، وبلهجة رجل مصمم على أن يضع حدا لكل شىء فى وضوح حاسم ـ :

ـ الأب يتشاجر مع أولاده ، ونحن أولاد اليوم ، وما فات مات ، ثم مال على رأس نديم قائلا :

ـ هات رأسك اقبلها !

وقلب نديم الموقف كله الى مزحة حين جعل « أبو سعدة » يخطىء هدفه وقال له :

ـ لا ·· انتظر ·· رأسى الآن كرأس أولياء الله الصالحين ، لا تقبل مجانا ، انها رأس جمعية لها فى كل بلد مقام ، فكم ستدفع للجمعية ؟

ـ مالى وعيالى كلهم للجمعية !

ـ مالك فقط هو ما نريده ، أما عيالك فحلال عليك !!

ـ ولكن مالى لن أدفعه هنا يا نديم ، لابد أن تزور « بدواى » ، وأن تأخذ المال فى بيتى ، وأن تفتح بها فرعا للجمعية !!

***

وفى منزل « نعمان بك » بالمنصورة التقى بعدد من وجهاء المدينة وذواتها وفى هذه المرة رحبوا بنديم وتلطفوا معه ذلك التلطف الذى يبديه الكبراء عادة لمن هم دونهم ، ولم يكن ثمة مكان للخوف فى حديثهم أو فى عيونهم ، ولا حتى للسخط ، وحين عرج الحديث الى حادثة « قصر النيل » تحدثوا عنها بتلك الثقة والبساطة التى يتحدث بها شخص عن شىء قام فيه بدور كبير ولا يريد أن يبرز هذا الدور حتى لا يتهم فى تواضعه ·· ! وكتم نديم دهشته حين تردد اسم الحزب الوطنى وكأن الضباط كانوا فقط ينفذون أوامره ·

وقال صفوت بك وهو يتحسس أطراف شاربه :

ـ بالطبع لم يكونوا ليجرءوا على حركة كهذه لولا أن سلطان باشا أعطاهم اشارة الأمان .

ـ تأييد فرنسا للحزب هو الذى حمى الحركة .

وتردد اسم سلطان باشا وسليمان أباظة والشريعى وكبار أعضاء الحزب وكأنهم أصدقاء شخصيون لكل الموجودين ، ومرة واحدة ذكر اسم رياض باشا كرجل هالك لامحالة ، أما دين المقابلة فقد أكدوا أن اعادته ستكون المطلب الثانى للضباط الذين سيجعلونها ضمن قانون جديد لتصفية الديون مثل الذى أقرته الجمعية الوطنية السابقة ! وتحدثت عنه منشورات الحزب !

ـ والدستور ؟

كذلك تساءل نديم الذى لم يمنح أية فرصة كريمة للحديث ، وتطلعوا ناحيته وكأنهم تذكروا وجوده فجأة ، وقذفه نعمان بك بسيجارة بينما كانت يده الأخرى تدس فى أنفه شيئا من «السعوط» كان فى صندوق مفضض صغير .

ـ وهل منْ ينكر الدستور ؟

قالوها بلهجة من يقول : وما شأنك أنت بهذا ؟

وكأنما ذكرهم وجوده بموضوع الجمعيات ، واذ ذاك فقط أخذ الموضوع طابع الفكاهة .

وطلب « أمين بك » من نديم أن يذكره بالآية الكريمة التى فيها « حق معلوم للسائل والمحروم » !

وخرج نديم فى تلك الليلة يمسح بمنديله ـ رغم برودة الجو ـ عرقا غزيرا باردا كذلك .

وفى أحد الشوارع الضيقة التى لم يكن نديم يتردد فى اختراقها لأنها اقصر فى الوصول الى غرضه توقف قليلا مع صديقه القديم «محمد كمال» للتفرج على دائرة من الصبيان والكبار تلتف حول صبيين لم يتضحا لأول وهلة ، كان نديم خلال هذه الجولة فى مدينة المنصورة يتوقع بين وقت وآخر أن يلقى صبيه بمبنى الجمعية • وحين طال انتظاره له أصبح يفتش عنه فى وجوه المارة ، وحين ابصر الدائرة تمنى لو يجده بينها ، وحين أصبح هو وصديقه جزءا من الدائرة ابصرا الغلامين بداخلها ، كان احدهما قصيرا مقطوع الذراع يرتدى جلبابا أزرق وكان يضحك الحلقـــة بهذه العبارة التركية التى انتشرت وقتذاك بين الجمهور كما انتشرت كل تفاصيل حادثة « قصر النيل » •

ـ « ايه زمبللى هرف لر » ومعناها فلاحون شغالون بالمقاطف •• مقلدا خسرو باشا وهو يمر بأبواب السجن الذى أودع فيه الضباط ، وفجأة يقتحم السجن صبى جسيم مقلدا البكباشى محمد عبد فيضرع اليه خسرو باشا بذراعه الوحيدة متوسلا ومقبـلا قدمه ، ومحاولا أن يبعد عنه «ماسورة» البندقية التى لم تكن سوى ذراع مكنسة قديمة ، أما السجن فلم يكن أكثر من عربة يد مقلوبة فى جانب الطريق بداخلها ثلاثة أطفـال يمثلـون دور الضـباط الثلاثة ، وفى النهاية تصفق الحلقة لمحمد عبيد وخسرو باشا معا ! ولم يجد صبيه بينهم ، ومضى بعد أن صفق لفرقة الاطفال وقال له محمد كمال :

ـ ما رأيك لو كتبت رواية عن تلك الحادثة ؟

واجاب نديم فى توتر : تكون ظريفة فقط حين يمثلها الاطفال فى الشوارع :

ـ والكبار ؟

ـ لقد مثلوها فعلا وجاءت سخيفة كما ترى

ـ انت متشائم يا نديم ، من الصعب أن تحكم

ـ ومن الصعب أن تنتظر شيئا آخر بعد كل هذا الوقت ! ثم اضاف في سخط : لقد سمعت أن الخديوى يعد قانونا لتحسين احوال الضباط •

ـ أتظن أن ثورة الضباط قامت لهذا فقط ؟

ـ الله وحده يعلم ، لكننى اتكلم عما أراه ، لقد اصبحت حادثة الضباط كسفينة سيدنا نوح كل واحد يريد أن يضع فيها ما يسعى لانقاذه ، أما فكرة الجمعيات فتعانى بسبب الجنون الذى أصاب الناس ، وتوشك فكرتها الاساسية أن تضيع بين صبر الفقراء الذى نفد فجأة ، وغرور الاغنياء الذى برز فجأة كذلك ، وتوقف نديم أثناء سيره وقال لصديقه مؤكدا كلامه بيديه وملامح وجهه ، كانت فكرة الجمعيات الهامة الا ينتظر اناس العون الا من أنفسهم أما الآن ـ واستأنفا السير ـ فالجميع ينتظرون أن يحقق الجيش أحلامهم ، والجيش ينتظر أن يحسن الخديوى أحواله ، والخديوى ـ ما لم يكن ابله حقا ينتظر أول فرصة ليتخلص من الضباط وتتهمنى بالتشاؤم !

* * *

وفى قرية «بدواى» التى توجه نديم لزيارتها تلبية لدعوة الشيخ « أبو سعدة » وفى الطريق الى بيت العمدة •• الطريق الذى يعرفه نديم جيدا •• كان موكب نديم الذى بدأ به وحده وبرفقته صديقه محمد كمال والشيخ قاسم الذى كان فى انتظاره ، كان

الموكب يتعاظم فى كل شارع ، وينضم اليه فى كل منعطف اكثر ممن يتخلفون عنه ، ولمح نديم خلال المظاهرة التى كانت ترحب به وجها ما كان له ان ينساه فى زحمة الوجوه .. وجه « حسنين الاعرج »، كان يحاول جاهدا أن يصل اليه وأن يلفت نظره ، توقف نديم مرحبا بالرجل الذى صرخ يوما فى وجهه ، وأشار له الشيخ قاسم أن يستمر فى سيره فالرجل ، وحرك يده حول رأسه حركة تعنى أنه قد فقد صوابه ، ولكن « نديم » كان قد اقترب من الرجل :

ـ أريدك

ـ أنا طوع أمرك

ـ تتذكرنى ؟

ـ نعم

ـ أريدك بعيدا عن هؤلاء !

وانتحى به نديم جانبا غير مبال برجاء الشيخ قاسم أن يتركه .

ـ يقولون انك تعرفه !

ـ من ؟

ـ عرابى ! يقولون انه يعطى كل مظلوم حقه

وهز نديم رأسه موافقا ، ثم تابع : ما الذى تريده منه ؟

ـ أرضى التى أخذها العمدة ، هل نسيت الموضوع ؟

ـ لا .. ولم يجرؤ على أن يقول له انه فى طريقه الى بيت العمدة ليتغذى عنده .

ووضع نديم يده فى جيبه ثم وضعها فى يد حسنين الاعرج فاختلجت يده وملامح وجهه ثم دعا له بطول العمر !



امام قصر الشيخ « احمد أبو سعدة » تبددت المظاهرة التى كانت تحيط بنديم ولم تسمح البوابة الضخمة بالمرور الا لعدد قليل منها ، كان كل شىء كما هو اذا استثنينا ما اصـــاب الناس من جنون ، وكان فى استقبال نديم الى جوار العمدة عدد آخر من أعيان الريف بعضهم من النواب السابقين ومن عمد القرى المجاورة ، ولم تصك سمعه تلك اللهجة المتعالية لذوات المنصورة ، كانوا يتكلمون ، وكان اغلب كلامهم أسئلة نمت عن شىء واحد لا غير هو انهم جميعا باتوا يظنون أن « نديم » هذا رجل ذو شأن مع أنه بسيط الى الحد الذى يمكنهم فيه أن يتخذوا منه دليلا وسط هذا الطريق الذى بدأت تضطرب معالمه ، ولم يحاول هذه المرة أن يسألهم كيف انتهوا الى هذه الفكرة ، ولم يبذل اقل مجهود لتصحيحها ، بل حاول أن يستفيد منها لصالح جمعياته التى اصبح يخاف عليها الآن اكثر من اى وقت مضى !



وأعدت مائدة ضخمة فخمة ، اقبل عليها العمد بعد أن تخلصوا من قفاطينهم الجوخ وتحلقوا حول خروف صغير وقف على المائدة وكأنه بصدد أن يمشى ، ولكنه كان مطهوا بطريقة فذة لا تكلف الاعيان أدنى مشقة فى انتزاع شرائح اللحم من هيكله المثبت الى المائدة بحيث يقاوم طعنات السكاكين والشوك التي يوجهها الاعيان بطريقة بدائية !

ولعن رياض باشا هنا كما لعن هناك ، والمجوا الى أن زيادة الضرائب المشورية كانت ظلما فاحشا لا يقل عن الغاء بين المقابلة،

واشاروا الى أن الغاء السخرة كان خطأ جسيما كاد يؤدى الى الاضرار بمحصول الأرض ٠

ـ لو انه نفذ !

ـ لو نفذ لمات الشغالة جوعا قبل أن يموت الزرع !

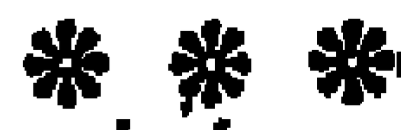
ـ ولكن شغالة الفلاحين هؤلاء كانوا يفضلون الموت جوعا مثل الكلاب على أن يعملوا فى السخرة !

ـ لولا نظام السخرة لظلت نصف أرض الدلتا بورا كما كانت

... ـ قطعا سيطالب الجيش باعادته ؟

وتطلعوا الى نديم كأنما ينتظرون رأيه فى هذه المسـألة ، وأدرك نديم ذلك فتخلص بسرعة من قطعة اللحم التى كان ينتزعها من ضلع الخروف وقال ضاحكا :

ـ ولماذا يطالب الجيش بابطال قانون لم ينفذ فى يوم من الأيام ؟ وضحكوا جميعا من ظرف هذا الرجل الذى لا نهاية له ٠٠ !



من خلال هذا كله : الزيارات والولائم واللقاءات والاسئلة والاجوبة ، من فوق أرض الريف والمدن ، من فوق سفينة نوح تلك ، كان يحاول نديم أن يتبين طريقه ، لقد كان واثقا من أنه أمسك بشىء حقيقى ، ولكن هذا الزلزال المروع أفلت كل شىء من مكانه ، وفك جميع القيود حتى قيود الافاعى والشياطين ، ولم يعد أحد يعرف مكانه أو طريقه ، ولم يعد شخص يطيق أن يستمع كلمة تقتضيه أقل قدر من التبصر والروية ، ولعن فى سره أولئك الضباط الحمقى الذين لم تنجح ثورتهم حتى الآن الا فى تعقيد هذه المجموعة من الخيوط التى لم يكن ينقصها التعقيد ، والتى كان ينسجها على مهل

وفى صبر ، وقبل أن تتحول الى قطعة من النســـيج القوى الذى يتحمل الشد والجذب !

***

وراح يفكر فى حياته كلها ، وفى ضوء تلك اللحظة ، أبصر خلال الاعوام الطويلة تكرارا لعينا لموقف واحد تعس ، موقف رجل لايكاد يمسك بشىء حتى يفلت منه ، وراح يفكر هذه المرة فى شىء يمكن أن يبقى طويلا فى يده .. شىء يمكن أن ينقذ فكرته (التى لا يزال يراها طريق الخلاص الوحيد) من ذلك الجنون والخلط والاضطراب ، وأن يحملها الى الناس ليس فقط فى محافل الخطابة والجمعيات بل الى كل مكان يمكن أن يخلو فيه المرء بنفسه ، أو بغيره ، شىء يتيح له أن يقول كلمته باحتراس وفى ظل هذه الظروف التى تنذر بتغير لا يدرى أحد مداه أو طريقته ، وراح يبحث ويبحث، وكان فى طريقه الى الاسكندرية حين التقى بهذا الشىء الذى سيدعوه فيما بعد « التنكيت والتبكيت »

***

التنكيت والتبكيت

ـــ أن تكون مسئولا عن مجلة يانديم أمر يختلف من كتابة مقال بهذه الصحيفة أو تلك ، فهل فكرت فى الموضوع جيدا ؟

ـــ نعم

كان سليم نقاش ينتقل بين آلة الطبع اليدوية الصـــــغيرة والأحواض الخشبية التى رصت فوقها الحروف الدقيقة ، وثيابه ملطخة بالحبر ، وملامح وجهه الضخمة لا تخفى ضيقه بنديم الذى يبدو وكأنه أصبح موكولا بازعاجه بما يطرأ على رأسه من بسخافات آخرها تفكيره في أن يصدر مجلة خاصة به .

ـــ ولماذا المجلة يا نديم مادمت تستطيع أن تكتب ما تشاء فى « المحروسة » « والعصر الجديد » وأنت مستريح من المتاعب التى ستجد نفسك غارقا فيها !

ـــ اية متاعب تعنى ؟ .. قالها نديم بضجر

ـ لو كنت تفهم فى أمور الصحف ما ألقيت بهذا السؤال الابله !

ـ وهل كنت افهم فى أمور الروايات ؟

وحدجه سليم نقاش بنظرة مغيظة وانصرف الى عمله ثم قال دون أن يعنى بالنظر اليه :

ـ الكلام مع غبى مثلك لا يجدي !

ـ لو كنت غبيا حقا ما جئت لآخذ رايك !

وابتسم سليم نقاش ابتسامة لم تمح أثر الغيظ من كل وجهه

ـ ولم لا تتعاون معى اذن فى صحيفتى ؟ ويمكن لو ...

فقاطعه نديم محتدا وقد نفد صبره فجأة :

ـ لاننى افكر فى شىء مختلف يا نقاش ، مختلف تماما .

ـ مرحى بك أيها العبقرى وتقول انك جئت تطلب رايى

ـ هناك أشياء تفهمها انت ، وأشياء افهمها ، ولن استغنى أبدا عن معاونتك !

قال سليم نقاش الذى كان يواصل العمل أثناء الحديث وقد ترك ما بيده كلية هذه المرة :

ـ لماذا لا تقول منذ البدء انك لا تستغنى عن المطبعة ؟

وعنك أيضا : صدقنى !

واستمر سليم نقاش كأنه لم يسمعه :

ـ وبالنسبة للمطبعة يمكنك أن تطبع مجلتك فى أى وقت مادمت ستدفع ثمن الطبع !!!

وساد الصمت فجأة وترك سليم نقاش ما بيده وجلس ازاء نديم على مقعد عبارة عن نصف برميل مقلوب ، ووشت نظراته بفضول غريب .

ــ لم تقل لى ما الأشياء التى تفهمها أنت ؟ كيف تريد ان تكون مجلتك ؟ كنت أحمق فلم استمع لحديثك عنها منذ البدء !

* * *

وفى بطء راح نديم يتكلم وبدا كأن الكلمات تعوزه ، وتساءل ليست أدرى كيف أوضح لك ، كم شخصا تظنهم يقرءون المحروسة أتظنهم ألفا .. ألفين .. ثلاثة آلاف ، الذين يمنهم القراءة فى مصر كلها لا يتجاوزون بضعة آلاف !

هذه هى المشكلة ، افكر فى مجلة يستطيع شخص أن يجلس فى دائرة صغيرة أو كبيرة ويقرأ بصوت مرتفع فلا تنفض الدائرة قبل أن ينتهى من القراءة !

وضحك سليم نقاش ضحكة قصيرة نمت عن خيبة أمله ثم استدرك خانقا ضحكته ..

ــ ولكن هذا يتوقف على ما تكتبه فى مجلتك !

ــ أعرف ، وأفكر فى كتابة شىء يستهوى الدائرة ، شىء بعضه مكتوب باللغة العامية ، شىء يستطيع كل فرد فى الدائرة أن يحكيه فى بيته ولاصدقائه دون أن ينسى جزءا منه ، شىء يمكن أن يضحكهم قليلا فلا يلومونه لأنه أضاع وقته فى الدائرة ، بل يلومونه لو أنه نسى مكانه فيها ، شىء يحمل للناس ما أود أن أقوله وما ينبغى أن يسمعوه !!

وصمت نديم وكأنه أوضح كل شىء ، ولم يبق الا أن يسمع رأى سليم نقاش الذى اعتصم هو الآخر بالصمت !

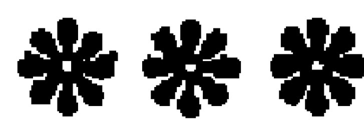
ـــ نريد شيئاً مثل مجلة « أبو نضارة » شيئا يودى باللغة العربية أولا ثم يودى بك فى النهاية ! هكذا تكلم سليم نقاش أخيرا .

ـــ وحين يكون أمامك شعب يصاب بالعمى حين ينظر الى الحروف والكلمات ، ألا يستحق أن تفكر فى مصيره كما تفكر فى مصير لغته التى يمكن أن يسعى هو لانقاذها حين يدرى أنها وسيلة انقاذه ؟

ـــ وحق يسوع يانديم لم أجد فى حياتى كلها شخصا مثلك يكره الطرق الآمنة والمألوفة ، ولتفعل ما يحلو لك مادمت بستدفع لى نفقات الطباعة ، ثم أضاف متسائلا :

ـــ هل فكرت فى أن المجلة ستحتاج الى مال للطباعة والورق ؟

أما أنا فلن أتقاضى منك مليما واحدا لكى أعلمك أسرار المهنة . . وتحولت تقطيبة وجهه الى ابتسامة متراخية ، وهو يتابع فهذا جزء من رسالتنا للمصريين !



وفى الحقيقة أن « نديم » قد فكر طويلا فى الموضوع ، صحيح أنه لم يكن بائسا فى هذه الأيام وأن راتبه الذى كان مقداره عشرة جنيهات قد كفل له مطالبه التى كانت دائما متواضعة ، ولكنه لم يكن فى يوم من الأيام صاحب مال مدخر ، وحين فاتح ثالوثه المخلص فى موضوع المجلة ، واستغرقه الحديث عن الوسائل والأهداف طيلة الوقت كان محمود واصف هو الذى باغته بالسؤال

عن المال الذى كان يعرف اكثر من غيره أن « نديم » لا يملك منه شيئا ، لحظتها أطرق نديم قليلا ، ثم قال :

ــ اظن ان الدكتور حسن سرى ورستم بك العلايلى يمكن أن يمولا المجلة ، كنت قد لمحت لهما بفكرتى فأظهرا ..

وزار محمود واصف مقاطعا :

ــ منذ لحظات كنت تتحدث عن شىء صليب ، شىء لا يفلت من يديك والآن تبحث عمن تسلمه هذا الشىء !

ــ انهما كما تعرف ..

ــ أعرف شيئا واحدا يا نديم هو انه اذا نجحت فكرتك فسوف يتصرفان غدا أو بعد غد على اساس أن المجلة ملك لهما ، بل ربما ظنا انك أنت ملك لهما كذلك !

ــ كيف يمكن اذن تدبير المال اللازم ؟

ــ متى كنت قادرا على هذه المشكلة ؟ ما كنت بدونى تساوى مليما واحدا !!

ــ لكن كيف ؟

ــ وهل كنت اخبر احمق مثلك بمبلغ ادخره لزواجى ؟

ــ مستحيل ، قد يفشل الموضوع كله وحينئذ ...

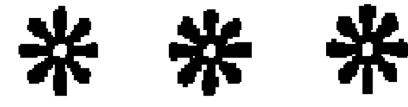
ــ يكون هذا من حسن حظ المسكينة التى كانت ستصبح زوجتى .

وحصل نديم على تصريح بمجلة أسبوعية اسمها « التنكيت والتبكيت » بنفس الأسلوب الذى حصل به من قبل على تأييد الحكومة لجمعياته ومدارسه ، وربما لم يبذل آنذاك نصف الجهد الذى بذله فى محاولته السابقة ، كانت الحكومة فى ذلك الوقت الذى بذله فى محاولته السابقة ، كانت الحكومة فى ذلك الوقت مشغولة بهمها الثقيل الذى يزداد ثقلا مع الأيام ، واذا كان الشعب بطبقاته قد اختلفت نظرته لحادثة « قصر النيل » التى أصبحت من بعض الوجوه تشبه مرآة لا يطالع الناظر اليها غير صورته ، فان القصر بحاشيته من ناحية ، ورياض باشا وحكومته من ناحية أخرى وقعا فى خطر اختلاف النظرة ذاته وفشلت الحادثة فى أن تقرب بينهما ، فبينما عجز رياض باشا عن تفهم المعنى الحقيقى للحادثة ولم ير فيها الا مجرد تهور ما كان يجرؤ الضباط الفلاحون البلهاء على القيام به لولا تأييد البارون دى رنج وظن انه عالج الموقف أعظم علاج حين أدى ارتماؤه تحت قدمى انجلترا الى تغيير القنصل الفرنسى ... !



كان الخديوى وحاشيته التركية أكثر ادراكا للمعنى الخطير الكامن فى هذه الحادثة التى نمت عن ميراث مئات السنين من الكراهية للجنس التركى كله ، فراح الخديوى الذى لم يجرؤ على مواجهة هذه الكراهية بشكل مباشر ، والذى كان يظهر دائما عن طريق رسله ووسطائه للضباط غيرها .. راح عن طريق الأمير يوسف كمال يلجأ الى أسلوب المؤامرة والخديعة بهدف التخلص من زعماء الضباط واحداث الفرقة بينهم ، يفعل هذا من وراء حكومته التى كانت تجد نفسها فى أحرج الظروف بعد كل مرة ينجح فيها الضباط فى كشف هذه المؤامرات واحدة بعد الأخرى .. ! واثبات أن القصر وراءها بالتدبير وبالمال ... ! وفى الظروف

التى بلغ فيها هذا الانقسام أشده نجح نديم فى أن يظفر بتصريح لمجلته ، ونجح أيضا فى أن يبصر طريقه الجديد الذى بدأت تتضح فى ضوء هذا كله دروبه ومعالمه !



وغرق نديم بين الأوراق التى يريد أن تصبح بعد أيام أو أسابيع ما يسميه « التنكيت والتبكيت » ، وراح يكتب ويشطب ويعيد الكتابة والشطب فى شقة صديقه أحمد سمير التى كانت تحتل الطابق الأول من نفس البيت بعيدا عن ضجيج أولاده ومشاكلهم التى تقاسمها بصبر ورضا أبوه وأخوه عبد الفتاح الذى كبر وتقدم ليشارك أباه فى تحمل أعباء الأسرة ، وبعيدا عن مشاكل المدرسة والجمعيات التى تقاسمها محمد أمين ومحمود واصف ، أما أحمد سمير الحالم بأن يصبح يوما كاتبا صحفيا فقد ترى « نديم » فى شقته وراح يدبر مع سليم نقاش أوراق المجلة ، ويتلقى على يديه أسرار المهنة التى كان سليم كاهنها الأعظم ليحمل بدوره عبء الاشراف على طبع المجلة وتصحيحها !



ورفع نديم رأسه عن كومة الأوراق امامه حين شعر بالباب يفتح ويغلق وبأحمد سمير يدخل بقامته المديدة وابتسامته الحالمة دائما والقى على كومة الأوراق نظرة كلها فضول وتطلع :

— متى أستطيع القاء نظرة طويلة ؟ وجلس بجوار نديم ..

— حين انتهى أعدك بأن تكون أول من يقرؤها .

— وهل فى نيتك حقا أن تفرغ منها ؟

وضحك نديم وقال :

ـ لابد من اعداد مادة تكفى لعددين أو ثلاثة على الأقل

ـ تريد أن تنفرد بكتابتها ؟

ـ وحتى لو أردت فهل تظنني أقدر ؟ .. ثم تابع وهو يشعل سيجارة ويقدم أخرى لأحمد سمير :

ـ سأفتح ابواب المجلة لمن يوافقنا فى المشرب .. أريدها مكانا يلتقى فيه الكتاب والقراء جميعا . أريدها جمعية خيرية كبيرة تتسع للشعب كله ويصبح لها فرع فى كل بيت .

***

وبدأ وجه نديم فى تلك اللحظة وكأنه يبصـــــر حقا جمعيته الكبيرة ، يشاهد الدوائر وهى تتجمع ، وتتفرق لتتجمع من جديد ، دوائر يتوسطها رجل فى يده نسخة من المجلة يحرص عليها حرصه على مكانته فى الدائرة .. دوائر تتسلى بتنكيته وتبكيته وتكتشف وهى لاتزال تضحك انها هى وليس أحدا آخر موضوع التنكيت والتبكيت ، دوائر تســـــتوعب حلمه ، وتحمله فى حركتها المتمدة واللامتناهية ، حلمه الذى ينسجه هنا ولأول مرة فى صفاء لا يبدد جنون الناس وصخبهم ، لم يتصور يوما أن يسحره الهدوء ، وأن يدير ظهره للحشد الذى كان يفتنه ويمنحه أعظم قدراته ، ولو تكلم فى هذه اللحظة .. لو وجد الشجاعة الكافية لقال لصديقه (الذى كان ينظر فى شبه ذهول الى تلك الاستغراقة التى أخلد اليها (نديم) لقال له : لست أريد أكثر من هذا المكان الهادىء والأرملة الجميلة، وأظل أكتب لكم واكتب تنكيتا وتبكيتا يحمل الى كل الدوائر والحلقات ضحكة حلوة صافية ، ضحكة تغسل هموم القلب ، وتزيل الغشاوة عن العيون ، التى عميت نجاة عن طريق خلاصها وراحت تنتظر النجدة من غير نفسها ولست أريد شيئا أكثر من أن تكون معى الارملة الجميلة المسكينة ، لماذا يضربها هذا السكير القذر بدلا من

ان يحنو عليها ويلاطفها ، كم تبدو جميلة حين يذهب عنها الخوف ! حين تجد دفء الأمان والحنان ، وعبر النافذة البحرية تسللت حفنة هواء بارد تنسمها نديم فى شغف ، وتحركت فى أعماقه شهوة جارفة للحياة .. للامساك بها فى أية صورة من الصور .. كانت الارملة الجميلة أنقى وأرق هذه الصور ، ولم يجرؤ أحمد سمير على أن يخدش الصمت الذى فرضه نديم بتلك الاستكانة الراضية !
وكان نديم هو الذى بدأ ذلك الخدش حين راح يحى لصديقه قصة « ابو دعموم » وحدها وبعد ان حذف أروع جزء فى القصة ، كان يريد أن يسكب عواطفه الجياشة فى شخص أو شىء ، وتساءل فى نهاية القصة التى بدت لأحمد سمير كلغز فلم يكن يفهم اهتمام نديم بمصير مثل هذا الصبى ، وهو الذى لايكاد ينظر الى أبنائه ، تساءل نديم : اى شىء يمكن أن يكون قد حدث له ؟ اى شىء يمكن أن يمنعه من لقائى بالمنصورة ما لم يكن قد الم به مكروه ؟

ـ كان أولى بأمه أن تهتم بمصيره بدلا منك

ـ وهل تملك هى مصيرها ؟

ـ كان يمكنها الا تتزوج !

ـ حقــــا ؟

ـ اجل .. يمكن أن يرغموا فتاة على الزواج أما أرملة ؟

وفكر نديم : هل يمكن أن يفهم هذا الصبى الغر فى مثل هذه الأمور ؟

ولاذ نديم بالصمت من جديد ، ويبدو أن سنة من النوم أخذته وحين فتح عينيه ضبط « أحمد سمير » متلبسا بقراءة كومة الأوراق، لم يغضب نديم ، سأل « أحمد سمير » :

ــ ما رأيك ؟

لحظتها فقط بدا الارتباك على أحمد سـمير ، كان ما قرأه شيئا يختلف عن كل ما عرف من الصحف والمجلات ، كانت الصحف مكانا للاخبار وللمقالات ، ولم يكن ثمة مكان لغير المقالات ، وفى احيان قليلة قصيدة من الشعر ، أما هذه فلم يكن فيها الا مقالة اكتشف فى نهايتها أنها احدى حكايات نديم التى تشبه الألغاز أما بقية العدد فقد كان مجموعة من الحواريات التى تدور كلها بين محتاج جاهل (فلاح) ومحتال طماع (خواجة) وبين « زعيط ومعيط » ويدور بعضها فى « سهرة الانطاع » وبعضها فى « أحد المقاهى » وبعضها فى بيت « عمدة ريفى » ، كانت شيئا فيه « رائحة من رواية الوطن » وكأن الشخصيات نفسها قد تركت مسرح زيزنيا وراحت تتجول فى الريف والمقاهى وبيوت الأعيان ، كانت شيئا يشبه حياة نديم نفسها وقد أخذ نديم جزءا من هنا وجزءا من هناك وأفرغه فى كومة الأوراق هذه ، واستجمع أحمد سمير شجاعته وقال لنديم هذا الرأى ، وكأنه يود أن يسأل :

ــ أهذا حقا ما كنت تريده ؟

***

كان صيف ١٨٨١ قد بدأ ، وكانت حادثة « قصر النيل » قد أصبح عمرها اربعة أشهر حين بدأ شهر يونيو من نفس العام وهو زمن كاف بالنسبة لأية حادثة لكى يجردها من عناصر الاثارة والغموض وان يفصح عن معالمها وأن يهيىء لها مكانا داخل أو خارج الذاكرة ، وكان الفلاحون البائسون الذين أرسلوا « عرائضهم » لعرابى قد ملوا الانتظار ، وأما الأعيان من مالكى الأرض فقد كان مجرد بقاء الحكومة وعلى رأسها رياض باشا طوال هذه الشهور جديرا بأن يجعلهم يتذبذبون هنا وهناك ويندمون على ما فرطت به ألسنتهم فى أشهر الشتاء ، وفى مدينة الاسكندرية

حيث تبدو الأمور الخافية أكثر وضوحا وحيث كانوا يعلمون أن الصراع الدائر والمستور بين الضباط والحكومة والخديوى بحاشيته ذلك الصراع الذى تتداخل أطرافه كالأخطبوط لايزال محتدما تحت السطح الساكن ، ولا يستطيع اكثر الناس حكمة أن يتنبأ بنتيجته . فى الاسكندرية بدأ رجال الادارة يرون فى مجرد بقاء الأحوال انتصارا لهم ، وبدأ التجار والموظفون يخفون انتظارهم لنتائج هذا الصراع فى البحث عن شىء يديرون حوله أحاديثهم فى المقاهى سهرات الصيف الممتعة .. وفى ٦ يونيو سنة ١٨٨١ وفى هذا الجو المشحون بالانتظار والقلق واليأس والأمل صدر العدد الأول من مجلة « التنكيت والتبكيت » .



يــوم الأحــد

على نحو هادىء وربما فى شهر أو شهور بدأ يوم الأحد ، وهو اليوم الذى تصدر فيه مجلة « التنكيت والتبكيت » يبرز خلال ايام الاسبوع واذا كان الأحد هو اليوم الذى يذهب فيه المسيحيون الى الكنيسة ، فقد أصبح يعنى بالنسبة للمسلمين وللمسيحيين ولليهود كذلك شيئا جديدا منذ ذلك التاريخ .. !



فالشعب المصرى رغم اختلاف نظرته الى شئون العقيدة لم تختلف يوما نظرته ولا حاجته الى النكتة التى كانت وسيلته للتعبير عن افراحه وعن همومه كذلك ، وربما لم يكن نديم قد فكر فى هذا كله بقصد وتدبير حين اختار هذا الأسلوب لمجلته ولكن « نديم » نفسه كان قد أدرك على نحو مباشر كيف اتفقت نظرة الناس الى حياته رغم اختلافاتهم حين كانت هذه الحياة نكتتهم المفضلة ، وكأنه قد أصبح نوعا من العملة ، واذا كان قد اختار هذا الأسلوب

فلأنه كان هو ، ولا شىء أكثر ، ولم يحدث سوى تغيير بسيط فى دوافع النكتة وأهدافها ، كانت قد أصبحت « تنكيتا وتبكيتا » .!



وكان حامد الأعسر قد أدرك نصف هذه الحقيقة ، حين طالع العدد الأول من مجلة نديم ، وكان يذهب احيانا الى مقهى « كليوباتره » برفقة زميله يعقوب زخارى وكانت نغمة السخط التى بدأ يرددها فى الماضى قد حلى وقعها فى أذنيه ، فأصبحت تسليته المفضلة ووجد فى مجلة نديم أعظم تبرير .

ــ قلت لكم من البداية لا فائدة فيه ليس نديم سوى مهرج ، ملأ كراريس التلاميذ بتهريجه ، وحول الخطب الى تهريج ، واليوم يفعل الشىء نفسه بالصحافة ! فأى أمل ترجونه منه ؟

وحين لمح نظرة شك فى بعض العيون راح يقرأ لهم حوارا تحت هذا العنوان « تخريفة » :

ــ لست أنا الذى أقول ذلك انه هو .. !

واستمر يتلو بصوت مرتفع الحوار بين الأب والابن وكان الأب عائدا لتوه من المقهى الذى يستمع فيه الى قصص الشاعر على الربابة :

ــ أبوك رزىء بمصيبة عظيمة .. فقال الابن :

ــ هل مات أخى ؟

ــ كان أهون

ــ هل هذم البيت ؟

ــ كان أهون

ـــ اصدر عليك حكم بالسجن ؟

ـــ كان اهون

ـــ سرقت نقودك ؟

ـــ كان أهون

ـــ ما الذى اصابك يا ولدى ؟

ـــ الليلة اخذوا عنترة أسيرا فهات الكتاب وخلصـــــه والا قتلت نفسى .

ـــ أتتكدر من حكاية مكذوبة وقصة كلها تخريف .. فصرخ الأب :

ـــ انت تشتم عنترة يا ابن الـــ .. ونزل عليه بعصاه ، فخرج الولد وهو يسب الجهل ، فقابله احد الجيران وسأله عن حاله فقص عليه قصته مع والده فقال الجار :

* * *

ـــ طالما قلت لأبيك فضك من عنترة وتعال اعمل زغبى فما سمع كلامى ، فضحك الولد من سخافة عقل الاثنين وقال ! لاشك ان الجنون فنون ! وكان صـــــوته اثناء القراءة قد اجتذب بعض الجالسين عدا من كانوا حوله ، وطلبوا اليه اعادة القراءة .

وكانت نتيجة التجربة مثيرة له هو شخصيا ، كان بعض من جاءوا من انصار عنترة وبعضهم من انصار خصومه ، واتفق الفريقان لأول مرة ضد نديم ، ووجد حامد الأعسر نفسه لأول مرة أيضا يدافع عن نديم !

فى فروع الجمعية ، فى القرى والمدن ، كانت حواريات نديم الأخرى تجمع الناس الذين طال انتظارهم له ، وطال شوقهم اليه ، كان نديم هو الذى جعلهم يكتشـــــفون أن آيات القرآن الكريم والأحاديث والأشعار يمكن أن تعبر عن حياتهم ومشكلاتهم وليس فقط عن الجنة والنار وأبطال ماتوا من سنين ، وحياة ليس الى رجوعها من سبيل ، وهاهو الآن يفعل أدهى الأمور فيجعل من الصحف التى كانت ـــ مثل المنشات والعصى ، والثياب الأنيقة ـــ جزءا مكملا للأفندى فى ذلك العصر والتى كانت تتحدث عن أشياء لا تعنى سوى الحكومة ولا يفهم فيها غير الأفندية والبكوات ، ويجعل من مشكلات حياتهم اليومية ، والدائمة الموضوع الوحيد المتكرر فى كل حوارياته ، ويتيح لكل من يعرف القراءة ويملك ثلاثة قروش أن يضمن لنفسه ولاء الدائرة التى تلتف حوله لتســـــمع وتضحك وتفكر فى نهاية الأمر ، ولم يتردد بعض من يملكون هذه القدرة فى الافادة من هذا الولاء فى قضاء بعض مصالحه ، ولم تبخل الدائرة بدفع ثمن أقل بكثير من فرصة الاستماع والضحك وفرصـــــة اعادة القصة أو الحوار لمجتمع آخر واكتساب اهتمام الآخرين بأيسر السبل ! واقتحمت حواريات نديم كل مكان ، دروس التلاميذ ، والمقاهى وجلسات السمر فى البيوت ، وكانت بالنسبة لمن عرفوه فرصة لتجديد ذكرياتهم ، والاعتقاد بأن هذا الرجل لن يتركهم فى حالهم واذا كان قد قبع فى الاسكندرية فلأنه مصمم على أن يواصل رحلته وسعيه الى مدى بعيد ، وبالنسبة لمن لم يعرفوه كان سؤالا ملحا ومضنيا من هو ؟ وما الذى يريده ؟ وكانت الاجابة انتظارا مســـتمرا ليوم الأحد ! واعتقد الأعيان والذوات أنهم قد استراحوا منه بعد أن تلهى بهذه الأوراق التى كانوا بدورهم يتلهون بها أحيانا فيضحكون حين يصور الحوار جهل الفلاح أو سذاجته ويلعنون « نديم » وحين يصور غباء الأعيان أو سفههم فيما يسميه

« سهرة الانطاع » أو « غباء التقليد » كانوا يضحكون وينتظرون بدورهم يوم الأحد !

* * *

وفى أوتيل أوربا كان « حسين فهمى »يعتقد بعد قراءة أولى سريعة للمجلة أن « نديم » قد هدأ أخيرا وهمد بعد أن فشلت رحلاته للأقاليم ، وأنه عرف أخيرا مكانه الحقيقى ، كاتب تسليات وأن كان هو شخصيا يعتقد أن تسلياته تفقد نصف قيمتها حين تتمسح بمشكلات الناس ، وكان يبشر بآرائه تلك وسط مجموعة من جلسائه وجسده البدين يهتز كلما تطوع احدهم بتذكيره ببعض الحواريات ، ولكن احدهم تطوع بتذكيره بشىء آخر لم يكن حوارا .

ـ « مجلس طبى على مصاب بالأفرنجى ، تقصد هذا ؟

ـ نعم

ـ انه كلام ثقيل الظل مثل كلام نديم حين يكون جادا .

ـ انه تنديد بالحكومة وبالمراقبة الثنائية .

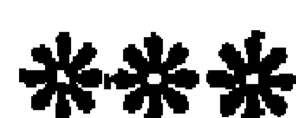
واهتز « حسين فهمى » فى ضيق ، فلم يكن قد أتم قراءة الموضوع ولم يفهم منه شيئا كهذا ، وتساءل :

ـ كيف ؟ وهل يجرؤ ؟

وأدرك التابع النحيل الذى كان يظن أنه يقدم لسيده فرصة ذهبية يخفف بها غيظه من نديم نوع الحرج الذى وقع فيه ... فقال متراجعا :

ـ ربما اكون قد أخطأت الفهم .. ولكن هذا ما بدا لى ..

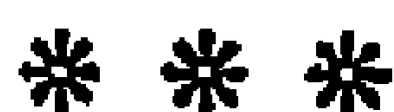
ولم يفكر « حسين فهمى » فى أكثر من الفرصة التى سنحت ، وجىء بنسخة من المجلة ، وراح التابع النحيل يقرأ ويقرأ ثم يتف ويتساءل من يكون المصاب الجميل فى هذه القصة ؟ ومن هم أهله الذين أهملوه ؟ وأسلموه لمن أغواه وجعله يسقط فريسة المرض ؟ ولماذا يسمى المرض بالداء الافرنجى ؟ ان الأمر يصبح واضحا حين يقول المريض لأهله معاتبا : انكم تركتمونى لصاحبى فعرضنى لمن لم أعرف طبعه ولاعادته ولا لغته ووكل بى من يسلك بى سبيل الغواية حتى أصبت بالداء الافرنجى فلم أعبأ به فى أول الأمر و ..



وفى تلك اللحظة فقط لام حسين فهمى نفسه لأنه لم يهتم بقراءة الموضوع جيدا وخشى أن يسبقه أحد بهذا الكشف الرائع الى المحافظ وانتبه الى تابعه وهو يقرأ « وكنت أغالب هذا الافرنجى حتى أصل الى مقرى فأعالج نفسى بحشائش تربتى وعقاقير أرضى من يد اطباء بلادى وصيادلة ديارى »

— أيكون لهذا كله معنى ســوى التنديد بالمراقبة الثنائية وبقانون التصفية ؟

كان التابع النحيل هو الذى يسأل وحين صمت الجميع راح يبحث عما يؤيد اتهامه ، ما هو رأى أطباء بلده ؟ انهم يطلبون من أهل المريض « أن يعنوا بخدمته وتطهير اعضــائه وحفظه بحيث لا يتركون الغرباء يتولون خدمته ، ولا يمكنون الأجانب من الوصول اليه خوفا من افســادهم العلاج وســعيهم فى اتلافه اكثر مما صنعوه » !! انه يذكر الأجانب صراحة هنا يا سيدى ..



وفى مكتب المحافظ راح حسين فهمى يبرهن على ذكائه ويقدم ادلة الانحراف ، وهى هذه المرة مكتوبة وليست كلاما فى الهواء .

وقال المحافظ ، وهو يقلب نسخة أخرى من المجلة كانت فوق مكتبه ويثبت منظاره السميك على عينيه :

ـ لكن ليس عملنا هو أن نحاسبه على ما يكتب ، هذا عمل مراقبة المطبوعات ، ثم تابع وهو يضرب بيده على المجلة والمكتب معـــــا :

***

ومع ذلك فلو كنت تحمل على كتفيك راسا حقيقيا لفكرت فى طريقة اخرى ، طريقة لا تجعل منه شهيدا أو ضحية يتفجع عليه أولئك الحمقى الملتفون حوله ، طريقة تدمر غروره الملعون وتدمغه كلص ومهرج !

وخيم على الرجلين صمت ثقيل قطعه المحافظ :

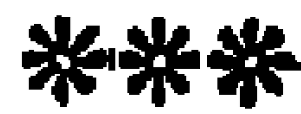
ـ هل تصدق ؟! انه يريد أن يعيد تمثيل رواية « الوطن » بمناسبة ذكرى جلوس الخديوى على العرش ! انه يستغل كل مناسبة ليسرق ليزيد المطبوع من مجلته ، ليثير المشاعر ضـــــد الحكومة فى ظروفها الراهنة الصعبة ، ونكتفى نحن بالتفرج على هذا كله !

ـ بمقدورنا أن نستغل هذه المناسبة ، واعتقد أن افتعال مشاجرة بالمسرح يمكن أن يكون سببا كافيا لاغلاقه الى الأبد .

ـ تظن ذلك ؟ الأمر يستحق التفكير قليلا ، ويتوقف على من تعتمد عليهم ! لا نريد محاولة بلهاء كتلك التى انتهت بسخريته من صديقك السكير فى بار تريسته !! لا نريد محاولة تنتهى باحراجنا بدلا من احراجه !! ولا تفعل شيئا قبل أن تخبرنى به .

ومع ذلك ، ورغم انخراطهما فى التفكير والتدبير فلم ينس احدهما موعده مع « التنكيت والتبكيت » فى صباح كل أحد .

لم يكن الحاج محمود المحلاوى صاحب منسج كبير ، ولكنه كما يؤكد اهل مدينة « المحلة » صاحب قلب كبير حقا ، وحين الحق ذلك الصبى النحيل المدعو « سالم » بالعمل فى منسجه لم يكن ذلك لأنه فى حاجة الى عمله بل لأن الصبى الذى كان يبحث عن عمل والذى عرف فيما بعد أنه كان هاربا ويتيما ، كان هو الذى يحتاج الى مكان يأوى اليه ورغيف خبز يأكله ، وربما كان السبب الحقيقى أن الصبى اعجبه ، وكما قال الحاج لبعض أصحابه « دخل قلبى » وفى الحق أن حرفة النسيج وقتذاك كانت تعانى كغيرها من الحرف وربما أكثر من غيرها ، فقد كانت المنسوجات الأوربية الأجود وأحيانا الأرخص تملأ الاسواق ، ولكن ماذا يضير الحاج محمود من بقاء صبى لن يتقاضاه اجرا سوى طعامه ومسكنه .. !



وفوجىء ذات يوم بالصبى يقرأ فى مجلة اسمها « التنكيت والتبكيت » ولم يدهش الا لسبب واحد .. كيف يشترى الصبى بالقروش القليلة التى كان يمنحه اياها بين وقت وآخر مجلة للقراءة ، وطلب منه أن يقرأ له فيها ، وأصبح هو الذى يدفع له ثمنها كل أحد ليستمتع بحواريات نديم ، وسأل الصبى لم لا تذهب لأستاذك ؟ وكان الصبى قد حكى له جزءا من قصته :

— اذا كنت قد ضقت بى . . . .

— لا .. لست اقصد شيئا كهذا ، لكن مادمت تحبه ومادام .

— انه لا يبقى فى الاسكندرية ، انه يطوف بالبلاد ، ولا يبقى فى بلد ! وحين اردت لقاءه فى المنصورة كان قد ذهب الى قرية مجاورة ، وكلما سألت عنه فى مكان أجده فى غيره !!

وقرأ له الصبى فى يوم أحد اجابة عن سؤال كان عنوان مقال طويل هذه المرة وكان السؤال : « بأى سبب ماتت صنائع الشرق وافتقر أهله ؟ وبأية وسيلة تحيا وتعود ؟ »

وحين استمع الحاج محمود الى اجابة السؤال الأول هز رأسه موافقا وسأل الصبى :

ــ قبل ان يعمل أستاذك مدرسا أتعرف ماذا كان يشتغل ؟

ودعاه للاستمرار فى القراءة بعد ان هز رأسه نفيا .. ثم دعاه لأن يعيد له ما قرأ بعد أن سمعه لأول مرة ، وكان ذلك فى اليوم التالى ومعه بعض التجار والنساجين من أصدقائه وقرأ الصبى بصوت مرتفع :

« فاذا اجتهدنا فى مساعدتهم على أفكارهم الحسنة لزمنا ان نسعى فى عقد جمعية لكل طائفة تحت رئاسة عقلائها ، فاذا طرأ عليهم عمل من الاعمال كان أمره مفوضا لمجلس الرؤساء من الطائفة يساوم من يشاء ويأخذ ما يشاء ثم يوزع فيه من العمال بقدر ما يحتمل وعندما يطرأ غيره يوزع فيه من لم يكن فى الأول وهكذا ، وهذا العمل يلزمه رأس مال يديرونه به فعلى رؤساء الطائفة أن يفرضوا على كل صانع من السهام على قدر قوته واقتداره ، والمجموع يكون فى صندوق تدور به الأعمال وعندما توزع الأرباح يحجز المجلس من كل صانع جزءا يضيفه لسهامه حتى يصبح ذا ثروة من حيث لا يشعر !

***

واذا تمت هذه المبادىء ، وعقدت جمعيات الطوائف ، وفتحت صناديق الاقتصاد اختصتهم الحكومة بأشغالها لما تراه فيهم من الثقة والنشاط وظهرت الصنائع فى عالم الوجود بحالة لا يتصورها العقل ، فان العقل المصرى ينبه بالاشارة ، واذا لم يحدث ذلك

فلا نلبث أن نرى أهل الصـــناعة (وهم الســـواد الأعظم) خدما للمتمولين (وليتهم منا) يصـــرفونهم كيف شاءوا ، ونفقد رجالنا بلا حرب ولا وباء وتعدم الهيئة الاجتماعية قوتها بتعذر التحصيل من فقير لا يأخذ من سيده الا القوت » .

ـ كلام لا يقوله الا رجل لا يعرف السوق ولا الصنعة

ـ من يده فى الماء ليس كمن يده فى النار !

ـ ومع ذلك فأعتقد أن الأمر ممكن لو توافرت الثقة

ـ لو توافر المال ، الصناع لا يجدون قوت يومهم

ـ الثقة ! اذ ماذا يمنع الأغنياء من ذلك ؟

ـ وماذا يدفعهم الى ذلك ، المشكلة خاصة بأهل الصناعة لا بهم !

ـ ورغم ذلك فلا يبدو أن ثمة حلا ســـوى ما يقوله هذا الرجل !

وقال الصبى هذه المرة :

ـ ما رأيكم لو كتبت له ؟

ـ تكتب له ماذا ؟

ـ رأيكم فى هذا الكلام !

وبدا لهم الموضوع كمزحة ، وبدا للصبى كفرصة ، كيف لم يفكر فى أن يكتب له مرة أخرى ، فالخطاب حتما سيلتقى به !

وكتب له رسالة قالوا فيها كلاما كثيرا لا يخـــرج عن هذا

السؤال : من أين المال ؟ ولهذا السبب ولغيره ظلوا يرقبون دائما يوم الأحد !

* * *

وغرق أحمد سمير فى أكوام الرسائل ، وكان يحلو لسليم نقاش أحيانا أن يلقى على بعضها نظرة ، ويتعجب هذه المرة من جنون الناس لا من جنون نديم : وأصبح أحمد سمير خبيرا فى قراءة الخطوط وحل الغازها.

واثر المقال الأخير عن أسباب تدهور الصناعة فى الشرق اتفقت لأول مرة الخطوط الرديئة والحسنة على سؤال واحد :

ـ من أين المال ؟

وكان بعضها يزيد : وهل ترك لنا قانون التصفية مليما ؟

وكان بعضها يسخر قائلا : اذا كنت تجهل الأمور فى هذا البلد فتفرج على رواية « الوطن » لتعلم كيف يعيش الشعب !

* * *

وأحس نديم وهو يقلب الكومة بنشوة جارفة ! ها هو حلمه يتسلل الى عيون الناس ويوقظهم ويثير تساؤلاتهم ، وراح يقلب الكومة من جديد ويقرأ كل شىء عدا الاسماء اذ ماذا كانت تعنى بالنسبة له الاسماء ؟ ها هو أخيرا يتحدث الى الحشد الأكبر .. الى الشعب ، وهاهو صوته يصل الى كل مكان والى كل طائفة ! وهاهى القضية التى يؤمن بها تشغل الناس وتقض مضاجعهم !

ـ ولكن ما يقولونه صحيح يا نديم .. وهل كنت تجهل ؟

كان محمود واصف هو الذى يسأل وقد رفع رأسه منذ قليل عن كومة الأوراق وكان نديم قد سمع الكلام نفسه فى أكثر من مكان ومن أكثر من شخص !

ولم يجب على سؤال محمود واصف .. فقط قال له سكتب مقالا آخر عن نفس الموضوع وسأرد فيه على كل شيء ، المهم أن تشرف أنت الآن على تدريب التلاميذ على الرواية الجديدة .

ــ العرب ؟

ــ نعم ، والقديمة كذلك .. سنمثل الروايتين معا !

***

وقبل كل الناس قرأ محمود واصف المقال وهو فى المطبعة ، كانت القضية تشغله جدا ، وكان يهمه أن يرى الطريقة السحرية التى يمكن أن يجيب بها نديم على سؤال كان يعتقد أنه لا جواب عليه ، وكان ايمانه بفكرة نديم ينطوى على بذرة شك قاتلة ، وان دعوة نديم لا تفتقر الى الصواب أو المنطق بل الى ما يمكن أن نسميه بلغتنا المعاصرة « الواقعية » كان قد قرأ رسائل القراء ، وكان واثقا أن المال يمكن تدبيره أما الثقة فكيف يمكن تدبيرها ، وكان الناس لسنين طويلة قد فقدوا الثقة فى الحكومة وفى الآخرين وفى النهاية فى أنفسهم .. وراح يقرأ المقال ولكنه لم يكن مقالا .. كان « مجلس أنس » !

***

وأفضـــــت المذاكرة « بمجلس الأنس » الى تقاعد الأغنياء وموت صناعة البلاد ، فقال البعض ما حل وثيق العروة الا فقد المال والثروة ، فلو كان بيدهم تجارة وبضاعة لملأوا الشرق بمحسنات الصناعة ، وما ألزمهم السكوت الا احتياجهم الى القوت ، فقمت وقلت : اذا فرضنا أن بمصر واسكندرية وطنطا ألف انسان من المغرمين بالشراب وألفى رجل من المتغزلين بهاتكات الحجاب ، وثلاثة آلاف ممن يفضلون الحشيش على الجان ، وخمسة آلاف من أصحاب الشغف بالغلمان ، وأردنا أن ننظر لما يجمع من مصـــرف

هؤلاء فى هذه السبل المضلة من غير تغال لرأينا مجموع ما يصرفونه فى الملاهى كالآتى تقريبا ، ألفا سكران فى ثلاثة أنصاف بيرة كل ليلة باعتبار النصف بقرش ميرى فمجموع ما يصرف فى العام ٣١٦٠٠٠٠ قرش ، وألفا رجل من عاشقى الغيد ينفق كل منهم من ماله فى كل شهر ثمانين قرشا فمجموع ما يصرفونه فى ١٢ شهرا ١٩٢٠٠٠٠ قرش ، وثلاثة آلاف من الحشاشين يصرف كل منهم قرشين كل ليلة فمجموع ما يصرفونه سنويا ٢١٦٠٠٠٠ قرش ، وخمسة آلاف من المتغلمنين يصرف كل منهم خمسين قرشا فى كل شهر فمجموع ما يصرف فى العام ٣٠٠٠٠٠٠ ، ومجموع ما يصرف فى الاقسام الأربعة عبارة عن ٩٢٤٠٠ جنيها ، ثم نفرض أن بقية أهل البلاد تصرف نصف هذا المقدار ، وبعض الأعيان والمتسترين يصرفون مقدار النصف أيضا فيكون المجموع ١٨٤٨٠٠ جنيها وهذا خلاف ما يصرف فى المجالس الخصوصية والهدايا والمعاجين والقمار والنمرة ، وخلاف من يشرب «« عشر كبايات » » بيرة أو عشرين « تعميرة » ، أو يقيم فى بيت الفحش شهرا أو يتخذ له مجلس ولدان كل ليلة ، فاذا فرضنا أننا فى احتياج الى معامل «فابريقات» نحيى بها الصناعة وضربنا العظيم منها فى الصغير فى خمسة وعشرين ألف جنيه لافتتحنا فى سنة سبعة معامل للصناعة واذا استخدمنا فى كل معمل مائة من تلامذة مدارسنا فى الكتابة والترجمة والتوكيل لوزعنا فيها ٧٠٠ من أهل المعارف ، واذا استخدمنا فيها ٥٠٠ من العملة فى كل معمل كان المجموع ٣٥٠٠ ، وبضميمة أهل المعارف اليهم يكون المجموع ٤٢٠٠ ، ثم نصرف النظر عن أرباح هذه المعامل ، وعما يزيد من أهل الخير ، ونقول : اننا اذا أدمنا على ذلك عشر سنين يكون مجموع المعامل سبعين معملا ، ومجموع من يستخدم فيها من أهل المعارف ٧٠٠٠ ومن العملة ٣٥٠٠٠ ، ومجموع ذلك ٤٢٠٠٠ رجل ، تشغل خمسة ملايين فى اعداد ما يلزم لصناعتهم

من المزروعات وغيرها ، وتصريف ما يصنعونه بالبيع والشراء والتسفير والشبل والجر والتوسط وغير ذلك مما تقتضيه تلك الأعمال وهذه ثروة لم تبلغها مملكة من الممالك فى مدة عشر سنين ثم هذه الثورة تكونت من اثنى عشر الف ضال فى وسط خمسة ملايين من الناس مع صرف النظر عن أرباح المعامل من أول سنة الى العاشرة ، فقام احد النبهاء وقال : ان المبلغ يصرف الآن من أهله فلم يفتح هذه المعامل من يأخذه ؟ فقلت له : لو كلفت نفسك بالسعى الى جمرك الاسكندرية ، ووقفت من دفاتره على مقدار ما يدخل من المسكرات لعلمت أن فى أوربا ألف معمل تشتغل على ذمة الشرق ، ولم يفتحها الا حساب القرش والقرشين الذى قدمته لك ، أو تفضل معى نزر البير والخمارات وقهاوى الحشيش ، وبيوت المومسات لتعلم أن العدد الذى قدرته لك لا يبلغ عشر ما تراه .



ورفع محمود واصف عينيه عن الأوراق ، لم يكن الموضوع قد انتهى ولكنه كان فى حاجة الى أن ينفض عينيه قليلا من هذا الحلم المروع ولم يكن فيما كتبه نديم جديد سوى الأرقام ، ولكنها كانت كافية لأن تجعل الموضوع واقعيا الى حد كبير ، وكان «محمود واصف » قد سمع « نديم » مئات المرات يردد فكرة « القرش والقرشين » ويضع كل أمله فيمن يملكونها لا أكثر ، وهاهو حلمه يتخطى حدود الأحاديث والخطب والحشود الصغيرة ، ويتخطى حدود الاحلام فهل يمكن ؟ هل يستطيع أن يصبح شيئا اكثر ؟ لقد كان هو يؤمن بأن الجمعيات لم تنجح الا بسبب شخصية نديم وحدها لا لأى سبب آخر ، ولآخر مرة كان نديم يبدو متعبا وضائقا وراغبا فى أن يحرر فكرته من حركة الجمعيات التى تثقلها مئات الأشياء ، فى أن يدفع بها الى الشعب .. الى الصناع والحرفيين

والتجار فى كل مكان لتنجح أو ليستريح منها ، ولم تمت بذرة الشك فى نفس محمود واصف ولكنها ظلت تنتظر بدورها يوم الأحد !!

***

وفى هذه المرة غرقوا جميعهم فى أكوام الرسائل ، وغرق معهم حتى سليم نقاش الذى تساءل فى غيظ موجها حديثه لنديم :

ـ كم أحمق تظنهم يسمعون تنكيتك ؟

واكتفى نديم بهز رأسه نفيا ، وكان العدد يفوق كل تقدير .. ودار رأس نديم وتعبت عيناه من الخطوط التى يتطوع أحمد سمير بفك ألغازها ..

ـ كيف كنت تحل رموز التلغراف ؟ كان محمود واصف يتساءل بينما كان نديم يفكر فى الجنون الذى يصيب الناس كلما حاول أن يخاطب عقولهم أو لعله مخطىء فالناس لم يفعلوا أكثر من أن يستعملوا لغته .. كانت الرسائل كلها تنكيتا وتبكيتا !

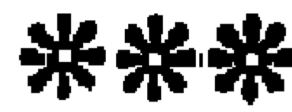
***

كان بعضها يناقش احصائية نديم فيزيد أرقاما هنا وينقص أرقاما هناك ، وكان بعضها يناقش معنى الاحصائية بالنسبة للناس، وكان يتساءل : كيف تطلب النجدة من هؤلاء الهلكى والبائسين بينما هم فى حاجة الى من ينجدهم ؟ وناقشها البعض بالنسبة لنديم نفسه وكان يتساءل : كيف وصلت الى هذه الاحصائية الدقيقة ؟ كن شجاعا وقل لنا كيف عرفت هذه الأرقام ؟ واستشهد احدهم بهذا البيت :

لا يعرف الشوق الا من يكابده
ولا الصبابة الا من يعانيها .

ودافعت رسالة بتوقيع « اسكندرانى » عن نديم بهذه الطريقة « كنت أصدق ما أسمع عنك من أنك سكير وأنك تهتم بصبيانك

لأشـــــياء تتجاوز أمور التعليم ، وأنك لا تجيد الخطابة الا بعد « تعميرة » ثقيلة ، ولكنى بعد قراءة مقالك الأخيرة أيقنت أنك برىء من هذا كله براءة الذئب من دم يوسف ، ولو كنت تفهم ما تعنيه « تعميرة » الحشيش بالنسبة لمن يشقى طول نهاره ولا يجد الراحة الا فيها ، لما جرؤت على هذا الطلب الذى يؤكد سذاجتك وايضا نزاعتك » !!



وكانت ثمة رسائل اخرى تناقش الموضوع بجدية ، وطلب نديم من أحمد سمير أن ينحيها جانبا فصنعت كومة هزيلة الى جانب التلال الأخرى ، كانت أكثر هذه الرسائل من المحروسة ، ودمنهور، والمحلة ومراكز الصناعة القديمة ، وكانت تتساءل : لم لا تفعل هذا عن طريق الجمعيات ؟ لم نسيت جمعياتك ؟ وضاق صـــــدر نديم بهذا السؤال . . أتكون المسألة قد انتهت به وبهم الى تقاذف المسئولية مثل الكرة ؟ ولعن نفسه ولعنهم ، ولكنه ظل ينبش ويهدم تلال الأوراق ، وينظر الى حلمه وهو يتمزق بين الجد والهزل ، ولكنه فى النهاية كان سعيدا ، بمنظر أكوام الرسائل وهى تتبعثر لتجتمع من جديد وحين تســـاءل محمود واصـــف : ألم أقل لك ؟ « شخط » فيه قائلا : ما الذى كنت تنتظره ؟ أن يتم كل شىء فى أيام أو أسابيع ؟ ثم تابع وهو يشعل سيجارة وكأنه يحدث نفسه :

ـــ يجب أن تواصل الجمعيات طريقها وأن تتبنى الفكرة .

ـــ تعنى أن تعاود رحلتك فى البلاد

ورمقه نديم بطرف عينيه

ـــ وماذا فى ذلك ؟

ـــ والمجـــــلة ؟

ـــ اكتب لها من أى مكان احل به

ـــ هل فقدت عقلك ؟

ـــ لا

كان نديم يجيب بجد ، فانفجر الجالسون بالضحك .. ثم تساءل بنفس النبرة الجادة :

ـــ هل انتهيت من تدريب التلاميذ على الرواية ؟

ـــ لا

قالها محمود واصف ب)يظ ثم أردف بنفس الغيظ :

ـــ هل تعتقد أنك التقطتنا من الطريق يا نديم ؟

ولم يجب نديم .. فقط نصحه بأن يدرب التلاميذ والا يضيع الوقت .

* * *

أما نديم فقد أصبح من حقه وحده أن يضيع الوقت ، لقد غدا رجلا ذا شأن ، مفكرا يجابه المشـــكلات ، ويضع الحلول ، صاحب مجلة ، يحتل ركنا فى مقهى « الاسكندرية » حيث تجلس شرذمة من كتاب الصحف مصريون وشاميون !

وهناك كان يلتقى بكاتب شامى هو « أمين شميل » كان قد أثار جدلا مع نديم بشأن مقاله « اضاعة اللغة تسليم للذات » وكان من الطبيعى أن يثير معه جدلا آخر حول اقتراحاته لانهـــاض الصناعة ، وهل أصبح وراء نديم شىء غير الجدل ؟

وكان نديم فى تلك الليلة يرتدى سترة زرقاء أنيقة تليق برئيس تحرير ، يدخن ، ويتحرك فى جلسته تلك الحركة السريعة كأن شيئا ما يتحرك تحت جلده أو تحت ثوبه ، وكان الجدل قد تطور من الجزئيات الى الكليات شأنه دائما بين الناس العظام ، وكان نديم يقول مؤكدا :

لا . . . ليست المسألة شرقا أو غربا أو مسلمين وغير مسلمين .

ـ وكيف تراها اذن ؟

كان أمين شميل هو الذى يسأل بصوته الهادىء العميق ، وكان قد قرر منذ لحظة رفضه لما سماه الحلول الجزئية وأن نمط الحياة الشرقية هو سبب المأساة وأن العلاج هو أن نتحول الى النمط الغربى ولو أدى الأمر الى استعمال لغة الأجانب أنفسهم !

***

ـ المسألة فى جوهرها مسألة تقدم وتأخر وهو أمر لا تكمن علته الأساسية فى الدين أو الأرض أو الجنس أو اللغة وتستطيع أنت أن تحقق التقدم فى أى بلد أو ملة أو أمة اذا عرفت جوهره واتبعت طريقه .

ـ البلاد الحارة لم تصنع تقدما حتى الآن ، والأجناس الـ . . كان أحد أتباع أمين شميل هو الذى يتكلم ، فقاطعه نديم :

ـ لقد عرفت البلاد البادرة والأجناس التى تسكنها أدوارا من التأخر ألعن من تلك التى عرفناها .

وتدخل الشيخ حمزة فتح الله صديق نديم القديم قائلا :

ـ التقدم الحقيقى فى العودة الى الدين .

ــ الدين بكل أنواعه هو علة التأخر ، ولم تنهض أوربا الا بعد ان تحررت من سيطرة الكهنة .

كان نفس التابع القصير المفتون بآراء أستاذه أمين شميل هو الذى يتكلم .

وحاول نديم تهدئة الموقف فقال :

ــ كل دين فى أوله يكون حاملا لجوهر التقدم ثم يأتى بعض رجال الدين فيفسدون الأمور .

***

وتساءل « صالح مجدى » عما يعنيه نديم بجوهر التقدم ، كان شاعرا عجوزا ولكنه كان يكره الكلمات غير المحددة ، وكان تلميذا لرفاعة الطهطاوى وكانت الأسرة العلوية قد تقاسمت دواوين شعره الحاد كالموسى ففاز محمد سعيد باشا المشجع لأن تكون مصر للمصريين بأبواب المديح فى هذا الشعر بينما انفرد الخديوى اسماعيل الذى شاء أن تكون مصر للأتراك والشراكسة بأبواب الهجاء المقذع المرير ، ولم يبادر الخديوى بقتله لأنه كان واثقا من أنه سيموت من تلقاء نفسه فى وقت قريب ولكن العجوز الماكر لم يمت الا بعد اسابيع من هذه السهرة !

وصمت نديم لحظات اندفع خلالها الشيخ حمزة فتح الله صارخا فى وجهه :

ــ **الدين الاسلامى صالح لكل زمان ومكان !**

كان نديم لايزال صامتا يفكر فى جوهر التقدم ، ولم تكن تلك أول مرة !

كانت الفكرة شغله الشاغل القديم وقد اجاب مرة على هذا السؤال فى احدى خطبه ، ولكن متى قنع سؤال كهذا بجواب

واحد ؟ كانت تتخايل لعينيه معالم رؤيا تتضح مع الأيام ، وكانت فكرة التقدم الانسانى كله تشغله خلال قراءاته فى التاريخ ، كانت تتجرد من كل أثوابها المؤقتة ، كان ينظر الى التقدم كسائح أبدى يتنقل عبر البلاد والأزمنة والاصقاع ويتكلم شتى اللغات ويبنى الاهرامات والمدارس والحصون والتماثيل ويكتب ويخطب ويشتغل بتحنيط الأجساد ويقيم المعابد والمحاكم وقد يطرد ويضرب ويمرض ويسجن ولكنه لا يموت أبدا ، ولا يستقر طويلا الا حيث يتوافر شيئان لعلهما ما يسأل عنه الرجل .

* * *

ــ العلم والحرية !

ــ فقط ؟

ــ التقدم قوة وهما سبيلها وتأتى بعد ذلك تفاصيل كثيرة !

ــ ليس هذا هو السؤال ! ان السؤال المهم هو من يملك هذه القوة ؟

ــ الكثرة .. الشعب أقصد ! وهذا ما ينبغى أن يميز التقدم فى عصرنا .

ــ وحين تكون القوة فى يد حكومة مستبدة ؟

كان صالح مجدى يواصل الاسئلة ، كان عجوزا لا يبالى بشىء .

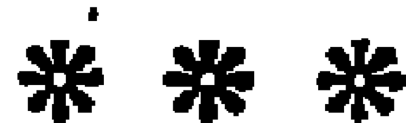
ــ يسعى الشعب للحصول على قوته ، كان نديم يتكلم وكأنما انتقلت اليه عدوى الشجاعة من العجوز اليائس .. وتابع نديم :

يجمع الشعب قواه المبعثرة ، يجمع قروشه القليلة ليتعلم ، ليبنى المصانع وحين يجد قوته يجد حريته !

وقال « حسن رضوان » لنديم وهو يمضى معه فى الطريق الى بيته ، وقد استمع الى مناقشة تلك الليلة دون أن يشترك فيها .

ــ ألا يعنى انضمام الجيش الى صف الشعب انه قد استرد قوته ؟

ــ قطعا انه يعنى الكثير لكننا كنا نتحدث عن اكتشاف الشعب لقوته الذاتية ، وقوته هو !!



ولم تكن تلك هى المرة الأولى التى يسمع فيها نديم مثل هذا السؤال من « حسن رضوان » الذى كان يرتدى الملابس المدنية حين يتصل بنديم رغم انه ضابط فى الجيش وضمن تنظيم الضباط الذى يقود الصراع الخفى الدائر بين الجيش والحكومة ، وكان قد افهم « نديم » أن الضباط ينتظرون اللحظة الملائمة ليضربوا ضربتهم وان مسألة الدستور أصبحت بالنسبة لهم مسألة حياة أو موت ، وانه يجب أن يضمنوا تأييد الشعب كله لحركتهم ، وأنهم ينظرون الى نديم كرجل قادر على ان يفعل لهم الكثير من خلال جمعياته ومجلته واتباعه وكان قد طلب من نديم أن يسافر للقاء عرابى بنفسه سرا فى المحروسة ، وطلب منه نديم أن ينتظر حتى ينتهى من عرض روايته فى ذكرى جلوس الخديوى على العرش ، وفى الحقيقة أن « نديم » كان يعطى نفسه الفرصة قبل أن يتخذ قراره النهائى ، كان يدرك معنى أن يصبح الجيش وهو القوة التى تحمى الاستبداد فى يد الشعب ، كان يدرك الآمال العظيمة ، ولكنه كان أيضا يدرك المخاوف العظيمة والأخطار التى يمكن أن تتعرض لها سفينة نوح وهى تواجه الانواء والعواصف ، لقد سمع الكثير عن اتصالات الضباط برجال الحزب الوطنى من كبار الذوات وكانت

فرنسا قد احتلت تونس منذ شهور دون أن تحرك تركيا ساكنا ، وانجلترا تتحرش وتنتهز الفرصة ، والخديوى بدوره ينتظر ويكرر محاولاته اليائسة ، وكان خوفه الأعظم من أن يغرق حلمه فى رسائل التنكيت والتبكيت لماذا ينتظر الناس دائما من يتحمل عبء حياتهم ؟ من الذى يصنع التقدم حقا القلة أم الكثرة ؟ لماذا كانت الرسائل الجادة تصنع زوبعة هزيلة ؟

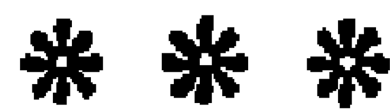


كانا فى طريقهما الى البيت ، وكان الظلام يغرق الشوارع عدا ذبالات من الضوء الشاحب تترامى تحت أعمدة مصابيح الغاز الواقفة كأنها تنتظر العائدين الى بيوتهم . وكان رجل عجوز يدفع امامه عربة يد محملة بالترمس كان فى طريقه الى البيت وعرف « نديم » وهو يمرق تحت مصباح جانبى فنادى على الترمس وقال لنديم :

ــ مساء الخير يا « أبو الندمان » ! لماذا لا تأخذ منى هدية للاحباب وابتسم نديم وحمل قرطاسا من الترمس ابى البائع فى البداية أن يأخذ ثمنه ..

وقال نديم لحسن رضوان وهو يودعه :

ــ قطعا سأقابله ، حين افرغ من تمثيل الرواية ! واختفى فى الظلام الشاب الوسيم الفارع الطول المدعو حسن رضوان .



وقبل أيام من اعادة تمثيل رواية نديم وصله رسول من دمنهور يدعوه لحضور حفل افتتاح مدرسة الجمعية الخيرية ، وعلى عجل أعد حقيبة ملابسه الصغيرة ، وانتقى مجموعة من التلاميذ

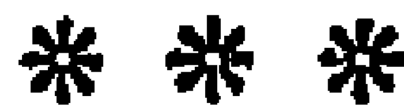
لتمثل في حفل الافتتاح أحدث حوارية كتبها نديم ، وصرخ محمود واصف : ولكن هذه المجموعة هى التى تستعد لتمثيل الرواية .

ـــ دربي غيرهم ، جمعية الخطابة ملأى بالتلاميذ النجباء .

ـــ لكن ما الضرورة لأن تصحب هذه الفرقة معك وتعطل جهدنا بعد كل هذا التعب ؟

ـــ لنقدم لهم المثل ، لنريهم البضاعة ، لنقول لهم : لسنا نرضى بتلاميذ إقل من هؤلاء ! هذه أفضل الطرق .

ـــ نعم افضلها لقتلنا .



وفى دمنهور ، وعلى المحطة وفى الشوارع ، استقبل نديم وفرقته استقبال الغزاة ، ومع أقداح القهوة وأثناء تناول الطعام ، كان الحديث فى جملته تنكيتا وتبكيتا ، وكان مجلس الأنس قد شملت بركته جميع المجالس ، وحاول نديم فى كل أحاديثه أن يؤكد أن الفقر الحقيقى هو الذى يصيب عقول الناس وارادتهم ، وانتهى حديثه بهذا السؤال : كان الفقر فى أوربا قبل أن يكون هنا فبماذا تقدمت أوربا ؟

وترك تلاميذه يقدمون الجواب بتمثيلهم ذلك الحوار الذى نشر بآخر عدد من المجلة .

وجلس بجوار المحافظ محمد بك سعد الدين ، وبجوارهما حشد من أعيان الريف والمدينة يرقبون فى شغف ودهشة صبيان نديم . . .

ـــ بماذا تقدمت أوربا ؟ كان تلميذ يسأل أستاذه

وكان (الدبكور) يمثل بشكل ساذج فصلا به مجموعة من التلاميذ ورد الأستاذ (وهو تلميذ أطول قامة) :

ـــ بالبحث فى علوم الصناعة والفلاحة والملاحة والسياسة ، وعبث بعض الأولاد فى الفصل فأخرستهم نظرة الأستاذ .

ـــ أين تلقن تلك العلوم ؟

وجه السؤال تلميذ آخر .

ـــ فى المدارس على يد أساتذة غير متشيعين !

وساد الهذوء حتى بين المتفرجين ..

ـــ الى من يتشيع الأستاذ ؟

ـــ لذاته أو جنسه أو مذهبه أو وطنه .

وتقبض وجه المحافظ (ربما لم يقرأ المجلة) وحين سـأل التلميذ : وما ضرر تشيعه لوطنه ؟

اشعل المحافظ سيجارة بعصبية .

ـــ اذا تشيع لوطنه تشيعا يؤدى الى استقباح غيره كره التلميذ السياحة والرحلة والوقوف على حقائق الوجود وتمدح بما يراه فى وطنه وان كان غير ملائم للزمان .

وعلى وجوه الصفوة من الأعيان كان نديم يبصـر مع كل سؤال وجواب الدهشـة والقلق والحيرة والاعجاب فى نفس الوقت .

ـــ وماذا علينا لو اجتمع أمراؤنا ووجهاؤنا وعقدوا جمعيات تفتح مدارس للصناعة فى المراكز العظيمة ليكون التقدم من طريقين لا من طريق ؟

— لا أضمن لك هذه الأمنية الآن فان الانهماك فى اللذات والحرص على الأبهة واستخدام الفقراء بلقمة أو شربة أو ثوب يحول بيننا وبينها .

***

وسرت همهمة غيظ فى صفوف الأعيان ونفخوا فى الهواء دخان سجائرهم ، وبصق أحدهم على الأرض .

— أراك يائسا من مساعدة الأغنياء على احياء الصناعة .

— ان شئت فانظر الى نفسك والى العظيم منهم ، تجد ثوبه وفرشه وأمتعته من مصنوع بلاد غيره ، ترى العظيم منهم يبيع رطل القطن بقرشين ويشتريه مشغولا بجنيه ولو صنع فى بلاده لانتفع به جملة صناع وربح منه ما خسره الآن ، ومع ذلك فأنا أجاريك فى أفكارك وأنتظر معك زمنا ليقيم أحدنا الحجة على رفيقه بما يراه .

وغرقت همهمات الصفوة حين ضج فناء المدرسة بالتصفيق ، ونجحت خطبة نديم المليئة بمقتبسات « التنكيت والتبكيت » فى أن تجرف الموجودين جميعا فى جو عاصف من المرح وانتهت بدعوتهم للتفرج على روايته ، ولبى الدعوة بعض الأهالى من الأعيان وغيرهم ، كان نديم أظرف الخصوم وأقدرهم على انتزاع السخيمة ، وأبرق نديم الى الاسكندرية ليحجزوا بعض المقاعد في المسرح من أجل ضيوف دمنهور !

***

كان نديم متعبا منذ عاد من رحلة دمنهور وكان قد أغفى قليلا ليستريح قبيل حفلة المساء في مسرح زيزنيا حيث تمثل رواية « الوطن » حين أيقظه أحمد سمير وفتح عينيه فى دهشة وغيظ :

ـ ما الذى جرى لك ؟

ـ التلاميذ الذين سيمثلون الرواية .. كان أحمد سـمير يتكلم باضطراب وهز نديم رأسه مستوضحا :

ـ لم يجيئوا بعد ليتدربوا التدريب الأخير .

ـ تريدنى أن ابحث لك عنهم ، لم لا تسأل فى بيوتهم ؟

ـ محمود واصف ذهب وقالوا له فى كل البيوت انهم خرجوا منذ الصباح . انه يبحث عنهم الآن فى الشوارع وأرسلنى لك .

وبدأ نديم يدرك الموقف ، وتساءل :

ـ ما الذى يمكن أن يكون قد حدث ؟

ـ لا ادرى

ـ اذهب الآن واحضر التلاميذ الذين كانوا معى فى دمنهور من بيوتهم .

ـ ماذا يقول آباؤهم ؟

ـ اذهب قلت لك ، وسأكون فى المسرح بعد قليل

ـ التلاميذ الغائبون يسأل عنهم آباؤهم

ـ اذهب ودعنى أتصرف

* * *

وفى المسرح لم يجد نديم أحدا من التلاميذ قد وصل ، كان الوقت يقترب من الظهيرة ، وسأل نديم بائع التذاكر اذا ما كان قد حجز بعض المقاعد للضيوف القادمين من دمنهور فقال :

ـ لم أحجز شيئا فالمسرح سيكون شبه خال هذه الليلة .

ـ لم ؟

ـ لم ابع سوى عشرين تذكرة

ـ كيف حدث هذا ؟ لقد أعلنا عن الرواية فى المجلة وفى الصحف ؟

ـ هذا ما حدث !

ـ ما معنى هذا كله ؟ أيمكن أن تكون ثمة علاقة بين الحادثين ؟ يستطيع شخص أن يغرر بالتلاميذ ، لكن هل يمكن أن يغرر احد بالمدينة كلها ؟



كان الوقت يمر ، ونديم واقف فى ذهول لا يدرى كيف يتصرف؟ ومشى فى الطريق دون أن يدرى الى اين ؟ يجب أن ينتظر التلاميذ : هذا اذا اتوا !

ماذا يقول لآبائهم ؟ من حسن الحظ أن أكثرهم بلا آباء ، وتوقف من جديد قريبا من المسرح .. بعض الناس يحيونه فلا يراهم الا بعد أن يعودوا ليسألوه عن حاله .. ماذا يقول لهم ؟ هل يطلب منهم أن يتكرموا بحضور الرواية .. نديم الذى كانت مشكلته الدائمة البحث عن مقاعد تصبح مشكلته البحث عن جالسين ! ماذا يقول ضيوف دمنهور حين يرون المسرح خاليا فى ليلة كهذه ؟



وتساءل فى مرارة أين الحشد ؟ واكتشف ـ وكأنما لأول مرة ـ أنه كان يضع ثقته فى لا شىء ، لم يكن ثمة غير أفراد أو جماعات صغيرة تعبر الطريق ، والغريب أن اكثرهم يعرفونه ويصرون على تحيته قبل أن يواصلوا سيرهم . هل يسخرون

منه ؟ هل يعرفون ورطته ؟ وأنهم جميعاً وذون اتفاق ــ اذ من المستحيل أن تتفق مدينة ــ انهم جميعا تآمروا عليه ولم يجرؤ على أن يسأل واحدا ممن يصرون على تحيته عن سبب ذاك ! كانوا جميعا قد أصبحوا فجأة بعيدين عنه ، أنت لا تســــأل من تحبه ــ هذا اذا كنت تحبه حقا ــ لماذا تهملنى ؟ أنت لا تفعل ذلك الا حين تكون واثقا من نوع الاجابة واذ ذاك تفعلها لتهيىء لنفسك أجمل فرصة ، أما نديم فلم يعد واثقا من شىء ، ولقد كان مستعدا فى تلك اللحظة الغريبة لتصديق كل ما كانوا يقولونه عنه وأى شىء يبدو الآن بعيدا أو غير ممكن ، ولكن تلك اللحظات التى خالها نديم دهرا لم تدم الا الى حين تقدم رجل ليســــأل « نديم » !

***

ــ ألم تبق لديكم أية تذاكر ؟ (لم يكن يعرفه فهل جاء ليهزأ به) ثم اضاف الرجل معتذرا عن سؤاله : معى ضيوف من طنطا يودون رؤية الرواية ، وربما لم يفطن الرجل لدهشة نديم الذى فطن لشىء بدا له كمعجزة .. ان الرجل يتكلم بنبرة جادة .

ــ لم نبع سوى عشرين تذكرة ما الذى تريده ؟

ــ ما الذى تقوله ؟ لقد سمعنا أن الأوراق كلها قد بيعت لحساب ضيوف من دمنهور وغيرها من البلاد .

ــ من الذى قال ذلك ؟ وهزه نديم بعنف :

ــ الناس كلهم ، اسأل أى شخص ؟

وطلب نديم مقعدا ، ودخن مائة سيجارة ، وكان أسعد خلق الله وهو يكتشف تفاصيل المؤامرة فيما بعد ، ويعرف أفرادها واحدا واحدا وكيف ضللوا التلاميذ الصــغار وأفهموهم أن الحفل تأجل بسبب تأخير نديم فى دمنهور ، وأطلقوا فى المدينة اشاعة نفاد

الاوراق ، لم يتآمر عليه الحشد ! بل تآمر أعداؤه ! كل شىء يحتمل ويمكن تدبيره طالما أن الناس لم يخذلوه أو يخونوه !!

لاتزال هناك ساعات قليلة كافية لتدبير الموقف ، لقد عاد احمد سمير بفرقة دمنهور ، فطلب منه أن يذكرهم بأدوارهم على عجل !

ـ لا أحفظ الرواية .

ـ هم يحفظونها

ـ وأنت لم لا تكون معنا ؟

ـ سأدعو بعض الناس لمشاهدة العرض لن نترك المسرح خاليا امام الضيوف !

وكان يكفى ان يقف نديم فى أى شارع ليلتقى على الاقل بمائة شخص يعرفونه ، ودعاهم جميعا لمشاهدة الرواية .

ـ والتذاكر ؟ هكذا سأله الرجل الواقف بالباب .

ـ يا غبى أنهم مدعوون ، ليس لدينا وقت لنشرح المسألة للمدينة كلها حتى يأتى الناس ويشتروا التذاكر !

* * *

ومرت الليلة العصيبة ، وبسؤال التلاميذ عن أوصاف الشخص الذى أخبرهم بتأجيل الرواية عرفوا انه موظف تحت رئاسة حسين فهمى ، وبسؤال أحمد سمير عرف أنه أشار عرضا بنبأ برقية نديم التى طلب فيها حجز عدة مقاعد لضيوف دمنهور أمام حسين فهمى كذلك ، كل القرائن تشير الى أن حسين فهمى كان وراء التدبير ، وان الاشاعة بدأت من « أوتيل أوربا » ولكن لم يكن ثمة دليل واحد قاطع !

ولم يدهش أصدقاء نديم لحقارة المؤامرة بقدر ما دهشوا لهدوء نديم ، كان سعيدا لا مباليا ، كان قادما لتوه من رحلة غريبة ، رحلة أخالها طالت مائة عام ، رأى فيها لأول مرة كيف تبدو الحياة لو تخلى الناس عن شخص أعطاهم كل حياته ، رأى فيها الوجه الحقيقى للخيانة والفشل .

فأى شىء بعد يمكن أن يثير خوفه أو رعبه أو دهشته ؟

ــ ولكن الناس لم يدركوا الحقيقة بعد !! يجب أن يفهموا كل شىء .

* * *

كان محمود واصف يصرخ بعد ليلة عصيبة لعن فيها «نديم» واليوم الذى رآه فيه ألف مرة ، وبكى فيها احمد سمير كما لم يبك من قبل !

ــ سأكتب كل شىء .. سأشرح الموقف للناس !

ــ أنت لا تملك دليلا واحدا .

ــ لن اذكر أسماء ! لا تهمنى الأسماء !

وخرجت المجلة تحمل للناس مقالا كتبه نديم من دم قلبه عنوانه « متى يستقيم الظل والعود أعوج » وانفجر الموضوع كله لا فى الاسكندرية وحدها بل فى كل مكان ذهبت اليه المجلة !

* * *

وأعلنت الحرب بين نديم وخصومه واذا كان المقال لم يذكر صراحة اسماء الخصوم فقد كان أعوانه يذكرونها فى كل مكان ، وكان صمت المحافظ وحسين فهمى معناه اعترافهم بكلام نديم كما كان دفاعهما عن أنفسهما يحمل نفس المعنى ، واذ أدرك الارتباك حسين فهمى وكاد يدركه الندم ! انقذه ذكاء المحافظ ، وحين تساءل

عن الحل قال المحافظ : ليس هناك أيسر منه .. ثم رمق حسين فهمى من تحت منظاره :

ـــ لقد أدخل نديم الى المسرح مائة رجل بدون تذاكر أليس كذلك ؟ .

ـــ نعم ليتفادى الحرج أمام الضيوف بسبب الاشاعة .

ـــ أيها الغبى هذا ما يزعمه نديم ، أما الحقيقة ..

ورفع حسين فهمى رأسه مستفسرا .

ـــ الحقيقة أنه باع لهم تذاكر مزورة ليضع ثمنها فى جيبه وبهذا يكون ثمة سبب معقول لأن يكون نديم نفسه هو مدبر تلك الاشاعة .

ـــ لكنه لم يكن هنا كان فى دمنهور

ولكن أعوانه كانوا هنا ، وانتهز هو فرصة سفره لدمنهور لتكون المسألة أوقع وليبعد الشبهة عن نفسه !

* * *

وحين بدت الحيرة على وجه حسين فهمى البدين وانهال على عنق كلبه الابنوسى خنقا وتمزيقا صرخ المحافظ فى وجهه :

ـــ لا تقف كالابله ، أريد أن يردد مائة شخص هذه القصة وفى الجمعية ســـــأطالب « نديم » بدفع ثمن التذاكر أو تقديم استقالته .

ولكن الناس الذين دعاهم من أصدقائه ويمكن أن يشهدوا بأنهم دخلوا مجانا ..

يشهدون امام من أيها الغبى ؟ ان كونهم من أصدقائه يكفى لادانتهم بالتواطؤ معه !!

فى غبار أية معركة ولحظة احتدامها لا يعرف أحد من الناس ولا المتقاتلان انفسهما من المنتصر والمنهزم ؟ ويحتاج الناس كما يحتاج المتقلاتلان الى بعض الوقت من نهاية المعركة لمعرفة الارباح والخسائر والأصدقاء والأعداء وعمق الجراح ، لكى تتوافر لدى كل منهما الشجاعة على أن يبصر وجهه فى أية مرآة ! واكثر من هذا كله هما فى حاجة الى وقت كاف ليبدأ احساسهما الحقيقى بآلام المعركة ، ولم تكن أول معركة يخوضها نديم فى حياته ولكنها كانت اكثرها ضراوة وحساسية ، ولقد وضح هذا لكل من قرأ مقاله « متى يستقيم الظل ، والعود أعوج » وفشلت رسائل القراء هذه المرة فى تضميد جراحه وحين قال له « حسن رضوان » بعصبية هذه المرة :

ـ ما الذى تنتظره بعد هذا كله ؟

أكد له أنه لم يعد ينتظر شيئا .

ـ انهم يتبعون معك نفس الأسلوب القذر .. المؤامرات ! انها سلاح الضعيف فهل نتركه يسترد قوته ؟

ـ تقول لى هذا الكلام ؟

ـ لست انا الذى اقوله .. اخوانى كلهم يقولونه

ـ وهل هم يتابعون مثل هذه الأشياء ؟

ـ يارجل أنت ملء عيونهم !

* * *

وعاد نديم من رحلته تلك القصيرة الغامضة التى لم يعلم بها سوى محمود واصف عاد شخصا آخر ، وسأله محمود واصف حين انفرد به ..

ـــ هل قابلت عرابى نفسه ؟

ـــ نعم

ـــ كيف بدا لك ؟

ـــ لا أدرى كيف أشرح لك .. لأول وهلة صدمنى هدوؤه وبطؤه كأنه ذاهب لينام أو كأنه مستيقظ منذ لحظة ، لم أصدق انه الرجل الذى يسيطر على جيش بأكمله ويواجه بيقظة مذهلة كل هذه المؤامرات !

ـــ وما الذى كان يريده منك ؟

واستطرد نديم وكأنه لم يسمع سؤاله :

* * *

لقد فوجئت بأنه يعرف كل شىء قمنا به ، قال لى : ان الخلاف بين الخديوى والحكومة لم يعد فرصة لأى شىء ، لقد زار الخديوى مدرستك فى نهاية العام وطلب منك اعادة تمثيل رواياتك ولم يمنع هذا انصار الحكومة من أن يعملوا على فشل الاحتفال ، واذا بقى لهذا الخلاف من جدوى فانه سيجعل الخديوى لا يقف بشكل جدى فى وجه حركة تستهدف الاطاحة برياض باشا !

ـــ وما الذى تنتظرونه ؟ .. هكذا سأله متعجلا فابتسم فى تثاقل ولمعت عيناه ببريق حاد وقال ضاحكا :

ـــ كنا ننتظرك !

لم أصدق أن هذا الرجل المهيب يمكن أن يقول « نكتة » وضحكت .. واستمر عرابى يقول وقد أخرج من محفظته الجلدية منشورا قدمه لى : اقرأ هذا ، لم أكن اداعبك ، وحين فرغت منه استمر يقول : نريد توقيعات الأهالي على هذا المنشور .

وكدت أصرخ فى وجهه : ولم هذا ؟ الشعب كله يؤيدك ، ولكنى قلتها فى هدوء وازدادت بسمته اتساعا .

* * *

— اعرف ولكن هذا ضرورى حتى لا تبدو حركتنا عسكرية .. سنواجه كثيرا من المتاعب ويجب أن نكون مستعدين ، لحظتها خيل لى انه أبله حقا اذا كان هذا هو كل ما يفكر فيه ، ولكنه لم يكن أبله ويبدو انه قرأ فى عينى مالم أبح به لحظتها فراح بنفس الابتسامة يوضح الأمور « انت تعرف اننا نريد القيام بحركة لم تحدث من قبل فى هذه المنطقة ، لقد ظل الجيش لآلاف السنين الوسيلة الوحيدة لاستبداد الحكام واليوم سيخرج عن تقاليده ليصبح وسيلة شعب لتحقيق نظام دستورى لا وجود له فى أى بلد حولنا ، وهذا وحده كاف لأن يثير ضدنا الجميع ، لن يرحب الأجانب بأية حركة يمكن أن تؤدى الى منع سيطرتهم على البلاد ، انهم يصدرون لنا مصنوعاتهم وربما كان الدستور من أحدث المصنوعات الأوربية ولكنهم لن يصدروا لنا هذا النوع من السلع ، وأما السلطان الذى حارب الحركة الدستورية فى تركيا ولم يتورع عن نفى زعيمها مدحت باشا . فلا يمكن أن يرحب بالدستور فى بلد تابع له وقد تثير حركتنا جنونه ! وأملنا كله متعلق بالصراع بين القوتين ، قد يؤيدنا السلطان اذا اطمأن الى اننا القوة التى يمكن أن توقف نفوذ الأجانب قد يفعل ذلك بعد أن رأى نتيجة تهاونه فى تأييد تونس ولأنه ساخط على ارتماء الخديوى تحت قدمى انجلترا ، وتمكينه للأجانب فى مصر أملا أن يكون تأييده طريقا لتأكيد نفوذ تركيا القديم .. ! وبالنسبة للأجانب نأمل فى أن يحول الصراع التقليدى بين فرنسا وانجلترا من أن تتدخل الدولتين ، وقد يريان فى حركتنا فرصة لاضعاف النفوذ التركى فى مصر ، وهو ما يجدان فيه مصلحة لهما دائما ، أن

الطريق كما ترى صعب ومحفوف بالمخاطر وآمالنا تتعلق بخلافاتهم، وسيجدون جميعا فى خلافاتنا أعظم فرصة ، ولهذا تدرك أهمية أن يقف الشعب صفا وراء الجيش فى حركته ، لا ينبغى أن تخيفنا المخاطر عن المضى فى طريقنا فأمامنا على الأقل احتمال النجاح أما اذا توقفنا فليس ثمة سوى الموت لنا والذل والبؤس للشعب كله ، ولن يكون هذا أبدا مجرد احتمال .

* * *

وأشعل نديم سيجارة ، ورمق محمود واصف متسائلا :

ـ مالا افهمه حتى الآن كيف فتح لى هذا الرجل قلبه بهذه البساطة فى أول لقاء ؟ اما ان يكون هذا الرجل شيطانا ، ويعرف كل شىء يحدث فى هذا البلد واما أن يكون ابله ! وفى الحالتين يرحمنا الله !

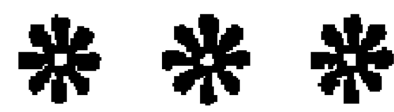
ـ هل انت خائف يا نديم ؟ بدأت تخاف ؟

ـ نعم ، اقولها بصـــدق ، لقد رأيت بعينى الرجل الأمل العظيم والهول العظيم كذلك ! أنت لا تخاف اذا كانت حياتك لا تعنى شيئا .

ـ وهل تظنها أصبحت تعنى ؟ واستطرد نديم كعادته حين يتدفق حتى فى الحديث :

ـ كنت دائما أبحث عن شىء حقيقى . شىء أمسكه بيدى هاتين ولا يضيع ابدا ويبدو أن مثل هذا الشىء لا وجود له فى حياتنا ، ولم اشعر الا الآن بجراح المعركة الصغيرة التى واجهتنا فى الاسكندرية ، ان طعم الجراح لا يختلف ، وكذلك طعم الخوف، وانت تحتاج الى نفس القدر من الشجاعة لكى تعيش ارخص حياة ممكنة فى هذه الدنيا ، فلم لا نجرب شـــجاعتنا فى شىء أعظم !

كانت عينا نديم تلمعان بطبقة رقيقة من الدموع وكانه يخاطب شخصا غير مرئى أو لعله يبصر صورة الحشد ، كان يبدو وكانه يهمس باحدى خطبه ، والتفت فجاة الى محمود واصف : « ان الشجاعة كلمة غريبة حقا ، ولست اشك فى أن عرابى هذا — الذى يفكر فى شىء لم يحدث فى هذه المنطقة — لم يجرؤ على هذا التفكير الا لأنه أكثر خوفا منى ومنك ، وهذا يحدث للانسان مرة واحدة ، حين يكتشف أن النصر اقل ثمنا من الهزيمة ، وأن الكرامة تتقاضى المرء أقل بكثير مما يتقاضاه الذل والمهانة ، وحينذاك يمتلىء رعبا لأنه لا يطيق مرة اخرى هذه الخديعة التى عاشها طوال حياته ، انه يمضى ولا تستطيع اية قوة فى الأرض ان توقفه ، انه لا يلتفت الى الوراء حتى لا يرى صورة الابله الذى كانه ، انه لا يتوقف الا حين يواجه الموت ، ان عدالة الموت وحدها هى التى يحنى لها رأسه »



وصمت نديم ، وصمت أيضا محمود واصف ، لم يجد القدرة على أن يقول له كلمة واحدة !! كان يود ان يسأله عن اشياء اخرى كثيرة يعتقد انه تحادث فيها مع عرابى ، شكوك ومخاوف ، كان نديم يبوح بها له ، ولكنه لم يسأل ، كما انه لم يخبره الا اليوم باصداء المعركة الصغيرة التى كانت حديث الاسكندرية كلها فى هذه الأيام ! وفى هذا اليوم ايضا أخبره نديم بشىء قد نسيه لقد حضر اجتماعه بعرابى رفيقه على فهمى ، ولكن الغريب انه ظل طوال الوقت صامتا .

ولكن ما الذى كانت تعنيه الآن معركة الاسكندرية بالنسبة لنديم ؟ لا شىء ! انه لا يبغى فيها نصرا ولا يخشى هزيمة ، وذهل

الناس وهم يقرءون فى يوم واحد وفى عدد واحـــــد من مجلة « التنكيت والتبكيت » خبر استقالة نديم « من الجمعية الخيرية » وحوارية رائعة جديدة ليست بين « زعيط ومعيط » هذه المرة ولا بين الشخصيات العديدة التى ابتكرها نديم واصبح الناس ينتظرونها صباح كل أحد ، بل مخ نديم نفسه ، حوارية كان عنوانها « اياك أعنى يا نفس فاسمعى وعى » جمع فيها حزمة الاراجيف التى ظلت الاسكندرية كلها تلوكها خلال الاسبوع ، وفى ضراوة ، وفى لمحة الضوء التى تراءت له فى لقائه مع الرجل الذى قرر أن يمضى دون أن ينظر الى الوراء ، وفى شجاعة الرجل الذى اكتشف مجانية الشجاعة ! راح يمزق الحزمة فوق رءوس صانعيها ، ونيابة عن نديم شعر كل الناس بالخوف على هذا المجنون الذى لم تعرف المدينة مثيلا لجنونه واصبحت لا تعرف مثيلا لشجاعته !



ــ اذا كان هذا الأحمق لا يفكر فى مصيره ، فهلا يفكر لحظة فى مصير أولاده ؟

كان حامد الأعسر هو الذى يتساءل فى مقهى كليوباتره وقد أدرك أن نغمة السخط التى حلت له فى الشهور الأخيرة لن تجد لها مكانا بعد الآن فى آذان من حوله !

ــ انه لم يفكر يوما واحدا فى مصـــــير أولاده ! هكذا تكلم أحدهم .

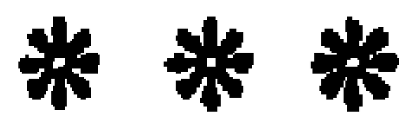
ــ لست أعنى أولاده الذين يرعاهم أبوه ، بل أعنى هؤلاء اليتامى الذين نسوا موت آبائهم !

ــ سمعت انه سيسافر الى الأرياف .. هكذا تكلم آخر .

ــ ولكن استقالته من جمعية الاسكندرية تعنى انقطاع صلته ببقية الجمعيات .

ـــ أنها يمكن أن تعنى كذلك نهاية أمر الجمعيات فى الاقاليم ، فهم هناك لا يعرفون غيره !

ـــ أنتم تخرفون جميعا ، غدا يستقبلونه فى الجمعيات استقبال الأبطال فى الوقت الذى لا يجرؤ فيه أحد ممن هنا أن يضع قدمه هناك .



كان نديم يجهز حقيبة سفره ، وحقيبة أخرى ملأى بصور عديدة للمنشور الذى سيجمع عليه توقيعات الأهالى ، والذى وقع عليه فى الاسكندرية كل أصدقائه ، ولأول مرة استشعر الجميع قلقا غامضا لهذه الرحلة التى كانت تختلف عن أية رحلة أخرى وانخفضت أصواتهم لدرجة الهمس ، واختصر حديثهم لمستوى الاشارات والعبارات القصيرة المتقطعة ، واحتجزت العواطف عدا ما تبوح به النظرة أو النبرة ، ولم تعرف أسرته سوى أنه ينشد الراحة فى الأرياف ، وكانت المجلة قد نشرت خبرا صغيرا بهذا المعنى ، ولم يفترق الأمر بالنسبة أولاده ، أما بالنسبة له فقد اكتشف وجودهم على نحو مروع ، وودعه تلاميذه فرادى على نحو خفف قليلا من ضراوة احساسه بأبنائه ، متى كان أبا لحفنة صغيرة من الأولاد ، ومع نسمة رطبة مبللة بمياه البحر استشعر حنينا جارفا لمدينته ولمقاهيها وسهراتها وحشودها التى تسللت واحدا واحدا لتكون فى وداعه ! كانوا جميعا قد قرءوا كل ما كتب ومست قلوبهم النبرة الحزينة الصادقة فى آخر مقال له . « أتبع الحق وان عز عليك ظهوره » كان يبدو وكأنه رسالة لأهل الاسكندرية وانتهى الى أن يصبح رسالة للناس كلهم .

كان يبدو كدفاع ضد الظلم الذى أحاط به ، وانتهى الى أن يصبح دفاعا عن كل مظلوم واحتجاجا على كل ظلم ! كان آخر صرخة حزن خاصة أرسلها نديم على نفسه فى تلك اللحظة الفريبة التى كان يدرك فيها أنه يسلم نفسه ولأول مرة الى ذلك المخلوق الكبير الغامض الذى كان طوال هذه السنين يتعرف عليه ، هذا المخلوق الذى يسمونه مصر ! ونادراً ما يحس الناس بوضوح لحظات تحولهم ، لكنه هو كان يحس لا من داخله فحسب بل وفى اكوام الرسائل التى انهالت عليه بعد الحادث الأخير ، ما الذى يبقيك هناك ؟ تعال الينا . ليست الجمعيات شيئا آخر سواك ، كان الشعب يتوجه « كرائد للدعوة الى الاصلاح بالتعليم والتعاون والاتحاد ، وكمؤسس للجمعيات » واكتشفه الشعراء المجيدون المبتدئون ، كموضوع جديد مثير ، وكفرصة لنشر أشعارهم ورسائلهم ووجدها هو فرصة لملء عدد من المجلة لم يكن قد وجد الفرصة لتحريزه ، وكان يدرك أن حلمه القديم يدخل الشرنقة ليتحور مخلوقا آخر لا يزحف فى بطء بل يطير بجناحى هذه القوة الجديدة التى تتحرك ، وتنبض ، كان كيانه كله يستشرف ذلك التحول المخيف ، وحين تذكر فجأة أحمد سمير أنه نسى أن يقول له شيئا هاما لم يبد عليه الاهتمام وهز رأسه متسائلا وحين طلب منه أن ينفرد به قليلا لم يجد أى داع لذلك كان حولهما عدد من الأصدقاء ولكنه أصر ، وهل بقيت فى حياته أسرار .

ـــ أتذكر تلميذك القديم « أبو دعموم » ؟

وانتفض نديم رغما عنه وتساءل فى لهفة :

ـــ هل جاء هنا ؟

ـــ لا .. أمه هى التى جاءت .. وصرخ نديم :

ـ ما الذى تقوله ؟ ودهش أحمد سمير وتماسك نديم :

ـ جاءت الى المدرسة ، سألت عنك ، أخبرتها بسفرك وبأنك كنت مشغولا على ابنها ، اطمأنت قليلا ، سألتها عنه ، قالت لا أعرف ، لقد هرب بعد أن ضربه زوجها مرة .. ظننت انه جاء الى هنا ، كانت هى التى تطلب منه ذلك لم تطق الحياة بعيدا عن ولدها ، خرجت تبحث عنه بعد أن طال انتظارها له ، انفصلت عن زوجها ، وحين لم يسعفها اخوها بالبحث عن ابنها ، جاءت هى تبحث عنه ، كانت متأكدة انه هنا ! كيف تبحث عنه فى كل البلاد ؟ وكيف تعيش بدونه ؟

ـ أيها الأحمق وكيف تركتها تذهب ؟

ـ لم اكن أعرفه متى تعود ؟ ولم ترض بالبقاء مع أهلى أو اهلك !

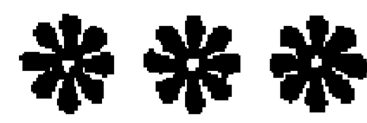
ـ كيف كانت ؟ المسكينة !! كيف بدت لك ؟ وأين ذهبت ؟

ـ متعبة ويائسة .. و .. وجميلة الى الحد الذى عجبت فيه كيف يتخلى عنها رجل ! ولا أعتقد أن الرجال يمكن ان يتركوها فى حالها فى أى مكان تذهب اليه !

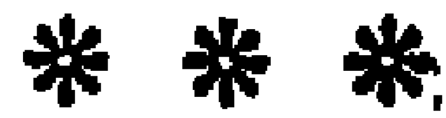
* * *

ـ ومع ذلك فقد تركتها أنت وتركتها انا وتركها زوجها وتركها إبنها ، ليصبح بمقدور اى فؤاد لعين أن يغدق عليها عواطفه ونقوده هل يمكن أن يخفي شيئا عنه ؟ ولم ؟ واكمل له القصة الناقصة لم يكن قد بقى شىء يخافه ، كأنما كان يريد أن يتخلص من كل أحزانه الخاصة وأن يبعدها عن قلبه ، لقد تأخرت كثيرا تلك الأرملة الجميلة، وربما لو جاءت قبل أيام لكانت كل ما يكفيه فى هذا العالم ، وكل ما يغنيه ، ولكنها مضت تبحث عن ابنها ، وابنها (فى أى مكان)

يبحث عنها ، وغدا سيخرج هو للبحث عن شيء مخيف هائل عظيم ولو وجده ، لو أمسك به ، لغفر لنفسه جبنه وعجزه ولأصبح قادرا على أن ينظر الى الوراء وان يطلب من تلك الأرملة مهما يكن مكانها في الحضيض أن تغفر له ، وفي تلك الليلة .. وقبل أن يبدأ رحلته بكى كما لم يبك في حياته ، كان يريد أن يتخلص من كل دموعه ، وكل ضعفه ، كان يستشعر أن الأيام القادمة لا مكان فيها للدموع !!



ولكنه كان يبكي في كل مكان ذهب اليه ، وخطب فيه ، كان يتصور ان الاسكندرية وحدها هي التي تهتم بقصته ، ولكن الحماس الجنوني الذي قوبل في كل مكان ، والاحاديث والخطب التي استمع اليها أكدت له أنه كان آخر من يعلم مكانته عند الناس ، كان ذلك في أوائل أغسطس سنة ١٨٨١ وفي أوائل رمضان سنة ١٢٩٨ .



وفي أية مدينة أو قرية حل بها كان الناس يسهرون حوله في ليل الصيف القصير الجميل ، ولم يحدثهم هذه المرة « حديث القرش والقرشين » وانما راح يقرأ لهم ذلك المنشور الذي كان يحمل منه أعدادا كثيرة « ان الوزارة الرياضية قد ركبت متن الشطط وعدلت عن الصراط المستقيم ، ولم يكن مقصدها مؤديا الا الى اضمحلال البلاد وتلاشيها بما هو جار من بيع أراض كثيرة للأجانب، ووجود كثير منهم في ادارات الحكومة ومصالحها بالرواتب الفادحة، وان سكوتنا واضرابنا عن ذلك يعد من العجز والجبن والتفريط في وطننا ومقر نشأتنا فاعلموا يا معاشر الوطنيين أن أولادكم المنتظمين في سلك الجهادية قد اتكلوا على الباري سبحانه وتعالى، وعزموا على منع كل ما من شأنه الاجحاف بحقوقكم .. وذلك لا يتم

الا بسقوط وزارة رياض باشا وتشكيل مجلس النواب ليحصـــل الوطن على الحرية المبتغاة . فالمطلوب منكم أن توقعوا على الكتابة المرسلة اليكم فى ضمن هذه النشرة ، والكتابة المقصود بها أن اكون نائبا عنكم فى كل ما يتعلق بأحوال البلاد » .

احمد عرابى

ويفسحون الطريق لأولئك القادرين على كتابة أسمائهم ثم يأتى دور حملة الاختام المربوطة فى عروة صداريهم ، ثم يمدون ابهامهم فى حركة لا شعورية تعودوها فى كل مرة قدموا فيهـــا اختامهم !

ــ ولكنهم لن يفعلوا لنا شيئا ! لن يأخذونا ، هكذا كان يتساءل البعض فيرد الآخرون الأكثر خبرة ودراية :

ــ لو كانوا يقدرون لأخذوه هو ! انه يتنقل أمامكم بحقيبته انه لا يفعل شيئا خفية ان العمدة والمشايخ ختموا أمامكم فما الذى تخـــافونه ؟

* * *

ويشعر نديم برواسب الخوف والحذر ، فالفلاحون لم يوقعوا باختامهم منذ مئات السـنين الا صـكوك عبوديتهم وانهم يحملونها كما يحمل السجين قيده ، ولقد كانوا لا يصدقون منذ شهور أنه لا يعرف عرابى ، ولكن بعضهم الآن لا يصدق أنه يعرفه ، ويلجأ نديم الى أكثر الوسائل اقناعا .. انه يخطب ويكتب .. ويصيب بالذهول أولئك الذين يسمعونه ويقرءونه .. كأنه كان ينتظر هذه الفرصة منذ سنين طويلة ليشـــغل تلك النار فى طول البلاد وعرضها ، ولا يصدق الفلاحون آذانهم وهم يجدون المجلة التى

كانت تسلخهم بالتنكيت والتبكيت قد أصبحت تسلخ أسيادهم وتهدهد عليهم فى رفق .

« تعال فانظر الى سلم رفعتك ، ومنبع ثروتك أخيك (استغفر الله) خادمك ، الى الفلاح ، وانظر الى ثوبه الذى لا يصل ركبته ورغيفه الذى لا تكسره بقوتك ، ومشه الذى تعاف النظر اليه » .

*** * ***

« وتفرج عليه وهو يقطع يومه فى رمى سباخ واطلاق ماء ، وتنقية حشيش ، وعزق أرض وقطع حطب وحش برسيم ، وجمع قطن وحمل تبن وسوق ساقية ، ويصرف ليله فى حفر غيط وحراسة جرن وسد مقاطع ، فاكهته الخيار والجميز ، وخضاره الرجلة ، وسلاطته الجلوين ، وسماطه الأرض ، وخبزه الشعير وخشافه ماء النيل محلى بالطين ، ومسامرته محاسبة شيخ البلد ، ورحلته الجسور ، وسياحته فى بحور العمليات ، وتاريخه بهيم عاش ومات لا يشعر به انسان » .

ـــ ولكنهم لم يأخذوه بعد !

ـــ كان فى طنطا منذ يومين ، سمعته بأذنى هاتين ورأيته .

ولم يكن يمكث فى بلد أكثر من الوقت اللازم لجمع التوقيعات والقاء خطبة أو خطبتين تصيب الناس بالذهول ! ...

ـــ ولكنى رأيته فى المحروسة فى بيت عرابى نفسه يخطب فى وفد العربان والصمايدة !

ـــ كاذب أنت لقد رآه أخى فى أسيوط يخطب فى مسجدها الكبير وقد سمع خطبته المسلمون والمسيحيون جميعا وكان ذلك منذ يومين !

ولم الشجار ؟ جائز أنه كان هناك وعاد الى المحروسة فى نفس اليوم .

— فى نفس اليوم ؟ هل هذا معقول ؟

* * *

ولكن كل شىء كان معقولا فى تلك الأيام الغريبة اللافحة ، نقد فصل نديم من الجمعية الخيرية ولكنه كان فى المنصورة يفتتح فرعا لها باسم جمعية الصنايع والفنون الخيرية ، وكان يخطب ويقدم الخطباء ، وكان ناظر الحربية محمود سامى البارودى قد اقيل من منصبه وولى مكانه صهر الخديوى داود يكن ، ووضع الناس أيديهم على قلوبهم وراح يصدر أوامره بعدم اجتماع الضباط ويمنع عرابى من استقبال زائريه ، ويبعث بجواسيسه هنا وهناك ، ولكن أوامره لم تكن تنفذ ، وضرب جواسيسه فى كل مكان تسللوا اليه ، وأنزل الناس أيديهم من على صدورهم ، وراحوا يلوحون بها فى كل مكان يصل نديم اليه ، ويؤكدون بها الايمان ، ويفركون بها عيونهم وهم يلتفون حول رجل يقرأ عليهم ما يكتبه نديم فى مجلته .

* * *

« أليس الرجل منكم كالرجل منا ؟ فما بالكم لا ترضون بثلاثين صنفا من الطعام ونرضى بالخبز والملح ، ولا تقنعون بالألوف ونقنع بالقرش الواحد ؟ أخلقتم من الذهب وخلقنا من التراب ، أم ولدتم قابضين على أزمة الدنيا وولدنا عبيدا لكم ؟ أم نزلتم من السماء ونزلنا من بطون الأمهات ؟ الا ترون أنكم تعدون بالأصابع والفقراء هم الأمة » .

— صحيح نحن الأمة .. هكذا قال فلاح فخور كان يستمع الى الشيخ قاسم يقرأ لهم مقال نديم فى قرية بدواى .

وسأله آخر عن معنى الأمة ؟ فنظر اليه شذرا وقال له :

ـ الأمة هى أنت وأنا وكل هؤلاء الفلاحين ، متى تفهمون يا ...

* * *

ـ ولكن رياض باشا سيقتله .. أقسم أنه سيقتله .. وربما فعلها أحد المديرين الأتراك القذرين فى الريف .

كان محمود واصف يخاطب أحمد سمير فى عصبية :

ـ وحتى لو لم يفعلوا ذلك فسيموت من تلقاء نفسه ، ان رسائله تصلني من كل مكان ، وخطه أصبح رديئا حتى ليخيل لك أنه يكتب وهو مغمض العينين ، وكنت أظن أن العيد سيفرض عليه اجازة اجبارية ولكنه لم يجىء فى العيد ، وحالة أولاده تحزن القلب !

* * *

وقال ضابط كانت تربطه بحسن رضوان صداقة وكان يعرف صلته بنديم : واكن صاحبك هذا يثير بمقالاته وخطبه ثائرة الأغنياء فى الوقت الذى نحتاج فيه الى تكتل الجهود ، انه لا يخدم أحدا بهذا الجنون الذى يندفع اليه !

وأجاب حسن رضوان فى ضيق :

ـ ان ما يقوله حقيقى هل تنكر ؟

ـ المسألة ليست بحثا عن الحقيقة ، المسألة اننا فى حاجة الى تأييد الأعيان قبل غيرهم !

— الأعيان هم الذين فى حاجة الى قوة الجيش وبدونه ما خرجوا من جحورهم ، هل تنكر ؟

* * *

وبلا قصد طالت لحية نديم ، لم يجد الوقت ولا موسى الحلاق وتراكمت على سترته طبقات من التراب المعجون بالعرق ، ولم يعد ثمة فارق لونى بين قميصه وسترته ، وكان خليقا بثيابه التحتية أن تحرمه النوم بسبب ما امتصته من التراب والعرق وما ادخرته عبر رحلته الطويلة من حشرات القرى والمدن ، ولكنه كان ينام لو وجد المكان أو الوقت ، ولم يستيقظ مرة واحدة من أول نداء ، واشفق عليه محمود الغرقاوى فأعلن سفره سرا الى بلدة مجاورة وتركه فنام يوما كاملا لا يتحرك .. وفى الصباح زاره وفد من التجار كانوا يعرفون أنه لا يزال فى منزل صديقهم ووقعوا على المنشورات وقال أحدهم :

— انت تكتب عن الفلاح كأنه البائس الوحيد فى هذا البلد .

— فعلا ليس هناك أبأس من الفلاح .

وشكوا اليه ما انتهت اليه أحوال تجارة العطارة فى البلد وقالوا له يستطيع الفلاح أن يأكل حشيش الأرض أما فى المدن فلا نجد ما نأكله !

ويكتب نديم مقالا حارا عنوانه التجـــــارة البائرة ، وفى الاسكندرية يضحك محمود واصف وهو يقرأ المقال قبل أن يطبع .

— ما الذى يظنه نديم فى نفسه ؟ صاحب هذا البلد ، المسئول عن رزاياه ، مدبر شئونه ، لقد ذهب لمهمة محددة لم لا يفعلها ويعود !

ولكن متى عرف نديم لحيـــــاته مهمة محددة ؟ لقد جرب أن يضع لنفسه اطارا أو هدفا ولكنه كان يكتشف دائما الفرق الهائل بين ما يريده وبين ما يكونه ، انه دائما يكون شيئا مختلفا أكبر أو أصغر . ولكنه لم ينسجم يوما واحدا داخل هدف محـــدد ولقـــد استشعر فى هذه الرحلة نوعا مخيفا من الحرية أتاح له ولأول مرة أن يحس الجراح القديمة والثارات القديمة التى كانت تضمدها الأطر والأهداف ، فراح يغسلها كلها وينشرها على الناس ليبرأ ، كان يظنه نسى ، ولكن المرء لا ينسى ابدا لقد كان يوما مجرد صبى بائس ودفعه القدر الى بيوت الأغنياء ولم يجد مبررا واحدا معقولا لغناهم أو لفقره ، ولم يبخلوا عليه بشىء حين كان نديمهم ولكنهم لم يحتملوه حين فكر أن يصبح شيئا آخر غير مسامرهم القديم ، لم يبخلوا عليه بالمال ، ولكنهم بخلوا بالـــكرامة ، ولم يغفـــروا له نشأته ، وخيل اليه غروره وكبرياؤه العنيفان أن الثأر الحقيقى لن يكون فى أن يصبح غنيا بل فى أن يخوض حربا ضارية يقود فيها جيش الفقراء . ومن خلال الجمعيات راح ينظم هذا الجيش المهلهل وفجأة وجد تحت أمرته جيشا حقيقيا مدججا بالســـــلاح ، وحين أفرغ أمام قائده الفعلى سخائمه القديمة من هذه الطبقة البليدة المتحجرة لمح فى عينى القائد الحذر بسمة تأييد .

— لكن ليس الآن يا نديم ، تمهل قليلا !

هكذا همس عرابى بصوته العميق المتئد .

ولكنه أدرك ان قائد السلاح ليس أقل منه سخيمة وكراهية .

فراح يهاجم أعداءه القدامى على هذا النحو المخيف !

وحين اتصل به فى ميت غمر ذلك الرجل القصير الصموت الذى رآه مرة واحدة « على فهمى » وأخبره أن رياض باشا كان قد استصدر قرارا بنفيه وأنه هو الذى اوقف القرار قائلا :

ـــ ان « نديم » منا معشر الجهادية وان لم يحمل السلاح » ضحك وطلب منه ملابس أحد الجنود لأن ملابسه قد اتسخت وليس لديه وقت لغسلها .

ـــ ولكننا نريدك فى المحروسة أنت وحقائبك وبسرعة .

ـــ نعم ، وخفق قلب نديم .

ولكنهم كانوا يريدونه هنا فى المدن والقرى ، كانت اخبار مسيرته وانتقالاته موضوعا الرهان ولقارئى البخت وضاربى الرمل .

ـــ سيأتى غدا فى بلدنا .

ـــ سيأتى فى بلدنا نحن ، ويتشاجر الكبار قبل الصغار .

وكانت لحيته الطويلة ترشحه لأن يقتنص كل زبائن المشايخ القدماء ومريديهم ، وان تمنح الناس نفس الحرية المخيفة فى تفسير قدرته وطاقته ومهمته كذلك .. طبعا لم يكن يعرف الجميع حكاية المنشورات .

ـــ انه ولى من أولياء الله .

ـــ وهل يلبس أولياء الله سترة « وبنطلون » ؟

ـــ ان أولياء الله يتشكلون فى كل صورة !

ـــ وهل يدخن أولياء الله السجائر ؟

ـــ انه يباح لهم مالا يباح لغيرهم ، انهم احيانا لا يصلون امامنا لأنهم يصلون فى الكعبة الشريفة ، ان التكليف يرفع عنهم ، وكان هذا كله ينطبق على نديم من بعض الوجوه .

وكان هو نديم الذى يستطيع كل محتاج ان يجد لديه بعض حاجاته .. حتى عشاق الازجال لم يبخل عليهم بما يحبون ، لقد الف لهم قطعة ونشرها فى مجلته ، قطعة يستطيع أن يرتزق بها الادباتية ويتغنى بها الصغار والكبار ويجدون فيها التسلية والعبرة ، وفى كل مكان ذهب اليه كانوا يستقبلونه :

اهـل البنـوكا والأطيـان صـاروا على الأعيان اعيان

وابن البـلد ماشى عريان ممعـاه ولا حـق الدخـان

شرم برم حالى غلبان

يا ما نصحتك يا بنجـر وقلت لك اوعـا بعجـر

فضـلت تسـكر وتفنجر لما صـبح بيتك خـربان

شـرم برم حالى غلبان

***

وقال له محمود الغرقاوى الذى كان معه فى ميت غمر : نمر أولا بالمنصورة لتغير ثيابك هناك فليس معقولا أن تذهب بحالتك هذه الى المحروسة ، وكان قد ترك بعض ثيابه المتسخة بمنزل الغرقاوى ولكن الرجل أحضر له ملابس جديدة مناسبة وحين أشار نديم الى ثيابه القديمة ضحك الغرقاوى قائلا :

— لم ينجح أحمد فى تنظيفها ! ثم أضاف بعد أن لاحظ تردد نديم :

— فيم تفكر ؟ سوف أضيف ثمنها لديونك القديمة .

كان ذلك كله فى الأسبوع الأول من سبتمبر سنة ١٨٨١ ، ولم يعد سرا لدى الخديوى أن الجيش يستعد للقيام بمظاهرة تطلب عزل رياض باشا وتشكيل مجلس نواب ، وزيادة عـــدد الجيش !!

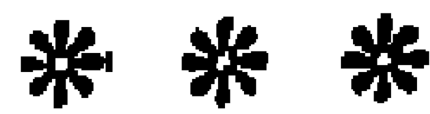
* * *

ولم يعد سرا فى الجيش أن الخديوى والحكومة يبذلان اقصى جهدا لاحباط المحاولة ، وكانت شارة الخطر بالنسبة للجيش ذلك القرار الذى أصدره داور يكن ناظر الحربية بأن ينقل الالاى الثالث من المشاة « آلاى القلعة » الى الاسكندرية ليأخذ مكانه الالاى الخامس بالاســـــكندرية وحدد يوم ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ موعدا لتنفيذ المظاهرة ، وقبيل الساعة الرابعة من بعد ظهر ذلك اليوم كان الخديوى يدخل قصر عابدين من أحد أبوابه الخلفية وحوله نفر من حاشيته ، كان عائدا للحظته من محاولة أخيرة يائسة حاول أن يجرب فيها هيبته الشخصية فتحدث الى ضباط الالاى الثالث بالقلعة ، وجرب الوعد والوعيد .

* * *

ولكنه أبصر لأول مرة فى حياته فتحات البنادق تحدق فيه وتحدق به وكأنها عيون جوفاء لا تبصر هيبته أو جلالته ، عيـــون لا تبصر حتى ضعفه ، عيون لا تختلج ولا تطرف ولا تقوى على التحديق فيها عيون بشرية ، وتقدم داخل القصر ليرى فرقة الحرس التى يقودها على فهمى الرجل القصير الصموت الحذر الذى ظنه سيبقى وفيا له ، ليراها قد تركت أماكنها وانضمت الى الآلايات الثلاثة التى اصطفت فى نظام بديع فى ساحة القصر ، كانت الآلات تقف بنفس النظام الذى تعودت أن تقف به لتقدم له الولاء وليتفقدها حضرته ، ان شكل النظام لا يتغير ، ولا أحد يستطيع أن يلمس فى ذلك الاصيل المروع الفارق بين الولاء والثورة . . .

فالجنود والخيل والمدافع والسيوف والشارات والأزرار النحاسية والنجوم كل شيء كما هو ، وباحساس الطائر الذبيح الذى يلمح كل شيء كما هو ، فى تلك اللحظة الخاطفة التى تعقب مرور السكين الخادع على عروق العنق ، انه يقف وينفض تراب الأرض عن جناحيه ويسير كأن شيئا لم يحدث ، وربما يلمح حبة فيهم بالتقاطها ، بنفس الاحساس تقدم الخديوى وصاح فى ذلك الجندى الوسيم الجسيم الذى يتقدم الصفوف ويرفع سيفه ليغمد السيف ويترجل عن حصانه وصاح فيمن حوله من الضباط ليعودوا الى أماكنهم .



ولم يكن بمقدور أى من الذين حول الخديوى أو حول عرابى أن يحس روح الفكاهة النادرة فى هذا الموقف ، فالزمن ليس مجرد وهم أو خيال ، وكان كلا الرجلين الواقف على الأرض والراكب على حصانه ينوء بعبء مئات السنين من السلطة والنفوذ ، ومن الخضوع والمذلة ، ولم يكن بمقدور أى منهما أن يضحك من هذه الفكاهة التى بدت فى حوارهما الغريب :

ـــ ما أسباب حضورك بالجيش هنا ؟ .. (كان يعرف الأسباب)

ـــ جئنا يامولاى لنعرض عليك طلبات الجيش والأمة ، وهى طلبات عادلة (لايزال يقول يامولاى ويبرر مطالبه بأنها عادلة)

ـــ وما هذه الطلبات ؟ .. (تقدمت له مرات عديدة)

ـــ هى عزل رياض باشا ، وتشكيل مجلس نواب وابلاغ الجيش الى العدد المعين فى الفرامانات السلطانية !

ـــ كل هذه المطالب لا حق لكم فيها وأنا خديوى البلد واعمل « زى ما انا عاوز » !

ولم يضحك أحد فى ذلك الأصيل المروع .

ــ نحن لسنا عبيدا ولن نورث بعد اليوم .

لقد نطقها الفلاح الضخم المتخفى فى « بدلة » ضابط كبير تلمع على كتفيه وصدره النجوم والسيوف البرنزية ، انزلقت من فمه مثل غيرها من الكلمات ، انزلقت أمام المصريين والقناصل على السواء ، ويقينا لم يحس الخديوى ولا عرابى نفسه فظاعة الرحلة الشاقة عبر مئات السنين التى قطعتها هذه الكلمة لتصل فى هذا الموعد لتخرج من فم الفلاح ولتدخل اذن هذا الخديوى ، مئات السنين من القهر والظلم ومئاتها من الصبر والألم ، مئات السنين تعهدت هذه الكلمة ، أرضعتها ، جمعت حروفها المتناثرة ، ألفت معانيها من آلاف الصرخات ومن حبات العرق ومن شهقات الموتى ، من ظلام الليالى السوداء ، ومن كئوس الخمر ، ومن أضواء المخادع الشاحبة ومن صرخات المتعة ، ولن يزعم عرابى وحده أو الخديوى وحده انهما مسئولان عن مولد تلك الكلمة الغريبة ، وكأنما فوجئا معا بها ، فى ذلك الأصيل المروع ، وكانت سهلة الى الحد الذى فكر فيه عرابى « ما الذى حبسها فى صدره وصدر آبائه كل هذه السنين ؟ »

* * *

وربما فكر وهو على صهوة فرسه فى ذلك الأصيل أن يقول كل ما شاء من كلمات . ولكن الخديوى لم يكن هناك ليسمع ، لقد حملته الكلمة الفظيعة الى داخل قصره ، كانت الشمس الغاربة فى ذلك الأصيل تتعب عينيه وكان وجه عرابى مكسوا بظلال ذلك اليوم المهيب ، وتقدم قنصل بريطانيا ليفاوض ذلك الضابط الجرىء الأبله ، بينما كان الخديوى يدور فى حجرات القصر ليطمئن الى أن كل شىء كما هو ولينسى هذا الكابوس المخيف ، وكان من الطبيعى أن تحس هذه الصفوف المتراصة من الجند بوطأة الزمن ، صحيح

انهم لم يسمعوا تلك الكلمة الفظيعة التى نطقها ضابطهم ، ولكن الوقت الطويل كان جديرا بأن يكون مناخا ملائما للظنون والمخاوف ، وهناك فى الخلف بين الصفوف كان يدور ذلك الرجل الذى عاد منذ أيام بحقيبته ملأى بالتوقيعات كان يدور بين الجند ، مواعبا مشجعا قارئا لهم قول الله :

« وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء الى أمر الله » .

الله هو الذى يقول : قاتلوا الطائفة الباغية ولو كانت من المؤمنين ، أنتم تنفذون قول الله .

حقا ، الله هو الذى قال ذلك ! لماذا لا يفهمون أقوال الله الا حين تخرج من فم هذا الرجل عبد الله نديم ؟

* * *

وحين غربت شـــمس ذلك اليوم ، كان الخديوى قد أجاب طلبات الجند ، ولم تنم المحروسة ، وطير الخبر الى كافة البلاد ، ولم ينم نديم ولم يكن حلما ذلك الذى أبصر فيه الأرملة الجميلة تسمع بالخبر ويتيقن من شىء .. انه مهما يكن عذاب تلك الأرملة فلا شك انها قضت ليلة سعيدة وانه هو عبد الله نديم قد ساهم بجزء متواضع فى أن يحمل لها بعض هذه السعادة !!

الجــزء الثــالث

ويتضــمن دور نديم فى الثورة العرابية خلال المدة من سبتمبر سنة ١٨٨١ الى احتلال انجلترا لمصر فى سبتمبر سنة ١٨٨٢

الجــزر والمــد

وقف عبد العزيز حافظ يحدق تحديقا ذاهلا فى الضيف الذى يقف أمام باب شقته .. لقد كان عبد الله نديم .

ـــ فى هذه الأيام لم يعد ثمة شىء لا يصدق ، ولو كان عودتك

قالها عبد العزيز حافظ وسط القبلات والأحضان !

وكان هذا اللقاء بعد أيام قليلة من ثورة الجيش ، وفى هذه الأيام التى كان نديم خلالها شبه ملازم لعرابى ، لم يكن يتردد فى الانطلاق هنا وهناك لزيارة أصدقائه القدامى ، والبحث عن كل ما يمثل قطعة من الماضى ، والماضى يصبح غاليا فى نظر أى شخص يلوح له المستقبل مزدهرا ، وآنذاك كان مستقبل نديم ومستقبل مصر كلها يبدو حافلا !

وكان نديم يجد متعة فى مجرد التطواف بشوارع المحروسة بلا غرض سوى أن يرى الناس فى المقاهى والدكاكين .. سوى

أن يحس أصـــــداء الثورة فى الكمات والعيون ، كانت تلك هى المحروسة لا الاسكندرية حيث يعرفه الجميع هناك كعبد الله نديم أما هنا فبمقدوره أن يستمتع بكونه مواطنا عاديا ، فردا فى ذلك الحشد الذاهل المرح ، كان الناس يتكلمون وكأن مئات الأيدى قد رفعت فجأة عن أفواههم ، وكان نديم يشرب القهوة فى أحد مقاهى الازبكية حين جذب انتباهه هذا السؤال :

ـ ولكنى لا افهم لماذا لم يعزلوا الخديوى ، وهو مصـــــدر البلاء ؟

وكان الذى يسأل افنديا نحيفا أسمر يوزع نظراته بين جريدة فى يده وبين دائرة تضم أفندية آخرين واحد المشايخ ! وكان يلقى سؤاله الخطير بصوت مرتفع وبلا مبالاة !

وجاءه الرد من زميل أسرع بابعاد مبسم « الشيشة » عن فمه !

ـ وجود مجلس نواب حقيقى بمثابة عزل للخديوى ، ودون ان تساق البلاد لأية مشكلات !

ـ وهل يسمح الخديوى بمجلس حقيقى ؟ ومن يضمن الا . .
وتوطع المتحدث :

ـ وهل يمكنك الآن أن يسمح أو لا يسمح ؟ وجود الجيش أكبر ضـــمان . .

وقال الشيخ وهو يعبث بحبات مسبحته :

ـ لا تنسوا أن وجود الجيش يخلق مشكلة اكبر ، فشريف باشا لم يتردد فى تأليف الوزارة ، الا لخوفه من أن تصبح خاضعة لنفوذ الجيش !

وصرخ أفندى قصير كان يرقب النقاش فى صمت !

ــ شريف باشا هو الذى أثار هذه المشكلة وفى غير وقتها ، وبدون نفوذ الجيش هل كان أحد سيدعوه ليؤلف اية وزارة ؟

ــ كان اولى به أن يخاف على استقلال وزارته من الخديوى أو من الأجانب أو من تركيا ، لا من الجيش !!

وعاد الشيخ الذى أسكتته المقاطعات يقول :

شريف باشا رجل حصيف وأغلب الظن انه يريد بهذا أن يفقد تركيا والأجـــانب معا اية حجة يتذرعون بها للتدخل فى شئوننا !

* * *

ولم يهتم أحد بالرد على كلام الشيخ ، ولم يشترك نديم فى هذه المناقشة الحامية ، ولكنه كان سعيداً بها على قارعة الطريق ، مندهشا للبساطة الشديدة التى يناقش الناس بها الأمور ، والتى يصدرون بها أحكامهم على كل شىء !! وكانت قصة هذه المناقشة وغيرها ضمن الحديث الطويل الذى بدأ باتصال نديم بعرابى، والذى استمع اليه عبد العزيز حافظ فى ذهول ، وهو غير مصدق ، ولكن أىّ شىء لا يصدقه المرء فى هذه الأيام ؟ حتى عبد العزيز حافظ الذى كان قانعا بالتفرج على الحياة والتحسر عليها ، وراح يسأل « نديم » بعد أن فرغ من حديثه ، يسأل بلهجة مريرة :

* * *

ــ لكن رغم أن كل شىء يسير على ما يرام حتى الآن ، رغم أن شريف باشا الف وزارته ، ورغم أن الجيش تعهد بالخضوع للحكومة الجديدة ، ورغم أن الأعيان ضمنوا هذا التعهد ، وان الخديوى يؤكد فى كل مناسبة رغبته الحقيقية فى الدستور ، فهناك شىء يقف فى صدرى من هذا كله !

وينصت نديم ، ويهز رأسه مستفسرا بينما يوضح عبد العزيز حـــافظ :

ـ ان الطريقة التى جرت بها الأمور ، ولاتزال تجرى تجعل من عرابى بطلا وزعيما ، وتؤكد أن الجيش هو القوة التى تكمن وراء الأحداث ، هكذا يحس الناس ، والمصالحات التى تتم الآن للمحافظة على هيبة الخديوى ، وسلطة الحكومة ، تبدو لى كنوع من الخداع الذى يمكن أن ينكشف أمام أول نقطة خلاف حادة بين هذه الأطراف !

* * *

ويتطلع عبد العزيز حـــافظ فى وجه نديم ينتظـــر اندفاعه وتدفقه ، ولكنه لاذ بصمت عميق قبل أن يقول بلهجة مترددة :

ـ طبعا هناك حساسيات ، وهناك مشكلات أيضا ، ولكنها لا تقاس بما كان يحدث لو سلكت الثورة طريقا آخر !

وبدا على وجه عبد العزيز حافظ ان اجابة نديم لم تشف غليله ، ثم ان « نديم » تساءل من جديد !

ـ اليس كذلك ؟ وانتظر أن يؤكد عبد العزيز حافظ كلامه ، وكأنه هو نديم فى شك من أمر ما قاله !!

* * *

وفى الواقع ان « نديم » كان فى شك من أشياء كثيرة ، وكانت الأحداث تمضى بسرعة كبيرة لا تترك له أقل فرصة لفحص شكوكه ومخاوفه ، وكان هو ولأول مرة يجد نفسه جزءا من حركة عامة كبيرة ، تحركها عوامل لا حصر لها ، جزءا لم يتحدد بعد مكانه او هويته ، جزء يحاول أن يعى حركته ، وأن يعى فى نفس الوقت حركة الكل !! واذا كان بمقدور الناس فى المقاهى والشوارع

ان يصدروا أحكامهم فى يسر وسهولة ، فلم يكن يعذبه هو شىء مثل انتظار الناس منه هذه الأحكام السريعة والبسيطة ! انه يطل على عالم جديد ومعقد ، وان أشياء كثيرة تتصلب فى داخله ، وفى الوقت الذى ينعم فيه الشعب كله بحرية الكلام يشعر هو أنه يفتقد هذه الحرية !

* * *

وقال عرابى لنديم :

ـ أين كنت ؟ ثم أضاف مازحا : يجب أن تدرك أنك مجند ، وسأطبق عليك أحكام الجيش ، اذا لم أجدك فى موقعك !

وقال نديم ضاحكا :

ـ كنت فى موقعى ، كنت أكتب أول مقال للمجلة بعد الثورة !

كان المقال فى يده ، ولم يطلب منه عرابى أن يقرأه ، فقد دفع اليه بأكوام من الرسائل و « العرائض » التى بدأت تنهال عليه من جديد والتى تخصص نديم فى فحصها واختيار المهم منها ليراه !

* * *

وانصرف عرابى لاستقبال وفد من الأعيان قدم لتوه وتمهل نديم قبل أن يندفع لحجرة جانبية يتفحص فيها كومة الرسائل ، كان يرمق وفد الأعيان الذين تسد عرباتهم الطريق أمام بيت عرابى ، ولا تكاد تنتهى اجتماعاتهم به ، بينما انصرف هو للقاء وفود البائسين رسائل وشكاوى وضراعات تحكى ما لم ينسه بعد وما لو قرأه الأعيان فى الحجرة المجاورة لأذهلتهم المفارقة التى كانت تصيب « نديم » وحده بالذهول !

وحين سأله عرابى بعد انصراف ضيوفه عما اذا كان قد اختار شيئا من الرسائل قال نديم :

ــ لا ... ليس فيها ما يستحق أن تراه !

ــ كيف ؟ .. قالها عرابى باستنكار

ــ انهم جميعا بائسون ، وليس لديك ما تقدمه لهم !

وقال عرابى مازحا :

ــ وهذه الثورة ؟ والدستور وابلرلمان ؟ الا تقنعك وتقنعهم ؟

ــ حسبك اقتناع الأعيان ! قالها نديم بغيظ

ــ ايها الأحمق ، ماذا افعل بك ؟ سأجعلك تلتقى بهم ، انهم جميعا يعرفونك ، ولو علموا أنك هنا الآن لأصروا على لقائك بينما لا تبالى أنت بهم !

وبلا شعور تساءل نديم :

ــ صحيح ؟

وابتسم عرابى فى خبث بينما ود نديم لو بلع لسانه !

وفوجىء بعرابى يطلب منه المقال الذى كتبه ، وينتحى جانبا ليقرأه !!

* * *

وراق المقال لعرابى ، وراقه اكثر الأسلوب الذى لايزال نديم يتبعه ، أسلوب الحوار مع احد تلاميذه ، ولكن مصر كلها تصبح مدرسة نديم ، وحقوق الوطن تصبح درسه المفضل ، وصناديق الاقتصاد تصبح أهم هذه الحقوق ويدعوه التلميذ الذى يدير معه

الحوار الى تبنى المشروع فيقبله مترددا وفى خجل شديد ، واعدا بأن ينشر فى مجلته أسماء المساهمين فى المشروع ، وبدوره يدعو تلاميذه وأنصاره الى أن يخطبوا فى مدارسهم وجمعياتهم بهذه الحقوق ويختتم مقاله الطويل الذى استغرق عددا كاملا من المجلة بنموذج للخطبة التى يجب ان يجتذبها تلاميذه ، وجاء النموذج عرضا لبقا للمخاوف والمحاذير التى يمكن أن تهدد النظام الجديد من الداخل أو الخارج ، وشرحا بارعا لتوقيها !!

وقال عرابى وابتسامة راضية تحيل وجهه الضخم الى وجه طفل :

ـ تلك هى الطريقة ، ثم تابع وهو يرفع حاجبيه ورأسه فى دهشة مصطنعة :

ـ من المؤسف أنه ليس لدينا منك غير نديم واحد !

ـ يمكن أن يكون لديك آلاف

ـ كيف ؟

ـ أقوم بتحرير خطبة الجمعة كل اسبوع ، وأطبع منها آلاف النسخ لتوزع على مساجد القطر ، فيصل صوت الثورة الى كل مكان وكل انسان !

والتمعت عينا عرابى وقال :

ـ فكرة مدهشة ، وهل يوافق المشايخ على تلك البدعة ؟

ـ سأشرح الفكرة فى مقال تال ، وسأعرف كيف اقتنع المشايخ !

وقال عرابى منبها :

— ولكن يجب الا يشعر أحد أن الفكرة نابعة من الجيش !

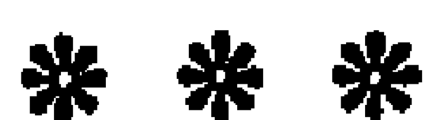
ورد نديم مغتاظا :

— ولكنها ليست نابعة من الجيش ، انها فكرتى .

— من الآن أنت محسوب علينا !

وصرخ نديم مغايظا :

— بل أنتم !



وفى الحق أن « نديم » كان لا يزال يواجه ذلك الاحساس الذى كان جديدا على حياته ، الاحساس بأنه جزء من كل ، كان معنيا بتلمس ذاته من جديد ، وبتفحص تلك الحركة العامة المعقدة المدعوة بثورة الجيش ، وما يتصارع فيها من تيارات واتجاهات وكان بمقداره أن يهضم أشياء كثيرة ، وان يرى وجه الحق فيها ، وأن يبتلع شكوكه ومخاوفه ، ولكن ثمة أشياء كانت لاتزال تقف فى حلقه ، ولا يستطيع مثل بقية الناس أن يبصقها فى قارعة الطريق ! لقد كان يرقب الدور الذى يقوم به الأعيان منذ بدءوا يؤدون مهمة الوسيط بين شريف باشا وعرابى ، وكان واضحا لكل ذى عينين ، أن الأعيان الذين ألفوا فى الماضى الجماعة المسماة بالحزب الوطنى، والتى كانت تؤيد سرا حركة الجيش ، هذه الجماعة قد أصبحت موضع شد وجذب بين شريف باشا من ناحية ، وعرابى من ناحية أخرى فبينما يريد شريف باشا أن يجتذبهم الى جانبه ، ليصبحوا هم — وليس الجيش — المتحدثين باسم الشعب ، وليسلبوا الجيش صفته كممثل للأمة ، وهى الصفة التى بررت قيامه بثورة ٩ سبتمبر

١٨٨١ ، وحيث يسهل التعامل معهم كقوة مطواعة للحكومة .. بينما يحاول شريف باشا ذلك ، كان عرابى بدوره يريد أن يحقق من خلالهم المطالب الأساسية التى أعلنها الجيش منذ بدء حركته ! وحتى لا يضطر الى عرض هذه المطالب بصورة سافرة من جديد !

ولكن هل كانت هذه المطالب تتعرض لأى تسويف يبرر هذه المخاوف ؟



لقد طلب شريف باشا ان يسافر الآلاى السودانى بقيادة عبد العال حلمى الى دمياط ، وأن يسافر الآلاى الرابع بقيادة عرابى الى راس الوادى ، كدليل على بعد الجيش عن امور السياسة ، وليقدم هذا الدليل الى الوفد التركى الذى جاءت الانباء بتحركه من الاستانة يزور مصر ، وليحقق فى الأحداث الأخيرة ، وجاء الاعيان لاقناع عرابى بهذا الطلب .. ولم يجد عرابى بدا من أن يستخدمهم بدوره لاقناع شريف والخديوى معا بانه لن يرحل قبل أن يصدر الخديوى أمره بانتخاب مجلس النواب ، وصدر أمر الخديوى بانتخاب المجلس لكن دعوة الحكومة لهذا الانتخاب جاءت على اساس اللائحة القديمة التي كان يعمل بها فى عهد الخديوى اسماعيل ، والتى تقصر حق الانتخاب على العمد والمشايخ ، وحين ابدى عرابى دهشته لتجاهل اللائحة الأخيرة التى كان شريف باشا نفسه قد وضعها فى أول عهد الخديوى توفيق ، ولم يجر العمل بها بسبب رفض الخديوى لفكرة الدستور والمجلس ، قالوا له :

ان الحكومة ستضع لائحة أخرى جديدة ومناسبة لتعرض على المجلس الجديد بعد انتخابه يقرها ! فالمسالة مجرد وقت !!

وتراجع عرابى أمام منطق الأعيان ، وصرخ نديم فى أول مرة انفرد فيها بعرابى :

ــ ولكن مثل هذه الانتخابات التى يغيب عنها الشعب لن تقدم للمجلس غير هذه الحفنة من الأعيان !

وقال عرابى بهدوء وهو يعبث بحبات مسبحته :

ــ أعرف .. ولهذا فلن يهتموا بمعارضة اللائحة القديمة ، وتشددنا فى رفضها قد يدفعهم الى أحضان شريف !

ــ ليذهبوا جميعا الى جهنم !

ــ أيها المندفع .. لابد من اصطناعهم .. فهم القوة والثروة ! وهم يعطون الثورة وجهها الشعبى .

ــ والشعب كله الا يعطى شيئا ؟

ــ هل نسيت درس الجمعيات ؟ الم يقل لك احد الرجال يوما ان الشعب كله واقع فى قبضتهم ؟

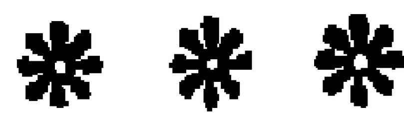
ــ نعم ، ولكن الظروف الآن تختلف ...

ــ وتختلف أيضا بالنسبة لهم ، ولنا ، اننا نواجه اعداء فى الداخل والخارج ، وبدلا من أن يجد الوفد التركى ، الحكومة والجيش والحزب الوطني ، صفا واحداً نريد أن نقدم للوفد التركى فرصة العمر بخلافاتنا !

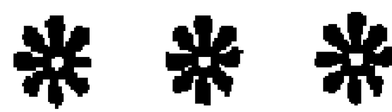
***

وصمت نديم ، ولم يكن صمته اقتناعا كله ، بل مواصلة للتفكير والموازنة ، انه لا يتصور نفسه منفصلا عن تلك الحركة ، ولكنه أيضا لا يتصور أى خير يرجى من مجلس نيابى لا يضم

سوى هذه الحفنة من الأعيان التى يتصدرها رجل اسمه سلطان باشا كان أحد الأدوات التى استغلها اسماعيل باشا فى نهب الصعيد ، وذهب اسماعيل باشا وبقيت الأداة لتتصدر الحركة الوطنية فاى أمل يعلق على هذه الحفنة ؟ وأي دستور يمكن أن تتبناه ؟



وطلب عرابى من نديم أن يستعد ليرافق آلاى عبد العال حلمى الى دمياط ، ثم يعود ليرافق آلاى عرابى المسافر الى رأس الوادى ، وألمح عرابى الى الفرصة المتاحة لنديم للقاء الجمهور على أوسع نطاق ، وألمح نديم الى أن الفرصة الحقيقية ستكون للجيش الذى يظفر به كداعية وخطيب ، وضحك الرجلان ! ولكن « نديم » لمح فى الوقت ذاته ما يمكن أن يصبح لمقالاته من النفوذ بعد أن يرى الشعب بعينيه مكانه من الثورة فى هاتين المرحلتين ، وزاد ذلك من تصميمه على ما كان يخالج فكره بالنسبة لمسألة الانتخابات !!

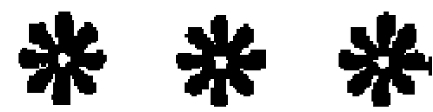


.. وعلى طول الطريق من المحروسة الى دمياط قدر لنديم أن يرى لأول مرة صورة جديدة لذلك الحدث المسمى .. ثورة !

.. ولم تكن تلك أول مرة يبصر فيها نديم وجه الحشد حين يتعاظم فيغطى وجه الأرض ، وحين ينبض بشعور واحد فتصبح العيون والأيدى والشفاه والأصوات تعبيرا واحدا عن ذلك الشعور الواحد ! ولكن تلك كانت أول مرة على التحقيق يرى فيها هذا الوجه الواحد ، والشعور الواحد ، والتعبير الواحد ، يسابق

القطار الذى استقله نديم مع آلاى عبد العال حلمى فى رحلة شملت الدلتا الفسيحة من الجنوب الى الشمال يسرع وسط الحقول ويبطىء قرب المحطات ، ويتوقف فى الميادين ، ويجفف حبات العرق ، ويعقد أكاليل الزهور ، ويسكب فرحته فى أكواب « الشربات » التى اشتركت بدورها فى سباق القطار ، وما ان يقف نديم ليخطب حتى يكف الوجه الصاخب النشوان عن الحركة وتعكس الملامح توقعا عذبا ، ودرجة من التذكر ، لا تخطىء طريقها ابدا الى عينى نديم المرتعشتين دائما وكأنهما تعانقان الوجه الأمل المتذكر المنتظر !

ولم يكن نديم يتذكر خطبه الا حين يقرؤها فى اليوم التالى منشورة فى أغلب الصحف !

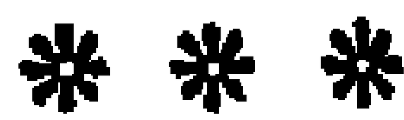


وحين عاد نديم ليشارك آلاى عرابى رحلته الى راس الوادى ! التقى من جديد بنفس الوجه ، ودهش حين اكتشف ان وجه الحشد مثل وجه الفرد ، ماكر ويعرف التفرقة !

كان هذا هو عرابى زعيم الثورة وبطلها ، وغدا الوجه أكثر تعبيرا ، واكثر فضولا وتطلعا ، انه لا يترك نافذة او شرفة او سطحا أو فرع شجرة ! انه يهتف ويغنى ويزغرد ، انه يزيح النقاب على ملامحه النسائية ، ان فرحته تتضاعف فيتضاعف الزحام والعرق واكواب الشراب واكاليل الزهور !! وان سرعته تتزايد فيبطىء الموكب ، وحجمه يتعاظم فيبطىء القطار ، وتتزايد المحطات ، وتتزايد الخطب ولكن « نديم » لا يخطب وحده هذه المرة ، فعرابى يخطب أيضا ويفاجأ نديم بأن عرابى هذا يوشك ان يبزه كخطيب ولكن الوجه الكبير يحسم الموقف بين بالرجلين ، فيهتف لعرابى كزعيم للثورة ، ولنديم كخطيب لها !!

وتدمع عينا نديم ، ولكن احدا لا يرى الدموع ، عرابى وحده هو الذى احس بها على شفتيه حين قبل « نديم » بعد انتهائه من احدى خطبه على مرأى من الحشود الزاخرة !

وهكذا حدد أول لقاء بين قادة الثورة والشعب مكان نديم فى الثورة ، ولكن عرابى الذى ادرك خلال هذه الرحلة القدرة الخارقة التى يملكها نديم فى التأثير على الجماهير ، لم يتردد فى أن يكشف عن الدور الذى لعبه نديم فى التمهيد للثورة بل وفى مظاهرة عابدين ، وكان ذلك فى مدينة الزقازيق واثناء خطبته فى الحفل الذى اقامه له أمين بك الشمسى كبير تجار المدينة ، لقد تحول نديم بدوره الى بطل واسطورة وغرق فى الحفاوة التى غمره بها اعيان الشرقية !



واكتشف لذهوله أن جمهور « التنكيت والتبكيت » بين الأعيان لا يقل عن جمهورها بين بقية الشعب !

ولم يعد لديه أقل شك فى أنهم جميعا قرءوا العدد الأخير من المجلة ، الذى كتب فيه حوارا مع تليمذه عن قضية الانتخابات ، وانتظر ان يناقشوه فيما كتب ! وتحفز للرد ، وتهيأ للمعركة ، ولكن احدا لم يشر بكلمة الى ما كتب ! كانوا سعداء الى الحد الذى لا يستطيعون فيه أن يوجهوا غضبهم نحو شخص أو شيء !!

سعداء وكرماء الى الحد الذى دفع وجيها اسمه عباس افندى الزمر الى أن يسدد ديون قريته التى تزيد على خمسة آلاف جنيه للمرابين الأجانب لينقذ أرضها من الرهن !

على حين كان البعض الآخر يواصل تقديم الطعام والثياب للفقراء فى كل البلاد التى يزورها عرابى !!

وتساءل نديم : اتراهم لم يقرءوا ما كتب ؟ ام انهم لا يبالون به ولا بمجلته ؟ أم أنه اخطأ فى تقدير حقيقتهم ؟ ورد عرابى اليه روحه حين قال له فى غضب :

ــ اجننت يا نديم ؟ وكانت فى يده المجلة .

وفهم نديم انه قرأ المقال .. وتساءل فى براءة مصطنعة :

ــ لم ؟ ..

ــ هل هذا وقت تكتب فيه هذا الكلام ؟

ــ وما جدوى أن اكتبه بعد ذلك ؟

واكد له عرابى انه لم يختلف معه حول اشياء كثيرة مما ورد بمقاله ، ولكن الوطن الآن فى حاجة الى تضافر كل ..

وقاطعه نديم فى غيظ :

ــ ان احدا لا يولى الموضوع اقل اهتمام !

ــ كنت أظنك رجلا عرك الحيـــاة ، وربما لم يتكلم أحدهم معك ، ولكن أحدهم ردد لى من ذاكرته فقرات تطعن فيها طعنا قاسيا على طبقة العمد والأعيان ! وتتهمهم ...

وقاطعه نديم:

ــ وهل قرأت أنت المقال ؟

ــ نعم !

ــ هل من الخطأ ان أدعو الى ضرورة تكوين المجلس من فئات تمثل طبقات الشعب ؟ هل يصلح الاعيان وحدهم للتمثيل

شعب مصر ؟ أليس من الضرورى أن يكون معهم علماء وصناع و ..

وقاطعه عرابى محتدا :

ـــ هل تظن ان أية انتخابات تجرى الآن مهما توافر لها من الحرية ، يمكن أن تجيء بغير الأعيان ؟!

وفى ضجر اجاب نديم :

ـــ اظننى أجبت على هذا السؤال فى مقالى :

واندفع عرابى محنقا :

* * *

ـــ وفى الوقت الذى يوجد فيه وفد تركى لمين فى البلاد ، وفى الوقت الذى تتحرك فيه قطع الأسطول الانجليزى والفرنسى الى بلادنا بحجة منع التدخل التركى ، وفى الحقيقة ارهابا للثورة، وبينما يجد رجال القصر من الاتراك والجراكسة ـــ الذين لا يفرتون فى كراهيتهم للمصريين بين الأعيان وغيرهم ـــ فى كل ذلك فرصة ليرجفوا بأحقادهم ضد الثورة ! فى هذا الوقت تريد اثارة قضية لن يفيد منها الشعب مثلما يفيد أعداؤه !!

* * *

ومن جديد صمت نديم ، وفى هذه المرة أيضا لم يكن صمته اقتناعا كله ، كانت بذرة شك قد بدأت تنمو فى ذلك الصمت ، ربما لا يكون الوقت حقا هو المناسب ، لاثارة المشكلة ، ربما كان من الضرورى أن يصمت ، وأن ينتظر ، وأن يرقب ما يتمخض عنه ذلك العالم المعقد الذى أصبح جزءا صغيرا منه .

وإذا كان من الضرورى أن ينتظر مما الذى يبقيه هنا وسط المآدب والحفلات ؟ ويعود نديم الى المحروسة ليتابع تحركات الوفد التركى ليسجل الخطب والأقوال والتصريحات ، وليرى كيف وقف الشعب كله يسد أمام الوفد كل الثغرات ، فالشيخ « عليش » امام المالكية والرجل ذو النفوذ الروحى الكبير ، والسيد توفيق البكرى الذى اجتمعت فى داره أول جمعية وطنيـة ، وفـرق الجيش ، وجماهير الشعب وكتاب الصحف ، جميعهم كانوا أروع تعبير عن الولاء للثورة ولعرابى ، ولم يجد الوفد التركى بين صفوف الشعب ثغرة ينفذ منها ، ولم يبق أمام الوفد الا أن يعود من حيث أتى ، ولم يبق أمام السفن الانجليزية والفرنسية التى اتخذت من مجيئه ذريعة الا أن تقلع فور سفره من نفس الميناء ، ولم يبق أمام رجال القصر الذين رأوا فى وجود السفن الأجنبية فرصة العمر لارهاب الثورة وهى لما تتشكل بعد فى نظام فرحوا يرجفون ويهمسـون الا أن يصمتوا فى انتظار فرصة أخرى !



ولم يبق أمام نديم الذى رأى أن الوحدة الوطنية آنذاك هى قارب النجاة الوحيد الا أن يكتب مقالا عنيفا ينشر فيه كل ما سجله من آيات هذه الوحدة !! والا أن يتابع سلسلة وصاياه للوطن والمواطنين وسلسلة خطبه النموذجية لتلاميذه وأنصاره !

مع أن مناورتى الوفد التركى والسفن الأجنبية قد فشلتا فشلا ذريعا الا انهما كانتا اشارة لا تخطىء لاتجاه الحوادث ، فقد بدأت الأنظار تتجه أكثر فأكثر فى متابعة دقيقة للمطامع الخارجيـة ، وأصبح ما تنقله الصحف المصرية عن الصحف الأجنبية من تعليقات على أحداث مصر موضوع المناقشة فى المقاهى والبيوت ، وحتى

ذلك الحين كانت بعض الصحف الأجنبية تجتهد فى ستر نوايا دولها العدوانية ، وتتحدث عن حق مصر فى الحرية وتبارك هذه الحرية ما دامت لا تمس حقوق الدول الأجنبية فى مصر !

وهكذا أصبحت أحاديث هذه الصحف موضوعا للتندر فى كل مكان ، وأصبح ما لهذه الدول من حقوق فى مصر موضوع المناقشة فى كل صحيفة !

* * *

وكتب نديم عن هذه الحقوق المزعومة على لسان مصر تخاطب أحد أبنائها « وأصبحت بين الغرباء كالأجير والخادم ، والمستعبد ، فما رأيت من قصر لطيف فذاك للمسيو ، وما نظرت من جنائن وأباعد فهذا للمستر ، وما بلغك من بنك ومتجر فهذا للخواجا ، وما سمعت من رفعة وانعام فهو للسنيور ، وقد صار الاسكاف عندنا مهندسا والمزين طبيبا ، وخادم الخيل رئيسا ، وذليل بلاده وطريدها عزيزا ومحبوبا ، وأهلى يجاهدون فى خدمتى فتدركهم جهالة أمرائى بالهزيمة ، وأرضى ملكا لأوضاع لا يملكون القوت فى بلادهم ، وادارتى أجنبية محضة فى يد من لا يعرف نعتى ، ولا ينظر الى الا بعين الهوان » .

* * *

وقال محمود سامى البارودى صديق نديم القديم وأشهر شعراء مصر آنذاك والذى بقى وزيرا للحربية فى وزارة شريف باشا قال له ، لنديم :

ــ لدى مفاجأة سارة لك !

وتطلع نديم ليرى المفاجأة ، فقاده البارودى الى قصره وهناك التقى بالمفاجأة ، ولأول وهلة لم يصدق عينيه .. أحقا هذا

أديب أسحق ؟ كان الفتى السـ‍ـ‍ـ‍ـ‍ـوري النحيل الذى قدم لتوه من بيروت ، التى عاد اليها من باريس بعد أن ساءت صحته هناك ، قد ازداد نحولا ، ولم يبق منه سوى بريق عينيه ، وفخامة صوته ، وازداد جلده الأبيض بياضا ! وتعانق الصديقان ، ولأول وهلة تجاهل كل منهما الحديث عن صحة الآخر ، كان نديم يتفجر حيوية ونشاطا ! وانصرف البارودى بعد أن هيأ للصديقين فرصة لقاء طويل فى بيته !

ــ من كان يصدق يا نديم أن نلتقى من جديد ، وبالثورة فى مصر ؟ ويسعل اديب قبل أن يتابع :

ــ كنت أخشى أن أموت قبل أن أراك ، وأرى مصر !

ــ الشيطان لا يرضى بموتك فى هذه السن ، فتلك خسارة له لا تعوض !

ــ ايها الملعون ، الخسارة الحقة أن تموت أنت قبل أن تزور باريس !

ويضحك نديم قائلا :

ــ لن نكون فى حاجة الى زيارة أوربا يا صديقى فهى فيما يبدو مصرة على المجىء الى هنا !

ــ أنت لا تنسى السياسة أبدا ، ويعاوده السعال ويخرج من جيبه منديلا يمسح به فمه .

.. ويصمت قليلا ، ولا يجد نديم بدا من الافصاح .

انت مريض يا أديب ، أنت فى حاجة شديدة للراحة يابنى !

واغرورقت عينا أديب الواسعتين :

ـــ أتعرف ؟ كنت أخشى أن أموت فى باريس ! دعنى أنصحك يا نديم ، لا تمت ابدا فى الغربة ! يمكنك ان تعيش ، لكن حين تنوى الموت تعد الى بلادك !

ويكتم نديم انفعاله ، محاولا أن يحتفظ بروح المرح :

ـــ لو مت هنا فنحن بريئـــــون من دمك ، باريس هى التى قتلتك !

ـــ نعم .. باريس .. فتاة حلوة يا نديم اسمها مارجريت هناك هى التى قتلتنى ، ساريك صورتها ، ويتحوك أديب ليفتح احدى حقائبه ، ويتوقف فى منتصف الطريق ليقول لنديم :

ـــ ما لم تعشق فتاة فرنسية فلا تتكلم عن الحب لأنك لا تعـــــرفه .

ثم تابع وهو يعالج فتح الحقيبة ودون ان ينتظر ردا من نديم :

ـــ ستقول لى انك اكتفيت بحب مصر ! انا اعرفك !

* * *

ويعاود أديب التمدد فوق أريكة جانبية بجوار نديم وبينهما مجموعة من الصور والذكريات ، وما تبقى من زجاجة خمر كانت ترقد فى نفس الحقيبة ، كان أديب يشرب ويثرثر ، ونديم بجواره ، نصف متمدد ، نصف منتبه !

ـــ ما لم تشرب معى فى هذه المناسبة فمتى تشرب ؟

ـــ سعادتى بك توصلنى للنشوة !!

وفى الحقيقة أن « نديم » الذى راح يستمع بنصف عقله الى أديب كان يعيش بالنصف الآخر مع آخر رسالة وصلته من صديقه احمد سمير ، لقد حكى له فيها ما كان ينتظره ، ومالم يكن ينتظره

أبدا ، لقد كان أحمد سمير الذى ترك الأرملة تختفى ، هو نفسه الذى وجدها بعد أن عرف كم يحبها نديم !!

* * *

عرف بيتها القديم من التلاميذ ثم سأل الجيران الذين توقع أن تمر بهم ، سألهم عن « سالم » فدلوه على أمه ، وكانوا هم الذين ساعدوها على أن تعمل فى خدمة أوربيين عجوزين ، وكانت هى التى طلبت مثل هذا العمل لأنها لا تحب العودة حيث كان ، ولأنها اعتقدت أن ابنها لابد وأن يجىء يوما لملاقاة أستاذه ، وكانت تفكر فى الاتصال بنديم مرة أخرى ليعرف مكانها ، وليساعدها على لقاء ابنها حين فوجئت بأحمد سمير يطرق باب حجرتها ليؤكد لها أنه سيكون فى خدمتها حتى يعود نديم أو يعود ابنها !

اى تدبير بارع يحيكه القدر ؟ والغريب أن « نديم » الذى لم يكن يحلم بشىء كهذا أصبح لا يخاف فى حياته مثل تلك اللحظة التى يمكن أن يلتقى فيها بهذه الأرملة الجميلة ، والتى تتأبى حتى فى أحلامه عن أن تأخذ علاقتها به أية صورة بشرية ، كانت ملامحها قد اختفت تماما من رأسه ، ولم يبق منها ســــوى ذلك الارتياح الغامض ، والنشوة المجهولة !

* * *

أهى تنتظره حقا أم تنتظر ابنها الغائب ؟ وماذا يعنى القدر بأن تنشد انسانته الغالية تلك ، الأمان فى ظل أوربيين عجوزين ؟

وينتبه نديم حين يسأله أديب ملحا :

ـــ فهل كنت مخطئا لأننى لم أتزوج مرجريت ؟

ـــ نعم ، قالها نديم بلا تفكير .

ـــ أنت لم تكن تسمعنى ؟

ــ نعم !

ــ ايها الابله ، الا تريد ان تنسى التفكير لحظة فى الثورة ؟

واطل وجه البارودى من فتحة الباب دقيقا أنيقا مبتسما :

ــ تأخرت عامدا حتى تشبعا من الحديث ، ويشتد بكما الجوع الى مائدتنا !

* * *

وتقدمهما الى قاعة الطعام ، كان يتكلم ويتحرك فى رقة وترفع اصيلين وفى عينيه لمعة حلم لا تخفت أبدا وجلسوا الى المائدة حيث أعد الطعام تشتهى أن تراه ، مثلما تشتهى أن تأكله ، وفى كل ما تقع عليه العين فى القاعة من ثياب الخدم ، الى المفارش الى الأوانى والستائر والسجاد والتحف ، كنت تلمح لمسات الجمال والثراء والذوق !

ــ وبالنسبة لمن ذاق طهو باريس أرجو أن يعجبه طعامنا ؟ ويبتسم أديب ، بينما يسترسل البارودى فى ذكرياته عن باريس وطعامها ونسائها ، ويشاركه أديب فى الحديث وينفرد نديم بالطعام ليقاطعهما قائلا :

ــ من يسمعكما يظن أن كل شىء حسن فى باريس عدا السياسة .!

ــ هذا صحيح ! قالها البارودى مؤكدا

وعاد نديم يسأل متهكما :

ــ كيف يأتى الخبيث من الطيب ؟

ــ اذا كنت تعنى الاستعمار فهو قديم قدم العالم ! قالها اديب بعد أن توقف لحظة عن تقطيع شريحة من اللحم !

قال نديم وقد توقف تماما عن الطعام :

ـ أنت اذن تفرغ حضـارة أوربا من كل معنى من معانى التقدم !

وتدخل البارودى !

ـ هذا يتوقف على ما تعنيه بكلمة التقدم !

وصمت نديم قليلا ، كان همه الأكبر ان يدرس حركة التقدم كظاهرة تاريخية ، معناه .. بواعثه .. غاياته .. هل يستقيم كخط أم ينحنى كدائرة ؟ كان ذلك همه القديم والعظيم ، ولقد بدأ فى تأليف كتاب يناظر بين دورات التقدم شرقا وغربا ولا يدرى متى يتمه ..

* * *

وحين تكلم نديم كان قد قرر أن يحيل الموضوع لنكتة فقال موجها حديثه لأديب اسحق :

ـ أفضل أن يحدثنا عن معنى التقدم ، الرجل الذى كان يصدر فى بيروت جريدة باسم التقدم !

ويصرخ أديب اسحق :

ـ نجنا يارب من نديم ، يشغلنا بمشكلات التاريخ وهو غارق فى مشكلات الحاضر !!

وفرغوا من طعامهم ، وبدأ نديم يتهيأ للخروج ، وسـألـه البارودى :

ـ الى أين ؟

ـ الى أى مكان ! ثم أضاف : يمتلك الشحاذ نصف العالم ويضحك اديب قائلا :

ـــ شحاذ الثورة !

ويجتذبه البارودى من يده قائلا :

ـــ ستبيت هنا ، ثم تابع ـــ مشيرا الى اديب ـــ : انه ضيفك فكيف تتركه ؟ وقال نديم ضاحكا :

ـــ هذه أفضل الطرق للتخلص من كلينا !

وفى تلك الليلة لم يناما حتى الصباح ، واستخلص منه نديم كل مالديه من أخبار وتكهنات عن موقف أوربا من الثورة حتي ذلك الحين !

* * *

وبطريقة ما أصــــبح نديم محامى الثورة ، ودون أن ينتظر توكيلا من أحد ، راح يدافع فى كل الجبهات ، وبكل الاسلحة ! فحين يحاول صــــحفى فرنسى اســـــمه « شـــــارم غبريال » فى جريدة « الدبيا » أن يشكك فى اصالة الثورة المصرية ، وان يوهم انها صدى لمؤامرات الآستانة التى تحاول أن تسترد نفوذها فى مصر ، حينذاك يرد نديم فى مقال عنيف يســـــتغرق عددين كاملين من المجلة ليوضح اصالة الوطنية المصرية التى لا تتعارض بحال مع الولاء الدينى لخليفة المسلمين مادام يحترم اســـــتقلال مصر ، بل تقوى بهذا الولاء !

انه لا يجد مانعا من أن يستند الى تركيا وهو يوجه ضرباته لدولة اجنبية ، فيكسب تركيا ، والأتراك المصريين ، وفوق ذلك جانبا من مشايخ الازهر يرون فى الولاء لتركيا جزءا من العقيدة !!

ولا يجد مانعا من أن يستند الى الأعيان المصريين حين يندد فى خطبه ومقالاته بمساوىء العهد القديم فى مصـــر حيث كانت

السلطة المطلقة فى يد الأتراك والجراكسة ، فيكسب هؤلاء الأعيان، ويكسب معهم جانبا آخر من مشايخ الأزهر يكرهون النظام التركى القديم ولكنهم ينظرون فى شك كبير الى جدوى ثورة تعتمد على الجيش لا على العناصر المدنية !

***

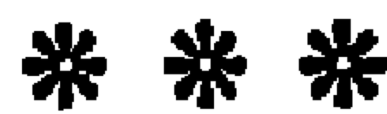
ولكنه فى النهاية يستند الى فلاح مصر حين يتحدث الى الأعيان المصريين عن حقوق هذا الفلاح ، وعن الاقتصاد المصرى الراكد وضرورة تحوله الى الصناعة ، وعن الجمعيات باعتبارها الوسيلة الوحيدة لتجميع نقود تسمح بتمويل الصناعة ! وحينذاك يكسب الأغلبية الساحقة من صغار الفلاحين وصغار الصناع والتجار ، ويثير الحماسة فى صدور الضباط وصغار المشايخ الذين يؤيدون الثورة بلا تحفظ والمحامى البارع يعرف ماذا يقول ، ومتى يقوله ؟ فحين يضيق شريف باشا رئيس الوزراء بخطب نديم ومقالاته التى تسرف فى الحديث عن حقوق الفلاحين ، وعن عرابى كزعيم يمثل هؤلاء الفلاحين ، وحين يهدد ويتوعد !! يستند نديم الى عرابى نفسه ، ولم يبق أمام عرابى الا أن يضع هذا المحامى فى مكانه الصحيح ، فيقترح عليه أن ينشىء جريدة اسمها « لسان الأمة » جريدة لا مجلة ، جريدة ليست فى حاجة الى أسلوب « التنكيت والتبكيت » الذى اقتضته ظروف لم يعد لها وجود .. جريدة تتسع لما يضيق به صدر هذا الرجل الذى لا يعلم الا الله ماذا يمتلىء به صدره !!

***

وحين كان نديم يودع آخر عدد من التنكيت والتبكيت كان يودع آخر ابنائه ، ولم يستطع محامي الثورة ان يدافع عنه ضد الموت !

ولم يكن موت طفل ســـوى حادث مألوف فى وقت ، وفى مجتمع كان لا يجتاز عتبات الطفولة فيه غير أقل عدد من الأطفال ولم يكن نديم هناك فى أى وقت مرض أو مات فيه أحد أطفاله !

دائما كان يتلقى أخبار وفاتهم ، ودائما كان يقسم لنفسه ان يثوب مرة لقضاياه الخاصة ، ودائما كان يشعر بالذنب لموتهم ، وأحيانا لحياتهم ، ودائما كان يقول لنفسه : أى خير يمكن أن تقدمه للناس وأنت عاجز عن أن تعنى بأولادك ؟ ودائما كان يحنث فى ايمانه ، وفى هذه المرة لم يعد فى حاجة الى قسم جديد ، كان فى حاجة الى أن يتركوه لنفسه ، نديم الذى عاش للناس وبهم كان لا يرجو شيئا مثل أن يتركه الناس لنفسه بعض الوقت !!



وفوجىء نديم وهو فى أعماق وحدته ، التى لم تخفف منها وفود المعزين ولا عشرات الرسائل ، فوجىء بقلبه يدق فى عنف وهو يرى بين المعزين تلميذه القديم « سالم » ، وأخيرا كان موت آخر أطفاله الفرصة الوحيدة لهما معا لكى يتحقق هذا اللقاء الذى ظل أعواما يتأرجح فى كفة القدر !

وفوجىء نديم بكل آلامه ، بكل ما يضيق به صدره الذى لا يعلم الا الله ماذا ينطوى عليه !

فوجىء بهذا كله يتحول الى مجرد رغبة ، رغبـــــة مجنونة وعارمة فى أن يلتقى بأرملته الجميلة ، فى أن تكون هذه المرأة هى ما ينتزعه من هذا العالم الغريب الذى لا يمتلك فيه الناس سوى أوهامهم !

فى أن ينجب منها أطفالا لا يموتون ! وفوجىء نديم مرة أخرى بسالم يلوذ بصمت لعين حين انتهى حديثه معه بسؤاله عن أمه !

ـــ انها هنا فى الاسكندرية !

كان هذا كل ما قاله بعد فترة الصمت !

ـــ وما معنى بقائك فى « المحلة » بعيدا عنها ؟

ـــ لم تعد فى حاجة الي !

ـــ كيف ؟ قالها نديم بذهول

ـــ فيما بعد أوضح لك !

* * *

وكان « أحمد سمير » هو الذى أوضح لنديم كل شىء ، وكان ذلك بعد اقسى أيام قدر لمحامى الثورة أن يشعر فيها بمدى فشله العظيم فى كل قضاياه الخاصة !!

« طبعا الناس يتغيرون ، لو رأيتها لما عرفت فيها تلك الام التى رأيتها ذات ليلة فى لحظة جزع على وحيدها ، سالم نفسه لم يصدق أن هذه هى أمه ، كيف تتخيل مصير ارملة تخدم لدى أوربيين ؟ أصبحت فى حديثها وثيابها وسلوكها مسخا غريبا ، فزع « سالم » من رؤيتها ، وطبعا لم توافق على أن نعود معه ، ولم يقبل أن يبقى معها ، وأشارت الى أن رجلا يعمل لدى عائلة أخرى أجنبية يريد الزواج منها ! لست ألومها ، ربما يكون سالم أو أنت قد « تأخرتما » قليلا فى البحث عنها ، ولم تفقد جمالها ، رغم أنها فقدت براءته ، كانت حجرتها قد أصبحت أنيقة، ومليئة

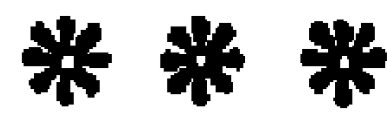
بالاثاث ، وكانت قد أصبحت شقة أنيقة ! وصمت أحمد سمير حين رأى « نديم » يتململ وهو يستمع اليه ويكاد يرجوه أن يصمت » !



ولكن الحياة تمضي في طريقها رغم الموت والاحزان ! وينقضى الخريف ويجىء الشتاء ، وتصبح الثورة التى كانت مجرد اقتراح عنيف ، نظاما ، فالأعيان قد احتلوا مقـاعدهم فى أول مجلس نيابى بعد الثورة وعرابى الذى تحول فى منفاه الى زعيم يبث أفكاره بين الجماهير فى راس الوادى حيث اريد له أن يكون بعيدا عن التأثير فى السلطة قد عاد ليتولى منصب وكيل نظارة الحربية حيث اريد له مرة اخرى أن يكون بعيدا عن التاثير فى الشـعب !

وأديب اسحق صديق نديم القديم قد وجد فى النظام الجديد اكثر من مكان ، فهو رئيس قلم الترجمة بديوان المعارف وسكرتير المجلس النيابى الجديد ، واكثر من ذلك تحسنت صحته !

والشيخ محمد عبده الذى كان جزءا من النظام الســابق والذى كان لايزال يجادل فى شرعية الثورة كاسلوب ، ولا يمل مناقشة العلاقة بين القوة والقانون ، ولايزال براس تحــرير الوقائع المصرية ، قد أصبح رقيبا عاما على الصحف !



وكانت « التنكيت والتبكيت » قد أصبحت ذكرى حلوة يتندر بها الناس ، أما « لسان الأمة » التى اقترحها عرابى على نديم فقد اصبح اسمها « اللطائف » .. جريدة جديدة تصدر كل أربعاء ، وجه آخر من وجوه نديم ، وجه جاد وحاسم وعصبى ، لا وقت لديه للتنكيت والتبكيت ، وجه كرس نفسه لقضية واحدة لا غير بعد أن خسر كل قضاياه الخاصة !!

ولكن القضية الواحدة التى كرس لها نديم كل وجوده كانت تنزلق من اصابعه ، كانت قد أصبحت مشروع لائحة للدستور الجديد وضعها شريف باشا وعرضها على المجلس النيابى تمهيدا لاقرارها :

والتقط الشعب الذى كانت الثورة بالنسبة له لاتزال مجرد وعد ، التقط المشروع ليجده يتضمن بندا يقضى بالا يتعرض المجلس لمناقشة أجزاء الميزانية المتعلقة بجزية الباب العالى ، والدين العام ، وكل ما فرضه قانون التصفية على الخزانة من نفقات !

وتساءل الناس : وماذا يناقش المجلس اذن ؟

ــ ما يتبقى بعد ذلك من الميزانية وأوجه انفاقه داخل البلاد !

ــ وما نسبة المتبقى من الميزانية ؟

ــ النصف تقريبا !

ــ وما معنى ذلك ؟

ــ معناه ان كل ما أقره قانون التصفية الذى وضع فى أعتى ظروف الحكم المطلق سيبقى كما هو !

ــ ومعناه أيضا أن لا أمل فى أى اصلاح جدى ، فنصف الميزانية لا يزيد على أربعة ملايين من الجنيهات !

ــ ولم كانت الثورة اذن ؟

وكان على الأعيان أعضاء المجلس أن يجيبوا قبل غيرهم على هذه الاسئلة !

أليسوا هم ممثلو الشعب ؟ ألم تنته قضية الثورة الى أيديهم ؟ وثار الأعيان فى أول الأمر ، وتلقف شريف باشا ثورتهم !

ـ خطوة مخطوة !

ـ أهذا ما كنا ننتظره ؟

ـ اقرءوا بقية المشروع .. الوزارة مسئولة أمامكم ، لن تفرض ضريبة جديدة ، أو يسن قانون الا بموافقتكم ، أين كنا وأين أصبحنا ؟

ـ هذا بالنسبة للمستقبل ! لكن أخطاء الماضى كيف تصفى ؟

ويتدخل الشيخ محمد عبده ليفلسف المسألة : « لقد ظللنا ننتظر حريتنا عدة قرون ، أفيصعب علينا أن ننتظرها بضعة شهور ؟ »

وألمح شريف باشا الذى كان على صلة بالمراقبين الأجانب الى المخاطر والمخاوف ، الأجانب لن يسمحوا بأن يمس قانون التصفية ، انه معاهدة دولية ! ولا معنى لأن نقدم لهم فرصة التدخل المسلح !

* * *

وقال محمود واصف لنديم :

ـ أتذكر ما قلته لى يوما عن الشجاعة ، بعد أول لقاء لك مع عرابى ؟

وصمت نديم متذكرا :

وعاد محمود واصــــف يقول : جاء دورى لأحدثك عن الشجاعة ! انها تواتى الرجل الذى لا يمتلك شيئا ، لتعطيه نجاة كل شىء ، وصمت محمود واصف لحظة قال بعدها لنديم الذى كان ينصت باهتمام .

ــ وبعد ذلك تكون الشجاعة هى اول شىء يفقده الرجل الذى اصبح مالكا لكل شىء !

***

وابتلع نديم سخرية صديقه ، كان يدرك أنه لا يسخر منه ، ولعله يقصد عرابى شخصيا الذى كان لايزال يتبع ســـياسة المصالحة فى الداخل والخارج ، فيحاول عن طريق المراســـلات السرية أن يكسب تأييد سلطان تركيا لحركته ، ويحاول عن طريق صــداقته بلورد انجليزى اســـمه « بلنت » أن يكسب عطف جلادستون رئيس وزراء بريطانيا ، ويستخدم اللورد « بلنت » لينشر فى التيمس بيانا بسياسة الحزب الوطنى يتحدث بلهجة معتدلة عن امانى المصريين فى الحرية ، واحترامهم لحقوق الدول مادامت هذه الدول تحترم حقهم فى أن تكون مصر للمصريين !! مؤملا فى كسب الرأى العام الانجليزى ويحاول عن طريق تساهله فى ميزانية الجيش وتنازله عن جزء من الزيادة المطلوبة لابلاغ الجيش الى ١٨٠٠٠ جندى أن يتلافى حدوث ازمة مع المراقبين الأجانب ! ولكن محمود واصف لا يقصد ابدا « نديم » نديم لم يمتلك فى الماضى أو الحاضر ما يخاف عليه ، ومع أن عرابى كان يعتبره أحد جنوده ، فلم يحصل على اية امتيازات من التى حصل عليها كبار الضباط او صغارهم ولم يصبح جزءا من الحكومة ، كان مجرد محام ، وهو الآن محام بلا قضية ، أو محام فى قضية لا يملك فيها نقضا ولا ابراما ، وكان القضاة من اعضاء المجلس

قد بدءوا يسخرون من مدى حكمتهم !! وبدءوا يرددون كلمات شريف باشا صحيح ، اين كنا واين أصبحنا ؟ وهل يكون تعريض البلاد لمخاطر التدخل الأجنبى هو باكورة اعمالنا ؟

***

وفى الحق أن قضية التدخل الأجنبى المسلح التى برزت فى أفق الحياة المصرية منذ اول يوم لثورة الجيش ، كانت هذه القضية تزداد مع الأيام بروزا ، وكانت الصحف المصرية التى تمتعت فى تلك الفترة القصيرة بما لم تكن تحلم به من الحرية فى ظل الرقابة المستنيرة للشيخ محمد عبده ، تنقل أغلب ما تنشره الصحف الأوربية عن ثورة مصر واحتمالات التدخل الأجنبى ، ودواعيه ومحاذيره ، وكانت طبقات الشعب وفئاته المختلفة التى تقرأ ، والتى تسمع ، والتى تختلف نظرتها للثورة ومصلحتها فيها ، كانت كل فئة تستطيع أن تجد فيما تنشره هذه الصحف ما يؤيد وجهة نظرها !

***

فكان بمقدور المتفائلين ، والمتمسكين بالحقوق الكاملة ، والمؤمنين بأن الصراع بين انجلترا وفرنسا سيحول دون تدخل مشترك منهما أو منفرد من احداهما ، أن يجدوا فى خطاب « لورد جرانفيل » وزير خارجية بريطانيا الذى نشرته جميع الصحف دليلا لوجهة نظرهم ! وكان بمقدور الحذرين الذين لا يثقون فى نوايا بريطانيا ، والمعتدلين الذين ينادون بالتدرج أن يؤيدوا وجهة نظرهم بما جاء على لسان مراسل الستاندرد البريطانية تعليقا على نفس الخطاب !!

« لقد اخطأ « الايرل جرانفيل » حين قال انه ليس للحكومة الانجليزية من غرض سوى ثروة مصر ، وتمتعها بالحرية ، ولكن

هل يصدق الأهالى ذلك ؟ ان نوال ثقة المصـــريين بذكر ما لا يعتقدون مما يظهر تدليسنا ! »

وكان بمقدورهم ان يفحموا مناقشيهم بفقرات اخرى من نفس التعليق !

« هل يظن احد أن المستر « جلادستون » يعامل الأمم الأخرى حسب مبادىء الانجيل ؟ فالمسألة المصـــرية هى وجود انجلترا وفرنسا فى مصر بطريقة خاصة ، واذا قام مصرى من المحبين لوطنهم ، وقال لانجلترا ارفعى يدك عن مصر فماذا تفعل الحكومة الانجليزية ؟ » .



ولم تكن قضية التدخل الأجنبى المسلح الا احدى القضايا التى يناقشها الشعب المصرى ، وتناقشها صحافته ، وقبلها كان الشعب يناقش التدخل غير المسلح ، يناقش مسألة اعفاء الأجانب من الضرائب ، وحشدهم بلا مبرر وبأكبر المرتبات فى المصالح الحكومية ، وفضيحة اعانة دار الاوبرا بمبلغ تسعة آلاف جنيه للفرق الاجنبية ، فى الوقت الذى تئن فيه الميزانية من الفقر ، ولم ينتظر الناس أن يتفضل أعضاء المجلس من الاعيان بابداء رأيهم فى مشـــروع الدستور وابدوا هم بطريقة اصابت مراسل الستاندرد البريطانية نفسه بالذهول فكتب يقول :

« لقد سرت روح الوطنية فى مصر التى كانت مصـــابة بالسبات والوهن ، ومثل رقاد المصريين فى الماضى ونشـــاطهم الآن كمثل الغلال التى خزنت فى الاهرام آلاف الســنين وعند تعرضها للشمس ظهرت ونمت » .

« سرت الروح الى فلاحى مصر الذين كانوا مثل الرفات وهم طبعا يريدون تخليص مصر من النفوذ الاجنبى سواء أكان

من باريس أو لندن ، وبما أنهم عقلاء قالوا : نريد أن تكون مصر للمصريين وهذا بالطبع شيء زائد عن كون مصر لبشواتها وأعيانها » .

* * *

وقال محمود وأصف لنديم مرة أخرى ، وبنفس اللهجة المريرة :

ـ الخوف من تدخل أجنبي مسلح قد يوقعنا فيما هو شر من التدخل المسلح !

وواصل نديم نظرته المستفسرة بينما استرسل الرجل الذى كان أمينا لجماعة « مصر الفتاة » قبل الثورة واصبح بعدها مجرد موظف صغير !

ـ هذا الخوف يستغله الاعيان لتقف الثورة عند مجرد تحقيق مصالحهم ، ولا تمضى خطوة وراء ذلك ! الا زلت تذكر منشورات الحزب الوطنى القديمة أو حتى بياناته الجديدة انهم يتراجعون عنها الآن !

* * *

وقال نديم باقتضاب :

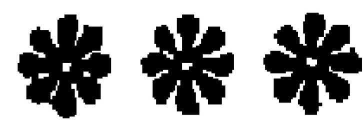
ـ ولكن مصالحهم نفسها تتعارض مع بقاء النفوذ الأجنبى !

ـ طبعا ، ولكن الى اى حد ؟ يمكنهم أن يضحوا ببعض المصالح لتبقى السلطة فى أيديهم واذا لم يخطىء تقديرى فالأجانب أنفسهم مستعدون لبعض التنازلات مادامت مصالحهم الكبرى لن تمس ومادام الأعيان يؤلفون مع حكومة شريف باشا جبهة قوية تمنع الجيش من فرض مطالب باسم الشعب !!

ومن جديد صمت محامي الثورة ، كان الصمت قد أصبح احدى فضائله ، وما جدوى ان يتكلم المرء اذا كان لا يملك غير الكلام ! لقد صرخ فى وجه عرابى مرة بعد اخرى وكتب ما يعتقد دائما انه الحق ، ولكن الحق نفسه لم يعد بالوضوح القديم ، وكأنه لا يسفر عن وجهه الا لاولئك الذين يتحدثون فقط عن الحق والباطل ، لقد اعترض على أن يكون سلطان باشا رئيسا لمجلس النواب ولكن عرابى قال له « يحتاج الصياد لصحبة الكلاب » !! وفوجىء بسلطان باشا يتحدث باستنكار عن دستور شريف باشا قائلا : انه كالطبل يحدث دويا لكنه أجوف !!

ثم فوجىء به يوافق ومجموعة كبيرة من النواب على الدستور الاجوف !!

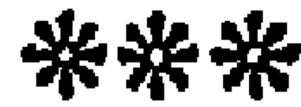
وليس يدرى أية مفاجاة اخرى تنتظره ! وكثيرا ما يشعر شعورا قاسيا بأنه يتفرج على رواية غريبة دون أن يكون له فيها دور حقيقى !! وتذكر تلك الأيام الخالية التى كان فيها المؤلف والممثل لرواية حقيقية اسمها « الوطن » ، رواية افلتت من يده وهربت من خشبة المسرح الى القرى والمدن ،. وكان هو البطل هنا وهناك ، ونظر فى يديه فوجدهما خاليتين ففركهما فى عصبية !



وجاءت المفاجاة بأسرع مما يتوقع ، جاءت هذه المرة من أوربا نفسها ، جاءت له وللحكومة ، وللمجلس وللشعب كله ، للمعتدلين والمتطرفين على السواء !

جاءت فى صورة مذكرة مشتركة بعثت بها انجترا وفرنسا فى ٨ يناير ١٨٨٢ تقولان فيها للخديوى توفيق « ان الحكومتين تعتبران

أن تثبيت سموه على العرش هو الضمان الوحيد لاستتباب النظام ، ولتقدم مصر ورفاهيتها ، والحكومتان متفقان على بذل جهـودهما المشتركة لمقاومة كل أسباب المشاكل الداخلية والخارجية التى قد تهدد النظام القائم فى مصر . وتعتقد الحكومتان أن الخديوى يجد من هذه التأكيدات الثقة والطمأنينة والقوة التى هو فى حاجة اليها لادارة البلاد » .



وفجأة انتهت كل المناقشات والتكهنات فى مصر كلها ، ووجد المعتدلون والمتشددون أنفسهم جنبا الى جنب ، كانت مصر كلها فى خطر ، خطر لم يتوقع حتى أكثر الناس تشاؤما أن يسفر عن وجهه بهذه الصورة ! لم يكن فى كل ما سبق من ظروف ومقدمات ما يبترز هذه المذكرة ، ولم تعد تجدى حكمة الأعيان ولا مصالحات عرابى ازاء هذا الخطر الذى يتهدد مصر كلها مصر الاغنياء ومصر الفقراء مصر الفلاحين ومصر الموظفين والتجار والصناع ، ولم يشذ عن هذا الموقف سوى الخديوى وطبعا حاشيته وصنائعه من الاتراك والجراكسة ! وقبل الخديوى المذكرة !

ــ وهل كان يمكن أن ترسل الا بعلمه وتواطئه ؟

هكذا قال الناس ، وقال بعضهم ومنهم شريف باشا :

ــ اذا كنا لا نقبل المذكرة ، فيمكن ان تؤجل الآن البحث فى البند الخاص بالميزانية من الدستور وهو الذى أثار هذه الأزمة !!

ــ أى تنازل عن حقوقنا لن يكون سوى مقدمة لمزيد من التنازلات ! هكذا أصر الأعيان ...

وحين حاول شريف أن يطلب مذكرة تفسيرية تخفف من وقع المذكرة السابقة ، وحين حاول قنصلا الدولتين اللذين فاجأتهما المذكرة ــ بعد أن رحبا باعتدال الأعيان ــ حين حاولا تلبية هذا

الطلب جاء رد حكومتيهما « وهو رفض أن يناقش المجلس أى جزء من الميزانية حتى ولو لم يكن متعلقا بالدين العام ، لما هو معروف عن المجلس من عدم الخبرة ، ومن ميوله العدائية نحو العنصر الأوربى » وكان رد المجلس أن أصر على حقه فى اقرار الميزانية كلها وكانت النتيجة أن الأرض التى تقف عليها وزارة شريف باشا — وهى التفاهم بين المجلس والمراقبين الأجانب — قد نسفت نسفا ، فقد خير أعضاء المجلس شريف باشا بين أن يعتمد حقهم فى اقرار الميزانية وبين الاستقالة ، وسقط شريف باشا بيد الأعيان ، وبيدهم أيضا جاءت وزارة جديدة على رأسها محمود سامى البارودى واشترك فيها عرابى كناظر للحربية !!

***

وقال الناس : هذه وزارة ثورة !

وانتظروا أن تقوم القيامة !!

ولم تقم القيامة ، ولم يصدق الناس عيونهم ، وبدا أسلوب الثورة وكأنه وحده الشافى من جميع الأمراض !

وقال محمود واصف لنديم مداعبا :

— الثورة شفاء للمصابين بالافرنجى وبالتركى على حد سواء !

وابتسم نديم فى رضا واضاف محمود واصف مناكدا :

— وللمصابين بالاعتدال !

— الاعتدال لا يكون مرضا دائما !

— يكون مرضا حين لا يأتى فى وقته الصحيح !

— وقته الصحيح ؟ ومن يعرف الوقت الصحيح دائما ؟ ومن يدرى ربما لو لم تسقط وزارة « جامبتا » لاختلف رأيك فى الوقت الصحيح !

***

وصمت محمود واصف متدبرا ، فقد كان سقوط « جامبتا » المفاجىء فى فرنسا ، وهو السياسى الذى كان ينادى بالتدخل المسلح المشترك بين انجلترا وفرنسا ، ويعارض بشدة اعطاء اية فرصة لنمو حركات وطنية فى المنطقة ، ويرى فيها تشجيعا خطرا للمقاومة التى كانت تشتعل بالثورة فى تونس والجزائر ضد الاحتلال الفرنسى ! كان سقوطه فى رأى أكثر المعلقين هو السبب المباشر فى أن الانقلاب الأخير فى مصر والذى أتى بوزارة البارودى لم يواجه بتدخل عسكرى من الدولتين !! وقال محمود واصف :

— وهل تختلف مصالح الدول باختلاف الوزارات ! ؟

— يختلف أسلوبها فى تحقيق هذه المصالح !

— تعنى أن احتمال التدخل العسكرى لايزال قائما فى المدى البعيد ؟

— من يدرى ؟ من كان يتوقع المذكرة المشتركة للخديوى فى الوقت الذى جاءت فيه ؟ ومن كان يتوقع سقوط جامبتا ؟ ومن يعرف نوايا بريطانيا بعد سقوط حليفها ؟ بل من يعرف نوايا فرسييه رئيس وزراء فرنسا الجديد رغم ما أعلنه من معارضته للتدخل المسلح .. ؟

* * *

وسرح نديم بعينيه فى الفضاء ، ناسيا سيجارة كانت تحترق فى يده ! تاركا محمود واصف يفكر فى أمر نديم الذى أصبح يملك من الاسئلة اكثر مما يملك من الاجوبة ! والذى لم يعد يشوقه الكلام أو لعله يبحث عن الكلام الذى يشوقه !

وفجأة أضاف محمود واصف لأسئلة نديم :

ـــ بل من كان يتوقع موقف الاعيان ؟

وانتبه نديم وارتجفت على شفتيه ابتسامة خفيفة ولم يرد !!

* * *

وفى الواقع أن موقف الاعيان الذى أصاب محمود واصف بالدهشة ، لم يكن مفاجأة كاملة لنديم ، كانت مواقفهم منذ بداية الثورة موضع شكه وارتيابه ، ومحل خلاف دائم مع عرابى ، وحين أصبحوا هم من ابرز ملامح الثورة تضاعفت شكوكه ومخاوفه ، فماذا يمكن أن يكون معنى الثورة بالنسبة لهؤلاء السادة الكبار ؟

وكان ما يؤرقه أن الثورة التى حلم بها دائما كأسلوب لاختصار الوقت ، ولحل المشكلات التى تواجه الشعب ، قد مضى عليها قرابة خمسة شهور وهى تعانى مشاكلها ، مشاكل وجودها ومعناها واستمرارها !

وأحيانا يبدو مصير الثورة كله ، وكأنه رهن بقرار يتخذه شخص ، بلا أو نعم ، بوجود شخص أو عدم وجوده ! بتساهل أو تشدد فئة أو وزارة أو هيئة !

وجاءت لحظات اعتقد فيها الجميع أن مصير الثورة يتقرر خارج مصر لا داخلها !!

الشعب كله يؤيد الثورة ، ولكن هذا التأييد لايزال سجينا فى آلاف الرسائل والعرائض والشكاوى ، أو مبددا فى الهتاف والمناقشات والضجيج !

كيف يتجسد هذا التأييد بحيث يصبح شكلا أو نظاما يدعم الثورة ؟

وإذا كانت بعض الصحف الاوربية ترى وجه الحق فى الثورة فاكثريتها لا ترى غير وجه الجيش ، ولا ترى فى الجيش غير أداة تحركها الاستانة أو الطموح أو المخاوف ! ولكن قبل ذلك كله ما هى الثورة ؟ وبعد ما يزيد على خمسة شهور من بدء الثورة ، كان ذلك السؤال لايزال يدور فى رأسه ! هل هى مجرد استخدام القوة لتحطيم نظام قديم جائر وتحقيق نظام جديد عادل !؟ ومهما يكن معنى الجور والعدل ؟!

***

وحتى لو تغلبت الثورة على مشـــكلاتها ، ونجحت فى أن تستبدل نظاما بآخر ، فهل تنتهى المسالة بمجرد الغاء أو اصدار مجموعة من القوانين ؟ أم انها تبدأ ؟

ان القوانين والنظم ليست فى نهاية الأمر سوى فرصة أفضل لتحقيق التقدم ، ولكن التقدم الذى ينبغى أن يكون هدف كل ثورة ، يصنعه الناس لا القوانين !

وقبل أن تقوم الثورة كان هو نديم قد اكتشف صيغة للتقدم ، صيغة تلائم مجتمع الفقراء الذى ولد فيه وعاش من اجله ؟ صيغة نجحت فى أن تشق طريقها وسط أسوأ النظم والقوانين ، ومنذ بدأت الثورة ، منذ شغلته وشغلت الناس بمشكلات وجودها ، وهو يشعر أنه يبتعد عن عالمه ، عالم الفقراء ، ودون أن ينجح فى أن يجعل الثورة تقترب من عالمهم !

***

ورغم كل شىء ، فان صلته لم تنقطع تماما بهذا العالم كانت ثمة رسائل ترد له تباعا، وتذكره بما لم يكن قد نسبه بعد، بالجمعيات وصناديق الاقتصاد ، والمدارس والمصانع ، أحقا أنه أعلن يوما تبنيه لمشروع صناديق اقتصاد لتمويل صـــناعات وطنية ؟ وكيف نسى هذا الوعد ، كانت الرسائل هى التى تذكره !

واحيانا كان يقول لنفسه : من أنت يانديم ؟ وما الذى تفعله هنا بين هؤلاء السادة ؟ لم لا تعود لتعلم صبيتك فى المدارس ، وتشترك معهم فى تمثيل رواية أفضل ؟؟، ولكن من يستطيع أن يتنبأ بمجرى الأحداث فى روايات الحياة ؟

***

من كان يتصور ان يأخذ الاعيان هذا الموقف الرائع الصلب ؟ ومهما تكن الظروف التى أدت لهذا الموقف ، فانه قد أصبح احدى الحقائق التى تفرض نفسها على فكر نديم ! وعلى اسلوبه فى تحقيق هذا الفكر ، وتساءل نديم : لم لا تتسع الصيغة التى آمن بها كأسلوب للتقدم ، لم لا تتسع للأغنياء والفقراء معا ؟ لم لا يفيد من هذا الموقف الجديد ؟ وبدلا من أن تكون الصيغة قرشا من هنا وقرشا من هناك : تصبح بفضل الأعيان : مائة قرش من هنا ومئات من هناك !!

اكان عرابى أبعد منه نظرا فى تقدير طبيعة المرحلة التى يمر بها الوطن ؟ من يدرى ؟ وآنذاك يجد الشعب بكل طوائفه دوره لا فى مجرد الهتاف للثورة بل فى صنع التقدم وحمايته !!

***

وبالتأكيد تحتاج هذه القضية الى محامين لا يكتفون بمجرد المرافعة ، وكان واثقا من أن هذا دوره ، ولم يكن الغرور هو الذى يوحى اليه بأنه لا أحد أكثر منه يصلح لهذا الدور ، بل تجربة أعوام لاتزال ساخنة فى رأسه ، وجريدته التى تنطق باسم الثورة التى أصبحت من بعض الوجوه ثورة أعيان ، ولسانه وقلمه لم ينطقا يوما لغير لسان الفقراء فهل هناك من هو اجدر منه بأن يعقد زواجا سعيدا بين الطبقتين ، زواجا ينجب مئات الجمعيات والمدارس والمصانع والشركات ، ينجب التقدم !!

وبدت مصر كلها خلال شهور فبراير ومارس وابريل من عام ١٨٨٢ ، وكانها تحتفل بهذا الزواج !

كان المظهر الخارجي انهم يحتفلون بالوزارة الجديدة بالدستور الجديد !

كان الحزب الوطنى ، حزب الأعيان ، هو الذى يوجه الدعوة .

وكانت الجمعيات الخيرية التى سبق لنديم افتتاحها بالمحروسة والاسكندرية والاقاليم هى مقر الاحتفالات ، وكان شعب مصر كله مدعوا لهذه الاحتفالات !



وفى كل ليلة كان الشعب برى وجوها تخطب فيه حتى الصباح ومن بين هذه الوجوه ، كانت ثمة وجوه ثلاثة لا تكاد تتغير فى كل احتفال ، وجه الشيخ محمد عبده بعمامته وسمته الوقور وصوته الهادىء العميق ، ووجه أديب اسحق بلحيته السوداء ولهجته السورية ، ووجه نديم بحيويته ، وحماسته ، واستجابته السريعة المباشرة لكل ما يدور حوله !!

واذا كان كل وجه يلقى خطبته ليجلس بعدها وسط الصفوف، فقد كان وجه نديم وحده هو الذى يبقى دائما ، فهو يبدأ الحفل بقصيدة أو خطبة ، وهو يقدم الخطباء وهو يعلق على كل خطبة ، ثم هو الذى يختتم الحفل !

وهو اذ يفعل ذلك ، يدخل خيطا رفيعا بين حبات العقد الذى ينتظم الخطباء ، وبقدرة لم تكن تتاح الا لرجل له خبرته السابقة ، باللغة ، وبالجماهير ، عرف نديم كيف يسخر هذه الاحتفالات لتصبح احتفالا شعبيا موصولا بفكرته ، يعقد ذلك القران السعيد

بين طبقتين ، في اطار الجمعيات ، وتنقل نديم بفرقته الثلاثية ، بين عواصم الاقاليم ، وبين النوادى والجمعيات لا عن تدبير واتفاق بل استغلال بارع للظروف !

* * *

وكانت ثمة خلافات فكرية قديمة وكان لابد لها أن تظهر ، فالشيخ محمد عبده الذى كان أعظم موثق عقود فى القرن التاسع عشر بين الأفكار ، والذى نجح فى أن يعقد زواجا سعيدا فى راسه بين العلم والدين لم يهضم فكرة الزواج السعيد بين الأغنياء والفقراء و لابين القانون والثورة ! وتساءل ذات ليلة قائلا فى احدى هذه الحفلات : « انه لم يعهد فى أمة من الأمم أن الخواص والأغنياء يطلبون مساواة أنفسهم بسائر الناس فكيف حصل فى هذه المرة ومن أهل هذا المجتمع ؟ فهل تغيرت سنة الله فى خلقه ؟ أم بلغت الفضيلة فيكم حدا لم يبلغ اليه احد من العالمين ؟ ولم يتردد فى أن يطالب بقصر حق الانتخاب على المتعلمين فى الوقت الذى منح فيه الدستور الجديد هذا الحق لكل فئات الشعب ! »

* * *

ولم يتردد نديم فى أن يستغل مثل هذه الخلافات ليوضح فكرته القديمة عن الانتخاب كحق لكل مواطن ، وعن ضرورة تمثيل المجلس لكل فئات الشعب ، وفى هذه المرة يغضب النواب لا من نديم بل من خطاب الشيخ عبده ، ويقترح نائبا مديرية البحيرة أن يقيما حفلا آخر لمحو آثار الغضب ولا يتردد نديم فى أن يفيد من هذا الحفل الآخر ومن غيره فى توضيح أفكاره ، فيتحدث عن فكرة الحق والواجب ، حتى يعطى الموضوع حقه ، وعن ضرورة انشاء جمعيات سياسية على غرار الجمعيات الخيرية لتشرح للناس الأسس الصحيحة للحرية ، والتى تعتبر فكرة الحق والواجب حجر الأساس لها !

وليلة فليلة تصبح هذه الحفلات وما يقال فيها حديث الناس في كل مكان ، أن نوعا من الزواج السعيد يوشك ان يتحقق في اطار الجمعيات لا بين الأغنياء والفقراء فحسب بل بين المسلمين والمسيحيين ، ويحضر الثالوث الشهير احتفالا بتاسيس الجمعية الخيرية للروم الكاثوليك ، ويتحدث أديب اسحق عن الفرق بين معنى الخير في ظل الارستقراطية وفي ظل الشـــــورى ، بين الاغراض التى كانت تتحرك الجمعيـــات فى اطارها قديما وبين ما يراد منها فى العصر الحاضر ! أو بعبارة أدق ما يريده لها نديم ! كان نديم قد نجح فى النهـــاية فى أن يعقد نوعا آخر من الزواج بين الثالوث الذى اشتهر امره فى طول البلاد وعرضها ، واصبح يتكلم بلا قصد لغة متقاربة !!



وتسابق الناس للالتحاق بالجمعيات ، والمقاصد الخيرية ، والتوفيق الخيرى ، والخيرية الكاثوليكية ، والخيرية الاسلامية !

وكان الشيخ محمد عبده هو الذى يشرح لهم ذات ليلة كيف أن الاسماء متعددة ولكن الهدف واحد !

وكان نديم هو الذى يشرح لهم الهدف كما لم يشرحه من قبل ، وكان الأعيان والتجار والموظفون والصناع والفلاحون يتسابقون لتحقيقه كما لم يتسابقوا من قبل !

وقرأ من لم يكونوا هناك ، من لم يحضروا «نديم» أو يسمعوه ، قرءوا في وقت واحد ، وفى كل الصــــحف ، قرءوا بين الا... والدهشة تلك التوائم التى أصبحت تحتل جزءا شبه ثابت ... الصحف ، جزءا يتزايد ، وينتقل من ذيل الصفحة الى ... الى صدرها الى البقية فى الصفحة التالية !

قوائم بعدد الاسهم واسماء المساهمين فى جمعية الصنائع المصـــرية التى اسسها رجل اســــمه « عبد الحميد عمر » من الاسكندرية !

وجمعية الزراعة المصرية التى أسسها رجل آخر اســــمه ابراهيم افندى نظمى بطنطا !!

وتساءل من لم يعرفوا التفاصيل : ما عمل هذه الجمعيات ؟

وكانت الاجابة فى نفس الصــحف ، فقرات من خطب نديم وتلاميذه ، واخبار تدعو الى الثقة بالجمعيات ، فاعداد المساهمين فى الجمعية الزراعية تقفز فى آخر احصاء لجريدة الوقائع من ٤٠٠ الى ٦٠٠ ، ومدرسة الصناعة التى افتتحها نديم قبل الثورة تخرج أول دفعة ، وتعلن جمعية الصناعة عن تأسيس أول شركة مساهمة وناظر المعارف بنفسه يسند الى الجمعية التى أسسها عبدالحميد عمر أن تتعهد بصنع ملابس لتلاميذ المدارس !!

* * *

وفى الاسكندرية قال حامد الأعســـر لرفيق تجارته يعقوب زخــــارى :

ــ ما رأيك فى جمعيات نديم كوسيلة للاستثمار ؟

وحدق يعقوب زخارى فى جريدة الطائف قائلا :

ــ لست أدرى ، لكن عندما تجد رجلا مثل عكوش بك يستثمر فيها بعض أمواله فان الأمر يستحق التفكير !

ــ لهذا السبب وحده ؟

ـ فى الحقيقة لا ، بل لأنهم بدءوا يتجهون لبعض الصناعات الوطنية ذات الربح المضمون مثل الحفر على النحاس والخشب حيث لا يستطيع الأجانب منافستهم !

ـ أصبحت لا تفكر فى غير الارباح ! عليك اللعنة يا يعقوب !

***

وفى الاسكندرية أيضا ، ولدت الفكرة الجبارة التى كانت يوما مجرد حلم فى رءوس بعض المفكرين مثل أمين شميل كان نديم قد التقطها ، ودفع أنبغ تلاميذه مصطفى ماهر ليطرحها فى أحد الاحتفالات ، وتلقفها منه ليشرحها فى هدوء ليلة بعد ليلة ، كانت مثل حجر الأساس لذلك الصرح الذى بدأ يرتفع حجرا هنا وجدارا هناك ، وتحمست مجموعة من تجار الاسكندرية لتحقيق الفكرة الجبارة ، وخرجت أغلب الصحف وعلى رأسها الطائف لتحتفل بتحقيق الحلم الكبير ، بانشاء أول بنك وطنى أهلى ، وتفيض فى شرح معنى البنك للتاجر الصغير ، والفلاح الصغير ، والصانع الصغير ! وتدعو جميع الفئات لأن تساهم فيه !

***

ولم يكن الناس فى حاجة الى أن يفهموا ، فقبل أن يعرفوا الخوف من التدخل المسلح ، رأوا بعيونهم كيف انتزعت البنوك الأجنبية عن طريق القروض والرهون أرضهم وخنقت تجارتهم ، ودمرت حتى الصناعات الوطنية القديمة !!

ولم يكن لاندفاع جميع الطبقات للمساهمة فى البنك سوى معنى واحد ، هو أن عقد القران السعيد بين الأغنياء والفقراء يوشك أن يتم !

وراح نديم الذى كان زامر الحفل ومطربه يستعجل الزفاف ، ويجمع « النقوط » من هنا وهناك !

وحين انتهى الحزب الوطنى من احتفالاته ، واصلها الشعب ، وكان بمقدور نديم أن يجد مكانا صالحا حتى فى الاعراس ، وحين ينتهي محمد عثمان أشهر مطربى ذلك العصر من وصلته الغنائية يخطب نديم ، ويخطب فى دار الاوبرا بين الفصول !! وفى المساجد بعد الصلوات ، ولو رأيت « نديم » آنذاك لتذكرت على الفور ذلك الفتى المرح القديم الذى كانت الفكاهة صناعته ، ان محامى الشعب يتحول مرة أخرى الى مسامر الشعب ، لقد وجد أخيرا الكلام الذى يروق له ! وخرجت الصحف تصف : « خطابات نديم محرر الطائف بانها الذ من القطائف »



ووجد الشعب طريقه وطريقته ، فالأعيان اعضاء المجلس يتبنون فكرة انشاء مدرسة ابتدائية ، كل فى قرى دائرته عن طريق التعاون !

وضباط الجيش يقتطعون ٥٪ من مرتباتهم لتأسيس صندوق ادخار تستخدم حصيلته للشروع فى استهلاك الدين المصرى ! وصيغة الجمعيات تواصل نموها فى جميع الجبهات فتتألف جمعية جديدة تحت رعاية نديم اسمها « جمعية الاحرار السودانيين » مهمتها رعاية الأرقاء من السودانيين الذين اعتقوا ولا يجدون عملا لتوفر لهم فرص العمل والكرامة !

وفى الاسكندرية تتألف جمعية جديدة لفتح « دكاكين » تقوم بتوصيل الطلبات للمنازل : وتحاسب عملاءها آخر كل شهر .



كان المشهد مثيرا ورائعا فى طول البلاد وعرضها ، مشهد شعب وجد فى التعاون صيغة مرنة ورائعة يعبىء خلالها قواه ، ويستخلص بها حريته من الاخطبوط الأجنبى الذى يتشعب فى داخله كالسرطان ! ولتصبح مصر خفيفة للمصريين !

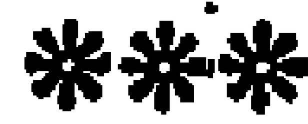
وكان نديم حريصا فى نفس الوقت الذى يقود فيه جيشه الشعبي ضد ذلك الاخطبوط أن يكشف مواقعه فى جسد الأمة فكتب تحت عنوان « الغريب فى وطنه » :



« تخيل نفسك عائدا الى وطنك بعد غيبة سبع سنوات ، وحين تصل الى الاسكندرية سوف تجد قائد الميناء بحارا انجليزيا ، فاذا ما وصلت حقائبك الى الجمرك فستجد مديره انجليزيا ، فاذا أردت أن تسافر الى القاهرة بالسكة الحديد فسوف تجد هذا المرفق يدار بواسطة موظفين انجليز وهنود وفرنسيين ، فاذا شئت أن ترسل تلغرافا الى أهلك تنبئهم بوصولك فستجد المشرف على التلغرافات موظفا انجليزيا أيضا ، واذا شئت أن ترسل لاصدقائك خطابات تخبرهم بقدومك فستجد مصلحة البريد مرءوسة بموظف سابق فى البريد الانجليزى ، أما اذا رغبت فى أن تذهب الى الصعيد فعليك أن تركب البواخر التى احتكرتها شركة انجليزية ، فاذا ما ذهبت الى الريف فسوف تجد كثيرا من الأهل والأصدقاء قد ضاعت أموالهم وارضهم وذهبت الى ايدى المرابين الانجليز والايطاليين واليونان ، فاذا سألت لماذا بقى المواطنون على جهلهم أجابك واقع الحال ، ان الدين العام قد أتى على ميزانية الدولة فلم يبق منها شىء لبناء المدارس أو لشق الترع ، واستطيع أن أستمر فى ضرب الأمثلة ، ولكنى أعطيتك من الأسباب ما يكفيك أيها المصرى لتعرف أنك أجنبى فى بلادك ، فاذا كنت حقا تحب وطنك فيجب أن تؤيد الحركة الوطنية التى قامت لتحصل لك على حقوقك كانسان ، ومن ثم تحس أن وطنك ملك لك انت !! »



كان ذلك هو نديم ، فى أوج قوته ومجده ، وكما كان دائما فى كل مرة التصق فيها بالمنبع الحقيقى للقوة والمجد ، بالشعب ! ولم يكن الشعب فى خبرة نديم أسطورة ذهبية أو حلما ورديا ، كان الناس هم الناس ، وكانت ثمة ـ بالطبع ـ خـــلافات أحيانا ، وخصومات أحيانا ، واحقاد دائما ، ولكن ذلك كله كان جزءا من النصر ومن المجد ، وأيضا من الحب العميق الذى يعمر قلبه للناس ! مثل ذرات الغبار فى الماء والهواء !



كان نديم يقترب من نهاية العقد الرابع ومن قمة النضوج ! ولم يعد يبالى أو حتى يصاب بالدهشة لمثل هذه الأمور !!

وحين كان يرى الى مقالاته منشورة فى جريدة « التيمس » البريطانية ومواقفه وخطبه وهى موضع تعليق واهتمام الصحف الأجنبية التى أطلقت عليه اسم الرجل الثانى بعد عرابى !!

وحين يجد جريدته التى كانت تنطق باسم الثورة أصبحت ايضا ومن الناحية الرسمية تنطق باسم مجلس النواب الذى أصبح الوجه الشعبى للثورة !

وحين يجد النواب يجمعون لها التبرعات ، ويطلبون من جميع الادارات الحكومية أن تشترك فيها ليكون الموظفون على علم بوجهة النظرية الثورية فى الاحداث والمشكلات !



حين يرى الاحتفالات تقام على شرفه ، وحين يرى تلاميذه وأنصاره يقدمون له فى غمرة الزهو والسرور ساعة من الذهب

الخالص فى احدى هذه الاحتفالات ، حينذاك كان جديرا به أن ينتهز أول فرصة يخلو فيها الى نفسه والى تلك الساعة الذهبية التى تحاول أن تمسك بالزمن بين ذراعيها الدقيقتين !

متأملا فيما جرى وفيما يجرى ، متذكرا لتلك الرحلة الغريبة التى قطعها ، وذلك الصبى الجوابة الذى كانه ذات يوم ! متوقفا هنا وهناك ، محدقا فى الوجوه والأماكن والذكريات ، متسائلا عن كنه ذلك التغيير الذى يحدث له وللناس ؟ وعن مداه !

مدركا فى قسوة أن اشياء كثيرة لاتزال على حالها ، فى قلب الريف ، وفى قلب المدينة ، وأن ما حدث ليس سوى مجرد خدش فى قشرة الواقع الصلبة !

خائفا مشفقا حذرا ، فخارج دائرة العرس الذى كان ضوؤه يبهر عينيه ، لايزال العالم القديم المرعب يحدق بكل شىء كالظلمات، ولكنه كان سعيدا رغم كل شىء ، لأنه يحس أن الشىء الذى أفلت من يديه بعض الوقت قد عاد واستقر فيهما من جديد !! ..

عواصف في الربيع

نحن الآن فى أول يونيو من نفس العام ١٨٨٢ وفى القطار المسافر الى الاسكندرية كان يجلس نديم ، ولو تأملته فى تلك الليلة لما صدقت أننا فى نفس العام ، وأنه فى اقل من شهرين يمكن أن يتقدم شخص فى العمر بمثل هذه الخطى السريعة !

وكان الجو ربيعا ، وحقول الدلتا تتنفس فى هدوء والنسيم يحمل أنفاسها العبقة الى كل ما يلامسه ، ووجه نديم يتطلع فى وجوم الى قرى الدلتا وهى ترتد فى قلب الظلمات ، وكان الربيع لا يجىء منها ولا يصل اليه !



كان فى طريقه الى مسقط رأسه ، ولم تكن أول مرة يعود فيها الى الاسكندرية بعد الثورة ، ولكنها أول مرة يعود اليها ، وهو يعلم أن مدافع الأساطيل الانجليزية والفرنسية توجه فوهاتها الى مدينته !

لقد حدث كل شيء على نحو مفاجيء ومريب ، وحتى الآن لاتزال الأمور تتطور بنفس الأسلوب ! ومثل جو الربيع الترابى العاصف المتقلب فى مصر كان جو السياسة فى شهرى ابريل ومايو من نفس العام وقبل أن ينقضى عرس الشتاء القصير ، فوجيء الناس بأخبار مؤامرة كانت تستهدف التخلص من زعماء الثورة بالاغتيال وانتظروا نتائج التحقيق فى المؤامرة ولكنهم لم يفاجأوا حين كشف التحقيق عن دور الخديوى اسماعيل فى تمويل المؤامرة من منفاه ، وعن دور عدد من الضباط الشراكسة والأتراك فى تنفيذها .

* * *

وحين قرءوا اسم عثمان رفقى وزير الحربية الذى أطاحت به الثورة الأولى للجيش فى أول القائمة التى شملتها احكام النفى الى السودان ، والتجريد من الرتب والامتيازات تهامسوا فى غيظ :

ـــ طبعا ، وماذا كنتم تنتظرون من هؤلاء ؟

وتأكد لدى البعض ما كان موضع شك أحيانا من أمر الخديوى وطبقته ، واستمر الهمس !

ـــ كان من المستحيل أن ينتهى بهم الأمر الى قبول الثورة .

ـــ هذه فرصة العمر لتتخلص الثورة من أعدائها .

ـــ كانوا يستحقون الموت لا مجرد النفى .

ـــ لم ينفذوا جريمتهم !

ـــ لو تمكنوا منها ما تمكن منهم احد !

ـــ ومتى تتطهر البلاد منهم ؟

ـــ بعد ان يصدق الخديوى على الحكم !

وانتظر الناس تصــديق الخديوى ، وطال انتظارهم وعاد الهمس مريبا وكئيبا هذه المرة !

ــ الخديوى يرفض التصــديق على الحكم ، ويطلب تخفيفه بمجرد النفى الى اى مكان مع بقاء رتبهم وامتيازاتهم .

ــ ليس من حق الخديوى رفض التصديق بنص الدستور .

ــ ومتى كان الخديوى يحترم الدستور ؟

ــ المفروض انه تعلم درسا من ثورة الجيش !

ــ وهل تظنونه يقف ليتفرج على الثورة وهى تقتلع جذوره ؟

ــ طبعا ، وهل كانوا يعملون الا لحسابه وفى حمايته ! وهل كانوا يجرؤون وحدهم ؟

ــ لكن كيف يجرؤ هو الآن على تحــــدى الثورة ؟ وحماية أعدائها ؟

. وأستفاض الهمس بأنه لم يتخذ هذا الموقف الا بنـــاء على مشورة قنصلى انجلترا وفرنسا وتأييدهما ، ولم يعد أمر اتصاله بهما ســـرا ، وتتابعت الاسئلة والأجوبة عن مغزى هذا التأييد ونتائجه ، تتابعت فى البيوت والمقاهى والشـــــوارع بنبرة أكثرا ارتفاعا !

ــ طبعا يريد القنصلان أحداث أزمة جديدة تســــمح لهما بفرصة أخرى للتدخل !!

ــ لم لا تفوت الوزارة غرضهما بقبول التخفيف ؟

ــ المسألة مسألة مبدأ ، ولو ســـمحت الحكومة للخديوى مرة ... !

ـــ لن تنتهى المؤامرات والخديوى على العرش ،

ثم ان الحكومة حاولت أن تفوت غرض الخــديوى بقبولها تخفيف الحكم ، ولكنه فوت غرضها بعرض الأمر كله على السلطان فى تركيا !

* * *

وثارت ثائرة « البارودى » ، فاذا كان الدستور لا يســمح للخديوى بالتدخل فى حكم المحكمة فكيف يسمح للسلطان ؟ وفى لحظة غضب صرح « البارودى » أمام القنصل البريطانى « ماليت » الذى كان صاحب المشورة على الخديوى بعرض الأمر على السلطان « بأنه اذا أرسل الباب العالى أمرا بنقض حكم المجلس العسكرى فاننا لن نطيع هذا الأمر »

والتقط « ماليت » تصريح البارودى ليهمس طبعا فى أذن الخديوى : اذا كان هذا موقفهم من السلطان فماذا سيكون موقفهم منك ؟ قالها باللهجة التى تفى بالغرض !

واستحكمت الأزمة بين الخديوى والوزارة ، ولم تجد الوزارة بدا من دعوة مجلس النواب للانعقاد ليبحث الخلاف بين الخديوى والوزارة ، ولم يكن توجيه مثل هذه الدعوة من حق الوزارة بل هو من حق الخديوى بحكم الدستور !

ولكن ماذا تفعل الوزارة حين تعجز عن التفاهم مع الخديوى نفســـــه !

وتطلعت عيون الناس الى الأعيان أعضـــــاء المجلس وهم ينسلون من قراهم تاركين حقولهم وأعمالهم ليبحثوا واحدة من أخطر الأزمات التي تواجه الأمة !

وبين آلاف العيون ، كانت عينا نديم ترقبان نفس المشـــــهد المثير ، لقد انفض فجأة عرس الوطن ، وها هو مرة أخرى يعود مجرد شاهد مشدود الأعصاب يرقب هؤلاء الذين كانوا اســـنين طويلة موضع شكه وارتيابه ، وأصبحوا لشهور مناط امله وعمله ، يرقبهم وهم يتكلمون باسم مصر فى أخطر أزماتها !

* * *

ترى هل يتكرر من جديد ذلك الموقف الرائع الصلب الذى يترك الخديوى مجرد ورقة لا تنتسب الى جذوع أو فروع .. ورقة تنتظر أقل هزة لتسقط !؟

مثل هذا الموقف جدير بأن يكشف الخديوى ، ويكشف من يتخذون من وجهه قناعا لوجوههم ، وآنذاك تسقط كل الأقنعة !

واختصر أحمد سمير الذى انتقل الى القاهرة منذ شـــــهور ليشارك « نديم » فى تحرير اللطائف ! اختصر تساؤلات نديم بسؤال بدأ يتردد على السنة الجماهير :

ــ هل تنطوى دعوة المجلس على التفكير فى خلع الخديوى ؟
وفى ضجر أجاب نديم :

ــ سنرى حين ينعقد المجلس .

ــ اسأل عن رايك انت ؟ .. واندفع نديم هذه المرة :

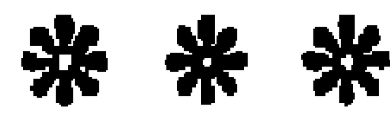
ــ ستعرف رأيى ، سيعرفه الجميع ، أكتب الآن ما تمنيت طول حياتى أن أكتبه ، لقد حان الوقت يا صديقى !

ــ ماذا تعنى ؟ ..

والتمعت عينا نديم ببريق مخيف :

ـــ يا صديقى ، ستقرأ كل ما أكتب ، أنت دائما أول من يقرأ .

فى بدواى كان الشيخ « أحمد أبو سعدة قد سافر منذ أيام لحضور اجتماعات المجلس ، وفى مقر الجمعية الخيرية الذى كان جزءا من دار « الشيخ قاسم » ، كان يلتقى أهل القرية ليتابعوا أخبار المجلس ، ويتابعوا فى نفس الوقت سلسلة المقالات الجريئة التى يكتبها « نديم » فى اللطائف ، والتى يهاجم فيها أسرة محمد على كلها !!



وكان الشيخ قاسم الذى طالما أضحكهم وهو يقرأ لهم «التنكيت والتبكيت » هو الذى يقرأ لهم هذه المرة وبنبرة جادة وحاسمة تلك الفقرات التى تشرح لهم ما لم يكونوا يجهلونه عن الطرق القذرة التى كان يلجأ اليها الخديوى اسماعيل لسلب الأرض من ملاكها مقابل اسقاط ضرائب ظالمة ، تفوق فى زعمه ثمن الأرض ، وحين قرأ : « هكذا كان يفعل الخديوى اسماعيل فى جميع الجهات التى جدد فيها ملكا فى الأراضى الزراعية له ولآل بيته فعل ذلك فى أراضى الشباسات ، وقونه ، والبكدوش وسخا وقلين وما والاها ، وقس على ذلك أراضى الصافية ، وكفر البطيخ ، وكفر الحمام : وهيهيا ، وأبو كبير والقرشية ومشـتهر ، وبردين ، وغيرها من الأراضى كأراضى الوجه القبلى التى اغتصبها من ملاكها ثم أعدمهم فى زراعتها بلا أجرة »

حينذاك لم يفكروا فى أن « نديم » يخبرهم بما يجهلونه ، بل فكروا فى بســـاطة أن وراء هذا كله شيئا أكبر وأخطر من مجرد اخبارهم به . . . . . .

وبنفس البساطة سأل « برعى » وهو فلاح يتاجر فى روث الحمام ويطوف بالبلاد التى تردد اسمها فى مقال نديم :

ــ اذا كانوا سيخلعون الخديوى حقا فهل سيوزعون أرضه على الفلاحين ؟

وأكد فلاح آخر اسمه « محجوب » يشاركه فى تجارته وفى زراعته أنه سمع بأذنه هذه ــ وأمسك بها ليؤكد كلامه ــ من أهل الشرقية ان أحد الضباط خطب فيهم قائلا : انهم يستحقون الأرض التى يزرعونها أكثر من مالكيها !!

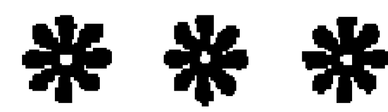
وأخرس الشيخ قاسم الأصــوات المقاطعة بنظرة تأنيب من عينه الوحيدة ، وحين سادت الصمت عاد يقرأ :

« ولم يعمل هذا العمل القبيح بنفسه ، ولكن كان معه قومه اللائذون به ، المزينون له سوء عمله ، وهم كثيرون من ســـفلة الأغوات ، وقليل من أدنياء الوطنيين وجهلتهم ، فكانوا يتصرفون فى الأمة مثل تصرفه ، ومن صار منهم مديرا أو مأمورا أو مفتشا أو كاتبا أو حاسبا ، أو متوظفا بأى وظيفة دانية أو عالية اتجه لسلب ما فى ملكهم الشرعى » .

* * *

ويمضى الشـــيخ قاسم فى القراءة على حين تومض عيون الفلاحين فى بدواى ببريق لاهث فبالنسبة لهم ، كانت الثورة لاتزال أملا غامضا مثيرا ، لقد أصبح الشيخ « أحمد أبو سعدة » الذى كانوا يعانون منه قبل الثورة أصبح بعدها عضوا فى مجلس النواب ، أكثر نفوذا وسلطة ، وأعظم بطشا وتجبرا ، لقد فتح كتابا صغيرا لتعليم الصبية مبادىء القراءة والكتابة وتحفيظهم القرآن الكريم ، وأصلح دورة المياه فى المسجد ، وتبرع بعشرة جنيهات للجمعية الخيرية ، وأخبرهم أنه لم يعد من حق المدير أو المأمور أن يسوقهم

للعمل سخرة فى تطهير الترع والمصارف ، ولكنه هو كان يستعين بهم احيانا فى خدمة أرضه الواسعة بلا مقابل ، وكانت تلك أول مرة يسمعون فيها الكلام الذى تاقوا سنين طويلة لسماعه ، وحين سمعوا بعد أيام اخرى من غيبة الشيخ «احمد ابو سعدة» ان مجلس النواب لم يجتمع بصفة رسمية ، وان بعض الأعضاء وعلى رأسهم سلطان باشا الذى اجتمع الأعضاء فى بيته ينادون بضرروة التفاهم مع الخديوى والتصالح معه ، لم يطمئنوا ، ولم يشعروا ان الأمور تسير فى طريقها الصحيح ! كانت اللطائف لاتزال تصدر ، ونديم لايزال ينشر مقالاته تحت عناوين مثيرة ، « السخرة » واستخدام الابدان بلا شكر ولا أجرة » ، وصورة الخديوى تهتز فى رءوسهم وهم يستمعون الى الشيخ قاسم ، وهو يواصل القراءة بعينيه الوحيدة التى لا تتعب من القراءة ، ولا من مراقبة المستمعين !



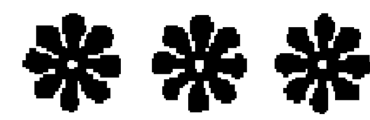
« ان حكومة اسماعيل باشا على سعتها ، وتباعد اطرافها كانت كليمان أعد للمذنبين ، ومحبس جزاء هيىء لأرباب الجرائم والخاطئين ، ولو أن سائحا جويا صعد فى درجاب الهواء الى حد يرى ويسمع من تحته من أهالى الديار المصرية ، لرأى اذ ذاك أمة تتقلب على جمر العذاب ، وتتحرك تحرك الذر على غير نظام ، وتسمع ضجة عامة ، وصيحة صاخبة تزعج السامع ، وتستفز الهاجع ، وتفتت قلب من أودع ذرة من الاحساس الانسانى » .

ويتحسس كل منهم كتف جاره ، او اقرب جسم صلب اليه وادركوا بغتة وفى صمت ، وبغريزتهم وحدها أن أياما صعبة قادمة !

كانت أيديهم لاتزال تتحسس الاجسام الصلبة ، وكأنها تنتظر من يقول لها : ماذا ينبغى أن تفعل بها ؟

فى الاسكندرية حيث توجد اكبر عصابة من انصار نديم وسط عصابات الاجانب ، كان للمسألة وجه آخر فلم يعد سرا أن سلطان باشا وحفنة قليلة من النواب هم الذين حالوا دون أن يتخذ المجلس موقفا موحدا لتأييد الوزارة ضد الخديوى !

لقد امسكوا بمنتصف العصا ، وتحدثوا عن عدم شــــرعية اجتماعهم من ناحية ، ومن جدوى التفاهم والمصالحة من ناحية اخرى والمدوا الى الأخطار والمخاوف ، ووجـــــدوا فيما تنقله البرقيات الصحفية من أوربا مادة صالحة لتأكيد مخاوفهم !



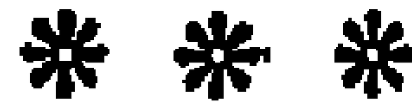
وعرضوا على الخديوى ــ كحل وسط ــ أن تستقيل الوزارة مع بقاء عرابى فى وزارة الحربية ، ولكن احدا ممن يرضى عنهم الخديوى لم يجرؤ على أن يقبل تاليف وزارة جديدة ، فقد كانوا على مثل اليقين من ان موجة السخط العارمة التى تتحرك ضد الخديوى داخل الجيش والشعب سوف تجرف أية وزارة تستند الى تأييد الخديوى وحده ، ومن الخارج كانت تتدفق موجات اخرى منذرة . تتدفق فى انهار الصحف ، وعلى أسلاك البرق ، وما كان ايســـر تصوير المجلس المنقسم بصورة المؤيد للخديوى من ناحية والخائف من سيطرة الجيش من ناحية أخرى !

وما كان أيسر التفجع على المصالح الاوربية التى تهددها حالة الفوضى الخطيرة فى مصر ، الم تنتهك الوزارة حرمة الدستور بدعوة المجلس للانعقاد بدون أمر الخديوى ؟



وفى هذا الجو المشـــحون بموجات الخطر والخوف ، كان سلطان باشا وحفنته هم الذين يجدون بعض الأمان فلو صــــدق الاجانب فى تهديداتهم هذه المرة ، وبقى الخديوى نتيجة تأييدهم له فلن يجد حليفا أخلص منهم !

ولو نجح الشعب والجيش فى التخلص من الخديوى ، فسوف يجدون ألف حجة لتبرير موقفهم المنادى بضرورة التعقل والمصالحة !



وفى هذا الجو المشحون أيضا ، نجح سلطان باشا أخيرا فى أن يعقد صلحا مريبا بين الخديوى والحكومة ، وكان واضحا انه لابد من هذا الصلح حيث انتهت الجولة الأولى بما يشبه التعادل بين الفريقين ، فقد كان عجز الخديوى عن تأليف وزارة جديدة لا يعادله الا عجز الوزارة عن توحيد صفوف المجلس وراءها ضد الخديوى . ولأن الوزارة لم تشأ أن تعتمد على الجيش فى التخلص من الخديوى حتى لا تقدم دليلا لأوربا على ما تولول به من سيطرة العسكريين على الحكم !

ولم يصدق أحد أن اللعبة قد انتهت ، لقد بقيت وزارة البارودى وقبلت تخفيف الحكم ، وعطلت لمدة شهر جريدة « اللطائف » ترضية للخديوى ، ولكن الكلمات التى قيلت ابان الأزمة ، وفى لحظات الغضب عن ضرورة خلع الخديوى ، فى اجتماعات الضباط والنواب والحكومة ما كان لها أن تنسى ، والمقالات التى كتبت ضد أسرة الخديوى كلها ، كانت لا تزال تقرأ ، وتعاد قراءتها !

والسفن الأجنبية التى جاءت انباء بأنها اقلعت من موانيها ما كان لها أن تواجه بمجرد الانتظار !

وفى هذا الجو ، وبالاسكندرية التقى محمود واصف الذى كان من أكبر زعماء عصابة نديم بسليم نقاش صاحب جريدة المحروسة !

وقبيل شهر تقريبا كانت جريدة المحروسة قد تعرضت لهجوم من نديم فى جريدة اللطائف ، لأن احد محرريها كتب يعرض

بجدوى نضـــال الثوار فى تونس ضـــد الاحتلال الفرنسى حيث لا تناسب فى القوى بين تونس وفرنسا ، وحيث لم تحقق ايطاليا وعودها بمساعدة تونس ، وتدخل سليم نقاش فى هذه المعركة ، مذكرا « نديم بصداقتهما القديمة ، مؤكدا ان المحروسة لم تقصد سوى الحرص على الدم التونسى فى معركة لا تكافؤ فيها !

* * *

أما بالنســـــبة للأزمة الراهنة ، فقد كان الأمر فى غاية الوضوح ، واوضحه سليم نقاش اكثر بطريقته حين قال لمحمود واصف :

ــ ليس نديم سوى مجنون ، وانت أكثر منه جنونا !

ثم تابع بلهجة يائسة :

ــ انتم تلقون ببلادكم الى نفس الاتون الذى تحترق فيـــه تونس ، انتم لا تدرون ما تفعلون !

وابتسم محمود واصف وقال بهدوء :

ــ تقول بلادكم ، الآن اصبحت بلادنا !

ــ وبلادنا أيضا ، وان كان المرء لا يستطيع أن يتلفظ بكلمة واحدة عاقلة حتى يوصم بالخيانة !

وتعمد محمود واصف أن يغير مجرى الحديث فقال :

ــ وما رايك فى تهديدات لورد جرانفيل بمجلس اللوردات ؟

ــ حقيقة ايها الاحمق ، الأجانب طامعون فى بلادكم وليسوا يريدون سوى فرصة ، وها انتم تقدمونها !

ــ وخضوعنا للخديوى ، الذى أصبح أداة فى يدهم هو الذى يحرمهم من هذه الفرصة !؟

ــ أيها الأحمق .هل ستحاربون الانجليز ؟

ــ طبعا ، اذا جاءوا لحربنا !

* * *

وبالنسبة لنديم ، كانت الأمور تتكشف لأول مرة وفى وضوح مخيف !

فلقد كان يهدف من المبادرة بالهجوم على أسـرة الخديوى كلها الى كسر تلك القشـــرة التى ظلت ومنذ بدء الثورة تغطى العلاقة بين الخديوى وبين الثورة ، وليندفع الرأى العام من خلال تلك القشــرة ليصبح قوة دافعة ومحرجة للمترددين من الأعيان وليقطع الطريق على الضعف والخيانة ، ولم تنجح سوى نصف المحاولة ، وبقى نصفها الآخر ليوقظ الجراح القديمة والدفينة والتى التأمت فى عرس الشتاء القصير !

وبمرارة قال لعرابى ذات ليلة : طالما حذرتك منه !! اللعين القذر !

وكان حديثهما عن سلطان باشا وحقنته ،

ولكنه هو نديم وجد أيضا من يقول له :

ــ ان مقالاتك يانديم كانت سلاحا ذا حدين ، لقد كان جديرا بها ان تخيف الأعيان من مستقبل الثورة فى حين اردت أنت ان تخيفهم بها من مستقبل الخديوى !

ووجد من يقول له أيضا :

ـ لست أشك لحظة فى ان سلطان باشا ومن معه لم يتخذوا هذا الموقف الا بعد ان تأكد لهم أن الخديوى سوف يلقى تأييد الدولتين بكل الطرق !

* * *

واصبح نديم على مثل اليقين من هذا الرأى الأخير ، حين تلقى البرقية ـ التى تلقى مثلها زعماء الثورة كلهم ـ من صديقهم الانجليزى « الفريد بلنت » ابان الأزمة ، والتى يتوسل فيها الى المجلس والحكومة ، أن يتحدوا لأن انجلترا تنتوى حقا ان تحتل بلادهم ، وأن لورد جرانفيل يرجف فى مجلس اللوردات بأن مجلس النواب المصرى مع الخديوى وضد الحكومة !!

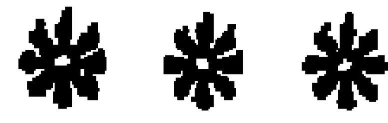
واذا كانت تلك البرقية ضمن العوامل التى دفعت الوزارة الى قبول الصلح مع الخديوى ، فانها ذكرتهم جميعا بنصيحة أخرى كان « بلنت » لا يفتأ يرددها لهم ، وهى انه لا شىء يمنع الانجليز او غيرهم من التدخل العسكرى مثل تأكدهم من انهم سيواجهون شعبا ثائرا ومستعدا للدفاع عن كل شبر فى ارضه !!

* * *

ولكن مسالة التدخل المسلح هذه المرة لم تبق طويلا مجرد قضية تحتمل الجدل ، فبعد أيام قليلة من الصلح مع الخديوى بعد أيام تتابعت خلالها التصريحات المتناقضة والمريبة لساسة انجلترا وفرنسا حول أسلوب التدخل ومداه واهدافه ، بعد ايام لم يختلف الناس كثيرا خلالها حول مغزى هذه التصريحات ودلالتها !

بعد هذه الأيام تتابع وصول قطع من الاسطول البريطانى والفرنسى الى ميناء الاسكندرية وسط مظاهرة أخرى من التصريحات التى تتحدث عن ضرورة حماية ارواح الأجانب ومصالحهم ، وعن ضرورة احلال النظام فى مصر محل الفوضى ،

وأخيرا عن دعوة تركيا لأن تشـــترك مع الدولتين فى اقرار هذا النظام بوصفها الدولة صاحبة السيادة ، وفى البحث عن الصيغة الملائمة لذلك .



وفى ٢٥ مايو سنة ١٨٨٢ ، وفى حماية الاسطولين الرابضين بميناء الاســـكندرية تمخضـــت حمى التصريحات المريبة عن مذكرة مشتركة جديدة تقدمت بها انجلترا وفرنسا الى الخديوى تطلبان فيها صراحة اقالة وزارة « البارودى » ، ومغادرة « عرابى » لمصر ، وتحديد اقامة زميليه « على فهمى » : « وعبد العال حلمى » فى الارياف !!

ولم يدهش احد حين أعلن الخديوى قبوله للمذكرة المشتركة، ودهش فقط أولئك الذين كانوا لا يزالون يحســـنون الظن بنوايا سلطان باشا وحفنته ، وما يزعمونه من جدوى الحكمة والمصالحة حين أعلن قنصلا انجلترا وفرنسا انهما تقدما بهذه المذكرة بعد التشاور مع رئيس مجلس النواب المصرى ، وبناء على نصيحته ! لقد انتهت فجأة كل المعميـــــات ، وحين قدمت وزارة البارودى استقالتها كاحتجاج على قبول الخديوى المذكرة المشتركة ، انتهت قضية الوطن الى أن تصبح مسئولية الشعب كله !



لقد أصاب الشلل مجلس النواب بانحياز رئيسيه للخديوى ورفضه عقد المجلس ، ولم تثمر الجلسات التى عقدت بصورة غير رسمية فى منزل سلطان باشا سوى تأكيد حالة الانقســـام بين النواب ، ولم تصلح الا لكى تسجل لحظة النهاية لجماعة الأعيان التى قدر لها أن تقود الحركة الوطنية بعض الوقت ، لتصبح فيما

بعد أخطر ثغرة فيها ، ولم تعد مهمة الشعب البحث من النوايا الغامضـــــة ، أو فهم الحقائق ، بل مجابهتها لكن ، كيف ؟ كان هذا هو السؤال الذى توهم « نديم » بعض الوقت ، انه مطلوب منه قبل أى انسان آخر أن يجد له جوابا وبسرعة !!

* * *

الم يكن دائما محامى الشعب ؟ والآن وقد أصبحت مصر شعبا بلا حكومة ، وبلا مجلس نيابى قادر على الفعل أو القول ؟ وغدا هو صحفيا بلا صحيفة وبلا قراء ! ماذا ينتظر ؟ وفى لحظة أصبح السؤال ماذا يفعل ؟ وقبل أن يجد لسؤاله اجابة واضحة أو محددة ، كان الشعب ـــ الذى ظنه فى انتظار اجابته ـــ يقدم الجواب !

كلمة من هنا ، حرف من هناك ، وصرخة مجهولة المصـــدر ودمدمات ، ومظاهرات ، ووفود من كل البلاد ، وعرائض لا يزعم هذه المرة انها كلها من صنعه ، واجتماعات ، وهو « نديم » وسط هذا كله ، يتكلم ، ويصرخ ، ويسمع ، ويشرح ، ويفهم ، ولا يفهم ، ولا يكاد يصدق كل ما يراه ويســـمعه ، وفى خلال ثلاثة أيام لا اكثر ، كان هو نديم فى حاجة الى أعوام لكى يســـتوعب كل ما حدث ، لكى يصدق ان كل ما رآه وسمعه وعاناه فى حياته كلها لا يكاد يصلح الا أن يكون هامشا يفسر ما حدث ، ويجعل منه شيئا قابلا للفهم ، وتصلح روايته للتاريخ !

* * *

ولقد كان فيما بعد ، يعود لهذه الأيام الثلاثة ليســـتخلص فكرة أو عبرة ، ليشرح لنفسه أو الناس بعض الكلمات الغامضة رغم شهرتها كالشعب والحب ، والفوضى ، والقوة ، والنظام ، والحق ليبحث عن امل او عزاء !

ولكنه فور هذه الأيام الثلاثة ، لم يكن لديه اى وقت ليفعل شيئا من هذا كله ، أو حتى ليفهم شيئا كبيرا من هذا كله !!

لقد فوجىء تديم وروع ، وربما فوجىء الشعب نفسه بما انتهت اليه حركته ، تلك الحركة التى قد تكون غضبا ، أو قلقا أو حبا ، او خوفا ، أو حيرة ، أو أى شىء الا ان تكون تدبيرا أو نظـــــاما !!

فوجىء الشعب بهذه الحركة تعيد عرابى الى الســلطة ، بعد أن فشل الخديوى فى أن يؤلف تحت رئاسته هو اية وزارة !

وبعد ان فشلت مدافع الاسطول فى ان تخيف أحدا ، وبعد ان فشل مجلس الأعيان فى أن يكون قوة أو معنى أو رمزا لأى شىء !!

فوجىء الشعب بقناصــــل الدول الاجنبية ــ بالطبع عدا قنصلى انجلترا وفرنســا ــ يطلبون الى عرابى بل ويرجوته ان يتعهد لهم بضمان الأمن والنظام ، والمحافظة على ارواح وممتلكات الرعايا الأجانب ، فليس هناك غيره يمكن ان يثقوا بقدرته على ذلك فى مصر كلها !

فوجىء بسلطان باشا نفسه الذى كان ينصــــح منذ أيام بمغادرة عرابى للبلاد ، فوجىء به وبالنواب المنقســمين وقبلهم قناصل الدول يرجون الخديوى بأن يعيد عرابى الى السلطة !! لأن الأمر خطير حقا !!

ويعود عرابى ليتولى وزارة الحربية ، وليصـــبح فى نفس الوقت المسئول الوحيد عن النظام فى القطر كله !! أو ربما الحاكم الوحيد فيه !

أكان ذلك بداية أم نهاية ، اكان نصرا كاملا لعرابى أم كان مجرد جولة ؟

لم يكن أحد يملك أجابة قاطعة لمثل هذا السؤال ! واذا كانت مدافع الاسـطول لم تنطلق بعد ، فما من أحد يقطع بانها ستبقى صامتة والى الأبد !

كانت المفاجأة التى نجمت عن حركة الشـعب لاتزال تدير رءوس الجميع ، المنتصر والمنهزم على السواء ، الذين كانوا فى طريقهم الى المنفى ، والذين أصبحوا فى طريقهم اليه !

هل يسقط الخديوى وتسقط معه طبقة الأتراك والشراكسة؟

وهل تتخلى انجلترا وفرنسا عن تأييدها له ، وبالتالى عما لها من نفوذ ومصالح وأطماع فى البلاد ؟

وبعد كل ما حدث خلال هذه الأيام الثلاثة الحاسمة ، بعد القرارات والمؤتمرات والفتاوى بضرورة خلع الخديوى اذا بقى مصرا على قبول المذكرة المشتركة !

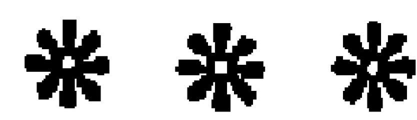
بعد التلويح بلغة القوة من الجيش والشعب على السواء ، هل يبقى الخديوى دون اعتماد على تدخل أجنبى بالقوة ؟

وبعد الشلل الذى أصاب مجلس النواب ، وانفضاح امر رئيسه وحفنته ، فما طبيعة الدور الذى يمكن أن يلعبه الأعيان فى هذه الأزمة ؟ واذا كانت الحرب فكيف تكون ؟ واذا كان التناقض التقليدى بين انجلترا وفرنسا لم يمنعهما من الاشتراك فى التهديد بالمذكرة الأخيرة ، وبالمظاهرة البحرية المسلحة فهل سيمنع الحرب؟

وما معنى أن تتفق الدولتان على أن ترسل تركيا مندوبا لعله ينجح فى حل الأزمة التى وصلت الى ذروتها ؟

هل هذا تراجع أم مجرد مناورة ؟ وكيف ارتضت فرنسـا بتدخل تركى فى الأزمة وهى التى كانت تعارض دائما مثل هذا التدخل ؟

وكيف يكون الحل بعد كل ما حدث ؟ أى دور يمكن أن تقوم به تركيا الآن ؟ ولحساب من ؟ كان « نديم » يعلم بتلك الصلات السرية بين السلطان وعرابى ، والتى يلمح فيها السلطان الى شكوكه فى الخديوى توفيق ، والى أنه لا يهتم بشخص الجالس على العرش بقدر ما يهتم بولائه له ، وبحرصـــه على الا يمكن للأجانب من البلاد !



وكان يعلم أن عرابى يستهدف من هذه الصـــلات أن يتقى دسائس الخديوى ضده من ناحية ، وأن يواصل سياسته القديمة فى أن تصبح تركيا سندا له ، اذا تطور الخلاف بينه وبين الخديوى والأجانب الى صدام سافر من ناحية أخرى ، ولكن « نديم » كان يعتقد ان السلطان يريد أن يســتخدم عرابى بنفس القدر الذى يريد عرابى ان يستخدمه به !! وحين وردت الانباء بتحرك المندوب السلطانى الى مصر ، وحين لغطت بعض الصـــحف والبرقيات باسم المندوب « درويش باشا » والمحت الى أسلوبه الشهير فى حل الأزمات بالعنف والخديعة وأرجفت بطبيعة مهمته الغامضة ، كان نديم يشارك الناس مخاوفهم من هذه الابناء ، فلم تكن له أقل ثقة فى تركيا ومن يأتى منها !! واذ حدث ذلك فى نفس الوقت الذى بدأ فيه الشعب يكتشف ذاته ، وقدرته على أن يصـــنع مصيره ومصير أعدائه فى نفس الوقت ! وأن يضع رجله الوحيد كما كانوا يسمون عرابى — على رأس السلطة ! وان يصـــبب بالجمود والشلل أعداءه فى الداخل والخارج ! واذا كان هذا كله قد تم بلا قصد أو تدبير ، واذا كان الشعب قد قال كلمته بلغة تشبه الصرخة أو الضـــجيج فأى شىء يمنع الآن من القصــــد والتدبير ؟ أى شىء يمنع الآن من استخدام تلك اللغة الجديدة ،

وتطويرها لمخاطبة مندوب السلطان نفسه بحيث يفهم هو الآخر المعانى الجديدة لهذه اللغة ؟

لقد كانت صياغة الكلمات الجميلة يوما صناعة له ، فما الذى يمنعه الآن من أن يصوغ قوى الشعب فى لغة يفهمها العالم كله ؟

لقد نجح يوما فى أن يجمع بعض الناس لصنع التقدم فأى شىء يمنع من أن يجمعهم فى صورة أكبر لحماية التقدم بل لحماية حياتهم نفسها ؟

* * *

هكذا كان يفكر نديم ، وهكذا اقتنع عرابى بأن يسافر نديم الى الاسكندرية لتنظيم مظاهرات شعبية تكون فى استقبال مندوب السلطان مظاهرات تؤكد له رفض مصر حكومة وشعبا للمذكرة المشتركة ، وتبرز له قوة الشعب كأهم ما يستند اليه عرابى !

وأضاف عرابى موضحا لنديم اخطر جانب فى مهمته : أنت تدرى كيف تكون الأحوال فى مدينة كالاسكندرية تغص بالأجانب ، وعلى مرمى مدافع الاسطول ، وفى وقت نحن مسئولون فيه عن الأمن والنظام ، واذا صح ما نسمعه فقد يجد القنصل الانجليزى وعصابته فى هذه المظاهرات فرصة العمر لتنفيذ ما يريدون من شغب فى المدينة يؤكد ما يزعمونه من وجود فوضى تبرر تدخلهم العسكرى ولم يكن نديم يجهل مهمته الدقيقة والحرجة معا ، ولم يكن راغبا فى الحديث عما يقدر عليه هناك ، وربما فكر للحظة أن القدر يختاره لمهمة لا يقدر عليها سواه ، وأن حياته كلها لم تكن سوى تدبير بارع لهذه المهمة !

* * *

ولكنه رغم هذا الهمس الشجى كان مروعا ، فها هو كل ما حلمت به مصر وخافت منه ، يقترب منها فجأة ، وفى سباق

جنونى يفلت فيه كل شىء من اطاره الذى ظل فيه لسنين طويلة ، وكأن اليد القوية التى كانت تثبت كل شىء فى مكانه قد أرختها يد أخرى أقوى وأعنف !

هاهو الخديوى فى قصره بلا نفوذ ، ولكن بعض أوليائه لا يزالون فى وظائفهم القديمة يمارسون نفوذهم القديم !

وحفنة الأعيان التى انكشف أمرها أمام الشعب ، لا تزال تغطى موقف الخديوى أمام العالم ، وتعطى الدولتين أعظم فرصة لترديد الأكاذيب عن تأييد المجلس للخديوى ، وعباءة الحزب الوطنى التى كانت لا تضم سوى اعيان تتمزق خيوطها الحريرية لتتسع لكل الشعب ، والشعب الذى ظل لسنين طويلة لا يملك شيئا من أمر نفسه ، يبدو وكأنه فى طريقه لأن يملك كل شىء !

النصر الكامل أو الدمار الكامل ، هكذا تبدو الأشياء فى رأس نديم وهو يغالب النوم فى ذلك القطار المسافر الى الاسكندرية فى تلك الليلة فى أول يونيو سنة ١٨٨٢ ، القطار الذى يبدو وكأنه يشترك بدوره فى ذلك السباق الجنونى بين المجد والدمار !!

* * *

فى الاسكندرية وبعد أيام ، التقى نديم فى أوتيل أوربا بصديقه القديم « الخواجة موريس » الذى بدا مشفقا عليه بقدر ما هو فخور به ، ولم يضق بتحفظ نديم حياله هذه المرة ، فقط قال له فى بساطة :

— لم تعد تثق بى !

ثم أضاف وقبل ان يسمع من نديم اى اعتذار :

ـ أعذرك ، وأعذر أي انسان فى مثل موقفك ، ثم تابع وهو يقدم لنديم علبة سجائره الفاخرة !

ـ كيف يواجه الفرد أو الجماعة مشكلة الثقة ؟ لو وجدت حلا لهذه المشكلة يا نديم فقد تفاجأ بأنك حللت مشاكل العالم كله !

وضحك نديم ، وبد أكبر سنا منه فى أى وقت مضى ، ولمح رغبة الخواجة فى أن يطور الحديث لمسألة عامة ، لا يتحفظ نديم فى الحديث عنها ، ورغم اعجابه بالفكرة ، فلم يكن راغبا فى الشرح واكتفى بقوله :

ـ فى عالم تختلف فيه قدرات الافراد والجماعات وحاجاتهم وثقافاتهم كيف تنتظر الثقة ؟

وهز الخواجه رأسه موافقا وأضاف :

ـ هذا صحيح ، وأقول لك بصراحة لا تثقوا فى أوربا ولا فى تركيا لكن يجب أن تثقوا فى انفسكم ، لقد كسبتم جولة بسبب أن الشعب كله هب وراءكم ، وارتبك أعداؤكم الذين حاولوا لشهور أن يصموا ثورتكم بأنها مجرد تسلط عسكرى ، ولن أقول لك ما تعرفه الآن أكثر منى من انهم يريدون أن يحاربوكم بنفس القوة التى تراجعوا أمامها ، لقد سمعت عن خطبك لشعب الاسكندرية التى تدعوه فيها لتجنب الشجار مع الأجانب ، ورأيت المظاهرات التى نظمتها لاستقبال المندوب التركى ، وكنت مشفقا عليك وعليهم ، فالجماهير سلاح ذو حدين ، ولست أدرى حتى الآن كيف ترك أعداؤكم هذه الفرصة لتحقيق الصدام الذى يريدونه كدليل على الفوضى .. وكمبرر للتدخل !!

ولم يدهش نديم لسماع هذا الكلام ، الذى يتفق مع ما يعرفه ، وما جاء من أجله ، وبالتأكيد لا يهدف الخواجة الى منعه من تدبير المظاهرات التى انتهت تماما ، بعد أن أدت دورها بنجاح

لم يكن يحلم به ، ولم يخالجه أقل شك فى دوافع الخواجة « موريس » الذى كانت شخصيته من أعجب ما وقع له فى حياته كلها ، ففى جلده الأبيض المشوب بحمرة شفقية رقيقة يتعايش بنجاح لم يتوافر يوما لنديم ، تاجر بارع ، وعاشق لحضارة الشرق ، يدفعه حبه الى أن يعلن لنديم أنه باق هنا فى مصر حتى ولو وقعت الحرب !

ويضحك نديم قائلا :

ــ هل تظنها ستقع ؟

ــ لو كنت مكانكم لوضعت هذا الاحتمال أمامى دائما !

ويقول نديم ضاحكا ومشيرا الى الحملة التى تصف فيها الصحف الأجنبية ما يقع في مصر على أنه نوع من التعصب الدينى :

ــ لا تخف ، لو قامت الحرب فسأحميك بنفسى من تعصب المسلمين !

ويحتد الخواجة :

ــ ليس هناك أحقر من دعوى التعصب التى يرمونكم بها ، وفى بلادكم يحتاج الأهالى الى من يحميهم من الأجانب وليس العكس !

ووعد نديم الخواجة بأن يكملا حديثهما عن ازمة الثقة لو قدر لهما أن يلتقيا بعد أن تنتهى أزمة الحرب ، لكن كيف ستنتهى هذه الأزمة ؟

حين استقل نديم القطار العائد الى المحروسة من محطة الاسكندرية كان فى وداعه حشد ضخم من الشباب ، وحين تحرك

القطار وقف يلوح لهم وهم يختفون عن عينيه ، واختلط حشد المودعين بحشود المسافرون ، كانوا جميعا يلوحون له ، ويهتفون لمصر وللحرية !

* * *

لم يكن ذلك مواطنا عاديا يسافر من بلد لآخر ، كان أحد الزعماء والقادة ، وقبل يومين حاول محافظ الاسكندرية « عمر لطفى » أحد الذين يدينون بالولاء للخديوى أن يلقى القبض على نديم ، لقد ذهل المحافظ حين رأى واحدا من رجال عرابى يكاد يفسد عليه ما كان يسعى لتدبيره بالاتفاق مع الخديوى وأين ؟ .. فى محافظته ! رجلا لا يملك جنودا ولا نفوذا ، ورغم ذلك فهو يخطب فى حى الانفوشى فيهرع اليه الآلاف لسماعه ! ويقودهم فى مظاهرات تجوب شوارع المدينة ، وتستقبل المندوب التركى بهتافات ينخلع لها قلب المحافظ ، وقلب المندوب نفسه ، ودون أن يحدث ما يعكر الأمن !

ويحتال المحافظ للقبض على نديم ، فيرسل فى استدعائه ، ولكن « محمود واصف » الذى يعتبر نفسه مسئولا عن نديم بنفس الطريقة الجنونية التى يعتبر نديم نفسه مسئولا بها عن مصر ، يصر على الا يذهب نديم وحده بل فى حشد يقوده «محمود واصف» نفسه وفى المحافظة ينكشف المستور ، ويتدخل الحشد لينقذ « نديم » عنوة من المحافظة !

وتختفى الاسكندرية عن عينى نديم ، ويختفى الحشد ولكن صورة الأحداث تبقى فى رأسه ، داخل أطار من الحقول الخضراء الممتدة على مدى البصر !!

وداخل نفس الاطار كانت تنتشر حشود الفلاحين ، رجال محنيون دائما وكأنهم أنصاف رجال ، وكأنهم بعد قليل سيألفون السير على أيديهم وأرجلهم !

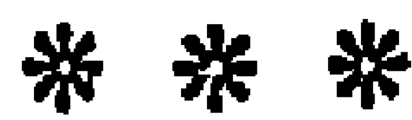
ترى هلْ جاء الوقت ليقفَ هؤلاء الرجـــالُ على أرجلهم ، منتصبين فى وجه الشمس ؟

ترى هل جاء عصر الحشود الكبيرة ، عصر العامة ؟

ورغم النجاح الذى لم يكن يحلم به ، فقد كانت مخـــاوفه الكامنة تتزايد يوما بعد يوم ، بقدر النجاح وبرغمه !



فى البداية كان حريصا على تهدئة الجماهير أكثر من حرصه على اثارتها ، .وأفاض فى شرح الأخطار والمحاذير ، وحين وفد مندوب السلطان كان حريصا على أن تتألف مظاهرته من جماهير جمعياته الواعية ، وتلاميذ مدارسها الذين أمضى أياما فى تدريبهم على ترديد الهتافات المناســـبة ، حتى لا تتطور المظاهرة الى مشاجرة ، ولم تكد المظاهرات تخرج الى الشارع حتى انضم اليها الشعب بأسره ، رجالا ونساء وأطفالا ، كتلة ذابت فيها حواجز الجنس والطبقـــة والمهنة والثقافة وخفقت بذلك الأمل الذى بدا وكأنه فى متناول جميع الأيدى !



وكاد نديم يبكى حين رأى مظاهراته تجتذب اعــــدادا من المومســـات تســـللن اليها من أوكارهن التى تتوارى فى الأزقة المختفية خلف الشوارع كآثار الجراح القديمة ولم يغضب احد من الناس ، كان الجميع يهتفون ويلوحون ولا يدرى كيف خطر له ، أنه قد تكون واحدة منهن ، الأرملة الجميلة التى أضاءت فى حياته ذات ليلة شعاعا رقيقا ثم اختفت الى الأبد ! ولم يبق الخـــاطر سوى لحظة ولم يفكر فى أن يتأمل الوجوه والعيون ! كانت الكتلة البشرية التى تذوب فيها حواجز الجنس والطبقة والمهنة والعادات والدين والسن ، هى التى تستأثر بغنيه وبفكره !

كيف تتألف وتنمو ؟ كيف تجتذب اليها بعض الناس وتطرد عنها بعضهم ؟ اية دوافع تحرك هذه الكتلة تجعل منها احيانا صخرة يتحطم عليها كل شيء ، وأحيانا شيء يتبدد كالغبار ؟

***

منذ سنين وهو يدرك أن قدره مرتبط بهذا الحشد ، منذ سنين وهو يحاول أن يجد اساسا ما لتصنيف الناس وتفهم دوافعهم ، اى شيء يجمع ويفرق ؟ الدين أم الجنس أم الثقافة أم الثروة أم الوطن أم الحرفة ؟ أى هذه العوامل ، وفى أى الظروف، وحول أى موضوع تصبح له الكلمة العليا ؟ وأى تجمع هو الذى يصنع التقدم ويعطى أى ثورة معناها ؟ ومنذ اكتشف أن الزواج الذى وقعه بين الأغنياء والفقراء لم يصمد أمام أول اختبار ومنذ أدرك مؤلف الروايات القديم أن المسرح أصبح معدا لكى يتقدم الشعب ، ويلعب اعظم أدواره ! منذ تلك اللحظة ، ومنذ أدرك قيمة اللحظة الواحدة فى هذا السباق الجنونى بين المجد والدمار! وهو يبحث فى ضراوة عن أساس صلب ، وعن دور لهذا البطل الجديد ، وعن صيغة تحفظ له تماسكه ، وتجعل لدوره معنى وغاية !

* * *

ولكن الحياة لا تنتظر حتى يتعلم الناس كل دروسها ، وإذا كان نديم يمضى فى حدود خبرته ، ويبحث لاسئلته عن اجوبة ، فالحياة تمضى وفق قوانينها ، الحشد يتجمع ويتفرق ، الأعيان ينقسمون داخل المجلس ويجمدونه ويفقدون هذه الواجهة الشرعية الدور الخطير الذى يمكن أن تلعبه فيقدمون بذلك للأجانب اعظم فرصة ليرجفوا بتسلط العسكريين ، ولكن آخرين من طبقتهم يؤيدون عرابى خارج المجلس تأييدا موصولا ولكنه يفقد قيمته الشرعية ، اصدقاء قدماء كأديب أسحق وسليم نقاش يتخلون عن الثورة وعن نديم ويتورطون فى معركة سخيفة مع الصحفيين المصبريين ،

ويحزمون حقائبهم فى انتظار سفينة تقلهم من أرض الدمار والثوار، ومعارض قديم لأسلوب الثورة كالشيخ محمد عبده ينضــم للثوار ويقسم معهم يمين الولاء على أن يكونوا معا حتى آخر رمق !

وصحفى مغامر يصل من أوربا مبعوثا من اللورد « بلنت » صديق الثورة الانجليزى ، حاملا نصائحه وتوجيهاته للثوار اسمه « لويس صابونجى » كان يصدر جريدة عربية اســـمها النحلة ويفتتن نديم فيه بروح المغــــامرة ، ويودعه ليلتقى به قريبا فى القاهرة !

وخواجة ايطالى يرأس جمعية الفعلة الايطــالية اســـمه « كامينى » يؤيد الثورة تأييدا حماسيا ويقيم الاحتفالات مع أطيب تمنيات نجاحها !

ويدرك نديم صورة جديدة لمعنى القدر الذى يصوغ حياة الأفراد والجماعات ، فيتجه بعينيه الى الســماء التى تبدو ثابتة رغم سرعة القطار وسرعة الأشجار ، ويتمتم قلبه بدعاء صامت ، فتهدأ مخاوفه العظيمة وتصبح لبعض الوقت آمالا عظيمة !!



فى المحروسة تتضح بعض الشىء الطبيعة الغامضة لبعثة درويش باشا فهو يتحدث الى عرابى بلغة بين الوعد والوعيد ، ويطلب منه ان يتنازل له عن سلطته ، ليعالج هو الأزمة مع الأجانب بما يكفل مغادرة الاسطول للمياه المصرية ، بينما يسافر عرابى الى الآستانة لمقابلة السلطان ، ولكن عرابى الذى كان يعلم من عدة مصادر أهمها « صابونجى » رسول « بلنت » ان هذه ليست سوى وسيلة للتخلص منه ، والذى كان يتلقى فى نفس الوقت

تأييدا سريا من السلطان عن طريق مندوب آخر فى البعثة اسمه احمد أسعد ، مهمته ان يتعرف القوى الحقيقية للخديوى ولعرابى، ويرفض فى لباقة هذا العرض ، ويؤكد لدرويش باشا أنه مستعد لتنفيذ مطلبه ، لو أنه « درويش باشا » قبل أن يتحمل أمام العالم كله ، وبصفة رسمية مسئولية الأمن والنظام التى يتحملها عرابى !

* * *

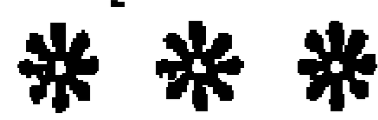
... ويفاجأ مندوب السلطان بهذا الرد ، ويؤجل رده على عرابى لوقت قريب ، ولكن أعظم مفاجأة كانت تلك التى دبرها نديم هذه المرة ، ذلك انه فور عودته الى القاهرة ، وقبل أن يفرغ المندوب السلطانى من الاحتفالات التى أقامها له الخديوى ، بعث بعشرات من أخلص رجاله الى الاقاليم ليعودوا ومعهم آلاف التوقيعات ، ومئات المندوبين عن الأهالى ليقدموا لدرويش باشا رأى الشعب الذى يرفض المذكرة ، ويصر على بقاء عرابى ، ويتقدم الشيخ محمد خضير الذى يمثل علماء الأزهر ، وممثلو الشعب ، بهذه المطالب لدرويش باشا الذى يصاب بالذهول !

لقد كان من الممكن أن يحتمل وهو داخل عربة تجرها الخيول صخب الجماهير فى شوارع الاسكندرية ، اما ان تختصر هذه الجماهير فى وفود تفرض عليه مطالبها ؟ ويصرخ درويش باشا :

— لقد جئت لاصدار أوامرى لا لاتلقى الأوامر !

.. وتلتهب الوفود غضبا ، ويشتعل الغضب فى صحن الأزهر وتطلب الجماهير « نديم » لينفجر هذه المرة بكل ما ضاق به صدره، لتنهال على درويش باشا برقيات الاحتجاج من كل فئات الشعب، وليكتب « ضابونجى » فى رسالة لـ « بلنت » « وليس عندى من الوقت ما يسمح بوصف التأثير الذى أحدثته خطبة نديم فى العلماء ، فقد سمعته أنت وعرفت كيف يتأثر الناس به ».. وليكتب

فى جزء آخر من رسالته أو تقريره : « جميع علماء الأزهر الا « الامبابى » يؤيدون عرابى ، أما الفلاحون اقباطا ومسلمين فجميعهم مع عرابى ، وفى مصر ١٤ مديرية ومع ذلك فليس بها سوى ثلاثة مديرين يكرهون عرابى » ولكن أخطر مفاجأة كانت تلك التى تلقاها المصريون وقبلهم عرابى ونديم وكل زعماء الثورة فى اليوم التالى حيث نقلت البرقيات فى مساء ١١ يونيو سنة ١٨٨٢ نبأ شجار عنيف ، وقع فى الاسكندرية بين المصريين والأجانب راح ضحيته العشرات بين قتلى وجرحى من الجانبين !!



الدقائق تمر ، ثم الساعات ثم الأيام ثم أسبوع فآخر ، ويكتشف الناس انهم حتى خلال الأوقات العصيبة ، يأكلون وينامون ، ويهتم بعضهم بأناقة ثيابه ، ولا ينسى الآخرون جلساتهم المفضلة فى المقاهى أو البيوت ، أو تأنيب أولادهم على أصغر الاخطاء ! على أن التعليق على الأحداث الراهنة كان صناعة الجميع ، فى الساعات الأولى ، كانت الكلمات كالأحداث غامضة ، طائشة ، فزعة ، كان بعضها أسئلة وبعضها أجوبة ، وكانت كلها تعكس توقعا قلقا للأخطار وتصنع حقائقها فى انتظار الحقيقة ، وكانت الحقيقة هناك فى الاسكندرية ، يبحث عنها « عرابى » خلال لجنة تحقيق سارع بتأليفها ، ويرسم لها مندوبو الصحف الأجنبية مئات الصور التى تختلف باختلاف الأهواء والمصالح ، ويرويها شهود العيان كل من الزاوية التى رآها ، ويرويها أيضا أبطالها الذين صنعوها أو ذهبوا ضحيتها !

ولم يكن حرص الناس على أن يتفهموا حقيقة ما حدث الا جزءاً من حرصهم على أن يستكشفوا ما يمكن أن يحدث فى المستقبل القريب ، كانت مدافع الاسطول لاتزال صامتة وفى نفس الوقت

كان عرابى قد بدأ يسيطر على الموقف ، وتألفت خلال يومين من الحادث وزارة جديدة برئاسة راغب باشا الذى يحاول جاهدا أن ينقذ الدستور والبلاد معا فى وقت واحد ، وزارة بقى فيها عرابى كوزير للحربية :

لقد وقع الحادث الذى كان يخشـــــاه المواطنون ، ويتمناه أعداؤهم ! فهل تنجو البلاد من أخطار الحرب رغم ذلك ؟

❋ ❋ ❋

كان صمت المدافع يبدو كخدعة مميتة ، ولعله كان يثير الناس أكثر مما يطمئنهم ، ولكن الانباء ترد بأن فرنسا قد نجحت أخيرا فى دعوتها لعقد مؤتمر دولى للنظر فى الأزمة ، وتردد أن هدف فرنسا هو منع انجلترا من الانفراد بالتدخل المسلح بعد أن لاح انها تستغل حادثة الاسكندرية لهذا الهدف ، واوضحت الملابسات التى أحاطت بالحادثة ، والتى بدأت تتسرب رغم الأهواء والظنون والأكاذيب والقلق ، ان الحادث الذى بدأ كشجار عرضى بين مالطى ومصرى راح الاخير ضحيته وتطور الى مذبحة مروعة ، قد استغل بطريقة تؤكد سوء النية من محافظة الاسكندرية الذى كان مسئولا وحده عن الأمن فى المدينة ، والذى بقى يعمل لحساب الخديوى ، ومن مستر كوكس قنصل بريطانيا فى الاسكندرية ، ليصـــبح مادة صـــالحة للصـــحافة الانجليزية والحكومة الانجليزية لتبرير ما يريدانه من التدخل العسكرى أمام العالم ، ترى هل ينجح هذا المؤتمر الدولى فى منع انجلترا من التدخل ؟ وماذا يمكن أن يرى من الحلول لهذه الأزمة ؟ وقبل هذا كله ماذا سيكون موقف تركيا منه ؟

❋❋❋

وتلاحقت الانباء بأن تركيا تقاطع المؤتمر رغم أنه ينعقد فى الآستانة ولا ترى فيه سوى أداة أوربية لانتقاص سيادتها ، وتعلن بناء على تقرير درويش باشا ان الاحوال قد استقرت فى مصر بعد

تأليف الوزارة الجديدة ، ويطلب مندوب السلطان لجميع الأطراف المتنازعة فى مصر الرتب والنياشين ، للخديوى وعرابى وسلطان باشا فى نفس الوقت !

***

وها هى مصر من جديد قد أصبحت بلدا له حكومة ، وها هو نديم يعود صحفيا له جريدة اسمها « اللطائف » ، كانت مدة العقوبة قد انقضت ، وكان منع الاجتماعات العامة أحد نتائج مذبحة الاسكندرية وهكذا تعود اللطائف فى وقتها ، لتجيب على الاسئلة الحائرة فى صدور القراء ، وبالعكس تماما كان نديم يرى تحت السكون الظاهرى دوامات الخطر ، فلا تأليف الوزارة ، ولا انعقاد المؤتمر الدولى ، ولا تقرير درويش باشا ، ولا صمت المدافع ، لا شىء من هذا كله يعنى أن الأزمة فى طريق الحل ، وكيف نصل لجنة التحقيق فى حادث الاسكندرية الى نتيجة ورئيسها هو عمر لطفى نفسه عميل الخديوى ، ولا شىء يفسر صمت المدافع سوى اعطاء الفرصة لآلاف الأوربيين الذين يهاجرون موجة اثر موجة الى السفن الراسية فى البحر ، ولا شىء أسخف من أن تقاطع تركيا المؤتمر ، وفى الوقت الذى تدرك فيه الدول الأوربية نوايا بريطانيا التى تسفر عنها تصريحات المسئولين فيها وتهويلاتهم عن الأحوال فى مصر فتلتزم بريطانيا « بميثاق براءة » يتعهد فيه المؤتمرون بالا تحاول احدى الدول الحصول على امتيازات خاصة فى مصر أو الانفراد بأى تدخل اثناء انعقاد المؤتمر !

***

ويكتب نديم فى اول مقال له مطالبا بأن يكون لمصر نفسها مندوب فى المؤتمر الدولى يعرض وجهة نظرها ، ويصف حقيقة الأحوال ، ورغم الصورة المظلمة التى كانت تتراءى له فلم يكن يائسا ، ولم يفقد ثقته فى نفسه أو فى الشعب أو فى العالم ، ووسط زحام الأحداث كانت تتراءى له صورة عالم تتصارع فيه

دائما قوتان ، قوة تنتصر للحرية وأخرى ضدها ، وقديما تراءى له أن الحـــرية هى العدل وان الثورة هى التقدم ، وان القوتين تتصارعان داخل الوطن الواحد ، بين القلة والكثرة ، وها هو اليوم يرى صورة هذا الصراع فى العالم كله ، فى بريطانيا نفسها فى فرنسا فى المانيا فى النمسا فى روسيا ، فالحرية لا وطن لها ، « انها سر تبعثه الخواطر فتحرك به الدماء وتوجه به الهمم الى أعالى الأمور ، ولا يقوم بهذا السر فى كل أمة الا رجال العزائم ، يقطعون العقبات بالصبر على المشاق ، وما أعمالهم الا شرارة تعلق بكبريت طباع الأمم فيعلو بها لهيب يشم رائحته القريب ، ويرى ضوءه البعيد » .



« وهم الآن أصحاب الصوت الأول فى الأمم المتمدينة ، قد غلبت أفكارهم أفكار المستبدين فى أمريكا ، وغالبوا بأعمالهم قوة الملوكيين فى فرنسا ، واشعلت نيرانهم فى روسيا فاهتدى كل تائه فى ظلم الاستبداد ، وجروا فى مدن ايطاليا فتبعهم كل طالب حياة بلاده » .

« ولقد سرى هذا السر فى الشرق فقابله المصريون مقابلة المحب لمحبوبه يجتمع حوله كل وطنى حر ، ويدافعه كل طامع فى ثروة ، أو دائرة حول وجاهة يحصلها ، ولكن أقدام الحزب الوطنى لا يزحزحها مثل هؤلاء ، فانه حزب اعتز بالله وانتصر بالحق ، فالثبات الثبات يا رجال الوطن ـ ان حزب الله هم الغالبون »



هكذا راح يكتب نديم فى تلك الأوقات العصيبة ، مخاطبا كل من يقرأ فى حشوده الكبيرة ، مناشدا ضمير العالم ، مذكرا من حرمهم طوفان الهجرة من الأجانب بالأيام الطيبة والناس الطيبين الذين عاشروهم لسنين طويلة ، وحين يفرغ من مقاله وحيثما يكون سيجد حوله واحدا أو أكثر من تلاميذه يحملون المقال الى المطبعة ،

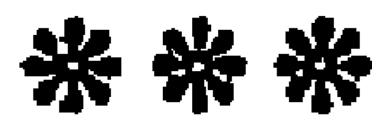
بينما يواصل هو حركته الدائمة من اجتماع لآخر ، ومن بلد لآخر ، كانت بذرة الاضطراب اللعينة تجد فى الظروف السائدة وفى المدن التى يعيش فيها الأجانب اعظم فرصة ، وكان بمقدور اللصوص والقتلة والبائسين جميعا أن يصبحوا وطنيين بطريقتهم ، وان يقدموا فى نفس الوقت لانجلترا أعظم الخدمات ، ولم يكن ثمة غير نديم يمكنه أن يجد فى كل بلد أكثر من صديق يستطيع الاعتماد عليه وقت الحاجة ، وكان بمقدوره أن يستعين بكل شىء وبكل أحد ، ابتداء من جمعياته الى من يعرف حتى من مشايخ الطرق الصوفية الذين يملكون تأثيرا عظيما على الجماهير فى ذلك الوقت ! حتى لا يخيم شبح الفوضى على البلاد فى وقت لايزال فيه عدد من رجال الادارة يكنون ولاءهم للخديوى ! ويعملون سرا لحسابه !!



وهاهو الجوابة القديم يعود كما بدأ ، شعر غير حليق ، وعيون مسهدة ، ولكنه يصطحب هذه المرة خادما اسمه « حسين » يحمل حقائبه ، ويغسل ثيابه، لقد التقطه يوما من احدى حلقات الذكر التى يقيمها صوفى اسمه الشيخ « شحاته القصبى » ، أحبه نديم ، وأخذ عليه العهد ، واخذ منه « حسين » الذى كان عاجزا عن العمل ، ووجد فى حلقات الشيخ الطيب صورة من صور الحشد الذى كان يجتذبه اينما سار ، ويجد فيه دائما أرضا صالحة لما يحمل من بذور !

من الذى قال له يوما « ان الجماهير سلاح ذو حدين » ؟ الخواجة موريس ؟ اين هو الآن ؟ هل قتل فى مذبحة الاسكندرية ؟ ان له ضيعة بالقرب من طنطا ! وعرج عليه واطمأن الى انه لا يزال حيا وقضى ليلة فى ضيافته ، لم يكن الخواجة خائفا ، قال له معلقا على انباء شجار حدث فى طنطا ، وقضى عليه البوليس فى

وقته : أين هذا مما حدث فى باريس أبان الثورة الفرنسية ؟ أن ثورتكم لا مثيل لها فى التاريخ ! وتمتم نديم بأسى : التاريخ ! الثورة ! لماذا دائما تختلف الموازين من الشرق الى الغرب ؟ لماذا تختلف النظرة الى الشىء الواحد ؟ لماذا تنكر علينا أوربا ما تراه سر تقدمها ؟ بل ما معنى التقدم ؟ وما هى المسألة ؟ ولم يكن ثمة وقت للنقاش الطويل ، كان نديم متعبا وكان فى حاجة الى النوم ليواصل رحلته المضنية فى ذلك السباق الجنونى بين المجد والدمار !!



وقال له الخواجة ملاطفا : الآن أتركك تنام ، وحين تنتهى هذه الأزمة فقد يصبح نديم وزيرا فى حكومة مصر وآنذاك نبدأ نقاشنا الطويل فى مسألة الشرق والغرب ! ويتمتم نديم :وزيرا ! لم لا ؟ وبيت كهذا ، ومكتبة كهذه ، وتعكف فى نهاية كل ليلة على اتمام الكتب الكثيرة التى شرعت فيها ، ولم تتمها بعد ، هل صحيح أنه لا يظفر بالحياة الطيبة سوى الأوغاد ؟ ومن الذى قال ذلك ؟ هو ، أم غيره ، أم كل الناس ؟ ونام قبل أن يصل الى جواب ؟



صيف حـار طويل

هل انتهى كل شىء أم أنه لم يبدأ قبل هذه اللحظة ؟ فحين تعرف أنه لم يعد أمامك سوى شىء واحد ، شىء واحد لا غير ، حين يسقط كل اختيار وكل احتمال تصبح فجأة انسانا آخر ، وبقوة لم تعرفها طوال حياتك تواجه هذا الشىء ، لا تخافه ، لا تتردد فى مواجهته أ واقتحامه حتى ولو كان حائطا من اللهب ! وفى يوم ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ واجهت مصر كلها هذا الشىء .

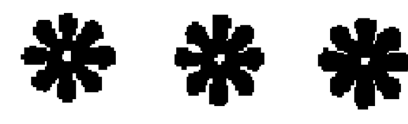


ففى صباح ذلك اليوم أطلق الاسطول الانجليزى مدافعه على مدينة الاسكندرية .

اطلقها وأعضاء المؤتمر الدولى فى الآستانة لايزالون ينتظرون رد حكوماتهم على قرار المؤتمر « بأن يتم تدخل عسكرى عن طريق تركيا ، له من القوة ما يسيطر به على الموقف ، على الا تمس الامتيازات التى حصلت عليها مصر بموجب الفرمانات السابقة » .

اطلقها اثر قصة سخيفة من قصص التاريخ التى لا تنسى رغم سخفها وربما بسببه ، حيث زعم قائد الاسطول الانجليزى أن مصر تقوم بتعزيز طوابيها فى الاسكندرية ، وان هذا يعتبر تحرشا بالاسطول الانجليزى ، وتهديدا لسلامته ويطلب ازالة المدافع الجديدة أو تسليم الطوابى لرجال الاسطول أو يقوم الاسطول بضرب الطوابى ، واحتلالها !

ولم يكن أمام الخديوى نفسه الا ان يقرر مع المجلس الذى انعقد للنظر فى تهديدات قائد الاسطول رفض ما يطلبه وما يهدد به !!

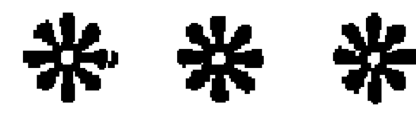


وهكذا ، على نحو غريب من المفاجأة التى لم تكن أبدا مفاجأة كان على مصر أن تحارب انجلترا ! وانتهى السباق الجنونى بين المجد والدمار ، أو لعله بدأ ، كان المجد قى أصبح يرتدى ثياب الجندى ، وينطلق من فوهة بندقية أو مدفع ، كان اسمه الموت أو لعله كامن فيه ، فى قبوله ، وقبلها بأيام كان نديم قد واجه الموت ، ولم تكن تلك هى المرة الأولى فيما يذكر ! لقد اشعلوا النار فى داره ذات ليلة ، لأنه طالب ببعض حقوقه ، ومنذ أيام قدموا له سيجارة مسمومة ، قدمها له واحد من عملاء الخديوى الذى لم يعد يطيق هجومه عليه ، بل ولم يعد يحتمل وجوده ! وغاب عن وعيه خمسا وثلاثين ساعة عاد بعدها الى الحياة ، كان الموت قد أصبح جزءا منه ، ولكن الحياة الحقيقية ، الحياة الحرة الكريمة له ولمصر كلها ؛ هذه الحياة الصحيحة لم تصبح بعد جزءا من أحد !



واختصرت القضايا الكثيرة التى كانت تمزق فكره الى قضية بسيطة وحاسمة ، سوف نحارب ، ولم يكن فى السن التى تسمح له بأن يجد فى هذه الكلمة الصغيرة أية نشوة ! ولكنه بالتأكيد وجد فيها ما لم يجده فى حياته كلها من اليقين والقوة والطمأنينة الغريبة

التى تتولد لديك حين تختصر حياتك كلها فى شىء واحد ولو كان هذا الشىء هو أن تمسك بالسلاح أو بالقلم لتواجه الموت دون أن تفكر لحظة واحدة فى النتيجة !!



وكانت نتيجة المعركة بين الاسطول البريطانى لأكبر دولة بحرية آنذاك ، وبين طوابى الاسكندرية التى لم تستكمل تعزيزاتها جديرة بدورها بأن تحسم الموقف أمام أعداء الثورة ، وأن تختصر لهم الطريق الى الخيانة السافرة !

لقد انتقل الخديوى وحاشيته وعملاؤه وعلى رأسهم سلطان باشا نفسه الى قصر رأس التين ليكون فى حماية الاسطول وليبرق الى عرابى بانه ليس للدولة الانجليزية مع الحكومة الخديوية — وكان رئيس الحكومة وبعض أعضائها قد بقوا معه بالاسكندرية — ادنى خصومة ، وان ما حصل انما فى مقابلة ما كان من التهديد للاسطول فلذلك يلزم أن تصرفوا النظر عن كافة التجهيزات الحربية وتحضروا حالا الى سراى رأس التين لاعطاء التنبيهات الشفاهية .. الخ .



وكان عرابى قد ارتد بجنوده الى كفر الدوار ، لينشىء خطوط دفاعه فى المواقع الحصينة هناك ، وليستعد لحرب شعبية طويلة ، ورد على برقية الخديوى بخطاب مرير يذكره فيه بأن قرار الدفاع عن الوطن ضد التهديد الانجليزى صدر عن مجلس انعقد تحت رياسته وبحضور درويش باشا مندوب السلطان ، والمح فى لباقة الى انه لا يستطيع أن يذهب الى الاسكندرية لانها الآن محتلة بجنود العدو ، واذا كان لدى الخديوى ما يود التباحث فيه فليرسل وفدا من الوزراء الموجودين معه لتبين الحقيقة !!

وفى نفس الوقت أرسل الى القاهرة ببرقية الخديوى وبرده عليها وطلب من « يعقوب سامى » وكيل الداخلية أن يطلب عقد جمعية عامة من رؤساء الأديان ووكلاء الوزارات والعلماء والنواب والأعيان والتجار للنظر فى موقف الخديوى ، وما يجب اتخاذه لمواجهة الغزو الاجنبى !

***

كانت تلك أول حكومة شعبية تحكم مصر ، واعتقد نديم أن هذه الحكومة التى انبثقت فى أحلك الظروف ، هى أول تعبير حقيقى عن شعب مصر ، وأول الثمرات الطيبة لعدوان مرير ، كان العدوان يكشف النقاب عن وجه الخيانة ، وفى أول اجتماع لهذه الجمعية اكتشف نديم أن الخيانة لا تعجز عن اخفاء وجهها بأى نقاب ، لقد وقف مسئول اسمه « على باشا مبارك » يكن له نديم أعظم تقدير ، ليطالب الجمعية بأن تبعث بوفد الى الخديوى فى الاسكندرية لاستجلاء الحقيقة ، فمن أين لنا ونحن فى القاهرة أن نعرف حقيقة ما حدث فى الاسكندرية ؟ أليس من الضرورى أن نحكم عقولنا ؟ أليس من الجائز أن يكون ما بلغنا زورا وبهتانا ؟

وقاطعه نديم أمام الجمع الحاشد بعنف لم يصدر عن مثله فى حياته كلها ، فطوال حياته لم يجد مثل هذا الاحتقار للعقل باسم العقل :

« اذا كانت لا تكفيك شهادة ثلثمائة الف من الرجال والنساء والصبيان خرجوا من ذلك الثغر مهاجرين لا يملكون الا أنفسهم ، هائمين على وجوههم فى البلدان والقرى لا يلوى الوالد منهم على ولده ، ولا الأخ على أخيه فما الذى يكفيك » ؟

واندفع نديم يروى للحشـــد الذاهل المتجمع فى دار وزارة الداخلية ما رأت عيناه ، وكان قد سافر الى الاسكندرية فى اليوم

التالى لضربها بمدافع الاسطول ، فى ذلك اليوم الحزين الذى باتت فيه الاسكندرية مدينة للدمار والهول !

***

كانت النيران المتخلفة عن الضرب ترعى فى شوارع المدينة دون ان تجد من يتقدم لاطفائها ، كان كل ما حلم به الطيبون والأوغاد ملكا للنيران وحدها ، البيوت والمتاجر والمطاعم والمساجد والكنائس والبنوك والبارات والمقاهى والمدارس ! كان الأجانب قد هاجروا الى السفن الراسية فى الميناء ، والأهالى الى قرى الدلتا ومدنها ، وبقيت المدينة وحدها تحترق ، ولماذا يترك المهاجرون خلفهم مدينة يجد فيها العدو شيئا صالحا ؟ لا احد يدرى من الذى القى بهذا السؤال ، ولا من الذى أجاب عليه بمزيد من الحرائق هنا وهناك ! ولم تكن النيران فى حاجة الى مرشدين كانت تعرف طريقها ، وكذلك كانت الطيور والكلاب الضالة واللصوص ، والبائسون ، والقتلة ، كان يوما غريبا لا ينساه نديم ، هو الذى ظن يوما انه قد انتهى فى وقت مبكر جدا من الالمام بكل غرائب الحياة وفظائعها معـــــا ؟

لقد رأى دائما كيف يستحيل الحشد الذى يخطب فيه الى رجل واحد له آلاف العيون والرءوس والأيدى !

***

وفى هذا اليوم اللعين راى كيف يستحيل الرجل الواحد الى مزق صـــغيرة ، وحتى الذين لم يدركهم الموت كانوا مزقا ، كان الرعب يمزق العلاقة بين الانسان ونفسه ، ورأى فى طريق الهجرة المروع رجالا ونساء يصرخون وهم يبحثون عن لا شىء ، وآخرين يضحكون فى بلاهة ، وعربة خشبية مقلوبة تصبح مسكنا لأسرة ، وطفلا صغيرا يلتهم أصـــابعه ثم يبكى فجأة وهو ينظر اليها فى غضب !

وفى المدينة كان الجرحى لا ينتظـرون الا نجـدة الموت ، والساعات المعلقة على جدران الحوانيت المفتوحة كانت عقاربها قد توقفت مع توقف الحياة ، ورغم ان كل شىء فى هذا اليوم البائس كان مباحا ، فلم يكن هناك أمام الطيبين والأشرار ، اثمن من أن يظفروا بحياتهم ، كان ذلك نوعا آخر من الحشد ، وكان ذلك نوعا آخر للحرية ، ولم يكن هو نديم ، لقد مشى صامتا ذاهلا يتأمل كم هو فظيع ذلك العربون الذى دفعته مصر ثمنا للحرية !

وها هو يدرك بعد عودته الى القاهرة أن كل ما حدث لا يكفى لتصبح بعض الأمور واضحة ! وليقف أصحاب الحقوق جنبا الى جنب كان كل شىء قد احترق فى الاسـكندرية عدا قدرة بعض الناس على تزييف الحقيقة !



ان المعركة لا تصبح واضحة حتى فى ضوء طلقات المدافع ، ولايزال أمام نديم ما يفعله فى معركة التزييف التى بداها الخديوى بتراشق البيانات مع عرابى ، وكانت ورقة الخديوى التى امسك بها الانجليز منذ البداية ، قد انتقلت الى ايديهم فى الاسكندرية ، وكانوا قادرين على أن يزعموا أنهم لا يحاربون مصر ، بل يحاربون الجند المتمردين على الحاكم الشرعى ، واذا كان مثل هذا الزعم لن يجد أذنا لدى الشعب فهو جدير بأن يحول المترددين من الأعيان وأصحاب المصالح الى ثغرة لعينة فى حرب طويلة لا أحد يعلم ماذا تكون نتيجتها بعد ! والا ممن كان يتصور أن يقف رجل من أبناء الشعب ، وممن قدموا له أروع الخدمات ليتساءل عن حقيقة ما حدث فى الاسكندرية ؟

واخرست خطبة نديم السنة المرجفين ، وفى اجتماع آخر للجمعية العمومية اصـدرت أوامرها بتوقيف أوامر الخديوى ، واصدر العلماء فتاواهم بأن الخديوى قد خرج على أصول الدين

بانضمامه الى العدو ! وكلف عرابى من هذه الجمعية باتخاذ كافة التدابير للدفاع عن أرض الوطن !

* * *

ولم يكن ثمة قرش واحد فى خـــزانة الدولة ، فالمراقب الانجليزى « مســـتر كلفن » نقل الأموال من خزينة المالية الى الاسطول قبل الحرب بأيام ، ونفس الشىء بالنســـبة للأموال الموجودة فى صندوق الدين ، لقد حملها أعضاء القومسيون الى البحر ! وكان أمام نديم ما يفعله قبل أن ينضم بجريدة اللطائف الى مواقع القتال بكفر الدوار ، كان عليه أن يقوم بآخر جولاته وامجدها فى الأقاليم .

كان عليه أن يجمع التبرعات ، وأن يحشد المتطوعين للقتال وللأعمال المساعدة للجيش !

وكان عليه أن يقول للناس هذه المرة ما لم يقله أبدا ، وما كان يمنعه من قوله ذلك الحرص على تجنب المخاطر ، لقد تقاضت الحرية ثمنها كاملا ، فلتكن الحرية اذن كاملة !

***

وحمل فى كلتا يديه ما لم يحمله قبل اليوم ، الجنة للشهداء ، ومصر للمصريين ، مصر التى حلم بها دائما ، وأثارها فى أحلامهم ! مصر بلا ديون ، وبلا سخرة ، وبلا ضرائب ظالمة ، مصر الجيش للجنود ومصــر الأرض للفلاحين ، ومصـــر الوظائف والادارات للمتعلمين ، ومصر المدارس والمصانع للأطفال والشباب ، ومصر الحرية والكرامة للجميع !!

وكان كل ما يفصل بينهم وبين مصر هذه ، أن يحمل كل قادر بندقيته أو فاسه ، ويضع نفسه تحت امرة عرابى !

الطريق هذه المرة قصيرة وواضحة فى رءوس الفقراء الذين يعرف جيدا ماذا يقول لهم ! وكان بمقدوره أن يتذكر كل ما كتبوه فى عرائضهم القديمة والجديدة ، وما كان يعرفه يفوق ما يكتبونه ، ولم يتردد فى أن يبوح لهم بما كانوا يهمسون به فى خلواتهم ، وأن يعدهم بما حلموا به يوما ، وبما لم يحلموا به فى أى يوم ، وفى كل اقليم كان يتحدث باللهجة التى يألفونها ، يبرز المشاكل التى يعانون منها ، ويعلق كل شىء فى الحلم أو فى الواقع ، فى السماء أو فى الأرض ، بانتصار عرابى على الغزاة الكفرة ، مستشهدا بالقرآن والتوراة والانجيل على خروج الانجـــليز حتى على دينهم الذى يبارك السلام ويلعن الحرب !!!

***

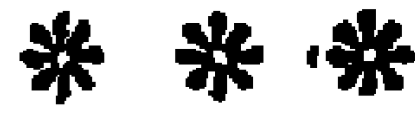
واذا كان يخشى أن يؤثر ضرب الاسكندرية فى عزيمة الناس فلم يكن يتردد فى أن يؤكد لهم أن الانجليز كالأسماك يموتون اذا خرجوا الى البر .

وأن ينقل الى أعماق القرى والكفور ما تنشره الصحف من حركات التأييد للمصريين فى حربهم المقدسة ضد الانجليز « العالم الاسلامى كله ينتفض بالثورة على أعدائكم ، فى الهند ، وفى تركيا ، وفى تونس ، وفى سورية ، والخطباء فى هذه الأقطار يدعون الناس للتطوع معكم فى حربكم المقدسة » وكان بمقدوره أن يتحدث عن ثورة مصر ، وجيش مصر ، وحرب مصر ، كطليعة لثورة العـــالم الاسلامى التى كان يبشر بها الشيخ جمال الدين منذ سنين ، وأنه هناك فى الهند يشعل ثورة أخرى ضد الانجليز ، وأنتم هنا تصنعون البداية العظيمة للعالم الاسلامى العظيم المتحرر !

***

وحين عاد نديم ليلحق بمعسكر كفر الدوار ، وليصدر من هناك جريدة اللطائف فى صفحة واحدة لتلاحق تطور الاخبار واصل عند

من اخلص رجاله ، جولاته فى القرى والمدن وواصلوا مهمته ، اما هو فقد كانت أمامه مهمة اخرى بجوار القائد ، وبجوار الجنود !! كانت الحرب قد بدأت فى كفر الدوار !!



ولم يكن نديم الذى جرب أشـياء كثيرة فى حياته قد جرب الحرب ، وتساءل نديم فى لهجة حاول أن تكون مرحة :

— وهل تختلف الحرب عن غيرها من الأشياء ؟

وقال « طلبه عصمت » الذى كان يقود الجيوش فى كفر الدوار

— أظنها تختلف ! ثم تابع محاولا ثنى نديم عما يرمى اليه :

— حين نفقد جنديا سيحل مكانه آخر ولكن من يحل مكانك ؟

وابتسم نديم شاكرا اطراء القائد ، ولم يجد أى معنى فى أن يؤكد له : ان الأمور لا تتوقف على شخص واحد مهما يكن . وان أعظم ما قام به فى حياته هو اكتشافه لهذه النخبة من الرجال الذين يواصلون مهمته فى الاقاليم !

واكتفى بأن يقول للقائد :

— لن يكون لما اقول أو أكتب اى تأثير اذا كان ما افعله مختلفا!

— وماذا تنوى أن تفعل ؟

— اقف بين الجنود ، واتعلم عن الحرب ما يجعلنى على الأقل قادرا على الدفاع عن المكان الذى أقف فيه !

وحاول القائد أن يوضح له فى تلطف أن هذا عملهم ، الذى قد لا يحسنه ، ثم عرج فى حديثه الى المنشورات التى يبعث بها

الخديوى سرا داخل البلاد وداخل الجيش عن طريق عملائه ، وانها قد تكون اخطر من الجيش الانجليزى نفسه فى بلبلة الأفكار ، وانت تقـــــدر ...

وهز نديم راسه موافقا ، ومقاطعا نوبة الاطراء الجديدة التى يوشك القائد أن ينخرط فيها ! ...

وهل يحتاج تعلم استخدام البندقية الى سؤال القائد نفسه ، لم لا يتعلم من الجنود أنفسهم ، وفى نفس الوقت الذى يعلمهم فيه لماذا يحاربون ؟ ولماذا يجب أن ينتصروا فى هذه الحرب ؟

صحيح أن الولاء الكامل يصنع النصر ، ولكن النصر بدوره يصنع الولاء !

وكان ادراكه لهذه الواقعة البسيطة هو الأساس فى الحملة النفسية التى بدأ يقودها ضد منشورات الخديوى التى يعلن فيها عزل عرابى ، ويصمه بالتمرد ، ويجعل من الانجليز اداة الخديوى فى محاربة العصاة لا الشعب !

***

وكان الجيش قد نجح مرارا فى صد هجمات الانجليز تجاه كفر الدوار ، ورأى الجنود الفلاحون جنود الامبراطورية البريطانية يموتون مثل غيرهم من الجنود ، وينسحبون فى ذعر ، ويسحبون قتلاهم فى الظلام ! ومن قلب الظلام ينبعث انين الجرحى وصراخهم! كان النصر قد أصبح حقيقة واقعة ، وكانت الكلمة يمكن أن تصبح ترياقا وسحرا حين يسمعها الجنود من رجل يعيش بينهم وتثقل كتفه بندقية من نفس النوع الذى يحملونه ، وحين يجوع يشاركهم الطعام ، وبعد كلمة او اثنتين يستطيع من لهجة أى جندى أن يقول له من أى البلاد هو ؟ وكثيرا ما يكتشف الجنود ان هذا الرجل يعرف على الأقل رجلا أو أكثر من بلدهم أو من البلاد المجاورة !! ...

ويحدثهم عن حياتهم حديث الخبير ، ويفتح الجنود الفلاحون ـ الذين ما عرفوا البوح لغير الله وأوليائه الصالحين ـ قلوبهم ، ويستشعرون الود الخالص لهذا الرجل الذى لا يعرفون هويته ، ولا ينقضى عجبهم لما له من أهمية قصوى لدى قادتهم ، رغم أنه لا يلبس ثياب الضباط ولا يحمل رتبهم ! كان شيئا غريبا على حياة الجيش بل على حياتهم كلها !

وكان جديرا بنديم أن يستشعر بدوره الغبطة والفخار حين يكتشف بين وقت وآخر أن هناك من يعرفه بين الجنود ، ويقلب معه الصفحات القديمة !

ـ نديم .. ؟ لقد زرت بلدتنا فى عام ١٨٨٠ وخطبت فى جامع سيدى سلام .

ـ نعم .. نعم .. !

ـ كنت هناك واستمعت اليك وانت تقول ...

ـ ولكن لم أوقفت « التنكيت والتبكيت » يا نديم ؟

كان ذلك صوتا آخر ، وكان الجنود قد ألفوا أن ينادوه باسمه !

ـ وهل هذا وقت التنكيت يا بنى ؟

ولكن الوقت ، وقته مع الجنود كان يتسع لأعذب النكات ويتسع حتى للزهو الخالص ، وحين يكتشف نديم جنديا موهوبا اسمه « رجب السلامونى » يحفظ قدرا من أزجاله ، ويحتفظ فى مخلاته بأعداد من « التنكيت والتبكيت » وله قدرة على ارتجال الزجل ، لا يتردد نديم فى مطارحته الزجل ، وكان الموضوع هجاء الخديوى والانجليز والخونة جميعا ! ..

وتتسع الدائرة التى تسمع وتضحك ، ويعد نديم الجندى الموهوب بأن ينشر أزجاله فى اللطائف ، ويعاتبه قائلا :

ـ لم لم تبعث لى بأزجالك من قبل ؟

ويضحك السلامونى :

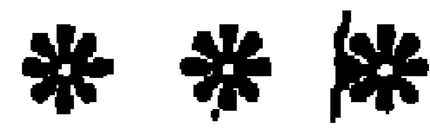
ـ لقد ارسلتها كلها ولكنك لم تنشر شيئا منها ياسيدى !

وتضحك الدائرة حين يقول نديم :

ـ لو جئتنى وقتها ومعك هذا المدفع ، فهل كنت اتردد فى نشرها ؟

ولكن دوائر اخرى فى كل البلاد ، كانت تتابع انباء المعركة فى جريدة اللطائف ـ التى تكاد تصدر يوميا ـ وتضحك ، وتستشعر الأمل والنشوة ، وهى تقرأ وصف نديم للمعارك ، وكانت له طريقته فى الوصف ، واذ كنا فى رمضان ، فقد راح يكتب :

« وما زال الضرب يعلو ، والنار تشتعل حتى حان وقت الغروب وآن افطار الصائم ، فخيل لعساكرنا أن رءوس الانجليز فى برانيطها طعام يوضع فى الاطباق لتفطر عليه بنادق الصائمين ومدافعهم ، ثم هللوا وكبروا ، وقد قام بريق المدافع والبنادق مقام الشمس »



وعجز الجيش الانجليزى عن أن يتقدم خطوة واحدة فى جبهة « كفر الدوار » العنيدة الصلبة ، التى أحسن المهندس «محمود باشا فهمى رئيس أركان حرب الجيش المصرى بناء استحكماتها المنيعة ، فلم يكن بمقدور اى جيش مهاجم أن يصل اليها الا عن

الطريق الضيق المجاور للسكة الحديد ، والذى تحيط به من الجانبين بحيرة مريوط الضحلة ، بينما استقرت مدافع كروب الضخمة على التلال المحيطة بمواقع الجيش ليصبح الطريق الوحيد لتقدم الانجليز تحت نيرانها ، وليضطر الانجليز للدخول فى هذه المصيدة ، قام بسد ترعة المحمودية التى تمد الاسكندرية بالمياه العذبة !



وفى الوقت الذى انتهى فيه « محمود فهمى » من اغلاق المنافذ الشمالية للدلتا بعدد من المواقع الحصينة فى رشيد ، ودمياط وبين رشيد وبحيرة البرلس ، بقيت الجبهة الشرقية بلا تحصينات جديدة مكتفية بوسائل الدفاع العادية ، باعتبار القناة محايدة لمصلحة التجارة الدولية ، كانت تلك مشكلة من مشاكل السياسة قبل أن تكون من مشاكل الحرب ، فرغم ضرب الاسكندرية ، كان مؤتمر الآستانة لايزال يواصل جلساته ، ولاتزال انجلترا تواصل عبر مجموعة المصالح المعقدة لدول هذا المؤتمر ، مناوراتها لتظفر باحتلال مصر ، وكانت انجلترا التى ملأت الدنيا صراخا بما يتهدد أرواح الأجانب ومصالحهم فى مصر ، أصبحت بعد احتلال الاسكندرية تملؤها صراخا أيضا بما يتهدد التجارة العالمية نتيجة ما يمكن أن يقوم به الثوار من تدمير لقناة السويس ، واذ كاد عرابى أن يفقد خيط الأمل الذى كان يتلمسه فيما بين مصالح الدول الأوربية من تناقضات قد توقف تدخل بريطانيا ، واذ توشك تركيا نفسها أن تصبح أداة احتلال بدلا من أن تحول دونه ، فلم يعد أمامه سوى أن يستجيب على الأقل لتوسلات محمود فهمى بضرورة تحصين الجبهة الشرقية ، وحتى يصبح تعطيل المرور فى قناة السويس عملا ممكنا لو اضطرتهم الظروف اليه !!

وفى ٢٠ يوليو سنة ١٨٨٢ أبرق عرابى الى المجلس العرفى فى القاهرة يطلب « تعيين قوة كافية لاقامتها فى راس الوادى وفى

جهة الصالحية لصد ما عساه يطرأ من جهة السويس وبورسعيد ، وما بينهما » ولكن المجلس المذكور أبرق الى عرابى فى ٢٢ يوليو سنة ١٨٨٢ (٦ رمضان سنة ١٢٩٩ هـ) يقول بعد الاشارة الى برقية عرابى ، « وبعرض التلغراف على المجلس المنعقد بديوان الجهادية من حضرات وكلاء النظارة والذوات الملكية والضبطان العسكرية الموقعين بأدناه ، والمداولة فبذلك به قد تقرر باتحاد الآراء عدم موافقة ارسال عساكر الى جهتى الوادى والصالحية لمنع ما عساه يحدث من القيل والقال من أن ذلك من أنواع التهديد للقنال ، وغير ذلك ، انما لكون أنه من الضرورى المهم ، استعداد قوة بجميع أسلحتها وخلافه فيصير استعداد القوة المذكورة ، ويجرى اقامتها بالعباسية مستعدة للحركة متى مست الحاجة الى ذلك ، وعلى هذا يجرى اشعار سعادة ناظر الجهادية بذلك كما استقر عليه الراى »

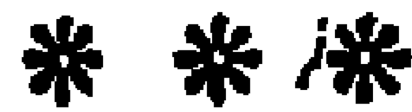


ويصرخ محمود فهمى : ولماذا نترك المبادرة للعدو ؟ لو سبقنا الى السيطرة على القناة فلن نتمكن حتى من بناء استحكاماتنا ؟ كان للحرب منطقها ، وكان للسياسة منطق آخر ، ودعمت برقيات « دليسبس » رئيس شركة القناة ، التى يؤكد فيها لعرابى حيدة القناة ، واستعداد حكومة فرنسا للدفاع عن هذه الحيدة ، وبرقية المجلس العرفى المصرى ، منطق السياسة ، وفى أواخر يوليو سنة ١٨٨٢ حدث تطور فى الموقف الدولى ، لقد سقطت الوزارة الفرنسية التى كان « دليسبس » يعتمد على تأييدها له فى حماية قناة السويس من استخدام انجلترا لها فى الأعمال العسكرية !

ولم يوافق البرلمان الفرنسى على اعتماد المبالغ اللازمة للحملة التى أرادتها الحكومة الفرنسية لحماية القناة ، وضمان حيادها ولم تضيع انجلترا الفرصة ، فاقتحمت السفينة الحربية « أوريون » قناة السويس ، لتقف فى بحيرة التمساح ، ثم وصل الادميرال « هوت »

يقود أربع سفن حربية من السويس الى بورسعيد فى ٢٩ يوليو سنة ١٨٨٢ !

وحين قرر المجلس العرفى فور ذلك نقل الجنود والمعدات الى الجبهة الشرقية ، كان الوقت الملائم قد فات وكانت فكرة تعطيل الملاحة فى القناة قد أصبحت من الناحية العملية شبه مستحيلة ، فانجلترا رغم أنها لم تقم آنذاك بغلق القناة ، ولم تنزل الجنود الى البر ، الا أنها أصبحت قادرة على منع المصريين من سد القناة فى وجه سفنها ! ولكن حتى هذه اللحظة ، كان الجيش الذى نجح فى صد الانجليز عند « كفر الدوار » يسرع لصدهم فى الجبهة الشرقية عند « التل الـــــكبير » التى قرر المجلس أن تكون قاعدة للدفاع هنـــــاك !!



فى النصف الأخير من شهر رمضان فى ذلك العام ١٢٩٩ هـ لم يكن الجنود الفلاحون المنتشرون على حدود مصر ، ينتظرون بعد أيام نفس العيد الذى يأتى كل عام ، كان العيد القادم يحمل لهم آمالا بلا حدود ، لقد جربوا القتال ضد الانجليز ، وجربوا النصر عليهم ، وانفك سحر الدولة التى تدعى سيادة البحار ، وباتوا على قيد خطوات من الحرية ، الحرية العريضة التى حلموا بها دائما دون أن يروها أبدا ! وحين كان يجلس نديم ، وسط الجنود فى كفر الدوار التى كان العدو لا يزال يركز عليها هجومه اليائس ، ليقرأ لهم أو يكتب رسائل ذويهم ، كانت كلمة الحرية الدائمة تجرى على قلمه أو لسانه ، فيجد لها طعما لم يجده من قبل ، ذلك أنها لم تعد مجرد كلمة ، لقد أصبحت جنودا وأسلحة ، ودماء وجراحا ووعيـــا ومحبة !

كانت تلك أول مرة يمسك فيها الفلاحون جنودا وضـــباطا بالسلاح ليدافعوا عن مصر !! ولقد حاربوا من قبل فى بلدان كثيرة للدفاع عن مصالح الامبراطورية العثمانية ، وبذلوا أرواحهم من أجل أولئك الذين استعبدوا هذه الأرواح ! اما الآن فهم يدافعون عن مصر ! وكان نديم خير من يوضح هذه الحقيقة وخير من ينتهز الفرصة ـــ والانباء تشى ببوادر تغيير فى موقف تركيا من الثوار ـــ ليوضح الفروق بين تركيا الامبراطورية المتداعية التى تمثل التخلف . وبين تركيا التى كانت ترمز لوحدة العالم الاسلامى !!



يفعل ذلك بينما يقدم للجنود هدايا الشعب التى تدفقت على الجيش من كل البلاد ، حلوى وملابس وأطعمة وأغطية وفاكهة ، كانت ثروة مصر توشك أن تصبح على نحو ما ملكا للمصـــريين كانت تلك صورة أخرى للعدالة وللتضحية ، كان ثمة عالم جـــديد من القيم والسلوك ، يولد فى صيف هذا العام على حدود مصر ، ولم يكن من السهل أن يطرح الجنود افكارهم القديمة عن كل شىء ، عن السلطان خليفة المسلمين ، ولا حتى خوفهم الغريزى من الحرب، ولكن « نديم » بات يدرك فى وضوح أن العبء الأكبر من الخوف ينوء به أولئك الذين يتابعون أخبار الحرب من قريب أو بعيد ، أما الذين يخوضونها ، فان خوفهم يصبح جزءا منهم ، جزءا لا يشعرون بوجوده الا كما يشعر المرء بسريان الدم فى عروقه أو نفسه ، وكذلك تصبح الشجاعة أو العقيدة ، وقد يحتاج المقاتل الى سلاح ، وفى صيف يوليو فى صحارى مصر يحتاج أكثر الى جرعة ماء ، وفى وقت الراحة الى ظل خيمة ، أو رسالة من أهله الذين لم يفارقهم من قبل ، أو وجبة طعام ، ولكن الشعب الذى يتابع أخبار القتال بين بلده وبين أقوى دولة فى العالم آنذاك هو الذى يجد الوقت للخوف، وللتفكير فيما يحتمل أن يسفر عنه هذا الصدام ، وفى معنى هذا العالم الجديد الذى يولد فى عسر كآية ولادة !!

وفى هذا الشعب، كان يفكر نديم ، وهو يحرر اللطائف من قلب المعركة ، وراح يبحث عن الفكرة المناسبة واللغة المناسبة كذلك . وكان قد اهتدى من خلال التجربة الى أنه فى أوقات الأزمات ، وفى شعب كمصر ، فان الشعور الدينى هو الذى يفزع اليه الناس ، وهو الذى يبقى صلبا حين يبدأ كل شىء فى الاهتزاز ، وان الكلمة الهادئة التى تروى وكأنها خبر يرويه شاهد محايد ، هى التى تمنح الهدوء والثقة والشجاعة ، واذا كان الشعب آنذاك يتعرض لاقصى حملة نفسية ، تهدف الى زعزعة ثقته فى ثورته ، وفى جدوى نضاله ، فقد أصدر نديم ملحقا للطائف ، يتضمن أخبارا قصيرة وهادئة ، تبدو وكأنها رواية ناقل لا يهمه سوى الحقيقة ، ولكن الحقيقة هذه المرة تثير مكامن الشعور الدينى ، وتمزق اسطورة الخديوى كحاكم شرعى ، والانجليز كحماة له وللسلام الذى يزعمونه !

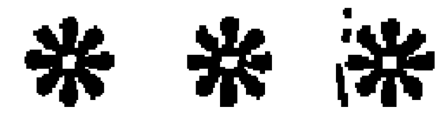


وفى هذا الملحق ، كان الشعب يقرأ مثل هذه الاخبار « أباد الانجليز كثيرا من أهالى الاسكندرية ، وكانوا يفتحون بطون الموتى ، ويحشونها بالجير ثم يرمونها فى حفرة من غير غسيل ولا تكفين ولا صلاة وتوفيق يقول : انهم محبون للسلم لا للحرب » .

« كثيرا ما يطلب الخديوى فجاة الالتجاء الى المراكب الانجليزية خوفا من هجوم الجيش المصرى ، وحين يطمئنه حراسه الانجليز يعود الى سراى راس التين ، وقد بلغت به الحال درجة الذهول والحيرة فهو لا يستقر على حال ولا يقر فى مكان .

« اشاع بعض القادمين من الاسكندرية أن الانجليز قتلوا « سلطان » باشا ، ولكن تبين أن الذى قتل هو خادمه بينما كان يخلع له حذاءه ، واخطأت الرصاصة « سلطان » باشا ، ومن الصدمة أصيب سلطان باشا بالأمراض » .

« شريف باشا » يبكى فى الاسكندرية ، يعض أصابع الندم ، وغلب عليه الذهول والصمت ، وكان فى بعد عن هذا لو لم يمل الى الانجليز ، ويتفق معهم على اللائحة التى عادت على البلاد بالشر ، وثارت الحرب بسببها ، وقد ارسل الى أديب أسحق ليحضر من الشام ليسليه على حاله ، ويدبره فى أمره .



ولم يكن موت « البكباشى محروس » كافيا لتفسير لغز الشجاعة الأبدى ، ولا لفهم حقيقة الخوف أو الألم وحين تندفع الحياة فى حركتها فان محاولة الفهم أو التفسير نفسها تبدو وكأنها غريبة على هذه الحركة ! لقد كان الجيش الانجليزى يكرر محاولاته اليائسة فى اقتحام خطوط « كفر الدوار » الصلبة فقام بهجوم مثلث : ميمنته أخذت طريق السكة الحديد من القبارى ، وميسرته جاءت من الرمل على ضفة المحمودية واندفع قلب الهجوم من طريق الجسر الذى يعبر المحمودية وكان البكباشى محروس الذى يعمل ضمن فرقة الفرسان يواجه هجوم الميسرة !!

ولم تكن صلة نديم بالبكباشى « محروس » تمتد الى أبعد من وجوده فى كفر الدوار ، لم تكن فى عمق صلته بحسن رضوان او محمد عبيد أو محمد فودة أو أحمد عفت أو حجازى ، هذه المجموعة التى كانت تمثل الصف الثانى لضباط الثورة ، والتى كانت ترسم مع نديم صورة المستقبل ، ولا تمل مناقشة الأفكار الجديدة عن الجمهورية والدستور والحرية والعدالة بحرية لا يملكها عرابى نفسه ، ولا تتعب من تقسيم الناس وتصنيفهم مع الثورة أو ضدها ، كان البكباشى « محروس » الطويل الأسمر الصموت ، يحب فرسه ، ولكنه لا يحب ان يتخذ مثلهم من الثروة أو الحرفة أو الثقافة أو

الدين أساسا لتقسيم الناس الى طوائف مع الثورة أو عليها ، كانت له طريقته الخاصة فى تقسيمهم ، ذلك أن الناس جميعا فى رأيه ينقسمون الى طيبين أو أشرار ، وأنت تجد النوعين فى كل فئة ومهنة ودين وبلد ، وكان يعتمد على احساسه الداخلى فى وضع كل شخص فى مكانه ، ولم يكن يحب أن يناقش أحد احساسه ذلك ، ولا ما يزعمه ذلك الاحساس من أن الأشرار أكثر جدا من الطيبين ، ولقد عزله احساسه ذلك عن أن يبرز وسط رفاقه من الضباط ، مكتفيا بصداقة فرسه ، والسؤال فى كل رسائله الى أسرته الغنية عن مملكته الخاصة من الطيور والحيوانات فى قريته ، كان رجلا غريبا ومحبا للثورة ، وشجاعا ، وغير راض عن الفتوى التى تبيح افطار الجنود ، هكذا يزعم رفاقه ، اما نديم الذى كان يولع أحيانا بالغرائب ، فلم يتردد فى اقتحام عزلة البكباشى « محروس » ، وكان أغرب ما اكتشفه « نديم » هو أن حب محروس للثورة جزء من حبه لعرابى الذى كان يضعه فى قمة الناس الطيبين ، وكانت أكبر مشكلة فى حياة البكباشى « محروس » ان حبه الداخلى لعرابى يصطدم بكراهية داخلية لا تقبل المناقشة لبعض من يحيطون به ، وحين سأله نديم عن الاسماء ، فوجىء به يذكر بعض الاسماء التى تحيط بها ريبه وشكوكه ، واذ كان لكل شىء سبب لدى نديم ، فلم يذكر محروس اية أسباب يمكن أن تناقش ، ولكن هذا وحده كان كافيا لكى يؤثره نديم بحب لا يناقش أيضا !



وحين نشبت المعركة التى تصدى فيها البكباشى « محروس » لمسيرة الجيش الانجليزى على ضفة المحمودية ، بلغت من العنف الى الحد الذى تلاحم فيه الجيشان بالسلاح الأبيض ، وهزم الانجليز فى تلك المعركة ، وتراجعوا حين حل الظلام تاركين قتلاهم وجرحاهم

على جسر المحمودية ليرى المصريون فى صباح اليوم التالى كيف حاربوا وكيف انتصروا ؟

ولكن البكباشى « محروس » لم يكن هناك ليرى كيف حارب ؟ كان رفاقه فى المعركة هم الذين رأوا ورووا كيف حارب ؟ فبعد أن سقط فرسه مثخنا بالجراح ظل يحارب ، لا أحد أثناء التحام الجنود بالسلاح الأبيض يشعر بما يحدث لغيره ، وربما بما يحدث له ، ولكن البكباشى « محروس » الذى ظل يقاتل مترجلا ، ويصرخ كالمجنون ، ويندفع رغم جراحه خلال السناكى المشرعة فى أطراف البنادق ، وكأنه يطارد الموت ذاته أبى الا أن يجعل من موته لغزا آخر لا يقل عن لغز حياته !

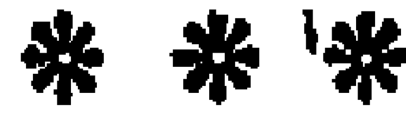
***

لقد حمله رفاقه بعد انتهاء المعركة ، واغمضوا عيونهم حين حاول الطبيب تضميد جراحه ، ولكنه هو لم يغمض عينيه ، ولم يرسل صيحة ألم ، وكانت فيه بقية حياة كافية لأن تمكنه من السؤال عن فرسه وعن نديم ، ووقتها لم يجدوا « نديم » وأطل عليه عرابى بوجهه الضخم ، وابتسامته المشجعة ، ولكن البكباشى محروس راح يشجع عرابى « لا تخف من الانجليز ، لقد فروا !! » وحين اشتدت عليه الحمى راح يهذى بأسماء الطيبين والأشرار ، ويحذر من الانجليز ومن غيرهم ، ولم يجد نديم الذى ـــ جاء متأخرا ـــ فى هذيانه ما يفسره صحوه !

كان كل شىء بلا سبب ، ومع ذلك فهو يلامس الحقيقة وحين وقفوا أمام المقبرة الصغيرة الى وارت جثمانه الضخم ، أدار عدد من الضباط رءوسهم !

وحين تمتم « حسن رضوان » بسؤال لم يسمعه نديم ، لم يجد لديه أية رغبة فى أن يفهم السؤال أو يرد الجواب ، كان قد سئم

الاسئلة والأجوبة ، كان الرجل الصموت الذى بدا كلغز ، وحارب كقديس ، ومات كشهيد ، يترك نديم امام وجه آخر للحياة لا يفهمه . ولكنه لا يملك سوى أن ينحنى امامه فى خشوع ، ويبكى فى صمت !



فى كفر الدوار ، وعند ناحية كنج عثمان ، وفى خيمة عرابى الضخمة الوثيرة ، التى كانت يوما خيمة سعيد باشا والى مصر السابق ، والتى اهدتها ارملته لعرابى مع تمنياتها له بالنصر ، كان نديم يقضى بعض وقته مع هذا النفر من ضباط مصر الذين سولت لهم نفوسهم أن يسبقوا الزمن وان يتصدوا لموجة الاستعمار العالمى التى بلغت ذروتها فى نهاية القرن التاسع عشر !!

وكان نديم قد تعود ان يشارك فى بعض هذه الجلسات ، وان يضع راسه بين هذه الرءوس التى تتقارب لتفحص أكوام البرقيات والتقارير والرسائل والصحف والخرائط ، وتتناقش ، وتدخن ، وتفرغ فى عصبية اقداح الماء والقهوة والشاى وتمسح العرق !!

ومن خلال هذه الأكوام التى تعلو وتهبط ، كانت تتبدل صورة الاشياء ، لقد انتهت مهزلة المؤتمر الدولى فى الآستانة بان قرر فى ١٤ أغسطس تأجيل جلساته الى أجل غير مسمى ! تاركا انجلترا تفعل ما تشاء ، ولم يعد أمام تركيا التى ترددت طويلا أمام قرار المؤتمر بأن ترسل بجيش عثمانى الى مصر ، لم يعد امامها سوى ان تجثوا أمام بريطانيا لكى توافق على اشتراكها معها فى التدخل ، ولكن بريطانيا التى خلا لها الجو راحت تتقاضاها الثمن ، وكان شرطها لهذه الموافقة أن يصدر السلطان منشورا بعصيان عرابى ، وبأن الخديوى هو ممثله الشرعى فى مصر ، واصبحت مسألة صدور

هذا المنشور — الذى كان موضع التكهنات والشكوك — مسألة وقت .

وقبل أن يصدر منشور السلطان ، سبقته منشورات من الخديوى ومن قائد الحملة الانجليزية ، تمهد أمامه الطريق ، كانت هذه حربا من نوع آخر ، حرب المنشورات والرسائل حربا جنودها من البدو الذين كانوا ينتشرون على حدود مصر ، ويشكلون طبقة عجيبة من الناس ومشكلة من مشكلات عرابى ، فولاؤهم أولا وأخيرا لشيخ القبيلة الذى يجعل منهم أنذالا أو أبطالا كما يشاء ، أو كما يدفع له ، كانوا بحكم وجودهم فى الصحارى حراس الحدود الواسعة ، وأحيانا طلائع الجيش وعيونه ، وأخطر ثغرة فيه ، ولم تكن ثمة طريقة حاسمة للتخلص منهم أو لضمان ولائهم ، كانوا جزءا من قدر مصر فى ذلك الحين ! ولقد ضبط الجنود المصريون بعضا منهم يحملون رسائل ومنشورات من سلطان باشا لحفنة من أعوانه داخل القطر ، وباستجوابهم تكشفت لعرابى أسلحة جديدة يستخدمها العدو ، الذهب ، والوعود الكبيرة ، كما تكشفت له حقيقة العلاقات المريبة التى لاتزال تربط عددا من عمد البلاد وأعيانها بالخديوى ، والعلاقات التى يحاول سلطان باشا أن يمدها داخل لاجيش نفسه !

***

قد يصلح نديم لهذا النوع من الحرب ، وقد يجد الكلمة المناسبة يكتبها أو يقولها ، فتفعل ما لا تفعله المحاكمات أو التحفظات ، ان المشكلة لم تعد مشكلة شخص أو أشخاص تحيط بهم الشكوك ولكنها مشكلة التأثير العام لهذا النوع من الحرب فى هذا الوقت العصيب !

وقال حسن رضوان فى واحد من هذه الاجتماعات :

ـــ انتصارنا وحده يحيل هذه المنشورات الى قصاصات من الورق !!

وفى شك تساءل محمد فودة : ولكن لو صدر منشـــــور السلطان الآن .. فهل ينظر اليه الناس هنا أو فى الخارج كقصاصة من الورق ؟

وزمجر نديم :

ـــ لو صدر منشور السلطان فسأنشره فى اللطائف وأرد عليه كلمة كلمة ، وأقضى على أسطورة السلطان نفسها !

ورفع عرابى رأسه فى بطء ، وقال بلهجة يغلب عليها الضيق :

ـــ تريد أن تنوب عنهم فى توزيع المنشور فى مجلتك ؟

ـــ مناقشة أجدى من تسلله كوباء !

ـــ لن تقضى فى يوم على أسطورة عمرها مئات السنين !

واندفع حجازى :

ـــ لقد قضينا فى كفر الدوار على اسطورة الانجليز !

ولم يكن حجازى مجرد متحمس ، فقد عاود الانجليز فى ٢٠ من اغسطس سنة ١٨٨٢ ، وهو نفس الوقت الذى بدءوا فيه بانزال جنودهم عند الاســــماعيلية ، عاودوا الهجوم المركز ولثلاثة أيام متوالية على كفر الدوار ، ومنوا فى هذه الأيام بهزائم مريرة !

ولكن المعركة تتحول الآن الى الجبهة الشرقية ، فالامدادات القادمة م نالهند وقبرص ومالطة تتدفق كلها على قناة السويس ، ولم تعد ثمة آمال فى المؤتمر الدولى و لافى فرنسا ، كانت الأنظار كلها تتجه الى جنود الفلاحين الذين أسرعوا على عجل الى هناك

.. وعادت الرءوس تتقارب فى خيمة عرابى ، واكوام البرقيات والرسائل تعلو وتهبط ، ومن هذه الأكوام كانت تبرز صورة جديدة للأشياء !

١٩ أغسطس سنة ١٨٨٢ .

من رئيس أركان حرب لسعادة ناظر الجهادية افندم « ان أسباب وجوب حضور سعادة ربس عموم أركان حرب هنا ، هو أولا ان النقط جميعها ، وضعتا فى مبدأ الأمر على فرض أن القنال حر وليس مهددا ولما صار محققا أن القنال غير حر وأن مراكب الانجليز فى الاسماعيلية يمكنها الضرب على معسكرنا بنفيشة ، وعندها تنجبر عســـــاكرنا على الرجعة الى الوراء ، وحينئذ يسهل عليهم الخروج ، وقطع السكة الحديد والتلغراف ما بين سرابيوم ونفيشة ، وحينئذ تنقطع عن عساكرنا المئونة والذخائر ! و.. و .. و .. وهذا هو السبب الموجب لطلب سعادة افندى ريس عموم أركان حرب ولسعادتكم الأمر وعلينا الطاعة » .

* * *

٢٠ اغسطس سنة ١٨٨٢

الى ناظر جهادية بكفر الدوار

حيث أن العدو فاجأنا من جهة الاسماعيلية ، ولم يحترم حيادة القنال التى احترمناها لغاية تاريخه ، وضـــــرورى من أعمـــــال الاستحكامات اللازمة بالمواضع المهمة ، فيجرى احضار أربعة آلاف نفر للعمل فى انشاء الاستحكامات المذكورة .. الخ . .. .

٢٤ اغسطس سنة ١٨٨٢

الى ناظر جهادية بكفر الدوار

حدثت معركة بين المسخوطة والاسماعيلية ، وسببها ما أصاب العدو من سد ترعة الحلوة ، فخرج بأربع اورط بيادة واربعة مدافع جبلى ، وكثير من السوارى ، ولم يكن موجودا فى خفر الاستحكامات الا أربع بلوكات بيادة ، وبلوكين سوارى ، ومدفعين جبلى ، وفى الحال توجه عبد القادر بك بألايه ، وحضرة عيد بك بالايه واستمرت الحرب حتى تزلزلت اقدام العدو ، ورجع الى الخلف ، ولم يزل سعادة راشد بك ومحمد عبيد فى ميدان المحاربة ..

٢٥ اغسطس سنة ١٨٨٢

سقطت المسخوطة ،و المحسمة ، واسر محمود فهمى اثناء تفقده لبعض المواقع بثيابه المدنية .!!

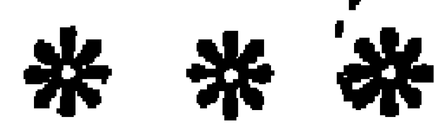
٢٦ اغسطس سنة ١٨٨٢

سقطت القصاصين .. وكان ذلك آخر خبر تنقله البرقيات ، كانت خيمة عرابى قد انتقلت لتوها الى التل الكبير فور وصول البرقيات بسقوط المواقع الامامية امام الجيش الانجليزى الذى يواصل زحفه فى اتجاه الموقع الرئيسى لقوى الدفاع عند التل الكبير ، وفور وصول اخبار تفيد بأن تراجع الجيش ليس نتيجة لقوة الهجوم بقدر ما هو نتيجة لتراخى بعض القواد ، وتردد اسم على بك يوسف اميرالاى بيادة كواحد منهم ، وتذكر نديم كلمات البكباشى « محروس » التى أصبح لها بعد استشهاده سحر النبوءة ، واذا كان نديم يتذكر اسبابا معقولة لسخيمة « على يوسف » على « عرابى » كتقديمه « لطلبة عصمت » قائد « كفر الدوار » عليه فى الترقية لرتبة اللواء ، فلم يكن يصدق إن تصل الأمور الى تعمد

الخيانة ، فالنصر يحمل له وللمصريين جميعا شيئا يفوق عواطف البشر ، وكان واضحا ان الاستعداد فى المواقع الامامية لم يكتمل ، بل انه لم يكتمل بعد فى الموقع الرئيسى بالتل الكبير ، لقد اسر نابغة الاستحكامات « محمود فهمى » بأسهل طريقة ممكنة ، بينما يمشى وحده يتفقد بعض المرتفعات الأمامية ، وقبل أن ينجز كل مهمته !! وقد تكون هذه بعض أسباب الهزيمة !

وكانت خبرة نديم الجديدة بالحرب تجعله يدرك معنى ما قاله يوما « طلبة عصمت » من أنها تختلف عن غيرها من الاشياء !

وقد يجوز الحديث عن الشجاعة والخوف ، أما الخيانة ؟



وفى خيمة عرابى فى التل الكبير ، كانت الرءوس بما فيها رأس « على يوسف » نفسه تلتقى حول أكوام البرقيات والخرائط والتقارير لتعد الخطة القادمة ، وقدم من القاهرة « على باشا فهمى » الذى استدعاه عرابى ليقود بنفسه المعارك القادمة ، وكتب نديم فى اللطائف يصف انسحاب الجيش ، وكأنه نوع من المناورة ، وتقرر أن يبدأ المصريون بالهجوم ، وكانت الخطة التى استقروا عليها ان يتحرك الجيش فى شكل مقعر ليكتنف العدو فى القصاصين من كل جهة ، وتحدد الوقت الذى توجد فيه كل فرقة فى مكانها المرسوم ، وكان جزءا من الخطة أن تتقدم قوات الصالحية بقيادة « البارودى » ليلا فى اتجاه القصاصين لتصل عند الفجر الى النقطة التى تصبح فيها ميمنة الجيش الانجليزى محاصرة بينها وبين ميسرة القوات المصرية !

ومع اول ضوء لنهار ٢٨ أغسطس سنة ١٨٨٢ بدأت أول معركة هجومية للجيش المصرى ، ومع تقدم النهار نجحت القوات

المصرية فى احتلال المواقع الامامية للقصاصين التى انسحب منها الجيش الانجليزى اثر قتال عنيف استخدمت فيه كل الأسلحة !

ثم وصلت من المحسـمة امدادات جديدة للجيش الانجليزى واستطاعت فرقة الفرسان الانجليزية بقيادة الجنرال « لو » أن تقوم بهجوم مضاد ، تعود به الى المواقع التى انسحب منها الجيش، وفصل الليل بين الجيشين المتحاربين ، وأخفى القتلى حتى الصباح ، وأرشد عن الجرحى أنينهم ، وعلقت هذه المعركة مصير الوطن كله فوق خيط دقيق تمسك به الأيدى وتشده فى كل الجهات !

* * *

كانت أول معركة تمتد فوق أرض فسيحة ، تسمح بالمناورة وتتيح للانجليز أن يفيدوا من تفوقهم فى العدة والرجال !!

وكان بمقدور الرجال الأحرار أن يجدوا فيها بذرة أمل صلب ! فلم يكن يتصور هؤلاء الرجال الذين خرجوا فى صيف عام سنة ١٨٨٢ أنهم سوف يظفرون بالانجليز فى أول معركة بعد أن حشدوا كل قواهم فى الجبهة الشرقية .

لقد أسفر النهار عن القتلى من الفريقين وجرحاهم وأسراهم ، وكانت الصورة التى بدت فى ضوء يوم ٢٩ اغسطس جديرة بأن تصب العزم فى قلوب الرجال الأحرار ، واذا لم يبد النصر سهلا ، فانه لا يبدو مستحيلا ، لقد أصبح كل شىء رهنا بصمود هؤلاء الجنود الفلاحين فى صحراء مصر ، وكان السباق بين المجد والدمار يوشك أن يبلغ غايته !!

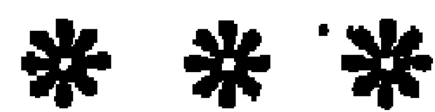
ـــ لكن يجب أن يعفى « علي يوسف » من دوره فى قيادة الجيش !

هكذا أصر نديم ، وهو يضع راسه هذه المرة بين عدد اقل من الرءوس التى انفرد بها عرابى فى جزء من خيمته ، وكان يتردد همس محموم بأن الهجوم الانجليزى المضاد لم ينجح الا بسبب من تراجع « على يوسف » المشين الذى أخل بتقدم الجيش !

ويسند عرابى رأسه الضخم الى راحته مفكرا قبل أن يقول فى بطء :

ــ لو فتحت أذنى لكل ما يقال لسرحت نصف الجيش ، انهم يتهمون حتى « محمود فهمى » بأنه ذهب الى هناك ليأسره الانجليز وحتى لا يشارك فى المسئولية ، المشكلة أن بعض الضباط لا يتصورون أن النصر على الانجليز ممكن ، مع انهم ..

ــ وجود هؤلاء فى الجيش هو الذى يجعل النصر مستحيلا وفى ..



واستمر عرابى :

ــ ومع ذلك فلا استطيع .. يكفى أنه يقاتل فى صفوفنا .. لوكان ضدنا لفعل مثل غيره ، هل أذكر لكم أسماء الذين هربوا وانضموا للانجليز ؟

ــ وجوده فى صفوفنا أخطر من وجوده فى صف الانجليز !

ــ ليس وحده الذى تحيط به الشكوك ، لقد أعجلتنا الحوادث فلم نختر شيئا ما يحيط بنا ، لا الرجال ولا الوقت ولا المكان ، ولو فتحنا هذا الباب فلن يدخل منه سوى التخاذل ، سيظنون أننا ننتهز فرصة الحرب لتصفية الجيش من غير العرابيين ثم ينتشر الخوف .

ورغم أن عرابى لم يفتح هذا الباب ، فقد بدأ نديم يخس ريح التخاذل تهب محملة بالسموم ، وكان ذلك فى ٦ سبتمبر سنة ١٨٨٢ فقد أصدر السلطان منشوره بعصيان عرابى ، واذاعته انجلترا فى كل انحاء العالم الاسلامى ، ونشرته جريدة « الجوائب » ، وتسللت الجريدة داخل البلاد وداخل الجيش نفسه ، وكانت أخبار المنشور قد سبقت وجوده ، محدثة جوا من الشكوك والتساؤلات ، وهاهو المنشور يؤكد كل شىء ! وكرر نديم مطلبه بنشر بيان السلطان فى جريدة اللطائف والرد عليه كلمة ، كلمة انها فرصة العمر لتحطيم كل الاكاذيب ، وفى مقدمتها أكذوبة السلطان نفسه .

ويرد عرابى فى غيظ :

— أيها المجنون ؟ السلطان أكذوبة يصدقها الناس فلها قوة الحقيقة ، وكنا نستعين بها لكسبهم ، والآن يستعين بها الانجليز رغم قوتهم ، لانهم ليسوا بلهاء مثلك ! وليس من الحكمة ان نساعدهم فى نشر بيان السلطان ! وأعتقد أن الانتصـــار فى معركة اخرى سريعة سيكون أعظم رد !!

وفكر نديم فى مرارة : « معركة أخرى سريعة ؟ » كانوا فى حاجة لبعض الوقت قبل الدخول فى معركة فاصلة !

والآن لم يعد الانتظار فى صالحهم ! ولا السرعة كذلك ! هل جاءوا حقا قبل أوانهم ؟ وما هو أوان الحرية ؟ وهل كان عمر الشقاء قصيرا ؟

* * *

وتحددت ليلة ٩ سبتمبر موعدا للمعركة التى أرادها عرابى لتقطع الطريق أمام منشور السلطان الذى بدأ خبره يستشرى كوباء،

لن يتوقع الانجليز معركة بهذه السرعة .وهم الذين يعتقدون أنهم فاجئوا عرابى بفتح هذه الجبهة ، وبالطبع ينتظرون أن يحدث منشور السلطان تأثيره فى النفوس ، واعتمد عرابى على عنصر المفاجأة فى هذه المعركة وأعاد تحـــــديد الأماكن والوقت وحشـــــد كل ما استطاعه فى هذا الوقت القصير ، ولم ينتظر نديم نتيجة هذه المعركة ، كان قد بدأ يخوض معركة المنشور السلطانى وحده ، وعلى طريقته ، وكانت أكثر المعارك ضراوة ، فالضباط لا يتكلمون صراحة فى الموضوع ولا يدرى نديم كيف يبدأ الحديث ! وكثيرا ما يفاجأ بأن بعضهم يعرف بالمسألة منه لأول مرة ! والذين قرءوا المنشور يؤكدون له أنهم لا يبالون بما يحتويه ، وقصارى ما يقولونه : هو انهم يخشون تأثيره على غيرهم وكانت تلك هى الطريقة الوحيدة لكى يجرؤ البعض على البوح بشكوكه وهواجسه . فينسبها الى غيره ، ولم يكن نديم يبالى بالطريقة التى يفصحون بها عن مخاوفهم! كان ينتهز أية فرصة ليمزق شكوكهم فى ضراوة !

***

جندى صغير من الذين نجح نديم فى أن يكسب ثقتهم هو الذى جرؤ على أن يسأله مرة فى صراحة وبساطة :

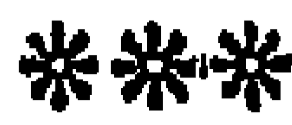
ــ يقولون ان السلطان أصدر منشورا بعصيان عرابى وأن الجيش التركى فى طريقه الى مصر ؟! ــ

وحاول نديم أن يتذكر اسم الجندى الذى يخاطبه دون جدوى ، وفى الوقت القصير الذى قضاه فى الجبهة الشرقية كان قد أصبح صـــــديقا لأكبر عدد من الجنود ، ولم يجد معنى لأن يخفى عنه الحقيقة ! ولكنه تردد لحظات قبل أن يسأله :

ــ وهل قرأت مثل هذا المنشور ؟

ــ لا أعرف القراءة !

ولأول مرة يحتبس الكلام فى فم نديم ، انه لا يقدر على أن يمزق شكوك هذا الجندى البائس دون أن يمزق روحه فى نفس الوقت ، لقد جاء الى هنا ليدافع عن وطنه ضد الكفار الغزاة ، وكان من الممكن أن يمزق فى رأسه صورة « الخديوى » ولكن كيف يمزق صورة السلطان خليفة المسلمين ؟ ان الزمن ليس وهما ، وهذا الفلاح البائس الذى لا يعرف القراءة يعلق فى عنق نديم بسؤاله حبلا !



ـ لا تصدق هذه الأكاذيب فالانجليز السكرة هم الذين يكتبونها ! لأنهم يخافون من المصريين ، يريدون أن يدخلوا البلاد بلا حرب بعد تكرار هزائمهم !

ويتهلل وجه الجندى ، ويرتعب نديم ، فمثل هذا الجندى يمثل كثرة الجيش ، والضباط الذين يعون مسئولياتهم يبدون الآن كجزيرة صغيرة محاصرة بالأكاذيب وليس هناك اخطر من أن يجد الخوف ، وأن يجد الحقد ، مثل هذه الفرصة التى يقدمها منشور السلطان ، ليس هناك أخطر من أن تجد الخيانة قناعا أيا كان لونه ؟



وأصبح نديم يستعجل المعركة ، وقبل أن يصبح حتما على المصريين أن يحاربوا فى وقت واحد الانجليز والأتراك ، الكفار والمسلمين ، وبالتأكيد لم يكن هذا الوقت هو انسب الأوقات للجدل ، ولا لاقناع الناس بالصواب والخطأ ، فى هذه المسألة او فى غيرها ، كان عمر الصواب ثلاثة أعوام لا غير ، وعمر الخطأ مئات السنين ، وتأكد لنديم انهم فعلا يحاربون الزمن ! هل الولاء هو الذى يصنع النصر أم النصر هو الذى يصنع الولاء ؟

وفى ليل ٩ سبتمبر سنة ١٨٨٢ ، فوجىء الجيش المصرى الذى كان يعتمد على مفاجأة الانجليز بانهم كانوا يعرفون كل شىء ، الأماكن ، والوقت ، وكأنهم يجلسون مع المصريين على نفس المنضدة ، ويرسمون نفس الخطة ، ما الذى حدث ؟ لم يكن هناك من يسأل ولا من يجيب !

***

ونشب أعنف قتال عند القصاصين ، ولم تصل قوات الصالحية لا في وقتها ولا فى مكانها ، كانت هذه القوات قد ضلت طريقها هذه المرة فى ليل الصحراء ، رغم أن العربان أبناء الليل والصحارى كانوا يرشدونها ، وحين تمكنت بعض هذه القوات من الوصول فى غير موعدها ، وجدت مدفعية الجيش الانجليزى فى انتظارها وكأنها على موعد ! ولم يكن ثمة وقت للسؤال أو الدهشة ، كانت ثمة أعنف حرب خاضها المصريون ، ورغم كل شىء كاد الجيش المصرى بعد زوال اثر المفاجأة ، أن يصنع المعجزة فى ضوء نهار ١٠ سبتمبر سنة ١٨٨٢ ولكن اصابة القائد العام على باشا فهمى والقمندان راشد باشا حسنى برصاص العدو حولت طاقة الهجوم الى طاقة دفاع وصمود وفصل ليل يوم ١٠ سبتمبر بين الجيشين !

***

وفى ضوء يوم ١١ سبتمبر تكشفت بعض الأمور ، كانت كل الملابسات تؤكد أن ثمة خيانة ، وان لم يستطع شخص واحد أن يقدم الدليل ، أو الكيفية !

ــ ولماذا الدليل ؟ وهل سنعقد محاكمة لأحد ؟ انها حالة حرب !

هكذا تكلمت هذه الحفنة من خلصاء عرابى وهم يقدمون الاسماء التى تكتنفها الشكوك !

وقال محمد عبيد لعرابى :

ــ أرسلهم الى القاهرة فى نفس القطار الذى يحمل الجرحى!

ــ انها حالة حرب ، هذا صحيح ، ولكنهم يخوضونها معنا ، معرضين أنفسهم لرصاص العدو الذى لا يختار ضحاياه ! واذا بدأنا الشك فى أحد ، فسوف ننتهى الى الشك فى أنفسنا !

والمح الى تفوق العدو فى العدة والرجال !! والى أن الحرب نصر وهزيمة !!

ــ المهم أن نطهر صفوفنا من الخيانة !

ويئسوا من عرابى ، وكاد بعضهم أن ييأس من النصر ، بينما اكد محمد عبيد ان النصر كان فى أيديهم هذه المرة كما كان فى المرة السابقة وأشار الى قتلى الانجليز وأسراهم ثم أضاف :

ــ أن نطهر صفوفنا من الخيانة !

وتمتم نديم فى أسى :

ــ الخيانة ! أى معنى غريب يمكن أن تنطوى عليه تلك الكلمة !

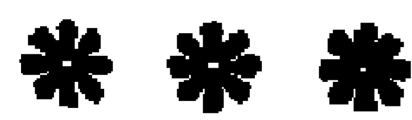
لم يكن يخاطب أحدا ، ولم يكن ينصت الى أحد !

كان لأول مرة راغبا عن كل شىء ، عاجزا عن أن يفهم أولئك الذين لا تنتهى ثقتهم بأنفسهم ، ولا أولئك الذين لا تنتهى ثقتهم بغيرهم ، لم يكن مثل محمد عبيد الذى راح يعمل مع القائد الجديد على باشا الروبى الذى قدم على عجل من « مريوط » ليعيد مواقع الجيش وصفوفه ! ولم يكن مثل عرابى الذى عاد يجتمع « بسعيد الطحاوى » أحد مشايخ العربان الذين يستخبرون له عن العدو !

لقد كان بعض العربان هم المسئولون عن عدم وصول جيش البارودى من الصالحية الى مكانه عند القصاصين وفى موعده !

ولكن عرابى لم يكن ليرفض التعاون مع كل العربان لمجرد أن بعضهم متهم بخداعه !

كانت الحرب مهنة غريبة حتى على نديم الذى تقلب فى كل المهن ، ولم يكن منطق الحياة اليومية ليسعفه فى تفهم كل ما يقع حـــوله !



لقد خانهم السلطان خليفة المسلمين ، وخانتهم أوربا وهاهم يخونون أنفســهم ، فى الوقت الذى يســتشهد فيه تحت شمس الصحراء المحرقة مئات الرجال الذين لم يعيشوا قط !! ولم يجد أى معنى لأن يقول لهؤلاء الذين واجهوا الموت مرارا : كونوا اكثر شجاعة !

ولا لهؤلاء الذين لم تطهرهم هذه المعارك : كونوا شرفاء ، لقد اختار مكانه فى خيمة تضم بعض الجرحى الذين لم توجب حالتهم الترحيل الى القاهرة !

وانشأ يواسيهم ويروى لهم بعض الحكايات ، كان يوما يدعى « نديم » وكانت تسلية الناس مهمته ، وكان مثلهم يعانى من جراح لا تنزف دما بل تنزف أملا فى لون الجراح !

وطلب صبى فى الثامنة عشرة من عمره كوبا من الماء ، ثم طلب أمه ، ثم أخلد الى نوم منقطع مفزع بين ذراعى نديم .

وقال عرابى للحفنة الملتفة حوله من خلصائه :

ــ وماذا تظنون الحرب ؟ مسألة أيام أو أسابيع ؟ اننا نحارب الانجليز ، وصمودنا حتى الآن معجزة !! ان مجرد صمودنا سوف يغير موقف الانجليز والأتراك ، ان علينا أن نستعد لحرب طويلة ، هنا وعلى كل شبر من أرض مصر ! اننا حتى الآن لم نخسر معركة

واحدة حقيقية ، وحتى لو خسرنا معركة ، فسنحارب معركة أخرى .. ثم أضاف متمهلا : ان ولادة طفل شىء عسير ، فكيف تظنون ولادة دولة جديدة بل ولادة عصر جديد ؟

وفكر نديم :

أى نوع من الناس هذا الرجل : حالم ، أو مجنون ، أو ملهم يرى ما لا يراه الناس ؟

ورغم ذلك فقد كانت كلماته الهادئة تعيد البريق الى هذه العيون المسهدة التى تتطلع اليه فى أناة !!

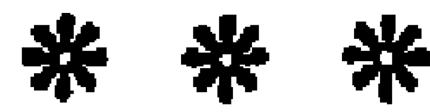
* * *

وأحس نديم أنها أعادت اليه شيئا كان يفتقده هل بدأ الخوف يغزو قلبه ؟ وفى الحقيقة أنه كان يخاف هذا لسؤال ، وكان يعتقد أنه فرغ من الاجابة عليه ، فحين يقترب الموت من الحياة هذا القرب، حين تراه ، وتسمعه وتحمله على يديك ، حين يكون الموت اختيارك وقدرك فمن العبث أن تتحدث عن الخوف ، بل من العبث أن تتحدث عن الشجاعة ! ان الأشياء كلها تقترب ثم تمتزج ، وتصبح فى النهاية شيئا واحدا ، شيئا واحدا ينطوى على كل شىء : الحياة والموت ، الفرد ، والجماعة ، الروح والجسد ، الماضى والحاضر والمستقبل ، وأبدا لا تكون الحياة بمثل هذا التفجر ولا يكون الوجود بمثل هذا الالتحام !

ولكن شيئا ما يخرج فجأة على هذا الاجماع الكونى ، لعله العقل ، فيعود كل شىء الى مكانه ، ويعود الخوف ايضا ، ولم يكن هذا الرجل الذى اعاد البريق الى عيون الرجال يتحدث فى تلك الليلة من مساء ١٢ سبتمبر باسم العقل وحده !! وربما كان ذلك سر عظمته كما رآها نديم فى تلك الليلة ..

وفى ليل ١٣ سبتمبر ١٨٨٢ ، كان الظلام يخيم على خطوط الجيش المصرى ومعسكراته فى التل الكبير ، وعلى مدى البصر كانت السنة النيران فى معسكرات الجيش الانجليزى بالقصاصين تتراقص مؤذنة بخلود جيش الاعداء الى الراحة بعد المعركة الأخيرة الدامية ، وكان هذا بدوره يؤكد الأخبار التى نقلها «سعيد الطحاوى» لعرابى من أن الانجليز فى حاجة الى وقت طويل قبل أن يصبحوا قادرين على الدخول فى معركة جديدة ! وهى نفس الاخبار التى أكدتها طلائع عرابى وعيونه التى تنتشر على طول خطوط العدو لترقب تحركاته ! واخلد الجيش الى الراحة مطمئنا الى ما وصله من انباء والى ما يمكن أن تقوم به خطوط الدفاع الأولى ، وخطوط الانذار المتقدمة ، وهبت نسمات الصيف الرخية التى تحمل روائح الخريف القادم ، وتحمل أصوات الحيوانات الغامية بجوار معسكرات الجيش ، والتى تحمل المؤن والذخائر وتطعم الجيش ، وتخوض معه المعارك !!

ولم يدر نديم متى أدركه النـــوم فى تلك الليـــلة ، ولا متى استيقظ ؟ كانت ثمة طلقات مدافع وبنادق كأنها قادمة من كابوس او مصوبة اليه !



وكان نديم قد الف الكوابيس والأحلام المخيفة فى تلك الأيام ، ولكن ذلك لم يكن حلما ، ولم يكن حقيقة ، لم يكن ذلك هو الجيش ، ولم تكن ثمة خطوط قتال ، لم يكن ثمة فرسان ورجاله ، وخنادق يمر خلالها يقدم الذخائر للجنود ، ويقول لهم كلمة أو كلمتين ! ولم تكن مدفعية التلال تطلق ستائر من النيران تغطى تقدم الجنود ، لم تكن حربا ، ولكنها كانت كابوسا ، وعبثا حاول أن يميز بأذنيه الأصوات أو المواقع فصوت الرصاص لا يفترق ، وكذلك صوت الفزع وخذله فجر ١٣ سبتمبر سنة ١٨٨٢ فبدا له كل شىء مختلطا مروعا ، وبما

تبقى له من عقل راح يتلمس طريقه وسط هذا الكابوس الى المواقع التى كان يحتلها « محمد عبيد » و « حسن رضوان » فى ميمنة الجيش كان غريزته وحدها تقوده الى الأمان .

وفى هذه المواقع وحدها حيث ثبتت حفنة من أصلب الرجال فى وجه العدو كان الكابوس يأخذ شكل الحقيقة وكانت الحقيقة التى تكشفت فى فجر ١٣ سبتمبر هى. أن الجيش الانجليزى نجح فى الاحاطة بالجيش المصرى والتسلل الى مواقعه !

والطلائع ؟ وخطوط الانذار فى المقدمة ؟

لم يكن هناك من يسأل ولا من يجيب !

* * *

لقد استيقظ الجنود على طلقات الرصاص تحاصرهم، واطلق بعضهم عدة رصاصات قبل ان يسلم روحه ، وأطلق بعضهم ساقيه قبل أن ينكفىء على وجهة تحت أقدام الخيل ، وقبل أن ينتشر ضوء الفجر ، أضاء الميدان بأعمدة اللهب التى ارتفعت من خطوط السكك الحديدية حيث تعمد العدو ضرب عربات الذخيرة بمدفعيته ، وفى هذا الضوء تكشفت للحظات حقيقة ما يحدث فى ذلك الصباح الدامى !

كانت الخنادق المتتابعة التى تصنع خطوط القتال وتمتد من الشرق الى الغرب قد تحولت الى مقابر يختلط فيها الاحياء بالموتى ، وكانت الحيوانات المفزعة تجرى فى كل مكان على غير هدى بعضها فى اتجاه العدو ، وبعضها يجر خلفه عربة تحترق ، وتحمل الهلاك هنا وهنالك وخيمة عرابى الضخمة تقتلعها تذيفة هائلة فتضىء الميدان كله بحريق هائل ، وهذه الحفنة من الرجال السودانيين التى يوقدها « محمد عبيد » هى وحدها التى تصمد فى مواقعها رغم

المفاجأة ويستشهد رجاله واحدا بعد الآخر ويستشهد القائد وعلى مقربة منهم يسقط « حسن رضوان » جريحا دون أن يتراجع خطوة واحـــدة !

هل انتهى كل شىء ؟ كان يبحث عن « عرابى » ليوجه اليه هذا السؤال ، كان على مثل اليقين من أنه وحده هو الذى يملك أن يقول : لا .. لو بقى على قيد الحياة ! والتقى بعرابى وسط الحطام، وأحس بالحياة تعود اليه رغم أنه رأى عرابى يدور بعينيه فى ذهول يتأمل ما كان يدعوه جيشه !

ــ ما الذى يبقيك هنا ؟ لو مت فسوف ينتهى كل شىء !

ــ وهل بقى شىء ؟

ــ مصر كلها ! لم نخسر سوى موقعة ! هل نسيت كلماتك ؟

ــ لا .. ! قالها بنفس الذهول !

***

وتراجعا الى بلبيس فى محاولة لجمع شتات الجيش هناك فى موقع أفضل ، وهناك كانت تتلاقى شراذم الجيش المنسحب ، وهناك التقيا بعلى الروبى الذى كان يقود الجيش فى التل الكبير .

وتحدث عرابى عن قطع الســـــكة الحديد ، واغلاق قناطر الشرقية وجمع الفلول المنسحبة .. و .. .

ــ لا .. لابد من العودة الى القاهرة ، واستشارة المجلس العرفى ، فالأمر أخطر مما تظن ! وتحدث عن المعركة ، وعن خطوط الانذار التى لم تنذر ، والطلائع التى لم تقم بدورها ، وكيف أن أول طلقة للعدو واطلقت فى قلب الجيش ، وكان واضحا ان مسالة الخيانة الغامضة لم تعد أبدا غامضة !! وكان حديثه أسئلة أكثر منه أجوبة !!

وفى المحروسة ، كان بريق الحلم ينطفىء فى عينى عرابى ، وبعد أن قرر المجلس العرفى ضرورة الدفاع عن القاهرة ، وبعد ان راح عرابى يتفحص من تبقى من الجنود والسلاح ، ظهر راى آخر يتحدث عن سلامة القاهرة ، وعن ضرورة التفاهم مع الخديوى ، وعن طلب العفو !!

* * *

واحتجوا بأن من تبقى من الجنود والسلاح لا يكفى لمواجهة الانجليز ، وان الثمن هذه المرة سيكون من أرواح المدنيين انفسهم، وعبثا حاول عرابى أن يحتفظ بحلمه أو ينقله الى الناس ، وكان المجلس العرفى نفسه هو الذى يجتمع ليكتب عريضة الى الخديوى يحملها وفد الى الاسكندرية ، عريضة تطلب عفو سموه ! وكان شىء ما قد بقى فى نديم ، فصرخ حين علم بأمر العريضة :

ــ العفو ؟ لماذا ؟ ما اضعف ذاكرة الانسان ! لقد كنا ندافع عن بلدنا وكانت الحرب بأمر الخديوى نفسه فى البداية !

كانت الأمور تتغير بأسرع مما يستطيع الفكر أن يتطور من حال الى حال ، كانوا قد اصبحوا عصاة ، وما فعلوه جريمة !

* * *

واصر نديم على تغيير صيغة العريضة المرفوعة الى الخديوى، فالحرص على أرواح المدنيين شىء آخر غير طلب العفو وتسجيل العار على النفس !

ــ ولكن الوفد الذى يحمل العريضة سافر الى الاسكندرية .

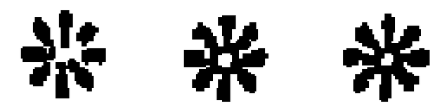
ــ نكتب عريضة اخرى ونلحق به !

ــ ومن يحملها ؟

ــ ساكون مع الوفد الذى يحملها للخديوى !

وكتب نديم العريضة الجديدة التى تعترف بالهزيمة ولا تقبل الهوان ،و سافر مع الوفد الى الاسكندرية وفى الطريق جاءتهم الأنباء بأن الخديوى قد ألقى القبض على الوفد الذى يلتمس العفو !

وتبادل أعضاء الوفد النظرات ، كانت مهمتهم قد انتهت ، ولم يجدوا معنى لمواصلة الرحلة ، ولا لأن يسأل كل واحد منهم رفيقه عن الطريق الذى ينتوى المضى فيه ، كانوا جميعا لا يرون أمامهم سوى طريق واحد هو العودة الى القاهرة وانتظار ما يأتى به القدر ، أما نديم فقد عاد الى القاهرة ، ولكنه لم ينتظر مثلهم ! ممتدا على طول البلاد وعرضها فقد راح نديم يبحث عن مخرج ، ويبدو انه كان يعرف عن طرقات هذه البلاد ما لا يعرفه الفشل نفسه !!



الجـــزء الرابـــع

ويتضمن قصـــة اختفاء نديم لمدة
تسعة أعوام التى تنتهى بالقبض عليه
سنة ١٨٩١

الهـــــارب

لم يكن ثمة شيء سوى الظلام ، وبجسده وحده ، بيديه ورجليه وبظهره ، كان يدرك ان ثمة جدرانا تحيط به وتحيط بالظـــلام ، ويستوى ظلام حجرة صغيرة بظلام الكون فى ليلة غائمة . وفى الظلام يختفى المكان والوقت ، يختفى كل شيء ، عدا شعور المرء بنفسه ، أنه وحده يتضخم الى الحد الذى يصبح فيه الشخص الواحد اثنين ، ويصبح حديث النفس حوارا ، ويسمع الانسان صوته وكأنه صوت شخص آخر ، ويتحسس أطرافه وكأنها ليست له ، ولكن الظلام لا يبقى الى الأبد ، وربما أن الانسان يكتشف ان الظلام لا يكون ابدا كاملا ، ولحظة فلحظة ينبثق شيء من قلب الظلام ، يقفز الى العين نتوء فى جدار ، أو مقبض باب ، أو ثوب معلق ، وأخيرا تتحدد الجدران على نحو غامض ، قد لا تظهر كلها ، ولكنك تدرك انها هناك قائمة ، محددة بسقف منخفض ! وهكذا يسترد المرء عينيه من جديد ، وثقته فى أن شيئا لا يقوى على أن يحجب الضوء الى ما لا نهاية ! وتألف العينان ذلك الشعاع الذى قطع رحلة مضنية

اليهما ، ويصـــبح كاذبا ليعود العالم الخارجى الى مكانه ويعود الشخص الى حجمه الطبيعى ويعود الوقت ويدرك عبد الله ندبم الذى انتهى به المطاف الى تلك الحجرة المظلمة انه لا يزال جزءا منه !

***

ويكتشف للضوء أكثر من مصدر ، واكثر من موعد ، وعن طريقه يعرف الوقت ، وقت الصلاة ، ولأول مرة منذ وقت طويل يصلى نديم بانتظام ، وتعنى الصلاة بالنسبة له لقاء مع الله ومع الناس ، فباب الحجرة يفتح ، ويجيئون له بالماء ليتوضأ ، ويكون حديث ، وتصيبه الأصوات القريبة الواضحة بنوع من الدهشة ، فقد تعود أن يسمع الأصوات من بعيد خافتة مختلطة ، وكأنها لا تعنى شيئا ، أصوات الحيوانات والطيور هى التى بقيت على وضوحها القديم ! وفى جزء من عقله فقط كان العالم القديم لا يزال كما هو ، الالوان والأصوات والمسافات ، الأفكار والمشاعر ، وبحرص غريب كان يتشبث بهذا الجزء ، بأن يبقى كما هو ، كان ذلك هو كل ما تبقى له ، كل ما عاد به من رحلة أعوامه التسعة والثلاثين ، التى انتهت ذات صباح فى التل الكبير .

***

وحين يلوح للمرء ان كل شىء قد انتهى ، تكون ثمة دائما بداية ، وحين يلوح أن كل ما نعيش من أجله قد تبدد ، فاننا نكتشف القيمة العظيمة للحياة ، لمجرد الحياة ، للماء والهواء ، للألوان والأصوات والمسافات ، وحين قرر الآخرون ان يسلموا انفسهم للأعداء ، لم يتخذ نديم نفس القرار ، قفل عائدا الى المحروسة ، ودع اباه وامه وزوجه ، وقال لهم : رحلة اخرى قصيرة ، ولم يسالوه الى أين ؟ ولا متى تعود ؟ لم يتعودوا سؤاله حين كان من الممكن ان

يجد جوابا ، فكيف يسألونه هذه المرة ، واصطحب خادمه «حسين»، كان هو كل ما تبقى من حاشيته ، ومن أيام المجد ، وكان السباق الجنوني قد انتهى ، وحين طرق بيت صديق فى بولاق ، كان خائفا ، ذلك انه لم يختر اقرب الأصدقاء ، فقد كان يعرف أن بيوتهم ستقلب بحثا عنه ، وهدأ حين لم يجده خائفا .

ــ أياما قليلة أغادر بعدها البيت !!

ــ ماذا حدث فى التل الكبير ؟

ــ سأبقى حتى تطول لحيتى أكثر ، ومن حسن حظك لم أكن أحلقها وقت الحرب !

ــ هل انتهت الحرب ؟ يقولون ان « عبد العال حلمى » لم يستسلم فى دمياط !

ــ اذا بقى صامدا فسألحق به ، وسيكون ذلك بعد أيام قليلة ، لابد أن يتغير شكلى قليلا قبل أن اغادر البيت .

ــ الا يمكنك أن تقول لى شيئا عما حدث ؟

ــ دعنى أنم بعض الوقت !

* * *

وحين غادر بيت صديقه بعد أيام قليلة ، لم يكن هو عبد الله نديم ، كان ذلك أحد مشايخ الطرق الصوفية ، يرتدى « زعبوطا » من الصوف الأحمر ، ويعتم بعمامة حمراء ، ويعصب عينيه بمنديل ، ويستند بيد على خادمه ، وبيد أخرى على عكاز طويل كان فى يوم فرعا أخضر فى شجرة ! ويتمتم بأوراد الغروب ، فتهتز لحيته مع حركات شفتيه ، وتهتز عمامته مع حركات رأسه .

وكان ذلك أول عهده بالظلام ، وفى مرسى بولاق رحب نوتية المركب المتجه شمالا بالشيخ الصوفى وتابعه وافسحوا لهما مكانا

على ظهرها ، واغرق الشيخ فى ترديد أدعيته وحين أحس أن من حوله قد اخلدوا الى النوم عدا صبى يمسك بالدفة فى نهاية القارب، ويغنى اغنية يتردد فى أصدائها حزن غامض غموض كلماتها ، حرك العصابة قليلا عن عينيه ، كان العالم يشوقه ، ولم يكن الليل أبدا بمثل هذه الروعة ، من قال ان الظلام يأتى فى الليل ؟ ولمن تضىء كل هذه النجوم ؟ ولماذا يغمض الناس عيونهم كلما فتح الليل عيونه ؟ وهل كانت له قبل هذه الليلة عينان ؟ كان يطارد المستحيل ، وحين لم يعد هناك سوى الممكن عاد بدوره مستحيلا !

واحكم العصابة حول عينيه مع أول حركة للصبى الجالس وراء الدفة ! . . .

* * *

واستسلم للظلام من جديد ، وبدأت حواسه الأخرى تصبح اكثر يقظة لما يجرى حولها ، وحين أحس بالقارب يتوقف وبحركة غير مألوفة تدب فوقه ، سأل عن السبب فأجاب بعضهم :

ــ كوبرى بنها مغلق ، والمراكب أمامه محتجزة !

ــ وهل هذا موعد اغلاقه ؟

ــ لا !

واغرق فى تلاوة الأوراد والأدعية ، وزادت حركة راســه وشفتيه وارتفع صوته حين سمع هذا الحوار :

ــ هل يركب معكم رجل اسمه عبد الله نديم ؟

ــ لا . . ليس معنا سوى راكبين احدهما من أولياء الله !

ــ يفتشون كل المراكب بحثا عن هارب !

وكان ذلك صوت احد النوتية ، وكان قد بدأ يميز بدقة اصواتهم من حوله ! ولكن صوته هو ، وهو يرتفع بالدعاء والصلوات ، كان غريبا على اذنيه ، كانت قدرته على تغيير صوته بعض ما كان يروق لتلاميذه ولجمهوره أيام ان كان يمثل على مسرح « زيزنيا » ، وهاهو الآن يمثل أروع أدواره ، دون أن يظفر باعجاب أحد ، يمثل ليظفر بحياته ، بحياة عبد الله نديم ، الذى لن يكونه أبدا بعد اليوم ! وسأله نوتى آخر :

— من يكون عبد الله نديم ياسيدنا الشيخ ؟ هل سمعت عنه ؟

وضايقه السؤال ، ولكنه اجاب وهو يواصل القراءة ..

— « يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن اشياء ان تبد لكم تسؤكم وان تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم » صدق الله العظيم !

وحين هم بمغادرة المركب سألوه :

— الى أين ياسيدنا الشيخ ؟

— « ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرا وسعة »

ولكن حين سأله خادمه « حسين » بعد أن هبطا الى الشاطىء وطلب منه أن يقوده الى مركب آخر يواصل الرحلة خلف الكوبرى المغلق :

— الى اين ؟

تبين فى صوته نبرة خوف ، ولم يكن قادرا على ان يرد عليه بآيات من القرآن ، قال له وهو يستمد من خوفه شجاعة كان فى حاجة اليها :

— لا تخف يا ولدى ، ألا ترى أن الله نجانا منهم ؟ ثم أضاف :
سنواصل السفر الى دمياط !!

وهبط المنصورة حين علم باستسلام حامية دمياط ولم يتجه الى بيوت أصدقائه هناك ، أخذ ركنيا فى بيت من بيوت الله ، لم تكن تلك هى المنصورة ! ولم يكن هو نديم ، ولم يتردد فى أن يؤم المصلين حين جاء وقت الصلاة ، ولا أن يأكل من الطعام الذى قدمه له أهل الخير حين أحس بالجوع !

* * *

كانت المنصورة قد غدت بدورها مجموعة من الأصوات ، وكان قد بدأ يألف الظلام والخوف ، وقبل أيام كان يواجه الخوف من الموت ، ولكنه الآن يواجه الخوف من الحياة ، خوفا هادئا ، ولكنه دءوب وملح ، ذلك أنه لا يبصر عدوه ، واذا قدر له أن يلتقى به ، فسوف يكون صوته أول ما يلتقى به ، وهكذا كمنت مخاوفه وتناثرت فى الأصوات ، ووجد نفسه دون أن يدرى يصنع لكل صوت يسمعه وجها خاصا وملامح ، لم يعتد بنفس السهولة أن يصبح البشر مجرد أصوات وفوجىء آنذاك فقط بأن وجوه أعدائه هى التى تتداعى مع الأصوات ، وتركب عليها !!

* * *

— هل سنبقى هنا طويلا ياسيدى ؟

— لا ... سنرحل غدا .

— الى قرية قريبة من هنا ، اسمها « منية الغرقى » !

وحتى صوت خادمه « حسين » الذى يألفه تماما ، أصبح يسبب له قلقا ملحا بما ينم عنه من خوف ، كيف يستغنى عنه ، وكيف

يروضه اذا كان عاجزا حتى الآن عن ترويض حواسه ، وتقبل عالمه الجديد ؟

لقد غدا « حسين » فجأة اهم جزء فى هذا العالم ، انه عيناه ويداه . دليله ورفيقه . انه سلامته وخطرة ! قوته وضعفه ! واذا كان بيت الله يتسع للمصلين ولعابرى السبيل ، فانه لا يضيق أيضا بالفضوليين والمخبرين ، واذا كانت الحرب قد انتهت فى التل الكبير، فان الأحاديث عن هزيمة الجيش ، ومصير عرابى ، ومصير البلاد بعد أن دخلها الانجليز ، وبعد أن عاد اليها الخديوى وحاشيته ، كان البدء والختام لكل صلاة فكيف يبقى فى المسجد ؟ وكيف يهرب حتى من أسئلة الناس لشيخ الطرق الصوفية عن السبب فى أن الله لم ينصر المسلمين على الانجليز الكفرة ؟ وهل ذلك لأن عرابى قد عصى أوامر الخليفة ؟ أم بسبب الخيانة كما يردد الناس ؟

* * *

وانتهى بعض ذلك فى قرية « منية الفرقى » ، كان فى حاجة الى بعض الوقت قبل أن يتخذ قرارا نهائيا بشأن المستقبل ، وكان أصدقاؤه فى الريف من الكثرة بحيث يستحيل أن تعرفهم الحكومة جميعا ، ومن الانتشار بحيث يصعب أن تصل اليهم فى وقت قريب ، وارتفعت العصابة عن عينيه ليحل مكانها ذلك الظلام الكثيف الذى يرق مع الوقت ، وينبت الضوء على حواشيه !! وهدأ الخوف على النفس ليحل محله خوف أقسى على الغير ، على الصديق الذى يلجأ اليه ، وكان ذلك الصديق هو الذى قال له ، وبلهجة جاهد لكى تكون مرحة :

— تصور ، بعد مجيئك لى أصبحت أمتلك ألف جنيه ؟

— ماذا تقول يا رجل ؟

ـــ لقد رصدت الحكومة هذا المبلغ لمن يدل عليك !

ـــ حقـــــا ؟

ـــ هذه قيمتك عندهم !

ـــ وعنـــدك !

ـــ يمكن أن أسلمك لو جعلوها الفين !

ولم يضحك نديم ، سأله مرة أخرى بنبرة قلقة :

ـــ وماذا أعدت لمن يؤويني ؟

ـــ لا شيء سوى الاعدام ، قالها وهو يضحك محاولا أن يسرى عن نديم ولكن « نديم » لم يشاركه الضحك قال له بنبرة جادة :

ـــ سأسافر الى الشام ثم الى أوربا !

ـــ لماذا ؟

ـــ للدفاع عن قضية الوطن هناك ، هل تظن أن كل شيء قد انتهى ؟ ولم يقل له صديقه : أنت مجنون ، فقط قال له معاتبا :

ـــ تخاف علينا أو منا ؟

ـــ يا رجل كيف يتفق أن يخاف منك من يخاف عليك ؟

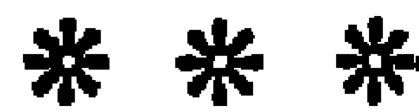
ـــ لكن كيف تتصور أن تمضى الأمور ؟

ـــ ما دمنا أهلا لثقتك ، فلنفكر معا وبدون عجلة !

***

وفكر معهم الشيخ « شحاتة القصبى » شيخ الطرق الصوفية وصديقه القديم الذى كان يسكن نفس القرية ، والذى طلب نديم رأيه ، وأنهى اليه صديقه قرار الشيخ بأن يبقى نديم فى مخبئه لا يبرحه حتى يخف البحث عنه ، وتتضح الأمور ، وأن يسلم أمره لله ولهم ! واطمأن نديم الى رأى الشيخ الذى كان يعرف ماله من نفوذ وتأثير على الناس ، وفى قلب الريف كان الشيخ « شحاتة القصبى » يوشك أن يكون دولة مستقلة ، دولة يمكن أن تبسط حمايتها على نديم ، وتتصدى للحكومة وللانجليز معا ، ولكن « نديم » الذى لم يخذله أصدقاؤه ، يكتشف فجأة وعلى نحو قاس أن نفسه هى التى بدأت تخذله ! هل جاء الى هنا هربا من المنفى أو الموت أو العذاب ؟ هل يمكن لاعدائه ان يختاروا لنفيه أو تعذيبه طريقة أو مكانا أسوأ مما هو فيه ؟

وهل يكون الموت ذاته اشد قسوة من الحياة فى هذا القبر الذى يدعوه حجرته ؟



نديم الذى كانت مصر كلها بيته ، وشعبها أصدقاءه ، ومستقبلها مهنته ، ونواديها سمره ، وقضيتها مشكلته الشخصية ، نديم هذا كان أكبر مشكلة تواجه نديم المختفى فى بيت صديقه ، ولم يسمح لصديقه بأن يشعر بما يعانيه ، وخاطب نفسه ذات ليلة لم يذق فيها طعم النوم :

— من أنت يانديم ؟ ماذا كنت وما الذى تريده ؟ تلميذ فاشل ومعلم صبية ، وكاتب صحفى ، وخطيب ، وفلاح ، وتاجر خسر تجارته ، ومؤلف روايات ، وممثل ، ومضحك للأغنياء والفقراء ، وزجال ، وداعية ، ومهيج جماهير ومسكنها ، وحالم بكل ما يورث الجنون ، وعاشق للناس أجل .. عاشق للناس .. تلك هى المسألة .. عاشق مجنون ، ليس يرضى باقل من كل الناس ، نى

كل الوقت ! ولم تكن كل المهن التى تقلب فيها سوى مجرد وسائط يقترب خلالها ممن أحب ! الناس بصخبهم ، وعرقهم ، ومشكلاتهم ولفح أنفاسهم ، وماذا يفعل الآن وقد اختصرت حشوده العظيمة فى خادمه « حسين » وقد أصبح كل همه أن يخاف ويحذر ممن قد أحب !

ماذا يفعل بيديه ورجليه وعينيه ولسانه ؟ ماذا يفعل بقلبه وجسده فى مثل تلك الحجرة الرطبة المظلمة ؟ كيف يروض نديم نديما ؟ ولم يكن أمامه سوى ان يكتشف جسده وفكره ويقلب فيهما معا ، يكتشف آلام السكون هو الذى ظل يشكو طوال عمره آلام النصب ! ويضبط نفسه متلبسا بالتفكير فى أجل الأمور وفى أكثرها تفاهة ، ولم تكن ثمة حدود بين أجمل الذكريات وأبشعها ، بين النوم واليقظة ، بين الحلم والواقع !

* * *

ــ هل سنبقى هنا طويلا ياسيدى ؟

وتتضح أكثر نبرة القلق فى سؤال خادمه وفى سلوكه .

ــ ماذا يضايقك يا بنى ؟

وفوجىء بمدى البلاهة التى ينطوى عليها سؤاله ، هل تخذله نفسه الى ما لا نهاية ؟

وكأنما أدرك فى تلك اللحظة لا قبلها وجود خادمه معه فى تلك الحجرة الرطبة المظلمة ، إنه لا يستطيع أن يتركه لحال سبيله ليس فقط لأنه يمكن أن يصبح دليلا اليه ، بل لأنه أصبح كل ما تبقى له من حشوده العظيمة ، كيف لم يلتفت اليه قبل هذه اللحظة ؟

وقبل أن يبدأ فى تعليمه القراءة والكتابة قال له يوما وهو يصطنع الدهشة والأسف وبعد أن ألقى نظرة على صحيفة كانت فى يده :

ــ لا حول ولا قوة الا بالله !

ــ ماذا حدث ياسيدى ؟

ــ لقد جعلت الحكومة الف جنيه لمن يدلها على ، وخمسة آلاف لمن يأتيها براسك ؟

وفزع حسين ، وصدقه ، ربما لأن « نديم » لم يكذب عليه قبل اليوم ، وكف عن التفكير فى العودة الى اهله ، لقد اسلم نفسه لنديم ، وارتبط به الى النهاية ، وبدأ نديم يتسلى بتعليمه ، ومداعبته، وباستنباط وسائل جديدة لتعليم من هم فى مثل سنه وظروفه !

لقد عاد معلما من جديد ، ومؤلفا لرواية جديدة يقوم هو وخادمه فيها وحدهما بالبطولة ، واختار لخادمه اسما جديدا ، وافهمه ما لابد أن يفهمه عن طبيعة دوره فى الحاضر والمستقبل !

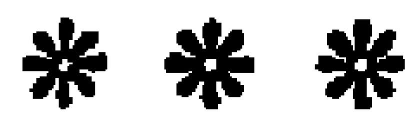
ــ صالح ، ما رأيك فى الاسم ؟

* * *

وهز « حسين » راسه مبتسما مدركا فى سعادة ما أصبح له من أهمية ، وفى نور المصباح الذى استغنيا به عن ضوء الشمس ، عادت الى الحجرة الصغيرة ــ التى كانت تسبح فى الظلام ــ حياة جديدة ، حياة تستمد تقاليدها من الفراغ والعزلة ، وفى نور المصباح ايضا ابصر نديم ما ظل يتحاشى أن يبصره منذ قرر الهرب ، أبصر الهزيمة والفشل والحلم الكبير الذى تبدد ذات صباح فى مكان يدعى التل الكبير ، أبصره حين أبصر نفسه ، وحين أبصر صديقه الذى يؤويه والذى لم تمنعه مخاوفه ، وما يجره اليه نديم ،

دُنَ أن ينتهز اية فرصة ليتلطف فى سؤاله عن حقيقة ما حدث هناك فى التل الكبير !

وكانت أخبار خيانة « على يوسف » و « سعيد الطحاوى » وغيرهما قد استفاضت ، وبالنسبة للخديوى وللانجليز ولحكومة شريف باشا الجديدة ، لم تكن تلك خيانة ، كانت خدمة يستحقون عليها المكافأة وكان جديرا « بعلى يوسف » الا يخجل من الشكوى من قلة المكافأة التى قررها له الانجليز والتى لا تتفق أبدا مع خدماته! الم ينقل خطة عرابى كاملة للعدو ؟ واذ أصبحت الخيانة شرفا لدى البعض ، فقد كانوا جميعا يتبارون فى تقديم ادلتها ، لينالوا الجزاء، وليمتلك العربان الذين اضلوا جيش البارودى فى الصحراء خمسمائة فدان فى نفس المكان ..



وهكذا كان نديم يروى ويسمع فى وقت واحد ما كان يسد الثغرات فى تلك الرواية الحزينة والناقصة التى انتهت ذات صباح فى التل الكبير !

واذا كان كل شىء يتغير فى سرعة عجيبة ، الحقائق والقيم والناس ، فقد وجد نديم نفسه أمام مهمة جديدة أكبر من حماية نفسه ، والتفجع عليها ! تلك هى حماية الحقيقة فى تلك الرواية التى كان أحد مؤلفيها وممثليها وشهودها !

ان الرجال الحقيقيين لا يستسلمون للحزن مهما يكن مداه ! وقبل أن تشغله تلك الرواية الأخيرة كان يشغله البحث عن الحقيقة أيضا فى رواية أضخم ، وكان قد بدأ فى تأليف كتاب اسمه « مقابلة النظير » راح يجمع فيه الاحداث المهمة فى الشرق والغرب ، ويفتش فيها عن المعنى والهدف ، ويناظر بينها !

الم تكن قصة الصراع بين الشرق والغرب هى شغله الشاغل فى ماضـــيه ؟

الم تكن تلك الحرب التى خاضتها مصر ضد الانجليز هى آخر حلقة فى تلك الرواية الضخمة ؟

لم لا يبدأ من الآن فى اتمام كتابه ذلك ؟ وقال لصديقه الذى كان عالما فى الأزهر بعد أن شرح له رغبته !

ـــ كانت مشكلتى أن أجد الوقت ! أما الآن فمشكلتى كيف انفقه ؟

ـــ الآن ولا مراجع لديك ؟ ولست تدرى مصير الأجزاء التى وضعتها فى كتابك ، وقد لا تجدها فيجىء كتابك ناقصا ثم أضاف : لو اشتغلت الآن بما لا يحتاج الى مراجع ، حتى تستقر الأمور ، واوفر لك ما يلزم من الكتب .

وتذكر نديم أن الشعر وحده هو الذى لا يحتاج المرء فيه لغير قلبه ودواة وقلم ، وأنه كان شاعرا لبعض الوقت ، وهكذا بدأ ينفث مواجع قلبه فى قصيدة مطولة ، اسماها « وطنية الشرق » !

بينما راح يصوغ خبرته فى صورة « حكم وأمثال » يودعها دفترا صغيرا ، ويجعل منها موضوعا لدروسه مع « صالح » الذى اصبح تلميذه ونديمه فى وقت معا !!

***

ثم انه انتقل بعد ما يقرب من اربعة اشـــهر الى « العتوة القبلية » ، كانت تلك قرية أخرى بالقرب من طنطا ، وكانت هناك ايضا حجرة أخرى مظلمة ، وكان هناك صالح دائما ، اما هو فقد

غذا شريفا من جزوان اسمه الشيخ يوسف المدنى استدعاه صاحب الدار ليدرس معه العلم الشريف ، ولأنه صوفى يحب العزلة فقد أفرد له صاحب البيت تلك الحجرة ليعتكف فيها للعبادة ، حين ينتهى من دروسه معه ! وكان هذا مبلغ علم أهل البيت بالزائر الجديد !

* * *

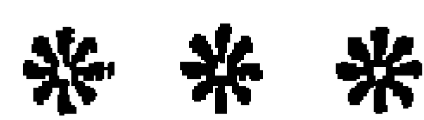
وكان هذا كله فصلا جديدا من قصة الهرب التى لم يعد نديم مؤلفها الوحيد ، فالشيخ شحاتة القصبى هو الذى أرسل لنديم خطابا قصيرا يأمره بالتوجه مع حامله الى حيث يريد ، ولم يكن حامله معروفا لنديم ، كان هو « عمدة العتوة القبلية » وكان بحكم منصبه أحد الذين كلفتهم الحكومة بالبحث عن نديم وتسليمه ، ولكنه بحكم ولائه للشيخ القصبى أصبح أحد حماة نديم ، وهيهات للحكومة أن تفكر فى البحث عنه لدى أحد رجالها !

وهكذا أسلم نديم نفسه لله ، ولمن يثق بهم من الناس ، وحين علم ان البوليس دهم البيت الذى كان فيه بعد خروجه منه بساعات ، لم يجزع ولم يفرح ، كان الأمر قد خرج من يده ، واذا كان لا يزال محتفظا بحياته فى البيت الجديد ، فماذا يعنى ذلك ؟

* * *

ان وجود رجل غريب فى بيت ما ، فى قرية صغيرة ، لا يمكن أن يبقى سرا الى مالا نهاية ، ومادام الرجل يأكل ويشرب ويمرض ، ومهما تكن الصفة التى يوجد بها الرجل ، فلا أحد يمسك ألسنة الأطفال ولا عيونهم ، ولا أحد يضمن فضول امرأة أو رجل ، والظلام الذى يحجب عنه العالم لا يستطيع أن يحجبه هو عن بعض العالم ، ولم يكن فى حاجة الى وقت طويل لادراك هذه الحقيقة ، ولكنه فعلا كان فى حاجة الى بعض الوقت ليدرك حقيقة أخرى أهم ، هى أنه من المستحيل أن يبقى الانسان قلقا دائما ، ولا يختلف الناس الا فى الطريقة التى يدفنون بها هذا القلق ! .

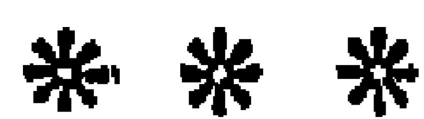
وبالنسبة له كان ايمانه بالله هو الطريقة ، وبالنسبة له ايضا كانت قضية ايمانه بالله فى الماضى ضربا من ايمانه بالعقل ، واذ كان رجلا يحب أن يلهو بدراسة التاريخ فقد قادته لعبته تلك المفضلة الى أن يكتشف أن لكل شىء تاريخا ، الايمان واللا ايمان أيضا ، وأن يرى أن كل مظاهر الحضارة ترتد فى النهاية الى دوافع وملكات فى النفس البشرية ، وهكذا كان يحلو له أن يرى فى التاريخ تاريخا لهذه النشاطات التى تبدأ من النفس والحياة معا !



وكان يدرس تاريخ العقائد ، وكأنه يدرس تاريخ العقل والنفس معا ، ولم يكن تاريخ العقل ايمانا كله ، وآنذاك طرأ تحول ما على ثقته فى تلك الوسيلة للايمان ، لقد غدا ايمانه بالله ضربا من ايمانه بالقلب ، ومن حس أعمق بما فى الحياة من قوى ليس العقل سوى جزء منها !

ورغم أن أشياء كثيرة كانت توسوس له ، بأنه لن يستطيع الهروب الى ما لا نهاية ، فقد كف فجأة عن أن يستمع لهذه الأشياء !!

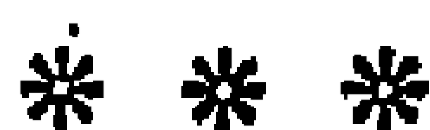
وفى أعماق وحدته كان يتعاظم احساسه بالماضى وبالمستقبل وبدا له كل ما يمكن ان يحدث له أو لغيره جزءا صغيرا جدا من قصة التاريخ العظيمة ، وانه اذا ما كانت ثمة وسيلة لانقاذ هذا الجزء ، ولاعطائه شيئا من القيمة فذلك بمقدار ما يعيه من قصة التاريخ وما يضيفه اليها فكرا أو عملا !



وحين وصلته رسالة من صديقه العالم الأزهرى الذى كان يختفى فى بيته من قبل وذكر له فيها ــ بالرموز التى اتفقا على أن يتراسلا بها ــ أن « سليم نقاش » زميله القديم سوف يؤلف كتابا

بأمر الخديوى يجمع فيه حوادث مصر المتوجة للقرن الثالث عشر الهجرى ، فهم منه أنه يدعوه الى تنفيذ فكرته التى حدثه عنها وهو فى بيته ليكون كتاب نديم معارضة لكتاب سليم نقاش !

ولكن الفكرة الآن تتطور فى نفس نديم الى شىء أعمق ، فلم تعد الحقيقة التى تؤرقه هى تلك الحقيقة الجزئية الى تكشف ما يمكن أن يتورط فيه « سليم نقاش » من كذب جزئى يخص ذلك الجزء من التاريخ !



كان نديم الهارب من الحكومة يفكر الآن فى الهرب الى مناطق أبعد فى الزمان والمكان ، واصبحت الحقيقة التى يبحث عنها فى قصة التاريخ ، هى حقيقة الانسان نفسه ، الانسان الواحد الذى انقسم الى شعوب وقبائل ، ومنذ بدء التاريخ وهذه الشعوب والقبائل يخوض بعضها صراعا مريرا ضد البعض الآخر ، مع انها جميعا تنحدر من أصل واحد ، وتمضى الى مصير واحد ، وتزعم كلها أن لها نفس الأهداف !!

وكأنما اصبح نديم — وهو بسبيله الى هرب أعظم يطارد فيه الحقيقة — لا يبالى بأن هناك من يطارده ! واذ راح يبحث عن أدوات تعينه فى رحلته الشاقة الجديدة فقد تذكر أنه هنا على مقربة من « المتوة القبلية » توجد العزبة التى يمتلكها الخواجة « موريس » ، ويوجد هو أيضا ، وتذكر آخر لقاء ، مع الخواجة ، وآخر حديث .. كانا يتحادثان عن أزمة الثقة بين الأفراد والجماعات !.



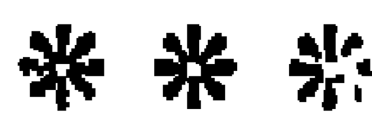
وفى هذه المرة لم يحاول نديم أن يجد فى ذلك أى معنى خاص اذ كان على ثقة من أنه هو خير معين لهذه الرحلة ليس بما يمتلك من كتب ومذكرات بل بما لديه من هموم فكرية لم تشغله عنها هموم الحياة العملية أبدا ، الم يكن يتحدث عن حل ازمة الثقة

كأسلوب لحل مشكلات العالم ؟ الم يبق فى مصر وقت أن هاجر الأوربيون ؟ لكن كيف يتصل به ؟ وفى غمرة حماسه بدا له اقناع العمدة صاحب البيت الذى يحتمى به أمرا سهلا وحين أوضح له غرضـــه بايجاز ، راح العمدة يحدق فيه تحديقا ذاهلا ، وكأنما اكتشف فى تلك اللحظة فقط السر فى هزيمة عرابى ، الم يكن هذا الرجل بين مستشاريه ؟

وبعد لحظات من الصمت المفعم اندفع العمدة قائلا :

ــ باسيدى ، انا مستعد أن افعل من أجلك أى شىء ، ولقد عرضت حياتى للمخاطر ، ولست أمن عليك بشىء ، لكن هل فكرت فيما تقول ، هل فكرت فى موقفى ازاء مولانا الشيخ شحاتة لو عرف اننى كنت السبب فى اذاعة سرك ، ولمن ؟ لرجل أجنبى ؟ ياسيدى كيف تثق .. ؟

ولو قدر لاديب اسحق ان يسمع بقية ما دار بين نديم والعمدة فى ذلك اليوم لادرك ان « نديم » لم يبرع فقط فى التغرير بالبلهاء كما كان يظن ، بل وبالعقلاء ، كذلك ، فلم يزل نديم بالعمدة حتى اقنعه بأن يحمل رسالته للخواجة وبقى ينتظر الرد !



وكانت فترة الانتظار تلك كافية لأن ينضج خلالها نديم على الجمر ، ولكن ذلك التحول الذى طرأ على طريقته فى النظر الى الأمور كان يمده بشعور غامض بالثقة فيما فعل ، وقبل ان يتخذ نديم قراره ذاك كان قد صلى لله منتظرا ما يهجس به فى قلبه ! وشعر ببرد الراحة يسرى فى أوصاله ، وبطمأنينة عميقة تدفعه الى المضى فى قراره ، وحين وصل العمدة ، كان وجهه مكفهرا ، وفى اضطراب شديد روى قصة لقائه مع الخواجة :

ـــ لم يكن وحده ياسيدى حين لقيته ، حتى أشرح له الأمر ! كان معه بعض الأجانب ، ومشايخ البلاد ، ولم يكن يعرفنى !

ـــ اجلس ياحضرة العمدة واسترح .

قالها نديم بهدوء .. ولكن « نديم » الذى كان يخاطب العمدة بهدوء بدأ يشعر بالخوف .. وأكمل العمدة حديثه المضطرب :

ـــ أعطيته الرسالة فقط ، وظللت أرقب ملامحه وهو يقرؤها، ولكنه أعطى الرسالة بدوره لزوجته التى قرأتها وأعادتها له ، وفجأة وجدته يمزق الرسالة فى غضب ، ويلتفت الى قائلا : قل له أنا لم أعطك هذا المبلغ لتتصرف فيه لزيد أو عبيد ، ثم تعتذر بالضرورات ، فاحفظ لى حقى عندك قبل كل انسان حتى اتيك ونتحاسب ، واياك أن تمد يدك الى بنك أو خواجة غيرى ، فانك ان فعلت ذلك ، وقعت فى شرك المحاكم ، وحكمت عليك بما لا ترضاه .

وعاد يتكلم مع ضيوفه الأجانب بلغتهم ، ثم التفت الى بعد لحظات قائلا :

ـــ تفضل أنت ، وقل له ما سمعت !

وغمرت الطمأنينة وجه نديم ، وفى غيظ قال العمدة :

ـــ رجوتك ياسيدى الا تحاول ..

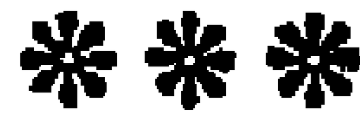
ولكن « نديم » قاطعه :

ـــ ان الرجل صدوق ، حريص على الصحبة وقد التزم الحدة فى خطابك ليصرف افكار الحاضرين وهو ..

ولكن هل يصدق العمدة تخرصات نديم قبل أن تتضح نتائج هذه المغامرة ، كيف طاوعته نفسه ان يوافق « نديم » قبل أن يأخذ

رأى الشيخ شحاتة ؟ واذا حدث أن أفشى الخواجة السر فماذا يكون موقفه ؟؟

سيكون الرجل الوحيد الذى يستحق اللعنة من الوطنيين والاجانب على حد سواء ! ورغم كل ما فعل !



أى جنون دفعه وهو المؤمن بالله وبالوطن ، لقبول هذه المخاطرة وعبثا كان يحاول نديم تهدئته ، ويطرق الباب ، ويجىء من يخبر العمدة بأن المأمور ينتظره فى حجرة الضيوف ! المأمور ؟ الآن .؟ وبلا حوادث ؟ هل أفشى الخواجة السر ؟ وانصرف قبل أن يلحظ نديم مدى قلقه ، ومن عجب أن الوساوس عادت تستبد بنديم حين خرج العمدة ! وفى حجرة الضيوف لم يلحظ العمدة فى وجه المأمور شيئا غير عادى ، ولكن متى كان وجه مثله يفصح عما فى قلبه ، ومر الوقت كئيبا هنا وهناك ، وفوجىء العمدة برجل يرتدى ثياب مشايخ القبائل من العربان يقف بباب المضيفة ثم يرتد الى الوراء ! من يكون الرجل ؟ وماذا يريد وخرج العمدة يتحرى حقيقة الزائر الغريب ، وذهل حين وجده نفس الخواجة الذى حمل اليه رسالة نديم ، هل رآه المأمور ؟ وهل شك فى أمره ؟ وهل تكشف الصدفة ما أخفاه الذكاء والوفاء ؟ وفى غمرة الذهول والفرح والخوف أرسله مع خادم الى حجرة نديم الداخلية ، وعاد يتحسس شكوك المأمور ويلاشيها ، وحين ودعه ، عاد الى حجرة نديم ، ليجد الشيخ يوسف المدنى وشيخ العربان فى لحظة وجد غريبة ، يبكيان ويضحكان ويتعانقان ويتكلمان فى وقت معا ! . . . . . .

لم يصدق انه امام نفس الخواجة ، والرجل الآخر الذى كان قرين عرابى وصفيه ، كان أمامه شيخان بهما مس من الجنون

واغلق الباب ، ومضى الى حجرته يلتقط انفاســـه بعد ذلك اليوم الغــــريب !

* * *

« كان ويكون » ما رايك فى الاسم ؟

وهز الخواجة راسه موافقا ومعجبا فى نفس الوقت !

ــ صدقنى يا سيدى ، ان عجبى واعجابى لا ينتهيان حين اجد رجلا فى مثل ظروفك يفكر ..

واشار اليه نديم ليصمت ، ولكن الخواجة لم يصمت حتى قال كل ما لديه ! وحين فرغ من حديثه ظل نديم صامتا ، كان يشرق بدموعه ، وحين ودع الخواجة بكى كما لم يبك من قبل ، لم يبال بوجود « صالح » الذى اصبح جزءا منه ، وفجأة غدت الحياة حلوة وتمنى الا تصل اليه الحكومة قبل أن ينجز كتابه !!

* * *

كانت بذرة الكتاب بدأت تنمو فى داخله ، وكان لقاؤه مع الخواجة قد منحها غذاء جديدا ، وكاد منهج الكتاب أن يكون ثمرة لهذا اللقاء ، اما الكتاب ذاته فيوشك أن يكون ثمرة لكل لحظة خصبة مرت فى حياة نديم ، لحظات القراء والعمل ، لحظات الغرق فى العزلة ، والغرق فى الجماهير ، الاسئلة التى تبحث عن أجوبه ، والوقائع التى تحاج الى تفسير !

ولم تكن الكتب والمذكرات هى كل ما وعد الخواجة بتقديمه لنديم ، كان الخواجة قد وعد بأن يحضر بنفسه كل يومين او ثلاثة ، وأن يجيء الكتاب على هيئة سؤال منه وجواب من نديم ، وسول لهما الطموح أو الغرور أو الوقت ، أن تبدأ الاسئلة من البداية من

اول دين ، واول جماعة ، أول حرب ؟؟ كيف جاءت الأديان ؟ وكيف تطورت ؟ وكيف اخذ بعضها عن بعض ؟ وكيف حارب بعضـــها البعض ؟كيف تكونت عصبياتها وكيف تفرقت ؟

فيم تتفق وفيم تختلف ؟ وكيف يحـدث الخـلاف حتى داخل الدين الواحد ؟

الى أى الأهداف تدعو وأى الرغبات تلبى ؟

وأى الملكات فى الانسان تستثير لتحقيق هذا كله ؟ وعبر هذه الرحلة الطويلة فى الزمان والمكان ، وعبر آلاف الوقائع والتفاصيل ، أين العناصـــر المشـــتركة ؟ أين الحقيقة المتكررة فى كل الأفراد والجماعات والأطوار ؟ وأخيرا اين التقدم ، وما معناه ؟ وكيف نتقصى آثار أقدامه فى تلك الرحلة الموغلة فى القـدم والجنون معـــا ؟

* * *

واذا كانت فكرة التقدم الغامضة تلوح لنديم آنذاك فى صورة دورات تكتمل حلقاتها مرة هنا فى الشرق ومرة هناك فى الغرب فما سر هذه الدورات ؟ فى أى شىء تتشابه وتختلف ؟ وهل يوجد ثمة خط رئيسى يتخلل هذه الدوائر ويعطى التقدم شـكلا وهدفا جديدين ؟ وكانت هذه الاسئلة تنقر فى رأس نديم كمناقير طيور تكسر قشرة البيضة !!

ولم يكن ثمة شىء نهائى آنذاك .. لا الاسئلة ولا الأجوبة ، ولكن قبل ذلك كله بأية صفة يقومان بتلك الرحلة ومن خلال اى منظار يرصدان الوقائع والتفاصيل : مسلم ومسيحى ؟ أم شرقى وغربى ؟

وكانت الانسانية هى الصفة ، وكان التجرد هو المنظار !

الم تكن الانسانية هى التى تربط بينهما فى الماضى والحاضر ؟ ألم تكن الثقة فى الانسان وحبه ، هى التى أملت خطاب نديم للخواجة ، وجاءت بالخواجة الى نديم ؟

ان احدهما لم يلبس جلد الآخر ، ولكن التعصب لم يكن داخل جلد أى منهما !

وهل كانت حمى التجرد هى التى دفعتها لأن يرمز نديم لنفسه بالحرف « ش » اختصارا لشرقى وللخواجة بالحرف « غ » اختصارا لغربى ، وللدين الاسلامى بالمسالة الشرقية وللدين المسيحى بالمسالة الغربية ، ولفصول الكتاب بالأرقام !

* * *

وأحس نديم بموسيقيا شــجية تعزف فى داخله ، وبعاطفة جياشة تغلبه على أمره ، وكان بسبيل أن يقول لنفسه ما كان يقوله دائما من أنه أخيرا بصدد العمل الوحيد الذى خلق من أجله ! ولكنه تذكر فجأة ما نقله اليه الخواجة من أخبار المحاكمات والاهانات التى يتعرض لها رفاقه فى الثورة ! وكيف يتنكر لهم الناس وتنقلب عليهم الحياة ؟

هل أصبحوا حقا عصـاة ومتمردين ؟ وغدت الثورة خطيئة تستحق التكفير ؟

نعم ! ولهذا هو هنا فى هذه الحجرة المظلمة ؟ وسلطان باشا هناك يحكم مصر ، وينعم بالألقاب والمنح من ملكة بريطانيا ! وحثالة من المصريين يقدمون للقائد الانجليزى الذى احتل بلادهم سيفا من الذهب الخالص ! نعم هو هنا لأنه اجترأ وحفنة من الرجال على أن يغيروا الحياة ، وقبل أن يعوا كل دروس التاريخ !

فلتكن هذه الرحلة الجديدة ، محاولة منه لتفهم الأشياء وللبحث عن الحقيقة ، وللخروج من البيضة !!

وما أنسبه من عمل لرجل بلا أهل ، وبلا وظيفة ، ولا يأكل من عرق جبينه ، ويعيش فى حجرة مظلمة ، ويوشك أن يصبح — وهو فى أعماق وحدته — مواطنا عالميا !!

***

وزيارة اثر زيارة ، وسؤالا اثر سؤال ، مضى نديم والخواجة ينسجان معا خيوط ذلك الكتاب المعنون « كان ويكون » !

وكان الخواجة قد أطلق اشاعة رددتها الصحف ، أن « نديم » قد تمكن من الهرب الى « ليفورنو » بايطاليا ، فخف البحث عن نديم .

وتوجه الى الخارج :

وكان نديم بعد كل زيارة يفرغ لتدوين ما دار فيها من نقاش ، مستخدما من الحجناء أقلاما ، ويصنع الحبر من هباب الفرن مضافا اليه بعض قرظ السنط !

***

وحين تتابعت خيوط النسيج ، وتسلسلت الأحداث المبعثرة فى الزمان والمكان ، تكشفت العلاقات التى ما كان لها أن تتكشف وسط ركام التفاصيل !

ويتوقف نديم أو يستوقفه الخواجة أمام الاسئلة التى تلمس اعصاب التاريخ والمجتمع !

متى يلجأ أى دين الى الاقناع والمحاجة ؟ ومتى يجرد سيفه من غمده فى سبيل فكرته ؟

وحين يقرر نديم أن الاقناع هو وسيلة أى دين قبل أن تتكون له عصبية تصبح قادرة على حمل السلاح ، يسأل الخواجة :

كيف تتكون العصبيات ؟ أى العوامل تجمع وأيها تفرق ؟ ومتى يصبح الدين دولة ؟ وماذا تسلبه الدولة من الدين ؟ وكيف يتعايشان ؟ ومع مرونة المنهج ، وطبيعته السياحية ، الا أنه كان ثمة قواعد وخطوط تشدهما كلما تسكعا هنا أو هناك وراء سؤال أو جواب !

* * *

فقد قسم نديم الأديان باعتبار مصدرها الى نوعين : الهى ، وانسانى ، وقسم كل نوع باعتبار ما يطرأ عليه الى بحت ومزجى ؛ ثم تابع النوعين الأخيرين فيما تفرع عنهما من فروع !

وأتاح لهما هذا المنهج أن يكتشفا أن ثمة موضوعات أثيرة لدى البشر جميعا ، وأنها تنتقل عبر الأديان ، وأن لها جذورا تمتد الى أبعد من الأديان الثلاثة السماوية وأن جذورها تضرب الى كتب الحكمة القديمة التى كانت بدورها ثمرة الأديان غير السماوية !

وكان يروق للخواجة أن يســـــأل « نديم » عن تطور هذه الموضوعات حين تصبح جزءا من الأديان السماوية الثلاثة !

وكان يحلو لنديم أن يستطرد فى شرح هذا التطور ماذا تأخذ من كل دين ؟ وماذا تعطى له ؟ وكيف أصبحت هذه الموضوعات اليوم هى نفس موضوع العلم الحديث ؟

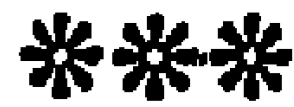
* * *

وكان بمقدور نديم أيضا أن يلاحظ انها دون غيرها هى التى تأخذ فى تطورها صورة الخط لا صورة الدائرة !

وكيف انها توشك أن تكون العمود الفقرى لفكرة التقدم لو قدر لهذه الفكرة أن تقف منتصبة ذات يوم !!

وإذا كان نديم لا يزال مشغولا بالفصل فى قضايا التاريخ ، فان الانجليز كانوا قد انتهوا من الفصل فى قضية الثورة : نفوا عرابى ورفاقه الى جزيرة سيلان ، واستغلوا فرصة المحاكمات الى اقصى حد لكى يجردوا الثورة من كل قيمة ومعنى ، وبعد أن جردوهم فى التل الكبير من كل سلاح ، واعدموا من المواطنين عددا كافيا لكى يتعلم الآخرون فضيلة الخضوع بعد أن علمهم عرابى رذيلة الثورة !

ولم تعد لمصر حاجة الى الجيش ، أو الى مجلس النواب ، أو الى أى شىء يذكر الناس بذلك الشىء الذى يجب أن ينسوه ، والمسمى ثورة !



وفتحت السجون أبوابها لتلتقط فى هدوء ، وعلى مهل هؤلاء الرجال الذين كانوا يؤلفون جيش الثورة الشعبى فى المدن والقرى ! ولم يكونوا هذه المرة فى حاجة الى محـــــاكمات او أدلة ، كانوا يكتفون بأقل الاعراض التى تشى بأن مرض الثورة اللعين قد خالطهم أو مســـهم ، وكان يكفى أن يوجد فى بيت أحدهم عدد من مجلة اللطائف ، او اشتراك فى احدى جمعيات نديم ، أو أن يكون اسمه قد ورد فى قوائم المتبرعين للجيش التى كان ينشرها نديم ! شىء واحد ظل يقلق الحكومة ، ويريح الشعب ، ذلك هو فشل الحكومة فى القبض على نديم ، كان ذلك هو فشـــــل الحكومة الوحيد ، وانتصار الشعب الوحيد كذلك !!

أين ذهب نديم ؟ كانت الحكومة لاتزال تلقى بالسؤال وكان الشعب يلقى به أيضا !

واذ كانت موقعة التل الكبير ، قد وضعت حدا لحرب المدافع بين مصر وانجلترا ، وبين الخديوى والشعب ، فان مسألة اختفاء

نديم قد اشعلت حربا من نوع آخر ، حربا أدرك الانجليز وأدركت الحكومة انها لن تنتهى الا بالقبض على نديم حيا أو ميتا ، وأرسلوا من يبحث عنه فى أوربا كما رددت الاشاعات ، وحين فشلوا فى هذه المهمة راحوا يحاربون الحكايات التى تروى حول اختفائه ، بحكايات أخرى عن موته !!

***

ومن الطبيعى أن تفشل الحكومة ، ويفشل الانجليز فى حرب الحكايات هذه ! وأن يقصر خيالهم أمام خيال الشعب ! ومن الطبيعى وقد فشلوا فى اقناع الناس بموته ، أن يحاولوا تشويه حياته !

فكتب صديقه القديم « سليم نقاش » فى جريدته !

« قد تعددت الأقوال فى مقر عبد الله نديم ، فمن قائل أنه التجأ الى البلاد الايطالية ، ومن قائل أنه فر الى طرابلس الغرب ، ومن زاعم أنه أتى السودان واتصل بالمهدى ، وقال قوم انه سارع فى السفر الى سيلان للاجتماع بعرابى ! والحقيقة فيما نعلم أنه اتى باريس فى الأيام الأخيرة ونشر فيها مقالات أتى فيها على ذكر الحرب العرابية ، وندد بالمصريين ، ونسب اليهم الضعف والجبن والاستسلام للقوة المحتلة » .

ولكن متى كان الشعب يصدق سليم نقاش ؟

***

فبينما كان نديم الحقيقى يواصل رحلته فى التاريخ ، كان نديم الأسطورة يواصل رحلة أخرى فى خيال الشعب وكانت تلك مسألة لا علاقة لنديم بها ، ولا قدرة له على التدخل فيها !

وكان من الطبيعى أن يستمع بدوره الى هذا النوع من الحكايات ينقلها له الخواجة أو العمدة كما يسمعانها من أفواه الرواة أو المسافرين أو المتسامرين ، وكان من الطبيعى أن يسلق

عليها كما يفعل كل الناس ، وحين يفسح لها مكانا بين صفحات كتابه « كان ويكون » الذى كان منهجه يسمح بتهويمات نديم فى الماضى أو الحاضر ، فانه لا يتردد فى تحليل دلالتها كما يفعل مع أحداث التاريخ ذلك أن « نديم » الذى تتحدث عنه الحكايات كان قد أصبح فعلا جزءا من التاريخ !

***

ولكنه لم ينتظر أن تواصل هذه الحكايات مسيرتها حتى تطرق البيت الذى يختفى فيه نديم ، وكان الراوى هذه المرة ضيفا على العمدة ، وكانت « المنظرة » مكتظة بالضيوف ، وكان الحديث عن عرابى ، وفجأة قال الضيف : اتعرفون أين عبد الله نديم الآن ؟ وتطاولت نحوه أعناق الحاضرين ، أما العمدة فلم يقو على النظر اليه !

وحين قال الرجل : عبد الله نديم عند السلطان ، ظنه العمدة يعبث به !

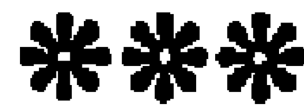
وبقى العمدة متشاغلا بمســـبحته بينما راح الرجل يروى قصته : « سافر نديم الى الشام على مراكب البرتقال ثم سافر الى استانبول فلما وصلها صعد على مئذنة بالقرب من سراى السلطان بين العصر والمغرب ورفع صوته بالآذان فى غير وقته ، فاستدعاه السلطان فلما مثل بين يديه قال له : أنا عبدكم عبد الله نديم المصرى، فقام السلطان واخذه بالحضن ، وقال له الحمد لله على سلامتك يا بنى ، ما أصل حكايتكم ؟ وكيف انكسرت العساكر المصرية ؟ فقص عليه الخبر ففرح السلطان به واكرمه ، وأمر أن يخدموه فى خدمة عظيمة فلم يقبل الخدمة وقال : أنا أحب أن السلطان يبعث معى عساكر لمصر ، ومراكب ليخلص البلاد من أيدى الانجليز » .

وبكى العمدة هذه المرة وهو يروى لنديم ما حدث فى مضيفته !

قال له : يجب أن تعيش يا نديم ، يجب الا يعـــثروا أبدا عليك .. لأنه حين تموت ..

ولم يقو على مواصلة الحديث .. ثم انه جفف دموعه بمنديل فى يده .. وقال : أى شرف يا نديم أسبغه الله على ، وحين أفكر فى أن بيتى يؤوى الرجل الذى ..

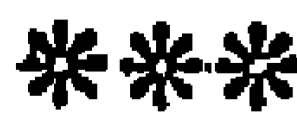
ولم يجد نديم أية كلمة يرد بها على العمدة ، لم يقو حتى على البكاء ، ولكنه بكى كثيرا بعد أسابيع قليلة حين مات العمدة !!



كان نديم صبيا حين سمع لأول مرة بقصة تقول إن أباه يتصل نسبه الى ادريس الأكبر بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط ابن أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه !

وربما اكسبته هذه القصة احساسا بالزهو لم يكن ينقصه ، وربما قيدت سلوكه بعض الوقت بقواعد كان صباه المحموم فى حاجة اليها ، وربما ضاعفت طموحه من ناحية وأضعفته فى ناحية أخرى !

ولكنها لم تقلقه كثيرا من ناحية كونها صوابا أو خطأ ، ولم تكن أدلة مثل هذه القضية من النوع الذى يمكن فحصه بسهولة ، ولم يشعر هو أبدا بالحاجة الى مثل هذا الفحص لتبرير ذاته !



كان كل ما يهمه أن يبرر ذاته كعبد الله نديم لا أكثر ! ولكنه الآن ، والآن فقط أصبح مستعدا لتصديق هذه القصة ، وبدون فحص أو أدلة ، ذلك أن كل ما جرى له ويجرى منذ أصبح طريد الحكومة ، يصلح دليلا لشىء واحد فقط ، هو أن « نديم » تلحظه

عناية أكبر من عناية البشر ، وربما لم تكن عناية البشر أنفسهم سوى تنفيذ لعناية الله !

وحين مات العمدة انتابته الهواجس فضلا عن الأحزان وتقدم منه أكبر أبناء العمدة ، وكان صبيا فى الخامسة عشرة من عمره وبلهجة متعثرة يقلد فيها نبرة الرجال قال له :

ــ قبل أن يموت أبى لم أكن أعرف حقيقتك ، ولكن امى الآن أخبرتنى أنك « عبد الله نديم » الذى تبحث عنه الحكومة ، وسألتنى هل سأكون مثل أبى فى حمايتك ؟ وأحب أن تطمئن ياسيدى الى اننى سأكون ...

وضمه نديم الى صدره فى حنان .. هل يدرك هذا الصبى معنى ما يقول ؟

ولكن « نديم » نفسه لم يدرك بالتأكيد معنى ما يقوله وهو يربت على كتفى الصبى :

ــ يابنى بارك الله فيك ! أنا الذى احب أن أطمئنك الى اننى سأفعل كل ما اقدر عليه من اجلك ، واننى سأكون مثل والدك ، واننى ..

وصمت نديم ، ماذا يظن نفسه ؟ وهل نسى حقيقة حاله ؟ ولكن الدنيا كانت أكرم مما تصور !

لقد جاء الخواجة ، وعرض عليه أن ينتقل الى عزبته ليتولى هو مسئوليته كاملة !

ولكن « نديم » اعتذر فى لباقة ، وبالتأكيد لم تكن تلك مشكلة من مشاكل الثقة ، وفى يسر وبلا كلمة فهم الرجلان الموقف المعقد الحساس ، وكفى الخواجة « نديم » مئونة الشرح والتفسير !

وقال له فى لباقة أيضا :

— أفهمك تماما ولكن لو حدث تطور فى الأمور فعرضى لك قائم ، وبالطبع صلتنا مستمرة ، وعملنا كذلك !!

ثم أن « نديم » فوجىء ذات يوم برجلين يتسللان الى حجرته فى حياء ! وعرفاه بنفسيهما :

— أخوك الشيخ خليل مأذون القرية ، وهذا أخى الحاج شاذلى حلاق الصحة ، ثم تابع الشيخ خليل حديثه :

— ياسيدى لو كنا نعرف من أنت لجئنا منذ وقت بعيد ، وانه لشرف عظيم لنا أن نكون فى خدمة مثلك ، ولقد طلبت منا سيدة البيت أن نتردد عليك لنملأ بعض ما ترك المرحوم من فراغ قد تجده ، ولنكون تحت أمرك فى كل ما تريد ، ونرجو أن تثق ..

***

وأصبح نديم واثقا من أن السماء ترعاه ، بل ولعلها تدلله كذلك ، فصديقه القديم العالم الأزهرى الذى كان أول من آواه يزوره بدوره بعد وفاة العمدة موفدا من قبل الشيخ شحاتة لتقصى أحوال نديم ، وللتفكير فى نقله الى مكان آخر لو كان فى تطور الأمور ما يوجب ذلك ولكن الأمور كانت تتطور فعلا الى فوق ما كان يحلم به نديم فذات يوم قال له الشيخ خليل المأذون ، وكانا قد أصبحا صديقين ، قال له فى سماحة الصديق :

— من الصعب أن تمضى حياتك هكذا ، وليس أحد غير الله يعلم متى تنجلى هذه الغمة ، وقرابتى لأسرة المرحوم تسمح لى أن أقول لك . انه ليشرفنا جميعا ان ..

وتردد الشيخ قبل أن يقول :

ان ما يربطنا بك أعمق واقوى من اى شىء ، ولكنه مما يزيدنا شرفا أن تقبل أن نضيف لهذه الرابطة صلة المصاهرة ، وطبعا هذا يؤكد لك ...

ولم يقاطعه نديم هذه المرة ولكنه أيضا لم يتابعه تماما ، كان يسمعه بجزء من عقله ، وبجزء آخر كان يتساءل :

ــ هل هو يستحق هذا كله ؟؟ وهل فعل شيئا لله أو للوطن اكثر مما فعله اولئك الذين استشهدوا أو سجنوا ، أو يعيشون حياة اقسى من السجن والنفى ؟ وكانت تصله أخبار ما يلاقيه أهله وأصدقاؤه بسببه وكان يقدر ما يتعرض له أولئك الذين لم يكونوا أهلا ولا أصدقاء !

***

ولقد مرت به أوقات كان يبلغ فيها ضجره مداه ، أوقات يشعر خلالها بالجوع الى ضوء النهار ، والى أصوات الناس فى الطرقات، والى أن يرفع صوته ويمشى على قدميه ولو الى سجن أشد ، ولم تكن رحلة التاريخ وحدها ، ولا لقاء الأصدقاء هى التى تخفف ضجره ربما كان ضمن هذه الأشياء تلك المرات القليلة التى كانت الظروف تلجىء فيها تلك الصبية ابنة العمدة الى أن تحمل اليه ماء الوضوء ، أو مائدة الطعام وكانت تتأمله فى فضول وخجل ، وترقب حياته الغريبة وأصدقاءه الاكثر غرابة ، ودهشت حين بدأ يكلمها فى بساطة سألها مرة عن اسمها ، فردت بصوت لا يكاد يسمع : خديجة !! ودهشت أكثر حين راح يحكى لها ما لم تكن تعرفه عن خديجة زوجة الرسول عليه السلام !

ولكن دهشتها فاقت كل حد فى المرات التى كانت تأتى فيها مع أبيها وتجلس صامتة بينما يروي لها حكايات لا تنتهى عن اسماء بنت أبى بكر و ..

.. وبدأت تعرف ما يحتاجه وتسبقه الى تقديم ما يريد ومع انه كان فى الأربعين من عمره الا انه كان أغرب رجل رأته فى حياتها الصغيرة ، وأعذب رجل !!

***

وبالنسبة له كانت رؤيتها ، بشعرها المضفور ، وعينيها اللامعتين توقظ فى نفسه ضربا من الارتياح العذب ، والاحساس بأنه لم يوغل بعيدا فى انفصاله عن الحياة !! كانت تلك نفحة طليقة من الحياة التى لا يمكن احتجازها ، ولا حتى الامساك بها كذلك ، ولم يكن يرجو سوى أن تهب على سجنه من آن لآخر ، ولكن أن تشاركه السجن .. سجن عمره ، وسجن حجرته ، فهذا ما لا يصدقه ولا حتى يرضاه ، ولكن الشيخ خليل لم يبذل جهدا كبيرا فى اقناعه بأنها لن تشعر بشىء من ذلك فهى فى بيتها وأنه لم يكن ليتكلم فى أمر كهذا لو لم يكن واثقا من أن ...

***

وكان أن تزوج نديم ، وتزوج أيضا صالح من احدى قريبات الأسرة واستقرت بهما الحياة فى بيت العمدة لأربع سنين ، أنجب خلالها طفلة لم تقدر لها الحياة ، وأتم خلالها الجزء الأول من كتابه المعنون « كان ويكون » ، وكتب لعرابى فى منفساه مجموعة من الرسائل يحدثه فيها حديث الأمل والعزاء ، وينقل له ولصحبه ما يجده من عواطف الشعب نحو الثورة وأبطالها !

وعرف نديم لأول مرة خلال هذه الأعوام معنى الحياة الزوجية المستقرة ، وربما كان الفضل فى هذا للصبية الجميلة التى كانت زوجته ولكن الفضل الأكيد ، كان لقرار الحكومة بالقبض عليه ، والذى تحول الى حكم غيابى بالسجن المؤبد ، وهو فضل تشارك فيه أيضا سلطات الاحتلال البريطانى ..

ثم انتهى ذلك كله ذات مساء !!

قال له الشيخ خليل بصوت ووجه مرتعشين : الليلة ياسيدى . اعنى الآن ، يجب أن تغادر البيت !

ـ ماذا حـدث ؟

ـ فيما بعد أشرح لك !!

وفى صرة يسهل حملها وضع نديم كل ما قدر حاجته اليه ، وودع زوجه واهلها ، ولم يكن حزنه اقل من خوفه ! وحين اغلقا وراءهما الباب الخلفى للبيت ، لم تشيعهما خفقة مصباح أو حتى نظرة .. وقال للشيخ خليل : تمهل .. !

***

وكان السير لمسافة اكبر من حجرته تجربة جديدة عليه ، ومع أن الظلام كان يغمر الدنيا فى تلك الليلة ، فقد كان ذلك ظلاما آخر ، وهواء آخر ، كان لليل أصوات اخرى ، وروعه الخلاء ، وروعه اكثر تصلب جسده ، ولم يلبث أن سأل :

ـ هل هناك من يطاردنا الآن ؟

ـ لا ... ولكن لعل هناك من يفتش عنك البيت !

ثم أوجز القصة التى بلغتهم من أحد الثقاة « عن اسرة على خلاف مع أسرة العمدة شكت فى أن العمدة يؤوى فى بيته هاربا من الحكومة لا تعرف هويته فأبلغت الأمر للحكومة »

ـ هل نقصد الآن مكانا بعينه ؟

ـ لم افكر فى أكثر من أن نبعد عن البيت !

ـ اذن لم لا ترجع انت ؟

ـ ماذا تقول ياسيدى ؟

ـ وجودك لا يفيدنى كثيرا ولكنه بالتاكيد يعرضك ...

ـ يا سيدى لم أكن أظن انه بعد كل هذه السنين ...

ـ لو عدت واخبرت الشيخ شحاتة بما حدث ... أظنك توافق على أن هذا شيء ..

ـ لكن كيف التقى بك مرة أخرى ؟

ـ ستجدنى فى مسجد اية قرية فى هذه المنطقة .

ـ من الضرورى أن نبعد عن هذه المنطقة كلها .

ـ لا اقوى على السير .. !

ـ نستريح ثم نواصل المسير .

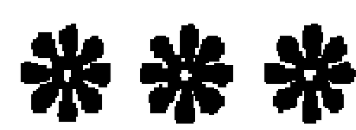
ـ المهم ان تعود أنت الآن !

ـ لن أعود الا فى الصباح !!

* * *

فى الصباح انحنى نديم ليغسل وجهه فى مياه قناة صغيرة ، لم يكن قد نام ، ولكنه اراد ان يقاوم النوم والارهاق ، وفوجىء نديم ، فوجىء بوجهه يطل عليه من المياه الراكدة ، كانت تلك أول مرة يبصر فيها وجهه فى مثل هذا الضوء ! حقا هذا هو نديم ؟ واذهلته التجاعيد ، واذهله بياض شعره ، وترهل جفونه !! ولم يجد أى معنى لأن يخفى عينيه وراء عصابة ! من يعرفه الآن ؟ اذا كان هو لا يعرف نفسه ، ولم يكن وجهه هو أغرب شىء قدر له أن يراه فى ذلك الصباح ، وفى الحقيقة كان الصباح نفسه اغرب

شيء !! قرص الشمس ، وقطرات الندى وروائح الحقول ، والأوراق المغسولة الشديدة الخضـــرة .. والطيور .. الطيور الجميلة الطليقة التى لا يطاردها أحد ! ولم تقو عيناه على احتمال الضوء الذى بدأ يملأ الأفق الفسيح ، ولم يقو أيضا على أن يغطى هذا الأفق الفسيح بعصابة يربطها على عينيه . وكان ذلك كله قد أصبح ملكا له لبعض الوقت ، وقد يفاجأ الآن بمن يسلبه هذا الذى تمتلكه الطيور والحشرات ، وحين غادر مخبأه الأول فى « منية الغرقى » منذ سنين فوجىء بمأمور شركسى يعترض طريقه ، وقتها كان هو لايزال عبد الله نديم ، ووقتها أسلم نفسه حين قال له المأمور : لا تحاول أن تنكر نفسك فأنا أعرفك .. أنت عبد الله نديم .. ! ولم يصدق عينيه حين أشار له المأمور ليأخذ فى مسيرته طريقا آخر حتى لا يلتقى بالقوة التى تتبع المأمور ! ولم يصدق نفسه حين قدم له المأمور كل ما معه من نقود ــ وهو يعتذر لقلة ما معه ــ ليستعين بها فى مواصلة هروبه ، كانت تلك معجزة ، وكان ذلك المأمور انسانا نادرا ، أما الآن فربما كان نديم فى حاجة الى أكثر من معجزة، كان رجلا قادما لتوه من قلب التاريخ ، كان مثل أهل الكهف ، وكانت المعجزة التى يريدها شيئا أكبر من مجرد الاختفاء من البوليس ، كانت المعجزة هى كيف يتقبل الدنيا ، الأرض والضوء والحرارة والهواء والناس ؟



فى أحد المساجد ، تقدم منه أحد المصلين بعد صلاة العشاء محاولا تقبيل يده ، وحين أصبح قريبا منه همس فى اذنه :

ــ أحمل رسالة للشيخ يوسف المدنى !

وبوغت نديم ، وهو يتفحص وجه محدثه ، وهو يسأله متجاهلا ومتجلدا :

ــ من يكون الشيخ يوسف المدنى ؟

وواصل الرجل الذى كان يرتدى ثوب درويش بنفس الهمس :

ــ الرسالة من سيدى الشيخ شحاتة القصبى !

وهدأ نديم وراح يربت على كتف محـدثه ، وكأنه يدعو له بالشـــفاء :

ــ أين الرســـالة ؟

ــ أن ترافقنى الى حيث أذهب !

***

ورافقه نديم الى قرية « القريبة » ، وفى الوقت الذى انتشر فيه رجال البوليس فى مجموعة البلاد القريبة من « العتوة القبلية » بحثا عن الهارب الذى لم يجدوه ، وقبل أن يبعد كثيرا من المنطقة ! انتشر رجال الشيخ شحاته فى مختلف الاشكال ، دراويش وباعة ، وشيوخ ، ومتسولين ، يتلقفون « نديم » من بلد لآخر ، يختفى نهارا فى بيوتهم ، يغير ثيابه ، ويبخر شعر رأسه ولحيته بالكبريت فيصبح مرة أبيض ناصعا ، ثم يغسله فيختلط البياض بالسواد ، ولم يكن هذه المرة فى حاجة الى تغيير جلده ، ويتنقل فى المساء مع عودة الفلاحين من حقولهم وحتى لا يلفت بقاؤه فى مكان واحد وبصورة واحدة انتباه أحد ، وكانت تلك حربا أخرى تخوضها دولة الدراويش ضد الحكومة ، وفشلت الحكومة هنا كما فشلت هناك ..

ولم تكن تلك هى المعجزة التى كان ينتظرها نديم ليعود الى الحياة ، بدلا من أن يعود الى سجن آخر دائم ! المعجزة الحقة هى أنه كان يسترد نفسه يوما بعد يوم ، ولقاء بعد لقاء مع هؤلاء الذين يعرضون حياتهم للخطر من اجله ، أو من أجل الشيخ شـــحاتة القصبى ، وكان الشيخ شحاتة هو الذى منع الشيخ خليل من معاودة الاتصال بنديم حتى لا يصبح دليلا اليه ، وترك نديم ليواجه المجهول كل يوم مع رجال لم يكن يعرفهم ، وما كان يعرفه سوى بعضهم ، ولم يكن ثمة وجود لمشكلة الثقة ولا الخوف ، وحين كان نديم يتأمل البيوت التى يأوى اليها ، حين كان يجد ما فيها ومن فيها ، ينطق بالحاجة الى جزء صغير من المكافاة المرصودة لمن يدل عليه ، ورغم ذلك فأصحابها لا يقاومون الاغراء فحســـب ، بل ويجابهون المخاطر ، حينذاك كان يشعر بالغيرة من الطريقة الفذة التى عالج بها الشيخ شحاتة بين افراد مملكته ازمة الثقة والخوف معـــا !.

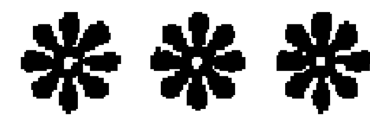
كان هؤلاء جزءا من الشعب ، وكان هو كل ما تبقى من تلك الشعلة التى توهجت منذ سنين والتى كانت تسمى ثورة ! ووجد نديم لسانه القديم ، وجرت فى عروقه الدماء القديمة ، وحين كان بعضهم يسأله بين الانكار والتصديق :

— هل سيعود عرابى يوما وهل .. !

— طبعا اذا ثار الشعب على الانجليز فسوف يعود .

— ولكن كيف يثور الشعب يانديم ؟ انت لا تعرف أن الانجليز سرحوا الجيش وان رجالهم فى كل وزارة وادارة ! انت لا تعرف أن ...

ــ أعرف ولكنى أتكلم عن ثورة الشعب ، كانوا يقولون أنهم جاءوا لاعادة الحكم الشرعى للبلاد ، وانهم لا يريدون سوى اقرار النظام ، وانهم سيغادرون البلاد ، وكانت حجة من خانوا بلادهم انهم صدقوا ذلك كله ! والآن هل هناك من يصدق ؟ الشعب لا يعرف الخوف ولا تنقصه الشجاعة أنت مثلا ....



ولكن يبدو أن « نديم » لم يكن يعرف فعلا كل شيء ، فها هو ذا ينتظر أحيانا يومين أو ثلاثة فى أحد المساجد دون أن يقترب منه ذلك الرجل المجهول الذى يهمس فى أذنه :

ــ اتبعنى بعد صلاة العشاء .

وبالطبع كان هناك من يخاف ، ومن يتردد فى تنفيذ كلام الشيخ شحاتة ، ولكن « نديم » كان قد استرد نفسه تماما ، ولم يكن معه أحد حين أراد أن يسافر من طنطا الى كفر الزيات ، وفى المحطة أمكنه أن يميز بين الواقفين على الرصيف عددا من رجال البوليس السرى وهم يتفرسون فى وجوه الركاب ، ولم تخذله نفسه ، لقد تقدم منهم فى خطى رجل عجوز مرهق : وكان يرتدى ثياب ولى الله ويمسك مسبحته ، وسأل أحدهم :

ــ أين يقف قطار كفر الزيات ؟

ــ على هذا الرصيف !

ــ ومتى يجيء يا بنى ؟

ــ بعد ساعة ... .

ــ هناك متسع للصلاة ، لكن أين المصلى يا أولادى ؟

ــ تريد المسجد الأحمدى يا سيدنا أم ...

ـــ لا أقوى على حمل هذه الصرة الى هناك !

ـــ نحملها لك حيث تريد .

ـــ بارك الله فيكم .

ولم يتركوه حتى ركب القطـــــار ووقفـــــوا فى وداعه ، وطلبوا منه الدعوات فلم يبخل بها عليهم !

***

وفشل البوليس فى العثور عليه ، وانتهى به الفشل الى اليأس ، ربما لم يكن ذلك الهارب هو نديم ، وحتى لو كان هو فأى خطر يمثل وجوده أو اختفاؤه ؟ كانت الأمور قد استقرت فى يد الحكومة ، وفى يد سلطات الاحتلال ، الى الحد الذى لم تعد تبالى معه بوجود نديم أو عدم وجوده ، لقد نسيه الناس ، فلماذا يذكرونهم به ؟ وكان الذين يحكمون مصر آيذاك رجالا من أمثال نوبار باشا الذى أسقطه أول تمرد للضباط فى عهد الخديوى اسماعيل ورياض الذى أسقطته ثورة عابدين !

ولكن « نديم » ما كان ليخفى طويلا على رجال الشيخ «شحاتة القصبى » ولا عن صديقه الأزهرى ، لقد عثروا عليه أخيرا فى قرية اسمها « الكوم الطويل »

***

وبديهى أنهم لم يعثروا عليه كنديم ، كان رجلا من أهل الحجاز يرتدى زيهم ، وينطق بلهجتهم ، ويصف للملتفين حوله فى مضيفة العمدة أرض الحجاز وأهله ، وعاداتهم وأخلاقهم وصفا يدعم به الحجاج أنفسهم أقوالهم ، مع أنه هو لم يذهب يوما الى تلك الديار المقدســـــة !

ولم يكن ثمة ما يعجز « نديم » في هذا المضمار !

— هل ستبقى طويلا ؟

.. كان صديقه العالم الأزهرى هو الذى يهمس فى أذن نديم بهذا السؤال وقد زاره فى مضيفة العمدة كواحد ممن اجتذبتهم شهرة العالم الحجازى ، فأجابه نديم :

— نعم !

قالها نديم بأسى ، وكان قد عرف منذ لحظات ومن صديقه أن زوجته الأخيرة قد لقيت ربها اثر مرض مفاجىء !

* * *

ولم يكن ذلك هو السبب الوحيد ، كان المقام قد طاب له فى قرية « الكوم الطويل » ، ولم تعد به حاجة الى حجرة أخرى مظلمة ! ولم يكن عمدة « الكوم الطويل » ليفرط فى هذه الهبة التى هبطت عليه من السماء ، فلم يكن ضيفه مجرد زائر من الأرض المقدسة ، كان عالما فذا ، ومحدثا عذبا ، وراوية لا يند عنه خبر أو طرفة أو مسألة فى القديم أو الحديث وأصبحت مضـــيفة العمدة منتدى للأعيان والعلماء والحكام الذين تجتذبهم شهرة العالم الحجازى !!

لقد ذاع صيته فى المنطقة كلها ، وذاع معه صيت العمدة ! وكان مجتمع الأعيان آنذاك يشبه من بعض الوجوه نفس المجتمع الذى استقبل شباب نديم ، وفتح له أبوابه ، وأعد موائده !!

لقد أنكفأ الأعيان الى قراهم ، بعد أن شاركوا فى لعبة الثورة الخطيرة بعض الوقت !

وأصبح بمقدور البعض أن يتحدث عن الثورة باعتبارها رجسا من عمل الشيطان ، بينما اكتفى حكماؤهم بقولهم : انها عمل يفتقر الى الحكمة !

وبينما تسلى بعضهم بالاشتراك فى مجلس شورى القوانين — الذى كان مجرد هيئة استشارية — أراد بها الانجليز أن ينسى الشعب حلمه بالحياة النيابية ! راح أغلبهم — وكما كانوا فى الماضى — يتسلون خلف أسوار قصورهم بالطرائف والمدح شعرا ونثرا ، فى الكتب أو على السنة الظرفاء والعلماء !! اما من بقى منهم على اخلاصه للثورة ، فقد بقى فى اسلجون !

* * *

وهكذا عاد نديم كما بدأ ، كانت تلك دورة صغيرة من دورات التاريخ الذى يتحرك فى راس نديم فى شكل مجموعة من الدوائر وكانت أيضا فكاهة جديرة بنديم وحده ، ورواية ليست تجد أبرع منه ليلعب فيها دور البطولة !!

لقد أضاف الى مواهبه القديمة موهبة كانت فى رأى صديقه القديم أديب اسحق أعظم ما يمتلك ، تلك هى موهبته كممثل ، لقد قضى أديب اسحق ، الذى فر من لهب الثورة ليظفر بحياته ، وبقى نديم الذى لم يأخذ فرصته كممثل ليحقق نبوءة أديب ، وليتحسر على موته كما تحسر على حياته ، ترى هل تطل عليه الآن روح أديب لترى كيف يصل الممثل الى الذروة ؟

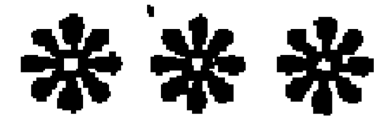
لقد التقى فى مضيفة العمدة « بمصطفى باشا صبحى » مدير الغربية الذى اجتذبته هو الآخر احاديث العامة والخاصة عن عالم الحجاز الشهير فجاء ليتحدث اليه !

***

ولا يثير الموقف الخطير قلق نديم بل لعله يثير فيه روح التحدى والمغامرة والفكاهة .. فقد كان يعرف المدير بقدر ما كان المدير يعرفه .. وكان يعرف أيضا أن المدير لا يزال مكلفا بالقبض عليه ..

ترى هل يتعرف عليه ؟ الم يبق ثمة شىء فيه يثير الشكوك ؟ لمعة عين ، أو نبرة صوت ، أو اختلاجة فى صفحة الوجه ؟ هل هى عبقرية التمثيل أم عبقرية الزمن والهموم والحجرات المظلمة ؟

واذا كان بمقدوره أن يتحكم فى ملامحه الخارجية فكيف يتحكم فى تدفق فكره وتداعياته ، وطريقته فى التعليق والفكاهة ؟ هل هى عبقريته ، أم انسانية المدير ؟ ولكن المدير هو الذى يحسم الموقف حين يهمس فى اذن رفاقه بعد أن ودع العالم الحجازى : « لولا انى أعرف أن « نديم » راح وراحت أيامه لقلت ان هذا العالم الحجازى هو نديم ، ولكن جل من لا شبيه له » .



وكان جديرا بنديم الممثل أن يطرب لهذه الشهادة حين تبلغه وان يحزن فى نفس الوقت لأنها لن تطرب سواه ، ولأنها تنعى اليه « نديم » بمعنى من المعانى ! وكان جديرا به أيضا أن يواصل تلك المزحة الغريبة بقلب جسور ، فيتقبل الدعوات التى يتنافس فيها العمدة والأعيان ليشرف عالم الحجاز الشيخ يوسف المدنى دورهم ، وبلادهم ، ويخطب الجمع فى المساجد ويتحدث الى المصلين بعد الصلاة ، وينظر الى وجه الحشد من جديد ، فيرتعش لسانه ، ويتذبذب حين يندفع فى حماسته وحين تكتمل الدائرة القديمة ، ولكنه يمسك به شأن الممثل العظيم فى الوقت المناسب حتى لا يخرج عن حدود الدور المرسوم . ولم يكن هناك من يدرك عنصر الفكاهة فى هذه الرواية الغريبة سوى هذا النفر من رجال الشيخ شحاتة الذين يدورون حوله حيثما ذهب ، وينقلون أخباره لسيدهم ، ويدركون ما قد لا يدركه الممثل العظيم من همس النظارة وشكوكهم وهل كانت تذهب سدى تلك الكلمة العابرة التى أطلقها مدير الغربية فى لحظة دهشة وحيرة ؟

وجاءه ما يشبه الأمر من الشيخ شحاتة القصبى ليعود الى حيث بدأ احتفاؤه الى « منية الغرقى » ويبقى بها حتى ينسى الناس أمر الشيخ يوسف وأعلن عن رغبته فى أن يعود الى بلاده المقدسة ، وكان ذلك بعد ثلاثة أعوام قضاها فى « الكوم الطويل » ، وخرج أهل القرية والقرى المجاورة ليكونوا فى وداع العالم الكبير الذى أعلن عن رغبته فى أن يزور المحلة لشراء بعض الهدايا لاقاربه ، وقبل عودته الى الحجاز ، غمرته هدايا الأعيان كما غمرته عواطفهم وتمنياتهم !

كانوا هم أعداءه التقليديين وحماته كذلك ، وكانت علاقته بهم بكل تعقيداتها فكاهته الخاصة حين لا يجد ما يتفكه به ، ثم انه حمل ذلك كله وعاد الى حيث بدأ ، الى « منية الغرقى » .



ثم ان « نديم » لم يبق طويلا فى « منية الغرقى » لقد شاقته الحياة الطليقة ، وما عاد يطيق البقاء بعيدا عن الناس فى حجرة مظلمة او منيرة !!

ــ ولكن الى أين يابنى !؟

وكان الشيخ شحاتة هو الذى يسأل هذه المرة :

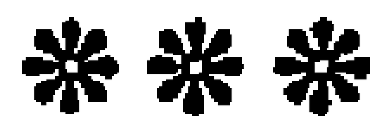
ــ الى القرشية ، عزبة المنشاوى باشا ، أظنك تعرف ..

وكان الشيخ شحاتة يعرف عن المنشاوى باشا ما يجعله مطمئنا على مصير نديم ، فالباشا فضلا عن معرفته بنديم ، من أنصار الثورة العرابية ، والذى أنقذه من مصيرهم هو انه ابان الحرب أنقذ عددا من الأوربيين من مذبحة كادت تودى بحياتهم ونقلهم جميعا الى عزبته ، وفى حمايته ، وحين حوكم مع العرابيين لم

يفس الأوربيون صنيعه فتدخلوا لدى قناصلهم الذين تدخلوا بدورهم لدى الانجليز ، فصدر عفو عنه !

وعاش كجزيرة محاصرة وشامخة بعد فشل الثورة ، عاش أيضا يتسلى بزراعة أرضه الواسعة ، وبمجلس علمى وادبى .. فكر نديم أن يحتل ركنا فيه !

واذا كان من الممكن ان تتجدد الشكوك فى شخصية الشيخ « يوسف المدنى » ، فلتكن ثمة شخصية جديدة لا تثير الشكوك !



واستقبل المنشاوى باشا ذات مساء فى قصره رجلا يرتدى ثياب أهل اليمن ، وينطق لهجتهم ، واسمه الشيخ على ، ثم أصبح اسمه الشيخ « على اليمنى » !

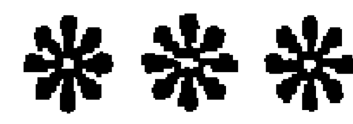
فى البداية ظنه رحالة يبيع علمه وادبه مقابل عدة ليال من الضيافة والسمر ، وبعض العطايا والهبات ، ثم أنه هو الذى أصبح يرجوه أن يطلب أى شىء عدا الرحيل عنه !

وكان جديرا بنديم أن يتذكر تحذير الشيخ شحاتة له وهو يهم بالسفر هذه المرة :

ـــ لا تبالغ فى الثقة بنفسك والاعتماد عليها ، اعتمد على خالقك وتذكر دائما حاجتك لعونه !

واذا كان المنشاوى باشا لم يعرفه حتى الآن وهو من أصدقائه القدامى ، فجدير بنديم أن يطامن من غروره ، وان يعرفه بنفسه لأن الاستمرار فى هذه اللعبة يحمل فضلا عن الشك فى ولاء صديقه معنى مخادعته ..

ولكن هل يحتمل صديقه الباشا مسئولية وجوده حين يعرف حقيقته ؟ لقد احتملها صعاليك الشيخ شحاتة ودراويشه ولكن هل يحتملها الباشا بمصالحه المعقدة مع الحكومة والانجليز ، ودائما كان يواجه مع كل صديق اختبارا ومخاوف جديدة !



ولكنه ما عاد يبالى هذه المرة ، حين راح يسأله كيمنى عن أحوال البلاد والعباد ، ثم يتطور الى السؤال عن الحقيقة وراء ذلك الحدث الغريب المسمى ثورة ، عاوده خوف شديد !

كانت تلك لعبة خطرة ، وامعانا فى الخداع ، وسواء اكان ما سيقوله عن ذلك الحدث ورجاله هو الحقيقة التى يعتقدها أو ما ينبغى أن يقال لرحالة غريب ، فالأمر دقيق وحساس ومخيف بقدر ما فيه من الاغراء ..

ترى هل يحدثه عن نديم وعرابى وغيرهما من رجالات مصر دون أن يدرى حقيقته ؟

اية فرصة ، بل أية تهلكة ؟

وقبل أن يفتح فمه بكلمة واحدة عن هذا الجزء الحســـــاس قاطعه نديم قائلا :

ـــ أنت ياسيدى لا تعرف من انا ، واذا كان مثل هذا الحديث يسبب لك ..

ـــ يا سيدى لقد أصبح كل شىء ملكا للتاريخ ، وليس هناك ما اخافه ، وان كان هناك ما أحزن عليه .. وما عرفته عنك يكفينى عما لا أعرف ..

ـــ وماذا تعرف عنى يا سيدى ؟

— وماذا يعرف الناس عن بعضهم ؟ أنت تعقد ما ليس معقدا :

— لقد خدعتك كثيرا ، أنت تحمى فى بيتك هاربا من الحكومة .

وتأمله المنشاوى باشا مليا : من تكون ؟ ثم اســتطرد دون مبالاة : لست ابالى أن أحمى غريبا مهما تكن فعلته لكن كيف يستطيع مثلك أن يفعل ما يخاف جريرته ؟

وكان جديرا بنديم المثل أن بسكر بنجاحه بقدر ما يخاف من هذا النجاح ذى الطرف المدبب ! ثم قال بتهيب :

— لقد فعلت الكثير .. أشعلت ثورة !

* * *

ولم يكن هناك ما يخفف من وقع هذه الخدعة الثقيلة على المنشاوى باشا سوى أن يشترك مع نديم فى توسيع نطاقها .. سوى أن ينظر الى رياض باشا نفسه رئيس الوزراء آنذاك وهو يتردى فى حبالها ..

ولقد واتتها الفرصة دون قصد حين بعث رئيس الوزراء الى الشيخ « على اليمنى » الذى بلغته شهرته يسأله عن معنى مثل يمنى كان قد قرأه ولم يفهمه !

وكتب الشيخ على اليمنى يشرح لدولة الباشا معنى المثل :

« بعلة الورشان يؤكل رطب المشان »

وكانت تلك فكاهة أخرى لا تليق بغير نديم ، وكان ثمة زواج ثالث ، ورخاء تجاوز « نديم » الى خادمه فهيأ له ولزوجته حياة طيبة فى قرية اسمها الجميزة !

وكان ذلك كله لونا من الحياة لا يجرؤ غير نديم على أن يتوغل فيه الى هذا الحد ! فالرجل الذى يتعشق الحياة لا يبالى فى أى ثوب يلتقى بها ، ولا من أى باب ؟

وكان للأبواب الخلفية جمالها الخاص ، ولكل لون من الوان الحياة لون خاص من الحرية .

لكن الى متى تستمر هذه الرواية الغريبة ؟ نعم الى متى ؟ وكان هذا السؤال لا يباغت « نديم » وحده بل يباغت ايضا هذا النفر من رجال الشيخ شحاتة الذين يشـــــــاهدون عن قرب هذه الرواية ، ويدركون ما فيها من فكاهة اليمة !!

* * *

وكان من رأيهم الا يستقر نديم فى مكان ، وأصبح ذلك من رايه أيضا ، ليس بدافع الخوف فحسب بل لدوافع كثيرة ، ربما كان منها الخوف على هذه الرواية نفسها !!

وللروايات دائما تقاليدها فى الأدب او فى الحياة ، وخلال وجود نديم فى ضيافة المنشاوى باشا الذى كان بيته وكرا للعرابيين بشكل من الاشكال ، لم يجد نديم مانعا من أن يكشف عن شخصيته لعدد من أخلص أصدقائه ، وأن يزيد بذلك عدد الشاهدين لهذه الرواية والممثلين فيها أيضا ، ذلك أنهم جميعا وافقوا « نديم » على رأيه وأتاحوا له اثمن فرصة .

وأعلن الشيخ « على اليمنى » ذات مساء لرواد مجلس الباشا عن رغبته فى أن يسافر لاداء فريضة الحج !

وكان هنا كما كان هناك ، وداع آخر ، وسفر آخر قصير ، وعودة أخرى الى غير المكان !!

ولكن الذى يعود هذه المرة هو « سى الحاج على المغربى » .. يعود الى بلدة صديقه الشاعر « محمد التميمى » ، وتتغير الثياب ،

وتتغير اللهجة ، ويتغير بعض الشىء موضوع الحديث ، وعرفته الدلتا ومدنها الصغيرة فى هذه الشهور عددا من المشايخ ، هم الناجى ، والغزى ، والسبكى ، والنجدى ، والمصرى ، والشرقاوى، عرفتهم فى المساجد وفى مضايف العمد والأعيان ، وفى حلقات الذكر .. وسهرت معهم ، وتعلمت منهم ، وصلت وراءهم وأخذت عليهم العهود والمواثيق ، وافتقدتهم واحدا وراء الآخر ، كما وجدتهم !

***

وبالتأكيد لاحظت ما بينهم من فروق فى لون الشعر أو شكل الثياب أو لهجة الحديث ، ولكن هل لاحظت فيهم جميعا ذلك التوق العارم للحشد ؟ ذلك السؤال الملح عن حياتهم ومشكلاتهم ؟ ذلك الهمس الشجى عن ضرورة أن يعملوا معا وان يثقوا بالله وبأنفسهم، ثم ذلك الأسى الغامض حين يغالب يأسهم أمله ، وحين يتراجع حبه لهم أحيانا أمام حبه لنفسه ولوجوده !

اما ذلك السؤال المضنى الذى كان يلتقى به دائما فى كل مرة يسافر فيها شيخ ليعود شيخ آخر ؟

— الى متى تستمر هذه الرواية الغريبة ؟

***

ومرة قال لنفسه : أيها المجنون ما الذى تريده ؟ تصور أن المستحيل قد حدث ، وأن الخديوى أصدر الآن عفوا عنك فماذا يمكنك أن تفعل ؟ أجل ماذا تفعل بمثل هذه الحرية فى مثل هذه الظروف ؟ ربما انه لم يكن يعرف كل شىء عن مصر آنذاك ، ولكنه أيضا لم يكن يجهل كل شىء ، وكان يأس الناس أنظع ما يعرف ، ذلك اليأس الذى يجعلك فى غنى عن أن تضع القيود فى أيدى الناس ، وكان ينظر الى كل ما عاش من أجله يسحق بلا هوادة ، ويتلاشى كأن لم يكن !!

وكان هو وحده الذى ينعم الآن بحياة الصـــــعاليك وحريتهم ولا مسئوليتهم كذلك !!

وفى كل مرة واجه فيها السؤال اللعين ، كان يرد عليه بمزيد من الكتب يؤلفها فى أوقات فراغه ، وكان الفراغ أعظم ما يمتلك الآن بعد أصدقائه .

لقد الف كتابا اسماه « تاريخ مصر فى ذلك العصر » عرض فيه لتاريخ الثورة العرابية وأجاب فيه على هذه الاسئلة : كيف بدأت الثورة ، وكيف قامت ، وكيف تحطمت ؟؟

***

كان ذلك بعض همه ، ولكن همومه الفكرية كانت دائما اكبر من كل ما يملك من فراغ ، وها هو ذا يعالجها الآن واحدة بعد الاخرى ، فيكتب عن العادات والأخلاق وعن التصـــوف والعقائد والاصول ويكتب لعرابى فى منفاه رسائل لا ينتظر عيلها ردا ، ولا يخالجه أدنى شك فى موهبته كشاعر فينظم أشعاره فى كل شىء، وحين يفتقد الجمهور يبعث بها لاصدقائه فى كل مكان !

ولكن الى متى يستمر هذا كله ؟ لقد عالج أشياء كثيرة ولكن هذا السؤال المضنى لا علاج له !

ولم يكن ثمة من يجد علاجا شافيا لمثل هذا السؤال !!

* * *

مرة واحدة قدمت زوجته الأخيرة هذا العلاج ! لقد كانت من النوع الذى لا يصبر على طبع نديم فضلا عن حياته ، ولم يحتمل نديم هذه الزوجة ، لقد احتمل كل شىء ، ولكنه لم يعد يحتمل هذه المرأة ، وقرر أن يسلم نفسه للبوليس كأمثل طريقة للتخلص منها !

وقال له صديقه محمد التميمى : هذه أسخف نكتة سمعتها منك !

ولم يكن نديم يقول نكتة ، وبالطبع لم يكن يعنى ما يقول ، ولكن مجرد هذا التفكير كان يعنى أن « نديم » قد تعب ، فعمر اختفائه الآن يقترب من تسعة أعوام ، أما هو فيقترب من الخمسين واختفاء الوضوح والمعنى والأمل من حياته ومهما تكن التبريرات والمعاذير ، وادراكه أنه لا يحتمل وحده ، وان أصدقاءه الذين كل ذنبهم أنهم كانوا أصدقاءه يحتملون معه نفس العبء الغامض المجهول ، مثل هذا الادراك كان يغلبه على أمره فى لحظات الوحدة والمرض ، وأحيانا يغلبه على ايمانه فيشكو الى الله من قسوة التجربة ، ويطلب مزيدا من الايمان والصبر ، يطلبه شعرا ونثرا ، ويخفف العبء عن الأصدقاء الذين عرفوا أمره ، باللجوء لمن لم يعرفوا بعد ، ومع أن كل صديق جديد ، كان يمثل لنديم اختبارا جديدا ، ومغامرة جديدة الا أن ذلك كله كان ينتهى دائما بثروة جديدة، ولم يأسف نديم لأنه لم يدخر أموالا ، كان أصدقاؤه هم أعظم مدخراته ، ولم يكن فى حاجة للذهاب الى بلادهم ، كانت تغنى رسائله ، وكان يغنى أسلوبه الفريد — بزركشاته التى عاد يتسلى بها ويتحلى كذلك — عن التوقيع على هذه الرسائل ، التى يحملها أصدقاؤه لاصدقائه فيتعارفون من خلاله ، وتربطهم جميعا تلك الرغبة المشتركة فى المحافظة على هذا الرجل الذى كان كل ما تبقى من ثورتهم ، لقد كان أملهم الغالى وها هو ذا يصبح حلمهم الأثير ، وحيث كان فرسائلهم تصله ، وحيث كانوا فرسائله تصلهم ، ولم تكن رسائله تطلب العون دائما بل كانت تقدمه لمن يحتاجه !! وكانت قصة اختفائه نفسها ،وبدون تعليق قد أصبحت وحيا والهاما لمن يملكون الخبز ، ولكنهم يفقدون الأمل ، وكانوا يقايضون « نديم » ،

وكان نديم فى النهاية يحتمل كل شىء ويحاول ان يتلمس المعنى فى أى شىء ، ولكنه لم يعد يحتمل ، ولم يجد أى معنى لما تعمله هذه المرأة التى تدعى زوجه !

لقد شجعها على أن تسافر لتزور زوجة خادمه فى قرية الجميزة قال لها :

ــ سوف تغيرين الجو ، وتتسلين !

ولكنها أضافت :

ــ وسوف أستريح منك !

وصمت نديم ، حتى لا تغير رأيها وتبقى ، واكتفى بقوله :

ــ ليسامحك الله !

وفوجىء بعد أيام من سفرها بخادمه صالح :

ــ سوف يفتضح أمرنا !

ــ لماذا ؟

ــ زوجتك ياسيدى تشاجرت مع زوجتى !

ثم أضاف فى خجل شديد :

ــ تعال ياسيدى وخذ زوجتك .

وسافر نديم الى الجميزة ، وعقد صلحا بين الزوجتين ، وبقى هناك أياما يرقب تطور الأمور ، ولكن عمدة الجميزة أعجب بالشيخ الشهاوى ، وهو الاسم الذى دخل به نديم القرية !

أعجب به الى الحد الذى لم يتردد معه فى أن يفصح أمام الشيخ الشهاوى عن حقيقة عواطفه نحو الثورة العرابية .. حين

تطرق اليها الحديث يوما ، واذ وجد أن الشيخ الشهاوى قد طرب لهذا الحديث لقد فتح درجا مسحورا فى أحد ضوانيه ليطلعه على الخفايا التى لم تكن سوى أعداد مركومة من مجلة اللطائف والتنكيت والتبكيت !

— أين نحن الآن ياسيدى من هذه الأيام ؟ رحم الله « نديم » ورحم أيامه .

— هل عرفته ؟

— رأيته مرة أو مرتين ولكنى لا أنساه !

وكادت دموع نديم تفضحه ، ولكنه تماسك حين قال العمدة :

ولكننى لا أغفر له عدم ثقته بطائفة العمد والأعيان !!

— ليسوا جميعا مثلك !

— ولكنه لم يكن يفرق ، كان رحمه الله مندفعا !

— وهل أنت واثق من موته ؟

— الله وحده يعلم .

— ولكن هل كنت تعرفه ياشيخ شهاوى ؟

* * *

واستقر المقام بنديم فى الجميزة ، كانت تلك قرية صغيرة ، ولم يعد الشيخ ابراهيم الشهاوى يحرص كثيرا على تنكره ، وقد وجد فى العمدة خير صديق ، وكان كل شىء هنا يشجعه على المقام طويلا ، بل وعلى الخروج أحيانا للتنزه بين الحقول بصحبة العمدة وخادمه صالح !.

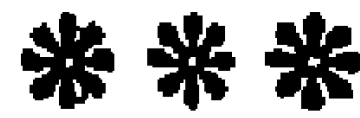
وفى الجميزة كان يعيش رجل اسمه حسن الفرارجى قضى حياته مخبرا سريا فى البوليس ، وشارك فترة فى البحث عن نديم ،

وحين بلغ سن المعاش أعفى من وظيفته ، ولكن لم يعف من طبعه ، كان الفضول قد أصبح جزءا منه وكان يعرف صالحا منذ استقر فى قريتهم ولكن علاقته بالرجل الغريب المسمى ابراهيم الشهاوى أثارت فضوله فراح يسأله عنه ، وكان من الممكن أن يمر الموضوع لولا أن أحس بغريزته المدربة أن اجابة صالح ، أو ربما حرصه على عدم الاجابة يخفى سرا ، وحيث لم يكن لديه ما يشغل به نفسه ، فقد شغلها بالتحرى عن حقيقة هذا الزائر الغريب ، فأخذ مكانا فى مجلسه ، وراح يتسقط من أحاديثه معه ومع صالح ما يجعله على مثل اليقين من أن هذا الرجل هو أحد الهاربين من الحكومة !

هل هو نديم ؟

وفى حذر أبلغ الجهات المسئولة ، وفى حذر أشد أرسلت الحكومة قوة من البوليس طوقت القرية !

وفى مساء ٢ اكتوبر سنة ١٨٩١ وعلى غير انتظار وجد نديم اجابة للسؤال الذى كان يقلقه دائما : الى متى تستمر هذه الرواية الغريبة ؟



وعاشت مصر كلها مع الخبر المثير الذى تناقلته الصحف ، وخاصم النوم عيون الناس بين الأسئلة والأجوبة ، عن الماضى والمستقبل أين كان ؟ وماذا سيفعلون به ؟ وكيف قضى هذه السنين ؟ وفى انتظار تحقيقات البوليس بدأ الشعب يحقق قضية نديم ، ويكتشف انها ايضا قضيته ! وفى حجرة صغيرة بمركز السنطة احتجز نديم ، كان هو نديم هذه المرة ، وبالتأكيد كان سعيدا لأنه أصبح نفسه مرة أخرى ، وكان بمقدوره هذه المرة أن يسمع تصفيق النظارة للممثل العظيم وهو لم يخلع بعد ملابس الدور الأخير ، وكان

الذى يحقق معه شاب رقيق مهذب اسمه « قاسم أمين » سمح له بالقهوة والتدخين وبالصحف ، وبأن يكون حرا فى كل اقواله !

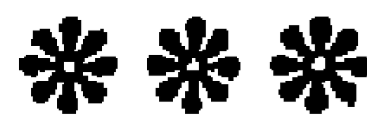
ولاول مرة منذ ما يزيد على تسعة أعوام نام نديم دون أن يفكر جزء من عقله فى أنه قد يستيقظ فجأة ليجد البوليس محدقا به !

ونعم لحظات بذلك الشعور النادر الذى لم يعرفه طوال حياته كلها ، ذلك شعور بأنه لم يعد مسئولا عن شىء حتى ولا عن نفسه !

مسئولية واحدة تحملها نديم فى اصـــرار بعد الليلة ، هى مسئولية هروبه واختفائه ، ولقد أدى تحمله لهذه المسئولية الى اطلاق سراح كل من اعترف خادمه بأنهم فتحوا بيوتهم لنديم ، فقد أصر على أنه لم يدخل بيوتهم بوصفه « نديم » بل بوصـــفه عالما حجازيا أو مغربيا أو ما شاء من صفات وأن أحدهم لم يكن يعرفه حقيقته !

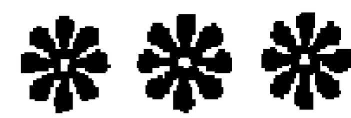
وانتهت مسئولية المحافظة على حياة نديم بعد القبض عليه الى شعب مصر ، فخرجت جميع الصحف تطالب بالعفو عنه ، وبالافادة منه !

واجتمع مجلس الوزراء ليصدر قرارا بالعفو عن نديم وايضا بنفيه الى الشام ممنوحا معاشا كافيا ليقضى حياة مستقرة !!



واختار نديم منفاه ، وهناك نزل أياما فى ضيافة السيد على أبو المواهب مفتى يافا ، ثم أصبح له مجلس خاص ، وهرع الناس الى مجلس نديم الذى أصبح أسطورة الشرق ، والناس فى كل مكان لا يختلف تقديرهم للذكاء والثقافة والظرف ، فتلك عملة لا تفقد

قيمتها وراء أية حدود ، ثم انهالت على نديم الدعوات ليزور فلسطين ويتجول فى مدنها ، وربما كانت أول رحلة حقيقية يقوم بها نديم كرحالة حقيقى ! يشاهد ويتأمل ويسأل ويمتع الطرف ولا يتلفت خلفه الا ليستعجل صديقا أو يلقى نظرة وداع على مشهد أثير ، وكان نديم قد ألف كتابا اسمه « كان ويكون » عن تاريخ الرسالات والرسل ، وكان جديرا به الآن أن يرى بعينيه آثار أولئك الذين كتب عنهم ، وعاش يتعلم منهم كيف تنتشر العقائد ، وتؤلف الجماعات وتبنى الدول !



وكان كل شىء هنا فى فلسطين ، كانت تلك أرضا مقدسة وكان كل شبر يحمل ذكرى موقف ، ويجسد معنى حياة ! ومضى يتأمل كل شىء فى فضول الرحالة وذهوله معا ! وزار بأعلى جبل جارزيم مجمع السامرة ، والتقى بكهنة هذه الطائفة ، وناقشهم وقرأ لهم ، ولم يكن ثمة ما يستعجله ، كان يربط الزمان بالمكان ، وكانت الدنيا أكبر من كل ما رأى ، ولا يزال هناك ما ينبغى أن يتعلمه ، وحين بلغه أن الخديوى توفيق لقى ربه ، وأن ابنه عباس الثانى ولى الأريكة الخديوية ، وأنه أصدر عفوا عنه لم يتعجل العودة .. آثر أن يتم رحلته ، كانت تلك أول اجازة حقيقية يحصل عليها نديم فى حياته ! وكان فى حاجة الى مثل هذه الاجازة فلم يكن يدرى على وجه التحديد ماذا ينتظره حين يعود الى مصر ؟



الجــزء الخــامس

ويتضمن ما قام به نديم بعد عودته
من المنفى الأول في يافا الى قضائه
في المنفى الأخير بالاستانة

العـــودة من المنفى

لم يبق نديم طويلا فى بيته بالاسكندرية يستقبل وفود الزائرين والمهنئين !

لقد سمع منهم ، وسمعوا منه ! وكانت القصة التى رواها لهم عن اختفائه طريفة ، ولكنها ساذجة ، أو هكذا تبدو له الآن !

أما القصة التى كان يسمعها منهم فلم تكن طريفة ولا ساذجة ، وكانوا يحدثونه عن مصر خلال سنوات اختفائه ! وكان واضحا انهم لا يروون قصة واحدة ، وكان واضحا أيضا أنه لا يهتم كثيرا بالوقائع والأحداث التى يعرف عنها الـــــكثير ، بقدر ما كان يهتم بأصدائها فى نفوسهم .. فى نفوس محدثيه !!

وحين كانوا يسألونه فى نهاية كل جلسة :

— والآن ما الذى تنوى أن تفعله ؟

لم يكن يجد اجابة واضحة أو مريحة ، وكثيرا ما كان يكتفى

بأن يعيد السؤال عليهم بصيغة أخرى ، فى انتظار بعض الوقت ليرى ويفكر !!

كانت الحرية أملا ، والآن أصبحت مشكلة ، ولكن كيف يكون المرء حرا فى وطن مستعبد ؟ وكان ذلك مجرد سؤال ! وتنقل بين القاهرة والاسكندرية ، والتقى بمزيد من الأصدقاء هنا وهناك ، وقلب الصحف التى كانت تصدر آنذاك ، وعرج على بعض المقاهى ، وهبط فى بعض القرى ، كان به توق الى أن يرى الناس كما هم دون أن يخافهم أو يخافوه !! دون أن يخدعهم أو يخدعوه ! وفى كل خطوة كان ثمة من يتبعه من رجال البوليس السرى ولكنه لم يعد خائفا ، ولم يكن ذلك يعنى أن الخوف قد انتزع من تحت جلده !

* * *

لقد تلاشى ذلك الخوف المحدود على نفسه ، ليحل محله خوف أشد وأعمق على الناس ، خوف لم يستشعره بهذه الضراوة حين كان معنيا بالمحافظة على وجوده لا غير !

أما الآن فان ما يخيفه هو أن الناس أصبحوا لا يبالون أو يخافون أى شىء !

كان ثمة نوع من البلادة والذهول يخيم على كل شىء ، يزيحه الناس بجهد ليسأل بعضهم « نديم » ذلك السؤال التقليدى :

ــ والآن ما الذى تريد أن تفعله يانديم ؟

* * *

وقال له صديقه أحمد سمير :

ــ لشد ما تغيرت يا نديم !

وكان ينظر دهشا الى وجهه وملابسه ، وكان نديم آنذاك يرتدى زى الاشراف ، عمامة خضراء ، وكاكولة داكنة ، ولا يخفى عن الناس قصة نسبه الشريف ، وفى عينيه بقايا بريق يومض حين يبتسم ، ولأول مرة كان نديم يستعيد صوته الطبيعى ، ولهجته العادية وايضا حركته التى غدت أبطأ واثقل !!

ــ سبحان من يغير ولا يتغير !

قالها نديم وهو يتنهد ، ثم انه عاد يسأل عن بقية الأصدقاء الذين لم يلتق بهم بعد ، وكان السجن لا يزال يحتفظ ببعضهم ، بأعزهم ، بمحمود واصف !

ــ ولكنى لن أغفر لك يا نديم انك لم تحاول أن تتصل بى الا بعد سفرك الى يافا !

ــ ياصديقى الطيب ، لم أتصل بمن يعرف الناس صلتى بهم .

ــ لكن ما الذى تنوى أن تفعله يا نديم ؟

ــ وما الذى تفعله أنت الآن ؟

ــ أعمل مدرسا ! .. وضحك نديم قائلا :

ــ أبحث لى عن وظيفة فى مدرستك !

وخيل لأحمد سمير أنه لا شىء قد تغير فى الرجل سوى جلده وملابسه ، ولم يقو على الضحك معه !!

* * *

قال له أبوه فى ضيق :

ــ لم تعد شابا يا بنى ، ولم أعد أحتمل فوق ما احتملت ، فلماذا لا تدعنى أقضى فى هدوء بقية أيامى !

ـــ يا أبى أنت أكثر شبابا منى !

ـــ كنت أظنك تعلمت شيئا مما جرى لك ولنا

ـــ لقد تعلمت الكثير ! ثم أضاف مقاطعا أباه الذى التمعت عيناه بالغضب ، مقاطعا غضبه :

ـــ ثق أنه لن يكون فى هذا المشروع ما يسبب لك أو لى أى ازعاج ، أنه مجرد عمل أتسلى به !!

ـــ وهل تظنهم يسمحون لك باصدار مجلة جديدة ؟

ـــ ربما لا يسمحون لى ، ولكنهم قد يسمحون لأخى ، ستكون باسمه .

ـــ طبعا حتى أفقدكما معا .. كأن ما حـــدث لنا جميعا ، وبسببك لم يكن كافيا !!

ـــ ثق يا أبى .. !

ـــ اننى واثق من شىء واحد ، هو انك مجنون ، وأن جنونك يكبر معك !

ثم ان أباه صمت فجأة ، وهدأ فجأة كذلك ، وكانما ادرك أنه اندفع أكثر مما ينبغى ، فعاد يســـــأل « نديم » فى هدوء مترددا معتذرا :

ـــ لكن ما الذى تريده يابنى حقا بهذه المجلة ؟؟

* * *

ولم يكن ابوه وحده هو الذى يلقى بمثل هذا السؤال !

وفى الواقع أن عودة نديم قد جعلت الشعب كله فى حالة انتظار وترقب لما يفعل نديم ولما يكون ؟

الأصدقاء القدامى ، والأعداء القدامى ، الذين قرءوا «التنكيت والتبكيت » و « اللطائف » والذين استمعوا اليهما ، الذين رأوا « نديم » مرة ومرات فى بلادهم ، أو فى الحـرب ! الذين أخفـوا « نديم » وهم يعرفونه ، والذين أخفوه بلا معرفة ، والذين سمعوا عنه لأول مرة من خلال قصة اختفائه العجيبة !

* * *

ان عقدا من الزمان قد انقضى ، والتلاميذ الذين كانوا يتعلمون القراءة والكتابة فى مدارس نديم قد أصبحوا شبابا .. والأطفال الذين ولدوا فى عام الثورة يتعلم بعضهم الآن ما يريد لهم الانجليز أن يتعلموه ، والشباب قد اكتهلوا ، والكهول صاروا شيوخا !

والثورة التى بدأت كحلم ، وانتهت مثل كابوس ، أخـــذت مكانها فى سباق التاريخ ، وأصبحت جرحا وحرجا ولغزا يختلف الناس فى تفسيره .

وأوربا التى كانت تتسلل الى مصر خلف القروض ، وفوق مراكب التجارة ، وداخل صندوق الدين ، اختصرت فى دولة واحدة هى انجلترا التى ألغت المراقبة الثنائية ، ولم تعد سيطرتها على مصر فى حاجة الى اقتناع أو تبرير أو شريك !!

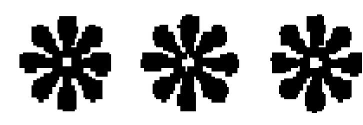
***

والأعيان الذين انقلب بعضهم على الثورة حين بدأت العواصف تهب ، بحثا عن الامان !! يواصلون نفس البحث : ويجدونه فى اهتمام المستعمر بزراعة القطن ليوفر لمصانعه المادة الخام ، وليوفر لهم دخلا ثابتا منتظما !!

والفئات الصغيرة التى عرفت يوما قوة التجمع التى تكون لها حين تضع قرشا فوق قرش ، عادت كما بدأت مجرد شراذم تسحقها قبضة الحياة اليومية فى الحقول والدكاكين والمشاغل !

وحفنة المثقفين الذين وعوا ذات يوم حلم الثورة ، أغلق بعضهم خلفه أبواب بيوتهم بعد ان لفظتهم أبواب الادارات الحكومية التى كادت تصبح وقفا على الأجانب !

وراحوا يتسلون بالكتب القديمة وبنبش الذكريات التى أصبحت قديمة ، أما الباقون فبينما شغل بعضهم بالصحافة فقد شغل البعض الآخر بالتدريس ، وهنا وهناك كان شعار الجميع تلك الحكمة القديمة القائلة ، « ان ما لا يدرك كله لا يترك كله » .



أما الخديوى الجديد « عباس الثانى » ذلك الفتى الذى لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره ، والذى كان صبيا حين زار مدرسة نديم فى الاسكندرية ، فقد أحسن استقبال نديم حين عاد من منفاه !!

والمح فى لباقة الى تذكره لهذه الواقعة ضمن حديثه الودى مع نديم ، كما الح الى جهود نديم الوطنية فى الماضى وما يمكن أن يقوم الآن من أجل مصر فى ظروفها الدقيقة الراهنة !!

وكان ذلك كله فوق ما ينتظر نديم ، ولقد تجنب فى لباقة موأقف نديم من أبيه ، مؤكدا اننا فى عهد جديد تماما ، هذا الخديوى الجديد الذى أيقظ أحلامه القديمة وشكوكه القديمة فى وقت معا ، كان أكثر جوانب الصورة التى رآها نديم لمصر بعد عودته اشراقا !!

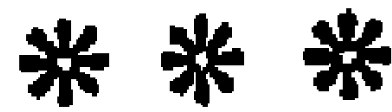
وكانت تلك هى الانطباعة الأولى التى رآها نديم للشعب الذى أصدر له العدد الأول من مجلته الجديدة يوم الثلاثاء ، ٢٣ أغسطس سنة ١٨٩٢ ، والتى أسماها « الأستاذ » .

الأســـــتاذ

وأسبوعا بعد أسبوع كان اللقاء يتم بين الماضى والحاضر ، بين الجزء والكل ، بين الأستاذ والناس !

وقال بعض الناس : مدرسة أخرى جديدة من مدارس نديم !

وأكمل البعض الآخر : بعد أن أصبح غير قادر على افتتاح المدارس !



وكان فى كلام الجميع بعض الحق ، لقد بلغ نديم الخمسين من عمره ، وحتى لو سمحت له صحته برحلات جديدة يفتتح فيها الجمعيات والمدارس ، فهل يسمح له الانجليز ؟ ولم يبق أمامه سوى أن يجعل من مجلته مدرسة بلا أسوار ، وبأجر زهيد ، وهو وحده كل من فيها من المعلمين ، وأن يجعل من قضية الشعب مرة أخرى مشكلته الشخصية ، ودرسه المفضل ، وأن يمزج على طريقته بين ما يريد أن يقوله ، وما يريد الناس أن يسمعوه ؟

ما الذى يريده الناس ؟

أشياء كثيرة بالتأكيد ، فى أولها أن يعرفوا شيئا عن قصة اختفائه العجيبة ، ذلك أمر يحبه كل الناس فى كل وقت ، ليكن لهم هذا ، على أن يتوزع على أعداد المجلة ، ذلك أمر تقتضيه الصنعة ! وعلى أن يدرس فيه المعنى الحقيقى فى قصة اختفائه لا باعتبارها بطولة فرد بل بطولة شعب ، فالشجاعة كالجبن كلاهما مرض اجتماعى شديد العدوى ، وذلك أمر يعنيه هو .

وليكن ذلك كله بطريقة تؤدى الغرض ، وكان ضمن أغراضه الا يحرج سلطان الحكومة التى عفت عنه ، وسمحت لمجلته بالظهور .

ما الذى يريدونه أيضا ؟ ذلك أمر يختلف باختلاف كل فئة وطبقة !!

***

ولكن الجميع بالتأكيد ، ان لم يكن بدافع الوطنية فبدافع الفضول يريدون أن يعرفوا صورة الحاضر والمستقبل كما يراها ذلك الرجل العائد من منفاه ، والذى كان جزءا من الثورة واذا كان اختفاؤه لغزا ، فان الطريقة التى يمكن أن يواصل بها ظهوره فى ظروف الاحتلال ، تبدو لغزا أشد غموضا !!

واذ اقتربت عودته من عودة حاكم جديد فان عيون الناس راحت تنظر هنا وهناك ، وأيضا تنتظر !

ولم يكن نديم يريد أفضل من هذا الجو ليبدأ روايته الجديدة ! ليعيد الى الحياة شخصياته القديمة التى عرفها الناس فى حواريات « التنكيت والتبكيت » ، وما أقرب الظروف التى ظهرت فيها بالظروف التى فيها تعود ، لقد اختفت حين بدأت الثورة ، والآن — حيث يلوح ان كل شىء قد انتهى — لم لا تعود لتواصل من جديد مسيرتها التى تأخرت بعض الوقت ؟

لم لا تعود ، وتعود معها مشكلاتها القديمة والجديدة ؟

ويعود الحوار الأسبوعى بينه وبينها أو بين بعضها البعض الآخر ، حوار بلغة الشعب وفكره وخبرته ومرحه .

***

وهكذا ، وعلى نحو هادىء عادت الى الحياة هذه المجموعة من صعاليك نديم وشخصياته ، « حبيب والمعلم حنفى وسعيد وبخيتة ، وحنيفة ولطيفة ودميانة ، وزبيدة ونبوية ، وعمارة والزناتى » ، فلاحون وصناع وخدم وزوجات ، وأزواج ، وبنات وتلاميذ !

شخصيات قديمة وشخصيات جديدة ، تثرثر وتتشاجر وتشكو وتضحك وتعانى وتعكس مشكلات الحاضر والماضى ، وتبحث عن طريق للخلاص .

كل هؤلاء هم جيش نديم قبل أن يصبح جيش الدولة ، اداته لتحقيق الثورة والتقدم ، واذا كان جيش الدولة قد هزم ، واذا كانت الدولة الآن خاضعة لجيش الاحتلال ، فأى شىء يمنعه من أن يعود لقواعده ؟ من أن يجمع فلول جيشه الشعبى !

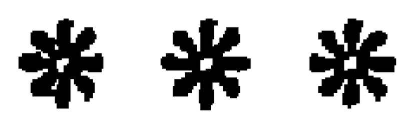
لكن لأية معركة ؟

للدفاع عن أنفسهم ! ففى الواقع أن جيش نديم الشعبى قد تعرض هو الآخر لهزيمة من نوع أشد !

***

ذلك أن الدولة التى هزمت الجيش المصرى فى « التل الكبير » لم تقنع بهذا النصر العسكرى ، لقد خلع الأوربى المنتصر خوذته ، ووضع سلاحه جانبا ، وارتدى بذلة من نوع ردىء وتمنطق بمريلة بيضاء ، وتسلل الى مراكز مصر وقراها يفتح هنا وهناك محلا تجاريا يعرض بضائع أوربا ، وبجواره برميل من الخمر الرديئة ،

وأمام الدكان بضعة مقاعد من القش سوف تكون نواة لمقهى تخدم فيه زوجته أو ابنته زبائنه من القرية أو المدينة ، وبجواره أيضا خزانة حديدية سوف تكون نواة لبنك صغير ، يجمع رأس ماله من زبائن الدكان والمقهى ثم يعيد اقراض نفس الزبائن نفس الأموال بأفظع نسبة من الربا وفى وقت قريب يصبح هذا الوافد الغريب المالك الحقيقى لأرض القرية وعقار المدينة .. كانت البذرة التى بدأ نديم حربها فى الماضى قد اصبحت غابة مظلمة ، وكان جيشه الشعبى قد أوشك أن يفقد ثروته ، وهى سلاحه ، ثم أنه يوشك الآن أن يفقد شخصيته ووطنه ، وقديما كتب نديم : « أن من فقد المواطن فقد الوطن » . واذ كانت هذه المجموعة من صعاليك نديم وشخصياته تصنع فى النهاية شخصية مصر ، فقد كانت مصر تفقد هذه الشخصية عاما بعد عام ، ودون حرب وهى تلبس ، وهى تأكل ، وهى تتكلم ، وهى تتعلم ، وهى تشترى ، وهى تبيع ، وهى تسكر ، وهى تمرح ! وكان على نديم أن ينقذ هذه الشخصية من الانحلال لتصبح قادرة على مواجهة الاحتلال وصنع التقدم !!



واسبوعا بعد أسبوع ، كانت ترد اليه رسائل القراء ، القدامى ، والجدد ، انهم يذكرونه بالزيارات واللقاءات والمناسبات ، كيف يمكن أن يكون المرء صديقا شخصيا لمثل هذا العدد من الناس ؟ وكانت رسائلهم هى التى تعطيه هذا الانطباع ! ويدرك نديم على نحو مريح أنه لا يصيح فى البرية ، ان صعاليكه لهم فى مصر أقارب وأصدقاء ، فقد كانت بعض رسائل تصل بأسماء هذه الشخصيات ، وتتحدث معها رأسا وتناقشها دون أن تلتفت الى نديم ، كان الشعب المصرى قد هزم ، ولكن روح الفكاهة لم تهزم

فيه ابدا ، وكانت تلك طريقته فى مداعبة نديم ، وبدأ أصحاب المواهب فى اكتشاف مواهبهم ، ويعبرون بالازجال والاشعار عن كل شيء ، عن مشكلات المجتمع ، وعن رغبتهم فى أن تصل اليهم « الأستاذ » ماجنا على حد سواء !!

هل يتغير الناس أم أنهم لا يتغيرون أبدا ؟

ها هو الصوت القديم يعود ، والحوار يتجدد ، وانفاس الحشد وعيونه تومض وتلتهب بنفس البريق والحرارة من بعيد .

لقد تبددت الحشود ولكن لا شيء يجمعها من جديد مثل الكلمة الصادقة ..

وحين يلتقى نديم بالمعلم حنفى فى احدى حوارياته ويسأله :

ـــ « أنا من نهار ما جيت وانا ادور عليك ، ازاى حالك اليوم ؟ ان شاء الله تكون الصنعة وياك مبحبحة ، والزهر مشخشخ شوية !!

يجيبه حنفى بسؤال آخر :

ـــ انت فتنى وانا فانهوكار ؟

ـــ فى انهوكار ؟ انت فت الشبكشية ؟

ـــ مافتناها من زمان ! .. سبحانك يا دايم ، من يوم ما طلعت السيجارة اتقفلت بيوتنا وقمت عملت خراط ، وقعدت اشتغل كراسى ، جولنا الجماعة الالافرانكة وعملوا الدرابزينات الحديد والشبابيك الامريكانى فبطلت صنعتنا فرحت عملت فوطى وشغلت المر لما تعلمت القزازة ، التفتنا لقينا الفوط جايا تفتل من بلاد بره معمولة من القطن الكهنة اللى بياخدوه من عندنا .. »

ويمضى المعلم حنفى يروى لنديم كيف تنقل من صناعة الشاهى والقطنى الى صناعة النحاس ، وفى كل صنعة تطارده المصنوعات الأجنبية التى يفضلها الأهالى !

وحين يسأله نديم :

ــ بقى العمارة بقت على الحديدة ، مابقاش عندنا صنايعية أبدا ؟ يجيبه المعلم حنفى ساخرا :

ــ الحمد لله لسة الزبالين منا والحمارة والشيالين والخدامين ومساحين الجزم والبوابين ، وشوية عطارين على كام بتوع بفنه ، وبياعين طعمية وكرشة ، وفجل وكرات !!

***

ولم تكن تلك هى الطريقة الوحيدة لانقاذ الشخصية المصرية ، واذ كان صعاليك نديم يمثلون الملامح الرئيسية لهذه الشخصية ، فان السادة بدورهم يمثلون بعض هذه الملامح الرئيسية ، وكانت له طريقته أيضا فى مخاطبتهم ..

أنه يكتب لهم بأسلوبه الحاد المباشر مباحث اخرى عن الشخصية ، وكيف تتكون من مجموعة من العادات ثم يكتب عن العادة والخلق ، وكيف يتكونان بالتقليد الذى يخضع فيه الضعيف للقوى ، والمهزوم للمنتصر !

ثم يوضح الوظيفة الأساسية للعادة ، وكيف تبدأ فى الأصل كاستجابة صحيحة لظروف معينة ، وكيف يمكن أن تصبح نفس العادة عقبة فى سبيل التطور حين تتغير الظروف ، والتقليد فى ذاته ليس خطأ ، بل هو أساس التطور الناجم عن الاختلاط بين الأمم ، لكن المشكلة هى ماذا نقلد ؟ كيف نختار ما يلائم ظروفنا ، ما يساعدنا على التقدم ؟؟ فليس كل جديد صوابا ، وليس كل قديم خطأ ، المهم أن يختار الأنسب من هنا ومن هناك !

« لماذا لا نقلد الانجليز فى طريقتهم فى تكوين الجمعيات والشركات ؟

لماذا لا نقلدهم فى الحرص على الثروة ، وفى طرق استثمارها؟ لماذا لا نقلدهم فى تكوين العصبيات السياسية ، فلقد تخلل الانجليز ممالك الدنيا بأعمال حزبى المحافظين والاحرار وأحكام سيرهما فى توحيد الوجهة الملكية مع اختلاف الوسائل المؤدية للمقصد الاجتماعى ؟؟

لماذا لا نقلدهم فى الحرص على اللغة والدين وهما أساس التماسك فى الامة ؟ »

***

وكانت أفكار نديم حول هذه المسائل قد تبلورت خلال سنوات اختفائه ، وكان بمقدوره أن يرجع الى مدوناته فى هذه الفترة ، فلا يعجزه أن يحرر وحده المجلة كلها من الغلاف الى الغلاف !!

وكانت فكرة التقدم التى ظل نديم يغازلها طوال حياته..قد خضعت له الآن ، وأخذت مكانها فى اطار فهمه لمعنى التطور خلال التاريخ !!

ويتصدى نديم للاجابة على السؤال الذى كان من أكبر همومه واقدمها ، وجعله الاحتلال سؤال الوقت !

« بم تقدموا وتأخرنا والخلق واحد ؟؟ »

***

وبقدرة لم تكن لتتاح له قبل الآن يضع الاجابة واضحة للسادة والصعاليك معا ، ذلك أن التقدم دائما نتيجة جهد جماعى وتجميعى ، أنه ليس وقفا على دين أو جنس أو أرض أو طبقة أو فئة ، وكانت نقطة انطلاقه هى ايمانه بقدرة الانسان كانسان على صنع التقدم ،

ولكن سر التقدم لا يكمن فى صيغة واحدة ، كالعلم أو الدستور أو الحرية أو العدل أو الثروة ، أو الثورة ، أن سر التقدم بمعنى من المعانى يكمن فى شكله ، أنه هو الآخر يأخذ شكل الدائرة المتصلة التى لا يغنى فيها جزء عن آخر !!

فالعلم يحتاج الى المال ، والمال يحتاج الى العمل ، والعمل بدوره يحتاج الى العلم ليطوره ، والى القانون لينظمه ، والى الحرية لتمده بروح الخلق والابداع !!

***

والشركة هى افضل الصيغ لتجميع الثروة ، والصناعة هى افضل الوسائل لتنميتها ، ولخلق المناخ الملائم للعلم وتستمر الدورة ، ولكنها ليست دوره واحدة ، فكرة الوطنية المصرية التى انبثقت عنها الثورة تتطور هى الأخرى فى عقل نديم وفى مجلته ، لتعانق فكرة التقدم ، وتصبحا معا وجهين لعملة واحدة ، فالوطنية ليست تجمع الأمة فى مكان متكثرين متضامنين ، انها التجمع الذى يستخدم العلم ويستثمر المال فى التجارة والصناعة ، ويحترم حرية الفكر ويجد فى توحيد اللغة أساسا لتوحيد الأمة !

واذا كانت الشركة هى افضل الصيغ لتنمية الثروة ، فان الحزب هو افضلها لتنمية الراى العام والحياة الوطنية ، كانت تلك دورة أخرى ، وكانت كلمة السر فى كل دورة هى أنه لا يغنى فيها جزء عن آخر !

كان ذلك هو نديم الأستاذ الذى يرى انه فى بلد كمصر يموج الآن بمختلف الأجناس والأديان واللغات ، تبدو فكرة الوطنية المصرية أمثل الحلول لمواجهة آلاف المشاكل ولتحقيق تقدم مصرى يعتمد على الشخصية المصرية !!

***

الأســتاذ والنــاس

ـ ليس هذا ياسيدى ، هو كل ما ينتظره الناس من «الأستاذ»

وتمهل الشاب النحيف العصبى الذى كان يتحدث الى نديم ، محاولا أن يتلمس تأثير كلامه عليه ، ولعله وجد ما يشجعه على أن يندفع مكملا :

ـ ان يجلس ، ويكتب لهم عن « التقدم » و « الحياة الوطنية » ان ما تكتبه ياسيدى عظيم جدا ، ولكن ما تستطيعه أكثر جدا ما تفعله ، وما يحتاجه الناس أكبر مما تقدمه !

ثم ان الشاب الجم نفسه ، وبدا على ملامحه شعور مباغت بالأسف وهو يتدبر اندفاعه فى قوله ، وراح يحدق فى مجموعة الشباب التى كانت تجلس معه حول نديم محاولا ان يجد فى وجوههم صدى لما قاله !

لقد طلبوا منه أن يتحدث باسمهم ، كان بعضهم من تلاميذ نديم ، وبعضهم من قرائه ومحبيه ، وكانوا قد كونوا جمعية جديدة

بالاسكندرية ، اسموها « العروة الوثقى » ، وكانون يريدون أن يؤكدوا لنديم ما ظنوه فى شك من أمره وهو قدرة الشباب على أن يواصل طريقه ، ولكنهم كانوا يريدونه أن ينفى لهم ما باتوا فى شك منه ، وهو قدرته على أن يتقدمهم كما كان فى نفس الطريق ، وكانوا على مثل اليقين من أن مجرد وجوده بينهم ، وسط الجماهير سوف يكون له فعل السحر ، هل ثمة قيود على حريته ؟ هل تقدمت به السن ؟ هل اصبحت الكتابة هى كل ما يقدر عليه ؟ ما حقيقة موقفه من الخديوى الجديد ؟ ان الشعب كله بدأ يشعر بمواقف الخديوى الوطنية التى اقربها عفوه عن نديم ، وتحديه المتكرر لسلطات الاحتلال البريطانى ، واقترابه من الشعب ، وزياراته للمدارس ، واحتضانه لذلك التلميذ الملتهب حماسة ووطنية مصطفى كامل .



فكيف يكتفى نديم وسط هذه الظروف بمجرد الكتابة ؟ لقد قلبوا بينهم هذه الأسئلة ، واقنعهم الشاب النحيف العصبى بقدرته على ان يواجه بها كلها « نديم » ، وان يقوده اليهم وهاهم جميعا غارقون فى صمت كئيب مثقل ، لقد الفوا جمعية صغيرة لم تفعل بعد أى شىء ، فاذا بهم يعطون انفسهم الحق فى أن يحاكموا الرجل الذى صنع ثورة وخاض حربا ، وابن ؟ فى بيته ؟ وخيل اليهم انهم رأوا فى عينيه .. فى أغوار عينيه ، بريق دمعة خافتة ، الشاب النحيف العصبى الذى لم يقدر على ان يتطلع الى نديم بعد ما قاله هو الذى لم يبصر بريق الدمعة الخافتة ، لكنه سمع صوت نديم المثقل بنبرة أسى :

ـ لم أسمع منذ سنين طويلة كلمات ردت الى روحى بما ردتها كلماتكم الغاضبة !

ورفع الشاب النحيف العصبى رأسه غير مصدق ، واستطرد نديم فى هدوء :

ـــ ولكنى ساكون حزينا ما حييت لو تصورتم لحظة واحدة أن اى مشروع أو فكرة سوف يتوقف وجودها على وجودى !! يكون الاستاذ قد فشل والتلاميذ أيضا .

ثم انهارت السدود فجاة ، وبدأ الحديث ...

***

ولم يكن نديم فى السن التى تسمح للعواطف بأن تغلبه على امره ، ولكن هذه المجموعة من الشباب ردت اليه شبابه ، وقبل هذا اللقاء كان نديم قد بدأ يشعر بأن شيئا ما يتحرك تحت سطح الحياة المصرية الساكن ، بدأ هذا الشىء فى رسائل القراء التى كانت تخزه هى الأخرى بأسئلة مشابهة :

ـــ لماذا لا تجىء الينا ؟

ـــ الخواجات الآن هم الذين يتنقلون فى القرى وجيوبهم هى صناديق اقتصادك فلماذا أنت قابع هناك فى الاسكندرية ؟ هل أنت خائف ؟؟ هل نسيت كل شىء ؟؟

ـــ الخديوى يتصل بالشعب فما الذى تخشاه ؟

ثم ان جماعة من الشباب اعادوا تنظيم الجمعية الخيرية التى بدأ بها نشاطه فى الاسكندرية ، وجماعة اخرى فى أسيوط كونوا جمعية « الكمال » ، وكتبوا اليه بما فعلوه !

ولم يكن نديم خائفا ولا حتى ســـــبعيدا ، كان رجلا مثقلا بالتجربة ، ولم يكن يود أبدا أن يفقد بذور التجربة التى خســـــر ثمرتها !

ولقد فكر بعض الوقت أنه لو نجح فى ان يضع هذه البذور فى أرض صالحة وقبل ان يدفن الى جوارها لقضى قرير العين ، ولكن

شيئا ما يتحداه الآن ، يتحدى غروره وتواضعه معا ، يتحدى حتى تجربته ، وتساءل نديم فى شك من أمره :

ــ هل أصبح رجلا كل ما يقدر عليه هو أن يلهو بالكلمات ؟

ولم يكن نديم بعيدا عما يقوله الخديوى الشاب ، ولا مايفعله ، ولكنه كان دائما يفكر فيما ينطوى عليه سـلوك ذلك الفتى الذى يبلغ الثامنة عشرة من عمره ، وفيما تنطوى عليه ردود فعل المعتمد البريطانى الداهية « اللورد كرومر » لهذا السلوك !

***

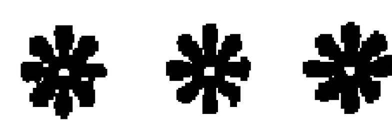
وكانت ثمة مباراة خفية بين العواطف الملتهبة لفتى حالم ، وجد نفسه فجأة حاكما لبلد يحكمه غيره ، وبين عقل بارد مجرب لرجل قدر له فى وقت واحد أن ينفذ فى مصر سياسة الامبراطورية البريطانية وان يروض ذلك الفتى الغر !

وكان نديم يرقب المباراة بأعصاب قلقة ، تزداد توترا كلما رأى تأثيراتها على جماعة أخرى من الشباب من تلاميذ مدرسة الحقوق كان نديم يلتقى بهم فى منزل « لطيف بك سليم » أحد أعضـــاء الحزب الوطنى القديم !

وكان نديم يشعر أن هذه المجموعة التى يتزعمها فتى نابه اسمه « مصطفى كامل » هى الأرض الطيبة التى كان يبحث عنها لبذوره ، لقد ارتضع هذا الفتى روح نديم ومنطقه لا فى موهبة الخطابة وحدها بل وفى موضوعاتها كذلك ، وكانت أول خطبة له فى أول جمعية عن « فضل الجمعيات فى العالم » وفتح له نديم قلبه ، وقال له كل ما لم يقدر على كتابته آنذاك ، عن قصة الثورة التى كان احد صانعيها وشهودها ، ولكن هذه الأرض الطيبة ، كانت تهتز هى الأخرى بكل ما يفعله الخديوى ويقوله ، كان فى مثل سنهم

ومنطقه اقرب الى عقولهم ، وكان بمقدورهم أن يلخصوا أمورا أحيانا فى مثل هذه الصورة المقنعة فى بساطتها !!

« لقد حكم الانجليز مصر لعشر سنوات من خلال اقنعة مصرية من أمثال رياض ونوبار ومصطفى فهمى ، ولكن لو مارس الخديوى الجديد حقه الشرعى فى اختيار رجل حقيقى لمنصب رئيس الوزراء، فلن يكون أمام الانجليز الا أن يرضخوا ، فتكون تلك خطوة جبارة ، أو يعارضوا فتنفضح أمام العالم دعاواهم القديمة والجديدة ، بأنهم جاءوا لتأييد الحاكم الشرعى ، وبقوا لأن الحكومة تقدر لهم صنعهم في اقرار النظام ! لقد أفاد الانجليز من استسلام الخديوى السابق أما الآن فبمقدور الخديوى الجديد أن يكشف حقيقة تسلطهم فى مصر أمام العالم ، وبالتأكيد ستلقى مثل هذه الخطوة تأييد الشعب ، وتأييد فرنسا وروسيا وتركيا فى نفس الوقت !! »



وكان بمقدورهم أيضا أن يضـــيقوا فى فورة الحماسة وهم يخاطبون « نديم » :

— الست ترى أن ظروفنا تختلف عن ظروفكم ، كنتم تواجهون الخديوى والانجليز معا ، أما نحن فمعنا الخديوى ، وهو قوة عرف الانجليز كيف يفيدون منها فى الماضى ، وسنعرف نحن كيف نفيد منها الآن !!

وكان نديم بالطبع يجد عسرا بالغا حين يحاول ان يوضـــح لهم ان قوة الخديوى الحقيقية تقاس بمدى قوة شعبه ، وقوة الرأى العام فى بلده وأن عليهم أن يفعلوا الكثير فى صفوف الشعب حتى يمكنهم ان يجنوا الكثير من موقف الخديوى !

ولكنه هو نديم لم يعد ينتظر ما يقوم به هؤلاء الشباب ، لقد كانت له أيضا طريقته الخاصة التى يضع بها الخديوى فى مكانه الصحيح من الشعب ، واصبحت له طريقته أيضا التى يضع بها الشعب أمام مسئولياته ، وفى لقاء جديد مع المعلم حنفى ، يبدو المعلم وهو يتحدث عن أشياء محددة هذه المرة وواضحة تماما !

***

— أنا بدى حاجة تبل ريق اخوانا الغلابة ، وتخليهم يشموا نفسهم شوية .. !

نديم :

— زى أيه كده اللى بدك فيه !!

حنفى :

ورشة بولاق أهى موجودة ، ليه مايخدوهاش جماعة من الأغنيا ويشغلوها ، وليه مايخدوش قد عشرة آلاف فدان من أرض الفيوم وللا البرارى ويربوا فيها قد عشرين الف راس غنم ، ينتفعوا بصوفهم للتجارة والصناعة فى البلاد ، ويعملوا من اللبن سمن وجنبة ولبن يابس زى الافرنج ، ويأخذوا من نتاجهم ، ويبيعوا للجزارين ، وليه مايعملوش شركة تعمل ورشة كبيرة تشتغل الأصواف والحرير والبصمة ، وتتعهد الحكومة بأنها تأخذ كل ما يلزم للعسكر والدواوين منهم ، وأمراء البلد يفرشوا بيوتهم ، ويلبسوا من شغل بلادهم ، هيا الافرنج بتضربنا على ايدينا ، وتقول الا تشتروا منا ، ما احنا اللى نستاهل ضرب الصرم !

***

ثم ان « نديم » يكتب هذه المرة موضحا للسادة الصعاليك معا كيف يمكنهم الوصول الى تكوين الرأى العام القوى ، ويعقد محاكمة طريفة للنظر فى دعوى يرفعها الوطن ضد المواطنين ،

وخلال المناقشات والمرافعات ، يقول نديم ما ينبغى ان يقال هذه المرة للشعب وللحكومة وللسادة والصعاليك !!

وحين لا يستجيب الاغنياء لصيحة المعلم حنفى ، يقترح نديم أن تتقدم الجمعية الخيرية التى دبت فيها الحياة من جديد لشرائها . وحين يوضح له الأعضاء انهم لا يملكون المال اللازم يقول لهم :

ـــ اعرف طبعا أنكم لا تملكون !!

ثم انه يقترح أن تقوم الجمعية بدعوة الشعب كله لاكتتاب عام لشـــراء الورشـــة ، ثم يدعو الخديوى لتبنى هذه الدعوة ! ويتحرك نديم هذه المرة وراء الفكرة ، ويتحرك صعاليكه ايضا وراء افكار اكثر تحديدا ..

فسعيد يقول لبخيتة بعد أن ضاقا بالخدمة فى بيوت السادة يوما والتعطل أياما :

« لو كانت الحكومة بدل ما تسيبنا بطالين تجمعنا وتعطينا اراضى بور من الاراضى الميرية فى برية بلقاس ، وسيدى غازى ، والمندرة ، وأراضى البحيرة الواسعة ، وتعطينا مواشى وآلات وتتمنهم علينا ، ولما يطلع المحصول نسدد المطلوب شىء فشىء ، كانت تحيى بينا أراضى كثير وتحيى أنفس كثير ، وسنة فسنة تعمر الأرض ويبقى فيها بلاد ، وتأخذ من أولادنا عسكر ، ومن الصنايعية ويركو ، وتضرب على الأراضى ضريبة ...

واحنا نلم بعضنا ونجوز ونقعد متهنيين !!! »

***

الأستاذ والمعركة

وقال نديم لنفسه : هذا الصوت اعرفه ، ربما لم يكن صوتا، لعله صدى الصوت ، صوته ، وفى كل مرة ارتفع فيها صوته ، كان يرتفع أيضا ذلك الصوت المضاد بنفس الدرجة وبعكس الاتجاه !

اول مرة سمع فيها هذا الصوت كانت حين بدأ يتحرك فى اتجاه الاقاليم ، وقد جاء مجهول المصدر ، يتناقله الناس ، ويهمسون به فى شك :

— هل صحيح أن « الأستاذ » ستغلق ، وانك ستنفى من جديد ؟

— ولكنى معكم الآن ، الا ترون مدى كذب الاشاعة ؟

وتذكر « حسين فهمى » وتذكر أيضا محافظ الاسكندرية القديم ، وبدت الصورة وكأنه لا شىء يتغير كثيرا : لا الخير ولا

الشر ، قد يتغير الأشخاص والأسماء ، واذا كان « حسين فهمى » يجلس الآن فى أحد بارات الاسكندرية ، يشكو لجلسائه أمراض الشيخوخة ، فهناك من يقوم بمهمته الآن ، واذ حرص الانجليز دائما على أن يكون هناك من يحكم باسمهم من المصريين ، فقد حرصوا على أن يكون هناك ايضا من يكتب باسمهم فى الصحف باللغة العربية ، وكانت جريدة المقطم هى التى تقوم بهذه المهمة ، ولقد بدأت معركتها مع نديم همسا بالاشاعات ، ثم جهرا بالمقالات ، تتهمه بأنه يريد ان يشعل النيران القديمة ، ويحرك الغوغاء ضد الانجليز الذين جاءوا ليقروا النظام والمدنية فى بلاد سادها التخلف قرونا ؛ وان نشاطه الاجتماعى ليس الا ستارا لاخفاء نشاطه السياسى الدامى لاشعال ثورة جديدة قوامها التعصب الدينى المقيت !!

***

وضبط نديم نفسه فى مواجهة هذه الحملة ، وبلغة هادئة رصينة راح يكتب تحت هذا العنوان « انما يقبل النصيحة من وفق ! »

وكان أصحاب المقطم شاميين نزحوا مثل غيرهم الى مصر ، يتكلمون عن العواطف المشتركة والمصالح المشتركة ، والهدف البعيد المشترك وقبل أن يصبح بعضهم أقنعة للمستعمرين !

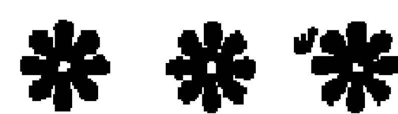
وظل نديم يستخدم نفس اللغة الهادئة الرصينة ، « لم اختلفت كلمتنا اذا اتحدت وجهتنا » ؟؟ ولكن لا احد يريد أن يعى أو يثوب !!

ولم يفقد نديم الصبر وان فقد الأمل ، فكتب بلغة أكثر عنفا « أتتقلب الامم بتقلب الاحوال ونحن نحن ؟ ؟» ولم يكن هناك من يسمع !!

ولم تكن المعركة التى يتكلم فيها نديم بلسان الشعب ويتكلم فيها أصحاب المقطم بلسان الانجليز ، الا المناوشة التى تسبق الحرب الحقيقية ، وقد بدأت هذه الحرب حين أرسل الخديوى الى رئيس وزرائه مصطفى باشا فهمى من يقنعه فى لباقة بأن يقدم استقالته ولكن الباشا الذى كان فى دور النقاهة من مرض الم به راح يقنع مندوب الخديوى بأنه من الخير لمولاه أن يستشير فى هذه المسألة الخطيرة « سير افلن بارنج » لورد كرومر !

وكان مثل هذا الرد وحده ، ودون كل ما سبقه من مواقف كافيا ليقيل الخديوى مع « مصطفى فهمى » وزيرين آخرين للمالية والحقانية لما عرفا به من ميول للانجليز ، وأن يعين « حسين فخرى » باشا رئيسا للحكومة ودون أن يستشير السير افلن بارنج ..

وهبت العاصفة ..



ولكن العاصفة لم تقتلع الخديوى ولا الانجليز ، لقد وقف الشعب كله وراء الخديوى ، ووقفت وزارة الخارجية البريطانية وراء ممثلها فى مصر ، وفى الوقت الذى خرجت فيه المظاهرات لأول مرة فى مصر منذ عشر سنين بقيادة حفنة من طلبة مدرسة الحقوق الخديوية ، وعبرت عن شعورها بأشياء كثيرة ضمنها اشعال النيران فى دار جريدة المقطم ، فى نفس الوقت أرسل وزير الخارجية البريطانية برقية للخديوى يفهمه فيها بطريقة حاسمة انه اقدم على خطوة قد تكلفه عرشه ، وأن حكومة بريطانيا تستجيب لمطالبة ممثلها فى مصر الخاص بزيادة جند الحامية البريطانية بهـا .. !

واسفرت المعركة عن نصف الفوز لكلا الجانبين ، لقد تراجع « كرومر » عن اصـــــرارد على اعادة « مصطفى فهمى » وقبل الخديوى استقالة « حسين فخرى » باشا وعين بدلا منه رياض باشا ، ولكن هذا النصر الجزئى ، الذى اعاد الروح للشـــعب وجعل من الخديوى الشاب بطلا ، ودفع بطوائف الأمة الى قصر الخديوى فى مظاهرات اعادت الى عينى نديم وقلبه احب المشاهد والذكريات : هذا الموقف الجديد دفع « نديم » لأن يبحث لقلمه عن لغة جديدة ، لغة تكمل هذا النصر الجزائى ، لغة لا تكتفى بفضح خداع الانجليز امام العالم ، بل وتفضح من يحاولون رغم كل ما حدث ستر هذا الخداع ، وكانت جريدة المقطم التى احرقها الشعب لا تزال تنفث احقادها هذه المرة بعنف أشد ، فتهاجم المظاهرات ، وتتحدث عن الفوضى التى تهدد البلاد ، وعن قصور المصريين عن حكم انفسـهم !

وكتب نديم فى مرارة :

« أى مانع يمنع المصريين من المطالبة بحقوقهم بالتظاهرات الأدبية ؟ أصـــــرنا أقل درجة من فعلة الانجليز والغزالين الذين تعصبوا لحقوقهم ، وتجمعوا لراحتهم ؟!»

وكتب مرة اخرى :

وهل يعد حضور وفود الامة لتعبر عن تأييدها لحقوق الأمة الوطنية والدستورية اخلالا بالأمن ؟

ومن الغريب اننا نسمع عن اوربا ان النهليست ، تظاهروا وفتكوا بالملك ، والسوشياليست فعلوا كذا ، والكمون فعلوا كذا ، ثم من العجيب الا يعد سعى الاضراب فى قلب الدول ، ولا قتل القيصر ولا هدم الاماكن بالديناميت تهديدا للأمن ، وتعد زيارة الأمة

لأميرها تشـــويشـا للأفكار ، وســـــلبا للأمن العام موجبا لزيادة الحامية ! »

وكان بمقدوره أيضا أن يذكر الانجليز بأنهم برروا احتلالهم لمصر بدعوى تأييد الحاكم الشرعى ، وانقاذه من تسلط العسكريين، وانجلترا الآن هى التى تسلب الحاكم الشرعى أبسط حقوقه وفى الوقت الذى لا يستند فيه هذا الحاكم على غير قوة الشـــــعب الأعزل تقرر هى زيادة حاميتها لتواجه بها قوة الشعب !

وكان بمقدوره أيضا أن يواصل السخرية بالانجليز فى الوقت الذى يخاطب فيه المصريين بهذه اللغة :

« اننى أرجو من مواطنى أن يجعلوا كلامهم فى الاحتلال كلام الحكماء الذين يبحثون الحقائق بفكر صائب ، فان انجلترا دخلت لتأييد الخديوى ووضع حكومة ثابتة كمنشورها الدولى ، ولم تقل يومها انها دخلت بقصد الاستيلاء على بلادنا ، وعللت الجـــلاء باتمام ما دخلت من أجله ، وهى الآن بعد عشر سنوات ترى الحكومة غير نظامية ، وما ذلك الا لأنها وضعت معظم اداراتها فى أيدى الأجانب ، ولم تمكن المصريين من اصلاح بلادهم تحت مراقبتها ، فاختلت البلاد ، فان كان مرادها افســـاد البلاد فقد أفلحت ، أما اذا كانت تريد اصلاحها ، وتسليمها لابنائها فكيف يحدث ذلك ، وهى لا تستعمل أبناءها فى الحكم ، وتبعدهم عن الادارات ؟ »

ومرة أخرى قال نديم لنفسه : هذا الصوت أعرفه !

وكان قد فرغ لتوه من قراءة احدى الرســـائل التى كتبها قارىء لا ينقصه الذكاء ولا حس الفكاهة !

ولم يصـــنع القارىء شيئا من انه اقتطع جزءا من اخطر مقال كتبه نديم ابان الأزمة السابقة ، وكان عنوان المقال هو تلك العبارة الساخرة التى يقولها الأوربيون للشـــرقيين : « لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا » وأعاد كتابته بنصه وفى النهاية كتب لنديم : « لم اصدق خبر ظهوركم الا بعد أن قرأت هذه الفقرات !! »

***

وكتب اسمه الذى لم يكن يعنى شيئا لدى نديم ، ولكن الموقف نفسه كان يعنى الكثير ، لقد أعاد نديم قراءة الفقرات المقتطعة من مقاله بصوت مرتفع وقال لنفسه :

ــ هذا الصوت أعرفه ! انه صوتى الحقيقى هذه المرة !

لقد عرفه حين عرفه الناس ، وبعد كل هذه السنين كان نديم يسأل نفسه السؤال القديم ، من انت ؟ وما الذى تريده ؟! وبالتأكيد لم يكن يريد هذا الشجار الذى يحدث ، لم يكن يريده الآن على الأقل !!

وقبل ان يحشد فلول جيشه الشعبى ، ولكن متى فعل انسان ما يريده ؟ لقد قامت الثورة فى الماضى وقبل أن يعبىء الشــعب نفسه ، وهاهى ثورة جديدة تبدأ وقبل أن يبدأ أى شىء آخر !!

***

والغريب أنه يجد ذاته الحقة فى كل ما لا يريده ، وكان ذلك القتال العنيف الذى يكلفه مجلته ، هو الذى يشفى القروح القديمة ويلهبها فى وقت معا !

ولكن هل كانت انجلترا تتركه يعيد جمع فلوله المبعثرة ؟ وهل كانت تسمح له بهذا الحق وهى التى تنكر على الخديوى أوضح حقوقه ؟ كانت تلك احجية أخرى لا يستطيع نديم أن ينشرها ضمن أحاجيه الكثيرة التى يسلى بها قراءه فى مجلته ؟ ولكنها على كل

حال احجية تتحذى فكره ، وكان هو نديم الذى يلتمس ذاته القديمة، وداخل تلك الهيئة التنكرية التى لم تخدعه ، ولم تخدع الأصدقاء ، ولم تخدع الأعداء .. تلك العمامة الخضـــراء والكاكولة الغامقة والقاب الشرف والسيادة .. كان هو نديم الذى زاح يبحث عن حل لهذه الأحجية !



ثم أن محمود واصف صديق نديم القديم خرج من سجنه ، لقد كان نديم قادرا على أن يستغل نفوذه لدى الخديوى فى العفو عنه ، وعلى حد تعبيره « تشرف محمود واصف بعد ذلك العفو بلقاء رئيس الوزراء « رياض باشا » ثم عاد ليتشرف بلقاء نديم !»

كانت تلك دورة أخرى من دورات التاريخ ، وكان لابد أن يكتشف الصـــــديقان بعد وقت قصير أنه لا أحد منهما هو نفس الشخص القديم ، وأن يكتشفا أيضا أنه لايزال تحت الجلد وتحت الثياب عبق الأيام الخالية .

ــ ولكن ماذا عن المستقبل ؟

وكان نديم هو الذى يسأل وقد أتضح له الآن بشكل قاطع انه رغم كل شىء كان احسن رفاق الكفاح حظا ..

وصمت « محمود واصف » قليلا ثم قلب فى بعض اعداد من مجلة الأستاذ كانت أمامه قبل أن يقول :

ــ ألقيت عليها نظرة !

وظنه نديم نسى سؤاله ثم انه نسيه هو الآخر وراح يسأله فى لهفة :

ــ وما رأيك ؟..

ــ أهم شيء فيها هو تلك السلسلة التى تسميها مدرسة البنات ومدرسة البنين .

وتأمل نديم ، تأمل شعره الأشيب ، وعينيه الغارقتين فى التجاعيد .

ــ لو قدر لى أن أبحث عن بداية فلن تكون سوى نقل برامج هاتين المدرستين الى أحد المنازل فى شوارع الاسكندرية ..

ــ والخديوى الذى عفا عنك .

ــ عفا عنى من أجلك ، وأنت ترد له الجميل .

ولم يقل له نديم : ولماذا عفا عنى ؟ راح يقول له فى شك :

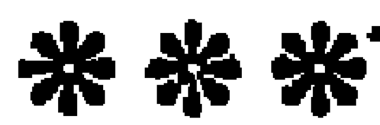
ــ لكنه فى حاجة لمواصلة التأييد الشعبى ، ليقف على قدميه فى مواجهة الانجليز .

ــ الشعب هو الذى فى حاجة الى أن يتعلم ، وبالنسبة للخديوى فسواء لدى أن يقف أو أن يجلس على أحد المقاعد .

وكانت تلك أحجية أخرى تتحدى « نديم » ، كان رفاق الكفاح القديم قد تعب أكثرهم ، ووضعوا ثقتهم فى الجيل الجديد ، وكان الجيل الجديد هو الذى يلتهب الآن حماسة ، ويدفع « نديم » أمامه لكى يجد ذاته هو الآخر فيما لا يريد ، الآن على الأقل !!

ثم أن جرثومة الجمعيات بدأت تنتشر ، وخطى نديم بدأت تسرع من جديد فى تكوين عصبية جديدة من فلول جيشه الشعبى ، وبلهفة الرجل الذى يدرك أن سنوات العمر الباقية لم تعد تغرى

بالأحـــلام البعيدة راح يكتب وكأنه يســـجل وصـــاياه ، ويتحرك كالمطــــــارد ! ويرقب عن كثب تطور الأمور بين الخديوى وكرومر ويصاب بالدهشة حين يجد أن مستر ألفن بارنج يحاول هو الآخر أن يصطنع نفس الأسلوب ، ويؤلف حوله عصبية من الشعب ، فهو يتقرب من الناس ، ولا يخجل من أن يخيفهم من عودة الاستبداد التركى القديم فى شـــخص الخديوى الجديد لولا وجود الانجليز بتقاليدهم الديمقراطية العريقة !



ولا يتردد نديم فى أن يواجه معركة التضليل الجديدة فيغمس قلمه فى نفس المداد القديم ويكتب هذه المرة على لسان المواطن الحـــــائر :

« هذه يدى فى يد من أضعها ؟ » ثم يجيب : ضعها فى يد وطنك ، والا فاقطعها خير من وضعها فى يد أجنبى يستميلك اليه بوعود كاذبة ، وحيل واهية ، حتى يخدعك به ، فتكون عونه الأكبر على ضياع حقوقك ، واذلال اخوانك واحتلال بلادك !! »

وجاء من يقول له فى قلق :

ـــ أنت تستعجل النهاية ، لنا ولك !

ـــ نهايتى لا تهم ، واذا كان وجودكم ســـــوف يتوقف عنى وجودى ، فلن يكون هناك ما آسف عليه .

وكان ثمة شىء يشتعل فى داخله ، يشتعل بما يكتبه أصحاب المقطم ، وبما يزعمه كرومر وبما يجده فى صدور حفنة الشباب من تطلع وحماسة .

وجاءه من يقول له :

سيغلقون الأستاذ !

ولم تكن هذه اشاعة هذه المرة ، فقد أنذر رياض باشا « الأستاذ » ولم يعبأ نديم بالانذار وكتب « أن الأستاذ متمتع بالحرية التى تتمتع بها البروتستانت فى نشر جريدة دينية باللغة العربية تتكلم عن الدين المسيحى بحرية تامة ، والتى تتمتع بها صحف الاجراء فى تكلمهم عن أحوالنا بما تهواه نفوسهم »

***

ونجح نديم فى أن يجمع حوله الصحف الوطنية فى جبهة قوية لتواجه الصحف الأجنبية التى تصدر فى مصر وانجلترا والتى بدأت تستشعر خطر الأستاذ وترمى « نديم » باثارة التعصب الدينى ، وتتهدد وتتوعد ..

ولم يتردد فى أن يواجه كل الأعداء فى كل الجبهات ، وكتب فى ضراوة « اننا لم نسمع أن مسلما دخل أوربا لدعوة أهلها للاسلام ، ولا أن جمعية عقدت لنشر دين الاسلام بين النصارى ، ولكننا نرى ونسمع هذا كله فى أوربا ، ومع ذلك يقول عنا ذوو المطامع الملكية اننا متعصبون تعصبا دينيا » .

كان ذلك هو نديم المقاتل حين يحاصره الأعداء ، وكان كل شىء يصلح لأن يكون بداية أو نهاية ، وكانت الأحجية التى تصدى لحلها توشك أن تحل على طريقته أو طريقتهم ، لقد تكرر انذار نديم ، وتكرر رفض الخديوى للتخلى عن رجله وعن موقفه ، وكتب نديم أخطر مقالاته دون أن يدرى انه سيكون آخرها أيضا ، وشفى صدره ، قبل أن يضمه على أعمق الجراح ، لقد صدع رياض بأمر سير افلن بارنج — وكان نديم كما كان الخديوى الشاب يخسران آخر مواقعهما — فأمر باغلاق الأستاذ ونفى نديم .

وفى آخر عدد من الأستاذ ودع نديم قراءه بمقال حار ختمه بهذين البيتين :

أودعـــكم والله يعـــلم اننـــى
احب لقـــاكم والخـــلود اليكم
وما عن قلى كان الرحيـــل وانمـــا
دواع تعـــددت فالســـلام عليكم

***

العودة الى المنفى

ومرة أخرى اختار نديم « يافا » كانت له هناك بذرة صداقة وكان له هذه المرة الحق فى اختيار منفاه ، فقط شرطوا عليه الا يتكلم فى السياسة ، والا يهاجم الانجليز !

ولكنه تكلم فى كل شىء ، وهاجم الانجليز ، وهاجم السلطان نفسه لأنه لم يتدخل لمساندة الخديوى ضد الانجليز ، ولألف سبب آخر ، ولم تكن هناك صحيفة أو مجلة تنشر هذا الهجوم ولكن الأعداد الغفيرة التى كانت تقبل على مجلسه ، كانت تنشر أحاديثه فى كل مكان ، واذا كان للكلمة المطبوعة سحرها ، فان للكلمة المسموعة من نديم سحرا أشد ، وبلغت كلمات نديم مسامع السلطان نفسه ، ولم يكن قد مضى على وصوله الى يافا سوى أربعة شهور حين صدر قرار آخر من السلطان هذه المرة بابعاده عن يافا ، وعن كل الأراضى التابعة للسلطان ! وتساءل نديم :

— الى اين هذه المرة ؟

وكانت صلته « بالغازى مختار باشا » المندوب السلطانى بالاسكندرية تسمح له بأن يتوجه اليه بنفس السؤال ! وسافر الى الاسكندرية كضيف هذه المرة ، ولم تكن تلك مدينته ، ولم تكن مصر بلده ! لقد عاد فقط ليقابل مندوب السلطان ليدبر لنديم وطنا .

وارتسمت على وجه الحمال الذى ساعد نديم فى حمل حقائبه من الميناء ابتسامة عريضة وهمس قائلا :

ــ أنت نديم .. تعود الينا ..

وهز رأسه وهو يغتصب ابتسامة .

وقال له الغازى مختار باشا كلاما كثيرا جاء ضمنه :

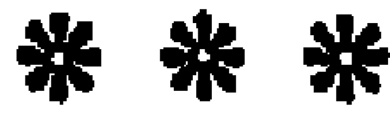
ــ وكما ترى ليس من السهل أن أصنع لك شيئا كثيرا ولكن لو وافقت على السفر الى الاستانة ، لتنزل فى كنف السلطان نفسه فقد يكون من الممكن أن نعالج هذه المسألة .. وانت تعرف ..

ولم يرد نديم وواصل الغازى مختار حديثه وبعد لحظة صمت وكأنه وجد التبرير :

ــ وهناك ستلتقى بصديقك القديم الشيخ جمال الدين و ..

وخفق قلب نديم ليس فقط لانه سيلتقى مرة اخرى بصديقه وأستاذه ، بل لأنه أيضا كان يعرف نوع الحياة الذى بقى فى انتظاره وكان يعرف أن للسلطان طريقته فى التخلص من خصومه ، وحين لا يجدى التهديد ، فقد يجدى التقريب ، وفى الحقيقة لم تكن أمام نديم اية فرصـــــة لأى اختيار ، وكانت نهاية الجولة التى قام بها الشيخ جمال الدين فى أوربا تجعله لا يفكر فى أن يبدأ حيث انتهى

أستاذه القديم ، ومن يدرى فقد يسفر لقاؤهما هناك عن شيء ، ثم أنه سافر الى الآستانة !!!



تلك هى الآستانة فى عام ١٨٩٣ ، ونديم يعمل مراقبا للمطبوعات بمرتب قدره ٤٥ جنيها شهريا ، وفى الحقيقة لم يكن نديم يعمل شيئا ، أنه لأول مرة فى حياته بلا عمل .. لأول مرة يتقاضى مرتبا منتظما يزيد على حاجته ، ولكنه لا يزيد على حاجة ذوى الحاجات الذين يلتفون حوله حيثما كان !

كان رجلا غريبا فى بلاد غريبة ، ولأول مرة تنفصل اللغة بينه وبين الناس ، لكن ذلك لا يدوم طويلا فذاكرته التى لم تهرم بعد تشق له نصف الطريق وسط حواجز اللغة ، وشهرته تمهد ما تبقى من الطريق ، والناس هم الناس ، والمشاكل هى المشاكل ، ولكنه هذه المرة لا يستطيع أن يفعل شيئا حقيقيا لهم أو لنفسه ، ولم يكن يملك سوى حرية أن يعطى ما يفيض عن حاجته من مرتبه لمن هم أشد حاجة هنا أو فى بلاده ، وطوال حياته لم تعذبه سوى حاجة واحدة ، تلك هى حاجته الى أن يعمل شيئا ما من أجل الناس ، وكان يعمل فى وظيفة اسمية ، ويعيش حياة اسمية كذلك لو صح التعبير !



وكانت تلك احدى دعابات الحياة الثقيلة يعيشها رجل كان فى بعض الوقت من ملوك الدعابة ! وفى كل الوقت من رجال الفكر والعمل والنضال !

وها هو الآن يلتقى برجل آخر من رجال التاريخ العظام ، كان قد عرفه منذ سنين ، وتآمر معه على أن يغير وجه الحياة الذى لم

يكن يروق لهما فى ذلك الوقت ! وكان بمقدور نديم أن يضحك فى مرارة حين يرى الحياة وهى تتآمر ضدهما وتنجح المؤامرة هذه المرة !

***

ــ ولكن رؤيتك يانديم رغم كل شىء ، متعة الروح الحزينة ، ان الأيام تمضى يابنى بسرعة غريبة ، ولا تتعثر سوى أحلامنا !

كان الشيخ جمال الدين هو الذى استقبله بهذه الحرارة الملتاعة فاخرسه بعواطفه الجياشة كما كان يخرسه بعقله الحاد ، لقد اكتفى نديم بعناقه ، وفكر وهو يضمه الى صدره أن الرجال العظام يهرمون بنفس الطريقة التى يهرم بها غيرهم ، وتغلبهم العواطف ، وقد يغلبهم اليأس !!

ها هما بلا عمل ، بلا أحلام صغيرة أو كبيرة يتأملان وجه الحياة حين يكون كل شىء مباحا ومتاحا عدا الحرية والأمل .

ان متعة الحديث بين رجلين فى مثل عبقرية الشيخ جمال الدين ونديم يمكن أن تكون مع متع الحياة النادرة ، ولكن الحديث لا يكون كذلك الا حين يتخلل الأعمال العظيمة ، حين ينبثق منها ، ويراوح بينها ، وحين لا يكون هناك سوى مجرد الحديث ، سوى مجرد التعليق على أشياء قاموا بها فى الماضى ، سوى مجرد التذكر والتدبر ، فقد تظل متعة هذا الحديث من نصيب من يسمعونه فحسب ، ولكنه يسبب لاصحابه عذابا يضاعفه انه لاتزال لديهم قدرة العمل دون حريته !!

***

وكان هذا النوع من العذاب هو كل ما تبقى لهذين الرجلين ، وكان قد تبقى لهما شىء آخر ، ان يشهدا عن قرب تلك الحياة الغريبة التى كان يعيشها رجل آخر من اعجب رجال التاريخ ، هو

السلطان عبد الحميد الذى بدأ حياتهما بالثورة عليه ثم انتهيا بالعيش فى رحابه !!

كان رجلا ذكيا الى حد العبقرية ، ومتخلفا الى حد الجمود والسخف ومثل هذا الازدواج الغريب يحدث أحيانا حين يقترن الذكاء بالسلطة ، فيستغنى بها عن العلم والثقافة .

***

ورجل هذا شأنه يصبح عبئا ثقيلا على الحياة ، ذلك ان الشعوب تعانى من ذكائه وتخلفه معا ، فذكاؤه لا يثمر سوى التفوق فى الخداع والتزييف ، وتخلفه يسمح لمن هم على شاكلته ان يجدوا فى حاشيته أرفع مكان ! وان يجدوا من النفاق أبرع وسيلة . وفى حاشيته حرب لا تهدأ بين من على شاكلته ، ومن ليسوا كذلك ، ومن سوء حظ الشعوب أن يكسب هذه الحرب من هم على شاكلة السلطان .

وحين التقى نديم بصديقه الشيخ جمال الدين فى الآستانة وجده يخوض حربا من هذا النوع ، فقد كان فى حاشية السلطان رجل آخر اسمه أبو الهدى الصيادى ، أصبح بمرور الوقت سلطانا آخر ، وربما كان هذا الرجل يبز السلطان فى مواهبه ، واذا كان السلطان قد وصل الى عرشه عن طريق الوراثة ، فقد وصل أبو الهدى الصيادى الى مركزه فى الحاشية عن طريق مواهبه وحدها !

وكانت أخطر مواهبه انه يتعامل مع نواحى الضعف فى الخليفة وفى البشر جميعا ، ولم يكن يستعمل فى حربه ضد خصومه سلاحا من خارج أنفسهم ، كان يعرف دنيا القلب البشرى الغامض يعرف اختلاج القلب الأبدى بين الرغبة والرهبة ، بين الخوف والثقة ، وكان يعرف أن الذاكرة هى أضعف شيء فى

الانسان ، وأن قدرة الانسان على نسيان الاساءة لا تعادلها الا قدرته على نسيان الاحسان !

وكان يعرف كيف يخيف السادة بالدهماء ، والدهماء بالسادة وبالطبع كان يعرف الخطر الذى يهدد مثله من وجود مثل الشيخ جمال الدين فى حاشية السلطان ، فلم يتردد فى أن يعلن ضده الحرب أو بعبارة أدق يثيرها ، ولكن السلطان الذى كانت امبراطوريته تتمزق آنذاك بين مخالب الدول الأوربية دون أن يكون قادرا على انقاذها ، كان يتسلى بعمل آخر ، بهذه الحروب الصغيرة التى تنشب بين أفراد حاشيته ، انها تصبح بمعنى من المعانى وقاية له ، وبدلا من أن تتجه أفكارهم ضده !

***

فكان يتيح للشيخ جمال الدين أن يعرف من دسائس أبى الهدى ما يجعله يتصدى للدخول معه فى معارك لا تنتهى ، ولا تتكافأ ، لاختلاف الأسلحة والمقاصد !

وكان يتسلى برؤية الشجاعة والعلم وهما يناجزان الخديعة والجهل !

وكان ذلك كله ملهاة جديرة بأحد ملوك الزمن الغابر حين لا يعود ملكا حقيقيا ، ولا رجلا عاديا تشغله هموم البشر .

وكان هذا كله بعض ما وجده نديم بعد أن استقر به المقام فى الآستانة ، وحين أخذ مكانه الى جوار الشيخ جمال الدين فى حاشية السلطان عبد الحميد !!

وأخيرا وجد نديم الذى أصبح لأول مرة فى حياته بلا عمل .. وجد عمله .. فى تلك الحرب الدائرة ..

لقد كانت حياته حروبا متصلة ، حارب الأغنياء بلا عمل ، وحارب الفقراء بلا أمل ، وحارب الظلمة ملوكا وسوقة ، وحارب

الانجليز كدولة مستعمرة ، وحارب الخليفة كرجل لا يتصـــدى لمسئوليته ، وكحاكم متخلف عن عصره ، وحارب الأجواء والمنافقين وحارب الخداع والكذب والبلادة والترهل واللامسئولية والآن ماذا يمنعه من هذه الحرب ؟

***

اذا كانت بعض صـــفات نديم تروح وتجيء ، مع الوقت والخبرة ، وتغير الظروف ، فان صفة واحدة تبقى معه ، لاصقة كالجلد ، تلك هى صفة المقاتل ..

وخاض نديم هذه المعركة الى جوار الشـــيخ جمال الدين ، خاضها حديثا وكتابة ، خاضها شـــعرا ونثرا خاضها جدا وهزلا وكان أبو الهدى فى احساس نديم تركيزا نقيا لكل رذائل الشرق سلوكا وفكرا تلك التى ظل يحاربها طوال حياته ، والتى كانت تتصدى لآماله بأعنف مما تصدى لها المستعمرون أنفسهم ، وهاهى الآن تتصدى له مرة أخرى وهو يحاول أن ينفذ الى السلطان ، لانقاذ أى شىء وهاهى موضوعة أمامه فى ثياب ذلك الرجل المدعو « أبو الهدى الصيادى » فكيف يدع هذه الفرصة ؟

***

وألف واحدا من أعجب كتبه ، سماه « المسامير » ألفه فى شكل فصول ، يرويها رجل اسمه الشريف أبو هاشم ، يحكى قصة الشيخ مدين الشهير بأبى القاسم ، لقد كان شيخا طاهر النفس والسلوك الى الحد الذى عجب فيه من طهارة قلبه مع علمه أن ابليس اللعين عدو للصالحين ، فراح يبحث عنه ، ويسأل عن عدم قربه منه حتى وجد ابليس حزينا كئيبا ، فلما سأله عن حاله أخبره بظهور منافس له من بنى الانسان فاقه فى حيله وأحابيله ، وسلبه سلطته وسطوته !

ولم يكن هذا المنافس الخطير سوى « أبى الضلال » (يعنى أبا ألهدى الصيادى) ثم بدأ الشيطان يسرد قصته مع أبى الضلال ، فى شكل فصول ، كل فصل فى شكل مقامة سماها مسمارا . .

* * *

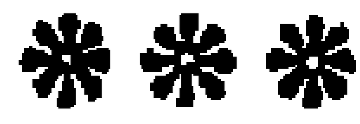
وحين بدا نديم يقرأ على الشيخ جمال أول مســمار نسى الشيخ جمال الدين نفسه ، وأغرق فى الذهول والضحك وفكر الشيخ جمال الدين : هاهو نديم يعود كما بدأ صعلوكا يجرى فى عروقه دم الصعاليك ، وتجرى على لسانه بذاءاتهم ، هاهو يمارس أبشع صور الحرية حين حرم ابسط صورها ، هاهو يجسد حرية اليائســـين ويأس الأحرار ، ويحارب أبأس معاركه ، ولم يكونا وحدهما ، وذهل أيضا بقية الحاضرين وليس يعلم الا الله ماذا فكروا ؟

وكان لابد أن يصيب أبا الهدى ذهول أشد حين يبلغه أمر الكتاب !! وحتى يكسب السلطان الى جواره فى معركته ضد نديم أفهمه أن الهجاء يشمل السلطان هو الآخر ، وعبثا حاول السلطان ان يعثر على المخطوط الذى سمع به ، لقد أخفاء رجل اسمه «جورج كوتشى » كان صديقا لنديم ، وفر به الى القاهرة لينشره هناك !

وعاد رجال البوليس بلا دليل يدين « نديم » !

ولكن أبا الهدى الصيادى لم يغفر لنديم فعلته ، فراح يحاربه فى غير ميدانه ، وبغير سلاحه !

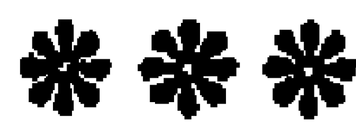
واذ كان نديم يوشك أن يصبح سفيرا غير رسمى للخديوى عباس لدى السلطان ، فقد كان يسعى ليزوج السلطان احدى بناته للخديوى الشاب ادعم العلاقة بين تركيا ومصر ، وليواصل السلطان دعمه للخديوى فى نضاله ضد الانجليز ..



وجدها ابو الهدى فرصته ليبعث مخاوف السلطان وشكوكه وليوهمه أن هذه الخطوة ليست سوى البداية فى مؤامرة يدبرها الانجليز لنقل الخلافة الى مصر ، وما أيسر ذلك حين تنجب ابنة السلطان طفل للخديوى الشاب ، وحين زار الخديوى عباس الأستانة لأول مرة عام ١٨٩٤ والتقى بالشيخ جمال الدين ونديم فى منتزه الكاغد خانة ولم يكن هذا اللقاء ضمن البرنامج ، وجد ابو الهدى فى هذا اللقاء العابر بذرة صالحة لايقاظ شكوك السلطان فى جمال الدين ونديم !

وفشلت وساطة نديم ، وكان ذلك آخر فشل له ، كما كان كتاب المسامير آخر قتال ..

وكاد يشعر بعبث كل شىء ، النصر والهزيمة ، والصفح والانتقام ، كاد يفقد صفة المقاتل !

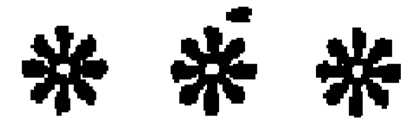


كان جسده يهتز تحت وطأة السعال الحاد ، والفراغ الذى بدا اشد وطأة من السعال ، والأمل الشاحب الذى لا يخفى ولا يبين !

وتواضعت احلام نديم ، اصبحت حلما واحدا صغيرا ، هو أن يعود الى مصر ، وفى الواقع أن مصر فى هذه الأيام هى التى كانت تزور « نديم » تزوره فى النوم واليقظة ! وزاره أديب اسحق ،

من العالم الآخر ، قال له بنفس النبرة الحزينةِ الساخرة : نصحتك يوما الا تموت فى الغربة يابنى ، ولكنك لم تسمع أبدا لنصائحى !

هل أصبح الموت هو كل ما ينتظره الآن ؟



وعلم أن الخديوى عباس فى طريقه الى الآستانة فى زيارة جديدة وتجددت آمال نديم فى العودة الى بلاده ، لقد كتب كثيرا عن الوطن والوطنية والمواطن ، وهاهو يكتشف الآن انه لم يلمس الحقيقة مرة أخرى فى كل ما كتب ، ثمة شىء غاب عنه ، شىء كان من المستحيل أن يعرفه أو يشتعل فى قلبه قبل الآن ، شىء غير التقدم وغير الحرية وغير العدالة ، وغير الثروة وغير الثورة كذلك، شىء لم يشعر به الا حين فقده ، شىء لم يفقده ، وهو مطارد فى بلاده ، ينتقل من حجرة مظلمة لأخرى أشد ظلاما ، لم يفقده حتى وهو يفتقد الأمن ، وهو لا يقوى على التلفت وراءه ، وهو يسدل على الدنيا عصابة مشدودة على عينيه ، شىء كان يسمعه فى صوت صالح وفى لهجته ، ويسمعه فى روائح الحقول التى يتعثر فى شقوقها وجسورها ، ويجده فى أصوات الحيوانات والطيور وفى الشخصيات الحقيقية والوهمية التى يتخاور معها فى الحياة وفى « التنكيت والتبكيت » و « الأستاذ » .. شىء رقيق غامض ولكنه كل شىء ، شىء يبدو فى الحياة نفسها فى أصـــوات الباعة فى أسلوبهم فى المساومة فى طريقتهم فى الصدق والكذب ، فى اللقاء والوداع ، فى اخفاء الأشياء والبوح بها !! شىء يعجز الناس عن أن يمسكوا به رغم أنه ملء وجودهم ، يعجزهم أن يفصلوه عن أى شىء لأنه ملء كل شىء ، شىء يعيى الناس بأمره فيسمونه مصر !

ولم يصدق حين وعده الخديوى بأن يصطحبه معه الى مصر !
كان ذلك أكثر أحلامه تواضعا وبهجة !!

* * *

وتحقق هذا الحلم حين ركب مع الخديوى على ظهر السفينة ، والقى نظرة على المياه اللانهائية ، فهناك عند نقطة لا تراها العين توجد بلاده ، يوجد المعلم حنفى وسعيد وبخيته وأبو دعموم ، وعمارة والزناتى ولطيفة ودميانة ، وابتسامة حمال فى الميناء لا يعرف اسمه يوجد أبوه وأمه وقبور ابنائه وبعض زوجاته ، ولو قدر له أن يموت هناك ، فسوف يشيعه الصعاليك الى قبره ، وسوف يوصى أن يكون قبره بين قبورهم !!

ثم ان السفينة التى يركبها الخديوى ونديم أوقفت فى آخر لحظة ، وأنزل نديم مخفورا من على ظهرها !

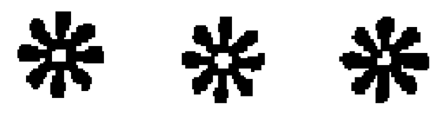
* * *

وعجز الخديوى عن أن يفعل شيئا ، وعجز نديم عن أن يفهم شيئا ، أو يذكر الآن أسبابا لما يحدث ، واذا كان هو الآن لا يذكر شيئا سوى مصر ، فان أبا الهدى لايزال يذكر شيئا اسمه « المسامير » ألفه نديم فى نوبة غضب ، وكان الشر أبرع حيلة ، واقوى ذاكرة لقد قال أبو الهدى للسلطان :

ـ ما معنى أن يسافر نديم دون اذن منك ؟

ولم يكن السلطان يعلم أن « نديم » فى طريقه الى مصر على نفس سفينة الخديوى ، ولكن أبا الهدى كان يعلم كل خطوة يخطوها نديم ! وكان ذلك كافيا ليصدق السلطان كل ما قاله أبو الهدى عن نديم !

وأبرق نديم للسلطان في نوبة غضب حين علم بآخر وشاية لأبي الهدى « انك أنت أمير المؤمنين القادر على الانتقام بلا معارض، ولكننا سنقف بين يدى عادل قاهر يقضى بيننا بالحق ، هو خير الحاكمين » .



كانت تلك آخر انتفاضة ، وآخر غضب ، لم يعد هناك سوى حزن رقيق هادىء ، وتأمل رصين شفاف لتلك الرواية الغريبة التى يعيشها البشر ، وكان هناك رجلان من كبار رجال التاريخ يعيشان خارج دائرة التاريخ ، يثرثران أحيانا ، ويبتسمان لا الى حد الضحك ، وقد يبكيان بغير دموع ، ضيفان لا يقوى أحد على أن يشير لهما نحو الباب ، ولا يدريان متى الرحيل ، ولا معنى الزيارة ؟

ثم ان ضيفا ثالثا حل بينهما الآن ، حل في صدر نديم في البداية لم يشعر بمقدمه ، ومتى اهتم نديم بنوبات البرد والسعال ؟ واشار الطبيب الى أن تغير البيئة والجو قد يسبب مثل هذه الأعراض ولكن السعال الآن يمزق صدر نديم ، ويمزق أحاديثه ، وساعات نومه ، وساعات يقظته ، وتغلب على وجه الطبيب انطباعة يأس لا تفلتها عينا نديم .



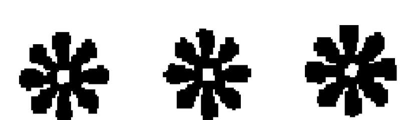
ولم تكن هناك زوجة ولا أب ولا أم ولا أولاد ، تلك الحاشية التى عاش نديم دائما بدونها ، ولم يعد بريد الآن أكثر من أن يلقى على من تبقى منهم نظرة !!

— ولكن السلطان لن يجد في حضور بعضهم الى هنا اى خطر على حكومة جلالته !

وهز الصديق الذى كانت له كلمة في حاشية السلطان رأسه مطمئنا ومؤكدا انه سيبذل مساعيه ، وابرق نديم الى أخيه وأمه ..

وبقى فى انتظارهما وأخذت ساعات الليل والنهار تمضى بخطى أبطأ وتزايد زواره يتقدمهم رجل عجوز مرهق اسمه الشيخ جمال الدين وفى كل مرة يفتح نديم عينيه متفحصا وجوه الزائرين ، باحثا بينها عن وجه أو وجهين ينتظرهما بصبر نافد ، ولا يسمح لخيبة الأمل أن تظهر على وجهه ، كان ذلك سـباقا آخر بين الحب والموت !

وحين تشتد عليه وطأة المرض واليأس يضيق بالانتظار ، فيشد رحاله الى مصر .. الى الاسكندرية والمحروسة ، الى القرى والكفور ، الى التل الكبير وكفر الدوار ، الى المنصورة والعتوة القبلية ومنية الفرقى ، وتتزاحم الوجوه والحشـود ، وتختلط الروائح والأصوات ، ويتلاشى الزمان والمكان ، وتكتمل الدائرة حين يغلبه الحماس ، فيلقى باحدى خطبه ، فيخيم الصمت ، وحين يفتح عينيه لا يكون هناك سوى الصمت والعرق ، وأحيانا صوت السـعال .



وحين وصل أخوه وأمه الى الآستانة ، لم يجدا « نديم » ، كان قد رحل كعادته ، ودون أن يقول لهما الى أين ! ولم يترك وراءه ما يكلفهما مئونة حمله .. كان « جورج كوتشى » قد هرب آخر ما كتب . وكان ثمة رجل عجوز مهدم اسمه الشيخ جمال الدين القى عليهما نظرة واجمة حزينة ، ثم قادهما الى مقبرة « يحيى أفندى فى باشكطاس » حيث يرقد واحد من أبناء مصر ، من أعظم أبنائها ، كانوا يدعونه عبد الله نديم .. وكانت العجوز التى وقفت ترقب مقبرته فى صمت ودون أن تطرف أو تبكى ، لا تعرف عنه سوى أنه ولدها الذى كانت دائما تفتقده .

وسأل شقيقه العجوز المهدم الذى كان برفقتهما وكأنه تذكر فجأة شيئا مهما :

ـــ لكن ياسيدى متى حدث ذلك ؟

وتأمله الشيخ العجوز فى ذهول ، وكأنه لم يجد أى معنى لسؤاله ثم قال بعد لحظة تذكر :

ـــ أظنه كان مساء الأحد العاشر من أكتوبر سنة ١٨٩٦ .

ثم تمتم بصوت مختنق :

يرحمه الله .. يرحمنى الله !!

* * *

كلمة أخيرة

اذا كانت طبيعة هذا العمل الأدبى ، فضلا عن طبيعة السلسلة التى ظهر فيها ، تعفينى من الاشارة الى المصادر والمراجع فى نهايته .

فان الامانة تحتم أن أذكر بالتقدير الدراسات التى كان لها فضل السبق فى القاء الضوء على « عبد الله النديم » ، والتى كان لها أيضا الفضل فى توفير كثير من الجهد والوقت بالنسبة لما يجيىء بعدها من محاولات لالقاء مزيد من الضوء عليه وفى مقدمة هذه الدراسات البحث الهام والشامل الذى كتبه الدكتور على الحديدى ، ونشر فى سلسلة أعلام العرب « عن عبد الله النديم خطيب الوطنية » .

والدراسة التى كتبتها الدكتورة « نفوسة زكريا » ، عن « عبد الله النديم بين العامية والفصحى » ونشرتها الدار القومية .

والدراسة التى اشترك فى تأليفها الاستاذان محمد عبدالوهاب صقر ، وفوزى سعيد شاهين ونشرت فى سلسلة الألف كتاب .

هذا بالاضافة الى مقالات وأبحاث قصيرة للعلامة أحمد باشا تيمور فى كتابه « تراجم أعيان القرن الثالث عشر » ، وجورجى زيدان فى كتابه « مشاهير الشرق » وأحمد أمين فى كتابه « زعماء الاصلاح فى العصر الحديث » والدكتور عبد اللطيف حمزة فى كتابه عن « أدب المقالة الصحفية » والدكتور ابراهيم عبده فى كتابه عن « تطور الصحافة » والأستاذ عمر الدسوقى فى كتابه عن « الأدب الحديث » والأستاذ أحمد بهاء الدين فى كتابه « أيام لها تاريخ » .

* * *

● ضـــــد مجهـــول

— ١ —

لمح « صبرى » فى عينى عمه الحاج ابراهيم نظرة تأنيب ، لم يكن هو الذى يستحق هذه النظرة .. لكن كيف يخبر عمه بالحقيقة دون أن يجد نفسه فى موقف الواشى بابن عمه ؟

قال بعد لحظة تردد :

— « أحمد » لم يقف وراء الأنفار غير ساعتين فى الصباح .. وقفت بدلا منه .. فلم أقم بعمل آخر !

تساءل الحاج ابراهيم فى غضب وقد تغضن جبينه الذى لوحته الشمس تحت عمامته البيضاء :

— وأين ذهب بقية النهار ؟

— كان يجلس تحت الشمسية مع « شريف بن عباس المواردى » عند الهدار !

ـــ ابن عباس بك الموردى ؟

قالها بلهجة بين الانكار والدهشة ، ثم تابع بســـؤال بدا لصبرى لا معنى له :

ـــ ومتى عاد عباس بك من القاهرة ؟

ثم استطرد منبسطا مع صبرى ودون أن ينتظر اجابة على سؤاله السابق :

ـــ لم يكن أحد يرى « عباس بك » الا فى جمع القطن ، ماذا يجرى فى الدنيا فى هذه الأيام ؟

* * *

تمنى صبرى لو يستعير من عمه سؤاله الأخير .. أن يقول له : حقا ماذا يجرى فى الدنيا فى هذه الأيام ؟ لقد تغير فجأة صوت عمه ، وارتخت ملامحه التى شدها الغضب منذ لحظة ، بطريقة جعلته يشك فى أن غضب عمه سوف يبلغ غايته ...

هبت على رأس الحقل نسمة هواء تشى بانكسار حرارة النهار ومضت لحظات صمت مشحونة بدأ العم خلالها وكأنه يدرك موقفه .. يدرك ما فيه من غرابة .. فقال بلهجة من يريد أن يتخلص من الموقف لا من يريد حسمه :

ـــ حين يرجع « أحمد » .. لى معه كلام !

ومضى فى اتجاه القرية بعد أن نفض عن ثوبه بعض الغبار بغصن شجرة كان فى يده !

* * *

فكر صبرى : لا ليس هذا هو غضب عمه القوى الواضح ، وليس هذا مسلكه ، وكاد يكرر السؤال : ماذا يجرى فى الدنيا ؟ هل أخطأ لأنه ذكر لعمه الحقيقة بشأن ابنه أحمد ؟ أكان عليه أن يبقى صامتا يتلقى التأنيب الصامت حتى يعرف عمه الحقيقة

من أحمد أو من غيره ؟ انه لا يشك فى أن أحمد كان سيقول له الحقيقة لو سأله عنها ! ولكن ماذا لو أنه لم يسأله ؟ سيظل يعتقد أنه لم يقم بما كلفه به من عمل ! واستشعر فى هذا الموقف كما استشعر فى مواقف مماثلة مرارة فقدان الأب ، مرارة الحرص على أن توضح دائما انه ليس خطأك ، وأنك دائما حيث يجب أن تكون !

* * *

حين مات والد صبرى لم يترك له ولأخته وأمه سوى ثلاثة أفدنة ما كانت لتفى بنفقات تعليمه وحده لو أنه أجرها أو حتى باعها ، فضلا عن مصاريف بقية الأسرة ، الا أن عمه قال له بوضوح عشية موت والده أمام كل الناس وكأنه يقطع على نفسه عهدا يشهد عليه الجميع :

ــ لا تحمل هما . ستواصل تعليمك مع « أحمد » ، أولادى سيزرعون أرضكم كما يزرعون أرضى . .

« صبرى » و « أحمد » هما أصغر ابناء الأسرتين ، كان لهما وحدهما دون بقية الاخوة حظ مواصلة التعليم فى مدارس البندر ، وفى حياة الأبوين عاش الولدان معا حياة واحدة ، يسكنان فى حجرة مشتركة ، يذهب لهما الطعام فى سلة واحدة ، يأكلان فى نفس الطبق . .

* * *

ومع أن الحاج ابراهيم يمتلك عشرة أفدنة يزرعها أولاده الكبار بأنفسهم فانه لم يرسل يوما لابنه من النقود أكثر مما يرسل أخوه لابنه . . وبعد أن مات والد صبرى لم يتغير شىء فى حياة الولدين . . وفى الحاج ابراهيم بكلمته . . دخل « أحمد » كلية الآداب و « صبرى » كلية الحقوق . . ولكن حجرة واحدة فى الجيزة ظلت تجمعهما فى المساء . . وفى الأجازة يقومان بنفس

الأعمال فى الغيط أو فى البيت لكن تأتى فجأة لحظة كهذه ، يكون عليه فيها أن يثبت دائما براءته ، أن يثبت انه لا يقـابل جميل عمه بالجحود ، فيستشعر من جديد أنه حرم من ذلك الحق الأبوى .. حق الخطأ !

* * *

— ٢ —

قال « شريف » « لأحمد » بعد ان توقفا أمام البوابة البحرية للسراي وقفة قصيرة ظنها « أحمد » لتكملة الحديث الذى بدأ فى الحقل :

— لماذا لا تجيء معى الآن لترى بعض لوحاتى التى فرغت من رسمها ؟

تردد « أحمد » دون سبب واضح ، ثم تذكر فجأة أن الوقت قد تأخر وغمغم بذلك .. قال « شريف » وهو يجتذبه الى الداخل :

— على أى شيء ؟ المسألة كلها لن تأخذ سوى دقائق ، عندى هنا ثلاث لوحات موضوعة فى الصالة .. يمكنك أن تراها بسرعة !

— لا مانع ...

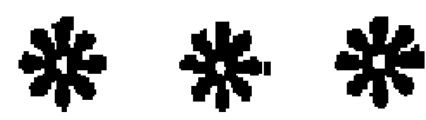
قالها « أحمد » وهو يهم باجتياز البوابة وراء « شريف » ..

منذ كان طفلا وهو يمر أمام هذه البوابة .. ومثل كل الأطفال فى القرية تطلع الى ما وراءها .. ومثلهم توقفت نظراته عند أحواض الزهور والماشى الصفراء ، والمربعات والدوائر المغطاة بالحشائش الخضراء ، ومثلهم لم يبصر مرة واحدة ماذا وراء البوابة الداخلية التى تفتح مباشرة على صالة سراى «عباس بك الموردى»

ومثلهم تخيل وحلم وتحدث عما فى هذه الصـــالة من أعاجيب يتناقلها أهل قرية « الزهايرة » جيلا بعد جيل عن اقارب المواردى الكبير الذين يدخلون السراى ويخرجون منها كأهلها !

وها هو مجاة يجد نفسه فى الطريق الى كل ما عاش طفولته يحلم به ويتحدث عنه دون أن يراه .. !

دق « شريف » البوابة الداخلية بالكف النحاسية المعلقة أبدا بالباب والتى تتكور أصابعها على كتلة مستديرة من النحاس لترسل صوتا قويا يسمعه من الداخل !



فتح الباب .. فتحته عجوز من القرية تخدم فى السراى .. اختفت بنفس البطء الذى جاءت به .. ربما كانت هذه العجوز نفسها أعجب شىء رآه فى صالة الأعاجيب التى عاش يحلم بما فيها ... ربما كانت الأعاجيب الحقيقية فى الدور العلوى أما هنا ففى جوانب الصالة مجموعات من المقاعد القديمة تبدو كأنها لا تستعمل الا فى أضيق الحدود .. !

ـــ تفضل هنا .. يبدو أن أحدا نقل لوحاتى من مكانها فوق « البوفية » حالا سأجدها هنا أو هناك ..

الضوء يصل الى الصالة واهنا .. وشعور بالفراغ والرطوبة يملأ المكان كله .. مكان تعوزه الأنفاس والضـــحكات والحركة شأن البيوت التى يغيب عنها أصحابها كثيرا .. !

قطعة من الجير معلقة فى أعلى الجائط كأنها هناك من سنين .. لا تسقط ولا ترتد الى مكانها .. أبواب الحجرات الجانبية على الصـــالة تقف كأنها الحراس على ما وراءها .. أحدها يفتح مجاة ، تفتحه فتاة فى السابعة عشرة من عمرها تقريبا ، سمرتها ودقة ملامحها يؤكدان أنها شقيقة « شريف » .. توقع أى شىء

الا أن تمضى الفتاة لشأنها وكأنه غير موجود بالمرة .. لا سؤال .. لا نظرة .. لا كلمة .. ولا حتى شعور بالمفاجأة ، كان من المألوف أن يوجد فوق هذه المقاعد بعض الناس الذين لا يعنى احـــد بوجودهم أو عدمه ..

بعد ان اختفت الفتاة خلف أحد الأبواب ، وقبل أن يعود شريف .. حاول « أحمد » أن يسترد للحظات هذه الفتاة التى جاءت وذهبت فجأة ..

❋ ❋ ❋

... الذاكرة ... يا لها من شىء رائع ، أقدم صور الملكية دون شك .. لا احد يستطيع أن يسلبه تلك الصورة .. الأنف .. العينان .. الجبهة .. الشعر .. القوام .. ، اللامبـــالاة . الصدر ، حين عاد شريف أطبق ذاكرته فى رفق على الصورة .. واثقا أن التفاصيل لن تضيع .. سيعود اليها .. اجل لابد أن يعود .. ولن يفلت منه شىء .

ـــ « نجوى » هى التى نقلتها من مكانها .. والآن ما رأيك ؟

قالها شريف وهو يضع اللوحات على البوفيه ، ويمضى لفتح باب الصالة حتى يدخل بعض الضوء ، ثم أوضح :

ـــ هذه اللوحات كلها لرسوم عالمية ، لوحة « الهدار » التى أرسمها فى الحقل هى أول محاولة لرسم منظر طبيعى مصرى !

توقف أحمد أمام صورة لشلال تنحدر مياهه فى روعة ، ألوانها تكاد تنطق ، دقة النقل تبلغ درجة عالية من الاتقان ، قال فى تأثر حقيقى :

ـــ أكاد أسمع صوت تدفق المياه !

قال شريف مزهوا :

ــ قل لها .. لا تعترف بى كفنان !

تلفت « أحمد » .. متى جاءت ؟ هى نجوى أذن ؟ لم يقدم شريف احدهما للآخر كأنما أكتفى بتقديمها ، لم يدر ماذا يقول أو يفعل ؟ خانته بديهته .. بينما استطرد شريف وهو يبرز لوحة جـــديدة :

ــ هذه صورة « فنار » ترفرف حوله طيور البحر ...

لم تكن نجوى تتابع أخاها ، لاحظ احمد فى عينيها نظـــرة غامضة متحفزة ، للحظات حار فى فهمها ، وكأنما كانت تنتظر منه ردا ، وضعت حدا لحيرته حين قالت وهى تكتم شبه ضحكة ، قالت له ، لأحمد وهى تقتحم خجله ، وهى تواجهه بأجمل عينين رآهما فى حيـــاته :

ــ هل أنت معجب بها كلوحة أم كاسطوانة ؟

* * *

بوغت أحمد بتعليقها ، امتزج الغضب والضحك فى وجه شريف ، انسحبت « نجوى » وهى ترى المفاجاة فى وجه « أحمد » تتحول الى ما يشبه الوجوم ! قال شريف فى نبرة من يثق فى أن محدثه لا يشك لحظة فى صدقه :

ــ أثق فى انك سوف تفهمنى ، أختى لا تقصد اهانتك ، فتلك أول مرة تراك فيها .. انها أكثر اخوتى طيبة ، وحبى لها يفوق كل شىء ، لكنى لا أفهم ميلها الشـــديد للمزاح ، نوع من الرغبة فى لفت النظر ، لا أفهم لماذا تبالغ فيه ؟

ثم أضاف محاولا اضفاء جو من المرح ليبدد حرج احمد .. أضاف وهو يغمز باحدى عينيه :

ــ مع أنها ليست فى حاجة الى ذلك !

قال احمد محاولا تجاوز الموقف كله :

ـ المسألة بسيطة لماذا لا تتركنا نواصـــل التفرج على لوحاتك ؟

لكنهما ظلا هذه المرة يتأملان الصور فيما يشبه الصمت عدا أسئلة قليلة كان يتعمد بها « أحمد » أن يجعل الموقف شـــبه طبيعى !

* * *

ـ ٣ ـ

قال « أحمد » « لصبرى » ذات صباح وهما معا عند رأس الحقل :

ـ تعال معى .. حدثته عنك .. أبدى رغبة شديدة فى أن يراك !

وتأكد لصبرى ما كان لبعض الوقت فى شك من أمره ، أن عمه « الحاج ابراهيم » لم يوجه لأحمد أى لوم على مسلكه ، كان ذلك غريبا .. فتلك أول مرة يبدو فيها عمه منحازا لابنه أو لعله كما تزعم أمه منحاز دائما ولكنه هو الأعمى !

قال صبرى لأحمد :

ـ ونترك الأنفار وحدهم ؟

ـ « حسنين » يتابع الأنفار أفضل منك ومنى .

ـ تتجاهل أن هذا يعطله عن العمل ، يحوله الى ريس ، لكن وجود أحدنا على الأقل يزيد الأنفار واحدا .

ـــ دائما تعتقد السهل .

ـــ لو جاء أبوك الى الحقل ماذا يقول حين لا يجد أحدا منا هنـــا ؟

ـــ ابى اليوم فى السنبلاوين .

ـــ سيعرف كل شىء ولو كان فى المنصورة .

ـــ قل أنك خائف اذن ؟

ومع انه قالها كمزاح ، الا أن صبرى صرخ فى غضـب اهتز به كل جسده الربعة القوى :

ـــ اذهب انت .. لا شأن لك بى ..

ثم تماسك وفكر وهو ينقر الارض بعصاة كانت فى يده «ليس عدم خوفك شجاعة .. وليس خوفى جبنا .. وفى الحقيقة لا أخاف منك ولا من أبيك .. ولكنى لا أجد معنى للتقرب من هؤلاء الذين ليسوا منا ولسنا منهم ، لماذا تحاول أنت أن تلتصق بهم ؟ »

* * *

« ولكن ما جدوى أن يقول لأحمد ما فى نفسه اذا كان عمه نفسه ، الرجل الذى يعمل الناس لكلمته الف حساب مع انه ليس أغناهم ولا أقواهم ، اذا كان الحاج ابراهيم نفسه قد بلع غضبه وسكت ؟ وهل هناك شىء لا يفهمه ؟ أم أنه أعمى حقا كما تقول أمه ؟ »

ـــ لماذا لا يجىء « شريف » الى هنا .. اذا كان يريد أن يجلس معنا ؟

ألقى صبرى بهذا السؤال وكأنه أراد أن يعتذر عن غضبه العنيف ...

قال أحمد الذى فوجىء بالسؤال وبالتحول :

ــ هناك شمسية ضخمة من شماسى البلاج نجلس تحتها ..

و ..

ــ هنا ثلاث شجرات كبيرة من التوت تحيل المكان الى جنة ، اذهب وقل له أن يجىء الى هنا اذا أراد أن يجلس معنا .

ــ يا أخى أنت تعقد الأمور .. أنسيتنى السبب الحقيقى انه يرسم « الهدار » والهدار هناك ..

قال صبرى بلهجة ساخرة :

ــ وأرض ابيه أيضا هناك ! هل نسيت ؟

قال أحمد بلهجة تنم عن الغيظ :

ــ ارض أبيه هناك وهنا أيضا .. ولو جلس فى أى مكان على ترعة البوهية فسيجد نفسه قريبا من ارض أبيه .. لماذا تفكر بهذه الطريقة ؟ لو تكلمت معه لعرفت انه ليس من النوع الذى تظن ! لا أدرى كيف أوضح لك .. لهذا يجب أن تراه بنفسك ؟

ــ اذهب أنت .. ولا تشغل نفسك بهذا الموضوع وثق انه لا يشغلنى !

— ٤ —

قال أحمد لنفســـــه وهو يمضى للقاء شريف وكأنه لايزال يخاطب صبرى :

« طبعا لا يشغلك ، ولو أننى ظللت عشرين عاما أخرى دون أن التقى بشريف لما شغلنى أمر لقائه لحظة واحدة ، اى دور تلعبه

الصدفة فى حياة الناس ؟ لو أن المصادفة التى جمعته بشريف وضعت صبرى مكانه لكان هو الذى يحاول الآن اقناعه .

* * *

ولكنه بكل تأكيد ما كان ليعاند ويرفض بمثل هذه الطريقة .. هل هو واثق من هذا كله .. ؟ لا يدرى ، ولايدرى أيضا كيف يصوغ فى كلمات هذا الذى يشعر به ويفكر فيه منذ قابل شريف ؟ كيف يصـــــوغه فى كلمات يمكن أن تدخل رأس هذا الثور الذى يحبه ، ولكنه يعجز أحيانا عن التفاهم معه ؟ « صـــبرى » ابن عمه الذى يشبه الثور ليس فقط فى قوة عضلاته ، وقدرته الفذة على الاحتمال والعمل بل فى صلابته وعناده ! ان أى كلام يقوله له لن يكون له تأثير لقاء واحد مع « « شريف » نفسه ، أن له سحرا خاصا ذلك الولد الذى فى مثل سنهم تقريبا وربما أصغر . ومثلهم فى السنة الثالثة من المرحلة الجامعية .. سوى أنه فى كلية الهندسة .. ولكنه يلوح أكبر ونضج بكثير كلما تحدث فى أمر من أمور الحياة ...

* * *

لو قابله صبرى مرة بالصدفة مثلما حدث لأذاب عناده فى لحظة خاطفة .. بعد لحظات من لقائه سوف يناديه باسمه مختلقا له طريقته فى تنغيم الاسم ، وتدليل صاحبه .. له طريقته فى التنقل من موضوع لآخر ، لا يوجد هناك كلام يخشى أن يقوله .. يتكلم عن أمه وأبيه كما يتكلم عن أى شخص يعمل عندهم فى السراى أو الحقل بنفس البساطة والصـــدق والاهتمام .. يبدو وكأنه يستحيل أن يكذب .. ! يبدو وكأنه لم يصادف فى حياته ما يجبره على أن يخفى شيئا أو أمرا .. ثقته فى نفسه ، فى أن الناس سوف يتقبلونه ويحبونه .. ثقة لا تنبعث بأى حال من كونه « ابن عباس بك المواردى » لا بل من ذاته ، من سواد عينيه اللتين لا يضارع سوادهما الا سواد شعره الناعم الكثيف !

ابتنســـامته الحلوة التى تشرق فى كل ملامح وجهه والتى لا يشوبها تردد أو اكتئاب أو خوف ، عيناه المليئتان بالذكاء والثقة والحيوية ، حساسيته الفائقة التى تدفعه أحيانا الى أن يجيب .. ليس فقط على ما توجه اليه من أسئلة ، بل على ما يشعر أنك تود أن تسأل عنه لكنك تتحاشى أو تتهيب ! أما هو فلا يتهيب أن يقول :

* * *

« كان لابد أن يعود بابا الى البلد بعد أن أعفى من مناصبه .. رجل مثله لا يمكن أن يظل بلا عمل .. قانون الاصلاح الزراعى لم ينقص من أرضنا شبرا واحدا .. واشراف بابا نفسه على زراعة الأرض سوف يعوضنا الكثير ، كان عمى يبتلع الكثير من ايراد الأرض فى غيبة بابا »

ويكاد أحمد يصرخ فيه :

كن عاقلا .. لا تقل مثل هذا الكلام امام احد ، فالناس فى هذا البلد يعملون حساب عمك هذا ، ودائما سيكون هناك من ينقل له هذا الكلام .

« لم أكن أتصـــــور أن يكون وجودى فى البلد طيبا بهذه الصـــــورة .. لولا الفراغ والناموس لما فكرت فى العودة الى مصـــــر .

ــ ومتى تنتوى العودة ؟

ــ لم أعد مستعجلا .. فى الحقيقة معرفتى بك .. « لا يجرؤ على أن ينقل لصبرى مثل هذا الاطراء حتى لا يتهم فى تواضعه » لم أكن أتصور ان أجد هنا شخصا مثلك ، ان الحديث معك أو لعب الشطرنج كلاهما متعة لا تقدر .. أنت تسأل عما لا تعرف بذكاء ، وتتكلم عما تعرف بتواضع « لم يكن أحمد قد تلقى فى حياته كلها مثل هذا المديح » قبل الظـــروف الاخيرة كنا نقضى

الصيف فى أوربا أو لبنان « دهش أحمد ، انه يطلق على الثورة اسم الظروف الأخيرة ، ولكن روعة الاطراء الذى سمعه منذ لحظات جعلته لا يعلق » الريف فى أوربا مذهل يا صديقى ؛ مرتفعات تكسوها الثلوج شتاء ، والخضرة صيفا ، ووهاد يتحول بعضها مع الربيع الى بحيرات ، وعلى مدى البصر غابات مثيرة تشقها طرق السيارات أحيانا ، ويمكنك اذا أردت أن تركن سيارتك فى جانب من الطريق لتوغل قليلا فى الغابة ، ويمكنك آنذاك أن تتناول طعامك او شرابك أو ترقد الى جوار صديقتك على الأرض بين الأشجار .

* * *

ويفكر احمد بأن يسأله سؤالا ، ولكنه ينطلق بسؤال مختلف :

ـــ لكن الا خوف من حيوانات الغابة ؟

ويضحك شريف وهو يستطرد :

ـــ لا توجد فى هذه الغابات حيوانات بالمعنى الذى تتخيله ، وحتى اذا وجد بعضها فالخوف حينئذ على الحيوانات لا على الناس ..

ويهم احمد بالكلام ولكن شريف يتدفق :

ـــ ليس هناك اجمل من الطبيعة سوى البشر انفسهم .. الفلاحون هناك غاية فى الجمال والرقة والنظافة والنضارة .. المرأة هناك تحـــزق بالفأس مثل اقوى رجل هنا دون أن تفقد انوثتها أو رقتها أو نظافة ثيابها !

ويصر احمد هذه المرة على التدخل :

ـــ وفلاحتنا هنا .. متى يصبح مثل فلاح أوربا ؟

ــ ولماذا فلاحنا وحده ؟

ــ الأغنياء عندنا مثل أغنياء أوربا .. أنتم مثلا

ــ أنت لا تعرف الحقيقة عن الأغنياء هناك أو هنا ؟ توجد فروق كثيرة وكبيرة هل تسمع عن « رشدى حافظ » ؟

ــ نعم .. أنه عضو الوفد الذى كان يتهمه بعض الوفديين بأنه شيوعى ..

* * *

ــ مرة كاد بابا يضربه فى النادى بسبب آرائه ، ولكننى شديد الاعجاب بآرائه ، ولا أراه شيوعيا كما يزعمون .. هو الذى شرح لنا مرة كيف أن تقدم الفقراء فى مصر رهن بتقدم الأغنياء أنفسهم فالتقدم شىء مختلف عن مجرد الثراء .. التقدم كالنمو لابد أن يشمل الجذور والفروع معا ، ولكن فى مثل ظروف بلادنا لابد ان تبدأ دورة التقدم حركتها من الأغنياء أنفسهم ، هل قرأت كتاب : « التقدم من أين ؟ » .. ونطق اسم المؤلف الاجنبى بسرعة فلم يسمعه احمد ولم يستوضحه اكتفى بقوله : لا !

* * *

واستطرد شريف :

ــ لن أعيرك الكتاب .

ثم تابع بلهجة ضاحكة :

ــ مع اننى أختلف مع بابا فى الكثير من آرائه الا أن له رأيا يعجبنى فى مسألة اعارة الكتب ، يقول بابا : لماذا يرى الناس ان عدم رد النقود خطيئة ولا يرون نفس الرأى فى عدم رد الكتب ... بابا لا يطيق القراءة مع أنه يمتلك مكتبة ضخمة ، ولم أره مرة يعير كتابا لأحد .. ! ولهذا ..

ويتدخل احمد عامدا هذه المرة ليوقف تدفق شريف :

ـــ اقرأ كتاب « سيد قطب » عن « العدالة الاجتماعية فى الاســــــلام » .

ـــ انت من الاخوان المسلمين اذن ؟

ـــ لا .. ولكنى أقرأ ما يروق لى .

ـــ انتهى عرس الاخوان مع الثورة ـــ اذا كان هذا التعبير يرضيك ـــ وأنت تعرف أن لى رأيا فى معنى الثورة لكن الثورة فى مصــــر لا تفرق الآن فى عدائها بين الوفد والاخــوان وجميــع الاحزاب !

ـــ لم أكن عضوا فى أى حزب ..

ـــ ولا أنا .. وكون بابا « نائب سابق » فى برلمان الوفد وشخصية وفدية لا يجعل منى بالضرورة وفديا ، ولكن يمكنك أن تضعنى فى الحزب الذى يحب البنات والرياضة والفن والقراءة والرحلات .

ـــ وأنا يمكنك أن تضــــعنى فى أى حزب يحب العدالة والفن ..

ـــ العدالة والفن .. أنت مثل جميع الشــــعراء تحب أن تستعمل الكلمات الجميلة والغامضة .. هل فكرت طويلا فى معنى العدالة أو الفن ؟

ويقول أحمد محاولا أن يحيل الموضوع الى فكاهة :

ـــ حين أكون معك اسمع أو أتكلم ، وأفكر فقط حين أكون وحــــدى ...

ويضحك شريف قائلا :

ـــ تعنى أنك تتكلم وتسمع بدون تفكير ؟

ـــ نعم .. لأتابع حصانا مثلك فى حديثه !

ـــ سوف نكون حمارين معا لو تركنا هذه البنت الحلوة التى تملأ القلة من مياه الساقية تمضى دون أن نقول لها كلمة حلوة ! لن يكون فى هذا شىء من العدالة !

ـــ كن حذرا فالناس هنا ..

ويقاطعه شـــريف :

ـــ يا أهبل أنت لا تعرف الناس هنا أو هناك ..

ثم يقول مستدركا :

ـــ وأنت أليست لك مغامرات هنا مع البنات ؟

ـــ ليست لى مغامرات !

ـــ مستحيل .. أنت تكذب .. لكن لماذا تكذب ؟

ـــ « لا أعرف » ..

هكذا نطق أحمد وكان يريد أن يقول :

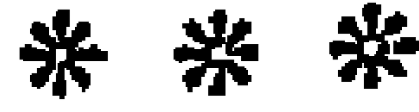
ـــ « لا أكذب » .

وفى الحقيقة أن أحمد لم يكن يعرف لماذا يكذب أحيانا مع شريف بالذات ؟

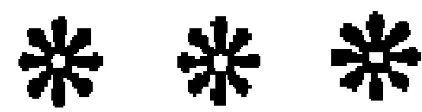
* * *

ولم يكن يعرف أيضا كيف يصوغ من هذا كله كلاما يدخل عقل « صبرى » ويثير رغبته فى أن يجىء معه ليتعرف الى شريف ، لكن أى شىء يجعل أحمد يصر على أن يصبح « صبرى » طرفا فى هذه العلاقة ؟

الا انه اعتاد أن يجده شريكا له فى كل شىء وبالطريقة التى يراها ويريدها أبوه ؟ ما أكثر ما كان يضيق بهذه الطريقة ويسعى الى التخلص منها بشكل لا يجرح شعور صبرى !



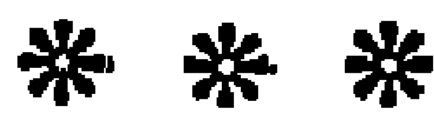
ولكن المسألة هذه المرة تختلف كثيرا فهو لا يريد أن يأتى بصبرى وحده للقاء شريف ، لو أمكنه أن يأتى له بكل تلاميذ البلد ليتعرفوا اليه لما تردد ، فشهوة شريف الى لقاء الناس ... الى الكلام والحركة لا تقف عند حد .. وهو لا يريده أن يمل الحياة هنا ويعود الى القاهرة قبل أن تنقضى الأجازة .. لماذا أصبح وجود شريف يعنيه بهذه القوة ؟ ليته يعرف بوضوح .. ؟ فما يخيفه فى « شريف » لا يقل قوة عما يجتذبه اليه ، انه يخاف فيه تلك الحيوية الغريبة التى تجعله يبدو وكأنه شخص لا يمكن الامساك أو حتى اللحاق به ! ولكن ما يحبه فى شريف هو تلك الحيوية نفسها ، تلك الحيوية التى جعلته يشعر وهو يقترب منه بأنه هو الآخر ملىء بما لم يكن يشعر به من الحيوية والعنفوان .. طوال حياته وهو يرى نفســـــه كما يراه زملاؤه فى القرية فى مقدمتهم ، ومنذ بدأت علاقته بشريف وهو يلهث وراءه ، ذلك نوع آخر من التلاميذ ، الا أنه فى ظل هذا السباق اليومى بدأ يدرك الكثير عن حقيقة قواه الكامنة أيضا ..

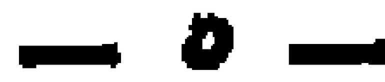


والغريب ان شريف نفسه هو الذى كان يقوده الى اكتشاف هذه القوى .. فهو لم يشعر أبدا فى اية لحظة أن ثمة سباقا بينهما من أى نوع .. هل يريد أحمد أن يأتى لشريف بكل تلاميذ القرية ليعرف بوضوح أنه لا يوجد ند حقيقى له فى القرية سواه ، سوى أحمد ؟

أم يريده أن يبقى ليدعوه مرة أخرى الى بيته ، ليرى من جديد تلك السمراء الجميلة التى هزت قلبه وكرامته ، ليعرف من هى ؟ ولماذا سخرت منه ؟ وما الحقيقة فى أقوال أخيها عنها ؟

ولكن شريف الذى يتحدث عن كل شىء تحت الشمس أصبح لا يتحدث عن أخته ولا يدعوه الى بيته .. ولكنه لم يفقد الأمل فى أن يفاجئه بذلك كما فعل أول مرة ، سوف تكون أقسى مفاجأة له أن يخبره بموعد سفره .. وأن يصبح ذلك كله .. لقاؤه بشريف وما فجره ذلك اللقاء فى نفسه مجرد حادث صيف لا معنى له ..





فى قلب الخضرة المتموجة التى تمتد بامتداد الحقول كانت ترتفع شمسية حمراء تتموج أطرافها البيضاء المجدولة فى مسرى النسيم تحتها كان يجلس شريف مستغرقا فى الرسم كأى فنان حقيقى ، أيمكن أن ينطوى أى فنان حقيقى على هذه القسوة التى يشعر أنها تكمن تحت بشرة شريف البرونزية ، والتى تبدو وكأنها السند الحقيقى لوضوحه وبساطته ؟

ولكنه بالتأكيد لم يكن يفكر فى مجاملته حين عبر عن تأثره بلوحة « الشلال » . وربما كانت لوحة « الهدار » هى الاختبار الحقيقى له كفنان مبدع !

ترى هل يجرؤ على أن يقول رأيه الحقيقى فيها لو وجدها دون أعماله التى تعتمد على النقل ؟ وأن يقول له :

— أنت مجرد ناقل ممتاز !

لا يدرى ، فكر لو أن ذلك قد حدث أن يقول له مداعبـــا ومتخلصا من المأزق :

ـــ الافضل أن ترسم صورة لوجه « نجوى » ، فهى أجمل من اى شىء هنا تحاول رسمه !

سيدو وكأنه يرد على المزاح القديم بمزاح جديد وهو فى نفس الوقت ينبش موضوع نجوى ، وقد يروى لها النكتة ببساطته، وحتما سترد .. وتتحرك المياه الراكدة ..

واستقبله صوت شريف وهو يقترب منه :

ـــ اهلا .. أهلا .. أين قريبك ؟

ـــ مشغول اليوم .. ربما يجىء غدا !

ـــ حظه سيىء .. لن يرى هذه الصورة وقد اكتملت !

* * *

قال ذلك وهو ينحنى ليدفع الى أحمد بكرسى من كراسى البحر كان مطبقا بجواره ، قال أحمد وهو يهم بالجلوس وعيناه على اللوحة :

ـــ اراها بدلا عنه !

ـــ طبعا .. وهو يشتغل بدلا عنك .. تلك هى العدالة التى تحبهـــا .

فوجىء أحمد ، كيف ومتى عرف عنهما هذه التفاصيل ؟

تابع شـــريف :

ـــ فيم تفكر ؟ لماذا تقف جامدا والصورة تتحدث اليك ؟

ـــ رائعة .. أكثر من رائعة !

ـــ منافق عظيم .. أنت لم تتأملها جيدا بعد .

ـــ لعنة الله عليك .. أنت لا تترك لأحد فرصة حتى للنفاق .

ولم يجرؤ أحمد رغم جو المرح الذى ساد بداية اللقاء ، ورغم ان انطباعه الأول من الصورة لم يكن مثيراً ، على أن يشير من بعيد أو قريب الى نجوى .. وراح يتأمل اللوحة من جديد !

ألمح الى أنه ينقصها شىء لا يعرف ما هو ؟ أنها حقا تشبه « الهدار » فى كل شىء ، لكن ثمة شيئا ناقصا !

* * *

ثم تابع بعد لحظات من الصمت وقد تملكته روح الغيظ من نفسه من عجزه عن الاشارة الى موضوع « نجوى » .. تابع وكأنه عثر فجأة على هذا الشىء الناقص :

ـــ هل تعرف ماذا يعنى « الهدار » بالنسبة للناس هنا ؟ ان كل الفروع المائية تبدأ منه ، انه القلب ، روح الحقول والحيوانات والطيور والناس ، مصدر الحياة لكل شىء ، والناس هنا يحبونه ويخافونه ، فمن يسقط هنا خلف الهدار لا يظهر ، لا أحد يجرؤ على السباحة أو الغوص هنا سوى البحار ! هنا الدوامات القاتلة .. هنا مات أشجع أطفال القرية الذين تحدوا نصائح الآباء ، وتراهنوا على أن يعبروا البوهية من خلف الهدار .. كان لابد أن تحس الهدار كما يحسه الناس هنا لتعرف كيف ترسمه ؟

ـــ تقول لى كل ذلك الآن ...

ـــ لا أدرى لماذا لم أقله لك من قبل ! ربما أنت المسئول ، جعلتنى اشعر بأنك تعرف كل شىء افضل منى حتى عن القرية .. والغريب أنى صدقتك .

قال شريف مستردا لروح المرح :

ـــ لم يعد لى عيش فى بلدكم ... ساجمع أدواتى وأسافر غدا الى القاهرة ..

ـــ لا تقل هذا الكلام .. لابد أن تستمع الى آراء اخرى فى اللوحة .. ما رايك لو اخذت راى الفلاحين ؟

ـــ الم اقل مرة أنك أهبل ؟ ماذا تظنهم يقولون ؟

ـــ لا أعرف .. لكن جرب ..

صمت شريف قليلا .. ظن احمد أنه يفكر فى أقواله لكنه فاجاه بسؤاله :

ـــ لماذا حاولت أن تبحث فى لوحتى عن شعورك أو شعور الناس هنا « الهدار » ؟ لماذا لم تحاول أن تبحث عن شعورى أنا به ؟ أم انها تخلو فى رأيك من أى شعور ؟

* * *

فوجىء احمد بسؤال شريف ، قال كمن يتخلص من مأزق :

ـــ معك حق .. لابد أن أعيد النظر فى لوحتك .. وأن يراها غيرى .

ثم اكمل وكأنما عثر على نجدة :

ـــ فى بلدنا تلاميذ كثيرون ويحبون أن ...

وقاطعه شـــريف :

ـــ اين هم ؟ اننى أسمع عنهم ولا ارى غيرك !

ثم تابع بنبرة من يسأل عن بديهية :

ـــ لماذا لا يكون عندكم ناد تلتقون فيه ؟

ـــ كانت هناك دائما محاولات لانشاء ناد ولكنها كانت تفشل .

ـــ لمـــاذا ؟ ..

ــ كانوا يختلفون حول أشياء كثيرة : من يكون الرئيس ؟ وفى اى ناحية من البلد يفتح النادى ؟ ودائما كانت هناك مشكلة النقود .

ــ اجلس وارو لى بالتفصيل لماذا كنتم تفشلون ؟

ــ ٦ ــ

فى هذا اليوم من صيف عام ١٩٥٤ ، وفى المسجد الكبير فى قرية الزهايرة ، وبعد أن فرغ الناس من صلاة الظهر ، ومضى أكثرهم الى بيوتهم أو أعمالهم ، بقى عدد من شباب القرية تجمعوا حول « رجب الصعيدى » الذى أصبح المسجد شبه بيت له !

كان المسجد بالنسبة لهم ايضا انسب مكان ، فالمسجد بسقفه المرتفع ، بنوافذه العالية ، باتساعه وموقعه فى الجهة البحرية من القرية يصبح فى الظهيرة وفى شهر يونيو انسب مكان يأوى اليه من لا مأوى له ، أو من له مأوى لا يطاق فى حر الظهيرة ..

* * *

وقبل ان يصبح المسجد شبه بيت لرجب الصعيدى كانت أكثر البيوت فى القرية بيتا له ، فقد قضى سنوات شبابه يتنقل كأجير بين البيوت والحقول .. أجير يأخذ أجره مرة كل عام ، ثم مرة كل شهر ، ثم أدرك أنه من الخير له أن يأخذ أجره مرة كل يوم ... ولكنه أدرك هذا بعد فوات الوقت .. بعد أن جف عوده وضاعت قوته .. وبعد أن أصبح الناس فى القرية ، أصحاب الأرض الذين كانوا يتنافسون عليه ويتزايدون فى أجره ، أصبحوا

يلخصـــون قصـــته كلها فى كلمة واحدة « هذا الولد لم تعد فيه فائدة ، لم يبق فيه جزء سليم غير لسانه ، لو أصابه المرض ايضا لاستراح الناس منه ، ومن كلامه » .

وكان هو بدوره يلخص حكمة حيـــاته كلها فى كلمات قليلة لا يمل من ترديدها لمن هم على شاكلته من الاجراء الذين يلتفون حوله حين لا يكون لديهم ما يعملونه ..

« يا أولاد .. الواحد منا بلا عافية لا قيمة له عند النساء ، وعند صاحب الأرض لا تبيعوا عافيتكم بالسنة أو بالشهر بيعوها باليوم .. فصاحب الأرض يحب أن يرى العمى بعينيه ولا يرى نفر الشهر جالسا فى الظل بدون عمل ساعة من النهار .. بيعوها باليوم ، وحين لا يكون هناك عمل استريحوا وأنتم بعافيتكم ، فليس هناك ألعن من الا تعرف الراحة الا وأنت مريض » .

ولم يكن كل الأولاد يقتنعون بكلامه .. كان هناك من يقول له :

ـــ وأين هو الشغل الذى يأتى كل يوم أو حتى كل أسبوع يارجب ، على الاقل يضمن نفر الشهر كل يوم اللقمة والمأوى ؟

وكان « عطية » الذى حل مكانه فى غيط الشيخ « عرفة » مأذون القرية وفى بيته .. كان عطية يقول له فى شبه تأنيب :

ـــ انت الذى ضيعت قواك مع النساء وفى الحشيش ، انت الذى ....

ويقاطعه رجب بلهجة استخفاف :

— وماذا يعرف صبى مثلك عن النساء أو عن الحشيش ؟
يا مغفل لا تساوى الدنيا شيئا بدون النساء ، ولا تساوى النساء شيئا بدون الحشيش !

ثم يضـــــيف :

— عندما تكبر سأحكى لك الكثير مما لا تعرف عن خفايا هذا البلد .. أما الآن فهذا وقتك لتجرى فيه كالجحش الصغير فرحان بقوتك يركبك كل من يعلنك !

ويتدخل ولد آخر ليؤكد روح المزاح فى الموقف كله وحتى لا يغضب رجب أو عطية :

— وأنت يا رجب .. قل لنا .. كم تساوى الآن ؟

— أغلى قليلا من النساء وأرخص من الحشيش ، ولكن هذا البلد لا يعـــــرف قيمتى ، لا أحد يريد أن يدفع فى مليما ، حتى زوجتى التى أذقتها النعيم ، والتى كتبت باسمها البيت فى لحظة مزاج طردتنى منه ..

* * *

ولكن رجب كان يحيا رغم ذلك كله ، ويعمل ، كان يملأ بالشادوف الحوض الذى تشرب منه بهائم القرية على حافة الترعة، ويدير طلمبة المياه الجوفية ليملأ خزان المياه بالمسجد .. ويطوف القرية وهو يقود الماشية التى ستذبح فى الغد حين تكون هناك مناسبة للذبح — وقد أحاط عنق الماشية بعقود خضراء من فروع الشجر وحوله الأطفال يرددون نداءاته عن الذبيحة ، وأوصافها وصاحبها ، وعن سعر اللحم ، ومكان الذبح وزمانه لتعلم القرية بالنبأ الخطير ...

كان يعيش ، ولكن ما يحير الناس فى أمره أن مثل هذه الأعمال لا تكاد تكفى لكى يحصل رجل على قوته ، أما أن يرى هذا الفقير

الدائم مسطولا دائما فمن أين اذن يحصل على ثمن الحشيش ؟ قد يجود بعض الناس بالطعام ، ولكن تجار الأفيون والحشيش لا يجودون به ؟ وأغلب الأعمال التى يقوم بها يأخذ اجرها حبوبا .. لا أحد يعطيه نقودا حتى لا يصرفها على الحشيش .. ومع ذلك فقلما يفيق وقلما يكف عن الكلام بغير حساب . مثيرا قلق الناس احيانا بكلامه ، ودائما بالطريقة التى يحصل بها على ثمن المخدر ! ولكن هذا اللغز الذى يحير بعض الناس فى قرية « الزهايرة » لم يكن هو ما يثير الأولاد الذين اجتمعوا حول رجب الصعيدى فى هذا اليوم من صيف عام ١٩٥٤ كانت تلك حكاية قديمة ، أما الحكاية الجديدة التى يبدو انهم وجدوها تصلح موضوعا للحديث فقد كانت تلك التى يرويها « عوض » أحد الاجراء فى القرية ، يرويها فى اختصار :

* * *

ـ رأيت شريف بن عباس بك واحمد بن الحاج ابراهيم ومعهم بعض التلاميذ يطوفون بالبيوت لجمع تبرعات من أجل فتح نادى بالبلد .

وبالنسبة لرجب لم يجد فى المسالة كلها ما يهمه !

مط شفتيه قائلا : مالنا نحن وهذه الحكاية ؟

ووجد « عطية » فيها فرصة للمزاح قال لرجب :

ـ قد يمرون عليك غدا يا رجب فبكم تنوى أن تتبرع لهم ؟

ـ بالحصيرة التى أنام عليها فى الجامع .

ـ الأحسن أن تتبرع لهم بالجامع كله .. على الأقل ، ساعتها يمكنك أن تطلب منهم ان يعطوك بعض ما جمعوا من تبرعات مقابل الجامع ..

قال « رجب » متماديا فى المزاح :

ـــ لست مغفلا حتى أفعل هذا .. فلن يجمعوا من البلد اكثر من جنيهين .. تريدنى أن أعطيهم هذا الجامع بجنيهين ..

قال « عطية » بلهجة تتلاشى فيها الحدود بين الجد والمزاح :

ـــ أنت مغفل فعلا .. فوجود ابن عباس بك معهم يحرج الناس ويجعلهم يدفعون ..

ـــ أنت لا تزال جحشا صغيرا .. ولن تفهم ناس هذا البلد الا بعد أن تكبر وتصبح حمارا .. الناس هنا يشعرون بالحرج فى أى شىء عدا الفلوس ! هل تفهم ؟ أراهن انهم سيقولون لابن عباس بك وماذا دفع أبوك ؟

ويرد « عطية » بغيظ :

ـــ « الشيخ عرفة » دفع امامى خمسين قرشا .

ـــ لا أصدق أن الشيخ عرفة يتبرع حتى بخمسة قروش !

ـــ واذا ظهر أن كلامى صحيح ؟

ـــ اكون قد جننت أو يكون « الشيخ عرفة » هو الذى جن !

قال « متولى » وهو آخر ولد انضم للجماعة ولكنه يريد أن يؤكد أهميته بما يحمل من معلومات جديدة :

ـــ سمعت انهم سيطلبون من الأهالى بعد صلاة الجمعة أن يتبرعوا للنادى ، وأنهم ...

ـــ سمعت انهم سيطلبون من الأهالى بعد صلاة الجمعة أن يتبرعوا للنادى ، وأنهم ...

وقوطع « متولى » :

ـ ما دخل الأهالى بهذا الموضـــوع ؟ هل هو مشـــروع للانارة ...

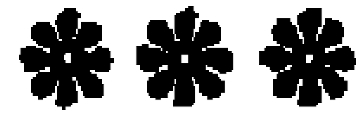
ـ النادى لا يهم غير التلاميذ .. ولن يدفع غير آبائهم .

قال « متولى » محاولا أن يوضح ما سمع :

ـ طبعا لن يدفع غير آباء التلاميذ ، لكن التلاميذ يريدون ان يحرجوا آباءهم أمام بعضهم وأمام الناس ليدفعوا .. فكل واحد من الآباء يريد أن يلزم ابنه غيظه وبيته ولن يدفع للنادى الا محرجا !

قال رجب :

ـ الم أقل لكم أنهم لن يجمعوا شيئا يذكر ؟ وتريدونى أن أتبرع لهم بهذا الجامع ؟



ـ ٧ ـ

أمام دكان « الخلفاوى » جلس بعض التلاميذ مع بعض الأهالى حول « صبرى » الذى كان يقرأ لهم تعليقا على مشروع اتفاقية الجلاء .. كان التعليق يؤكد أن انجلترا ما كانت لتوافق على جلاء قواتها عن مصر لولا ما تتعرض له هذه القوات فى منطقة القناة من هجمات الفدائيين المصريين ، وكان حلم الجلاء الذى ظل الشعب المصرى يناضل من أجل تحقيقه ما يزيد على سبعين عاما قد أصبح وشيك التحقق ، فانجلترا توافق فى بند من بنود هذه الاتفاقية التى وقعت بالأحرف الأولى على أن تجلو بجيوشها جلاء كاملا عن مصر بعد عامين من التوقيع النهائى للمعاهدة ! على أن ما كان يثير الخلاف آنذاك هو بند ينص على السماح للقوات الانجليزية بالعودة الى قواعدها فى منطقة القناة اذا حصل هجوم على تركيا

في خلال سبعة أعوام من بدء الاتفاقية .. كان البعض ضد الموافقة على هذا البند .. وكان هناك من يقول : لقد صبرنا هذه الأعوام الطويلة فلماذا لا نصبر قليلا ؟

أما « صبري » فكان يقول :

« ما دمنا عرفنا الطريقة التي ترغم الانجليز على قبول فكرة الجلاء فلماذا لا نواصل الضغط بهذه الطريقة حتى يتحقق الجلاء بلا شروط ؟ ولماذا نصبر بعد كل هذه السنين من الصبر ؟ وكيف نثق بأن الانجليز لن ...

وفوجىء صبري في هذا اليوم بمن يسأله في موضوع آخر تماما غير ما كان يتحدث فيه :

ـــ لماذا لم تنضم لجامعي التبرعات ؟

وتطلع « صبري » في عيون الجالسين حوله وكأنه ينتظر ان يرى استنكارا للسؤال الذي يغير الموضوع .. فوجد استنكارا في بعض العيون ، وفي بعضها الآخر فضـــولا لمعرفة اجابته على السؤال الجديد ، كان موضوع النادي قد أصبح يشغل الناس أيضا في الأيام الأخيرة ، وكان موقف صبري من الموضوع يهمهم ، فهو الذي يقرأ لهم الصحف ، ويشرح لهم الأحداث ...

وتطوع « خيري » وهو زميل « ســـــمير » الذي ألقى بالسؤال ، زميله في كلية التجارة .. تطوع خيري بالاجابة نيابة عن « صبري » الذي كان لايزال يستطلع الوجوه :

ـــ من الخير الا يزيد عدد المتسولين ..

وقال ثالث :

ـــ أخبار الحملة لا تسر عدوا أو صديقا ..

أخيرا قال صبري :

ـــ يا جماعة اذا لم تتعاونوا معهم فاسكتوا عنهم .

قالها بلهجة استنكار واضحة ...

ـــ وأنت لماذا لا تتعاون معهم ؟

كان سمير هو الذى يعيد سؤاله بصيغة اخرى .

واجاب صبرى :

ـــ يكفى أحمد .. لو كان وجودى ضروريا لما تأخرت ؟

الح سمير :

ـــ أصبحت لا تريد المجاهرة برايك ..

ـــ قلت رايى أكثر من مرة ، فكرة النادى فى حد ذاتها فكرة جيدة .. ما عدا ذلك أمور جانبية لا تهم احدا ..

عاد سمير يؤكد :

ـــ طبعا .. لو أنها فكرتنا ، لو انها لمصلحتنا ، أما أن نفتح ناديا حتى يتمكن ابن عباس بك من قضاء اجازته فى بلدنا فهذا هو السخيف .

تدخل « عمرو » وهو أصغر التلاميذ سنا ، وفيه نزعة للاستقلال بالرأى :

ـــ دائما تأخذون كل شىء بروح سيئة .. يستطيع «شريف» أن يقضى أجازته فى القاهرة أو رأس البر ، أو على الأقل فى سراى أبيه ، ومع ذلك فهو يدور فى البلد من أجل عمل يفيدكم ولا كلمة طيبة عنه !

ـــ قل لنا ما الذى جعل شريف يتذكر بلده فجأة ، ويعود اليها ؟

ـ اذهب واسأله .. اذا كانت الاجابة تهمك .. أما أنا فلا يهمنى لماذا جاء ؟ يهمنى ماذا يفعل ؟ وماذا تفعل أنت ؟

قال « سمير » بنبرة لا تخلو من زهو :

ـ سأسافر بعد أيام الى معسكر أبى قير بالاسكندرية ضمن فوج من طلبة الكلية .. سنقضى شـــهرا فى تدريبات الحرس الوطنى والتصييف ..

ـ طبعا .. ولهذا لا يهمك أن يفتح النادى أو لا يفتح ..

تابع « سمير » بلهجة من لا يعبأ بأى رد :

كان لابد أن تحدث ثورة فى البلد حتى نرى البحر لأول مرة فى حياتنا .. !

وأضاف خيرى الذى يسانده دائما :

ـ وحتى يصيف « شريف » فى الزهايرة .. !

قال صبرى فى ضجر :

ـ بهذه الطريقة يصبح كلامنا بلا قيمة سواء فى مشـــكلة النادى أو فى اتفاقية الجلاء ...

***

ـ ٨ ـ

أهالى قرية « الزهايرة » مثل غيرهم من أهالى الريف يعملون دائما كجماعات فى أعمال البذار والتنقية والحصاد ولكنهم يعيشون حياتهم بعد ذلك كأفراد .. !

بعيدا عن أوقات العمل لا يلتقى الناس فى قرية الزهايرة

كجماعة الا فى المناسبات .. فى المآتم وفى الأعراس ، وفى الموالد ، وفى المساجد لأداء الصلاة .

***

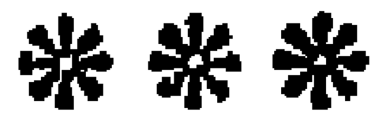
ربما لهذا السبب يتشبث الناس فى قرية الزهايرة وفى غيرها بهذه المناسبات ولا يتخلفون عن أداء هذا النوع من الواجبات ، فهى فرصتهم الوحيدة ليلتقوا فى غير أوقات العمل ويتكلموا فى شئون حياتهم كما يتكلم الرجال المستريحون ، وهم فى الغالب يتكلمون فى لهفة غير مبالين برهبة الموت . ولا بجلال العبادة ، ويستمرون فى الكلام حتى يرتفع صوت فى المسجد أو الخيمة يحذر وينذر ويدعو الى الصمت توقيرا لكلام الله أو لبيته ..

ولكن فرصتهم الحقة فى اللقاء تأتى فى الموالد والأعراس .. انها تصبح فرصة للكلام وللفعل معا .. الكلام والفعل اللذان يتفجران من وجود الجماعة ذاتها .. وبعيدا عن العمل .. وتبقى مثل هذه الفرص دائما أقل من حاجة الناس للكلام الحر وللفعل الطليق .. وحين تجىء يتزاحمون عليها .. تتزاحم عواطفهم وكلماتهم ، وأيديهم وأرجلهم ، ولأسباب كثيرة جدا .. يبدأ الشجار .. يبدأ بالكلمات ثم بالأيدى .. ما من عرس أو مولد فى قرية « الزهايرة » أو فى غيرها يمضى دون شجار ، ان لم يكن بين الكبار فبين الصغار ، وحين تسكن العاصفة ، ويبدأ العقلاء فى البحث وراء الأسباب يهولهم اتساع المسافة بين الأسباب والنتائج ..

* * *

ويرسخ فى وجدان الجماعة أو كبارها على الأقل أن التجمع خارج دائرة العمل نذير سوء ، وينطوى دائما على ما لا يكون التنبؤ بعقباه من الشرور ، ففى هذا التجمع شىء لا يمكن الامساك به أو السيطرة عليه .. شىء فيه من الشر بقدر ما فيه من الغواية

والجاذبية والخير .. شيء ينتظره الناس بلهفة وبفارغ الصبر حتى اذا جاء وضعوا أيديهم على صدورهم وقالوا : اللهم اجعله خيرا .. وحين سمع الحاج ابراهيم من ابنه أحمد لأول مرة أول كلاما عن فكرة النادى ، انقبض قلبه .. وعاودته ذكرى محاولات سابقة فاشلة قام بها تلاميذ آخرون من قبل . فالنادى فى نهاية الأمر فيه بذرة هذا التجمع الملعون الذى لا يستريح اليه عاقل فى القرية مهما بدت دواعيه مقنعة .. ومهما كانت عناصره متآلفة ..



ولكنه ترك ابنه حتى فرغ من كلامه .. ولم يشأ أن يصدمه فى بداية الأمر خاصة وأن « شريف ابن عباس بك الماوردى » يشاركه فى الحماس للفكرة وللعمل على تحقيقها ...

قال فى نفسه :

قد يعمل الناس حسابا لابن عباس بك وحينذاك لا يجب أن أبدأ بخذلان ابنى .. واذا وقع ما أتوقعه فهى فرصة ليتعلم الولد بعض الحقائق بنفسه ..

وحين كان بعض الناس يلومونه قائلين :

ـــ كيف تترك ابنك ياحاج يمر بالبيوت من أجل موضوع سوف يجلب الصداع للبلد كله ؟

كان يقول لهم :

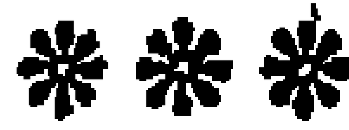
ـــ دعوهم بعض الوقت أنهم أغرار .. وسوف يلحق بهم الصداع مما يلقونه من كلام الناس .. وسوف يتخلون هم عن الموضوع !

ولكن الصداع الحقيقى بدأ يلحق رجال القرية الكبار مما يسمعونه من التلاميذ ، وبالتحديد « من شريف بن عباس بك » ،

فى البداية كانوا يظنونه سـوف يدرك المغزى الحقيقى لتأجيلهم وتسويفهم فى دفع التبرع ، وسوف يدرك أن هناك فارقا بين بشاشة اللقاء ، وسخاء الوعود ، وبين دفع الفلوس ، ولكنه كان يأخذ كلامهم مأخذ الجد ، وحين يحدد أحدهم موعدا لدفع التبرع يذهب اليه فى نفس الموعد فاذا لم يجده ، قال له فى أول مرة يلقاه بعدها وأمام كل الناس :

ـ كيف تخلف وعدك ياحاج ؟ ألم تعلن اقتناعك بفكرة النادى .

واصـبح الخوف الأعظم لكبار الرجال فى القرية أن يتعلم أولادهم طريقة « شريف » فى الكلام والعمل .. وأن يتجرءوا فى السؤال والمناقشة ..



ولم يكن يخطر ببال أحد أن تصـل الأمور الى حد أن يقف « شريف » فى المسجد بعد صلاة الجمعة ليشرح للناس أهمية أن يكون فى البلد ناد ، وكأن النادى هو الحل السعيد الذى كانت تنتظره البلد لتصبح أيامها سعيدة .. !

أن أحدا لم يفهم كل كلمة قالها شريف فى هذا اليوم مع أن شريف لم يقل كلاما كثيرا .. فى هذا اليوم .. !

ولكنهم جميعا فهموا لعبة أولادهم حين بدءوا يطالبونهم أمام الناس بالتبرع .. لقد بدءوا بالعمـدة .. وكان لابد أن تتـوالى التبرعات فلا أحد يحب أن يبدو أقل من أحد فى هذه المواقف .. « عباس بك » وحده هو الذى نجا من هذه المصـيدة لأنه لا يحضر الصلاة فى يوم الجمعة ولا فى غيرها .. وكبت الرجال غيظهم من عباس بك ومن ابنه ، ومن أبنائهم جميعا ..

وكادت خطة التلاميذ تنجح لولا تدخل « رجب الصعيدى » فى الوقت المناسب ، روعته السهولة التى تخرج بها النقود من

جيوب الناس ، طوال عمره ، وحتى فى أيام الانتخابات لم يبصر النقود تخرج بهذه الطريقة الجماعية المثيرة ، لتوضع فى يد من لا يحتاجها ولا يستحقها ، وصرخ محتجا فى قلب الجامع :

ــ يا بلد لا تعرف الخجل .. ولا تعرف الحق .. تدفعون من أجل النادى ولا تدفعون لاصلاح طلمبة المسجد العطلانة من شهور .. ولا تفكرون فيمن يديرها لكم ..

وامتدت الأيدى تنوشه من كل جانب ، وبدأ الشجار الملعون .. وتدخل الرجال الكبار حتى لا يتطور الشجار ، ولكنهم جميعا ودون اتفاق وجدوا فيما حدث من الشجار .. فرصة للتخلص من فكرة النادى الى الأبد ! لقد تعمدوا أن يتأخروا قليلا فى اطفاء الحريق .. حتى تكون العبرة واضحة والحجة قوية ، وبعدها بدءوا يتكلمون فى رصانة لأبنائهم ولغيرهم ..

ــ قلنا لكم .. مثل هذه الأمور لا تجلب سوى المصائب .

ــ لم تكن تلك سوى البداية .

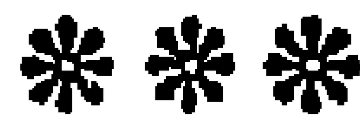
ــ كان يمكن أن يكون هناك قتلى وجرحى فى مثل هذا اليوم المشئوم !

ــ الحمد لله انها اقتصرت على اصابة رجب !

ــ مثل هذه المواقف تسمح للأراذل أن يكون لهم صوت وأن يجروا أولاد الناس الى الهلاك !

لقد أصيب رجب ببعض الكدمات والجروح ، وعالجوه منها كما أصابوه بها ، ولكنهم اطمأنوا الى أن فكرة النادى قد ماتت الى الأبد ..

فى منزل الحاج ابراهيم اجتمع الرجال الكبار فى القـرية لبحث الموقف ، كانت تلك أول مرة يوشك فيها أولادهم أن يخرجوا من أيديهم ، والآباء فى قرية الزهايرة مثل الآباء فى كل القرى ينظرون الى ابنائهم كأنهم جزء من ثروتهم وكل فلاح يطمئن الى النقود التى فى يده أكثر مما يطمئن الى تلك التى فى جيبه ..



وقد هالهم أن الأولاد الذين كانوا يتجمعون حول « رجب الصعيدى » فى المسجد كانوا يعرفون ما يبيته التلاميذ من طلب تبرع الاهالى بعد صلاة الجمعة ويرددونه بينما الآباء أنفسـهم يفاجأون بما يحدث ..

وكان الشيخ عرفة مأذون القرية ووالد « سمير » هو الذى أوضح هذه الحقيقة للرجال بعد أن سمعها من « عطية » الذى يعمل عنده نفرا بالشهر !

وقال الحاج ابراهيم : لا أرى حلا سوى أن يكون كل واحد منا مسئولا عن ابنه .. !

ــ كنا فى سلام ، وكان الأولاد فى حالهم ، حتى جاء ابن عباس بك !

فهم الحاج ابراهيم أنه المقصود بهذا التعريض .. قال :

ــ لا تنسوا أن مثل هذه الأمور كانت أحيانا تحدث .. ومهما كان رايكم فى « عباس بك » ، فقد كنا جميعا نتسابق الى زيارته حين يجىء ايام الوفد واذا كانت الظـروف قد تغيرت فليس من المروءة أن نتغير .. انه على كل حال ابن بلدنا .. ورجل له مركزه فى البلاد كلها ..

قاطعه رجل :

— متى كان عباس بك يعــرف بلده الا أيام الانتخابات وبيع المحصول ؟ ومتى كان ابنه يعرف أبناءنا ؟ ومتى كان أقاربه يعملون لنا حسابا ؟

واضاف آخر :

— اذا كانت الظروف قد تغيرت فلماذا لا تتغير لمصلحتنا كذلك.

— وهل مصلحتنا أن نعادى الناس ؟

قالها الحاج ابراهيم فى ضجر وقوطع :

من مصلحتنا الا نكون تبعا لأحد .

— وأن نرى فيهم يوما كما رأوا فينا أياما .

* * *

ســـــاد الجلسة توتر مفاجىء .. وتبادل الجميع نظرات قلقة ووضع الحاج ابراهيم حدا لهذا كله بقوله :

— أنتم فى بيتى .. وهذا يجعلنى احتمل مالا أحتمله فى غير هذا المكان .. ولكنى أريد أن أقول لمن لا يرى أبعد من أنفه .. اننى اذا كنت أساير عباس بك وابنه فمن أجل مصلحة الزهايرة أولا وأخيرا ، صـــــحيح انه اليوم ليس فى الحكومة .. ولكن لا تنسوا اننا كذلك دائما .. ولكنه لا يزال يمتلك ما يقرب من مائتى فدان .. وعلاقاته بكبار الموظفين فى المديرية وفى المركز كما هى ، واذا كانت الظروف تتغير كما تقولون .. فقد تتغير لصـــــالحه مرة أخرى وهذا ما رأيته يحدث دائما أمام عينى فى السنوات التى مضت من عمرى وهذا ما قد يحدث فى المستقبل .. واذا كان لكم رأى آخر فأحب أن اسمعه ..

وكانوا جميعا يعرفون أنه لا يحب أن يسمع رأيا بعد رأيه ولكن تلك كانت طريقته في الكلام ! وفي التأثير على الناس .. فراحوا يشربون القهوة ويفتحون طرقا للكلام ..

— ١٠ —

قال « صبرى » « لأحمد » وهما مسترخيان تحت اشجار التوت التى فى رأس الحقل .

— لأول مرة أعجب بصاحبك !

تطلع اليه أحمد دون أن يخفى دهشته وقال :

— يبدو أن مخالفتى هى هدفك الدائم !

قال « صبرى » بدهشة حقيقية :

— تعنى أن اعجابك به قد تأثر بما حدث أخيرا فى الجامع !

اعتدل أحمد فى جلسته وكأن ما سيقوله لا يتفق مع الاسترخاء :

— ليس الأمر كما تقول تماما . لكن ما حدث أخيرا سمح لى لأول مرة أن أرى فيه أشياء صدمت فكرتى عنه .

— لم تقل لى أبدا فكرتك عنه .. كنت فقط تدعونى لتقديم فروض الولاء ..

— لا تكن سخيفا ، فلست أملك حتى الآن فكرة واضحة .

ثم استدرك :

— لكن لماذا لا تقول لى أولا ماذا أعجبك فيه ..

ـ بالتأكيد سأقول لك .. بعد أن تكمل أنت ..

ـ لو عرفته مثلى عن قرب لأعفيتنى من الشعور بالبلاهة وأنا أصف لك احساسى بانه أذكى واشجع من عرفت ، لكن تلك هى الحقيقة التى كنت لا أعرف كيف ادخلها فى رأسـك .. ما يشجعنى الآن على الكلام اننى أتكلم عن موقف محدد رأيته أنت ، حين بدأ يشرح للناس فكرته عن النادى فى المسجد .. تكلم معهم كما كان يتكلم معنا .. تكلم عن أهمية أن يلتقى الشباب المتعلم ، وأن يفكروا معا بصوت مرتفع .. وبحرية .. قد يبدعون بالتفكير فى مشاكلهم ولكنهم سوف يصلون الى التفكير فى مشاكل القرية كلها .. لا أذكر نص كلماته .. ولعلك أنت تذكر ، ولكننى شعرت بمحنته .. أدرك بحسه الصحيح ، وبعد لحظات أن الناس ليسوا معه ، وانهم لا يفهمونه تماما .. أنهم فقط يتطلعون اليه .. أريكه هذا تماما .. أن يعجز عن توصيل فكرته .. فجأة فقد ذكاءه اللامع .. وفقد حيويته .. وفقد سحره ، أنت تصبح أبله تماما حين تتحدث الى أبله .. ما جدوى ذكائك ؟ أنه يغرقه فى نظراته البلهاء ! ويصبح حجمك فى النهاية بمقدار ما يتسع له رأسه ! وفى الوقت الذى عجز فيه « شريف » عن توصيل فكرته لهم كانت وجوه الناس تعبر فى اقتدار عن عجزهم عن فهمه وعن يأسهم منه !

لقد تفوقوا عليه .. وصلوا اليه بيأسهم دون أن يصل اليهم بفكرته وبأمله !

وحين بدأنا بجمع التبرعات كانقاذ للموقف .. وحين بدأ الناس يدفعون كان هو يشعر أن الذى انتصر فى هذا الموقف هو « شريف بن عباس بك المواردى » وليس شريف وحده .. وأن الحرج كان هو سيد الموقف .. شىء آخر .. رأيته فى عينيه

عندما بدأ الشجار .. لأول مرة رأيته خائفا .. خائفا بحق .. هو الذى لم أبصر فى عينيه سوى الثقة والفرح .. ربما كان هذا هو أول خوف حقيقى فى حياته .. الخوف الأول المخيف .. خوف انسان يصطدم بعالم لا يعرف قواعده .. وكان يظن أنه يعرف ، ربما خطرت بباله فكرة الموت .. فهؤلاء الذين كانوا يصلون فى وداعة .. وينصتون اليه فى بلاهة .. قد انقلبوا فجأة يتقاتلون فى شراسة كالوحوش .. فأى شىء يستحيل وقوعه ..

خاف أبى أن يصيبه أى شىء فأحاطه بذراعيه ..

هذه الحركة التى أراد بها أبى أن يطمئنه جعلته يشعر أكثر وأعمق بالخوف .. وقبل أن يعود الهدوء الى المسجد .. منظره، وهو خائف لا يفارقنى .. كنت دائم الاعجاب به ، لكن تلك أول مرة اشعر فيها نحوه ببعض الحب ، هل تصدق ؟ تصور قطعة من البلور النقى يصيبها شرخ ! وانفجر صبرى بالضحك .

قال أحمد فى غضب :

ــ ماذا يضحكك ؟

ــ طريقتك فى الاحساس بالمواقف وبالناس وفى تحليلها ؟

ــ قل لى أنت .. كيف كنت ترى هذا الموقف ؟

ــ أولا شريف ليس كما تراه قطعة من البلور النقى انه قطعة من الصلب ! لقد تركت لك مهمة أن تصور موقفه شعرا وبدأ يتصرف بشكل أثار اهتمامى جدا .. أولا كان هو الانسان الوحيد الذى اهتم اهتماما حقيقيا بما حدث « لرجب الصعيدى » بعدما حدث فى المسجد .. أخذه الى السراى .. وأعاد تنظيف الجرح وتضميده .. كانوا قد اكتفوا كالعادة بوضـــع ملعقة بن على

الجرح .. لوقف النزيف .. وأهم من ذلك جلس معه ساعات طويلة يتكلمان .. المهم أن تعرف فيم كان يتكلم معه .. مع رجب ؟ وكيف ؟

ـــ وهل عرفت أنت ؟

ـــ طبعا ..

ـــ من أخبرك ؟

ـــ رجب يتكلم مع الجميع .. انت وحدك الذي لم تستمع اليه بعدما حدث !

ـــ ماذا سمعت من رجب ؟

ـــ تلك قصة أخرى طويلة لا تستحق أن تعرفها الآن .. يهمنى أن تعرف ان (شريف) لم ينسحب بعد هذه الموقعة ، ولم يستجب لنصح أبيه له بأن يبتعد عن جو البلد ، ويسافر الى رأس البر ! واكثر من هذا قال امامى وأمام عدد من التلاميذ :

***

ـــ ماذا كان الهدف من النادى ؟ مكان نلتقى فيه ، تكوين فريق لكرة القدم ، ومكتبة وترابيزة بنج بنج .. المسألة سهلة .. لنبدأ بما لا يحتاج الى نقود .. تكوين فرق لكرة القدم .. عندى كرة .. وجرن الوسية الآن خال من المحاصيل ، وسيكون مكان اللعب هو مكان اللقاء .. المهم ان نصل الى الجوهر .. أو الى بعضـــــــه .. !

هذا سلوك انسان لا يهزم بسهولة ولا يطيق الهزيمة .. وهذا ما يعجبنى فى صاحبك ..

ـــ وصاحبك أيضا .. ألا ترى اننا نقترب منه معا ؟ أليس كذلك ؟

ـــ نعم .. ولكن ما الذى تريده أنت منه ؟ وما الذى أريده ؟

ثم اضاف صبرى بلهجة مستفزة :

ـــ أظن هذا هو السؤال

— ١١ —

قال شريف لأحمد وهما يجلسان على حافة الملعب يتصبب منهما العرق ، وتتلاحق الأنفاس :

ـــ أنت تجيد اللعب بالكلمات .. أما الكرة .. ؟

ويقاطعه احمد بلهجة تحمل اكثر من معنى :

ـــ انتظر بعض الوقت حتى أتدرب .. وسترى إننى سوف أجيد مثلك اللعب بكل شىء ...

اندفع شريف دون أن ينتبه لغمزة احمد :

ـــ الذى يجيد اللعب بالكرة يجيد كل لعبة أخرى .. فكرة القدم هى الفن الذى يحتوى كل الفنون .. ؟

قال أحمد ضاحكا وهو يقرب زمزمية المياه من فمه :

ـــ هل يغنى فن الكرة عن فن الشعر ؟

ـــ لا ..

ثم تابع شريف بعد أن أبعد زمزمية المياه عن فم أحمد محذرا له من الشرب وهو فى مثل حالته .

لا أخاف على فن الشعر من فن الكرة .. ولكنى فى الحقيقة

أخاف على فن المسرح .. فالكرة هى المسرح .. صراع صامت .. وحوار بلا كلمات .. أو بكلمات بسيطة يفهمها كل الناس .

ـــ من حسن الحظ أن الناس كلهم يحبون الصراع الناطق لا الصامت ولهذا لا خوف على المسرح أيضا .

ـــ ولا خوف عليك اذا لم تفلح فى لعبة الكرة .. فصبرى أبرع منك بكثير .. ويكفى واحد فى العائلة ..

قال أحمد فى شبه غيظ :

ـــ على كل حال ليست الكرة شيئا خطيرا فكثير من الدول المتخلفة تجد عزاءها فى التفوق فى الكرة ..

قال شريف :

ـــ ياسيدى لا تغضب .. سننتظرك حتى تتدرب كما تشاء .. وسنرى .. المهم اننى سأنتظرك الليلة عندى فى البيت .. سيكون معنا شخص ثالث ، أحب أن تراه ، وأن تتعرف به ..

ـــ من هو ؟

ـــ أخشى اذا قلت لك الا تجىء !

ـــ أحب أن أعرفه .. واذا كان هناك ما يمنع ، فيجب أن أعرفه أيضا ..

ـــ محمد الجندى ...

شعر أحمد بنوع من الصدمة ، ولكنه لم يترك هذا يظهر عليه .. كانت دوافعه لزيارة شريف أكثر وأعقد من أن تتركه يعتذر ، ولم يكن يحب أن يشعر شريف أنه يخشى مواجهة أى شخص أو موقف ..

قال أحمد :

ـــ سأحضر .. لكن متى ؟

ـــ فى المساء .. بابا مسافر منذ يومين وسنأخذ راحتنا فى السهر فى الحديقة .

ثم تابع وقد بدأت أنفاسه تهدأ .. بينما بدأت أنفاس أحمد تتلاحق :

ـــ اتعرف من أهم شخصيتين عرفتهما فى هذا البلد ؟

واستفز السؤال أحمد .. تمنى لو لم يكن السؤال ولا الجواب الذى لا يعرفه وأنصت الى شريف وهو يقول :

ـــ محمد الجندى .. ورجب الصعيدى !

ـــ الله يلعنك ...

قالها بغيظ ...

ولم يغضب شريف بل أمعن فى الضحك حتى أستلقى على ظهره .

ـــ ١٢ ـــ

ما من تلميذ فى قرية الزهايرة اخضر شاربه ، وانفتل عوده الا وتلقى من أبيه قائمة بما ينبغى أن يحذر الوقوع فيه ، وتبدأ القائمة :

« لا تدخن .. لا تجلس فى المقاهى .. لا تلعب الورق .. ثم تتوالى المحظورات .. ولكنها بالتاكيد وبغض النظر عن اى

ترتيب كانت تشمل هذا التحذير : لا تجلس مع « محمد الجندى » فى مكان ! و « محمد » من عائلة الجندى الشهيرة بالقرية وهى عائلة معظم أفرادها كانوا ضباطا فى الجيش أو فى البوليس اشتهروا بالصرامة والحدة والطيبة جميعا ، أبعدهم ثراؤهم الوظيفى عن الناس .. ولكن طيبتهم كانت تقرب بعض الناس منهم .. وظلت هذه النسبة محفوظة حتى كبر محمد الجندى وكان فشله فى الدراسة أول شىء أخل بهذه النسبة ، كان عليه أن يجرب نفسه فى أعمال كثيرة .. فاختلط بالأهالى اختلاطا شديدا مرة كسائق جرار ، ومرة كتاجر ، وثالثة كفلاح يشرف بنفسه على زراعة أرض أبيه التى لم تكن تتجاوز العشرة أفدنة ...



وأكد فشله فى هذه كله أن تخلفه فى الدراسة ليس لمجرد قصور فى ملكاته الدراسية ، بل لابد أن هناك عيبا رئيسيا فى شخصيته ، يقول بعض الناس انه ملول ضجر لا يصبر على ما يريد ولا على ما يريد الآخرون ، ولا يحتمل مراوغة الحياة والناس فى قرية الزهايرة ، تلك المراوغة التى هى جزء من الحياة اليومية ولأن « محمد الجندى » كان يمتلك قوة حصان حقيقى فلم يكن يجد معنى لفكرة الصبر السقيمة التى يستند اليها الناس فى رحلة حياتهم العرجاء ، ولم يكن يجد معنى لأسلوب المراوغة ، وحين لا يجد نتيجة من استخدام لسانه ، كان يستخدم يديه وأحيانا رجليه .. وضجت به أسرته قبل أن يضج به الناس ، واختلفت أحكام الناس عليه .. فقال بعضهم انه لم يضرب الا أشخاصا تمنى الناس جميعا أن يضربوهم ولم يقدروا على ذلك .. وأنه دائما مع المظلوم ضد الظالم وقال آخرون : ماذا يعرف بغل كهذا عن الظلم والعدل ؟ وماذا تنتظرون ممن لا يحسن عملا ولا معاملة ؟

وكان هناك من تتحدث عن وداعته وعطفه على العاجز

والفقير ، وكان هناك من يتحدث عن كلفه بالنساء ، وفضائحه مع العاملات فى الحقول !

ولكن الجميع كانوا يتفقون على بعض صفاته ، فأنت لا تراه الا فى حالة من اثنتين .. صاخبا مجلجلا بالضحك والسرور أو صامتا غارقا فى الكآبة ..

أحيانا يسيل رقة وعذوبة كطفل رغم ضخامة جسده المائل الى القصر ، ورغم شاربه الكثيف الذى يغطى شـــفته العليا دائما .. واحيانا يهدر بالغضب ويتطاير الوعيد من عينيه الحادتين كعينى لص تعود أن يتفحص كل ما يراه !

* * *

وكان الجميع يتنفسون فى راحة حين يرحل عن القرية .. ذلك ان احدا من أهالى القرية لم يكن يعرف متى يغضب محمد الجندى ولا متى يرضى ؟ ولا لماذا ؟

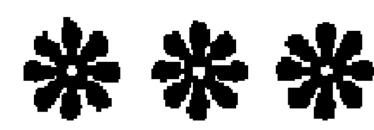
ولم يكن هناك أيضا من يعرف متى يرحل ؟ ولا متى يعود ؟ كانت هناك قصص تروى عن تنقلاته فى البلاد العربية واشتغاله بشتى المهن ، وزواجه أو طلاقه فى البلاد التى حل بها أو رحل عنها ، وسفرة أو سفرتان الى اليونان وتركيا على ظهر بعض المراكب .. وحكايات كثيرة لا يجرؤ أحد على التحقق من صدقها أو كذبها .. كل ذلك وعمره لا يتجاوز الثلاثين عاما !

* * *

وحين أخبر شريف أحمد بالموعد الذى دبره ليلتقوا بثلاثتهم شعر فى البداية بنوع من الصدمة تحول مع الوقت الى شعور بالفرح .. فها هو مع شريف يقتحم كل العوالم التى كانت شبه موصدة ، والتى كان يرتادها بالخيال .. وبما يرويه عنها الناس .. وعاد الى المرات القليلة التى رأى فيها « محمد الجندى » ،

وتبادل معه السلام أو بعض الكلمات .. لم يجد فيها ما يمكن أن يضيف شيئا خاصا الى الرصيد العام عنه !

كان آخر ما سمعه عنه انه يشترك مع بعض ضباط الجيش فى أعمال المقاومة ضـــــد الانجليز فى منطقة القناة .. ! وهى الأعمال التى كانت تســـــتهدف تهديد الوجود الانجليزى فى مصر والتى أسفرت عن اتفاقية الجلاء التى كان الشـــعب كله لايزال يتناولها بالمناقشة !



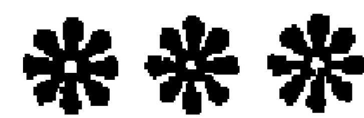
كان « أحمد » يود لو يعرف شيئا عن هذا الموضوع ، وكيف أمكنه وهو مدنى أن يشـــــترك فيها مع أن الذين يقومون بها هم، ــ كما يردد الناس ــ ضباط فى الجيش ، وأن كانوا يقومون بها باعتبارهم وحدات فدائية شعبية لا صلة لها بالحكومة !

لن يصل الى بعض هذا كله الا اذا نجح فى كسب ثقته ! لابد أن شريف كلمه عنه ! ترى ماذا قال له ؟ وما معنى اختياره بالذات ليقابل محمد الجندى ؟ من يدرى قد يصبح كلاهما محمد الجندى وشريف مفتاحا للآخر ؟

وقد يبصر « نجوى » هذا المساء .. نعم .. لا يريد أكثر من أن يراها .. مجرد رؤية .. أخيرا خانته ذاكرته .. أقدم صور الملكية واشدها بؤسا ، أحيانا يعجز عن تذكرها فيشعر بأنه يسقط فى فراغ مخيف ..

ماذا يريد منها ؟ لا شىء ، والأفضل ان يقول لا يدرى ؟ وهل عرف ماذا يريد حقا من شريف أو من محمد الجندى أو حتى من حياته ؟

بعد أول وآخر مرة رآها فيها .. كان يدعوها حين ينفرد بنفسه .. وكانت تجيء . كما جاءت في الحقيقة .. دون أن تعيره أقل اهتمام .. وفي اللحظة المناسبة ترسل تعليقها اللاذع وتمضي .. ولكن وجودها .. مجرد وجودها .. مجرد تذكر هذا الوجود .. كان يذيب كل ما هو صلب في حياته .. كانت الحدود التي يراها لنفسه ويراها له أبوه .. الحدود التي رأى في ظلها عالم القرية والمدينة .. الماضي والحاضر والمستقبل .. ما يجوز وما لا يجوز .. الممكن وغير الممكن .. هذه الحدود كلها تتلاشى ، وتصبح الدنيا كلها وطنا للممكن ، فقط لابد أن تكون هي هناك .. متجسدة على الأقل في خياله .. أن تطل بقوامها وكبريائها وسمرة بشرتها ، ودقة ملامحها ، وسواد عينيها السوداوين على هذه الدنيا لتظل موطنا للممكن لكن ما أن تتأبى على خياله .. حتى يسترد كل شيء صلابته وتفصل الحدود بين الممكن وغير الممكن ..



الحدود بينها وبين شريف تتلاشى أحيانا حتى يراهما وجهين لحقيقة واحدة ، يريدها ولا يريدها .. يحبها بقدر ما يخشاها ! وكلما تصور مرة أنه يوشك أن يمسك بشريف .. انفلت منه كما ينفلت الشعاع .. متخطيا حدود الاعجاب والحب والكراهية والنجاح والفشل .. !

في اللحظة التي شعر فيها نحوه ببعض الحب .. في اللحظة التي رآه فيها انسانا يخاف ويعجز ويوشك ان يلتمس دفء المودة .. في هذه اللحظة .. وفيما بعدها اكتشف أن ما كان يظنه وضوح شريف وبساطته ليس سوى وهم .. أصبح شريف يتجنب الحديث عن هذه اللحظة .. ! أصبح يتجنب الحديث عما يريد أن يقوم به !

وحين قال له أحمد مرة عقب ما حدث فى الجـــامع مقلدا طريقته فى البساطة ولمس المشكلات دون حرج :

ـ لماذا تظن أن الفلاح المصرى يتجنب بشكل تلقائى أن يقول الحقيقة لأول وهلة عن اى شىء تساله عنه ؟

أجاب شريف فى نبرة لا تخلو من الغضب :

ـ الفلاح المصرى غبى جدا . ويبدو غباؤه حين يبذل جهدا خارقا لكى يخفى عنك ما لا أهمية لاخفائه بينما يكشف فى بلاهة أخطر الأشياء عن نفسه ، دون أن تطلب منه ذلك ؟

وقال له أحمد فى هدوء متعمد :

ـ الم تلاحظ أنك لم تجب عن سؤالى .. ؟ وانك ما زلت حانقا .. لماذا انت حانق ؟

قال شريف فى غيظ حقيقى :

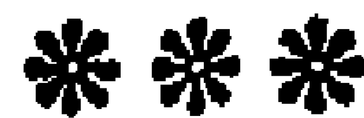
ـ طظ فى سؤالك وفى كل الفلاحين ..

ولكنه ما كان ليضحى بعلاقته لمثل هذه الأمور الصغيرة التى تبدى بين حين وآخر ، فشريف الذى يقوده الى كل العوالم التى كانت شبه موصدة .. لايزال هو نفسه اكثر هذه العوالم غموضا وسحرا !

ـ ١٣ ـ

حديقة سراى المواردى غارقة فى غبش المســاء ، وفى السماء ، فى الجانب الغربى منها كان ثمة بدر هزيل يرسل ضوءا شاحبا لا يكاد يبين حين يمتزج بالحشــيش الأخضر فى أرض

الحديقة ، أو بالأرض المزروعة خارجها ، ولكن أوراق الشجر المنداة بفعل الرطوبة والتى كانت تتلقى فوقها قطعا من الضوء الفضى بحجمها تماما .. وتحول دون سقوطها فوق الحشيش الأخضر .. هذه الأوراق وحدها هى التى اكتسبت لمعانا خفيفا ووجودا متميزا فى تلك الليلة التى يوشك فيها كل شىء أن يفقد معالمه !

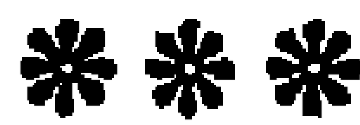


ومن كل جانب كانت أصوات الليل فى القرية تزداد وضوحا واقترابا وتصبح جزءا من الصمت الذى تخدشه الأصوات الانسانية وحدها !

قال شريف وهو يقدم اقداح الشاى الذى أحضره « رجب الصعيدى » الذى أصبح يعمل عندهم فى السراى ، قال لمحمد الجندى :

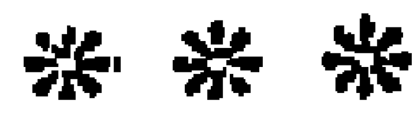
ــ والآن يا أخ محمد .. دعنا نشرب معك هذا الشاى على ضفاف الخليج ، حيث رست سفينة سندباد الزهايرة ..

واكتفى محمد الجندى بأن هز رأسه مبتسما وهو يتناول الشاى .



كانت تلك أول مرة يرى فيها أحمد ، شريف وقد جلس صامتا ما يقرب من ساعتين ، عدا سؤال أو ضحكة أو تعليق عابر .. ! وكان « محمد الجندى » هو الذى يتحدث وحده طول الوقت .. وصوته القوى الرائق يكتسب فى سكون الليل ، ومن خلال أصواته الرتيبة المعتادة ، الفه خاصة ومودة قد تشك فى وجودها لو انك سمعته فى النهار !

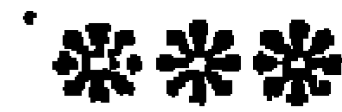
وكان قد آثر أن يروى القصة من أولها ، أول هروب من المدرسة ثم من المدينة ثم الى القرية ثم الى القاهرة ثم الى الشام ثم الى الخليج .. وهناك توقف وتوقفوا معه يحتسون أكواب الشاى !



قبل أن تغرب الشمس كان حاجبا « محمد الجندى » الكثيفان يلقيان على عينيه ظلا يرقق من حدة النظرة فيهما ! ومع أنه لم يبق من ملامحه فى غبش المساء ما ينم عن طابع نظرته الا أن صوته وصوت ضحكاته كان يوحى بأن هذه النظرة الصارمة قد استحالت بدورها الى نظرة ترتعش بالمودة والألفة !

وأحس أحمد أن « محمد الجندى » صادق فى كل كلمة قالها .. نعم .. هذا صادق من نوع آخر ، واذا كان شريف يمارس الصدق لأنه لا يجد نفسه مضطرا للكذب ، فمحمد الجندى يمارس الصدق لانه لا يقدر على الكذب حتى لو أراد ..

وفكر أحمد دون أن يعلن تفكيره « أن الصدق ترف يملكه الرجل الغنى أو الشجاع ، أما الفقراء والجنباء فمن حقهم أن يملأوا العالم بالأكاذيب ! »

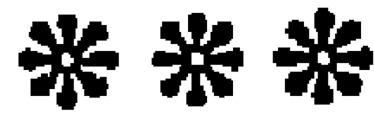


كانت القصص التى رواها كلها تكاد تكون فى النهاية قصة واحدة .. يختلف الزمان والمكان والظروف ولكن الجوهر واحد . فثمة دائما شخص مثقل بما لا قبل له باحتماله .. البعض يراه مثقلا بالشحم واللحم والعضلات ، والبعض يراه مثقلا بالغرور والحماقة والقوة .. وبالنسبة لأحمد فهو مثقل بما ينوء به عشرة رجال من الانفعالات والمشاعر .. كل ما تحت جلده هو شعور قابل للاشتعال ..

وتبدأ القصــــة دائما بلحظة انفعال .. أن شرارة الانفعال تجد بجوارها دائما أكواما من المواد السريعة الاشتعال .. أكواما من الحب والرغبة والحماسة والفضـــــول والشوق ، وتتداعى الانفعالات المتقاربة ويشتعل الحريق وينفرد محمد الجندى آنذاك عن كل من حوله من الناس بايقاع خاص فى الشــــــعور والفكر والعمل ، ويبدأ الصدام بمن حوله .. وفى لحظـــة يلوح له أن التصدى للعالم الخارجى أسهل بكثير من التصدى لما فى داخله من قوى عنيفة وهائلة .. ودائما يهزم العالم الخارجى فى أول موقعه .. فيندفع محمد الجندى متوقعا انتصارات جديدة ولكن ما أن ينتبه العالم الخارجى الى طبيعة الغازى الجديد حتى يتجمع ضده ويوجه اليه ضربته ، ولا يكون أمامه الا أن يبحث عن مكان آخر وناس آخرين يختلس منهم بعض انتصاراته وقبل أن يتنبهوا ويتجمعوا ضده من جديد .. وهكذا بدا له أن خلاصه الدائم فى التجول الدائم .. الاستقرار عدوه . .وأعظم أصدقائه الأعمال التى تحتاج الى مشاعر جامحة وسلوك عنيف .. ! والمأساة فى حياته أن يدرك .. يدرك مأســــاته .. يدرك أنه مطحون بين قهر داخلى وقهر خارجى .. وانه يبصر طريق السلامة ولا يطيق السير فيه ، وتتراكم الجراح بتراكم المعارك ، ويألف قدره .. تنشأ صداقة بينه وبين أسلوب حياته .. يألف ما ليس مألوفا فى حياته يستريح للتعب والنصب .. لا يفرح كثيرا للنصر ولا يجزع كثيرا للهزيمة .. فهما فى حياته متقاربان ومتعاقبان كالموج على الشاطىء ! وربما كان هذا الادراك والتقبل معنى شجاعته الوحيد :

ـــ هذا الشاى رائع !

قالها محمد الجندى وهو يعيد القدح الى مكانه على المنضدة وخطر ببال أحمد للحظة سؤال : أيمكن أن تكون هى التى أعدت هذا الشاى ؟



واستشعر سخافة السؤال .. فهى لم تفارق مقعدها فى الشرفة التى تطل على مجلسهم فى الحديقة منذ ساعة ! الا يجوز أن يكون هذا وهما آخر ؟ ما ليس وهما أنها أطلت وقت الغروب من الشرفة ، وأنه رآها .. رأى الشمس الغاربة تلف قوامها الرائع فى غلالة من الضوء .. كانت تلك حقيقة لم يجرؤ على التحديق فيها طويلا ، وحين رفع رأسه مرة أخرى لم تكن هناك ، وأغلب الظن أنها هى التى عادت ومعها مقعد مريح تمددت فيه .. ولاتزال ممتددة فى غبش المساء .. وكان شعوره بأنها هناك تسمع أو لا تسمع أحاديثهم يملؤه بالنشوة ...



وفى اللحظات التى كان محمد الجنـــــدى يتحدث فيها عن مغامراته الجنسية فى كل بلد حل فيه أو مر به كان يود أن يتوسل اليه بأن يخفض من صوته ، ولكن صمت شــــريف نفسه ، بل وتعليقاته على هذا النوع من الحديث بصوت لا تحرج فيه كانت تخرسه .

قال شريف ناسفا آخر أوهامه :

ــ « رجب » يجيد صنع الشاى .. يجيد كل ما ليس مطلوبا منه .

ضحك رجب الذى كان يجلس تحت أقدامهم على النجيــل الأخضر ، والذى استمع مبهورا الى أجزاء متفرقة من رحلة سندباد الزهايرة وقال :

ـــ ماذا افعل اذا كنتم لا تكلفونى الا بأعمال الصغار ؟

ثم اضاف موجها حديثه الى محمد الجندى فى نبرة استنكار :

ـــ « رجب الصـــعيدى » يختص بعلف المواشى وحدها ؟ أهذا يصح ؟ لماذا لا تقول لهم بعض ما تعرف عنى ؟

سأله محمد الجندى بتودد :

ـــ ما الذى تريد أن تفعله يارجب ؟

رغم غبش المساء لمعت فى وجه رجب المستطيل الشاحب النحيل نظرة متألقة :

ـــ اريد ان تأخذنى معك .. أنا أعرف أنك تحارب الانجليز فى القتال .. وأريد أن ..

ضجوا جميعا بالضحك .. تضايق رجب .. قاطع ضحكاتهم قائلا :

ـــ انتم لا تعرفون رجب .. لو ..

قاطعه شريف بنبرة عتاب :

ـــ أنا لا أعـــرفك ؟ كيف تقول عنى ذلك يا رجب وأنت تعرف ..

قال رجب منتهزا الفرصة :

ـــ قلبك أبيض كاللبن يا أستاذ شريف ولكن أهل الزهايرة قلبهم أســود كالطين ، أنهم يعرفون جميعا ما الذى يقدر عليه رجب ولكنهم لا يريدون رجالا .. أنهم يريدون بغالا تجر وتحرث وتعزق ومنذ ضاعت قوتى وهم ..

قال شريف مشاكسا :

ـ وكيف تريد أن تحارب اذن يا رجب ؟

ـ الحرب لا تحتاج الى بغال بل الى رجـــال ، ورجب الصعيدى .. رجل لا يعرف الخوف ما دام فى يده بندقية ..

ثم تساءل مرة أخري موجها حديثه الى محمد الجندى :

ـ هل تحاربون الانجليز بالذراع أم بالبنادق ؟

قال محمد الجندى ضاحكا :

ـ بالاثنين يارجب !

ـ يا أستاذ محمد ..كنت أعمل عندكم ، وأنت تعرف ما اقدر عليه ، ولو أخذتنى معك ..

ـ من قال لك اننى أحارب الانجليز ؟

قال رجب بلهجة العالم بالخفايا :

ـ رجب لا يخفى عليه شىء فى هذا البلد ولو أردت أن أحكى لك ..

تدخل شريف محاولا انقاذ الموقف :

ـ سوف نستمع اليك لكن بعد أن تحضر لنا علبة سجائر .

وأكمل وهو يتابع شـــبح رجب القصير الناحل يختفى بين أشجار الحديقة ..

ـ رجب هذا يمكن أن يقوم بمعجـزة لمن يؤمن به .. لمن يعطيه الثقة والحب .. أنه سندباد من نوع آخر ..

قالها ممازحا ثم تابع ، وكأنما ليخفف من حدة المقارنة :

ــ لا يحب أحدا فى الزهايرة مثل محمد الجندى ..

قال أحمد منتهزا الفرصة التى أتاحها رجب :

ــ فى الحقيقة كنت أود ان أسال الأخ محمد ــ ما لم يكن فى هذا ما يسبب له حرجا ــ عن مسالة اشــــتراكه مع قوات المقاومة ، عن دور العناصر الشعبية فى هذا العمل ، فقد كنت أظن ..

* * *

قال محمد الجندى ضاحكا :

ــ اذا كنتم تريدون الهروب من القصة الكاملة فأنتم بهذه الطريقة تتورطون فى قصة أخرى أطول دون أن تشعروا ..

قال شريف بتهريج :

ــ المسالة باختصار تتوقف عليك ، يمكن أن تروى كل شىء بايجاز ولكن من منا يجرؤ على أن يواجهك بهذه الحقيقة ..

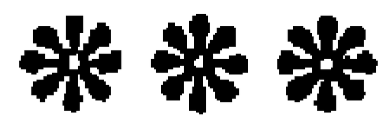
قال أحمد :

ــ سنكون سعداء بالاستماع اليك طول الليل .

* * *

ــ بالنسبة لسؤالك فالخطب يسير ، ففى سنة ١٩٤٨ ، سافرت الى فلسطين مع أول قوة ذهبت الى هناك من الاخوان المسلمين ، وفى هذه المرة وبعد تدخل الجيوش العربية تعرفت على بعض الضباط الذين أصبحوا فيما بعد من الضباط الاحرار ، كانت تلك هى البداية ، ثم حين ألغت حكومة الوفد معاهدة سنة ١٩٣٦ ، وتجددت حركة المقاومة الشعبية ضد الانجليز فى منطقة القنال مشتركت فيها مع بعض متطوعى « مصر الفتاة » . كنت قد

تشاجرت مع بعض الاخوان ، لم يرق لى تزمتهم ، لكن تلك حكاية ليس هذا وقتها ، كانت هذه الحركة قد قامت بتأييد من حكومة الوفد وضمت عناصر وطنية من جميع الفئات والأحزاب ، وفوجئت بأن بعض الضباط الذين عرفتهم فى فلسطين هم الذين ينقلون لنا سرا كميات من أسلحة الجيش ونخائره ، وهكذا تجددت العلاقة وتأكدت .. الى الحد الذى دفعهم الى الاتصال بى حين بدأت حركة المقاومة الأخيرة ، قبل وبعد توقيع اتفاقية الجلاء بالأحرف الأولى .. هذه هى القصة باختصار !



قال شريف ضاحكا :

ـ شىء عظيم ، الثورة تلغى الأحزاب ، ولكن الأحزاب تشترك فى الحكم من خلال محمد الجندى .

قال محمد الجندى مصححا :

ـ تقصد تشترك فى الكفاح لا فى الحكم !

صمت شريف صمت الظافر ، وكأنه كان يريد أن يستخلص من محمد الجندى هذا الاعتراف ليسمعه أحمد ، ليعرفه دور الوفد فى الكفاح ..

قال أحمد :

ـ حزب الوفد هو الذى اختار لنفسه برفضه قانون الاصلاح الزراعى !

قال محمد الجندى بنبرة من لا يروق له الكلام فى هذه الأمور ولكنه يحب ان يقول الحق :

ـ لا ادعى انى أفهم فى السياسة ، ولكن المسألة ببساطة اما أن تحكم الثورة أو لا تحكم ، ولو قبل الوفد كل ما نادوا به

فلم يكونوا ليفقدوا عذرا للانفراد بالسلطة ، تلك هى الحقيقة مع انى أحبهم وأحارب فى صفوفهم لأنهم مثلى خارجون على القانون.

***

« فجأة برزت نجوى من قلب الظلام » خفق قلب أحمد بشدة، هى التى كانت جالسة اذن طوال الوقت ، تسمع أو لا تسمع ، واختفى الجسد المسترخى فجأة كما ظهر فجأة ، كان ذلك حين انسحب ضوء مصباح السيارة التى كانت تدور مع الطريق لتعبر الكوبرى المؤدى الى مدخل القرية ..

قال شريف وهو يتابع بعينيه السيارة التى هدأت من سرعتها أمام البوابة البحرية للسراى :

— يبدو أن بابا قد عاد قبل موعده ..

ثم أضاف وكأنه يعتذر عن شىء ينبغى أن يدركه صديقاه :

— اذا لم يكن معه بعض الضيف فلابد أن هناك ما أدى الى عودته قبل موعده .

وقف أحمد ومحمد الجندى فى وقت واحد وكأنما أدركا شيئا واحدا عناه شريف بكلامه :

— اذهب أنت لمقابلة بابا ، وسوف نلتقى فى ليلة قادمة ..

تقدمهما « شريف » الى باب خلفى للحديقة وودعهما قبل أن يعود ليستقبل والده أمام البوابة البحرية التى دخل منها احمد ذات يوم ...

***

سارا يتلمسان طريقهما فى شوارع القرية المظلمة دون رغبة فى الكلام ، كانت الطريقة التى انتهت بها السهرة ، قبل أن ينتهى

الحديث قد قاربت بينهما وباعدت فى نفس الوقت ، وفجأة قال محمد الجندى متخلصا من الحرج ومعبرا عنه معا :

— أريد أن أراك ..

ثم أضاف : أراك وحدك مع أن شريف هو الذى شاقنى الى معرفتك ، فمتى تحب أن نلتقى ؟

— فى أى وقت يروق لك !

— ربما أسافر لأيام قليلة وحين أعود سأتصل بك !

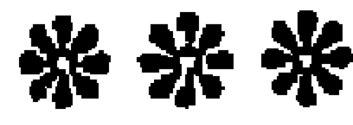
— ١٤ —

ذات أصيل ارتفع رأس صبى من أطفال قرية الزهايرة من على حافة السور الذى يحيط بجرن عباس بك المواردى ، لكن الصبى الصغير لم يلبث بعد أن أطل برأسه ورأى ما يجرى فى جرن الوسية أن صعد بجسمه كله فوق السور ليأخذ وضعا يناسب شخصا قرر الاقامة فوق السور لا مجرد التطلع أو القفز ..

ولم يكد الصبى يجلس مدليا رجليه داخل السور ناحية الجرن حتى ارتفع رأس آخر بجوار الصبى كان يلعب معه منذ لحظات ثم تلفت فلم يجده ، ثم تتابعت الرءوس ..

نبتت للسور المحدب رءوس بشرية .. رءوس أولاد وبنات صغار ، وتدلت جميع الأرجل ناحية الجرن . كانت البداية لهذا كله صوت صفارة متقطعة سمعها الصبى الأول ، سمعها فدق قلبه بعنف ، ذلك أن قرية الزهايرة مثل كل القرى لا تعرف الا صوت صفارة الخفير ، تعرفه مقترنا بمعنى الخطر ، وبأصوات

استغاثة ، وبوقع أقدام مندفعة حين يشتعل حريق فى أحد البيوت، أو ينشب عراك بين الرجال أو تسقط احدى المواشى فى بئر الساقية ، ولكن ذلك الصوت فى هذه المرة كان يتكرر بايقاع مختلف ، لا يحدق به خوف أو هلع وفى مكان واحد لا يتغير هو جرن عباس بك ..



ورغم ذلك فقد اقتلع صوت الصفارة الصبى من لعبته ، زرعه فوق السور ليشاهد لعبة أخرى لم يرها من قبل ، لماذا يصفر ذلك التلميذ الذى لا يلعب بالكرة مثل بقية اللاعبين ؟

وما هى هذه اللعبة ؟ وكيف تكون ؟

وكان لابد أن تمضى عدة أيام قبل أن يجد الصبى أجوبة على أسئلته ، وقبل أن يتولى هو تقديم الاجوبة للصبية الآخرين الذين لم يسمعوا صوت الصفارة ، ولكنهم سمعوا القصة التى انتشرت فى القرية كحريق . وكان لابد أن تمضى أيام اخرى قبل أن يتنبه « رجب الصعيدى » الذى تعددت احتصاصاته فى سراى عباس بك الى خطورة أن يتفرج الأولاد وهم جلوس على الســـــور — والخطورة على الســـــور لا على الاولاد — فراح يهـــددهم ويتوعدهم ، ولكن شريف قال له :

— دعهم يدخلون ويجلسون على حافة الملعب داخل الجرن .



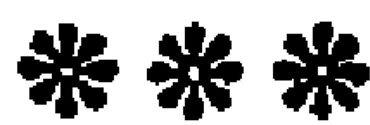
وهكذا بدءوا يصنعون بأجســـــادهم سورا آخر .. بلون الجلاليب والطواقى .. يرتفع فوق أكوام السباخ المحدقة بالملعب، وينخفض حيث تنخفض ، ويتبعثر حيث توجد حزم القش ، ثم يواصل امتداده فوق الأســـــطح القريبة من الجرن حيث تجلس النسوة والبنات متشحات بالطرح السوداء وسط اكداس القش والدريس والحطب .. ويواصل النمو كأنه عشب ينبت فى أرض

جرداء لا يملكها احد ! وكان لابد أن تمضى عدة أيام اخرى حتى يجتذب السور الى جوار الاولاد الصغار رجالا من مختلف الأعمار يتفرجون ويسألون .. ويحاولون بدورهم أن يكتشفوا أسرار هذه اللعبة ، وينكوا مغاليقها ، وأن يشتركوا فيها بالكلام أولا .. ثم يفاجأوا بأنهم قد أصبحوا جزءا من اللعبة وأن اللعبة توشك ان تصبح دون أن يشعروا جزءا منهم .. جزءا من حياتهم ..

— ١٥ —

فى ليالى الصيف المقمرة يتمشى تلاميذ الزهايرة أفواجا فى الطريق الزراعى الممتد بجوار ترعة البوهية حتى الهدار ، وهناك يجلسون على سور الكوبرى الحجرى يثرثرون ، ويتأملون المياه وهى تصنع دوامات هائلة خلف الكوبرى الذى يحتجز وراءه المياه قبل ان تتوزع فى مختلف الفروع المائية ..

وفى تلك الليلة كان « صـــــبرى » — الذى بدأت علاقته بشريف تتأكد فى ملعب الكرة قد جاء ليشارك فى نزهة الليلة بعد أن اكد له « احمد » أن « « محمد الجندى » الذى عاد من سفره منذ أيام سوف ينضم اليهم ليروى جزءا جديدا من القصة الكاملة التى يبدو أنها لن تنتهى قبل نهاية الاجازة ...



وكانت حياة محمد الجندى المثيرة قد أصبح لها فى الليالى المقمرة ، وفى الجلسات الخاصة التى يشترك فيها « شريف » و « أحمد » حينا وينفرد بها أحمد حينا آخر ، ذلك السحر الذى اصبحت تجده الزهايرة فى مشاهدة كرة القدم فى النهار ! قال شريف معلقا على مباراة اليوم :

ـــ من كان يتصور أن يكون للعبة الكرة هذه الشعبية فى الزهايرة ؟

قال أحمد وهو ينفخ التراب من المكان الذى يهم بالجلوس عليه فوق حافة الهدار :

ـــ المصيبة أن الكبار أصبحوا يسبقون الصغار فى التفرج على الكرة !

تساءل محمد الجندى :

ـــ لم تعتبر الأمر مصيبة ؟

ـــ هم الذين كانوا يعتبرونه كذلك .

قال شريف ضاحكا ومغايظا لاحمد :

ـــ مرة قلت لك ان الفلاحين بلهاء فلم يرق لك كلامى !

لم يجد أحمد نفسه رغبة لملاحاة شريف فى هذا الموضوع ، أراد ان يعود بالحديث الى القصة الكاملة ، ولكن صبرى فاجاهم بهذا السؤال :

ـــ اى سر فى هذه اللعبة ؟ سحرها لا يخيب فى أى بلد ؟ ومع أى ناس ؟ فى القاهرة كما فى الزهايرة ، كما فى كل بلاد العالم ؟

قال أحمد :

ـــ من الذى قال مرة أن الكرة هى المسرح ؟

قال شريف فى اعتداد مرح :

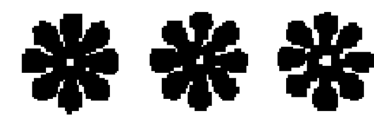
ـــ طبعا لا أحد غيرى بيدى مثل هذه الملاحظات الرائعة ..

قال أحمد وقد أثار وجود صبرى والجندى فيه روح التحدى لكن دون أن يفقد روح المرح :

ــ يمكنك أحيانا أن تردد بعض الـــــكلمات دون أن تدرك معناها .. وآنذاك يمكننى أن اشرح لك ..

ثم تابع وقد نجح فى أن يجذب اليه الانتباه :

ــ ليست الكرة هى المسرح بل هى الحياة ذاتها ، الحياة مركزة ومقطرة .. التنافس مركز والتعاون كذلك .. والاثنان معا فى لعبة واحدة عبقرية الفرد فى المحاورة ، وعبقرية الجماعة فى تبادل الكرة .. التنافس والتعاون فى وقت واحد معا لأول مرة ، وفى مكان تراه العين الواجدة ..



ضحك شريف محاولا أن يكسب بالتهريج ما قد يخســــره بالجد :

ــ الحمد لله لأننا لم نعتمد عليك فى وصف كرة القدم لاهالى الزهايرة !

قال أحمد بنبرة لم يخف مغزاها على أحد :

ــ أعرف ماذا ينبغى أن أقوله لك ، وماذا ينبغى أن أقوله للزهايرة !

تدخل صبرى محاولا أن يعيد الأمور لجوها الطبيعى :

ــ أحمد يسقط أفكاره على أى شىء ، يهمه أن يقوم بعقد زواج ــ ولو عرفى ــ بين متناقضات الحياة ، ولم يسعفه فى تحقيق هذه الأمنية سوى الكرة ..

قال شريف وقد فطن لمحاولة صبرى ، مصمما على مواصلة السخرية بأحمد :

ـــ الا يتحقق هذا الزواج بشكل شرعى فى الحروب .

تدخل محمد الجندى فى محاولة أخيرة لوقف المباراة .. أو على الأقل تحويل اتجاهها :

ـــ الحرب ؟ يتحدث عنها دائما من لا يعرفها ، ومن يعرفها يكره حتى مجرد الحديث عنها !

ثم أضاف :

ـــ الكرة حرب نظيفة يتفرج عليها الناس وهم آمنون !

قال شريف محتفظا بنبرة السخرية :

ـــ كما يتفرجون على الأســـــد فى حديقة الحيوان وهم مطمئنون ، وهكذا يشـــــبعون حاجتهم الى رؤية الخطر والأمن متجاورين ، وهم فى الواقع لا يرون سوى الأمن والأمن ، ولكنها خدعة ظريفة كخدعة الكرة ..

قال صبرى مصمما على انهاء هذه المباراة :

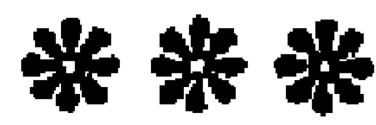
ـــ اللعنة على الكرة .. لقد جئت الليلة لاسمع جزءا من القصة الكاملة .. هل تريدون الا أعود اليكم .. ؟

وابتسم محمد الجندى فى سعادة طفل حقيقى وبدأ يروى جزءا من القصة !

ـــ ١٦ ـــ

وكان لابد أن تمضى أيام أخرى حتى يرى أهالى قرية الزهايرة الوجه الوحيد الذى يمكنهم أن يروه لنبوغ شريف .. فمهارة شريف كمهاجم ومدافع ، مرونته فى المحاورة وقوته فى التسديد ، وقدرته

على التعامل مع الكرة بكل جزء من أجزاء جسمه ، ومهما يكن وضع الكرة بالنسبة له ، وبراعته فى الخداع بجسمه ، هذه المهارات كلها ما كانت لتظهر على حقيقتها الا بعد وقت ، بعد أن تظهر المواهب المحلية فى الزهايرة وتنضج قليلا ، وتحمل شريفه على اظهار كافة مواهبه .. !



لم يكن ذلك هو شريف الذى حاول عبثا أن ينفذ الى عقول الناس فى الجامع ، والذى يقول كلاما لا يفهمه أحد ، أنه هنا يتكلم لغة يفهمها كل الناس تنفذ الى عقولهم كالصورة وتهزهم كالأغنية !

وأدرك شريف أن الطريق المسدود قد فتح .. ودون أن ينظر الى عيون الناس .. كان يصل اليه رد الفعل لأقل حركة يقوم بها ، أنه يمسك بأيديهم وحناجرهم بخيوط خفية مشدودة الى قدميه يحركها متى يشاء ، واندفع بجنون يعبث بهذا الحشد الذى عبث به ذات نهار عصيب !

وبرزت مواهب « صبرى » الكروية التى كان لا يعيرها أقل اهتمام .. انه يهتم بها هذه المرة لينافس شريف فيما لا يقدر أحد على منافسته فيه .. ولكن المسافة بينهما تبقى شاسعة .. واختفى أحمد فى الملعب أو كاد ، ولم تضايقه هذه المسألة .. ضايقت الكثيرين من محبيه من أهالى القرية .. ولم يكن يسرف انهم بمثل هذا العدد .. كانوا يعتقدون أنه لو اجتهد قليلا فى اللعب كما يجتهد فى الدراسة فسوف يغلبهم جميعا .. ولكنه لا يفعل ..

ما لم يخطر ببال أحد أن أجيرا مثل « عطية » يصبح لاعبا لا يقل خطورة عن « صبرى » وقد يتفوق عليه ، وقد يصبح منافسا لشريف ، جاء ليساعد « رجب » فى تنظيف الملعب ورسمه

ثم وقف يتفرج ويعيد لهم الكرات البعيدة ، ثم اشترك فى اللعبه مكان تلميذ مصاب ، ومن يومها وهو يحتال كلما واتته فرصة فراغ ليشارك فى الملعب ، قال له رجب محذرا :

ــ لو علم الشيخ عرفة أنك تجىء الى هنا وتلعب فلن تغرب عليك الشمس فى داره .

قال « عطية » الذى بدأ سم الكرة يسرى فى دمه أيضا :

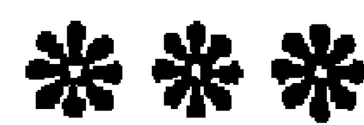
ــ اعمل عند غيره .

قال رجب :

ــ ولن تغرب عليك فى دار غيره ، وسترى .

ــ اعمل باليومية .. ورزقى على الله .

ــ تكون قد فلحت يا ابن جمالات ، وسمعت كلامى .



كان لابد أن يمضى وقت حتى يتكشف لهم عالم الكرة عن غرائبه ، ذلك عالم جديد تحكمه معايير جديدة ، الشيخ « عرفة » الذى يصله الخبر المشئوم عن « عطية » يذهب الى الجرن وفى نيته أن يجعل منه عبرة لمن يعتبر .. ولكنه يجد بعض الرجال الكبار هناك جالسين فيجلس بينهم ، ولا يصدق عينيه وهو يرى « عطية » يتلاعب بالكرة وبعواطف الناس فى نفس الوقت .. وحتى لو طرده وهذا ما قرره بينه وبين نفسه .. فسوف يأتى هو الى هنا ليتفرج عليه وعلى تلك اللعبة ، ذلك عالم جديد تحكمه معايير جديدة .. تسمح لشريف وصبرى وعطية أن يكونوا ثالوثا خطيرا متفاهما ومنسجما .. أصدقاء حقيقيين داخل الملعب وخارجه ،ولكنهم أصدقاء كرة فلم يكن أحد منهم ينسى المسافات الفاصلة حين لا تكون هناك كرة ولكنها يجب أن تبقى دائما تلك

الكرة المستديرة .. تلك الدائرة الملأى بالهواء التى تلتهم فى جوفها كل الدوائر الأخرى ، يجب أن تبقى تلك الدائرة لتعمل عملها فى حياة الزهايرة التى كانت تستعصى على أى تغيير ، لتجعل من محمد الجندى الوحش الغامض أضحوكة أمام الصغار والكبار .. حين ينزل الى الملعب ، متجردا من ثيابه ، كاشفا عن أوراكه الضخمة وكرشه الكبير ، وعضلات ذراعيه اللذين اكتشف انهما لا يفيدانه فى قليل أو كثير داخل الملعب .. أنه يجـرى ويلهث ولأول مرة يسقط على الأرض أمام الجميع لأن « عطية » الذى يبدو الى جواره كالنملة بجوار الصرصور قد خذعه واستخلص منه الكرة ! قبل هذا اليوم كان اللاعبون يخشون من مجرد الاقتراب منه ، كان يصيح ويهوش بيديه ، يجرى ووراءه وأمامه تجرى أسـطورته .. لم كن أحد يجرؤ على الاقتراب منه حتى فعلها عطية ، فسقط وسقطت الأسطورة ، ولكنها سقطت داخل الملعب، فخارج الملعب كانت الدنيا القديمة تحكم قبضتها على كل شىء .

وكان لابد أن تمضى أيام ليشعر الناس أن الكرة يجب أن تبقى .. ليتفقوا جميعا على هذا المطلب ويختلفوا بعد ذلك فى الأسـباب .

— ١٧ —

الطريق الى الهدار ذهابا وعودة أصبح ملتقى الأصدقاء كل ليلة من أعضاء الفريق الكروى ، لم تعد النزهة مقصورة على الليالى القمرية ، فى تلك الليلة كانت السماء صافية ، والنجوم وحدها ترسل ضوءا واهنا تختفى فيه ظلال الأشجار والناس ، وتحتاج فيه الى تمييز الأصدقاء بأصواتهم ، وكان ما يشـغل

الأصدقاء فى تلك الليلة هو البحث عن اسم للفريق الذى أصبح حقيقة واقعة !

قال صبرى :

ـ « فريق الأسد المرعب » ، ما رأيكم ؟

قال بنبرة من يمثل الجد !

قال محمد الجندى ضاحكا :

ـ كل الفرق الخائبة تنتحل هذا الاسم :

قال شريف وهو يفترش قطعة من النخيل على حافة الجسر

هذا ادعى لأن نحتفظ بالاسم .

قال أحمد وهو يقذف بطوبة فى ترعة البوهية :

ـ لا أظن أن خيبة فريقكم وصلت الى هذا الحد .

قال محمد الجندى :

ـ سوف تصل باذن الله مادام « رجب الصعيدى » يصر على أن ينضم الى الفريق ..

وتتابعت التعليقات .

ـ ولماذا لا ينضم رجب ؟ اليس من الجائز أن يكون موهبة مجهولة مثل « عطية » ؟

ـ عطية موهبة حقيقية ، أما رجب .. فأراهن انه سيموت لو لعب مباراة واحدة !

تدخل شريف :

ـ رجب يموت فعلا منذ رأى الزهايرة تصفق لعطية .. يريد أن يصبح نجما بأى ثمن .. لا أحد فى الزهايرة يفهم ما يدور فى رأس هذا الولد !

قال صـــبرى :

ــ أنتم لا تدرون ماذا تفعلون بالزهايرة ، كل الأولاد يريدون أن يصبحوا نجوما ، ولن تجدوا بعد اليوم من يزرع أو يقلع !

قال أحمد :

ــ كنت أظن الزهايرة جائعة الى الخبز وحده ، ولكن هاهى الأيام تثبت أنه حتى الجوعى يحلمون بالمجد !

ــ للمجد فى هذه الأيام طريقان .. أن تنضم الى الفدائيين مع محمد الجندى أو الى فريق الأسد المرعب .

وضجوا جميعا بالضحك !

قال محمد الجندى بنبرة جادة :

ــ هل تصدقون ؟ رأيت مرة فى خيالى فريقكم ..

ثم أضاف وقد عجز عن الاستمرار فى نبرة الجد .. « فريق الأسد المرعب » هناك فى القنال .. لم لا يتحقق هذا الحلم ؟

قال أحمد :

ــ من عجب انك انت الذى تسأل مع أنك الذى تعـرفه الجواب ؟

ثم أضـــاف :

ــ تمنيت لو فتحوا باب التطوع ، على الأقل يعرف المرء حقيقة موقفه ! أحيانا أشك فى قدرتى على قتل انسان حتى ولو كان جنديا انجليزيا يحتل بلادى !

قال صبرى :

— لهذا السبب تريدهم أن يفتحوا باب التطوع ؟ لماذا لا تتطوع فى هيئة التحرير ؟

قال شريف ضاحكا:

— هيئة التحرير مثل « فريق الأسد المرعب » ترحب بمن يلعب وبمن لا يلعب .

صرخ أحمد :

— يا غجر الا تعرفون الجد قليلا ؟

قال شريف وقد استفزته صـرخة أحمد وثارت فيه روح العراك :

— نعـــرفه .. وأعرف موقفى فى مثل هذه الأمور ولدى الشجاعة لقوله .. لن أحارب فى صفوفهم !

— لـــماذا ؟

قالها أحمد وقد شعر بأن المواجهة سوف تتجدد :

— لا أسلم نفسى لمن يســلبنى حريتى ، ولو أعطانى كل شىء ! هذه هى المسألة !

تدخل صبرى هذه المرة :

— لن أقاتل فى صفوفهم مثلك لأسباب غير أسبابك .

قال شريف مندهشا :

— أرحب بموقفك ومتنازل عن شرح الأسباب !

عاد صبرى يقول :

ـــ ولكنى مضر على شرحها ..

ساد الصمت لحظات ، بعدها تابع صبرى حديثه ، وقد أصر هذه المرة على خوض معركته مع شريف :

ـــ لا افهم معنى أن تتصور الحرية فى جانب ، وكل شىء فى جانب آخر ؟ هذا مجرد كلام ، فالذى يملك كل شىء هو الذى يملك الحرية .. أما الذى لا يملك شيئا فماذا تعنى بكونه حرا ؟ الحرية ليست مجرد كلمة .. الحرية قدرة .. وأنت حر بمدى ما تملك من قدرة !

قال شريف بهدوء متعمد :

ـــ حين أبدأ ومعى الحرية ، ولو لم اكن مالكا لأى شىء سأصل مهما طال الوقت الى شىء أو أشياء .. لكن حين أفقد حريتى ، ومعى كل شىء فسأصل حتما الى فقدان كل شىء ، تلك هى تجربة الأمم ..

تدخل أحمد مصرا على تحديد الأمور :

ـــ اتفقوا أولا على معنى الحرية !

قال شريف بنبرة اعتداد :

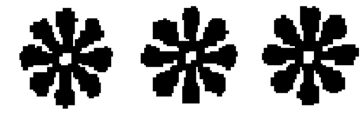
ـــ اتفق العالم المتمدن على معنى الحرية منذ مئات السنين .

قال صبرى مسايرا شريف فى هدوئه وحده :

ـــ أحب أن أتذكر أن هناك عالما جديدا فقيرا قد اكتشف معنى آخر للحرية .. فالحرية هى العدالة !

ـــ العدالة .. ؟ انت تبدو مثل قريبك تعشق الألفاظ الغامضة .. ومع ثقتى بأن هذه الكلمة لا تشير الى شىء محدد واضح

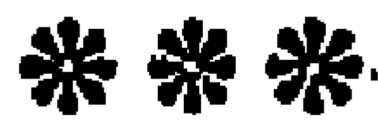
يعرفه الناس ، فالمشكلة فى رأيى لا تكون فى غموض الكلمة بل فيما يريده الناس حقا ، وفيما يكافحون من أجله !



هل يكافح الناس خلال حياتهم من أجل العدالة أم يكافحون من أجل الفوز والتفوق والرفاهية والمجد .. ؟ أما العدالة فقد يكافح من أجلها أولئك الذين خسروا السباق وحدهم ، انها تشبه لحظة البدء فى المباراة ، توجد ليتجاوزها اللاعبون ثم يطالب بها الخاسر فى بدء السباق من جديد !

قال صبرى مصمما ان يخوض المعركة حتى النهاية :

ــ حين تجد أن الأغلبية فى بلدك أو فى اى بلد آخر هى التى تخسر المباراة دائما ، الا يعنى هذا ان ثمة خطأ فى نظام اللعبة نفسها ؟ وان يصبح هدفك ليس مجرد البحث عن بداية جديدة لنفس المباراة ، بل البحث عن نظام جديد للعبة يفوز فيها من يبذل العرق والذكاء بحق !



ــ لماذا اذن لا تقاتل فى صفوفهم ؟ اليسوا يغيرون النظام ؟

ــ لا انهم لا يغيرون قواعد اللعب ، بل فيما يبدو سوف يكتفون بتغيير الفريق !

ــ وتحديد الملكية وماذا يعنى فى رأيك ؟

ــ بطريقتهم لا يعنى شيئا !

ــ ماذا تريد اذن ؟

الغاء الملكية .. أن نبدأ جميعا من البداية ، من الصفر !

ــ ليلتك سوداء ! أنت شيوعى اذن ! وتتركنى أصاحبك !

وضجوا جميعا بالضحك .. عدا محمد الجندى لم يكن يروق له هذا النوع من المباريات ، كانوا فى رأيه أولادا يستعرضون مهارتهم فى الكلام ، هذه اللعبة التى يجيدها أبناء المدارس ، قال بمضض :

— كلامكم يصيبنى بمغص ، تتشاجرون على معنى الحرية التى لم تحصلوا عليها بعد ، ولن تحصلوا عليها بهذا الكلام الذى لا تملكون غيره !

من يدفع ثمن الحرية هو الذى يملك حق الحديث عنها .. اما انتم فمجرد ببغاوات !

ولـــكن الببغاوات ظلت تتكلم طويلا فى هذه الليلة ولم يصمتوا الا حين بدأ محمد الجندى يروى جزءا جديدا من القصة الكاملة !

— ١٨ —

وكان لابد أن تمضـــى أيام أخرى ليبدأ بعض الناس فى الاحساس بمدى الخطر الذى يتســرب الى قرية الزهايرة مع الكرة !

حسنين النجار يفتقد ابنه رشاد فيرسل أخاه محمود ليبحث عنه وهناك فى الملعب ثم يجلس فى انتظار الاثنين دون جدوى ! وأمام دكان الخلفاوى يتردد سؤال يسبق كل الأسئلة : هل هناك لعب اليوم ؟ وأصبح الملعب مكانا يتواعد الناس على اللقاء فيه ! كما أصبحت الكرة وراء كل الأعمال المعطلة والمؤجلة ، وصـــرخ الشيخ عزفة مأذون القرية : الى متى سنسكت على هذا الحال

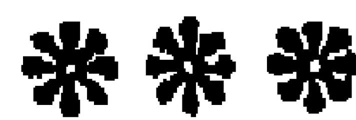
المائل ؟ ولكن صرخته تبددت فى الهواء ، وحين اهتم بعضهم بصرخته قالوا له :

ــ ولكنك تذهب الى هناك !

ــ ماذا أفعل كلما سألت عن رجل لى عنده مصلحة قالوا : « أنه هناك يتفرج على الكرة ، فأذهب لأتفرج وأقضى مصالحى »

ويتحول الموقف كله الى نكتة حين يسمع من يقول له :

ــ لماذا تغضب اذن ؟ أصبحت الكرة مكانا لقضاء المصالح « فيبصق الشيخ » ــ ولتعطيلها !



الحاج حبيب عجوز القرية وحكيمها القديم قبل أن يأخذ الحاج ابراهيم مكانه !

الحاج حبيب فى الخامسة والسبعين ولكن قدميه تحملانه الى حيث يريد ولسانه حر طليق يتجول حيث يشاء فى أى موضوع يحب ! ومن مكان عينيه لايزال ينبعث شعاع واهن يبصر به مواقع قدميه ، ويبصر به معنى ما يقع فى حياة الزهايرة !

واذا كان الحاج ابراهيم يسافر هنا وهناك ، اذا كان يقرأ ويكتب ويقابل الحكام فى المنصورة والقاهرة فالحاج حبيب لم يسافر لأبعد من السنبلاوين ، ولكن سفره الحقيقى كان فى أعماق القرية أنه يعرف القصص القديمة للآباء والأجداد ، يعرف ما يصلح وما لا يصلح للناس وللأرض وللبهائم على السواء ، انه يضع اذنه الواهنة على قلب القرية ، والخطوط الوحيدة التى يفك رموزها هى الخطوط الخضراء فى الأرض المزروعة ، وآخر سفرة كبيرة قام

بها كانت الى جرن عباس بك ليتفرج على الكرة .. ولم يكن ما يقلقه هو المصالح المعطلة ، ولا أن كل شىء فى القرية بدأ يلوى عنقه ناحية الملعب ، كان ما يقلقه وما أسر به الى الحاج ابراهيم كالوصية شعورا غامضا بالخوف .. كأن خللا أصاب دقات القلب الذى كان يدق بانتظام منذ بدأ ينصت اليه !

وترجم الحاج حبيب هذا الخوف بقوله :

ــ يا حاج ابراهيم أكبر عرس فى القرية يبقى ليلتين او ثلاثا ، اعظم الموالد يبقى سبعة أيام ، وهذا أكبر وقت يمكن أن يستغنى الناس فيه عن عقولهم ! اما أن يبقى ذلك ثلاثة اشهر كاملة .. ؟ فما معنى هذا ؟ ثم ما معنى أن يخرس الناس طوال هذا الوقت عن هذا الذى يجرى ؟ صدقنى اننى لا افهم كيف مر هذا الوقت دون أن تحدث المصيبة التى كان يجب أن تحدث ؟

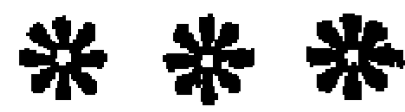
ويتلطف الحاج ابراهيم قائلا :

ــ يا عم الحاج حبيب .. كلها أسابيع وتنتهى الاجازة ، ويذهب الأولاد الى مدارسهم ، لا تقلق بشأن هذه المسألة !



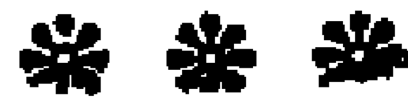
ولكن الحاج ابراهيم نفسه كان قلقا ، ويدعو الله أن تمر الأيام الباقية على خير ، فلم يكن يخفى على عينيه البصـــــيرتين، ذلك التمزق الذى يصيب حياة الناس فى الزهايرة .. حيث يعجز الآباء لأول مرة عن السيطرة على ابنائهم حين يتعلق الأمر بهذه الكرة الملعونة .. لا فرق بين تلميذ وفلاح .. فالجنون الذى يتولى شأنهم جميعا داخل الملعب وخارجه لا يفرق ، ولأول مرة تتلاشى الحدود بين الصغار والكبار .. بين من يملك أرضا ومن لا يملك سوى عافيته ، ومنذ اصبح « عطية بن جمالات » حديث الناس فى الزهايرة ، منذ رأوه يلعب جنبا الى جنب مع شريف

وصبرى ، ويتمشى معهم أحيانا على البوهية .. ويلبس فانلة حمراء مع التلاميذ الذين يجيئون من القاهرة لزيارة شـــــريف ويشاركون فى اللعب ولا يكاد يقل عنهم مهارة .. منذ ذلك الوقت وفى أعماق كل فلاح فى مثل سنه حلم بأن يجرب حظه فى الكرة فقد يصبح ليوم أو لأيام أعجوبة مثل عطية ابن جمالات ، ان أحدا لا يتحدث عن طرد الشيخ عرفه له .. ولكنهم يتحدثون عن احتمال أن يأخذه شريف ليخدمه فى القاهرة فى الزهايرة معهم هناك ! كلام فارغ قطعا ولكنه يدير رءوس الأولاد فى الزهايرة ، دون أن يجد أحد فرصة لكلمة عاقلة .. الم يصبح رجب شبه موظف فى سراى عباس بك .. وعمله لا يكاد يتجاوز تنظيف الملعب ، وسقى المواشى المربوطة فى السراى ومن يملك أن يتفاهم مع هذا الحشد المتعاظم حول الملعب كل يوم حيث يتحول الكبار الى أطفال ويتحول الصغار من خلال الكرة الى عمالقة ؟



ان التبجح والغرور والاحلام والتطاول ، واختفاء الحدود الفاصلة ، والعجز عن الامساك بالمشـــاعر والكلمات هى الثمار الفاسدة التى ترتفع كل يوم مع الكرة ، ثم لا تنخفض أبدا ، ثم ما هذه العواطف المهلكة التى بدأت تنمو حول اللاعبين ، وبدلا من أن يتباهى الأولاد كما كانوا طوال عمرهم بما ينجزون من عمل فى اليوم أو فى الساعة فى الحقول .. أصبحوا يتباهون بعدد المرات التى أحرز فيها فلان أو علان أهدافا فى الفريق الآخر ! لو ظل الأمر مقصورا على التلاميذ لما كانت هناك مشكلة ولكن المشكلة الحقيقية هى اختفاء الحدود ، وعجزهم عن اعادتها من جديد .. ؟ فمتى تنتهى على خير تلك الأيام ؟

لماذا يبدو كل واحد منهم وكأنه يعرف ما يريد ، ويسعى لتحقيقه ، فينجح أو يفشل .. كلهم جميعا ما عداه ؟ كان أحمد هو الذى يسأل نفسه فى تلك الليلة التى آثر فيها أن ينفرد بنفسه كأنما ليصفى معها حسابا قديما ! « شريف » قال له منذ ساعات قليلة : انه يفكر فى أن يكون يوم عيد الأضحى الذى سيحل بعد أيام يوما لا ينسى في تاريخ الزهايرة ، سيزوره فى هذا اليوم بعض أصدقائه من القاهرة وسيطعم بهم فريق الأسد المرعب ليصبح صالحا ليلعب مع فريق السنبلاوين مباراة لا تنساها الزهايرة !



فوجىء أحمد بالفكرة والخبر معا : لكنه لم يخف دهشته واعجابه .. بالتأكيد سيكون يوما مدهشا ، لكن أيمكن أن تكون تلك فكرة طارئة بسبب الضيوف أم أنه دعاهم خصيصا لهذا الغرض . ولم يحب أن يسأل شريف عن ذلك شريف هو الذى أوضح كل شىء حين بدأ يكمل فكرته عن المباراة :

— ستكون مباراة حقيقية .. ملابس كاملة ، وحكم . وقوائم خشبية للجول لا مجرد حجرين ، وتخطيط كامل لأرض اللعب .. !

وأكمل أحمد ضاحكا :

— ناقص أن تقول : وتذاكر !

ولكن شريف إكد :

— طبعا وتذاكر .

— هل جننت ؟

ـــ لن يدفع أحد مليما لتذكرة ، هل نسيت ما جرى يوم الجـــامع ؟

ـــ وهل هذا يوم ينسى ؟ لكن أنت الذى تنسى ، اننا نأخذ هذه المرة نقودا من الأولاد والشباب وليس من الناس الكبار ، واننا نطلبها فى يوم عيد وأن الكرة أصبحت شيئا يحبه الناس واننا نلاعب السنبلاوين وبالنسبة للسادة الكبار ســـنحضر لهم بعض المقاعد و ...

ـــ لقد كنت تفكر فى كل شىء اذن ؟

ـــ طبعا .

ـــ ودون أن تأخذ رأيى فى شىء ؟

ـــ كنت اريد أن أتأكد من مجىء أصدقائى فى القاهرة أولا ..

ـــ لكن لماذا الفلوس ؟

ـــ نفتح النادى ياصـــــديقى ؟ أليس هذا ما كنا نريده فى البداية ؟ كل واحد يعرف ما يريد ما عداه .. كان قد نسى حكاية النادى ، كانت المباراة الوحيدة التى احتشد لها هى مباراته مع شريف كصديقين ، ولكن حتى هذه المباراة يوشك « صبرى » أن يكسبها منه ، كان شريف هو الذى قال له يوما بعد مناقشته مع صبرى عند الهدار :

ـــ لو قدر لى يوما أن أقتل شخصا ســيكون صبرى ابن عمك !

قال أحمـــد :

ـــ لمـــــاذا ؟

ـ لأنه لن يرضى الا بقتلى ! قالها بنبرة يختلط فيها التقدير بالغيظ .

ضحك أحمد قائلا :

ـ هناك فارق بين ما يفكر فيه الانسان وما يفعله ! المسألة مجرد آراء !

ـ صبرى من النوع الذى يعمل ما يفكر فيه !

ـ لهذا الحد تثق بفكرتك عنه ؟

ـ كما أثق بفكرتى عنك !

ـ وما هى فكرتك عنى ؟

ـ رغبتك فى أن تعرف الحقيقة عن كل شىء لن تترك لك أى فرصـــة لفعل شىء ، ولهذا فلن أقتلك أو تقتلنى .. فحين تتوقف لتعرف الحقيقة عن شىء يكنو الناس جيمعا قد تجاوزوه وشغلوا بشىء آخر .. !

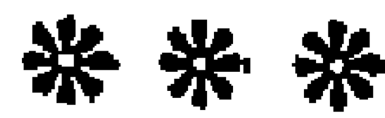
كل واحد يعرف ما يريد ما عداه ، صبرى وحده يوشك أن يصبح الند الحقيقى لشريف فى الكرة وفى غيرها ، رغم أنه لا يفكر فيه أبدا كصديق !

قال صبرى لأحمد مرة :

ـ ارى ما يعجبك فيه واقدره ولكن صدامى مع مثله قدر لا مفر منه ، ولهذا لا أسمح لنفسى بالتورط فى حبه .

كل واحد يعرف ما يريد ما عداه ! فهو يوشك أن يختفى فى الملعب ، وفى القرية التى تحولت كلها الى الملعب حيث يبزغ نجم واحد هو شريف ، وشريف الذى يسخر من فكرة العدالة عند

الهدار هو وحده الذى يفتح قلبه وبيته « لرجب انصعيدى » بعد أن ضربته الزهايرة فى بيت الله ، ويعرف منه عن عالم القرية ما لا يعرفه هو الذى يعيش بين أهلها ومعهم ويتاح لرجب أن يرى « نجوى » كل يوم وقد يكلمها بينما لا يجرؤ هو على أن يقترب منها خطوة واحدة ! والقصائد التى كتبها عنها لا تجد مستمعا واحدا ، وحين فكر مرة أن يقرأها لشريف باعتبارها شعره فى حبيبته المجهولة تراجع ، تصور أن شريف سيعرف الحقيقة فمن غير نجوى يمكن أن توصف عيناها بهذه الكلمات :



« لا أدرى ياحبيبتى كيف لا تدب الحياة فى كل شىء تقع عليه عيناك الجميلتان ؟ لماذا يحمل قلبى وحده عبء هذا الشعور الذى كان من الضرورى أن يحمله الكون كله معه ؟ لماذا يخفق قلبى وحده ، ولا يخفق قلب الدنيا كلها وأنت تخطرين فوقها كملاك ! أم اننى يا حبيبتى أصبحت دون أن أدرى قلب هذا الكون ، وقلبى هو الذى يدق فيه » .

اى حقيقة يمكن أن يعرفها شريف من هذه الكلمات ؟ وأى خبل ينتابه ؟ وماذا لو عرف هو أو حتى عرفت هى ؟ ماذا سيخسر اذا كان لم يكسب شيئا واحدا حقيقيا حتى الآن ؟ وحتى صداقته بشريف ترتفع وتهبط كالكرة .. !

محمد الجندى أيضا يعرف ما يريد ويفعله رغم قســـوته ! « محمد الجندى » وحـــده هو الذى يقترب منه يوما بعد يوم ، جمعتهما خيبة مشتركة فى الملعب ، كلاهما يعانى من عزلة خاصة ، قال له « محمد الجندى » : أنت أول انسان أظهر رغبة حقيقية فى أن يفهمنى ، أشـــعر وأنا معك بنوع من ان الأمن لا أشـــعر به بالنسبة لأى شخص آخر .

ضحك أحمد وقال :

ــ يدهشنى انك تخاف ويضحكنى أن تجد الأمن بجوارى !

ويقول محمد الجندى :

ــ ليس هناك ما يملؤك بالرعب أكثر من أن تجد نفسك سجين فكرة جاهزة يتلقفها الناس عنك لأن أحدا لا يريد أن يتعب نفسه فى التفكير فيمن تكون ؟ انت تستطيع أن تقتل اكثر الوحوش ضراوة ، ولكن أن تحمل الناس على أن يفكروا ، أن يتخلصوا من فكرة مريحة جاهزة هذا هو الصعب المخيف ياصديقى ..

* * *

أن القصة الكاملة هى كفاحه الدائم والمستميت ضد هذا النوع الغريب من الوحوش ! ولكن حتى القصة الكاملة ليست هى فى كل أجزائها القصة الحقيقية .. و « محمد الجندى » هو الذى كان يؤثرة أحيانا بهذه الأجزاء من الحقيقة ، وحين قال له ما فكر فيه ذات لحظة من أن الصدق ترف يملكه الرجل الغنى والرجل الشجاع وانه كان يصدق كل كلمة يقولها قال له محمد الجندى فى مرارة :

ــ القدرة على الكذب من نعم الله على الانسان فالحقيقة أحيانا تكون مثل جيفة يجب أن تغطيها بأى شىء ، وكلما كان الغطاء محكما وجميلا وثقيلا كان ثوابك عند الله عظيما مثل ثوابه من بينى مقبرة لميت !

كل واحد يعرف ما يريد ما عداه ، وحين قال مرة لمحمد الجندى بعد أيام من المناقشة حول فكرة الحرية عند الهدار .. حين قال له بمرارة :

ـــ لا أفهم كيف يعجز شخص فى ذكاء شريف عن رؤية المصادفة التى كان من الممكن أن تجعله فى مكان «رجب الصعيدى»، وأن تجعل رجب فى مكانه ، وكيف يسمح له ذكاؤه ولا أقول ضميره ، بالسخرية من فكرة العدالة ؟

وقتها قال له محمد الجندى وهو يسرح بعينيه الى الأفق البعيد :

* * *

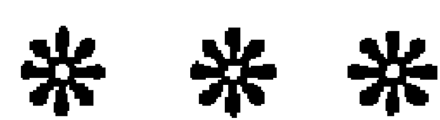
ـــ لم أتعلم مثلكم ، ولا قدرة لى على المناقشة ، ولم أكمل كتابا قرأته ، ولكنى انسان وقعت له بعض الحوادث ودعنى أحكى لك بعضا منها مما لا أقدر على حكايته لغيرك .. كنت فى الرابعة عشرة من عمرى ، ولم أكن قد فشلت فشلى العظيم فى الدراسة بعد ، سنتها نجحت فى المدرســــة الابتدائية ، وأراد أبى أن يشجعنى فأعطانى ورقة بعشرة جنيهات كاملة ، وقال :

ـــ احتفظ بها فى حصالتك لأشترى لك دراجة جديدة حين أسافر بعد أيام الى المنصورة !

* * *

وفى الليلة السابقة على هذه المكافأة كان أبى قد أخذنى فى يده لنزور رجلا بزرع فى أرضنا وتربطنا به صلة قرابة .. اسمه الشيخ « بكرى » كان يوشك أن يموت ، وحوله أبناؤه وزوجته .. لم يكن قد ذهب الى طبيب ، فلم أر حوله زجاجة دواء ، ولم يكن هناك من يتحدث عن نوع مرضه أو طريقة علاجه ، كانوا جميعا يتحدثون عن فرحتهم بزيارة أبى لهم ، ويوشكون أن يلوموا المريض على عدم شفائه بعد هذه الزيارة ، ما بقى فى رأسى من تلك الليلة هو شـــــحوب وجه الرجل ، وبروز عظام خديه ، كانت الحركة الوحيدة التى تصدر عنه هى الايماء برموشه الغائرة بين حين وآخر ، وحين هم أبى بالقيام ترك فى يد الرجل المريض جنيها

لم تقو أصابعة على الامساك به فسقط بجواره وتحرك جميع من حوله لتوديع أبى حتى الباب ، وهم جميعا يدعون له ، لأبى ، بالسلامة وطول العمر ، فى الطريق لم أتبادل مع أبى كلمة واحدة، كيف نمت الفكرة فى رأسى وكبرت وتأكدت وحدها ؟ كيف أحسست أنه من الضرورى الا أخبر بها أحدا لكى تتحقق ؟ ثم كيف فعلتها ؟ كيف أخذت الجنيهات العشرة من حصالتى وعدت بها الى البيت الذى لم أزره سوى هذه المرة ؟ كيف طرقت الباب وتسللت من خلال دهشتهم وترحيبهم وذهولهم لأضع الورقة فى يد الرجل التى كانت لا تزال عاجزة عن الحركة ثم اغادر البيت كما دخلته ودون كلمة متعثرا فى خوفى وخجلى ؟ كيف فعلت هذا كله ؟ لا أعرف لم أكن أفكر فيما سوف يحدث حين يسألنى أبى عن الجنيهات العشرة بعد أن نسافر . كنت أفكر فى الرجل المريض وفى أنهم الآن يمكن أن يذهبـــوا به الى طبيب ، وأنه قد لا يموت .. ! وفوجئت بعد لحظات بأحد أبنائه يطرق باب بيتنا ويسأل عن أبى ثم يعطيه الورقة ولســـانه يغمغم بما فعلت وكأن ثمة خطأ فى الموضوع .. لحظتها تصورت أى شىء الا أن يأخذ أبى الورقة بعد قليل من التمنع ، وليلتها لم أنم ..



مازلت أذكر كلمات أبى التى لم أدرك معناها الا بعد وقت طويل : « لا يمكننا أن نفعل مثل هذا .. أقاربنا كثيرون .. وكلهم فقراء ويمرضون ويموتون .. ولا نســـتطيع أن نفعل هذا مع الجميع .. ولو فعلته مع أحدهم فقط فسوف يغضب الآخرون .. انهم لا ينتظرون هذا ، لأنه غير ممكن .. ولهذا أعادوا النقود .. يجب أن تفهم لو فعلنا ذلك دائما لأصبحنا مثلهم ، هل يمكنك أنت أن تصبح مثل أولاد الشيخ بكرى ، هذا مستحيل .. هم يقدرون على العمل فى الغيط وقد اعتادوا هذه الحياة أما أنت فلا تقدر .. يجب أن تفهم هذا .. والا ضعت دون أن تنقذ غيرك ..

أحذر هذه المشاعر فأنت صغير .. واذا اعتاد الآخرون أن يأخذوا منك فسوف يجرونك معهم الى الهاوية حيث لا تمتد يد لأحد » ..

***

وقتها لم يكن من الممكن أن أفهم ما يعنيه أبى تماما .. ويبدو اننى ظللت طويلا لا أفهمه هو الذى قال لى ذلك بنفسه .. بعد سنوات قليلة وأنا أتأرجح بين النجاح والفشل وقبل أن أبدأ هروبى العظيم .. كان « رجب الصعيدى » هذا فى ذروة قوته وقبيل انكساره ، وكان قد جاء دوره ليزرع ويقلع فى أرضنا ، طوال عمر هذا الولد ، وهو يعشق أن يلفت اليه النظر ، وبالنسبة لمن فى مثل ظروفه كان لابد أن يدفع ثمنا غاليا لاشباع هذه الحاجة ، وطريقته الوحيدة أن يفعل ما يعجز الآخرون عن فعله ، يحمل على ظهره زكيبة من القمح ويصعد بها السلالم الى قادوس ماكينة الطحين بينما يحملها الآخرون على مرات فى مقاطف صغيرة ، يتراهن فى دكان الخلفاوى على التهام أقة كاملة من الحلوى ، يحصد وحده نصف فدان فى يوم واحد . وكان لابد أن تجىء النهاية بأسرع مما يتوقع أحد ! وجاءت بدايتها وهو يعمل فى حقلنا ، بدأ يعانى من أول مرض ... ويرقد ... ويطول رقاده وتتعدد مرات الرقاد ! وقرر الحاج شلبى الذى يشرف على زراعة أرضنا أن يستغنى منه .. ولم يعترض أبى .

قلت له : كيف نرميه مريضا وقد خدمنا فى صحته !

قال أبى : أنت لن تفهم أبدا .. لا تريد أن تفهم .. أتعرف كم رجلا مثل رجب زرعوا فى أرضنا وخرجوا لمثل هذا السبب أو لغيره ، عشرة .. عشرون لو أبقيتهم فى بيتى لكان من الضرورى أو أؤجرك أنت واخوتك .. لتعملوا فى حقول الناس حتى أنفق على هؤلاء .

لـــــكننى لم أبدأ فى فهم ما كان يعنيه أبى الا بعد الهروب العظيم .. حين بدأت أقوم فى المدينة بأعمال لا تفترق عما يقوم به رجب فى حقل أبى .. !

* * *

أخشى أن أقول لك أنك أيضا ربما لا تفهمنى .. ليســـته المسألة اننى أسخر بدورى من فكرة العدالة فلا أحد مثلى يدرك ما تعنيه تلك الكلمة ، ولكن هل يمكن لمثلك .. أعنى لمن هو فى مثل ظروفك أن يفهمنى حين أقول له أنه حتى هؤلاء الذين يستحقون العدالة ، لا يريدونها دائما الا بقدر ما يريد الخاسر أن تبدأ المباراة من جديد طمعا فى أن يحقق هو الفوز لنفسه ! كيف نطق شريف بهذه الكلمة مع أنه لم يعرف ما عرفت ؟ لماذا يعمل الناس ؟ لماذا يبذلون اقصى ما فى وسعهم أو أفضل ؟

* * *

الخوف ؟ نعم ! التفوق والامتياز ؟ جائز ، الحب ؟ ممكن ، تأكيد الذات والتعبير عنها ؟ مؤكد ، أما العدالة ؟ كيف أوضح لك ؟ قد تكون المسألة ببساطة أنك عرفت شيئا عن رغبة الانسان فى تحقيق العدالة ، ولكنك لم تعرف ما عرفته عن رغبته فى تدميرها .

قال أحمد وقد طال صبره وصمته :

ـــ يخيل لى أن هناك سوء تفاهم .. جوهر العدالة ليس هو المساواة بين انسان وآخر بقدر ما هو تناســـــب بين العمل وقيمته من ناحية .. واحترام عميق لقيمة الانسان كانسان ! ولقيمة العمل كتعبير عن الانسان من ناحية أخرى .

عاد محمد الجندى يؤكد :

ـــ أخشى اننى لا أستطيع أن أوضح لك .. ما هى قيمة

الانسان ، وما هى حقيقة دوافعه ؟ وكيف تقدر قيمة عمل كبير ننجزه أحيانا بأحط الدوافع !

ــ قد لا تكون العدالة دافعا ولكنها شرط ضرورى لكى تنمو الدوافع النبيلة !

ــ لن تفهمنى أو ربما كنت لا أعرف كيف أشرح لك ما أحس به ، الانسان سيىء ياصديقى ومحير ، الفقير والغنى ، وسنك وظروفك لا يسمحان لك بادراك ذلك ، وقد تدرك غدا لو طردك أبوك .. !

قال أحمد بفزع :

ــ لماذا تحارب اذن ؟ لماذا تعرض نفسك للموت ؟

* * *

ــ مرة سحرتنى كلمة « الدين » ومرات سحرتنى كلمات « الوطن » و « الحرية » و « الكرامة » .. وحين تخلصت من سحر الكلمات كنت قد وقعت فى سحر العادة .. فى سحر أقسى عادة .. عادة العنف التى تركبنى كشيطان .. شحنة لابد أن أتخلص منها فى شخص أو فى شىء فمن أفضل من أعداء الوطن ؟

وقاطعه أحمد :

ــ انت تقسو فى الحكم على نفسك .. وعلى الناس !

وكأنك تنتقم من شىء ويستطرد محمد الجندى وكأنه لم يسمع شيئا :

ــ وكنت قد عرفت بعض الأشخاص الذين يطيب لى أن أشاركهم فى لعبة العنف ويطيب لهم أن يساعدونى على الحياة حين تتوقف تلك اللعبة ، هذه هى المسألة .. !

ـ وثورة الفلاحين التى كنت اظناك تمهد لها الطريق ! بعد أن فتحته ثورة الجيش .

ويضحك محمد الجندى قائلا :

ـ سوف أحارب فى صفوفهم أيضا حين يبدءون هم ثورتهم !

قال أحمد وقد عاودته روح الاستماع :

ـ ومتى تظنهم أبدءون ؟

ـ لا أعرف !

ـ ماذا يمنعهم ؟ وقد ذهب الملك ، ويوشـــــك الانجليز والاقطاعيون أن ذهبوا ، والقيادة الآن ثورية وتمد يدها لهم ..

* * *

ـ لست احب الكلام فى السياسة ، لأنى لا أفهم فيها .. ولكننى أحب أن أتكلم عن الأشياء والأشخاص .. كل فلاح عرفته كان يعيش وحده كفرد خائف متوجس يكتم ذعره وهواجسه ولا يثق بأحد ، والغريب انهم يعملون معا ولكنهم أبدا لا يفكرون معا .. ولا يشعرون معا ، مع أن كل واحد منهم يشعر ويفكر بنفس الأمور التى يفكر فيها غيره ولا يفصل بينهم غير الهواء وغير جدران حاجزه قميئة ! وماذا تكون الثورة أى ثورة الا ازالة الحواجز بين الناس لكى يصبحوا فكرا واحدا وشعورا واحدا من أجل هدف واحـــــد !

كل واحد يعرف ما يريده سواء بالعقل أم الغريزة ، صدقا أم كذبا ، خيرا أم شرا ، وهو أيضا يجب أن يعرف ذلك ، والا يخجل مما يعرف .

يجب أن يكون للمرء طريق ولو كان خاطئا .. وفى تلك الليلة أحس انه يريد أن يلوذ بشىء أى شىء ، ولم يكن هناك

غيرها ، فى كل مرة ذهب اليها كان يتمنى أن تكون الأخيرة ، لا تقوى ، ولكن شعورا بأنها ليست هى ما يريده تماما .. ! كان الليل قد أوغل ، والسكون فى البيت شاملا ، والظلام يتراقص حول سهراية فى صالة البيت يهزها نسيم وان رقيق ولكن قدميه كانتا تحفظان الطريق بأكثر مما تحفظه عيناه .. تسـلل فى الطريق المألوف عبر الأكياس الفارغة والفئوس والأوانى القديمة دون أن يصطدم بها ، دفع باب المخزن بسرعة حتى لا يند عنه صوت ! تسمع انفاسها فى هدوء .. نائمة فى نفس المكان فوق حشية من الاكياس القديمة رغم الظلام يبصـــر فى خديها وردتين تزدهران كلما ضمها الى صدره .. رغم أطباق الجفون يرى النظرة النائمة المشوقة .. تناديه بعمها أحمد بسبب صلة القرابة البعيدة التى تربطها بالأسرة لتغطى الحقيقة التى لا يحبها الناس فى قريتهم ، حقيقة انها خادمة ، وحتى يكون الغطاء جيدا فانها لا تأخذ أجرا مقابل هذه الخدمة ، فأبوه يزوجها كما يزوج بناته ، ويجهز لها حاجات العرس ويرسل لها المواسم فى المناسبات ، فلتكن عروسه الليلة .. عروس يكتفى بعناقها ، يشم روايح الشباب فيها ، يلمس ثمارها الناضجة .. مد يده ليوقظها برفق .. تقلبت ناحيته .. شمته رائحته .. شم رائحتها .. لا .. لا ، تقولها دائما فى كل مرة .. تقولها بنفس الصوت النائم ، بنفس النبرة المتراخية ، ويدها تقاوم يده ثم تستسلم لها !

لم تكن تلك هى المرة الأولى .. ولكنها كانت المرة الأولى التى حاول فيها أن يعرف ما يريد والا يخجل منه .. والتى كان يريدها فيها بكل شراسة اخفاقه وعجزه .. !

— ٢٠ —

كان ذلك يوم العيد الكبير ...

وقبل أن يرتفع قرص الشمس كاملا عن سطح الأرض ، كانت أبواب البيوت فى قرية « الزهايرة » تفتح فتحة صغيرة أو كبيرة ليخرج رجل أو رجلان ، خلفهما طفل أو أطفال .. ! من فتحة الباب يحمل هواء الصباح الندى دفقة أو دفقات من الدخان الذى يشى باشتعال النار منذ وقت مبكر فى الفرن أو الكانون .. تخرج دفقة الدخان مختلطة دائما بروائح اللحم المسلوق والخبز الخارج لتوه من الفرن ، ثياب الأولاد جديدة غالبا أو نظيفة فى هذا الصباح ! رءوسهم حليقة بطريقة واحدة كأنها صبت جميعها فى قالب واحد ، وغالبا ما يعرج الأطفال فى مشيتهم ، وقد يعرج الكبار كذلك ، ولأول مرة ينظرون الى مواطىء أقدامهم فأحذيتهم جديدة ، واقدامهم التى ألفت الحفاء لم تألف الاحذية ، والقدم تعانى من الحذاء بقدر ما يعانى الحذاء من القدم !

ويلتقى الجميع فى مسجد القرية لصلاة العيد التى تبدأ حين ترتفع الشمس عن سطح الأرض قليلا !

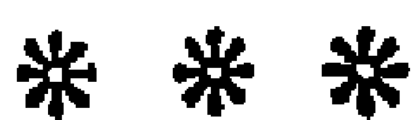
* * *

حين تنتهى صلاة العيد تكون الشمس قد حاذت رءوس النخيل العالية ، وأعالى الاشجار السامقة البعيدة ، فيمضى المصلون جميعا فى طريق تمشى فيه القرية منذ مئات السنين .. طريق ضيق ومتعرج تحيط به الحقول المزروعة ، وينتهى حين تبدأ المقابر !

كل رجل يعرف طريقه بين المقابر .. يعـرف المقبرة التى يريد ، يده فى يد ابنه كأنما يريده أن يعرف من البداية قصة النهاية .. يعلمه كيف يقرأ الفاتحة ويترحم على الموتى ، وكيف يتجنب أن يدوس بقدمه على المقابر .. ويحكى له جزءا من سيرة الغائب الذى لن يرجع .. !

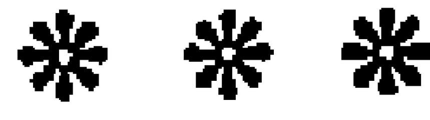
وحين تنتهى زيارة الموتى تبدأ زيارة الاحياء .. !

وتعود القرية التى تجمعت أمام الله وأمام الموت لتتفرق فى بيوت الاحياء !

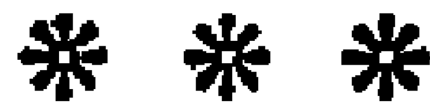


فى جرن عباس بك المواردى كان رجب الصعيدى يقف مثل قائد فرقة من الجنـود ، وكانت فرقته تتألف من مجموعة من الصبيان عقد معهم صفقة على أن يتنازلوا عن ساعة أو ساعتين من صباح العيد ليعملوا معه فى اعداد الجرن للمباراة الكبرى .. فى مقابل أن يتفرجوا على المباراة آخر النهار بدون تذاكر ، خلع الأولاد ثياب العيد حتى لا تتسخ ووقفوا أنصاف عرايا ، بعضهم يعيد كنس الجرن وبعضـهم يزيح الى الوراء أكوام القش التى تزحف قريبا من خطوط الملعب ، وبعضهم ينقل الجير لمن يرسمون به خطوط الملعب ، أما القائد فقد شـغل الى جوار ملاحظتهم بالعمل الكبير الذى يجعل من المباراة مباراة ، دق قوائم خشبية للجول ، واعداد مكان خاص من الجرن فى الجزء المقابل لمنتصف الملعب حيث تصف الكراسى التى سيجلس عليها عباس بك نفسه ومعه العمدة وكبار الرجال فى القرية ليشهدوا المباراة .. ذلك يوم لم تشهده الزهايرة حتى فى أيام الوفد .. ! وهو أيضا كما قال شريف لرجب :

ـــ هذا يومك يارجب .. !



حين وصل صندوق المرجيحة الى أعلى ارتفاع له ، ألقى الولد الذى كان يجلس فيه بحزمة من الاعلانات كانت فى يده ، وتناثرت الحزمة فى الهواء قبل أن تواصل الهبوط التدريجى فى دائرة أوسع بكثير من دائرة المرجيحة .. وقبل أن تصل الى الأرض كانت أصابع الاولاد تستقبلها وهى تتأرجح فى الفضاء ، وحول كل اعلان كان يتجمع الصبية حول من يســـــتطيع منهم القراءة « المباراة الكبرى بين فريق الأسد المرعب بالزهايرة وبين فريق السنبلاوين » .. وتتوالى أسماء الفريقين ، وذهل الأولاد حين وجدوا اسم « عطية » مطبوعا على الورقة مع أسماء بقية اللاعبين وحين عرفوا أن ثمن التذكرة ثلاثة قروش للكبار وقرشان للصغار ... زاح كل ولد يعد ما تبقى معه من مصروف العيد ليضع ثمن التذكرة فى جيب ، وبقية المصروف فى جيب آخر وأكثر شىء أدهش الأولاد فى الاعلان أنه فى الوجه الآخر من الورقة طبعت صـــور لبعض لاعبى الكرة المعروفين فى القاهرة وتحتها كتبت بالمطبعة بعض أسماء لاعبى الزهايرة وكانت الطباعة رديئة لدرجة أن الأولاد يصدقون أن الصور حقيقية للاعبى بلدهم ، والشىء الوحيد الذى ضايق البعض أن اســـم عطية ظهر بين الاســـماء ولكن صورته لم تظهر بين الصور !



فى منزل الحاج ابراهيم حيث تتـــوالى موجـــات الزائرين المهنئين بالعيد ، انتهز أحمد لحظة خلت فيها الحجرة من الزوار .. ألح الى أبيه بصوت متردد الى أن هناك احتمالا أن يبكر

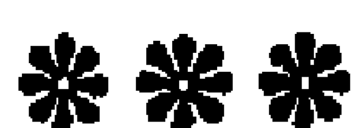
الفريق الضيف فى المجيء ، وفى هذه الحالة قد يحتاج الفريق الى غداء أو على الأقل ما يشـــبهه .. لمح على وجه أبيه امارات استياء ، تحول الاستياء الى سؤال عصبى :

ــ لماذا لا يتغدون فى سراى عباس بك الواردى ؟ أليس ابنه هو صاحب هذا المولد كله ؟ اليس هو الداعى ؟ هل دارنا اكبر من دارهم ؟ هل أرضنا اكثر من أرضهم ؟

لم يرد أحمد ، ظل مطرقا فى حيرة ثم قال بعد أن صمت والده :

ــ قد لا يجيئون .. ولا تكون هناك مشكلة ؟

استطرد أبوه وكأنما أراد أن يبرر قوله أمام ابنه :



ــ أنت تعرف أن بيتى مفتوح .. وطعامى مبذول ، ولكنى لا أحب لك أن تكون الحائط القصير الذى يستند اليه الجميع !

ظل أحمد صامتا ومطرقا فى وجوم ، فوجىء بأبيه يقول له :

ــ لا تكدر نفسك فى هذا اليوم ، واذا حكمت فسأكون لها ، كل ما أريده ألا يستلين الناس عودك ؟

نادى الحاج ابراهيم على ابنته « فتحية » التى كانت فى زيارتهم بمناسبة العيد .. قال لها :

ــ ابقى معنا اليوم .. لتساعدى أمك وأخوتك فى اعداد الطعام لو جاء الضيوف ! ثم مضى لاستقبال من جاءوا لتوهم من الزائرين !

قالت فتحية لأحمد وهى تهون عليه :

ـــ لا تغضب .. أنت تعرف أباك .. لو جاءوا فسنعمل لهم أشهى طعام .. خير ربنا كثير .. المهم أن يبارك الله فيك ونراك مثل شريف بن عباس بك !

فتحية أكبر شقيقاته وأكثرهن جمالا وجرأة ، وأطول اخوته لسانا .. ! أحيانا كان يتمنى أن تكون له جرأتها وطول لسانها ، سألته :

ـــ هل سيحضر شريف بن عباس بك مع الضيوف ؟

لم يفهم معنى لسؤالها ، قال :

ـــ جائز يحضر !

قالت :

ـــ « راضى » له طلب عند عباس بك .. ولو كلم شريف أباه فى هذا الطلب ..

قال احمد دون ان يسأل عن الموضوع :

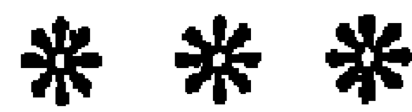
ـــ فيما بعد .. المهم أن يمضى اليوم على خير .. ! وبعدها أكلم شريف فى أى وقت وفى أى شىء تريدين ..

***

انصرفت اخته شبه واثقة من أن مشكلة زوجها عند عباس بك سوف تحل ، زوجها ابن عمه ايضا ، هذا عم آخر عاش لا يملك أرضا وحين مات لم يعش من أولاده غير « راضى » هذا ، أحب أخته وأحبته .. تقدم لخطبتها .. لم يتردد أبوه فى الموافقة ... فقير حقا ولكنه فلاح من اشطر الفلاحين فى القرية ، يزرع فدانين فى أرض عباس بك الموارد ، ولكنه لا يكتفى بالزراعة ، فهو يتاجر فى الفاكهة حينا ، وفى الزرع حينا آخر ،

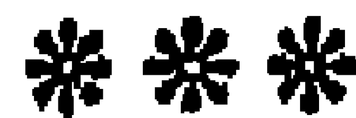
ودائما فى روث الحمام ، فقير حقا ولكنه يكسب الكثير وينفق الكثير .. المال يجرى فى يده .. يلبس أغلى الثياب ، دخـــل الراديو بيته قبل أن يدخل بيت الحاج ابراهيم !

يتمنى أحمد أن يصنع لراضى الخدمة التى تود أخته ولكنه لا يحب أن يعرف شريف أن زوج أخته يزرع فى أرضهم ! يمكن أن يقول له أنه أحد أقاربهم أو جيرانهم ، لكن ماذا لو عرف الحقيقة .. ماذا لو عرف أنه لا يريده أن يعـــرف الحقيقة ؟ لكن لماذا لا يترك التفكير فى هذا الموضوع حتى ينتهى هذا اليوم على خير !



وصل فريق السنبلاوين فى الساعة الخامسة بعد الظهر ، وبذلك انتهت حالة التوتر التى سادت منزل الحاج ابراهيم بعض الوقت أعطى شريف سائق التاكسى الذى يقل الفريق عشـــرة قروش زيادة على أجره ، وطلب منك أن يطوف القرية بالفريق ، ويده على بوق السيارة فى ايقاع مثير كنوع من الدعاية لوصول الفريق واقتراب موعد اللعب !

كانت هذه المحاولة كافية لتفـــرق القرية فى موجة من الضجيج والتراب ، وصراخ الصبية ، وهتافهم !



ولا أحد يدرى كيف تسربت هذه الموجة الى الحجرة الداخلية التى يجلس فيها الحاج حبيب وحوله الرجال الكبار فى القرية ، وحين سألهم عن السبب حكوا له فى ايجاز قصة المباراة الكبرى ، قبلها .. قبل تلك الحكاية .. كان الرجل العجوز يتكلم ويسمع ويضحك ويغضب ولكنه بعدها سمت . قال الذين كانوا معه ..

لم يعد بعدها للكلام .. كأنه كان ينصـــــت الى شىء أو ينتظر شـــــيئا !

***

قال شريف لأحمد :

— لا أحد غيرك يصلح لهذه المهمة !

وكانت المهمة هى مهمة بيع التذاكر وجمـــع النقود ، قال احمد :

— أى شىء عدا مسألة الفلوس هذه ؟

— ليس هذا رأيى .. الفريق كله مصر عليك !

— أى فريق ؟ الذى سيلعب وهو لا يعرفنى أم الذى يعرفنى ولن يلعب منه سوى ثلاثة !

— لا معنى لأن نختلف الآن على مثل هذه المسألة ، تعال واسألهم جميعا .. قالوا : لو جمع الفلوس بدون تذاكر لما كان لدينا مانع !

***

أغلق المدخل المؤدى الى الجرن بفرع كبير من شجرة سنط عدا جزء يســـمح بمرور الناس واحدا بعد الآخر ، أول المدخل جلس أحمد أمام منضدة خشبية عليها التذاكر ، وبها درج نصف مفتوح يتلقى النقود ، على مقربة من المنضدة وقف « رجب » وفى يده عود من الخيزران يمنع به الاولاد من محاولة التسلل حول فرع شجر السنط . كانت نظراته تتوزع بين الأولاد الذين يحاولون

التسلل وبين النقود التى تتساقط كالمطر فى الدرج المفتوح ولكن منظر النقود هذه المرة لم يفقده صوابه ، كان هو الذى يقوم بدور الحارس للمدخل وللملعب وللنقود ولكل شىء ، كان يشعر أنه صاحب المولد ، فكيف يفقد صوابه ..



الساعة تقترب من الخامسة والنصف موعد بدء المباراة ، المدخل المؤدى الى الجرن يختنق بالناس الذين يتدفقون من البلد ومن العزب المجاورة ، كيف عرفوا جميعا ؟ وكيف جاءوا جميعا قبيل بدء المباراة بلحظات ؟

التذاكر تنفد ، والقروش تتساقط بلا حساب ، كان كل واحد يدفع ثمن تذكرة ، ثم لما شاع خبر نفاد التذاكر أصبح كل واحد يدفع ما معه ، ولم يكن هناك من يأخذ أحمد رأيه فى الموضوع ؟

كان يدرك أن الموقف كله يوشك أن يفلت من يده ! وخشى أن يفقد الناس صوابهم مع بدء المباراة ، ولم يكن ما يخافه أن يدخلوا بغير فلوس ، بل أن يطيحوا به وبالمنضدة ، وبفرع شجرة السنط فى لحظة اكتساحهم للمدخل .. قرر أن يترك مكانه ولكن حتى هذا ينبغى أن يتم بهدوء ، والا ضاع كل شىء ، أين محمد الجندى ؟ وأشار الى رجب ليرسل من يأتى به من الملعب ؟ مكانه الحقيقى هنا لا هناك .

فرع السنط يتململ تحت ضغط الناس ، صرخ محمد الجندى وهو يشق طريقه من بعيد :

— واحد واحد يا فجر !

كان أحمد يريد أن يوضح له أنه لا يريد سوى فرصة لمغادرة المكان ، ولكن حين وصل محمد الجندى أصبح هو سيد الموقف ، لم يكن فى انتظار توجيه من أحد .. حمل فرع السنط فى يده كما يحمل طفل لعبة ولوح به فى وجه الجمهور المتزاحم ، تراجعوا جميعا فى ذعر ، سقط خلفهم بعض الأطفال ، وارتفع صراخهم مع صفارة البدء فى المباراة ، نظر الى أحمد قائلا :

ــ والآن لماذا لا تحمل نقودك وتمضى من هنا ؟

ــ لم أكن أريد غير ذلك !

وحمل أحمد المنضدة بينه وبين رجب الى داخل الجرن الى مخزن فى داخل الجرن ، وظل « محمد الجندى » واقفا يحرس المدخل حتى تم تراجع أحمد ورجب ، وصاح فى الجميع :

ــ والآن ادخلوها بسلام آمنين ، وبدون فلوس .. !

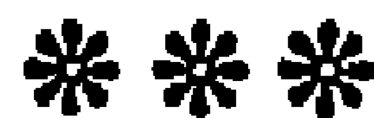
وقف محمد الجندى على باب المخزن الذى لجأ اليه أحمد بنقوده .. وجده يعد النقود .. صرخ فيه :

ــ ماذا تفعل ؟ المباراة بدأت ...

ــ أحسب الفلوس التى جاءت بعد نفاد التذاكر ..

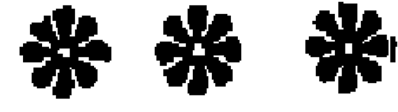
ــ يا أخى قم .. أى نقود ؟ وأى تذاكر ؟ لست فى بنك .. وليس هناك من يحاسبك !

ولكن أحمد لم يترك مكانه الا بعد أن فرغ من عد النقود ، ووضعها فى حقيبة جلدية كانت معه ..

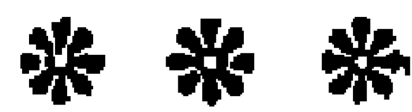


المباراة فى بدايتها ، الزهايرة تتفرج على المبـــاراة وأحمد الذى اندس وسط الناس يتفرج على المباراة وعلى الزهايرة معا ؟

فيما يقابل منتصف الملعب يجلس « عباس بك الموارد‌ى »، وحوله العمدة والحاج ابراهيم والشـــيخ عرفة وبقية الرجال الكبار فى القرية على صف من الكراسى .. عباس بك بشعره الأشيب ومنظاره الذهبى ، وملامحه السمراء القوية التى منحته سمرتها وجاذبيتها لنجوى وشريف ..



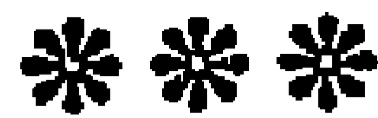
« عباس بك » يرتدى كعادته حين يكون فى القرية جلبابا من السكروتة ويدخن سيجارة فى مبسم ابنوسى مطعم بالذهب ، ولا ينسى بين لحظة وأخرى أن يميل برأسه مرة ناحية العمدة ، ومرة ناحية الحاج ابراهيم ، وحولهم وحول الملعب كله تلتف الزهايرة ، جلاليب العيد الملونة الزاهية ، الصف الأول يجلس على الأرض، وتتوالى خلفه صفوف الواقفين ! مئات العيون تتابع الكرة فى صعودها وهبوطها ، فى حركتها المجنونة المتغيرة والمفاجئة التى توشك أن تصيب الزهايرة بالجنون .. جنون الحركة والصياح والقلق والاعجاب والخوف والفرح .. لا .. ليســت تلك هى الزهايرة التى يعرفها أحمد ! مثل هذا العدد لم يتجمع فى مكان ! مثل هذه المشاعر لم يزدحم بها قلب رجل واحد ، أو قلوب الرجال ، ربما تلك هى المرة الأولى حقا التى تشعر فيها الزهايرة وتفكر بأمر واحد .. بمشكلة واحدة . .وأبدا لم تكن المشكلة قبل اليوم بهذا الوضوح .. وفى حجم الكرة .. ولم تكن الطريقة التى يشعرون بها ويفكرون واحدة كما كانت فى هذا اليوم . تتحرك الكرة .. فيتحرك معها أمل واحد ، أو خوف واحد ، أو فرحة واحدة وتند عن كل الشفاه نفس الصرخة !



ثم ينقلب كل شىء فى نفس اللحظة الى النقيض ، هل عرفت الزهايرة فى حياتها مثل هذا الزمن ؟ هل عرفت لحظة واحدة تتفجر بكل هذه المشاعر المتناقضة والمترددة ؟ أتلك حقا

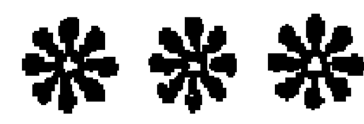
هى المعجزة التى كان يحلم بها « محمد الجندى » لتتحقق ثورة الفلاحين أن يتعلم الناس الذين يعملون معا كيف يفكرون ويشعرون معا أيضا .. ؟

أن يصبح الرجل الواحد المتوجس الخائف بمثل هذا العدد الهائل .. وأن ينهار الهواء الذى يفصل بينه وبين رفاقه من الرجال الخائفين .. ؟ وما معنى ألا تتحقق هذه المعجزة ألا حول الملعب حين تصبح الكرة فى مكان الراس لهذا الرجل الذى يملك ألف قدم وألف ذراع ولا يدرى ماذا يصنع بها ؟ هل تمنى أعظم الأنبياء فى الماضى أكثر من أن تكون لكلمته مثل هذا التأثير ... وان تتحرك لها القلوب بمثل هذه الطواعية ، وأن يكون لها هذا القدر من الوضوح والبساطة ؟



ولكن لماذا يصبح للكرة وحدها سحر الأنبياء فى هذا العصر، لماذا هى التى تجمع كل هؤلاء الناس فى دائرة واحدة يتجاور فيها عباس بك والحاج ابراهيم ومحمد الجندى ورجب .. و ... ونجوى .. متى جاءت نجوى .. لتأخذ مكانا نائيا عند بداية الملعب لتجلس هى واحدى صديقاتها على مقعدين احضرهما رجب ووقف وراءهما كالحارس ! اجتذبتها الكرة .. جاءت بها من محارتها . ما الفائدة .. لن تشعر به ، ولن تراه فى هذا اليوم المشهود ! لا مكان له بين اللاعبين ، وليهنأ صبرى الذى لا يبالى بها ، ولا بأخيها مع أنه يلعب اليوم بجواره ، ويقود معه هجوم الزهايرة ، لو أن عقله جاء فى قدميه لأمكنه اليوم أن يسلب عقلها ، كانت هذه ستكون فرصته الوحيدة ، أصبحت جزءا من هذا الحشد .. توحدت معه .. تصفق وتقف وتجلس وتخاف وتصرخ وتلوح معه ، وتزداد جمالا مع كل ما تفعله .. قد تكون تلك فرصته الوحيدة ليراها عن قرب .. ليرى الجمال فى لحظة تحرره وجنونه،

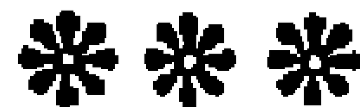
لا شك أن لاعبى السنبلاوين قد شعروا بوجودها .. تعمد لاعب منهم أن يقذف بالكرة فى اتجاهها ويذهب بنفسه ليأتى بها من تحت قدميها ، لا أحد يمكنه أن يحاسب هذا اللاعب على ما يبدو طبيعيا فى مثل هذه الظروف .. هجوم لاعبى السنبلاوين يزداد عنفا . وأصدقاء شريف من القاهرة يلعبون بثقة من يعرف أنه لابد أن يحرز النصـــــر فى النهاية ، فكيف يصمد أمامهم هؤلاء الفلاحون ولو كانوا من السنبلاوين !



السنبلاوين تحرز أول هدف .. وتجن الزهايرة وتقضـــم نجوى أصبعها فى غيظ ، ويظن بعض الأهالى من العزب المجاورة أن واجبهم فى مثل هذه الحالة أن يتدخلوا بأنفسهم لرد اعتبار البلد ، ولكن محمد الجندى بحجمه الهائل يتدخل فى الوقت المناسب ليعيد من تجرأ من الأهالى على دخول الملعب !

من يضمن أن يظل محمد الجندى قادرا على الامســـاك بهذا الحيوان الخرافى الذى يحيط بأرض الملعب والذى لا يدرى ماذا يفعل بآلاف الأيدى والأقدام التى يمتلكها مادام رأسه فى حجم الكرة .. ؟

وكأنما أدرك أصدقاء شريف فى أرض الملعب أن احراز نصر للزهايرة أصبح ضرورة أمن وسلامة فلعبوا بجد .. أحرز شريف أول هدف للزهايرة فكاد الجنون يصـــيب الناس .. ثم تتابعت الأهداف .. لتصبح الزهايرة هى الفائزة بثلاثة أهداف ضد هدف واحـــــد !



بعد نهاية المباراة طاف الحيوان الخرافى بكل شــــوارع القرية .. كان على رأسه هذه المرة عطية بن جمالات الفـــلاح الوحيد الذى اشــــترك فى المباراة . ذهب بقية الفريق ليغير

ملابسه ويشرب ويستريح ويأكل فى سراى عباس بك .. عطية وحده هو الذى كان يصلح لأن يأخذوه بعرقه .. بفانلته المتسخة بجوعه وظمئه ليصنعوا منه بطلا كانت الزهايرة فى جوع اليه ..

فى تلك الليلة لم تنم الزهايرة .. تكلمت كثيرا وضحكت كثيرا .. وتعجبت من أحرازها النصر وهى قرية صغيرة على مدينة السنبلاوى .. وحين قال البعض فى شبه انكار :

ـــ لولا شريف وضيوفه ..

رد الآخرون فى ثقة :

ـــ ولكن شريف ابن بلدنا .. وضيوفه ضيوفنا كذلك ..

ولم يعد هناك من يجادل فى ان الزهايرة هى التى انتصرت، وحين انتهت أصداء اليوم المشهود الى الحاج حبيب وكان لايزال غارقا فى صمته .. حين قالوا له :

ـــ لقد انتصرت الزهايرة على السنبلاوين ..

سألهم :

ـــ الم يحدثه شىء ؟

وسألوه باستنكار :

ـــ أى شىء ؟

وقال الحاج حبيب دون أن يرد على سؤالهم :

ـــ الحمد لله .. الحمد لله .. وبعدها لم ينطق بكلمة .

فى اليوم التالى قال الطبيب الذى حملوه اليه :

ـ انها ضربة شلل قد يشفى منها اذا داومتهم على هذا العلاج !

* * *

فى تلك الليلة أيضا .. لم ينم رجب الصعيدى ولم يجلس مع أحد .. انزوى فى ركن قصى فوق حزمة كبيرة من القش فى جرن الوسية حيث جرت وقائع اليوم الكبير .. فى بداية هذا اليوم قال له شريف :

ـ هذا يومك يا رجب !

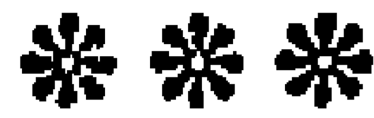
وطوال النهار وهو يومه بحق... هو الآمر الناهى ولولاه ما أمكن للزهايرة أن تجد وقت اللعب ملعبا لائقا بمثل هذه المباراة وبمثل من حضرها من كبار الناس وصغارهم .

* * *

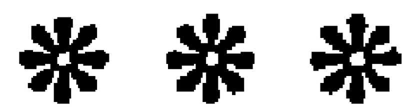
وفى نهاية اليوم .. أصبح اليوم يوم « عطية بن جمالات » حملوه على أكتافهم وزفوه فى شوارع البلد وحاراتها .. وبات الناس ولا حديث لهم الا عنه .. ذلك الولد المدكوك كجوال أرز ، الغبى كحمار ، والقوى كبغل ، والذى لا يصلح الا فى الجرى ، أخذ مكانه فى غيط الشيخ عرفة ، وبيته ذات يوم ، وها هو يأخذ مكانه مرة أخرى فى الزهايرة كلها كبطل الأبطال .. دائما كان هناك من يأخذ مكانه .. ودائما كان هو الذى يحلم بأن يكون بطلا ، فى طفولته سمع الكثير عن بطولات أبيه الذى لم يبصره أبدا ، والذى ظل كلام الناس عنه فى « القوصية » يدوى فى أذنيه ، يتحدثون عنه كما يتحدثون عن « أبو زيد » الذى دوخ الفوارس ، كان ابن ليل يعمل الناس له ألف حساب فى الليل وفى النهار ، وحين كان يفكر فى أبيه كان يراه مثل « أبو زيد » الذى يرى صوره فى مقاهى البلاد التى مر بها مع عمه «جاد الرب»

حين خرجا من « القوصية » فى رحلة طويلة الى بحـــرى ، لم يعودا بعدها أبدا الى بلدة أبيه !

فى تلك الرحلة عملا فى بلاد كثيرة ، فى عمائر كثيرة فى ترع وطرق كثيرة ، غاصا فى الطين ، وصعدا فوق السقالات الى أعلى الأدوار .. ودائما كان هناك مقهى يلجأون اليه ، ليشرب عمه الجوزة والشاى وليحلق هو فى صورة « أبو زيد » التى تطالعه فى جدار المقهى .. بينما يروى الشـــــاعر قصته على الربابة ..



دائما كان أبو زيد ينظر اليه بينما السيف فى يده يشطر راس عدوه .. لم يكن أبو زيد ينظر الى عدوه أبدا وهو يضربه .. كان ينظر الى رجب ليذكره بصورة أبيه ، وحين انتهى بهما المطاف الى الزهايرة ليعملا فى مشروع « بساط كرم الدين » لمد مواسير المياه النقية فى قرى تلك البلاد مات عمه فى الزهايرة .. ومنذ ذلك الحين لم يعد يبصر أباه فى صورة أبو زيد ، أصبح يراه فى صورة عمه « جاد الرب » ، له شاربه الكثيف وكوفيته وعيناه الغائرتان ، وطريقته فى الكلام ، وكان ما يضايقه أن عمه مات كما يموت سائر الناس ، لم يمت كما يموت الأبطال ، فالأبطال يموتون بالسيوف أو برصاص البنادق أو بالســكاكين كما مات أبوه !



وفى الزهايرة التقطه الحاج حبيب ليعمـــل فى حقله ومع أولاده ، عاش فى بيت الرجل العجوز الطيب .. أكل مع أولاده على طبلية واحدة ، ونام معهم فوق حصيرة واحدة وتغطى بنفس الحمل الصوفى الثقيل ، ولم يكن يأخذ أجرا ، ولم يكن يطلبه أو يفكر فيه .. استراح للمقام وللمأوى ولطيبة الرجل العجوز وحنانه رغم شدته وصرامته .. استراح لأن يألف الناس ويألفوه ..

ولا يدرى كيف استيقظ حلم البطولة فى خياله مرة ثانية .. ربما مع سؤال الناس له عن أبيه ، وعن البلد الذى جاء منه ومع حنان الرجل العجوز .. ! دائما يثير الحنان والاهتمام أحـــلام البطولة فى خياله .. ومن جديد تنسـلخ ملامح أبيه عن ملامح عمه .. تسترد شوارب (أبوزيد) .. وقدرته التى لا تنتهى على صنع العجائب .. وحين كف الناس عن سؤاله عن أبيه .. كان هو نفسه قد أصبح موضوع حديثهم كان عوده قد اسـتدار ، وعضلاته قد تكونت . ولم تكن هناك ميادين حرب تتسع لبطولته ، كانت هناك أراض تحرث وتروى ، وأكوام ســباخ تكوم أمام البيوت لتنقل فى مواسم الحرث الى الحقول ، فاستخدم فأسه كما كان أبو زيد يستخدم سيفه ، وراح يصنع أمجاده وبطولاته فى هذه الميادين ، وتحدثت الزهايرة طويلا عن هذه الأمجاد ، يزدهيه أن يتحدث عنه الناس فى غيابه ثم يأتى شخص لينقل له هذا الحديث ، فبهذه الطريقة كان يتحدث الناس عن أبيه الذى لم يبصره أبدا !

وقال له الشـيخ عرفه ذات يوم وهما يخرجان معا من المسجد ، قال هو ينفض حذاءه لينظفه من التراب :

ـ لماذا لا تعمل فى أرضى بأجر بدلا من أن تعمل فى أرض الحاج حبيب بلا نقود ؟

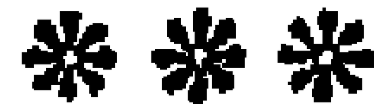
ـ الحاج حبيب هو الذى ...

وقاطعه الشيخ عرفه :

ـ أنت لم تعد صغيرا يا رجب ؟ وغدا سوف تتزوج ، ولا بد أن يكون معك نقود و ...

وبدأت رحلته وراء النقود داخل الزهـايرة من بيت الى بيت .. ومنذ بدأت هذه الرحلة وأحلام البطولة تخفت فى رأسه

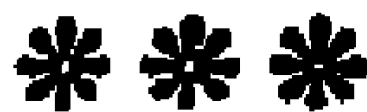
الا حين يحب أو يعشق .. نقود كل سنة ثم كل شهر ثم كل يوم ، ولكنه لم يفطن الى ذلك الا بعد أن ضاع الوقت .. وبدأت قواه تخور ، وأحـــاديث الناس عنه تختفى وتختلف ، فى تلك الأثناء عاودته ذكرى أبو زيد .. ذات ليلة سأل نفسه لأول مرة :



ـــ كيف كان يعيش هذا الفارس ؟ وكيف لم يسمع مرة واحدة ـــ على كثرة ما ســمع من قصة (أبوزيد) فى المقاهى ، وعلى الربابة ـــ كيف لم يسمع انه مرض كما يمرض الناس ..

وهل كان يملك أرضا يعمل فيها اجراء مثل رجب وكيف كان يعاملهم وهل كان يرضى بظلمهم ؟ أم كان هو نفســه أجيرا لم يرض بظلم صاحب الأرض فجر عليه سيفه ، ومضى يضرب به كل الظالمين !

وحين بدأ يفكر فى هذا كله لم يكن هناك فى الزهايرة من يتحدث عن « أبو زيد » ليسأله فيما يفكر فيه ! كان هناك من يتحدث عن الوفد .. ثم من يتحدث عن الثورة .. وسمع انهم سوف يعطون أرضا لمن هم مثله ، ولكن أحدا من الاجراء فى الزهايرة كلها لم يأخذ شبرا من الأرض « فعباس بك الموادرى » أغنى أغنيائها لم يأخذوا منه فدانا واحدا ولم يكن يعرف ماذا يفعل بهذه الأرض لو أعطيت له الآن وبعد أن ضاعت قواه ..



واختفت من رأسه صورة « أبو زيد » كما اختفت صورة له كانت فى دكان الخلفاوى وحلت مكانها صورة لمجموعة من الضباط قالوا له انهم هم الذين قاموا بالثورة !

خذله كل الناس .. خذلته حتى زوجته التى أحبها وطردته من بيته ، واستقر فى مسجد الزهايرة ينظفه ويملأ خزانه الكبير

بالمياه ، وينام فيه ويصلى .. رجل واحد هو الذى مد اليه يده بعد أن تراجعت كل الأيدى .. الشبراوى تاجر الحشيش والافيون قال له :

— ما أريده منك لا يحتاج الى عافية بل الى شجاعة وأنت فارس الفوارس .. المهم ألا يعرف أحد شيئا فى الزهايرة .. تبقى كما أنت فى المسجد ، ثم تغيب عنه ساعات قليلة تنقل البضاعة من قرية الى قرية أخرى مجاورة ..

***

ومن جديد عادت صورة (أبوزيد) تخفق فى رأسه ، أعطاه الشبراوى نقودا فى البداية ، وعلمه شرب الحشيش حتى أدمنه، ثم أصبح يأخذ أجره حشيشا ، وأصبح حرصه على المزاج ضمانة لخضوعه وحرصه على السر ، وتحولت مرارته من الزهايرة الى سخرية منها ، ومن نفسه . كان قد فقد قدرته حتى على الكراهية، واعتقد أن (أبوزيد) لابد قد عرف الحشيش فى جولاته من الشرق الى الغرب ، وأن هذا هو سر شجاعته الدائمة ، وحين قبض على الشبراوى ذات مساء كاد يسقط فى فراغ مخيف ، فقد صوابه يوم رأى الناس يدفعون نقودهم من أجل النادى ! تمنى لو ظل يضربهم ويضربونه حتى الموت لولا أن امتدت اليه يد شريف ، ذلك نوع آخر من الناس ابن بكوات بحق وحقيق ... أحس بحنانه ، حين قال له الحاج سليمان الناظر الذى يشرف على زراعة أرضهم :

— ماذا نفعل بهذه المصيبة ؟ يا أستاذ شريف سوف يغضب البك والدك .. فلسنا بحاجة اليه ؟

قال له :

— لا شأن لك بهذا ، سوف أكلم بابا ، دعه يشرفه على سقى مواشى التربية ..

وعاد الناظر يقول له .. لرجب :

ـ بعد أن يسـافر البك الصـغير سـوف ألقى بك فى المصرف ..

ولكن شريف هو الذى طمأنه .. قال له :

ـ سوف آخذك معى الى القاهرة اذا أحببت .

ومع شريف .. الذى كان يتحدث معه ساعات طويلة ، ويذكره بحنان الحاج حبيب ، ومع نجوى التى كان يرافقها أحيانا الى الحقل لترى الزرع .. وأحيانا الى حظيرة المواشى لترى الحلب ، والتى كانت أحلى امرأة رآها فى حياته .. معهمـا استيقظ حلم البطولة من جديد فى خياله .. تمنى لو عادت له قواه الضائعة ليصنع شيئا .. أى شىء من أجلهم .. لاشك أن « الجازية » التى كان يحبها أبو زيد كانت فى جمال سـيدته « نجوى » ولم يكن هناك ما يفعله لهم سوى اعداد الملعب فى يوم العيد ! لو طلب منه شريف بك أن يحرق الزهايرة لما تردد .. ولكن شريف المهذب الأمير لن يطلب منه أبدا شيئا كهذا .. كان هو الذى ظل يبحث عنه في تلك الليلة بعد أن انفض المولد .. ووجده منزويا فوق كومة القش فى جرن الوسية ..

سأله :

ـ لماذا تجلس هنا وحدك ؟ هل تعشيت ؟ أمرك غريب يا رجب ؟ هل تريد شيئا ؟ هل اغضبك أحد ؟

قال له :

ـ لا .. لا شىء .. أريد نقودا ..

أعطاه شريف ريالا وقال له :

ـ اذهب أولا وتناول عشاءك !

وقف صبى فى العاشرة من عمره .. وقف فى منتصف الطريق ، مائلا بعنقه ليتمكن من قراءة اللوحة السوداء التى كتب عليها باللون الأبيض « النادى الرياضى الثقافى الاجتماعى بالزهايرة » والتى علقت منذ ساعات على واجهة منزل كان يسكنه فى العام الماضى « على افندى الاسيوطى » المدرس بالزهايرة ، وكان الصبى يضع كفه على أعلى عينيه ليحجب عنهما وهج الشمس ، وحتى يتمكن من القراءة ، وحين انتهى من قراءة اللافتة كان عدد آخر من الأولاد قد تجمعوا حوله .. ولم يكونوا جميعهم قادرين على حل الغاز هذه اللوحة .. فعاد يقرأها لهم بصوت مرتفع ، ثم تفرقوا جميعا فى أنحاء القرية .. يرددون الخبر .. ولكن أحدا من الأولاد الذين سمعوه .. لم يصدق الا بعد أن جاء بنفسه ورأى اللوحة ، وهكذا كان الأولاد هم الذين أعلنوا خبر النادى فى القرية قبل أن يفتتحه التلاميذ بعد ذلك بأيام قليلة !.



فى هذه الأيام القليلة كانت فلوس المباراة الكبرى قد تحول بعضها .. الى ترابيزة بنج بنج ، ودولاب للمكتبة .. أما الكتب فقد تبرع كل تلميذ ببعض ما لديه منها ، كما أحضر كل تلميذ كرسيا أو أكثر وتبرع « شريف » بمنضدة التأم حولها شمل الكراسى وشطرنج وطاولة ، وزينت حوائط النادى ببعض الآيات القرآنية الكريمة ، وبلوحات من رسم شريف ، كما زينت بنتيجة

حائط ، وحين اتضح أن معظم الكراسى التى تبرع بها التلاميذ فى حاجة الى اصلاح حقيقى .. وطالب البعض باســـتبدالها بكراس حقيقية ، اقترح شريف أن يقوم النادى باصلاحها على حسابه ، وقال رجب الصعيدى الذى أصـــبحت العناية بنظافة النادى بعض مسئولياته :

ــ بشرط الا يسترد أحد كرسيه الا بعد أن يرجع الى حالته التى وصل بها الينا ! فلم يفتح النادى لاصلاح كراسى الزهايرة !

وقال شريف ضاحكا :

ــ سوف يصلح النادى الزهايرة نفســـها يا رجب ، الا تصـــدق ؟



أمام دكان الخلفاوى كانوا يتحدثون عن حفل افتتاح النادى، وعن نتائج انتخاباته .. ولم يكن الخلفاوى بقادر على متـــابعة الحديث الذى يدور بين الجالسين أمام دكانه .. فبين وقت وآخر كان يشغله زبون بطلب قطعة صابون أو باكو دخان ، أو قطعة قماش .. ومثل هذه الطلبات كانت تأخذ منه وقتا ، فبعضها كان يبيعه نقدا وبعضها كان يضطر الى تسجيله فى دفتر يومية على الحساب ، وكان الخلفاوى ممن أقلقتهم مسألة الكرة وأصبحت تقلقهم أكثر مسألة النادى .. فدكانه بموقعه الممتاز فى القرية ، هو المجلس المفضل للتلاميذ ولغيرهم .. يســـمعون الراديو ، ويقرءون الصحف التى يواظب على احضـــارها كالبضـــائع .. وتزداد بوجودهم حركة البيع والشراء ! ومنذ بدأ جنون الكرة والنادى يجتاح القرية ، وهو يشـــعر أن خطرا ما يتهدد الدور الهام الذى كان يقوم به دكانه الى جوار البيع والشراء ، وفى

هذا اليوم تناهى اليه حديث الناس فلم يسمع سوى هذه المقاطع :

ـ شريف هو الذى نجح كرئيس للنادى .

ـ طبعا .. لولاه لما تحقق شىء !

ـ كان المفروض أن يكون الرئيس من المقيمين فى القرية حتى يرعى شئون النادى طول العام !

ـ اذن كان لابد أن ينتخبوا رجب الصعيدى رئيسا .

ـ تصدقون هذه الحكاية ؟ سوف ينتهى كل شىء بمجرد سفر التلاميذ للدراسة !

ـ ....

ـ ....

ـ أنتم تحلمون .. مشروع كهذا يحتاج الى ثلاثين جنيها على الأقل ..

ـ لا .. سوف ينيرون القرية بالفوانيس .. وهى لا تكلف كثيرا ..

ـ لقد جمعوا من المباراة مبلغا كبيرا .

ـ لا أحد يعرف حقيقة المبلغ ، أغلب الفلوس كانت بدون تذاكر أو ....

ـ ....

ـ ....

ـ هذه اكاذيب .. أحمد تلميذ على خلق .. لا يفعلها ...

ـــ حتى اذا صدقناهم ، ونجح مثل هذا المشروع فهو يحتاج الى من يقوم برعايته .. من الذى سينير الفوانيس كل ليلة ، ويملؤها بالغاز ، وينظف زجاجاتها ؟

ـــ « رجب الصعيدى » سيقوم بهذه المهمة ، ستكون تلك وظيفته !

ـــ ومن الذى سيعطيه مرتبه ؟

ـــ ....

ـــ ....

ـــ لقد نجحوا حتى الآن فى كل شىء قالوا عنه ولابد أن نصدقهم ونعطيهم الفرصة !

ـــ وايضا نشجعهم .. نتبرع لهم .. لم يحدث شىء مما كان الناس يخشونه !

ـــ قال شريف فى حفل الافتتاح اذا تعاونت الزهايرة معنا فسوف نصنع معجزة فى هذه القرية ، مشـــروع الانارة مجرد بداية وتجربة ، وهناك مشاريع كثيرة تتوقف على تعاون الناس !

ـــ ....

ـــ ....

ـــ سمير ابن الشيخ عرفة وصديقه « خيرى » انضما الى النادى بعد أن عادا من معســـكر ابى قير ووجدا النادى حقيقة واقعة !

ـــ كثيرون سينضمون اليه ..

فالنجاح يغرى !

لم يعد الطريق الى الهدار ملتقى الأصدقاء من أعضاء «فريق الأسد المرعب» أصبح النادى مكان اللقاء وفى تلك الليلة تسلل الى طريق الهدار «أحمد» و «شريف» كان الطريق خاليا ، وكانا يريدان هذه الخلوة ، ليتحدثا فى موضوع يوشك أن يعصف بالنادى وبأحلام الزهايرة فيه بعد أن كادت تتحقق ، لا أحد يعرف على وجه اليقين من الذى بدأ بالهمس حول هذا الموضوع .. ؟ حول حقيقة المبلغ الذى جمع من المباراة ؟ واذا كانت التذاكر تشير الى بعضه فان جرن «الوسية» الذى امتلأ بالمئات من العزب والكفور المجاورة يشير الى مبلغ يفوق كثيرا ذلك المبلغ الذى يزعم احمد انه حصيلة المباراة .. لقد تكلموا أمام دكان الخلفاوى ، وفى مسجد الزهايرة ، وحتى فى النادى ولكن كل واحد يزعم انه يردد كلام الآخرين وانه نفسه لا يصدق .



حين سمع «صبرى» بهذا الكلام لأول مرة صرخ فى محدثه :

— لابد أن تقول لى ممن سمعت هذا الكلام ؟

— الجميع يتكلمون .. ولست احب احراج احد ، اردت فقط ان اخبرك بما يجرى ..

— الجميع جبناء مثلك .. حذاء ابن عمى اشرف منكم جميعا ..

— اذهب وقل لهم ذلك .. لماذا تصرخ فى كالمجنون ؟

— لن أذهب إلى مكان يضم مجموعة من العيال !

ونقل صبرى هذا الكلام الى احمد ، وأخبره بأنه لن يشترك بعد اليوم لا فى النادى ولا فى الكرة .. وحين فوجىء بتردد أحمد قال له :

ـ لا تصدق اننى كنت أتوقع خيرا من وراء هذه اللعبة كلها ... شاركت فيها للفرجة وحتى لا تغضب .. لعبة صيف .. هذه هى الحكاية أما اصلاح حال الزهايرة .. فتلك مسألة كبرى لا يصلح لها هؤلاء الأولاد الذين يحتاجون لمن يصلح عقولهم أولا ...

ـ المسألة الآن هى كيف انسحب ، واتركهم يلوكون سمعتى .. يجب أن أبقى ، وأن أدافع عن نفسى !

ـ هذه مسألة تخصك أنت .. تصرف فيها بما يروق لك !

وحين انتهى احمد من رواية ما دار بينه وبين صبرى لشريفه قال الأخير فى هدوء :

ـ ما معنى أن أحدا لا يجرؤ على أن يوجه لك كلمة ؟

ـ ليتهم يواجهوننى ! اذن لعرفت كيف أدافع عن نفسى ؟

ـ لا تضع نفسك فى موقف الدفاع .. فذلك أول طريق للهزيمة !

وصمت احمد وهو يخترق بنظراته سماء تخفق فيها نجوم بعيدة شاحبة !

كان يدرك ضعف موقفه .. يدرك أنه لا يعرف حقا كيف يدافع عن نفسه ، ويعرف أن شريف يعرف هذه الحقيقة ، ولهذا يدعوه الا يأخذ موقف الدفاع ! كيف يدافع ؟ ضد من ؟ وأمام من ؟

ليست هناك محكمة ولا قضاة ! هناك همس ، كيف يدافع الانسان عن نفسه ضد الهمس ؟ بدأت المسألة كلها بثقة التلاميذ فيه ، لم يشك لحظة فى هذه الثقة ، وشريف هو شاهد هذه الثقة والمعبر عنها ولكن ها هى الثقة تسحب بنفس البساطة التى منحت بها ؟ الدليل الوحيد أو شبه الدليل أن « محمد الجندى » وجده يعد النقود التى دخلت الدرج بدون تذاكر ليفصلها عن بقية النقود ؟ وشاهد على أنه لو لم يترك الناس يدخلون بعد بدء المباراة بدون نقود لكان كل شىء معرضا للضياع ! ولكن ما معنى هذا كله ؟ واذا كانت ثقة التلاميذ أو الناس به قد اهتزت فى هذا الموقف فكيف تكون لهم ثقة فى أى كلام يقوله « محمد الجندى » ؟

***

وحتى مثل هذا الدليل الأعرج لن يجد من يقدمه الا بعد أن يعود « محمد الجندي » الذى سافر فجأة بعد العيد ودون أن يخبر أحدا . قال شريف محاولا أن يخرج أحمد من صمته :

ــ ألم تفكر مرة أن الناس يريحهم أن يكتشفوا فى أى شخص يتمتع بسمعة طيبة بعض الاخطاء وأن يلتمسوا ما يؤيد هذا الاكتشاف !

ــ ويل للشجى من الخلى !

ثم أضاف أحمد وهو يشير الى قطعة من الأرض تصلح للجلوس :

ــ هنا ياصديقى ينبغى أن نجلس .. فهذا النوع من الكلام لا أقوى على الاستماع اليه وأنا سائر على قدمى ..

قالها أحمد بلهجة بين الكآبة والمرح ..

قال شريف وقد جلس مدليا ساقيه ناحية مجرى الماء فى ترعة البوهية :

— اتكلم بجد .. ولا أفهم كيف ..

قاطعه أحمد بحدة :

— بى عيوب حقيقية ليست فى حاجة الى ظنون احد أو شكوكه فلماذا يبحثون .. ؟

قاطعه شريف بمرح :

— جائز انها لا تكفى فى نظرهم ..

— هل جئنا لنتكلم فى هذا الموضوع بهذه الطريقة ؟

— صدقنى أنا لا افهم كيف تعجز عن فهم سلوك الناس فى موقف كهذا ؟

ثم استطرد شريف دون أن ينتظر اجابة على سؤاله :

— ربما كان هذا هو سر عشقك البرىء لفكرة العدالة ، هل فكرت ياصديقى ان الناس ليسوا حريصين على العدالة حتى حين لا تكلفهم أكثر من مجرد التروى ونزاهة التفكير ، فكيف تتوقع أن يعشقوا العدالة حين تكلفهم ما هو أكثر تعقيدا ومشقة ؟

قال أحمد بنبرة من يعـــترف وعيناه تبحثان هذه المرة عن النجوم البعيدة فى مياه الترعة الجارية تحت قدميه :

— حين عرفتك قلت لنفسى : هذا انسان يستطيع المرء أن يقول أمامه كل شىء يفكر فيه ، كنت أعتقد انك تستطيع ذلك أيضا امامى .. ولهذا ....

— والآن ؟ هل وجدت ...

— لا أدرى .. لكن دعنى اتكلم دون مقاطعة ، قبل أن يثور هذا الهمس .. كنت أفكر فى أن أروى لك بصدق كامل كل ما

هجس بخاطرى حين وجدتنى فى هذا الموقف ! دائما كنت احلم بالصداقة الكاملة التى تسمح بالصدق الكامل .. !

***

حين حدث الموقف .. وبدأت النقود تندفع الى الدرج بغير حساب ، اندفع الى راسى هذا الخاطر : « هذه نقود لا يعرف عددها أحد .. يمكننى أن آخذ منها ما أشاء » أفزعنى مجـــرد اندفاع هذا الخاطر الى رأسى ، الطريقة الحتمية التى جاء بها ، وكأنه لابد أن يجىء مادام مثل هذا الموقف قد حدث ، وفكرت ان نفس الخاطر سوف يندفع بنفس الطريقة الحتمية الى عقول الناس حين يعلمون بحدوث هذا الموقف ، وأنه سوف تبدأ معركة فى عقول هؤلاء الناس بين ثقتهم بى وبين هواجسهم ، لا تختلف فى شىء عن المعركة التى تدور فى رأسى ، والتى يلخصها هذا السؤال : أين أقف ؟ مع ثقة الناس بى أم مع شكهم ؟

***

ولكن اى شىء يحسم هذه المعركة فى نفوسهم ؟ انه على كل حال ليس اختيــارى .. فما اختــاره لن يكون له أى تأثير موضـــوعى بالنسبة لهم ! أنه أمر خاص بى انا .. وبدأ عقلى يحسب كل الاحتمالات .. لو اخترت أن أقف الى جوار ثقتهم ثم شكوا بى فأية مرارة يمكن أن اجدها ؟ أما اذا أخذت ما أشاء ثم حدث الشك فلن يملكوا اى دليل ، ولن أشعر بأية مرارة ، بل سأقول لهم فى نفسى : كنت عند سوء ظنكم يا أوغاد ! أما اذا أخذت نقودا ثم لم يحدث أى شك ، فيمكننى أن أعيد النقود بأية وسيلة ولو فى شكل تبرع هذا اذا كنت انسانا ، أما اذا كنت وغدا فسأحتفظ بالنقود وبثقتهم ، تلك هى يا صديقى الاحتمالات التى دارت برأسى حين فكرت فى الموقف ، وهى تكشف لك عما يتمتع به الشر من الحماية والغواية ! كنت أفكر فى أننى أستطيع

أن أروى لك هذا كله حتى ولو لم يثر الهمس حول هذه المسألة واثقا من أنك سوف تصدقني حين أقول لك انني اخترت جانب الثقة في نفوسهم ولكنني الآن أشك حتى في أنك أنت نفسك يمكن أن تثق بي !

ساد صمت مرهق للحظات قال بعدها شريف :

— تفكيرك في هذه المسألة بهذه الصورة يعني أن فيك بذرة فساد .. أنا واثق أنك لم تأخذ شيئا .. ولكنك أقرب الى الفساد مما تتصـــــور .

ثم أضاف شريف بنفس النبرة الخالية من اى فكاهة :

— وحتى شكك الآن في ثقتي بك أمر طيب فلست أحب أن تكون ثقتك كاملة بأحد حتى بي .

— كيف تقول ذلك .. ؟ أنت ترى ان الثقة ضرورية لكي يقاوم الانسان ! ولولاها ..

— الثقة ضرورية .. لكن الثقة التي تشعر دائما انك في حاجة الى تأكيدها ، الثقة الكاملة مأساة كاملة .. تصور لو أنك او غيرك في نفس الموقف ، وكانت ثقتك كاملة في أن احدا لن يشك فيك ! الا ترى أن الغواية تصبح اشد !

— ربما لهذا فان جوهر الأخلاق انك لا تلتزم بها لأى سبب خارجي ! بل امام ضميرك وحده ! قالها وقد غلبته روح التجرد والتأمل ...

— أخلاق من هذه ؟ أخلاق الانبياء والقديســـــين ، أخلاق غاندى ؟ دعنا نتكلم عن أخلاق « فريق الأسد المرعب » ، أعتقد انه يجب أن تنسى هذا الموضوع .. وأراهن أن الجميع هنا سوف ينسونه .. الذين يتهمونك والذين يدافعون عنك ! أما صــــبرى

فأعتقد اننى سألين رأسه حين أتحدث معه ! سوف يكون أمرا سخيفا أن نترك النادى يغرق فى مثل هذا المستنقع بعد أن اجتاز العواصف !

ثم أضاف شريف :

ـ كيف يمكن أن اقابل صبرى ؟

وصمت أحمد لحظات وكأنه لا يجد اجابة على هذا السؤال .. فصرخ فيه شريف وهو يهم بالقيام :

ـ هل ستحدث كارثة فى بيتكم لو جئت وتغديت معك فى أى وقت تحدده أنت ؟

قال أحمد وقد أخذته المفاجأة :

ـ لا ...

ثم ضحك لأنه لاحظ أنه قالها بجد ... !

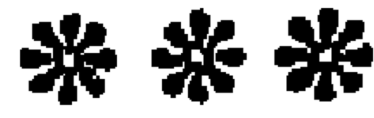
* * *

ـ ٢٣ ـ

كان مسجد الزهايرة الكبير فى أواخر الصيف لايزال كما كان فى أوائله .. أنسب مكان يلوذ به من لا مأوى له أو من له مأوى لا يطاق فى حر الظهيرة !

صحيح أن « رجب الصعيدى » الذى دأب الانفار على أن يلتفوا حوله فى المســـجد لم يكن هناك .. ولكن الأولاد كانوا هناك .. وكانوا يلتفون حول « عوض » الذى أصبح يدير طلمبة المياه بالمسجد ، ويملأ الحوض القريب الذى تشرب منه البهائم ، أخذ بعض أعمال رجب وأخذ بنصيحته فى العمل يوما بيوم ، وأخذ

دوره كاملا فى ادارة الحـديث والتعليق على أحداث القـرية ، وشئونها .. وكان رجب فى هذه المرة موضوع الحديث ، قال « عوض » بلهجة من لا يصدق :



ـــ سيصبح أخوكم رجب موظفا على آخر الزمان ؟

ـــ أنت كمن يقول وجدنا الحدوة وبقى الحمار .

ضحكت الأنفار ، وتتابع الحديث :

ـــ صدقتم حكاية الفوانيس هذه ؟

ـــ انهم يتشاجرون كل ليلة فى النادى !

ـــ هكذا الزهايرة .. زمان كانوا يتشاجرون قبل النادى والآن يتشاجرون فيه .

ـــ لا .. هذه المرة المسألة تختلف .. سمعت انهم بعد شراء الفوانيس ، سينقلون أكوام السباخ من أمام البيوت لتوضع فى الخرابة المجاورة للجبانة !

ـــ فى هذه الحالة يمكن أن نصبح كلنا موظفين فى النادى .

ومرة أخرى استغرقوا فى الضحك حتى شخط فيهم الشيخ رمضان مؤذن المسجد :

ـــ يا أولاد الشياطين احترموا بيت الله !

ولكن أولاد الشياطين لم يعبئوا بتهديده ، فماذا يفعل بهم هذا الضرير العجوز ؟

وعادوا يتحدثون بلا ضحكات مجلجلة :

ـــ فاز بها رجب وابن جمالات !

ـ رجب هو الموظف بحق حتى ولو لم تكن هناك فوانيس ؟

ـ ضحك علينا ابن اللئيمة .. قال لنا ماذا يهمنا من أمر النادي وفاز به وحده .

ـ الفائز الحقيقي « ابن جمالات » لو فعلها شريف بن عباس بك وأخذه معه الى القاهرة !

ـ بولوا على قبري لو تحقق شيء من هذا كله : انارة الفوانيس أو ازالة السباخ ، أو ...

ـ وهل سيكون لمثلك قبر يا ابن المركوب ؟

ـ القبر هو ما يتساوى فيه الناس في الزهايرة وفي غيرها فلماذا ؟

ـ لماذا لا نسأل رجب الصعيدي عن حقيقة هذا كله .. ؟ واذا لم تكن لديه أخبرنا فسوف تكون فرصة لنضـــحك عليه أو يضحك علينا !

* * *

كانوا لا يصدقون ، ولكن شكهم نفسه كان يشي بالرغبة الكامنة ، في أن يكون ثمة شيء ، أي شيء يسفر عنه ذلك النادي الذي بدأت فكرته بمشاجرة واستمرت كلعبة ، وانتهت الى بيت تعلوه لافتة ، ويجتمع فيه التلاميذ كل ليلة ، ويضيئه كلوب قوي .. يحلم الناس بأن يمتد الى كل شوارع القرية المظلمة !

كان ذلك أول انجاز في قريتهم .. وكانت رغبتهم في أن يعني ذلك شيئا بالنسبة لهم تعادل شكهم القديم الموروث في كل شيء تمنوه وفي كل انسان علقوا برقبته أمنية !

قال شريف لاحمد وهو ينظر فى ساعة يده :

— ماذا يعنى تأخر « صبرى » الى هذا الوقت ؟

— لا أعرف .. ربما طرأ فى الغيط ما أجبره على التأخير ، لكنه وعدنى بأن يعود مبكرا لنتغدى معـــا ..

قال شريف بمرح :

— وهل سنبقى بدون غداء حتى يعود هذا الوغد ؟

— لا .. سوف نتغذى الآن .. ويأكل هو حين يجىء !

قال شريف وهو ينقل نظره بين ســقف الحجرة الخشبى وصورة معلقة على الحائط للحاج ابراهيم :

— لم اتخيل ان يلجأ صـــــــبرى لهذه الطريقة للاعتذار عن العودة الى النادى !

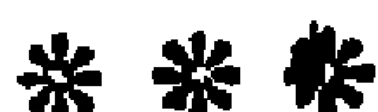
— لا أظنه تأخر لهذا الســـبب .. كان حريصـــا على أن يوضح لك فكرته بنفســه ، وكما قلت لك هو مســـتعد لأن يعود للمشاركة فى اللعب فقط !

— لا افهم هذه الفزورة ثم أضاف :

هنالك نوع من الخلل لا أدريه ، يوجد فى رأسك وفى رأس صبرى .

— حين يأتى سيوضح لك فكرته أما الآن فيجب أن نتغدى اولا .

وجاء الغداء .. دخلت به صبية مليحة تحمل فوق رأسها صينية نحاسية صفراء رصت فوقها الأطباق بعناية ، أطباق من الصينى تفوح نها روائح الطعام وأبخرته .. دجاج محمر وشوربة وخضار باللحوم والصلصة .. عاون أحمد الصبية فى انزال الصينية من على راسها لتوضع فوق منضدة مستديرة بحجمها تقريبا .. !



ورغم انشغاله بهذه المهمة لم تخف عنه تلك النظرات التى تبادلتها « هنية » مع شريف ، أهى نظرات فضول أم تعرف ؟ وجه الصبية يضج بالدماء الحارة ، وببسمة لا سيطرة لها عليها ..

قال شريف الذى اذهلته كمية الطعام المقدمة لشخصين :

— ما هذا ؟ أهى وليمة ؟

ثم اضاف بعد أن خرجت الفتاة التى حملت الطعام ... مشيرا بعينيه الى الباب :

— أهى قريبتك

ضايقته جرأة شريف ، وطريقته فى السؤال .. تذكر سخرية نجوى منه ، وعجزه عن رد الاهانة وعن التخلص من حبها .. !

ومع انه كان يود تجاهل سؤاله الا أنه وجد نفسه دون أن يدرى حريصا على أن يقول له بالتأكيد :

— لا ...

ثم أضاف بنبرة تشى بضيقه :

— تعمل عندنا ..

— خادمة ؟

— تساعد أمى فى شغل البيت ؟

— حظك من السماء !

تجاهل أحمد تعليقه وقال :

— والآن يمكنك أن تملأ بطنك !

— يابنى هذا طعام يملأ معدة فريق الأسد المرعب كله !

* * *

فكر « احمد » فى الطريقة التى اهتمت بها الأسرة كلها بهذه الزيارة ، كيف عادت اخته فتحية تذكره بالموضوع الذى كان قد نسيه أو تناساه ، كيف جاء أبوه بنفسه ليجلس مع شريف ويرحب به ، صبرى وحده هو الذى سخر بهذه المظاهرة وذهب الى الحقل شبه ضائق بهذا كله .. ووجد أحمد فيما قاله شريف أخيرا القشة التى يتعلق بها ليغير مجرى الحديث الذى فوجىء به ، قال وهو يكسر الدجاجة بيديه رغم وجود السكين والشوك :

— يبدو ان فريق الأسد المرعب لن يبقى منه سوى الاسم !

— واهم أنت .. كنت أعتقد ذلك مثلك ليس بسبب كلام الناس عن فلوس المباراة .. بل قبل ذلك بكثير .. وبالمناسبة لم يعد هناك أحد يتكلم فى هذا الموضوع ..

— كل أولا .. ألم تشبع من الكلام منذ جئت ..

— لا .. لا أشبع من الكلام .. وخاصة مع مثل هذا الطعام الذى يفتح الشهية لكل شىء !

والتهم شريف قطعة من صدر الدجاجة ثم عاد يتكلم ببطء كمن تذكر شيئا كان يجب ان يتكلم عنه منذ وقت بعيد ...

ـ فى البداية كنت أتسلى .. سحرتنى الحقول الخضراء حول الهدار .. وأحببت أن أحتفظ بها فوق لوحة آخذها معى .. ثم شغفت بك .. هذه الشهادة قديمة لا علاقة لها بالطعام رغم روعته ثم أضاف بعد أن ذاق الشوربة :

ـ هذه الشوربة لا نظير لها .. ! لماذا لا تأكل ؟

قالها شريف وكأنه صاحب البيت :

ـ يروق لى منظرك وأنت تأكل وتتكلم بنفس الكفاءة !

ـ لا تروق لى خيبتك فى كلا الأمرين !

انصرف أحمد الى الطعام بينما استطرد شريف :

ـ سحرتنى الزهايرة كلها .. وبالأخص حين بدأت تقاوم رغبتى فى الاقتراب منها .. سحرنى الرفض والقبول معا .. المسألة سهلة حين تحب امرأة ، أما حين تُحب بلدا ؟

ـ أعتقد أن قصة حبك كلها سوف تنتهى بغلق النادى ، وبداية العام الدراسى !

ـ كنت أظن ذلك ؟ ولكن بم تعلل تعلق الكبار والصغار بالنادى الآن ؟

ـ ضحكت عليهم ، غررت بهم ، أوهمتهم أن النادى سوف يحقق لهم كل شىء تمنوه !

ـ هكذا تبدأ كل قصص الحب ، ربما بالرغبة من جانبنا فى تأكيد الذات .. ثم نحب المرأة التى استجابت لنا .. نحب الحب الذى صنعناه !

ـ أو نملها ؟

ـ هذا يتوقف عليها ، ويتوقف على طريقة حبها لنا .. لو جعلت من هذا الحب طريقا لتأكيد ذاتها أيضا .. ربما بقى الحب !

دخلت الصبية المليحة تحمل قلة ماء فى يد وكوبا من الزجاج فى اليد الأخرى ، على وجهها نفس الابتســـامة التى لا تتحكم فيها ، وغمغمت بما يشبه الاعتذار عن نسيانها لاحضار الماء .. !

سأل شريف وهو يمسح فمه بطرف الفوطة :

ـ ماذا تفعل مع هذه البنت الحلوة ؟

ـ لا شىء .. أنت مجنون !

ـ أنت المجنون لو لم تفعل معها شيئا ؟ لو كانت تعمـــل عندنا لأشبعتها حبا .. !

ـ لى فتاة أحبها حقا ، ولكنى لا أحب أن أكلم عنها سافلا مثلك لا يفهم حقيقة الحب !

ـ وهذه .. الا تحبها ؟

ـ لا يمكن أن أحب مثل هذه الفتاة !

ـ أليست بينك وبينها علاقة من أى نوع ؟

ـ لا ..

قالها أحمد بنبرة من يريد أن يقفل الحديث فى هذا المضوع !

قال شريف بعد أن أفرغ كوبا من الماء فى جوفه :

ـ لم نصبح بعد أصدقاء ياصديقى ؟ وليس من حقك أن نتكلم بعد ذلك عن الصدق الكامل والصداقة الكاملة أحيانا .

ـ ماذا تعنى ؟ .. قالها أحمد بجزع

ـ أعنى أنى أعرف علاقتك بها جيدا !

قالها شريف ببساطة مذهلة :

ـ من الذى قال لك هذا الكلام الفارغ ؟

ـ انسان له معها مثل علاقتك ! هى التى قالت له .. !

ـ من ؟ ..

ـ المسألة لا تختلف .. ربما كنت أنا ، أو حتى رجب الصعيدى ، أو أى تلميذ آخر !

ـ انت كذاب .. حتى لو كان ذلك صحيحا فلا تقول بنت عن نفسها هذه الأشياء .

ـ أنت ساذج وأهبل .. هى لا ترى المسألة بطريقتك ، أنت تجعل من الحبة قبة ، هى تزهو بما تخجل أنت منه ..

ـ ....

ـ لماذا تزعجك هذه المسألة التافهة ؟ لو كنت أعرف انها ستؤلمك هكذا لما تحدثت معك فيها .. ؟

ـ قل لى أولا .. من الذى قال لك هذا الكلام ؟

ـ اعتقادك أن هذا هو السؤال المهم .. يؤكد أن فيك ذلك الخلل الذى لا أعرف كيف أحدده ؟ والذى يبدو أنه من خصائص عائلتكم الكريمة .. كصبرى ..

آنذاك دخل الحاج ابراهيم بوجه مشـرق متهلل وجلباب حريرى ابيض واسع ، كان قد قام بواجبه فى استقبال الضيف ، ثم تركه مع ابنه ليتحدثا ويأكلا بحرية ، ثم عاد قرب النهاية ليكون

فى وداعه كما تقضى تقاليد القرية ثم بدا وكأنه فوجىء بعدم وجود صبرى فقال :

ـ كيف لم يعد صبرى ليتغدى معكم ؟ أهذه هى الأصول ؟ لم يكن هناك ما يدعو لذهابه الى الغيط أو بقائه هناك ؟

وضاق صدر أحمد بكلام أبيه ، كما ضاق أكثر بجلوسه واصراره على مواصلة الترحيب بشريف ، الذى راح يحادث أباه عن النادى وعن ضرورة بقائه بجهود أهل القرية أنفسهم ليصبح وسيلة القرية لكى تخدم نفسها بنفسها ..

* * *

— ٢٥ —

لم تعرف الزهايرة مثل هذه الأيام ، لم تعرف مثل هذا القلق ، ومثل هذا الأمل ومثل هذا الخوف ، ومثل هذ الفرح ، ومثل هذا الشك ...

كانت الزهايرة دائما كما رآها أحد أبنائها هى ذلك الفرد الوحيد الحذر الخائف المتوجس سواء من خلال قوته أو من خلال ضعفه .. وفى المرات القليلة التى كان يحطم فيها هذا الفرد اطار عزلته .. ويصبح جماعة ، فى أيام الأعراس ، والموالد والانتخابات ، وحتى فى أيام الكرة .. كان ما تشعر به هذه الجماعة هو ذلك الجيشان العاطفى الذى كان يجعل قوة هذه الجماعة تتجه دائما الى شىء خارجى ، « مقام ولى من أولياء الله تعلق عليه الآمال وتتجه اليه دعوات المظلوم والظالم ! » .

مرشح هو غالبا « عباس بك المواردى » تؤازره بالعصبية ، وتعادى غيره لنفس العصبية ، وتحلم فى كل مرة بأن على يديه قد تتحقق بعض الآمال !

« كرة سريعة مستديرة مراوغة تندفع من قدم الى قدم .. وتندفع معها الى قلوب الناس مشاعر لا يمكن الامساك بها كالكرة .. يرتفع بها ذلك الجيشان العاطفى الذى لم تجربه الزهايرة بهذه الحدة .. والذى يبدو انها سكرت به بعض الوقت وحين أفاقت وجدت هذه الكرة قد تحولت الى بيت تعلوه لافتة سوداء كتب عليها « النادى الرياضى الثقافى بالزهايرة » ، ويجتمع فيه التلاميذ وغيرهم وفى الليل يضيئه كلوب قوى يحلم الناس بأن يمتد نوره الى كل شوارع القرية وحاراتها المظلمة ... »

***

ومنذ ذلك الحين والزهايرة تشعر أن القوة التى انطلقت منها هذه المرة ترتد اليها من ذلك البيت الذى لم يكن يراه احد حين كان يسكنه « على أفندى الاسيوطى » .. الآن أصبحت تسكنه العفاريت التى ترمى لهم بهذه القوة .. بهذا الجيشان .. ليفعلوا به ما يريدون .. ليفعلوا به أى شىء سوى أن يتركوه يتبدد ويضيع .. !

كان التلاميذ الذين أطلقوا هذه القوة يعدون حقائبهم ليعودوا الى مدارسهم وكلياتهم !

***

وكان يبدو أن هذه القوة قد عصفت بصفوفهم فلم يكن يجهل حتى الحاج ابراهيم أن علاقة ابنه بالنادى أو بشريف يشوبها شىء رغم دعوته له للغداء فى بيته .. فلم يكن يفهم لماذا لم يعد أحمد يتردد على النادى ؟ ولم يكن يفهم لماذا لم يحضر صبرى ليتغدى مع شريف رغم شعوره براحة غامضة لعدم حضوره ، وكان سمير ابن الشيخ عرفة المأذون هو الذى أصبح يصون ويجول فى النادى ، وهو الذى جمع بعض التبرعات من الأهالى ليكمل ثمن الفوانيس ، وكان هو الذى اشتراها من السنبلاوين ووعد بأن يلقى محاضرة فى النادى أمام أهالى الزهايرة عن مغزى

اتفاقية الجلاء التى كانت قد وقعت كما شرح لهم فى معسكر أبى قير للحرس الوطنى .. أن يلقى هذه المحاضرة .. فى نفس الليلة التى تضاء فيها القرية بالفوانيس ...

* * *

وكان هو الذى أعلن أن صندوق النادى قد فرغ وفى حاجة الى نقود جديدة حتى تعلق الفوانيس وحتى يكون هناك من يمدها بالغاز وينيرها فى كل ليلة لتبقى مضيئة .. !

وكان « خيرى » هو الذى اقترح اقامة مباراة جديدة تكون حصيلتها دعما للصـــــندوق .. ومن جديد أثار اقتراحه مخاوف الزهايرة وعشقها للكرة ، واصـــطدمت مخاوف الكبار من الكرة بحبهم وحب الصغار لها ... واصطدمت شكوكهم فى قدرة الكبار على الخروج من فرديتهم ومواصلة التبرع للنادى .. برغبتهم فى بقاء النادى بدون كرة ليكون دليلا على أن الكبار فى الزهايرة لا يقلون عن الصغار قدرة على خدمة قريتهم .. !

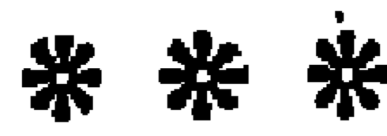
* * *

كان نجاح التـــلاميذ قد أحرجهم ، وكان غلق النادى بعد سفرهم ، وبقاء الفوانيس مطفأة تحديا لهم .. كانوا يتكلمون عن شراء دلاء للحريق ، ومذياع فى النادى يسمع له من لا يمتلكونه ، و .. !

والغريب أن من يتكلمون الآن هم أولئك الذين لم يصنعوا شيئا من البداية .. !

ولو قدر لقلب رجل واحد أن يتسع لما تخفق به قلوب الناس فى الزهايرة فى تلك الأيام من الأمل والخوف والشك والفرح لكان هو قلب الحاج ابراهيم !

وكان الرجل الوحيد الخائف الحـذر المتوجس الذى كانته الزهايرة .. والذى حطم ذات لحظة اطار خشونته وعزلته .. وأفزعه أن يجد نفسه خارج هذا الاطار ، ولا يعرف ماذا يفعل بهذه القوة التى خرجت منه ، من تجمعه ، كأن هذا الرجل قد أصبح هو الحاج ابراهيم نفسه .. فقد كان هو أكثر من يعانى من عودة الكرة بجنونها واحتمالاتها ، وينتظر بفارغ الصبر عودة الدراسة ويعانى من عجز النادى أو افلاسه بدون كرة !



ودائما يسأل نفسه أو غيره ، لماذا يتردد الناس فى التبرع النادى بدون كرة بينما يدفعون بلا تردد بأنفسهم او لأولادهم حينما تكون هناك كرة يصر الجميع على رؤيتها ومع أن الزهايرة ثرثرت كثيرا فى موضوع فلوس المباراة ، ثم سكتت عنه فجأة كما تكلمت فيه فجأة ، فلم يجرؤ أحد من الصغار أو الكبار أن يثير اتهام النابس لأحمد أمام ابيه ..

ولهذا فقد بقى حماس الرجل للنادى بريئا وصافيا ، ويقى استقباله لمن يتكلمون عن النادى بحب او خوف أو ازدراء محايدا ، وراغبا فى أن يلتمس وسط الخيوط المتشابكة ذلك الخيط الذى يمسك بهذه القوة حتى لا تضيع أو تنفجر فى أحد !

الخيط الذى يبدأ وينتهى بهذا السؤال : هل يمكن أن يبقى النادى بدون كرة ؟



وفى هذه الأيام التى لم تعرف الزهايرة لها مثيلا عاد محمد الجندى فجأة كما سافر فجأة .. عاد فى سيارة أدخلته لعتبة

الباب ، قال الذين رأوه بعيونهم : كان يتوكأ على رجلين ، وساقه المربوطة بالجبس لا تكاد تلمس الأرض .. وعرفت الزهايرة أن رجلها الغامض المرهوب قد أصيب فى آخر عملية اشترك فيها مع الفدائيين .. !

ولم يفهم احد لماذا يتجدد قتال الفدائيين بعد توقيع المعاهدة .

وفكر تلميذ أن يوجه هذا السؤال لسمير فى الليلة التى سيلقى فيها محاضرته بالنادى عن مغزى اتفاقية الجلاء !

وقال له تلميذ آخر :

— ولماذا لا نذهب لزيارة « محمد الجندى » ونوجه اليه هذا السؤال ؟

وتدفقت الزهايرة على منزل محمد الجندى تزوره وتسأله .. ولم تعد هناك أسوار تفصل بين عائلة الجندى وأهالى الزهايرة .. كان محمد الجندى هو أول من قفز فوق هذه الأسوار فى صباه ، وحين أصبح عاجزا عن القفز ذهب الناس اليه ، سألوه عما أصابه ؟ وسألهم عما أصاب النادى ؟



تكلموا عن الخوف والأمل والفرح والقلق .. عن الفوانيس والجرادل ، وتنظيف القرية ، والكرة ، والفلوس . ز.ن.م شريف وصبرى وأحمد ورجب الصعيدى وعطية بن جمالات وسمير وخيرى وزارته حتى نجوى .. كانت تربطها بشقيقته صلة صداقة وكانت شقيقته هى التى تزورها دائما دون أن تنتظر ردا للزيارة ، وتحكى لها عن أخيها بعض الغرائب ، وحين أصيب ، وجدت نجوى الفرصة سانحة لترى بعينيها حقيقة من تسمع عنه الأساطير .. !

وعبثا حاول محمد الجندى أن يجد الفرصة ليروى لأحمد فى المرات التى زاره فيها حقيقة ما حدث فى تلك الزيارة التى جاءت فيها نجوى .. دائما كان هناك ضيوف ، وكانت هناك أحاديث عامة تلوكها الزهايرة لا تترك فرصة لتبادل الهمس بين صديقين .. !

كان كلاهما يعانى من جراحه ، ومما أصابه فى غيبة الآخر .

وكان أقسى ما أصاب أحمد أنه عرف بخبر زيارة نجوى لمحمد الجندى دون أن يعرف أى تفاصيل !

وأصبحت رغبته فى أن يعرف التفاصيل لا تقل ضراوة عن خوفه من أن يسمعها .. ؟

وتراجعت الى الوراء رغبته فى أن يروى أو يسمع المزيد عن قصة فلوس المباراة وكيف سمع بها محمد الجندى من الزهايرة .. أو عن القصة الكاملة لما أصاب محمد الجندى فى معركته مع الفدائيين .. !

لم ينقم أحمد على الزهايرة .. على وجودها بهذه الكثرة .. وبهذا الاستمرار فى بيت محمد الجندى كما نقم عليها فى تلك الأيام !

كيف تتآمر قرية بأسرها على لقاء صديقين ؟ ومتى تنتهى تلك الأيام ؟

كان اليوم الذى حدده التلاميذ فى النادى فى لحظة متفائلة لانارة الفوانيس ، ولكى يلقى سمير محاضرته الموعودة عن مغزى اتفاقية الجلاء .. يقترب ..

ولم يكونوا قد حلوا بعد مشكلة النقود !

وكانت الزهايرة فى تلك الأيام تترنح من القلق والنشـــوة والكلام ، وتبدو وكأنها توشك أن تفيق أو تسقط ، تصحو من حلمها أو تحققه . وفكر أحمد فى لحظة غيظ أن يذهب الى النادى فى تلك الليلة الموعودة لو أنها جاءت فى موعدها ليناقش سمير فى محاضرته المرجوة .. ليحطم بالعقل ذلك النادى الذى أوجدوه بالكرة ، والذى يصر على أن يبقى بدونه .. سوف يسأله سؤالا واحد :

* * *

ـــ لقد وقعت الاتفاقية وانتهى الأمر فما جدوى الحـــوار الآن ؟

وراح يتخيل الأجوبة والأسئلة :

ـــ ليفهم من لم يفهم ! وليقتنع من لديه ذرة شك .

ـــ واذا لم يقتنع من تريد اقناعه ؟

ـــ يكفى اقتناع الأغلبية !

ـــ وكيف عرفت رأيها ؟

ـــ الأغلبية تؤيد الثورة .. هل تنكر ؟

ـــ فى أى شىء ؟

ـــ فى طرد الملك ؟ فى اعلان الجمهورية ؟ .. فى تحديد الملكية ..

ـــ الموافقة على شىء أو أشياء .. لا تعنى الموافقة على كل شىء لا تعنى التفويض المطلق ..

ـــ اذا أعطيت حق المعارضة فى أمر فلا بد أن تعطيها فى كل الأمور .. أعط حق المعارضـــــة للاقطاعيين فى تحديد الملكية ،

وللملكيين فى اعلان الجمهورية .. وسوف ينتهى بك الأمر الى حق معارضة الثورة ..

ــ كيف تكون هناك ثورة دون تفويض مطلق ؟ وكيف تكون هناك معارضة دون أن تلغى الثورة ؟ أيمكن أن يناقش مع مثل سمير مثل هذا السؤال أمام الزهايرة دون أن يقع فى نفس المأزق الذى وقع فيه شريف فى مسجد الزهايرة ؟

* * *

وكان الحاج ابراهيم لايزال يسأل نفسه ويسأل كل من يلقاه من الرجال الكبار كيف يمكن أن يبقى النادى بدون كرة ، وأن يتبرعوا دون ضغط الصغار والكبار وضعفهم أمام اغراء الكرة ؟

ولم تكن الزهايرة قد حسمت أمرها حين وصلت الى النادى الذى شاع أمره وذاع رسالة صغيرة من فريق السنبلاوين تقول :

« السيد المحترم رئيس نادى الزهايرة الرياضى ..

تحية طيبة وبعد :

يسرنا أن ندعو ناديكم ليلعب مباراة مع فريقنا فى مدينة السنبلاوين يوم الجمعة الموافق ١٩٥٤/٩/١٠ .

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام »

وكأنما كانت تلك الرسالة هى القشة التى تنتظرها الزهايرة لتنجو أو تغرق !

وانفجر الجدل فى النادى ، وفى مسجد الزهايرة وأمام دكان الخلفاوى ، وفى الطريق الى الهدار :

ـ هذه فرصة العمر ليتجمع المتفرقون ، ويظفر صـــندوق النادى بحصيلة تكفى لانارة القرية وشـــراء جرادل لحمايتها من الحريق ، و . . . . . .

ـ نسيتم أننا أحرزنا النصر فى المرة السابقة بفضـــل ضيوف شـــريف .. ؟

ـ لا تهمنا نتيجة المباراة ، تهمنا الفلوس ..

ـ لن تحصلوا على مليم واحد اذا لعبتم فى السنبلاوين ..

ـ نعتذر عن اللعب فى السنبلاوين ، فاذا قبلوا الاعتذار تكون فرصة للنجاة من الهزيمة واذا قبلوا المجىء تكون فرصـــة للفلوس !

وصرخ الحاج ابراهيم فى الرجال الكبار :

ـ أولادنا هم الذين سيدفعون ثمن التذاكر من جيوبنا .. لماذا لا نتبرع بها للنادى ونريح البلد من هذه المغامرة ؟

ولأول مرة أصر الرجال على معارضته بلهجة هى مزيج من الجد والهزل :

ـ أية مغامرة يا حاج ؟

ـ ليس أولادنا فى البلد !

ـ ثمن تذكرة أو عدة تذاكر أهون من أن يتبرع كل واحد منا بجنيه أو جنيهين !

ـ أهم من كل هذا ، نريد ان نتفرج على مباراة حقيقية .. ستكون آخر مباراة وكل سنة وأنت طيب !

من جديد التأم شمل الزهايرة حول الملعب .. !

عباس بك في مكانه وحوله الرجال الكبار .. « رجب الصعيدى » قام بدوره كاملا ومبهرا منذ بداية النهار ! شريف صبرى وعطية ابن جمالات لبوا جميعا سحر الكرة ، ونداء الزهابرة فى هذا اليوم المشهود !

سمير هو الذى يبيع التذاكر هذه المرة .. وهى أكثر من كل الحاضرين والغائبين .. فلم يكن اليوم يوم عيد ولم يكونوا فى حاجة الى شجرة سنط تقفل مدخل الجرن ولم يكن محمد الجندى قادرا على حملها ..

كان قد جاء متوكئا على عصاه وعلى كتف «رجب الصعيدى» الذى أصر على أن يذهب بنفسه ويجىء به معه !

وكان أحمد فى مكان لا يلتفت اليه أحد وسط الزهايرة التى لم تكن تلبس فى هذا اليوم ثياب العيد !

وفيما عدا الصف الأول الذى يجلس فيه الرجال الكبار كان الصغار والكبار قد جاءوا من حقولهم قبل نهاية النهار .. بعضهم جاء بثياب الشغل القديمة والمهلهلة .. فأسه على كتفه وبقايا عرق مختلط بالتراب على الجبين واليدين والقدمين ، بعضهم ألقى بالفأس جانبا .. والآخرون اجتذبتهم الكرة فنسوها على أكتافهم ! كيف دفعوا ثمن التذكرة ؟ بعضهم هده تعب النهار فجلس على الأرض ، وبعضهم ظل واقفا يتابع الكرة المستديرة بما بقى فيه من حماس ، وبما يولد فيه من حماس جديد ! « نجوى » تجىء

هى الأخرى .. بعد بداية المباراة يجرى « رجب الصعيدى » ليحضر لها كرسيا من السراى ويترك لها « محمد الجندى » كرسيه ولكنها ترفض بشدة ، وتجلس بجواره على الكرسى الذى تركه أحد الرجال الكبار للهانم الصغيرة !

***

ربما لم يبصر أحد سوى احمد هذا المشهد بهذه المرارة .. محمد الجندى ونجوى يتكلمان ويضحكان ويتفرجان .. والزهايرة تصبح من جديد ذلك الحيوان الخرافى الذى يمتلك ألف قدم وألف ذراع .. وفى مكان الرأس كرة ملأى بالهواء ، الكرة هذه المرة فى أقدام فريق السنبلاوين يتلاعب بها وبفريق الزهايرة الذى لا ينجح الا فى تشتيتها حينا وفى الامساك بها فى أحيان قليلة ..

الحيوان الخرافى يشعر كأن فريق السنبلاوين يضرب رأسه بأقدامه .. يتلاعب بهذا الرأس ، يسيطر عليه ، يقذف به الى الهواء أو يمرغه فى التراب ! ولكنه لا يتركه يتحرر منه الا حين يقذف به فى قلب جول الزهايرة !

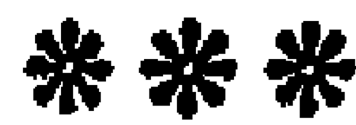
***

وتمسك الزهايرة برأسها حتى لا ينفجر .. تتوسل بالصياح والذهول لفريق الأسد المرعب لكى ينقذ رأسها المصدوع .. تتوسل لشريف وصبرى وعطية بن جمالات .. ولكن الأسد المرعب يصبح أسد سيرك محاصرا بين قضبان غير منظورة فى نصف ملعبه ويوشك أسد السيرك أن يتحول الى قط ثم الى فأر .. ويخيم الذهول على الزهايرة من توالى الأهداف ويوشك الرأس الكرة أن يتمزق .. !

وفجأة يفلت شريف من القفص والى جواره عطية بن جمالات فى لحظة ظن فيها فريق السنبلاوين أن الفأر لن يفكر فى الهجوم أو حتى الهرب !

ويحرزان هدفا تجن له الزهايرة ! ولكن هذا الهدف يثير فريق السنبلاوين الذى كان قد قنع بما احرز من اهداف واكتفى باستعراض العابه فعاد يشدد الهجوم ويحرز الأهداف !

وترتفع فى جنبات الملعب أصوات أهالى السنبلاوين الذين رافقوا فريقهم بتشجيعه والهتاف له !



ومع قلتهم فقد أصبح صوتهم هو المسموع فى الملعب كله ! متى تنتهى هذه المباراة ؟ هذه المهزلة .. ؟ وتصبح المشاعر المجتدمة المختلطة فى قلب الحيوان الخرافى شعورا واحدا لا أول له ولا آخر شعورا بالمهانة والحزن .. وينفصل هذا الشعور عن الكرة لانها توشك أن تنفصل عن اقدام فريقهم لا يتحرك بحركتها ، ولا يتغير ايقاعه بتغير مسيرتها وعلى جوانب الملعب تبدأ مباراة من نوع آخر بين بعض اهالى الزهايرة وأهالى السنبلاوين .. مباراة بالكلمات التى لا تشد انتباه أحد فى البداية !

ـ تكفى فى النصف الأول من الوقت نصف دستة من الأهداف .

قالها رجل من السنبلاوين لزميله ..

ـ العبرة بالختام ..

قالها رجل من الزهايرة كان يقف بجواره ..

ـ آخرها مثل أولها باذن الله

ـ غلبناكم فى المرة السابقة ..

ـ صدقتم هذه الحكاية .. ؟

ـ أنت قليل الأدب !

ـ تشتمنى يا فلاح ..

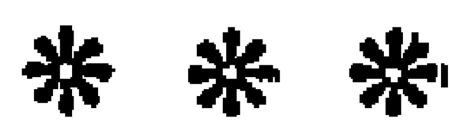
ـ وأضربك بالحذاء !

ـ تستقوى بأهل بلدك !

ـ لن أضربك هنا .. سأضربك فى سوق الخميس ..

ـ الأفضل أن تشترى حذاء من هناك !

ـ سأضربك بهذه هنا .. وارتفعت الفأس فى الهواء ، وبدأ الشجار كان محمد الجندى هذه المرة عاجزا عن أن يحقق المعجزة أو يحسم المأساة .. واسرع عباس بك بولديه الى السراى .. بعد أن ضاع صوته وسط الجنون وسقط منظاره الذهبى .. وضاعت فردة حذائه .. !



ووقف الحاج ابراهيم وحوله الرجال الكبار يصرخون ويحاولون أن يمنعوا المأساة ، ولكن الشجار ينفض هنا ليشتعل هناك ، المأساة التى كان يحذرها الجميع تقع رغم كل المحاذير ! راى احمد بعينيه كيف يجن الناس ؟ وكان قد بقى فى رأسه بقية من عقل جعلته يسأل نفسه رغم الخوف والهول سؤالاً بلا جواب ..

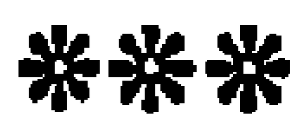
ما هذا الذى يجرى ؟ لماذا لا تستخدم الزهايرة قوتها الا بهذه الطريقة ؟ لكى تدمر كل شىء بلا تمييز ؟ أبوه فى خطر حقيقى .. بينما لا يدرى هو ماذا يفعل ؟ عاجز ومشلول وخائف .. محمد الجندى يصرخ ويلوح بعكازيه دون جدوى .. النسوة يصرخن فوق أسقف المنازل المجاورة ، ويوشك صوت الحاج ابراهيم أن يضيع وسط الأصوات وهو ينادى أهالى السنبلاوين لكى يجتمعوا حوله .

ـ أنا مسئول عمن يقف بجوارى .. سأحميه بدمى ..

ظل الحاج ابراهيم يصرخ بهذه العبارة حتى ضاع صوته .. ضاع العقل .. وسكنت الكرة فى مكان من جرن الوسية .. لا يراها أحد .. ! الكرة التى كانت تقود بحركتها هذه القوة الغامضة ، انفصل رأس الحيوان الخرافى عن جسده .. لاعبو السنبلاوين كانوا اول من التف حول الحاج ابراهيم .. كانوا اول من سمع الصوت الضائع ، وحولهم التف بقية أهالى السبنلاوين بعضهم ثيابه ممزقة ، وبعضهم جلده ممزق .. ! بعضهم يقف وبعضهم لا يقوى على الوقوف ، وحول الجميع وقف الرجال الكبار ليصنعوا حاجز أمن للغرباء ، وكأنما ادرك الضيوف فى لحظة الجنون التى سادت الملعب انه لا منجاة لهم من تقاليد القرية الا بتقاليدها ، أركبهم الحاج ابراهيم فى العربات التى جاءوا فيها ، انحشروا فيها جميعا .. من جاء راكبا ومن جاء ماشيا ! وركب معهم على أفريز العربة ، سألهم قبل أن يعود :

ـ هل تخلف منكم أحد ؟

ولم يكن هناك من يجيب ، أو يتذكر !



عاد الحاج ابراهيم الى القرية وحده .. كيف حدث ما حدث ؟ كيف تركوا الكارثة تقع رغم انهم كانوا يخشونها ويتوقعونها ؟ « لا يغنى حذر من قدر » ، رأى على البعد جماعة من الرجال يخفون للقائه .. لعلهم خافوا عليه من أهالى السنبلاوين .. كان الحاج حبيب أكثر منه حكمة وحذرا .. كيف ضعف أمام أولاده .. ترى هل أصابهم شىء .. ؟ لا يزال للحساب بقية .. ؟ يكفى أن تكون للمصيبة حدود ؟ ولكن ملامح الرجال التى تقترب لم تكن

تبشر بالخير .. كانت تغطيها سحابة من الغبار ، حين اقتربوا منه .. حين انجلت السحابة سألهم بقلب مخلوع :

— ماذا حدث ؟

— خفنا عليك ؟

— من أى شىء ؟

— رجل من أهالى السنبلاوين ..

— تأخر عنهم ؟

— وجدناه فى جرن الوسية ..

— مصـــــابا ؟

— ميتــــا ؟ ..

***

— ٢٧ —

فى تلك الليلة لم تنم الزهايرة ...

كانت تلك هى نفس الليلة الموعودة التى ظلت تنتظـــــرها الزهايرة طويلا لتضيئها الفوانيس ، وليلقى فيها سمير محاضرته عن مغزى اتفاقية الجلاء ! ساد فيها الظلام وساد الخوف ، وراح كل الآباء والأمهـــات يتفقدون أولادهم وطيورهم ومواشــــيهم ، ويغلقون عليهم الابواب فى انتظار ما يسفر عنه الصباح من رزايا ومصائب لا يعلم حدودها الا الله !

حين وصل الخبر المشئوم الى الحاج حبيب الذى كان قد صمت صمته العظيم منذ أسابيع ، حين تأكد له أن ما كان يخشاه قد وقع ، لم يعد لديه شك فى سلامة تفكيره ، وفى أن الدنيا التى عرفها لا تزال كما هى ، ولا تزال فى حاجة اليه ! قال لمن أخبروه بالخبر :

ـــ احملونى اليهم !

وذهل من سمعوه ، كانت تلك أول مرة يتكلم فيها الرجل الذى كانت ترتعش الكلمات على شفتيه .. يتكلم بوضـــوح .. وبحسم !

ـــ هم يجيئون اليك .. فأنت لا تقدر ..

ـــ أين هم ؟

ـــ فى سراى عباس بك !

ـــ كل الرجال ؟

ـــ نعم ..

ـــ اذن احملونى اليهم .. وسأقدر !

***

فى جرن « عباس بك » الذى شهد المباراة والمأساة كانت تتمدد جثة شاب فى العشـــــرين تقريبا مغطاة بالقش ، يرتدى جلبابا ملطخا بالجير والبوية كما كانت بقايا الألوان تلطخ شعره وأصابعه . قال الذين عرفوه من أهالى الزهايرة :

ـــ لا نعرف أسمه ولكننا نعرف اسم أبيه الذى مات من

سنين .. كان نقاشا بالسنبلاوين وورث الابن مهنته .. ودائما كنا نراه معلقا بجردله على واجهات البيوت والمحلات .. !

واوضحت ثيابه وملامحه .. أنه شاب فقير ..

وقال الشيخ عرفه لمن حوله من الرجال الكبار :

ـ يمكن ارضاء أهله .. لو وجدنا له أهلا ، بأى مبلغ من المال ، لكن تبقى مصيبة الجثة ؟ ماذا نفعل للحكومة وللنيابة ؟

وكانت كلمة الحكومة لا تفزع أحدا بقدر ما تفزع « عباس بك المواردى » فالجثة فى جرنه .. وخصومه القدامى من رجال الادارة قد يجدون فيما حدث فرصة العمر للانتقام منه ، وأصدقاؤه من بينهم قد يجدون الحرج فى الوقوف بجانبه فى مثل هذه الظروف وقد تأخذ الحادثة كلها معنى سياسيا ، فماذا يفعل ؟ بل ماذا يفعل الابناء بالآباء ؟

***

الابناء فى هذه الليلة عادوا أبناء فحســـب ! فى الليالى القمرية .. وفى الطريق الى الهدار يمكنهم أن يتكلموا فى كل شىء تحت الشمس والقمر ! أن يتفلسفوا ، وأن يتحملوا مســئولية الكون ! لكن حين تقبح الكوارث ، ويسود الخوف فى الليالى المظلمة، فانهم يعودون مجرد أبناء .. يتركون الأمور لآبائهم ، ويقبعون فى الاركان يحطمهم الشعور بالعجز والهوان .. !

لم يكن ما يحطم محمد الجندى فى تلك الليلة هو الشعور بالعجز والهوان .. ولا حتى الشعور بالمسئولية .. !

فلم يكن ينتمى الى جيل الابناء ، ولا الى جيل الآباء . كان يجد فى أعماق قلبه شعورا مضنيا بالوحدة والمرارة .. لقد عجز عن أن يمنع بداية المأساة ولم يعد يحب فى نهايتها ان يشارك بالكلام فيما يعرف أنه لن يقدر على المشاركة فيه بالعمل !

كان ثمة دور بطولى صغير يمكن أن يقدمه للزهايرة التى بدأت تعترف به ، ولكنه أفلت منه ! وكانت ثمة أشياء جميلة وقليلة قد بدأت تنمو فى الزهايرة ، ولكنها توشك الآن أن تضيع دون سبب معقول .. ! ولم يكن قد روى بعد لأحمد قصة زيارة نجوى له .. وبدا له أن هذه الليلة سوف تضع حدا لاشياء كثيرة ربما منها هذه القصة .. الرقيقة التى لم يعرف مثلها فى حياته .. ! هذه القصة التى قد لا يرويها لأحد أبدا .



حين وصل الحاج حبيب الى سراى عباس بك المواردى حيث يجتمع الرجال الكبار للبحث عن طريق للخلاص .. فوجئوا جميعا بوجوده ! وكان الانطباع الذى ظهر على وجوههم هو : كيف جاء ؟ لم يكونوا قد وصلوا بعد الى قرار حاسم ، ولم تكن مشكلة الثأر هى ما يخافونه ، فالسنبلاوين مدينة ويبدو أن القتيل لا أهل له يخشون بأسهم ، ولكن المأساة فى الحكومة .. والحكومة يخشاها الاغنياء قبل الفقراء ، فسوف تتهدد الأخطار مصالحهم وكرامتهم :

وانصتوا جميعا حين بدأ الحاج حبيب يتكلم ببطء وفى صوت خفيض .. انصتوا فى البداية كانما ليتخلصوا منه ومن كلامه ، قال لهم :

ــ ما الذى تنوون فعله ؟

واوضح له الحاج ابراهيم أساس المشكلة !

قال الحاج حبيب بصوت واضح رغم ضعفه :

ـ أساس المشكلة هو وجود الجثة .. ولو تخلصتم منها ؟

وتأكد لدى الرجال أن العجوز يهرف بما لا يعرف ! ولكنهم سـايروه :

ـ كيف ؟

ـ ألقوا بها امام الهدار ؟

ـ البلد كلها تعرف الآن بخبر القتيل ..

ـ لا يهم أن تعرف البلد أو حتى تتكلم .. المهم أن تختفى الجثة ! بدون الجثة لا تملك الحكومة شيئا .. لا وجود للجريمة !

ـ قد تظهر الجثة بعد قليل وتتجدد المأساة ..

ـ ألقوها فى مكان لا تظهر فيه ..

ـ اين مثل هذا المكان ؟

ـ هذا ما يجب أن تفكروا أنتم فيه وبسرعة !

***

وخيم صمت ثقيل ، فلم يكن أحد الرجال ممن يملكون أرضا ليرضى أن تخفى الجثة فى أرضه .. وسوف تحوم شـكوك الحكومة فى أرض المقابر ، وسوف تقلبها بحثا فأين يتخلصون من الجثة ؟ وكيف ؟ ..

وفكر العمدة أن مسـئولية اختفاء الجثة الذى لا يمكن أن يظل سرا سوف يقع عليه أولا وعلى شيخ الخفراء والخفراء ، فقال بنبرة من يدفع عن نفسه مصيبة :

ــ سوف يوجد مائة شاهد من السنبلاوين على أن القتيل ذهب بقدميه الى الزهـايرة ولم يرجع وسـوف تطالبنى الحكومة بجثته .

قال الشيخ عرفة :

ــ فى هذه الحالة لن يكون هناك قتيل ..

وقال الحاج حبيب :

ــ اننا نختار بين المصـائب .. فوجود الجثة معناه انك مسئول عن القاتل وعن القتيل معا وأنك سوف تقع بين نار الحكومة ونار البلد التى ستدفع كلها الثمن ..

والتمس « عباس بك » خيط النجاة فيما قاله الحاج حبيب فهذا يبعد شبح الجريمة عن بيته على الأقل .. فقال :

ــ اذا نجحنا فى اخفاء الجثة ، فسوف تسكت الحكومة بعد وقت يطول أو يقصر ، خصوصا لو أنهينا المشكلة مع أهل القتيل بأى مبلغ !

قال العمدة محاولا وضع العقبات من طريق آخر :

ــ يتفضل الحاج حبيب ويدلنا على من يحمل الجثة ويخفيها فى مكان لا تصل اليه الحكومة ؟

ــ البلد لا تخلو من عقول ورجال .. ولكنى أفضل رجلا واحدا أو رجلين لتنفيذ المهمة حتى لا يفشى السر !

وخيم على الحاضرين صمت كئيب وثقيل ، كانوا جميعا قد وجدوا فى فكرة العجوز المخرف طوق النجاة لهم ما عدا العمدة الذى وضع كل أمله فى عجز القرية عن تنفيذ هذه المغامرة . كان يتوقع الا يسفر صمتهم عن شىء ، بل عن خلاف عقيم ، فكلما

خرجوا بالمكان عن زمام القرية حتى يبعدوا عنهم مسئولية الجريمة أصبحت المهمة صعبة التنفيذ ،فمن يحمل الجثة الى خارج أراضى القرية ؟

وصرخ الحاج حبيب بصوت مرتعش واهن :

ــ ماذا تنتظرون ؟ اهالى السنبلاوين سوف يبلغون عن الحادث قبل أن يذهبوا الى بيوتهم وقبل أن يعرفوا بكل ما حدث ؟

واضاف عباس بك بصوت نم عن قلقه العميق :

ــ وليس مثل الليل ساترا لما تريدون ..

واستمر الصمت مخيما .. يشى بقهر الرجال .. قال الحاج ابراهيم :

ــ ما رايكم فى تلال ابن سلام ؟

قالها وغرق الرجال فى الصمت من جديد .. !

قالها وكأنه قد أدى ما عليه باختيار المكان وترك لهم مهمة اختيار الرجل ، فتلال ابن سلام الرملية الشاسعة بعيدة ، والحفر فيها لا يخلف أثرا ، ولن تذهب ظنون الحكومة الى أن شخصا يمكن أن يحمل جثة الى مثل هذا المكان ..

ولكن يبقى البحث عن الرجل .. ولم يفكر واحد من الكبار فى تقديم أحد أبنائه لمثل هذه المغامرة فى مثل هذه الليلة ، ولم يجرؤ أحد على أن يطلب من الآخرين ما لا يقدر عليه !

وظل الصمت الكئيب يصرخ بقهر الرجال أمام المصيبة !

ــ انا مستعد لاخفاء الجثة هناك !

وتطلعت كل العيون اليه .. متى جاء « رجب الصعيدى » ومتى سمع الحوار كله ، وسمع الصمت كذلك ؟

وعاد رجب الصعيدى يتكلم كأنما ليؤكد لهم ما ظنهم فى شك منه !

ـ من اجل الاستاذ شريف وعمى الحاج حبيب أذهب بقدمى الى النار !

وظل الصمت مخيما على الرجال الكبار ولكنه فى هذه المرة كان يعنى شيئا آخر ثم تكلموا ..

وبقى العمدة وحده صامتا لا يدرى كيف حلت به وحده هذه المصـــــيبة ؟ كانوا يتكلمون فى الطريقة والتنفيذ ومواجهـــة كل الاحتمالات .

***

حين عاد « رجب الصعيدى » من مهمته ، وجد الرجال فى انتظاره !

وقبل أن يجيب على سؤال واحد من الأسئلة التى نطقوا بها أو التى نطقت بها عيونهم قال لهم :

ـ انتظروا حتى افك الحمار من العربة واعلفه ..

كانت العربة التى تحمل الجثة مغطاة بأكوام من الدريس الجاف ، وكان يبدو وهو يقودها كأنه يحمل الى المواشى التى تبيت فى الساقية علف المساء ، وحين فك الحمار وضع أمامه اكوام الدريس التى كانت تغطى الجثة ليأكل منها .. ولكن الحمار شم رائحة الدريس قبل أن يأكله ، وامتنع عن الاكل ..

قال الحاج حبيب :

ـ الدريس ملوث بالدم .. ضعوا أمام الحمار علفا آخر .

قال عباس بك :

ـ اغسلوا العربة أولا فهى بلا شك تحمل آثار الدماء ، واحرقوا هذا الدريس كله :

قال الحاج حبيب :

ـ احضروا عشاء لرجب .

ـ لا أجد شهية للطعام !

ـ بعد أن يغير ملابسه الملوثة !

ـ لابد أن تأكل فلا أحد يعرف ماذا يأتي به الغد !

***

وتردد رجب قليلا فخلع أحد الرجال جلبابه وأعطاه له ، ولكن عباس بك طلب منه أن يغير كل ملابسه .. فغاب قليلا ثم عاد يخب فى جلباب واسع .. وجلس وسط الرجال يأكل الطعام الذى جاءوا به .. يأكل لقمة ويجيب على سؤال .. كان يأكل فى صعوبة :

ـ هل قابلك احد فى الطريق ؟

ـ بعض الرجال من عزبة العرب !

ـ هل عرفوك ؟

ـ لم أتبادل معهم سوى السلام !

ـ لمـــاذا ؟

لو لم أرد عليهم السلام لشكوا فى أمرى .

ـ وهل تظنهم عرفوك ؟

ـ لا اظن .. !

ـ هل تأكدت أنك لم تترك آثار فى الرمال ؟

ـ تركت العربة على الطريق الزراعى ، ودفنت الجثة بعيداً فى قلب التلال !

ـ هل تعرف المكان الذى دفنتها فيه ؟

ـ المكان أصبح سرا حتى عليكم ..

قال العمدة فى نفسه : « ابن اللئيمة بدأ يتسيد علينا » .

قال عباس بك :

ـ أهم شىء يا رجب بعد ما حدث أن تعرف كيف تسكت ؟

سكت رجب .. استمر يمضغ طعامه فى هدوء .. كان يود لو تعرف الدنيا كلها بخبر فعلته عدا الحكومة طبعا ، أضاف عباس بك :

ـ اى كلام عنك سوف يجلب لك المصائب قبلنا ..

رفع رجب رأسه عن الطبق الموجود أمامه والذى كاد يفرغ ، وكأنه سيهم بالكلام ، ولكنه عاد يأكل بنفس الهدوء ، أثارت حركته إنتباه الرجال قال له الحاج ابراهيم :

ـ ماذا كنت تريد أن تقول يا رجب ؟

لم يصدق رجب أن تصبح لحركة رأسه كل هذه الأهمية .. كان يريد ان يقول لعباس بك :

ـ المصيبة الحقيقية التى كانت تحل بى هى أن هذا البلد لم يعرف قيمة رجب وقد جاء الوقت لتعرفوا قيمته ..

ولكنه وجد متعة غامضة فى أن يواصل الطعام دون أن يرد حتى على الحاج ابراهيم نفسه ..

قال الحاج حبيب :

ـ اذهبوا الى بيوتكم وناموا قبل أن يطلع الفجر أو تجىء الحكومة فقد تكون هذه آخر ليلة تذوقون فيها طعم النوم حتى يزيل الله عنا هذه الغمة ..

***

ـ ٢٨ ـ

جين جاءت اللحظة المثيرة .. اللحظة التى رآها رجب كثيرا فى خياله وفى أحلامه منذ قام بمغامرة حياته كلها لم تكن بمثل الصورة التى كان يراها فى خيالاته ، لم يكن هناك هذا الحشد الهائل من أهالى الزهايرة والذى يفوق كثيرا أى حشدآخر تجمع حول الملعب ! كان هناك العمدة وشـــيخ الخفراء وعباس بك وشريف .. شريف الذى لم يسعد بمغامرته الكبرى مع انه لم يقم بها إلا من أجله ، قال له فى تلك الليلة اتى لا ينساها وبعد أن انصرف الرجال :

ـ لماذا فعلت ذلك يا رجب ؟

قالها بما يشبه التانيب .. تحير رجب .. لم يدر ماذا يقول ؟ مستحيل الا يفهم شريف لماذا فعل ذلك ؟ أكتفى بهزة رأســـه وبابتسامة من يقول :

ـ أنت سيد العارفين ..

ـــ يجب أن تسكت تماما يا رجب ، والا تعترف بشيء حتى لا يلبسوك التهمة .

ـــ أى تهمـــة .. ؟ أنا لا أبالى بأحـد .. ولن تأخذ منى الحكومة حقا ولا باطلا .. ستعرف حقيقة رجب وقت اللزوم ..

ـــ ما الذى تريده الآن يا رجب ؟

ـــ أنت تعرف ..

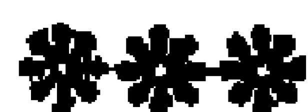
***

ودائما كان يعطيـــه من النقود ما يكفى لمزاجه. وظل رجب يرقب عن كثب التحقيق مرة مع العمدة ومرة من عباس بك والرجال الكبار .. ويرقب المصـــيبة التى أحدقت بالقنـرية كلها منذ جاء الهجانة السود على جمالهم ! ظل يرقب ويسمع قصته كلها على كل لسان ! وحين تغرب الشمس ، ويفرض حظر التجول وتنقطع القدم عن السير فى الطرقات وتدب الحياة التى ماتت فى الشوارع والحوارى والدكاكين تدب فوق أسطح المنازل فى الليالى القمرية وفى الليالى المظلمة ، لم يكن للناس حديث الا عنه .. كيف عرف كل الناس بحكايته ؟ الزهايرة لا تخفى الأسرار ، ولا تبوح بها فى نفس الوقت ، فالناس كلهم يعرفون ولكن الحكومة لا تعرف ، ولم يدعه أحد للتحقيق معه حتى الآن ، ولكن الى متى يتحمل الناس هذا الهول ؟ لقد ضرب العمدة وشيخ الخفراء بالسياط أمام كل الناس ، وسمع عباس بك ما يكره من التهديد والوعيد ويوشك الزرع فى الحقول أن يجف لأن الوقت المباح للعمل لا يسمح برى كل الأراضى فى المواعيد المقررة للرى .. ؟

***

وقد يجىء عليه الدور فالقرية ملأى بالمخبرين الذين انتشروا فى صورة باعة ، ومتسولين ، وبعض عساكر الهجانة يتقربون من بعض الصغار والكبار ويتكلمون معهم .. كيف يبقى الســـر

المباح غير مباح ؟ وقبل أن يجيء عليه الدور فى الحقيقة جاء فى الخيال .. ودائما كان يرى الضابط المكلف بالقبض عليه ضخما مهيبا تلمع فوق كتفيه النجوم ويحيط به عشرات الجنود ويحيط بهم المئات من الأهالى يزحمون الطرقات وأسطح المنازل .. ويناديه الضابط باسـمه ويسائله أمام أهالى الزهايرة ، ولكنه ينكر كل شىء فى هدوء يستفز الضابط والجنود ، ويذهل القـرية التى تعرف الحقيقة الكاملة عن دوره ، ويأمر الضـابط أحد الجنود بوضع الحديد فى يدى رجب . فيمد يديه فى بساطة من يمدهما للسلام ، ويمضى معهم فى العربة البوكس التى يحرسها الجنود مودعا بنظرات الناس وعبراتهم .. !



دائما كان يرى رجب هذه اللحظة المثيرة بكل ما تستحقه من جلال ، ولكنها حين جاءت لم يكن هناك أحد سوى العمدة وشيخ الخفراء وعباس بك وشريف وكان الضابط نحيلا وضئيلا كانه احد تلاميذ البلد وقد ارتدى بدلة أحد الضباط ، وكانت النجوم على كتفيه كابية .. ولم يتبادل معه كلمة واحدة .. ترك الأمر كله الى الشاويش ومساعده فاقتادوه ماشيا الى ترعة البوهية .. لم يصدق من حلمه سوى عربة البوكس التى دفع اليها دفعا وقبل أن يلقى بنظرة وداع الى الزهايرة .. لم يبق فى رأسه من الزهايرة سوى نظرة شريف التى لمحها فى آخر لحظة وكأنها مندأة بما يشبه الدموع .. ونظرة العمدة الجامدة الا من شعاع من الغيظ المكتوم الذى يخالطه ما يشبه الندم .. هل هو العمدة الذى وشى به ؟ كان هو الذى يعارض فى اخفاء الجثة وهو المسئول عن تسليمها لهم ولكن هل يخذل العمدة الرجال الكبار بعد أن اتفق معهم هل هو الذى سقط فى قبضة الزهايرة ؟ أم أن الزهايرة هى التى فى يده ؟ يستطيع بكلمة واحدة أن يطبقها فوق رءوسـهم

جميعا .. ولكنه لن يفعل ، لقد قال كلمته .. قالها بنفسه .. وستعرف الزهايرة من هو رجب الصعيدى ، سيعرف شـــريف ومحمد الجندى والحاج حبيب .. ونجوى — فى الأيام الأخيرة السـوداء — كانت خائفة وتسأله بين حين وآخر :

***

— طبعا لن تعترف بشىء لو سألوك ؟

— أنت لا تعرفين رجب ..

— لا ذنب لأحد فى هذا كله !

— الله وحده يعلم المذنب ياسيدتى ..

— لماذا يتشاجر الناس ويقتلون بعضهم فى بلدكم يا رجب ..

ثم أضافت حين لاحظت صمته :

— لأتفه الأسباب ..

***

وفكر رجب فى استغراب أنها تقول بلدكم .. ؟ وبدا السؤال لرجب غريبا حقيقيا ومفاجئا وصادقا فى نفس الوقت ، وتذكر اللحظة التى حمل فيها القتيل لدفنه .. منعه الخوف ليلتها من التفكير فى أى شىء ، لم يكن يفكر حتى فى الأسباب التى دفعته للزج بنفسه فى هذا الموضوع .. وقتها كان خائفا فقط ، وحين وصل الى المكان الذى سيدفن فيه الجثة .. حين أصـــبح هو والقتيل وحيدين حدق فى وجهه فى ضوء النجوم .. لحظتها فقط انفجرت فى رأسه هذه الفكرة : « هذا الشاب الصغير الذى مات وبقى الذعر على ملامح وجهه .. لم يكن يعرف قاتليه ولم يكونوا يعرفونه .. فلماذا قتلوه ؟ ولماذا يعرض هو نفسه للهلاك من أجل الزهايرة ؟ وهل كان أبوزيد يفعلها لو كان حيا ؟ كان القتل صناعة أبيه الذى لم يره أبدا .. وها هو يدفن من يقتله غيره .. لماذا

يفعل الناس ما يفعلونه ؟ كانت تلك أول مرة فى حياته يواجهه فيها هذا السؤال ؟ وهاهى نجوى تسأله نفس السؤال الذى حاول أن ينساه ! فلا يجد اجابة عليه .. ولكنه يجد فى قلبه مع القلق سرورا لم يعرفه فى حياته ، لم يكن يتصور يوما أن تأتى مثل هذه الفتاة الجميلة لتسأله سؤالا حينا وتقدم اليه الطعام والنقود حينا آخر !

***

ويشعر انها قريبة منه الى هذا الحد ! الشاويش الذى يركب بجواره فى العربة هو الذى يلكزه بمؤخرة البندقية ويقول له بصوت غليظ :

ــ فيم تفكر يا ابن الـ ...

ولكنه لا يرد ..

ــ سنعرف كيف نجعلك تتكلم !

ويقول له مساعد الشاويش الذى كان اكبر من الشاويش سنا بلهجة أب مجرب :

ــ يا ابنى .. اذا كنت تعرف شيئا فقله أولا بدلا من أن تقوله بعد أن تذوق البلاء !

كان يعتقد أنه عرف أقسى أنواع البلاء التى فى الدنيا دون أن يشعر به أحد .. فكيف لا يحتمل ما احتمله العمدة وشيخ الخفراء وعباس بك ؟

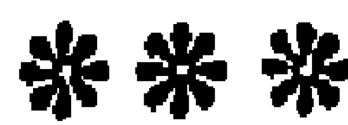
كيف لا يحتمل والزهايرة كلها تشعر الآن أنها معلقة بكلمة واحدة منه .. مصيرها فى يده .. !

مستحيل أن يكون أحد الكبار قد وشى به ! فمصلحتهم فى صمته .. وهم يعرفون ذلك .. واذا كانت الظنون قد اتجهت

اليه فلابد أن يكون ذلك بسبب من كلام الصغار فى القرية أمام أحد المخبرين !

هل هناك ما هو أقسى من أن يجوع المريض ؟ لا .. لن يكون ما يحدث أقسى مما رآه فى حياته ! ولن يخذل أولئك الذين أنقذوه من الجوع والمرض والمهانة .. نعم المهانة .. واذا كان لابد للانسان أن يموت فهذه هى اللحظة التى ينبغى أن يموت فيها .. والناس جميعا يشعرون بوجوده وبموته .. !

لقد دخل أبو زيد السجن .. ولكن الذين يروون القصة لم يقولوا مرة واحدة ما الذى كان يجرى له هناك ..



حول فراش الحاج حبيب الذى عاوده المرض من جديد بعد أن دهم الهجانة قرية الزهايرة .. اجتمع بعض الرجال الكبار ليعودوا الرجل العجوز ويتحدثوا فيما حل بهم :

قال الحاج ابراهيم وقد وضح على وجهه الهم :

ـ عباس بك سمح له اليوم بالسفر الى القاهرة مع أولاده أكد أنه سيتصل هناك ببعض معارفه ... و ...

قال الشيخ عرفه بغيظ :

ـ عباس بك وابنه هما أصل المصائب كلها .. ووجوده فى القضية هو الذى يدفع رجال الادارة الى الاستماتة فى البحث عن الجثة لتدبير مصيبة له ..

قال العمدة وكأنه يحملهم المسئولية :

ـــ عدم ظهور الجثة مع تأكدهم من وجودها هو الذى يغيظ رجال المباحث ويثير جنونهم .

قال الحاج ابراهيم :

ـــ رجب هو الذى يثير جنون الضابط والمأمور والعساكر بصمته .. أصبحت المسألة ثأرا شخصيا بينه وبين ضابط المباحث

قال الشيخ عرفة :

ـــ الى متى يحتمل هذا البغل ؟

أكد الحاج حبيب بصوته الواهن :

ـــ لن يعترف أبدا . .أنا أعرف هذا الولد منذ ..

ـــ قولوا الى متى نحتمل نحن ؟

عاد الحاج ابراهيم يوضح الأمور :

ـــ مهما يكن ما نعانيه الآن فله نهاية .. ونحتمله معا ، وقد تفيدنا جهود عباس بك عند معارفه لانهاء المصيبة ، وتفيدنا نقوده لاسكات اقارب القتيل فى السنبلاوين .. أما اذا ظهرت الجثة فسوف تنقسم الزهايرة وتحاول كل عائلة ابعاد التهمة عن نفسها أو الصاقها بالآخرين ..

***

امام دكان الخلفاوى الذى استرد زبائنه ومكانته الجغرافية والاجتماعية بعد غلق النادى كان أهالى الزهايرة يتحدثون عن آخر مغامرة قام بها رجب الصعيدى مع رجال المباحث ، وكان عطية ابن جمالات هو الذى يروى الواقعة التى رأى جزءا منها وسمع الباقى من رجل من عزبة العرب قضى ليلة فى السجن مع رجب الصعيدى فى قضية نفقة ، قال عطية الذى لم يفقد بعد الشعور

بالأهمية الذى أكتسبه من الكرة والذى إصبح فى الأيام الأخيرة مدعاة للسخرية واللوم والتندر عليه وعلى فريق الأسـد المرعب الذى جر المصائب على القرية كلها :

***

ـ كانوا قد ضربوه حتى عجز من الكلام .. وأنتم تعرفون رجب كان هنا قد عجز عن كل شىء عدا الكلام ..

كان أول كلمة قالها للضابط بعد أن أفاق ، وبدأ يشـعر بالآلام الفظيعة :

ـ سأدلكم على مكان الجثة وحتى أقدر على الوصول معكم الى هناك لى مطلب صغير ..

وابتسم الضابط وقال :

ـ بدأت تعقل يا رجب .. ما هو طلبك ؟

ـ قطعة صغيرة من الافيون .. !

وأعطاه الضابط ما طلب ..

جاء بهم الى الهدار ..

وهناك رأيته بعينى هاتين .. لم أعرفه .. لم يبق منه شىء على حاله .. لا ثيابه ولا جلده .. اشار للضـابط أمام الهدار وقال :

ـ القيت بالجثة هنا ..

ـ تهزأ بنا يا ابن الـ .. وهل ستبقى الجثة فى هذا المكان ؟

ـ اثقلتها بالحجارة .. !

ومع أن الضابط لم يبد عليه أنه يصدق رجب فقد أمر رجاله بالغوص امام الهدار ، وكاد بعضـــهم يغرق .. ! ولكنهم جميعا خرجوا بدون أن يعثروا على شىء ، وفى حالة أسوأ من حالة رجب ..

قال له الضابط والغيظ يتآكله :

ـ سوف افعل بك ما فعلته بالقتيل .. سوف أضعك فى جوال وأثقلك بالحجارة وارمى بك أمام الهدار لتبحث عنه حيث وضعته .

ـ يبقى كتر خير يابيه . تبقى عملت لى خدمة لا انساها لك .

وانهال عليه الضابط ضربا كالمجنون ..

***

قال صبرى لأحمد وهما عائدان من الحقل قبل الغروب قبل أن يبدأ حظر التجول .. وكانا يمران أمام الهدار :

ـ من هذا الهدار بدأت القصـــة كلها .. وأمامه كادت تنتهى !

ـ سوف يموت رجب من العذاب .. وقبل أن تنجح مساعى عباس بك فى القاهرة لانقاذ الموقف ..

ـ ليته يموت الآن .. على الأقل سيكون راضيا عن موته . أما لو عاش وعاد الى الزهايرة ليرى كيف ستتنكر له فسوف يكون ذلك اشنع من الموت !

ـ وهل تنسى الزهايرة ما فعله من أجلها ؟

ـــ ستبقى طول عمرك أهبل ؟ وهل كان ما فعله فى حياته أقل مما يفعله الآن بموته لو أنه مات ؟

ـــ التضحية بالحياة لا تعادلها تضحية ..

ـــ أليس العمل هو جوهر الحياة .. طوال عمره يضحى بعمله فماذا فعلوا له ؟

ـــ الحياة أكبر وأعظم من كل شىء ..

ـــ قيمة الحياة هى قيمة ما نفعله بها .. ما نفهمه عنها وبها ..

ـــ أنت أحمق .. تلوك دائما مجموعة أفكار محفوظة ..

ـــ أنت لا تفهم حتى ما يفهمه ضابط المباحث الذى فهم فى النهاية سر صمود رجب فراح يجرب معه وسائل غير العنف ..

ـــ ماذا جرب معه ؟ تعرف دائما عن رجب ما لا أعرف ؟ لماذا لم تخبرنى بذلك ؟

ـــ لأنك لا تهتم برجب الا كما تهتم بعصفور أو بلوحة أو حتى بشريف ..

ثم تابع :

ـــ عرف الضابط أن عباس بك وشريف طلبا زيارة رجب قبل سفرهما .. قال له مرة بعد أن أعطاه قطعة من الأفيون :

ـــ خدعوك يارجب .. استغفلوك ووشوا بك لم يحتملوا ما أصاب زرعهم .. وما يصيبهم .. ودلونا على مكان الجثة .. واحضروا شهودا بأنك أنت القاتل .. وغدا سوف تسألك النيابة وستدفع وحدك الثمن .. سوف تشنق ..

صرخ فيه رجب بلا وعى :

ــ أين وجدتموها ؟

قال الضابط ببرود وهو يواصل ارخاء الحبل :

ــ غدا سوف تجيبك النيابة على سؤالك .

صرخ الأحمق وقد أصابه ما يشبه الجنون :

ــ مستحيل .. لا أحد غيرى يعرف مكانها !

ــ ستعرف غدا أنه لم يكن هناك مغفل غيرك ..

ــ لا أصدق حتى أرى الجثة ..

ــ ستقودنى الآن الى مكان الجثة والا قدتك الى القبر ..

ــ لا أعرف مكانها !

* * *

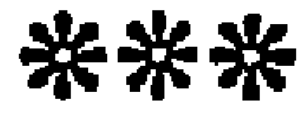
وجن جنون الضابط وانهال عليه ضربا حتى انقطعت أنفاسه .. ولا أظن أنه ستقوم له قائمة بعد هذه المرة .. لقد تدخل المأمور وقال للضابط :

ــ هل جننت ؟ تعرض مستقبلك للضياع من أجل هذا الجربوع ؟

ــ متى عرفت هذا كله ؟ وكيف ؟ أصبحت تخفى عنى الكثير من اسرارك ؟ لم تعد تثق بى ..

ــ لا .. والا لما اخبرتك بها الآن .. كل ما فى الامر اننى اشك فى صدق اهتمامك بما يهمنى !

ـــ لا .. انت لا تريد أن تفهمنى أبدا .. لا تفهم الا ما فى راسك فقط ..



« لا يمكن أن يكون السجن الذى دخله أبو زيد كهذا السجن .. ولا شك أن حراسه كانوا يعرفون أن « أبو زيد » هو سجينهم، ولعلهم كانوا يخافونه حتى وهو راسف فى القيود ، مجرد من سيفه .. اما هو فان أحدا لا يعرف عنه شيئا .. حتى الذين عرفوه فقد خذلوه .. لقد تحمل كل شيء من أجل أن يصدقوا .. أن يعرفوا ماذا يمكن أن يفعل وأن يحتمل ، هل خذلوه حقا ؟ لا .. والا ما طلب منه الضابط أن يدله على مكان الجثة ، الضابط هو الذى كان يخدعه اذن ؟ وهو الذى لم يحتمل صبر رجب واحتماله .. وراح يضربه فى جنون .. الضابط فقد عقله وهو أيضا يوشك أن يفقد ذاكرته ..

قال له الضابط :

ـــ سوف أنفيك الى الطور لتقضى بقية حياتك هناك مع القتلة والمجرمين .

لا .. لا يصدق انه سوف يفعل ذلك ، لقد سافر عباس بك ليسعى لانقاذه وانقاذ الزهايرة مما هى فيه .. ولن يطول انتظاره .. سمع فى طفولته أن أباه نفى مرة الى الطور وقد يلتقى هناك بمن يعرفون أباه ، ويحدثونه عنه .. مستحيل أن يذهب الى الطور .. لابد أن يعود الى الزهايرة التى تعرف الآن من هو رجب .. وتنتظره كما تنتظر الأبطال .. لا يمكن أن يكون الأبطال بهذا الضعف .. كيف يعود وهو لا يقدر على تحريك عضو من أعضائه ، حياته كلها هى التى تتحرك أمام عينيه فى سرعة عجيبة .. الوجوه التى

عرفها والبلاد والطرق والناس والمساقى والمواسير وهو يتحرك معها من الطفولة الى الشباب الى المرض الى الموت .. لا .. لن يموت لقد قطع كل هذه الأيام والبلاد والآلام من أجل هذه اللحظة التى يصبح فيها انسانا له شأن ، ولكنها حين تجىء يكون هو قد أصبح عاجزا مهدودا غير قادر على الحركة .. يهده الألم ، ويتنفس بصعوبة ، ولا أحد يسمع صوته أو ينظر فى وجهه سوى العساكر وضيوف السجن .. مستحيل أن يكون أبو زيد قد دخل مثل هذا السجن ، وتعرض لمثل هذا العذاب ، لو خرج هو وعاد الى الدنيا من جديد .. او التقى بذلك الرجل الذى يروى قصة (أبوزيد) ليسأله عن هذا الجزء الناقص من القصة كان يكذب هذا الراوى .. كل الرواة كانوا يكذبون ! كانوا يخفون أهم أجزاء القصة ! كيف كان يعيش أبو زيد ؟ وما الذى كان يفعله حين يمرض ؟ وماذا جرى له فى سجون تونس الخضراء ؟ كل الناس كذبوا عليه .. الرواة وغيرهم .. لماذا لم يعد شريف ليخرجه كما وعد ؟ كان يعتقد أنه نوع آخر من الناس ! لا يصدق أنه لن يعود .. لم يصدق فى مواعيده سوى الجوع والألم والمهانة ، قطعة صغيرة من الأفيون .. من يأتيه بها ؟ الأفيون لا يكذب .. يجىء ومعه الراحة ، كان شريف يعطيه من النقود ما يكفى لشرائه دائما .. لو كان الناس يكذبون على (أبوزيد) لما عاش فارسا ومات فارسا .. لابد انه كان هناك من يصدق معه .. ولم يذكر الرواة أنه كان يتعاطى الأفيون .. هل كذبوا فى هذه أيضا .. ؟ وجه الحاج حبيب يتراءى له واهنا طيبا ووجه نجوى وشريف ...

— لن تعترف مهما فعلوا معك .. !

« هل سيراها من جديد ؟ الألم وحده هو الذى يدخل من باب السجن ، يخترق عظامه وجلده ، ويسجن معه .. يسجن فيه ..!

***

ذات يوم وردت الى الزهايرة اشارة تليفونية من مستشفى المركز تفيد أن رجب الصـــــعيدى قد مات وعلى من يهمهم الأمر الحضور لتسلم جثته .. نقل الخفير الاشارة الى العمدة ، كان هو الذى يهمه الأمر .. وانتشر الخبر فى الزهايرة .. وخيم الذهول على القرية ، لم يدر أحد ماذا يفعل ؟ واجتمع الرجال الكبار فى منزل العمدة هذه المرة ، الذى كان قد ذهب الى المركز فور تلقيه الاشارة وعاد ليقول لمن كانوا فى انتظاره من الرجال بلهجة من فهم المشكلة من أساسها ..

ـــ مطلوب منا أن نسكت على موت رجب ليســـــكتوا عن موضوع الجثة المختفية !

ـــ ومن يضمن لنا انهم سيسكتون ؟

ـــ لا أحد يضمن شيئا .. وليس أمامنا ســـوى اعطائهم الفرصة فهم فى موقف الأقوى دائما ..

ـــ وماذا كتب المستشفى فى سبب الوفاة ؟

ـــ كتب ما يخلى مسئوليتهم طبعا !

ـــ رحم الله رجب ..

ـــ سوف تنقل جثته عربة الاسعاف الى المقابر فى الليل وبدون جنازة أو ضجة .. !

فى اليوم التالى لدفن رجب رحل الهجانة عن القرية وخرجت القرية كلها لزيارة مقبرته ، كان عطية بن جمالات هو الذى سمح له بأن يخرج من الليل ليهيىء المقبرة للدفن .. وهو الذى قاد الناس اليها .. فى الصباح .. خرجت القرية كلها فى موكب كان يتمنى رجب أن يراه فى حياته . وعلى جنبات الموكب كانت ترتفع سـحابات الغبار ويتناثر رذاذ من الكلمات التى تقولها الزهايرة بلهفة كلما تجمعت كعادتها خارج اطار العمل :

ــ طلب رجب أن يدفن فى تلال ابن سلام بجوار القتيل الذى دفنه هناك .

ــ لا احد غيره يعرف المكان .

ــ وصفه لعطية بن جمـالات الذى تسـلل لزيارته فى المستشفى ..

ــ الله يرحمه .. كيف تصور أن يحدث هذا .. عاش مجنونا ومات كذلك ..

ــ أخيرا استراح رجب ..

ــ نريح انفسنا بهذه الكلمات ..

ــ كنت تتمنى له الموت حتى لا يفجع فى حلمه الأخير ..

ــ تحققت أمنيتى لا أمنيتـه .. ! لم تتحقق له أمنيـة واحدة . !

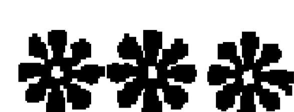
ــ وحزن كل هؤلاء الناس عليه .. الا معنى له عندك ..

ــ له معنى .. اننا مستعدون لأن نقوم بالواجب حين يكون الواجب الأول هو الواجب الأخير .. !

***

صرخت امرأة مجهولة وسط الجمع ، وتلاشت صرختها قبل أن يعرف أحد من هى ؟ ولا ماذا قالت ؟

« كنت أعتقد أنه لم يعد هناك ما يثيرنى .. ما يثير دموعى .. رأيت الكثير .. وعرفت الكثير .. وعانيت الكثير .. ولكن حين يشعر الناس بأن رجلا وحيدا وغريبا وفقيرا أعطاهم كل شىء حتى حياته ثم مضى دون أن يأخذ منهم شيئا يذكر فانهم لا يغفرون له مدى حياتهم أنه فعل ذلك بهم .. ! »



حين جرح رجب فى المسجد أول مرة جرى فيها حديث عن النادى قلنا :

ماتت فكرة النادى الى الأبد واستراح الناس .

ولكن الفكرة ما لبثت أن عادت ، وعادت معها المصائب للبلد ، والآن بعد أن مات رجب هل يمكن أن نطمئن حقيقة الى أن الفكرة قد ماتت حقا ؟

ـ لا تصدقوا .. ولا تصدقوا أن رجب نفسه قد مات فان أحدا منا لم ير جثته !

رآها عطية بن جمالات ودفنه مع رجال الاسعاف والبوليس ..

ـ مادام فى الزهايرة عطية بن جمالات وأمثاله فكيف تقولون أن رجب قد مات ؟



ـ هل صحيح أن الاستاذ شريف لن يعود الى الزهايرة ؟

ــ ولماذا يعود ؟ انتهت الاجازة ، وانتهى فريق الأسد المرعب وبعد أيام يسافر الى القاهرة بقية أعضاء الفريق ؟ وهناك قد يلتقون ويلعبون لعبة أخرى لا تجر عليهم المصائب كما حدث فى الزهايرة ؟

ــ كنت عضوا فى الفريق .. قال لى أنه سيأخذنى معه ..

ــ صدقت يا ابن جمالات هذه الحكاية ؟ لا تخف لقد ترك لك رجب الصعيدى جميع وظائفه خالية فى القرية .. نحن نعرف انك لن تفلح بعد اليوم فى شغل الغيط ؟

ــ والنادى ؟ والفوانيس التى اشتروها ؟ وفلوس المباراة الأخيرة ؟

ومع أنه لم يكن هناك شكوك حول قيمة هذه الفلوس ، فقد كانت كلها بتذاكر فان أحدا لم يكلف نفسه عناء السؤال عنها أو عن مصيرها ، ولم تثر بشأنها أية اتهامات ، ولم يكن ذلك أغرب ما وقع فى ذلك الصيف من عام ١٩٥٤ فى قرية الزهايرة ..



« كان السؤال الذى بدا غريبا لصبرى هو سؤال أحمد له وهما واقفان فى انتظار « الأوتوبيس » الذى يمر بالقرية قبيل سفرهما الى القاهرة فى بداية العام الدراسى ، وعيناه تحتضنان « الزهايرة » وحقولها معا :

ــ متى تعتقد انه سيأتى ذلك اليوم الذى تتجمع فيه الزهايرة خارج حقولها ثم لا تحدث الكارثة ؟

فوجىء صبرى بالسؤال الذى بدا وكأنه بلا مقدمات ، ثم قال وعيناه تمسحان الطريق فى انتظار العربة :

ـــ لا أدرى .. ولكنى كنت أعتقد دائما أن مثل هذا التجمع ضرورى لكى تحدث المعجزة !

ـــ لست أعرف ...

ثم أردف وكأنه أدرك متأخرا نبرة السخرية مقلدا نبرة الجد :

ـــ حين تفتش فى محاضر البوليس فلا تجد أحداثا بشعة تقيد ضد مجهول أو لا تقيد أصلا !

قال أحمد : ستبقى طول عمرك أحمق لا ترى سوى الأسباب الظاهرة . قالها بلهجة بين الجد والهزل .

انفجر صبرى : يا عزيزى يكفينى أن أرى الظاهر أما الباطن فسوف أتركه لك تغرق فيه حتى أستريح من وجهك . ولكنه لم يسترح من وجهه فقد جاء الاوتوبيس وركبا فيه وجها لوجه ! »

***

فى اليوم التالى وردت اشارة تليفونية من المركز تطلب الاسم الكامل لرجب لكتابته فى دفاتر الوفيات فلم يكن قد خرج تصريح رسمى بالدفن ولم تعرف القرية اسمه بالكامل ...

قال الحاج ابراهيم :

ـــ نسأل الحاج حبيب ، هو أول من التقطه ..

وحين ذهبوا ليزوروا الرجل العجوز ويسألوه وجدوه قد مات فى صباح هذا اليوم ، وقال الحاج ابراهيم :

ـــ اكتبوا اسمه هكذا : رجب حبيب الصعيدى .. لن يكون هناك من يسأل عن حقيقته أو من يعرفها .. !

تمت

مؤلفـات للكـاتب

١ ــ الأعمال الكاملة : فى القصة القصيرة

المجلد الأول ويضم المجموعات

ــ فتاة فى المدينة سنة ١٩٦١

ــ الابتسامة الغامضة سنة ١٩٦٣

ــ الناس والحب سنة ١٩٦٦

الناشر : الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٢

٢ ــ المجلد الثانى : ويضم المجموعات :

ــ الوهم والحقيقة سنة ١٩٧٤

ــ مهمة غير عادية سنة ١٩٨٠

ــ الزعيـــم سنة ١٩٨١

ــ الجميع يريدون الجائزة سنة ١٩٨٤

الناشر : الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٣

٣ ـ الأعمال الكاملة فى الرواية

المجلد الثالث ويضم الروايات :

ـ العودة الى المنفى

ـ ضـد مجهول

الناشر : الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٧

٤ ـ الأعمال الكاملة فى النقد الأدبى

المجلد الرابع ويضم المقالات

ـ قراءة فى الرواية العربية

ـ قراءة فى القصة القصيرة العربية

الناشر : الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٧

الفهـــرس

صفحة

رقم الايداع ١٩٩٧/٥٩٣٧
الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 — 01 — 5212 — 9

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
فرع الصحافة

من أنت يا نديم؟ ماذا كنت وما الذى تريده؟ تلميذ فاشل، ومعلم خيبة، وكاتب وصحفى، وخطيب وفلاح، وتاجر خسر تجارته، ومؤلف روايات وممثل ومضحك للأغنياء والفقراء، زجّال وداعية ومهيج للجماهير ومسكنها، وحاكم بكل ما يورث الجنون، وعاشق للناس، أجل عاشق للناس تلك هى المسأله، عاشق مجنون وليس يرضى بأقل من كل الناس فى كل الوقت؟!.

من رواية (العودة إلى المنفى)

- لا أسلم نفسى لمن يسلبنى حريتى، ولو أعطانى كل شىء هذه هى المسألة!

- لا أفهم معنى أن تتصور الحرية فى جانب وكل شىء فى جانب آخر؟! الحرية ليست مجرد كلمة، الحرية قدرة، وأنت حر بمدى ما تملك من قدرة.

- حين أبدأ ومعى الحرية - ولو لم أكن مالكا لشىء - سأصل حتما لشىء أو أشياء، لكن حين أفقد حريتى فسأصل حتما إلى فقدان كل شىء بما فى ذلك الحرية التى فرضت فيها أصلا تلك هى تجربة الأمم.

حوار من رواية (ضد مجهول)

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

٩٥٠ قرشا